

# الوسطية

في القرآن الكريم

تأليف

د. علاء محمد محمد الطلابي

(المصري)

مكتبة التابعين

القاهرة - عين شمس

ت. ٤٩٨١٤٤ - فاكس، ٤٩٢٢٣٥

مكتبة الصحابة

الإمارات - الشارقة

ت. ٥٥١٥٥٧٥ - فاكس، ٥٧٤٥٤٤



جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

### مكتبة الصحابة

الإمارات - الشارقة  
ت: ٥٥١٥٥٧٥ - فاكس: ٥٣٧٤٥٤٤

### مكتبة التابعين

القاهرة - عين شمس  
ت: ٤٩٣٨١٤٤ - فاكس: ٤٩٣٤٣٢٥



## هذا الكتاب

هذا الكتاب في الأصل رسالة علمية نال بها صاحبها درجة الماجستير بجامعة أم درمان الإسلامية في السودان ولقد أشرف عليها فضيلة الدكتور: مبارك محمد أحمد رحمة ولقد نالت الرسالة إعجاب لجنة المناقشة المكونة من:

١ - د . الزبير الحاج أبو علامة .

٢ - د . أحمد بدوي .

وأوصت اللجنة بالطباعة بعد إصلاح الأخطاء الإملائية وذكروا بأن الجهد الذي بذل في هذه الرسالة يعادل مجهود رسالة دكتوراه .



## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢] .  
 ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١] .  
 ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧١، ٧٠] .

أما بعد:

فإن من نعمة الله على هذه الأمة وتشريفه لها أن جعلها أمة وسطاً خياراً عدولاً فقال: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (تبقرة: ١١٢) .

فهي خير الأمم التي أخرجت للناس وقد وصفها المولى عز وجل وشهد لها بذلك فقال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] .

ثم اصطفى الله سبحانه وتعالى لها رسولاً من خيارها وأوسطها نسباً ومكانة فيعته فيها نبياً رسولاً ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٢٨] .

وأنزل عليها أشرف كتبه وجعله مهيمناً على الكتب قبله شاملاً لخير ما جاءت به ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [الأنعام: ١٤٨] .

بهذا الرسول الكريم، وهذا القرآن العظيم، شرفت هذه الأمة وبتابعتهما والاهتداء بهديهما، كانت خير الأمم وأوسطها وأعدلها .

ثم كان أسعد هذه الأمة باتباعهما وأحرصهم على هديهما قولاً وعملاً واعتقاداً أصحاب رسول الله ﷺ ثم تابعوهم، ثم التابعون لهم بإحسان من القرون الثلاثة المفضلة التي شهد لها النبي ﷺ بالخيرية في قوله:

«خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» .

فهؤلاء هم خيار الأمة ثم يلحق بهم كل من كان على مثل ما كانوا عليه من الهدى والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ في كل زمان ومكان فهؤلاء جميعاً خيار هذه الأمة وأوسطها وأعدلها .

فإنه بعد انتقال رسول الله ﷺ إلى جوار ربه، ومضي عصر الخلافة الراشدة بدأ في آخر عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضته ظهور التفرق والاختلاف، فخرجت الخوارج ببدعها، وظهرت الشيعة بغلوها وقتها، ثم توالى ظهور البدع وتكونت الفرق، وتوارثت الأجيال كثيراً من الانحرافات العقيدية والسلوكية وغيرها، وابتعدت عن منهج الاعتدال والتوسط الذي رسمه القرآن الكريم وممارسه في الحياة سيد المرسلين فإن المتدبر في الواقع الذي تعيشه الأمة اليوم يرى فرقا شاسعا في أهدافها واختلافاً في منطلقاتها وغاياتها وفي مشاربها .

يرى الإفراط والتفريط والغلو والجفاء والإسراف والتفتير في عموم الأمة، فإذا انتقلنا إلى حال الدعوة والمصلحين الذين أفض مضاجعهم هذا الواقع المؤلم لامتهم، فشرعوا في البحث عن طرق العلاج ومعرفة أسباب النجاة، والتمسك بها، لإخراج البشرية من الظلمات إلى النور، ومن الضلالة إلى الهدى، نجد تأثير واقع الأمة على وضعهم، فمنهم المشرق، ومنهم المغرب، ترى المفرط والمفرط، ترى بين هؤلاء الدعوة والمصلحين من غلا وأفرط في الغلو، وعادت أفكار الخوارج القديمة، وهناك من فرط وجفاء، وأضاع معالم الدين وأصول العقيدة، حرصاً على جمع الناس دون

تركبتهم وتعليمهم الكتاب والسنة فانتشر الإرجاء وضاعت معالم التوحيد وحقيقة العبادة .

وبين هؤلاء وأولئك وقفت فئة تقتفي الأثر، وتصحح المنهج وتقود الناس إلى الصراط المستقيم على منهج أهل السنة والجماعة وسلف الأمة، ينفون عن هذا الدين غلو الغالين وانتحال المبطلين وتفريط الكسالي والمرجئيين ودعوى المرجفين الزائغين، ووسط هذا الواقع المؤلم والاضطراب المهلك تشتد الحاجة إلى إرشاد الأمة إلى الصراط المستقيم والمنهج الوسط القويم، لإنقاذها من كبوتها وإيقاظها من رقدتها، وتذكير الدعاة والمصلحين بالمنهج الحق والطريق البين الواضح :

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾

الأنعام: ١٥٣

ولقد تأملت طويلاً عند قضية الغلو والجفاء، والإفراط والتفريط ؛ وأيقنت أن الأمة بأمس الحاجة إلى منهج الوسيطة منقاداً لها من هذا الانحراف الذي جلب عليها الرزايا والمصائب والنكبات .

وجددت أن القرآن الكريم، قد رسم لنا هذا المنهج في جميع جوانبه أصولاً وفروعاً وعقيدة وعبادة وخلقاً وسلوكاً وتصوراً وعملاً .

ولقد جاء منهج الوسيطة من خلال القرآن الكريم في أساليب عدة تصريحاً وإيماء، مفصلاً، مجملاً، خبراً وإنشاءً وأمرًا ونهيًا .

واقناعاً مني بأهمية هذا الموضوع ومسيب الحاجة إليه فقد رأيت أن أقدم بحث الماجستير في موضوع يتعلق بالوسيطة من خلال البحث في آيات القرآن الكريم متأملاً لآيات الذكر الحكيم .

متفكيراً في دلالاته محاولاً أن أستوعب ما كتبه المفكرون حول تقرير القرآن لمنهج الوسيطة وسميته (الوسيطة في القرآن) وقد شجعني على ذلك مشايخي وأساتذتي

حفظهم الله للخصوص في هذا الموضوع وأخص بالذكر الدكتور مبارك رحمة - حفظه الله - الذي شجعني ورغبني في هذا الاختيار فجزاه الله خيراً .

محمد محمد الصلابي





# الجزء الأول

ملاحح

الوسطية

في القرآن الكريم



## الجزء الأول

### ملاحح الوسطية في القرآن الكريم

**الباب الأول ، في تعريف الوسطية في اللغة والاصطلاح وأسما .**  
ويشتمل على فصلين :

**الفصل الأول:** في تعريف الوسطية في اللغة والاصطلاح .  
ويشتمل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: معنى الوسطية في اللغة .

المبحث الثاني: في استعمال الشارع .

المبحث الثالث: تحرير معنى الوسطية .

**الفصل الثاني:** في أسس الوسطية

ويشتمل على أربعة مباحث :

المبحث الأول: الغلو والإفراط .

المبحث الثاني: التفريط والجفاء .

المبحث الثالث: الصراط المستقيم .

المبحث الرابع: الصلة بين الوسطية والصراط المستقيم .

**الباب الثاني ، في ملاحح الوسطية .**

ويشتمل على ستة فصول :

**الفصل الأول:** في الخيرية

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول: أقوال المفسرين في آية الخيرية .

المبحث الثاني: أبرز أوجه خيرية هذه الأمة .

**الفصل الثاني:** في العدل

ويشتمل على أربعة مباحث :

المبحث الأول: أقوال المفسرين في «أمة وسطاء»

المبحث الثاني: وجوب العدل على هذه الأمة .

المبحث الثالث: اعتراف أعداء هذه الأمة بعدالتها .

- المبحث الرابع: العدل عند أهل الكتاب .
- الفصل الثالث: في اليسر ورفع الخرج  
ويشتمل على ثلاثة مباحث:
- المبحث الأول: تعريف اليسر والوسع في اللغة والاصطلاح .
- المبحث الثاني: رفع الخرج .
- المبحث الثالث: أدلة التيسير ورفع الخرج .
- الفصل الرابع: في الحكمة  
ويشتمل على أربعة مباحث:
- المبحث الأول: الحكمة في اللغة والاصطلاح .
- المبحث الثاني: العلاقة بين التعريف اللغوي والشرعي .
- المبحث الثالث: أنواع الحكمة .
- المبحث الرابع: أركان الحكمة .
- الفصل الخامس: في الاستقامة  
ويشتمل على ثلاثة مباحث:
- المبحث الأول: أدلة القرآن .
- المبحث الثاني: أدلة السنة .
- المبحث الثالث: أقوال العلماء في الاستقامة .
- الفصل السادس: في اليقظة  
ويشتمل على مبحثين:
- المبحث الأول: أقوال العلماء في اليقظة .
- المبحث الثاني: دليل تطبيقي للامح الوسطية .
- الخاتمة: وفيها عرض موجز لما وصلت إليه من نتائج مهمة في هذا البحث، ثم عملت فهرساً للموضوعات .
- وأسأل الله عز وجل أن يجعل هذا العمل المتواضع خالصاً لوجهه الكريم، وأن يغفر لي أي خطأ أو زلل وقعت فيه، إنه سميع قريب .

## الباب الأول

### الوسطية في اللغة والاصطلاح وأسسها

#### الفصل الأول: الوسطية في اللغة والاصطلاح

#### المبحث الأول

#### معنى الوسطية في اللغة

مادة (وسط):

ندل على معانٍ متقاربة كما يقول ابن فارس<sup>(١)</sup>: (الواو والسين والطاء بناء صحيح يدل على: العدل، والنصف وأعدل الشيء أوسطه ووسطه . . .) .<sup>(٢)</sup>

ف (كلمة: وسط) تضبط على وجهين:

الأول: (وسط) يسكون السين، فتكون ظرفاً بمعنى (بين) قال في لسان العرب<sup>(٣)</sup>: (وأما الوسط يسكون السين فهو ظرف لا اسم، جاء على وزن نظيره في المعنى وهو (بين) نقول: جلست وسط القوم أي بينهم . . .) .

ومنه قول سوار بن المضرب:

إني كأني أرى من لا حياة له ولا أمانة، وسط الناس عرياناً<sup>(٤)</sup>

الثاني: (وسط) بفتح السين .

وتأتي لمعان متعددة متقاربة، فتكون:

(١) هو العلامة اللغوي المحدث أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب القزويني المعروف بالمرزوقي المالكي ولد بقزوين وأقام بالري ودفن بها عام خمس وتسعين وثلاث مائة . انظر: سير أعلام النبلاء (١٧ / ١٠٣) .

(٢) معجم مقاييس اللغة: كتاب الواو، باب (الواو والسين): (٦ / ١٠٨) .

(٣) صاحب لسان العرب: هو محمد بن مكرم بن علي بن أحمد الأنصاري الإفريقي ثم المصري جمال الدين أبو الفضل كان ينسب إلى ربيعة بن ثابت الأنصاري ولد سنة ٦٣٠ هـ وتوفي ٧١١ هـ . انظر ترجمته في مقدمة لسان العرب .

(٤) لسان العرب ، فصل الواو، باب وسط، (٧ / ٤٢٧) .

١ - اسماً لما بين طرفي الشيء وهو منه فنقول: قبضت وسط الخيل، وكسرت وسط القوس، وجلست وسط المدار<sup>(١)</sup>.

٢ - تأتي صفة بمعنى (خيار) وأفضل، وأجود، فأوسط الشيء أفضله وخياره كوسط المرعى . خير من طرفيه، ومرعى وسط أي: خيار منه:

إن لها فوارساً وفرطاً ونضرة الحي ومرعى وسطاً<sup>(٢)</sup>

رواسطة القلادة: الجهر الذي وسطها وهو أجودها<sup>(٣)</sup> ورجل وسط ووسيط: حسن<sup>(٤)</sup>.

٣ - وتأتي وسط: بمعنى: (عدل) كما تقدم قول ابن فارس: إنه يدل على العدل . . . وأن عدل الشيء أوسطه .

وفي لسان العرب: (ووسط الشيء وأوسطه أعدله)<sup>(٥)</sup>.

وفي القاموس<sup>(٦)</sup>: (الوسط: محرّكة من كل شيء أعدله)<sup>(٧)</sup> وكذلك قال الجوهري<sup>(٨)</sup> في الصحاح<sup>(٩)</sup>.

٤ - وتأتي وسط: بمعنى: الشيء بين الجيد والرديء . قال الجوهري: (ويقال أيضاً شيء وسط: أي بين الجيد والرديء)<sup>(١٠)</sup>.

(١) نفس المصدر (٧ / ٤٢٧).

(٢) نفس المصدر: (٧ / ٤٢٧ - ٤٣٠).

(٣) انظر الصحاح: (٣ / ١١٦٧).

(٤) انظر: لسان العرب، فصل الثوار، باب (وسط): (٧ / ٤٣٠).

(٥) نفس المصدر السابق: (٧ / ٤٣٠).

(٦) صاحب القاموس هو الإمام الشهير أبو الطاهر محمد بن يعقوب بن إبراهيم أو ابن يعقوب بن إبراهيم الشيرازي يرجع نسب إيسى أبي بكر الصديق وولد بفارس عام ٧٢٩هـ . وتوفي بالبصرة عام ٨١٧هـ، انظر: مقدسة القاموس المحيط.

(٧) القاموس المحيط باب الطاء، فصل الثوار: (٨٩٣).

(٨) هو إسحاق بن حماد الجوهري الفارسي إمام العربية كان من أعاجيب الزمان ذكاه وفضة وعلماً له مصنوعات أشهرها كتاب الصحاح في اللغة وأشرته في آخر حياته وسوسة فصعد إلى سطح جامع نيسابور وعمل لنفسه جناحين وحاول أنطيران فسقط ميتاً . وقد كانت وفاته سنة (٩٨٨هـ) . انظر: يانوت معجم الأدباء (٦ / ٦٥١).

(٩) انظر الصحاح: (٣ / ١١٦٧).

(١٠) نفس المصدر: (٣ / ١١٦٧).

وقال صاحب المصباح المنير: (الوسط بالتحرريك . المعتدل يقال شيء وَسَطٌ أي: بين الجيد والردى... )<sup>(١)</sup>

وكيفما تصرفت هذه اللفظة، تجدها لا تخرج في معناها عن معاني العدل والفضل والخيرية، والنصف والبيئية والمتوسط بين الطرفين فتقول:

(وَسُوطًا) بمعنى: المتوسط المعتدل ومنه قول الأعرابي: (علمني دينًا وَسُوطًا لا ذاهبًا قُرُوطًا ولا ساقطًا سَقُوطًا، فإن الوَسُوطَ ههنا المتوسط بين الغالي والثاني)<sup>(٢)</sup>.

(ورسيطًا): أي حسيبًا شريفًا، قال الجوهري: وفلان وسيط في قومه إذا كان أوسطهم نسبًا وأرفعهم محلاً قال العرّاجي:

كأني لم أكنُ فيهم وسيطًا      ولم تكُ نسبي في آلِ عَمْرٍو<sup>(٣)</sup>

و (الوسط) أي المتوسط بين المتخاصمين .<sup>(٤)</sup>

و (التوسط): بين الناس من الوساطة .<sup>(٥)</sup>

و (التوسيط): أي تجعل الشيء في الوسط .<sup>(٦)</sup>

و (التوسيط): قطع الشيء نصفين .

و (وسوط الشمس): توسطها السماء .<sup>(٧)</sup>

و (واسطة القلادة): الجواهر الذي هو في وسطها وهو أجودها .<sup>(٨)</sup>

(١) نظر: المصباح المنير: (٢٥٢) .

(٢) نظر: لسان العرب: فصل النوار، باب (وسط) : (٤٣٠ / ٧) .

(٣) نظر الصحاح: (١١٦٧ / ٣) .

(٤) القاموس المحيط باب العاء، فصل النوار: (٨٩٤) .

(٥) نظر الصحاح: (١١٦٧ / ٣) .

(٦) نظر الصحاح: (١١٦٧ / ٣) .

(٧) لسان العرب فصل النوار، باب وسط: (٤٢٩ / ٧) .

(٨) نظر الصحاح: (١١٦٧ / ٣) .

وقال فريد عبد القادر<sup>(١)</sup>: استقر عند العرب أنهم إذا أطلقوا كلمة (وسط) أرادوا معاني الخير، والعدل، والجودة، والرفعة، والمكانة العلية .  
والعرب تصف فاضل النسب بأنه وسط في قومه، وفلان من واسطة قومه، أي: من أعيانهم، وهو من أوسط قومه، أي: من خيارهم وأشرافهم<sup>(٢)</sup>.  
ومن خلال ما سبق اتضح لنا المعنى اللغوي لكلمة (وسط) وما تصرف منها، وأنها تؤول إلى معانٍ متقاربة، والله الأحمَد .



(١) طالب علم في جامعة الإمام محمد بن سعود تقدم ببحث في الوسطية في الإسلام ونال به درجة الماجستير .  
(٢) الوسطية في الإسلام، (١٠) .



## المبحث الثاني

## الوسطية في استعمال الشارع

وردت مادة (وسط) في القرآن الكريم في عدة مواضع، وذلك بتصاريفها المتعددة، حيث وردت بلفظ: (وسطاً) و(الواسطي) و(أوسط) و(أوسطهم) و(وسطن).

وستبين معنى كل كلمة على وفق ورودها في القرآن الكريم مسترشدين بأقوال المفسرين ببعض أحاديث النبي ﷺ في توضيح معاني تصاريف كلمة الوسط.

## أولاً: كلمة وسطاً:

وردت في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة: ١٤٣) وقد ورد تفسير هذه الكلمة في السنة النبوية، كما ذكر لها المفسرون عدة معانٍ وتفصيل ذلك كما يلي:

١ - وقد ورد تفسير هذه الكلمة عن أبي سعيد الخدري <sup>(١)</sup> رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُدعى نوح يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلغتكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمنه فيشهدون أنه قد بلغ، ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ <sup>(٢)</sup> فذلك قوله - جل ذكره -: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ والوسط: العدل.

وروى الطبري <sup>(٣)</sup> بإسناده عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: عدولاً <sup>(٤)</sup>.

(١) هو سعد بن مالك بن سنان، يتصل نسبه بخلوة بن عوف بن الخارث بن الخزرج استشهد أبوه مالك بن سنان في وقعة أحد، أبو سعيد الخدري هو صاحب الكثيرين من الرواية عن رسول الله ﷺ، ونقل توفي الزاهد العابد، والمعلم العامل عام ٧٤هـ، انظر: تهذيب التهذيب: ٣ / ٤٧٩، وحلية الأولياء: (١ / ٣٦٩)، وصفة الصوة: (١ / ٢٩٩).

(٢) صحيح البخاري كتاب التفسير، باب (وكذلك جعلناكم...)، (٥ / ١٧٦)، رقم (٤٤٨٧).

(٣) هو الإمام المؤرخ، المفسر الفقيه الحافظ محمد بن جرير بن يزيد الطبري، ولد في أمل غيرستان واستوطن بغداد حتى توفي بها عام (٣١٠هـ). سير أعلام النبلاء: (١٤ / ٢٦٧)، وفيات الأعيان: (٤ / ١٩١).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (٢ / ٧).

وقد ساق الطبري عدداً من الروايات في هذا المعنى: ثم ذكر تفسير هذه الآية منسوبة إلى بعض الصحابة والتابعين، كأبي سعيد، ومجاهد<sup>(١)</sup> وغيرهما، حيث فسروها بـ (عدولا). (٢)

٢ - قال الإمام الطبري:

وأما الوسط فإنه في كلام العرب: الخيار، يقال منه: فلان وسط الحسب في قومه، أي متوسط الحسب، إذا أرادوا بذلك الرفعة في حبه .

وهو وسط في قومه وواسط، قال زهير بن أبي سلمى<sup>(٣)</sup> في الوسط:

هم وسط يرضى الأنام بحكمهم  
إذا نزلت إحدى الليالي بمعظم

قال: وأنا أرى أن الوسط في هذا الموضوع هو الوسط الذي بمعنى الجزء، الذي هو بين الطرفين، مثل وسط الدار، وأرى أن الله - تعالى ذكره - إنما وصفهم بأنهم وسط لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلو فيه، كغلو النصارى الذين غلوا بالترهب، وقولهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه، تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله، وقتلوا أنبياءهم، وكذبوا على ربهم وكفروا به، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها .

وأما التأويل فإنه جاء بأن الوسط العدل - كما سبق - وذلك معنى الخيار؛ لأن الخيار من الناس عدولهم . (٤)

(١) هو الإمام الحافظ مجاهد بن جبر المكي أبو الحجاج، لازم ابن عباس كثير، وأخذ عنه التصير، واجمعت الأمة على إمامته والاحتجاج به. ومن أقواله: (الغفبه من يخاف الله، وإن قل علمه، والجاهل من عصى الله وإن كثرت علمه) توفي سنة اثنين أو ثلاثة ومائة من الهجرة رحمة الله. انظر ترجمته في تذكرة الحفاظ: (١ / ٩٢ - ٩٣).

(٢) انظر: تفسير الطبري: (٢ / ٧).

(٣) هو زهير بن سبعة بن رباح بن قرعة بن الحارث بن مالان القرني من شعر الجاهلية. وهو أحد الثلاثة المقدمين على سائر الشعراء باتفاق، وهم امرؤ القيس، وزهير، والشاذبية الديلمي. وهو من أصحاب التعليقات السبعة. انظر: ترجمته في شرح المعاني السبع لثقفاني أحمد الزوزني (١٤٧).

(٤) انظر: تفسير الطبري: (٢ / ٦).

٣ - قال محمد رشيد رضا<sup>(١)</sup> في تفسيره: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (بئرة: ١٤٣) هو تصريح بما فهم من قوله: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ (بئرة: ٢١٣)

أي على هذا النحو من الهداية جعلناكم أمة وسطا .

قالوا: إن الوسط هو العدل والخيار، وذلك إن الزيادة على المطلوب في الأمر إفراط، والنقص عنه تقصير وتفريط، وكل من الإفراط والتفريط ميل عن الجادة القويمة، فهو شر ومذموم، فالخيار هو الوسط بين طرفي الأمر، أي المتوسط بينهما.

٤ - وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي<sup>(٢)</sup> - رحمه الله - في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي: عدلاً خياراً. وما عدا الوسط فأطراف داخلية تحت الخطر، فجعل الله هذه الأمة وسطاً في كل أمور الدين، وسطاً في الأنبياء بين من غلا فيهم كالتنصاري، وبين من جفا عنهم كاليهود، بأن آمنوا بهم كلهم على الوجه اللائق بذلك .

ووسطاً في الشريعة، لا تشديدات اليهود وآصارهم، ولا تهاون التنصاري . وفي باب الطهارة والمطاعم، لا كاليهود الذين لا نصح لهم صلاة إلا في بيعهم وكنائسهم، ولا يظهرهم الماء من النجاسات، وقد حرمت عليهم طيبات عقوبة لهم .

ولا كالتنصاري الذين لا ينجسون شيئاً ولا يحرمون شيئاً بل أباحوا ما دبت<sup>٣</sup> ودرج، بل طهارتهم - أي هذه الأمة - أكمل طهارة وأتمها، وأباح لهم الطيبات من المضاعم، والمشارب، والملابس، والمتاح، وحرم عليهم الحيات من ذلك .

فهذه الأمة من الذين أكمله، ومن الأخلاق أجلها، ومن الأعمال أفضلها

(١) هو محمد رشيد بن عني رضا بن محمد شمس الدين بن ملا علي القلموني البغدادي الأصل، الحسيني النسب، صاحب مجلة (النار) وداعية التجديد والإصلاح وله تفسير اسمه: تفسير القرآن الحكيم، ومشهور باسم (تفسير اشارة) وهو خير كسامل انتهى مؤلفه إلى الآية (١٠١) من سورة يوسف وله سنة ١٢٨٢ هـ توفي ١٣٥٣ هـ (انظر ترجمته في القول المختصر الخين في مناهج التفسيرين ل محمد النجدي: ٥٩)، وانظر: الأعلام للزركلي (٦ / ١٢٦) .

(٢) هو الشيخ عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله آل سعدي النعيمي الحنبلي ولد رحمه الله بعنيزة بانفسج السودية سنة ١٣٠٧ هـ وكان عالماً محققاً نبغ في علوم عديدة منها المفسدة، والتفسير والفق، توفي رحمه الله سنة ١٣٦٧ هـ، انظر ترجمته في مشاعير علماء نجد: (٣٢٢) .

ورهبهم من العلم الخلم والعدل والإحسان ما لم يهبه لامة سواهم، فلذلك كانوا ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ كاملين معتدلين ليكونوا ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ بسبب عدالتهم وحكمهم بالقيسط، يحكمون على الناس من سائر الأديان، ولا يحكم عليهم غيرهم .<sup>(١)</sup>

٥ - ويقول سيد قطب<sup>(٢)</sup> رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: (وإنها لامة الوسط بكل معاني الوسط، سواء من الوساطة بمعنى الحسن والفضل، أو من الوسط بمعنى الاعتدال والقيصد، أو الوسط بمعناه المادي والحسي . أمة وسطاً في التصور والاعتقاد، أمة وسطاً في التفكير والشعور، أمة وسطاً في التنظيم والتنسيق، أمة وسطاً في الارتباطات والعلاقات، أمة وسطاً في الزمان، أمة وسطاً في المكان<sup>(٣)</sup> .

هذه أهم أقوال المفسرين في تفسير هذه الآية، ومن خلال هذا التفسير تبينت معان لها أهميتها عند الحديث عن منهج القرآن في تقرير الوسطية في مباحث قادمة .  
ثانياً: كلمة (الوسطى):

وقد وردت هذه الكلمة في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوَسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (البقرة: ٢٣٨) .

ومن أقوال المفسرين في هذه الآية نجد أن لها علاقة بمعنى الوسط حيث سبب تسميتها بذلك، هل لأنها متوسطة بين الصلوات أو لأنها أفضل الصلوات، أو لكليهما معاً؟ دون الوقوف عند أي الصلوات هي، وما سيرد في هذه المسألة فهو لإيضاح المعنى فقط .

(١) انظر تفسير السعدي (١ / ١٥٧) .

(٢) هو سيد قطب إبراهيم حسين شاذلي، ولد في قرية موشة، إحدى قرى محافظة أسيوط في صعيد مصر، وكانت ولادته عام ١٩٠٦م تخرج في دار العلوم من القاهرة عام ١٩٣٣م، وفي بداية شبابه كانت اهتماماته أدبية نقية، ونظراته فلسفية عميقة وله مقالات انتقادية حادة، وكان للعباد أدبياً لتتعاقد، درس القرآن دراسة أدبية وخرج بكتابه (التصوير الفني في القرآن) وانتظم للإخوان المسلمين بمصر بعد وفاة مؤسسها، وأخذته جمال عبد الناصر في مساء يوم الأحد ٢٨ / ٨ / ١٩٦٦م لكونه من أتباعه لتحكيم شرع الله وترك خلفه مؤلفات ومن أشهرها ظلال القرآن، انظر ترجمته (سيد قطب الشهيد الحسي لصلاح الخالدي: ٥٦، مجلة المسلمون عدد ١١ تاريخ ١٣ ربيع الأول ١٤٠٢هـ، وموافق ١٨ / ١ / ١٩٨٢م ص ١٢) .

(٣) انظر في ظلال القرآن (١ / ١٣١) .

١ - ذكر الإمام الطبري أقوال العلماء في الصلاة الوسطى، وأطال في ذكر أدلة من قال: إن الصلاة الوسطى هي العصر، ثم قال بعد أن رجح أن الصلاة الوسطى هي العصر: وإنما قيل لها الوسطى: لئوسطها الصلوات المكتوبات الخمس، وذلك أن قبلها صلاتين وبعدها صلاتين، وهي بين ذلك وسطاهن والوسطى: الفعلى من قول القائل: وسطت القوم أوسطهم (وسطة) ووسطاً، إذا دخلت وسطهم، ويقال للذكر فيه: هو أوسطنا، ولثلاثي: هي وسطانا .<sup>(١)</sup>

وعندما ذكر من قال: إن الوسطى هي صلاة المغرب، عقب الطبري على هذا القول وقال: إن أصحابه وجهوا قوله: (الوسطى) إلى معنى التوسط، الذي يكون صفة للشيء يكون عدلاً بين الأمرين، كالرجل المعتدل القامة، الذي لا يكون مفرطاً طوله، ولا قصيرة قامته، ولذلك قال: ألا ترى أنها ليست بأقلها ولا أكثرها . والذين ذهبوا إلى أن الصلاة الوسطى هي المغرب، قالوا: ألا ترى أنها ليست بأقلها ولا أكثرها، ولا تقصر في السفر وأن رسول الله ﷺ، لم يؤخرها عن وقتها ولم يعجلها<sup>(٢)</sup>

٢ - وجه ابن الجوزي<sup>(٣)</sup> أقوال العلماء في المراد بالصلاة الوسطى قائلاً: وفي المراد بالوسطى ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها أوسط الصلوات محلاً .

والثاني: أوسطها مقداراً .

والثالث: أفضلها .

ووسط الشيء، خيره وأعدله، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾

(البقرة: ١٤٣)

(١) انظر: تفسير الطبري: (٢ / ٥٦٧) .

(٢) نفس المصدر: (٢ / ٥٦٤) .

(٣) هو العلامة أبو الفرج عبد الرحمن بن عبيد الجوزي القرشي البغدادي الحنفي صاحب المصنفات الكبار، التي تبلغ نحو ثلاث مائة مصنف في الحديث والنوع والتفسير والتاريخ وغيرها، توفي رحمه الله سنة ٥٩٧هـ (انظر: البداية والنهاية ١٣ / ٢٨-٣٠، ومقدمة كتابه الموضوعات ١ / ٢١) .

فإن قلنا إن الوسطى بمعنى الفضلى، جاز أن يدعى هذا كل ذي مذهب فيها، وإن قلنا: إنها أوسطها مقداراً، فهي المغرب، لأن أقل المفروضات ركعتان، وأكثرها أربعاً. وإن قلنا: إنها أوسطها محلاً، فلنقاتلين: إنها العصر أن يقولوا: قبلها صلاتان في النهار، وبعدها صلاتان في الليل، فهي الوسطى.

ومن قال هي الفجر، قال عكرمة<sup>(١)</sup>: هي وسط بين الليل والنهار، ومن قال هي الظهر، قال: هي وسط النهار فأما من قال: هي المغرب، فاحتج بأن أول صلاة فرضت الظهر، فصارت المغرب وسطى ومن قال: هي العشاء، فإنه قال: هي بين صلاتين لا تقصران<sup>(٢)</sup> ومن خلال ما ذكرنا يتأكد ارتباط كل قول بمعنى الوسط في ضوء المعاني التي سبق بيانها.

٣ - وقال القاسمي<sup>(٣)</sup> في تفسيره: (الصلاة الوسطى: أي الوسطى بين الصلوات، بمعنى المتوسطة، أو الفضلى منها، من قولهم للأفضل: الأوسط).

فعلى الأولى يكون الأمر لصلاة متوسطة بين صلاتين، وهل هي: الصبح، أو الظهر، أو العصر، أو المغرب، أو العشاء، أقوال ماثورة عن الصحابة والتابعين.

وعلى الثاني: فهي صلاة الفطر أو الأضحى أو الجماعة أو صلاة الخوف أو الجمعة أو المتوسطة بين الطول والقصر، أقوال أيضاً عن كثير من الأعلام.

ثم قال: سنح لي - عرض لي - وقوي بعد تمن احتمال قوله تعالى: ﴿وَالصَّلَاةَ الْوَسْطَى﴾ بعد قوله: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ لأن يكون إرشاداً وأمرًا بالمحافظة على أداء الصلاة أداء متوسطاً، لا طويلاً، ولا مملأً، ولا قصيراً مخللاً.

(١) هو الإمام الشافعي مولى ابن عباس عكرمة بن عبد الله أبو عبد الله النهري ثم المدني، أحد الأعلام، المفسر الكبير، كان كثير الشغل في الأقاليم، وكانت الأسماء تكرمه وتصله توفي سنة ١٠٧هـ، وقيل: ١٠٦هـ، انظر: ترجمته في المعبر (١ / ١٠)، والبداية والنهاية: (٩ / ٢٤٤ - ٢٥٠).

(٢) انظر: زاد المسير لابن نجوي (١ / ٢٨٣).

(٣) هو محمد جمال الدين أبو الفرج بن محمد سعيد بن قاسم بن صالح بن إسحاق بن أبي بكر، المعروف بالقاسمي، الفقيه الأصولي المفسر المحدث، لأدب الشافعي، من أعلام الشام وتُد عام ثلاث وثمانين ومائتين وأربع، وتوفي في سنة ١٣٢٢هـ، انظر ترجمته في مقدمة كتاب قواعد التحديث: (١٦).

أي: والصلاة المتوسطة بين الطول والقصر، ويؤيده الأحاديث المروية عنه عليه السلام في ذلك قولاً وفعلاً .

ثم مرّ بي في القاموس حكاية هذا قولاً، حيث ساق في مادة (وسط) الأقوال في الآية، ومنها قوله: أو المتوسطة بين الطول والقصر، قال شارحه الزبيدي <sup>(١)</sup> وهذا القول رده أبو حيان <sup>(٢)</sup> في البحر المحيط . ثم سنع لي احتمال وجه آخر، وهو أن يكون قوله: «وَالصَّلَاةُ الْوَسْطَى» أريد بها وصف الصلاة المأمور بالمحافظة عليها بأنها فضلى، أي ذات فضل عظيم عند الله، فالوسطى بمعنى الفضلى من قوله لأفضل الأوسط <sup>(٣)</sup> .

٤ - أما محمد رشيد رضا رحمه الله فتال: (والصلاة الوسطى هي إحدى الخمس، والوسطى مؤنث الأوسط ويستعمل بمعنى التوسط بين شيئين أو أشياء لها طرفان متساويان، وبمعنى الأفضل، وبكل من المعنيين قال قائلون، ولذلك اختلفوا في أي الصلوات أفضل، وأيتها المتوسطة) <sup>(٤)</sup> .

٥ - وأما ابن عاشور <sup>(٥)</sup> رحمه الله قال: (فأما الذين تعلقوا بالاستدلال بوصف الوسطى فمنهم من حاول جعل الوصف من الوسط بمعنى الخيار والفضل، فرجع إلى تتبع ما ورد في تفضيل بعض الصلوات على بعض، ومنهم من حاول جعل الوصف من الوسط، وهو الواقع بين جانبين متساويين من العدد، فذهب بتطلب الصلاة التي هي بين صلاتين من كل جانب وبهذا التفسير لمعنى (الوسطى) من أقوال

(١) هو محمد بن محمد بن مرتضى، لغوي محدث كثير التصنيف من أجودها: تاج العروس شرح القاموس، توفي سنة ١٢٠٥هـ، انظر: الأعلام (٨ / ٧٠) .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي القرطبي لغوي ومفسر له في التفسير (البحر المحيط) ولد سنة ٦٥٤هـ، مات ٧٤٥هـ، انظر ترجمته في نقول المختصر المين في مناهج القسرين: (٢٧) .

(٣) انظر: تفسير القاسمي: (٣ / ٦٢٢-٦٢٦) .

(٤) انظر: تفسير المنار (٢ / ٤٢٧) .

(٥) هو محمد الطاهر بن عاشور ولد بتونس سنة ١٨٧٩م، وكان من كبار علماء الزيتونة له مؤلفات كثيرة من أشهرها التحرير والتنوير في التفسير وله تلاميذ كثيرون من أشهرهم العلامة عبد الحميد بن باديس الجزائري، توفي ١٩٧٢م، انظر: (عبد الحميد بن باديس العالم تونسي والتزعم السياسي: ٣٢) .

المفسرين المتقدم نلاحظ: الارتباط بين هذه الكلمة وموضوع الوسطية الذي هو مدار هذا البحث، سواء أكانت بمعنى التوسط بين شيئين أم بمعنى الخيار الأفضل، وسيأتي مزيد بيان لهذه القضية إن شاء الله - بعد عرض جميع الآيات.

### ثالثاً: كلمة (أوسط):

وقد وردت هذه الكلمة في آيتين: الأولى في قوله تعالى: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ (البقرة: ٨٩) والثانية في سورة القلم في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ (القلم: ٢٨)

وقد ذكر المفسرون معنى كل كلمة في مواضعها، فمنهم من جعل معناهما واحداً، ومنهم من فرق بين مدلوليهما، واليك تفصيل ذلك .

### الأولى: آية سورة المائدة:

١ - قال الطبري: يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أعدله . قال عطاء<sup>(١)</sup> - رحمه الله - أوسطه: أعدله .

وقال بعضهم: معناه: من أوسط ما يطعم من أجناس الطعام الذي يقتانه أهل بلد المكفر أهليهم، ومن ذلك قول ابن عمر<sup>(٢)</sup> من أوسط ما يطعم أهله الخبز والتمر، والخبز والسمن، والخبز والزيت، ومن أفضل ما يطعمهم: الخبز واللحم.

وقال آخرون: من أوسط ما يطعم المكفر أهله، قال إن كان ممن يشبع أهله أشبع المساكين العشرة، وإن كان ممن لا يشبعهم لعجزه عن ذلك أطعم المساكين على قدر

(١) هو الفقيه الكبير والناهب الجليل عطاء بن أبي رباح، أسلم القرشي أبو محمد مولى قريش فقيه أهل الحجاز، من أفضل إمامه، ومن أحسن الناس صلاة، وادومهم ذكراً . روى عن ابن عباس، وعبد الله بن عمر، وكان ثقة كبير الحديث، توفي سنة ٦١٤هـ، انظر: العبر (١ / ١٠٨) سير أعلام النبلاء: (٥ / ٧٨)، تهذيب التهذيب (٧ / ١٩٩) .

(٢) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي القرشي ثاني أكثرين في الرواية عن رسول الله ﷺ وهو ابن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، وشقيق السيدة حفصة ثم المؤمنين وأحد العبادة الأربعة المشهورين بالإفتاء وكان الزمري لا يعدن برأيه أحدًا، توفي رحمه الله عام ٧٣هـ. انظر: الإصابة رقم (٤٨٢٥) .



ما يفعل من ذلك في عصره، وسره ثم عقب الطبري على ذلك بقوله: (وأولى الاقوال عندنا قول من قال: من أوسط ما تطعمون أهليكم في القلة والكثرة).<sup>(١)</sup>

٢ - وقال ابن الجوزي:

في قوله: ﴿مِن أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قولان:

أحدهما: من أوسطه في القدر، قاله عمر<sup>(٢)</sup>، وعلي<sup>(٣)</sup>.

الثاني: من أوسط أجناس الطعام، قاله ابن عمر، وعبيدة<sup>(٤)</sup> والحسن<sup>(٥)</sup>، وابن سيرين<sup>(٦)</sup> رحمهم الله جميعاً.

٣ - وقال القرطبي<sup>(٧)</sup> رحمه الله:

تقدم في سورة البقرة أن الوسط بمعنى الأعلى والخيار، وهو هنا بمنزلة بين المنزلتين، ونصفاً بين طرفين.

وعن ابن عباس<sup>(٨)</sup>، قال: كان الرجل يقوت أهله قوتاً فيه سعة، وكان الرجل

(١) انظر: تفسير الطبري (٧ / ١٦ - ٢٢).

(٢) هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب، كان إسلامه فتحاً، وهجرته نصراً، وإمارته رحمة. توفي سنة ٢٣هـ (انظر: الطبقات الكبرى ٣ / ٢٦٥).

(٣) هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي ابن عم النبي ﷺ (زوج ابنته فاطمة) ورويع الخلفاء الراشدين، توفي سنة ٤٠هـ (انظر: الاستيعاب على حاشية الأصحاب ٣ / ٦٧-٦٦).

(٤) هو عبيدة السلماني المرادي الكوفي الفقيه المتني، أسلم في حياة النبي ﷺ، ولفي عبداً وابن مسعود، فان فيه الشعبي: كان يوازي شريحاً في القضاء. (انظر: ترجمة في شذرات الذهب: ١ / ٧٨-٧٩).

(٥) هو الحسن بن أبي الحسن البصري نشأ بالمدينة، وحفظ القرآن، وسمع عثمان يخطب مراراً، ولازم الجهاد والعلم والعمل وكان من الشجعان الموصوفين، ومن أعيان المشهورين، توفي سنة ١١٠هـ عن ثمان وثمانين سنة. انظر ترجمته (تذكرة الحفاظ للذهبي: ١ / ٧١).

(٦) هو الإمام نرباني محمد بن سيرين مولى أس بن مالك رثه في خلافة عثمان بن عفان وسمع جمعاً من الصحابة، كان قبيهاً إماماً غزير العلم ثقة ثباتاً علامة في التعبير - أي تعبیر الروايا - رأساً في الورع، كانت وفاته بعد وفاة الحسن البصري بوقت يسير في سنة ١١٠هـ. انظر ترجمته في تذكرة الحفاظ، للذهبي (١ / ٧٧).

(٧) هو الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري القرطبي، فقه على مذهب مالك، واعتنى بتفسير القرآن الكريم، توفي رحمه الله بمصر في سنة ٦٧١هـ وله مصنفات منها الجامع لأحكام القرآن، والتذكار في أفضل الأذكار، والتذكرة. انظر ترجمته في الديباج المذهب لابن فرحون (٣١٧-٣١٨).

(٨) هو الصحابي الجليل عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ابن عم النبي ﷺ، حبر الأمة، وترجمان القرآن، رثه بشعب أبي طالب قبل الهجرة بثلاث سنوات، وقيل: بخمس، ويعد من علماء الصحابة ومفتيهم ﷺ أجمعين، توفي بالطائف سنة ٦٨ من الهجرة. الاستيعاب لابن عبد البر (٣ / ٩٣٣-٩٣٩).

يقوت أهله قوتاً فيه شدة، فنزلت: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ (البقرة: ٢٨٩) وهذا يدل على أن الوسط ما ذكرناه، وهو ما كان بين شيئين (١).

٤ - وقال الزمخشري - رحمه الله - (٢): ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ من أقصده، لأن منهم من يسرف في إطعام أهله، ومنهم من يكثر (٣).

٥ - وقال سيد قطب رحمه الله - في ظلال القرآن: (وأوسط شتمل من أحسن، أو من متوسط، فكلاهما من معاني اللفظ، وكان الجمع بينهما لا يخرج عن المقصد، لأن المتوسط هو الأحسن، فالوسط هو الأحسن في ميزان الإسلام (٤).

### الثانية: آية سورة القلم:

١ - قال الطبري - رحمه الله تعالى: (وقوله: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ (القلم: ٢٨) يعني أعدلهم وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. قال ابن عباس: أوسطهم: أعدلهم، وبمثل ذلك قال مجاهد، وسعيد بن المسيب (٥) رحمه الله تعالى. وقال قتادة - رحمه الله - (٦): (أي أعدلهم قسولاً، وكان أسرع القوم فزعمًا، وأحسنهم رجعة (٧).

٢ - وقال القرطبي: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أي: أمثلهم وأعدلهم وأعقلهم (٨).

(١) انظر: تفسير القرطبي: (٦ / ٢٧٦).

(٢) هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الخزازي الحنفي المعتزلي الملقب بحار الله، حجة في البلاغة، ومن أئمة اللغة له تفسير يسمى: الكشاف عن حقائق التنزيل وعبود الألفاظ في وجوه التأويل، ولد عام ٤٦٧هـ، وتوفي عام ٥٣٨هـ. انظر ترجمته في الميزان: ٤ / ٧٨، تذكرة الحفاظ: (٤ / ١٢٨٣).

(٣) انظر: انكشاف الزمخشري (١ / ٦٤٠).

(٤) انظر: في ظلال القرآن (٢ / ٩٧١).

(٥) هو إمام التابعين أبو محمد سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب الخزومي القرشي سيد التابعين وأعلمهم، كان من العبادة والزهد، لا يخاطب السلاطين ولا يداخلهم، وقصته مع آل مروان مشهورة، كان من أحفظ الناس لأحكام عصره وأفضيته، حتى سمي زاوية عصره، توفي في المدينة سنة ٩٤هـ. العبر: (٦ / ٨٦)، سير أعلام النبلاء: (١١٧ / ٤).

(٦) هو الخافظ القسري قسادة بن دعامة بن هكاية السدرسي حافظ عصره قدوة المفسرين والمحدثين كان من أوعية العلم، ومن يضرب به المثل في الحفظ، وروى عن أنس وابن المسيب والحسن، وابن سيرين وحلق، توفي سنة ١٢٨هـ. (سير أعلام النبلاء: ٥ / ٦٦٩، والعبر: ١ / ١١٢).

(٧) انظر: تفسير الطبري (٣٩ / ٣٤).

(٨) انظر: القرطبي (١٨ / ٢٤٤).

٣ - وقال ابن كثير <sup>(١)</sup>: «قَالَ أَوْسَطُهُمْ»، قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد ابن جبير <sup>(٢)</sup> وعكرمة وقتادة: أعدلهم وخيرهم <sup>(٣)</sup>.

٤ - وقال ابن الجوزي: «قَالَ أَوْسَطُهُمْ» أي أعدلهم وأفضلهم. <sup>(٤)</sup>

٥ - وقال القاسمي: (أي: أعدلهم وخيرهم رأياً). <sup>(٥)</sup>

كما سبق ذكره من أقوال المفسرين انضح أن كلمة (أوسط) في آية المائدة فسرت على عدة أوجه وبعدة معاني، منها: الأفضل، وبين القليل والكثير، وبين الجيد والرديء، أو الشدة والسعة، أما آية القلم فاتفق المفسرون على تفسيرها بمعنى الأفضل والخيار وهو الأعدل.

رابعاً: كلمة (فوسطن):

وردت في قوله تعالى: «فَوْسَطُنَ بِهِ جَمْعًا» (التعاذيب: ٥)

وقد ذكر المفسرون أن معناها من التوسط في المكان، وهذه جملة من أقوالهم:

١ - قال الطبري - رحمه الله - : (يقول تعالى ذكره: فَوْسَطُنَ بِرُكْبَانِهِنَّ جَمْعُ الْقَوْمِ، يُقَالُ: وَسَطْتَ الْقَوْمَ - بِالْتَّخْفِيفِ - ، وَوَسَطْتَهُ بِالتَّشْدِيدِ، وَتَوَسَّطْتَهُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ). <sup>(٦)</sup>

(١) هو عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي الشافعي الإمام الحافظ المؤرخ صاحب تفسير القرآن العظيم، الذي حاز المرتبة الثالثة في التفسير بأثنا عشر بعد تفسير الطبري، ولد عام ٧٠١هـ، توفي عام ٧٧٤هـ. انظر ترجمته طبقات المفسرين لثدورودي: (١ / ١١٦-١١٣).

(٢) هو الفقيه المقرئ، ثمالك، سعيد بن جبير الأسدي الكوفي، ويكنى أبا عبد الله، كان سفيان الثوري يقدمه على إبراهيم النخعي ويقول: خذوا التفسير عن أربعة: عن سعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك. قتله انقلاب سنة ٩٥هـ لخروجه مع ابن الأشعث وقال يسمون بن مهراز؛ مات سعيد بن جبير وما على ظهر الأرض رجل إلا محتاج إلى علمه. انظر ترجمته في طبقات ابن سعد: (٦ / ١٧٨)، وتهذيب التهذيب (٤ / ١١).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٤ / ٤٠٦).

(٤) انظر: زاد المسير (٨ / ٣٢٨).

(٥) انظر: تفسير القاسمي (١٦ / ٥٩٠).

(٦) انظر: تفسير الطبري (٣ / ٢٨٦).

٢ - وقال ابن الجوزي - رحمه الله - : (وقال ابن مسعود: فوسطن به جمعاً، يعني مزدلفة) . (١)

٣ - وقال القرطبي - رحمه الله - : «**جَمَعًا**» مفعول به «**فَوَسَطَنَ**» أي فوسطن بركبانهم العدو يقال: وسطت القوم أسطهم وسطاً وسطه أي - صرت وسطهم يقال: وسطت القوم - بالتشديد والتخفيف - وتوسطتهم بمعنى واحد . وقيل: معنى التشديد: جعلها الجمع قسماً، والتخفيف: صرن وسط الجمع . (٢)

٤ - وقال القاسمي - رحمه الله - : «**فَوَسَطَنَ بِهِ جَمَعًا**» أي فتوسطن ودخلن في وسط جمع الأعداء ففرقته وشتته . يقال: وسطت القوم - بالتخفيف - ووسطته بالتشديد وتوسطته بمعنى واحد (٣) .

٥ - قال سيد قطب - رحمه الله - : (وهي تتوسط صفوف الأعداء على غرة، فتوقع بينهم الفوضى والاضطراب) . (٤)

ومما سبق ذكره اتضح أن معناها التوسط والوسط . ومن المفيد أن أذكر أحاديث نبوية في بيان معنى الوسط، ذلك لأن السنة النبوية شارحة للقرآن الكريم ومبينة له، ومن ثمَّ نبين علاقة ذلك بالوسطية التي هي موضوع بحثنا وذلك يعطينا فهمًا دقيقًا على مدلول مصطلح الوسطية .

١ - عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ :

«يدعى نوح يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فقال لأمته: هل بلغكم؟ فيشهدون ما أتانا من نذير: فيقول: من يشهد لك؟ فيقول محمد وأمته، فيشهدون أنه قد بلغ، **«وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا»** .

(١) انظر: زاد المسير (٩ / ٢٠٩) .

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٢٠ / ١٦٠) .

(٣) انظر: تفسير القاسمي (١٧ / ٦٢٣٧) .

(٤) انظر: في ظلال القرآن (٦ / ٣٩٥٨) .

فذلك قوله - جل ذكره - ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرُّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (الوسط العدل). (١)

والمراد بهذا الحديث واضح، وهو أن الوسط فسر هنا بالعدل، وهو المقابل للظلم، حيث إن أمة محمد ﷺ، شهدوا بما علموا، ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا﴾ (يسف: ٨١) وهو الحق، فلم تكن شهادتهم لهوى مع نوح عليه السلام - وحاشاهم من ذلك - ولم يشهدوا مع قوم نوح بالباطل، وأتى لهم ذلك، وهذا هو العدل؛ لأن الظلم له طرفان والعدل وسط بينهما، فالشهادة مع أحد الخصمين بدون حق ظلم والشهادة بالحق دون النظر لصاحبه عدل، فأمة محمد ﷺ ممن قال الله فيهم ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (الاعراف: ١٨١).

٢ - روى الترمذي (٢) - رحمه الله تعالى: (قال لما نزل قوله تعالى: ﴿الْمَ \* غَلَبَتِ الرُّومُ \* فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيِّئُونَ \* فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾ (الروم: ١ - ٤) خرج أبو بكر الصديق (٣) يصبح في نواحي مكة: ﴿الْمَ (١) غَلَبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيِّئُونَ (٣) فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾ قال ناس من قريش لأبي بكر، فذلك بيننا وبينك، زعم صاحبك أن الروم مستغلب فارس في بضع سنين، أفلا نواهتك على ذلك؟! قال: بلى وذلك قبل تحريم الرهان - فارتهن أبو بكر ﷺ والمشركون، وتواضع الرهان، وقالوا لأبي بكر: كم تجعل البضع ثلاث سنين إلى تسع سنين، فسم بيننا وبينك وسطاً تنتهي إليه، فسموا بينهم ست سنين (٤) والست هنا هي الوسط بين ثلاث وتسع، قبلها وبعدها ثلاث .

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿وَكَذَلِكَ﴾ (٥ / ١٨٦ رقم ٤٤٨٧).

(٢) أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة السلمى الترمذي، ولد بترمذ سنة ٢٠٩ هـ، وهو مؤلف كتاب في الحديث من الكتب الستة اسمه الجامع على أبواب الفقه والشتمل على التصحيح والحسن والضعيف وشرحه كثير من العلماء توفي عام ٢٧٩ هـ، انظر ترجمته في الميزان (٢ / ١١٧).

(٣) هو عبد الله بن عثمان بن حسان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم، يلقب بالعتيق، وكنى بأبي بكر ويعرف بالصديق وأعماله مشهورة، وغني عن التعريف، توفي ١١ هـ. انظر ترجمته في الطبقات الكبرى لابن سعد (٣ / ١٦٩).

(٤) أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ٣١، (٥ / ٣٢١ رقم ٢٢١).

٣ - عن عبد الله بن معاوية الغضائري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: ثلاث من فعلهن فقد طعم طعم الإيمان، من عبد الله وحده، وعلم أنه لا إله إلا الله، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه، رافدة عليه كل عام، ولم يعط الهرمة، ولا الدرنة، ولا المريضة، ولا الشرط اللثيمة، ولكن من وسط - أموالكم، فإن الله لم يسألكم خيره، ولم يأمركم بشره. (١)

والوسط هنا ما بين أجود الغنم وبين السمين والمعيب، وهو مثل قوله تعالى: ﴿مَنْ أَوْسَطَ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ (التكوير: ٨٩)

٤ - عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه (٢) قال: (كنا عند النبي ﷺ)، فخط خطاً، وخط خطين عن يمينه، وخط خطين عن يساره، ثم وضع يده على الخط الأوسط، فقال: «هذه سبيل الله» ثم تلا هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرُقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (الأنعام: ١٥٣).

والوسط هنا: هو الشيء بين الشئين، متوسط بينهما ونجد بيان هذا الصراط في الحديث الآتي: عن النواص بن سمران (٣) رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى كنفى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى الصراط داع يدعو يقول: يا أيها الناس اسلكوا الصراط جميعاً، ولا تعرجوا، وداع يدعو على الصراط، فإذا أراد أحدكم فتح شيء من تلك الأبواب قال: وبذلك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه، فالصراط الإسلام والستور حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، والداعي الذي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوقه واعظ الله يذكر في قلب كل مسلم». (٤)

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة لنسخ الألباني رحمه الله (٢ / ٣٨ رقم ١٠٤٦).

(٢) هو جابر بن عبد الله بن عمرو الأنصاري السلمي، من أهل بيعة الرضوان، شهد مع النبي ﷺ سبع عشرة غزوة، وحمل علماً كثيراً، مات يومئذ سنة ثمان وسبعين، وقيل غير ذلك، انظر: الاستيعاب (٢ / ١٠٩-١١٠).

(٣) هو الصحابي النواص بن سمران بن خالد بن عمرو بن قرط بن عبد الله العامري الكلابي الأنصاري، له ولاية صحبة، وتزوج النبي ﷺ اخته، فلما دخل بها تعوذت منه فتركها، سكن بمشقة الشام. (الإصابة: ٣ / ٥١٩)، وتهذيب التهذيب (١ / ٤٨٠-٤٨١).

(٤) أخرجه إمام في المسند، كتاب الإيمان (١ / ١٤٥) رقم (٢٤٥). وقال: صحيح على شرط مسلم، ولا أعرف له عتق، ولم يخرجناه، ووافقه الذهبي.

٥ - وقال عليه السلام : «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألتم فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة أو أعلى الجنة»<sup>(١)</sup>

قال الحافظ ابن حجر<sup>(٢)</sup> رحمه الله تعالى: (أوسط الجنة أو أعلى الجنة . والمراد بالأوسط هنا: الأعدل والأفضل، كقوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾<sup>(٣)</sup>)

٦ - وقال عليه السلام : «الميركة تنزل في وسط الطعام، فكلوا من حافتيه ولا تأكلوا من وسطه»<sup>(٤)</sup>

والوسط هنا: أشبه ما يكون بمركز الدائرة ومتصفها أي: هي نقطة الالتقاء بين أطراف متساوية .

٧ - وعن عبد الله بن مسعود رضي عنه (٥) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «خط خطاً مربعاً، وخط وسط الخط المربع، وخطوطاً إلى جانب الخط الذي وسط الخط المربع، وخطاً خارجاً من الخط المربع، فقال: أتدرون ما هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا الإنسان الخط الأوسط، وهذه الخطوط إلى جانبه الأعراس تنهشه» .<sup>(٦)</sup>

والوسط هنا: هو ما كان بين عدة أطراف والمسافة بينه وبين كل طرف متساوية .

٨ - وقال عليه السلام : «وسطوا الإمام وسدوا الخلل»<sup>(٧)</sup> أي اجعلوه وسط الصف - في منتصفه - من أمامه، بحيث يكون طرفاً الصف متساويين بالنسبة لموقف الإمام .

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الجهاد والسير ، باب درجات المجاهدين (٣ / ٢٦٦) ، ولم الحديث (٦٧٩) .

(٢) هو أحمد بن علي بن محمد الكتاني العسقلاني أبو الفضل شهاب الدين ، من أئمة العلم ومن أشهر العلماء ، أنهض من عسقلان بفلسطين وولد في القاهرة عام ٧٧٣هـ ، وأقبل على الحديث ورحل في طلب العلم حتى أصبح حافظ الإسلام في مصر ، ولي القضاء في مصر ، ثم اعتزل . توفي بالقاهرة سنة ٨٥٢هـ . انظر : الأعلام (١ / ١٧٨ - ١٧٩) ، والضوء اللامع (١ / ٣٦) .

(٣) فتح الباري ، كتاب الجهاد والسير ، باب درجات المجاهدين (٦ / ١٦) .

(٤) رواه الترمذي ، كتاب الأضمة ، باب ما جاء في كرامة الأكل في وسط (٤ / ٢٢٩) رقم (١٨٠٥) .

(٥) هو عبد الله بن مسعود أبو عبد الرحمن ، أسلماً قديماً ، وهاجر الهجرة وشهد بدرًا والمشاهد كلها ، مات يومئذ سنة اثنين وثلاثين . انظر الخلية (١ / ١٢٤) ، صفة الصفوة (١ / ٣٩٥) .

(٦) أخرجه ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب الأمل والأجل (٢ / ٤٢٣) رقم (٤٢٣١) .

(٧) سنن أبي داود ، كتاب الصلاة ، باب مقام الإمام من الصف (١ / ١٨٢) ، رقم (٦٨١) وضعفه الشيخ الألباني .

٩ - وقال عليه السلام : «لعمرك الله من جلس وسط الخلق»<sup>(١)</sup> وهو الذي يجلس في وسط الحلقة، ولو لم يكن في منتصفها تمامًا وأن من جلس في داخلها بعيدًا عن أطرافها فهو في وسطها .

١٠ - وقال عليه السلام : «أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محققًا، وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان محققًا، وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه»<sup>(٢)</sup> والوسط هنا ما كان بين الربض والأعلى .

١١ - وقال عليه السلام : «لأن أمشي على جمرة أو سيف أو أخمص نعل برجلي أحب إلي من أن أمشي على قبر مسلم، وما أبالي أوسط القبر قضيت حاجتي أو وسط السوق»<sup>(٣)</sup> والمراد بالوسط هنا الوسط المكاني .

١٢ - وقال عليه السلام : «ليس للنساء وسط الطريق»<sup>(٤)</sup> ومعنى الوسط كما في الحديث الذي سبقه من الوسط المكاني، وهو ما كان بين الشيتين وهو منه، لأن المشروع في حق المرأة أن تكون بجانب الطريق لا في وسطه، لما يحدث من فتنة بسبب بروزها وتعرضها للرجال .

هذه بعض الأحاديث التي وردت وفيها لفظ (الوسط)، ومعناه، ومنها ما يدل على معنى الوسطية، ومنها ما ليس كذلك، إذ لا تلازم بين الوسط والوسطية، فكل وسطية فهي وسط، ولا يلزم من كل وسط أن يكون دليلًا على الوسطية، فقد يكون من الوسط المكاني أو الزماني ونحوه، كما سيأتي بيانه - إن شاء الله - .



(١) أخرجه الترمذي، كتاب الأدب، باب ما جاء في كراهية القعود في وسط الخلق (٥ / ٨١ رقم ٢٧٥٢) .

(٢) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب في حسن الخلق (٤ / ٢٥٣ رقم ٤٨٠٠) .

(٣) أخرجه ابن ماجه، كتاب الجنائز، باب النهي على المشي على القبور (٤ / ٤٩٩، رقم ١٥٦٧)، زوائد العليين، رقم (٦٣) .

(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ الألباني (٢ / ٥٢٦ رقم ٨٥٦) .



### المبحث الثالث

#### تحرير معنى الوسطية

من خلال ما سبق اتضح لنا أن كلمة (وسط) تستعمل في معان عدة أهمها:

- ١ - بمعنى الخيار والأفضل والعدل .
  - ٢ - قد ترد لما بين شيئين فاضلين .
  - ٣ - وتستعمل لما كان بين شيئين وهو خير .
  - ٤ - وتستعمل لما كان بين الجيد والرديء، والخير والشر .
  - ٥ - وقد تطلق على ما كان بين شيئين حساً، كوسط الطريق، ووسط العصا .
- وقد تأتي لمعان أخرى قريبة من هذه المعاني والمهم - هنا - متى يطلق لفظ (الوسطية) بل على ماذا يطلق هذا المصطلح؟ فهناك من جعل مصطلح الوسطية مرادفاً للفظ الخيرية، ولو لم يكن بين شيئين حساً أو معنى .

قال فريد عبد القادر: ومن جملة ما سبق بيانه نستطيع أن نستخلص تعريفاً خاصاً محدد للوسطية، فنقول: بأن الوسطية هي: مؤهل الأمة الإسلامية من العدالة، والخيرية للقيام بالشهادة على العالمين، وإقامة الحجج عليهم ثم قال: أما ما شاع عند الناس وانتشر من الوقوف عند أصل دلالتها اللغوية، أي التوسط بين طرفين، مهما كان موضوع هذا الوسط - الذي تم اختياره - من صراط الله المستقيم، التزاماً وانحرافاً، فليس بمفهوم صحيح وفق ما تبينه الآيات والأحاديث .<sup>(١)</sup>

ويؤكد هذا المعنى في محل آخر فيقول: ولا يلزم لكل ما يعتبر وسطاً في المصطلح أن يكون له طرفان، فالعدل وسط ولا يقابله إلا الظلم، والصدق وسط ولا يقابله إلا الكذب .<sup>(٢)</sup>

(١) انظر الوسطية في الإسلام (٢٩) .

(٢) نفس المصدر (٣٣) .

ومن هناك من جعل (الوسطية) من التوسط بين الشينين دون النظر إلى معنى الخيرية التي دل عليها الشرع .

قال الأستاذ فريد عبد القادر: (وقد شاع كذلك عند كثير من الناس استعمال هذا الاصطلاح الرباني، استعمالاً فضفاضاً يلبس أي وضع أو عرف أو مملك أرادوه، حتى أصبحت الوسطية في مفهومهم تعني التساهل والتنازل .

وما ذكره الأستاذ فريد في تعريفه للوسطية، وكذلك ما نقله عن غيره ففيه نظر، ويتضح ذلك فيما سيأتي: لأن المتأمل في ما ورد في القرآن والسنة والمأثور من كلام العرب فيما أطلق وأريد به مصطلح الوسطية يتضح له أن هذا المصطلح لا يصح إطلاقه إلا إذا توفرت فيه صفتان:

١ - الخيرية: أو ما يدل عليها كالأفضل والأعدل أو العدل .

٢ - البينية: سواء أكانت حسية أو معنوية .

فإذا جاء أحد الوصفين دون الآخر فلا يكون داخلًا في مصطلح الوسطية . والقول بأن الوسطية ملازمة للخيرية - أي أن كل أمر يوصف بالخيرية فهو (وسط) - فيه نظر، والعكس هو الصحيح، فكل وسطية تلازمها الخيرية، فلا وسطية بدون خيرية، ولا عكس فلا بد مع الخيرية من البينية حتى تكون وسطًا .

وكذلك البينية - أيضاً - فليس كل شينين أو أشياء يعتبر وسيطاً وإن كان وسطاً، فقد يكون التوسط حسياً أو معنوياً، ولا يلزم بالوسطية كوسط الزمان أو المكان أو الهيئة ونحو ذلك؛ ولكن كل أمر يوصف بالوسطية فلا بد أن يكون بينياً حسياً أو معنياً .

ومن هنا نخلص إلى أن أي أمر اتصف بالخيرية والبينية جميعاً فهو الذي يصح أن نطلق عليه وصف: الوسطية، وما عدا ذلك فلا . وإلى هذا الرأي ذهب الدكتور ناصر بن سليمان العمر في كتابه الوسطية في ضوء القرآن .<sup>(١)</sup>

(١) انظر الوسطية في ضوء القرآن (٤١-٤٢) .

واليك بعض الأمثلة توضح ما ذهبت إليه:

١ - جاء وصف هذه الأمة بالوسطية في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (بقرة: ١٤٣) وضح عنه عليه السلام أنه فسر الوسط بالعدل <sup>(١)</sup> وفي رواية: عدولا <sup>(٢)</sup> والمعنى واحد .

٢ - وإذا في إلى العدل وجدناه يتضمن معنى الخيرية، والعدل كذلك يقابله الظلم، والظلم له طرفان، فإذا مال الحاكم إلى أحد الخصمين فقد ظلم، والعدل وسط بينهما، دون حيف إلى أي منهما . <sup>(٣)</sup>

٣ - وما رواه أبو داود <sup>(٤)</sup> قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ثلاث من فعلهن فقد طعم طعم الإيمان: من عبد الله وحده، وعلم أنه لا إله إلا الله، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه، رافدة عليه كل عام، ولم يعط الهرمة ولا الدرنة ولا المريضة، ولا الشرط اللثيمة ولكن من وسط أموالكم، فإن الله لم يسألكم خيره، ولم يأمركم بشره، <sup>(٥)</sup>

وهنا نجد أن الوسطية واضحة في هذا الحديث النبوي، فالبيئية صريحة في الحديث، أما الخيرية فهي ظاهرة بالنامل من خلال ما يلي:

١ - أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك دليل على هذه الخيرية فلا يأمر صلى الله عليه وسلم إلا بخير: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ﴾ (الأنعام: ٢٩) وهل أمر الرسول صلى الله عليه وسلم إلا شرع من الله يوحى إليه .

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب: وكذلك جعلناكم أمة وسطا، (٥ / ١٧٦ ، رقم ٤٤٨٧) .

(٢) انظر: تفسير العقري (٢ / ٧) .

(٣) أخرجه الترمذي ، كتاب تفسير القرآن، باب (٣) من سورة البقرة (٥ / ١٩٠ رقم ٢٩٦١) .

(٤) هو سليمان بن الأشعث بن إسحاق الأسدي السجستاني ولد سنة ٢٠٢ هـ ، قال فيه الحاكم أبو عبد الله: كان أبو داود إمام أهل الحديث في عصره بلا منازعة، وكانت وفاته بالبصرة عام ٢٧٥ هـ ، وهو من أصحاب الكتب الستة، وقد شرحه سنن أبو داود ، ومن أشهرها عون المعبود . انظر: السنة ومكانتها في التشريع (٤٥١) .

(٥) أخرجه أبو داود ، كتاب الزكاة ، باب وكاة السائمة (٢ / ١٠٣) ، رقم الحديث (١٩٨٢) ، صححه الألباني - رحمه الله - في السلسلة الصحيحة (١٠٤٦) .

٢ - أننا عندما نريد أن نستخرج معنى الخيرية في السميعة السليمة الأفضل مما هو من أجود الأغنام وأغلاها .

وإذا نظرنا إلى خيرية الغني - في الدنيا - قلنا إن الأسهل عليه أن يخرج الضعيفة الهزيلة ونحوها . ولكن الخيرية الكاملة أن ننظر إلى مصلحة الفقير ومصلحة الغني - صاحب المال - جميعاً ، دون ترجيح لإحدى المصلحتين على الأخرى ، وهذه هي الوسطية ، وذلك باستخراج ما بين أفضلها وأضعفها - هي الوسط - وذلك مثل قوله تعالى : ﴿مَنْ أَوْسَطَ مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ (البقرة: ٨٩) هنا اتضح التلازم بين الخيرية والبيئية في تحقيق معنى الوسطية .

روى الإمام البخاري <sup>(١)</sup> في صحيحه أن أبا بكر رضي الله عنه خطب يوم السقيفة ، وكان مما قال يخاطب الأنصار: «ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل ، ولن يعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش ، هم أوسط العرب نسباً وداراً» <sup>(٢)</sup> والوسطية المرادة هنا يظهر فيها معنى الخيرية جلياً لا لبس فيه ، فأين البيئية ؟

فالبيئية تتضح إذا علمنا ما امتازت به قريش من صفات أهلتها لأن تكون خير العرب ، وهذه الصفات من الشجاعة والكرم وسائر الصفات الحميدة ، هي في حقيقتها صفات اتصفوا بأفضل هذه الصفات ، دون إفراط أو تفريط ، أو غلو أو جفاء ، ولذلك فقد نالوا هذه المنزلة الرفيعة من كون العرب لا تدين إلا لهم وما ذلك إلا لثقتهم في عدلهم من قبائل وأطراف متناثرة في أخلاقها ، متباينة في طباعها ، وذلك خصيصة الوسطية فيهم ، ويصدق فيهم قول زهير :

هم وسط يرضي الأنام بحكمهم إذا نزلت إحدى الملبالي بمعظم <sup>(٣)</sup>

(١) هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي مولاهم إمام الحدادين وشيخ حفاظ زمانه على الإطلاق ، ولد ببخارى يوم الجمعة ١٣ شوال ١٩٤هـ ، وهو صاحب الكتاب العظيم في الحديث النبوي صحيح البخاري الذي اعنى به علماء الإسلام اعتناءً عظيماً حيث بلغ شروحه اثنين وثمانين شرحاً ، وله مؤلفات كثيرة في علم الفرح والتعديل . انظر ترجمته في مقدمة فتح الباري ، وانتت ومكانتها في التشريع للسباعي (١٤٥) .

(٢) انظر : تفسير الطبري (٢ / ٦) .

(٣) انظر : الوسطية في ضوء القرآن (٤٥ - ٤٧) .

والعدل هو سبب قبول حكمهم، والعدل فيه صفة البينية بين نوعي الظلم، ولذلك كان وسطياً، فكذلك سائر صفاتهم وبهذا يتضح أن الخيرية والبينية - المعنوية - هي التي أهلته لأن يكونوا وسطاً نسبياً وداراً .

وتأمل معنى ما قاله الشيخ محمد رشيد رضا: رحمه الله: (قالوا إن الوسط هو العدل والخيار، وذلك أن الزيادة على المطلوب في الأمر إفراط، والتقص عنه تفريط وتقصير، فالخيار هو الوسط بين طرفي الأمر أي: المتوسط بينهما) .<sup>(١)</sup>

وذهب الدكتور زيد عبد الكريم الزيد<sup>(٢)</sup> في كتابه الوسطية في الإسلام إلى ما ذكرته وقررتة، حيث قال:

الوسط من كل شيء أعدلته، فالوسط إذن ليس مجرد كونه نقطة بين طرفين، أو وسطية جزئية، كما يقال فلان وسط في كرمه، أو وسط في دراسته ويراد أنه وسط بين الجيد والردى، فهذا المفهوم وإن درج عند كثير من الناس، فهو فهم ناقص مجتزأ، أدى إلى إساءة فهم معنى الوسطية المقصودة .

وعلى هذا فالوسط المراد والمقصود هنا، هو العدل الخيار والأفضل إلى أن قال: وبالتالي لم يبق معنى الوسطية مجرد التجاور بين الشئيين فقط، بل أصبح ذا مدلول أعظم، ألا وهو البحث عن الحقيقة، وتحصيلها والاستفادة منها .

ثم يقول: وهو معنى يتسع ليشمل كل خصلة محمودة لها طرفان مذمومان، فإن السخاء وسط بين البخل والتبذير، والشجاعة وسط بين الجبن والتهور، والإنسان مأمور أن يتجنب كل وصف مذموم، وكلا الطرفين هنا وصف مذموم ويبقى الخير والفضل للوسط .<sup>(٣)</sup>

(١) انظر: تفسير المنار (٢ / ٤) .

(٢) هو زيد بن عبد الكريم الزيد من مواليد (١٣٧٥هـ) بالملكة العربية السعودية تخرج في كلية الشريعة من الرياض عام ١٣٩٨هـ، وتحصل على الماجستير من المعهد العالي للقضاء ١٤٠٥هـ، وشهادة الدكتوراه عام ١٤٠٧هـ، وعمل في الدعوة خارج السعودية أكثر من أربع سنوات، وتولى مناصب في الجامعة بالرياض آخرها عميد لكلية الدعوة والإعلام ١٤١١هـ. انظر ترجمته في كتابه الوسطية في الإسلام على أثر الغلاف .

(٣) انظر: الوسطية في الإسلام (١٨) وما بعدها .

ومن خلال الأمثلة السابقة اتضح لنا التلازم بين الخيرية واليمنية - حسية أو معنوية - في إطلاق مصطلح (الوسطية) ولهذا فعندما استخدم هذا المصطلح في بحثي هذا فإني أقصد به ما ينطبق عليه هذا الفهم دون سواء .



# الفصل الثاني

## في أسس الوسطية

ويشتمل على أربعة مباحث:

- المبحث الأول: الغلو والإفراط .
- المبحث الثاني: التفريط والجفاء .
- المبحث الثالث: الصراط المستقيم .
- المبحث الرابع: الصلة بين الوسطية والصراط المستقيم .





## الفصل الثاني في أسس الوسطية

كما سبق اتضح لنا أن الوسطية لا بد لها من توافر أمرين، وهما الخيرية والبيئية، وإذا أردنا أن نعرف الوسطية على الوجه الدقيق، هناك أسس لا بد من بيانها، ليحدد معنى الوسطية .

وهذه الأسس هي:

- ١ - الغلو أو الإفراط .
- ٢ - الجفاء أو التفريط .
- ٣ - الصراط المستقيم .

فالصراط المستقيم، وهو وسط بين الغلو والجفاء، أو الإفراط والتفريط، كما يمثل الخيرية ويحقق معناها وبذلك يتحقق في الصراط المستقيم أمران من لوازم الوسطية وفي هذا البحث سأبدأ في بيان هذه الأسس مبتدئاً بالغلو والإفراط، ثم الجفاء والتفريط، ثم أوضح معنى وحقيقة الصراط المستقيم، وبصدها تبيين الأشياء، وسأركز على تحديد معنى هذه الأسس من خلال القرآن الكريم والسنة الميمنة لذلك، ثم كلام المفسرين وغيرهم من العلماء ومن الله أستمد السداد والإعانة والتوفيق .

## المبحث الأول

### الغلو والإفراط

أولاً: الغلو: أما الغلو فقد عرفه أهل اللغة بأنه مجاوزة الحد، فقال ابن فارس: غلو: الغين واللام والحرف المعتل أصل صحيح يدل على ارتفاع ومجاوزة قدر، يقال: غلا السعر يغلو غللاً، وذلك ارتفاعه، وغلا الرجل في الأمر غلواً، إذا جاوز حده، وغلا بسهمه غلواً إذا رمى به سهماً أقصى غايته .<sup>(١)</sup>

وقال الجوهري: وغلا في الأمر يغلو غلواً، أي جاوز فيه الحد<sup>(٢)</sup> وقال صاحب لسان العرب: وغلا في الدين والأمر، والأمر يغلو: جاوز حده، وفي التنزيل: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ (سورة: ١٧١ / ٣٢) .

وقال بعضهم: غلوت في الأمر غلواً وغلاتيةً وغلاتياً إذا جاوزت فيه الحد وأفرطت فيه وفي الحديث: «إياكم والغلو في الدين . . .»<sup>(٤)</sup> أي التشدد فيه ومجاوزة الحد، كالحديث الآخر: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق» .

وغلا السهم نفسه: ارتفع في ذهابه وجاوز المدى، وكله من الارتفاع والتجاوز . ويقال للشيء: إذا ارتفع: قد غلا وغلا البيت: ارتفع وعظم<sup>(٥)</sup> هذا معنى الغلو في اللغة: وقد جاءت آيات في القرآن الكريم فيهما النهي عن الغلو بلقظه الصريح، قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ (سورة: ١٧١) . قال الإمام الطبري رحمه الله:

(لا تجاوزوا الحق في دينكم فستفراطوا فيه، وأصل الغلو في كل شيء مجاوزة حده الذي هو حده، يقال منه في الدين قد غلا فهو يغلو غلواً):<sup>(٦)</sup>

(١) مقاييس اللغة ، كتاب الغين، باب العين واللام (٤ / ٢٨٧) .

(٢) انظر: الصحاح مادة (غلا) (٦ / ٢٤٤٨) .

(٣) لسان العرب، فصل الغين، باب غلا (١٥ / ١٣٢) .

(٤) أخرجه ابن ماجه، كتاب الثمانت، باب قدر حصي أتومي (٢ / ١٠٠٨، رقم ٢٠٢٩) .

(٥) لسان العرب، فصل الغين، باب غلا (١٥ / ١٣٦) .

(٦) انظر: تفسير الطبري (٦ / ٤٣) .

وقال ابن الجوزي - رحمه الله - : في تفسير هذه الآية : والغلو : الإفراط ومجاوزة الحد، ومنه غلا السر، وقال : الغلو : مجاوزة القدر في الظلم .

وغلو النصارى في عيسى قول بعضهم : هو الله ، وقول بعضهم : هو ابن الله ، وقول بعضهم هو ثالث ثلاثة . وعلى قول الحسن : غلو اليهود فيه قولهم إنه لغير رشة، وقال بعض العلماء لا تغلو في دينكم بالزيادة في التشدد فيه . (١)

وقال ابن كثير : ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء وهذا كثير في النصارى، فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطها الله إياه، فتقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله يعبدونه كما يعبدونه، بل غلوا في أتباعه وأشياعه، ممن زعم أنه على دينه، فادعوا فيهم العصمة واتبعوهم في كل ما قالوه، سواء كان حقاً أو باطلاً أو ضلالاً أو رشاداً، أو صحيحاً أو كذباً ولهذا قال تعالى : ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَيْبًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١٣٦) (٢)

أما الآية الثانية فجاءت في سورة المائدة، قال تعالى : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (المائدة: ٧٧) .

قال الطبري رحمه الله : (لا تفرطوا في القول فيما تدعون به من أمر المسيح فتجاوزوا فيه الحق إلى الباطل، فتقولوا فيه : هو الله، أو هو ابنه، ولكن قولوا هو عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه) . (٣)

قال ابن تيمية (٤) رحمه الله : والنصارى أكثر غلواً في الاعتقادات والأعمال من سائر الطوائف، وإياهم نهى الله عن الغلو في القرآن . (٥)

(٢) انظر : تفسير ابن كثير (١ / ٥٨٩) .

(١) انظر : زاد المسير (٢ / ٢٦٠) .

(٣) انظر : تفسير الطبري (٦ / ٣١٦) .

(٤) هو شيخ الإسلام وحافظ الدين للجهاد في الأحكام تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن محمد الله بن أبي القاسم بن الحضر بن محمد بن تيمية الحراني الحنبلي ، ولد بحران يوم الاثنين (١٠ / ٣ / ٦٦١هـ) ، وتوفي - رحمه الله - ليلة الاثنين ٢٠ من ذي القعدة ٧٢٨هـ . انظر : الإصلام العنيفة في مناقب ابن تيمية (١٤) .

(٥) اقتضاء الصراط المستقيم (١ / ٢٨٩) .

ومن غلو النصارى ما ذكره الله في سورة الحديد: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابِيَةٌ إِتَدَّعَوْهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ (الحديد: ٤٧) .

قال ابن كثير رحمه الله: في آية المائدة ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ (المائدة: ٧٧) أي لا تجاوزوا الحد في اتباع الحق، ولا تطروا من أمرتم بتعظيمه فتبالغوا فيه حتى تخرجوه من حيز النبوة إلى مقام الإلهية، كما صنعتم في المسيح، وهو نبي من الأنبياء فجعلتموه إلهاً من دون الله (١) .

وقد وردت بعض الأحاديث التي تنهى عن الغلو، وذكر بعضها يساعد على فهم معناه وحده:

١ - عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ غداة جمع: «هلم القط لي الحصى»، فلقطت له حصيات من حصى الخذف، فلما وضعهن في يده قال: «نعم بأمثال هؤلاء، وإياكم والغلو في الدين فإنه أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين» . (٢)

قال ابن تيمية رحمه الله: وهذا عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال، وسبب هذا اللفظ العام رمي الجمار، وهو داخل فيه، مثل الرمي بالحجارة الكبار بناء على أنها أبلغ من الصغار، ثم علله بما يقتضي مجانية هديهم، أي هدي من كان قبلنا إعاداً عن الوقوع فيما هلكوا به، وأن المشارك لهم في بعض هديهم يخاف عليه من الهلاك . (٣)

٢ - عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «هلك المنتظعون» قالها ثلاثاً . (٤)

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٢ / ٨٢) .

(٢) أخرجه ابن ماجه ، كتاب المناسك ، باب قدر حصى الرمي (٢ / ١٠٠٨ رقم ٣٠٢٩) وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة رقم (١٧٨٣) .

(٣) انظر: تيسير العزيز الحميد (٢٧٥) .

(٤) أخرجه مسلم، كتاب العلم، باب هلك المنتظعون (٤ / ٢٠٥٤ رقم ٢٦٧٠) .

قال النووي <sup>(١)</sup>: هلك المنتظعون: أي المتعمقون المغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم . <sup>(٢)</sup>

٣ - عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول:

«لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم فإن قومًا شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم، فلتك بقاياهم في الصوامع والديار ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾» (الحديد: ٢٧) . <sup>(٣)</sup>

٤ - وعن أبي هريرة <sup>(٤)</sup> رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا، وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة» . <sup>(٥)</sup>

قال ابن حجر - رحمه الله - : والمعنى لا يتعمق أحد في الأعمال الدينية ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيغلب . <sup>(٦)</sup>

قال ابن رجب <sup>(٧)</sup> رحمه الله: والتسديد العمل بالسداد، وهو الفصد والتوسط في العبادة، فلا يقصر فيما أمر به، ولا يتحمل منها ما لا يطيقه <sup>(٨)</sup> .

(١) هو الإمام محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري الحوزاني السافعي، ولد رحمه الله في سنة ٦٣٦ هـ بتري، عاش حياته مجتهداً في طلب العلم وتعليمه، وكتبت الكتب والمؤلفات الجليلة النافعة، وكان رحمه الله مثالا في إصلاح الورع، وك في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مرافق محمود، توفي عام ٦٧٦ هـ، انظر ترجمته في طبقات الشافعية لابن عدي الله (٨٩) .

(٢) مسلم مع شرح النووي، كتاب العلم، باب النهي عن اتباع مشابه القرآن (١٦ / ٢٢٠) .

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب في الحسد (٤ / ٢٧٧ رقم ٤٩٠٠) صححه الشيخ الألباني في ضعيفه رقم (١٢٢٢٢) .

(٤) هو عبد الرحمن بن منذر الدوسي أبو هريرة رضي الله عنه، صاحب رسول الله ﷺ ونقيب أهل الصفة، حمل عن رسول الله ﷺ علماً كثيراً حدث عنه خلق كثير من الصحابة والتابعين، توفي رضي الله عنه سنة ٥٩ هـ، وقيل غير ذلك، انظر: الطبقات الكبرى (٢ / ٣٦٢)، والحلبي (١ / ٣٧٦) .

(٥) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الدين يسر (١ / ١٨ رقم ٣) .

(٦) البخاري مع فتح الباري، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، (١ / ١١٦) .

(٧) هو زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين ابن أحمد بن رجب الحنبلي البغدادي، من علماء القرن الثامن الهجري، له مؤلفات من أشهرها لطائف المعارف، وجامع العلوم والحكم، ولد عام ٧٢٦ هـ ببغداد، وتوفي في دمشق سنة ٧٩٥ هـ شدوات الذهب، (٦ / ٣٣٩) والأعلام (٣ / ٢٩٥) .

(٨) انظر: المحجة في سير الدلجة لابن رجب (٥٦) .

٥ - وروى الإمام أحمد<sup>(١)</sup> رحمه الله في مسنده أن رسول الله ﷺ قال: «اقرأوا القرآن ولا تأكلوا به، ولا تستكثروا به، ولا تحفوا عنه، ولا تغلو فيه»<sup>(٢)</sup>

٦ - وروى عنه ﷺ أنه قال: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين»<sup>(٣)</sup>

والاحاديث السابقة ترشدنا إلى أن الغلو خروج عن المنهج وتعدي للحد، وعمل ما لم يأذن به الله ولا رسوله ﷺ والاحاديث التي تنتهي عن الغلو كثيرة وليس هدفنا في هذا البحث حصرها، وإنما اكتفينا ببعض الاحاديث التي لها دلالة على ما نحن بصدده، وهو تحديد معنى الغلو ومفهومه وحكمه، ومن ثم علاقته بالوسطية، ولعلماء المسلمين تعريفات كثيرة لمعنى الغلو، واخترت منها في بحثي هذا تعريفين:

أولاً: تعريف ابن تيمية - رحمه الله - : الغلو مجاوزة الحد: مجاوزة بأن يزداد في الشيء في حمده أو ذمه على ما يستحق ونحو ذلك<sup>(٤)</sup> .

ثانياً: تعريف ابن حجر - رحمه الله - إذ يقول: الغلو: المبالغة في الشيء والتشديد فيه بتجاوز الحد .<sup>(٥)</sup>

وضابط الغلو هو تعدي ما أمر الله به، وهو الطغيان الذي نهى الله عنه<sup>(٦)</sup> في قوله تعالى: «وَلَا تَغْلُوا فِيهِ فَيَحُلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي» (مذ- ٨١) وما سبق من التعريف اللغوي وما ورد فيه من آيات واحاديث وكذلك من تعريف العلماء يتضح لنا أن الغلو هو: مجاوزة الحد في الامر المشروع، وذلك بالزيادة فيه أو المبالغة إلى الحد الذي يخرج عن الموصف الذي أراده وقصده الشارع العليم الخبير الحكيم .

(١) هو أبو عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني، ولد في بغداد سنة ١٦٦هـ، ربه شياً وترعرع وهو إمام أهل السنة في عصره، له موقف مشهود ثبت إمام القائلون من جهة خلق القرآن، رجع الله به السنة توفي (٢٤١هـ) .

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢ / ١٢٨ ، ١٤٤) صححه الألباني في صحيح الجامع رقم (١١٦٨) .

(٣) قال الشيخ الألباني رحمه الله في تعليقه على أحاديث المشكاة، رقم (٢٤٨) إن الحديث مرسل .

(٤) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (١ / ٢٨٩) .

(٥) انظر: فتح الباري (١٣ / ٣٧٨) .

(٦) انظر: تيسير العزيز الحميد (٢٥٦) .

وقد أفاد وأجاد الشيخ عبد الرحمن بن معلا اللويحق في إيضاح حقيقة الغلو وكشف حدوده ومعالمه في رسالته العلمية الغلو في الدين .

وقسم الغلو إلى أقسام:

أولاً: أن منشأ الغلو بحسب متعلفه ينقسم إلى ما يلي (١):

١ - إلزام النفس أو الآخرين بما لم يوجبه الله - عز وجل - عبادة وترهباً، ومقياس ذلك الطاقة الذاتية حيث إن تجاوز الطاقة في أمر مشروع يعتبر غلوّاً .  
والادلة على ذلك كثيرة منها :

ما رواه أنس بن مالك (٢) رضي عنه قال: دخل النبي ﷺ المسجد فإذا حبل ممدود بين ساريتين فقال: «ما هذا الحبل؟ فقالوا: هذا حبل لزيب، فإذا فترت نعلقت به، فقال النبي ﷺ: حلوه ليصل أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليرقده» (٣).

قال ابن حجر - رحمه الله - في شرحه لهذا الحديث: وفيه الحث على الاقتصاد في العبادة، والنهي عن التعمق فيها . (٤)

ب - تحريم الطيبات التي أباحها الله على وجه التعبد، أو ترك الضرورات أو بعضها ومن أدلة ذلك قصة النفر الثلاثة، حيث روى أنس بن مالك رضي عنه قال: «جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادته فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: أئن نحن من النبي ﷺ فقد غفر الله له تقدم من ذنبه وما تأخر، فقال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً .

(١) الغلو في الدين (٨٣) .

(٢) هو أنس بن مالك الأنصاري، ثالث الرواة الكثرين من الصحابة، فقد روى (٢٢٨٦) حديثاً وهو خادم رسول الله ﷺ، وأمه أم سليم الأنصارية، قال فيه أبو هريرة رضي عنه: ما رأيت أحداً أشبه صلاة رسول الله ﷺ من ابن أم سليم، وقال فيه ابن مبرين: أحسن الناس صلاة، في الخضر والمغر. توفي عام (٨٩٣هـ) . انظر: طبقات ابن سعد (٧ / ١٠)، تهذيب ابن عساکر (٣ / ١٣٩) .

(٣) رواد البخاري، كتاب التهجيد، باب ما يكره من التشدد في العبادة (٢ / ٦١ رقم ١١٥٠) .

(٤) فتح الباري، كتاب التهجيد، باب ما يكره من التشدد في العبادة (٣ / ٣٧) .

فجاء رسول الله ﷺ فقال: إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، أنكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» (١).

وكذلك لو اضطر مسلم إلى شيء محرم، كاكل حيوان محرم أو ميتة، وترك ذلك يؤدي به إلى الهلكة، فإن ذلك من التشدد، وبيان ذلك: أن الله هو الذي حرم هذا الشيء في حالة اليسر، وهو سبحانه الذي أباح أكله في حالة الاضطرار، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ لغيرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة: ١٧٣).

٣ - أن يكون الغلو متعلقاً بالحكم على الآخرين، حيث يقف من بعض الناس موقف المادح الغالي، ويقف من آخرين موقف الذم الجافي، ويصفهم بما لا يلزمهم شرعاً كالفسق أو المروق من الدين ونحو ذلك، وفي كلا الحالتين يترتب على ذلك أعمال هي من الغلو، كالحب والبغض، والولاء والهجر، وغير ذلك.

ثانياً: أن الغلو في حقيقته حركة في اتجاه الأحكام الشرعية والأوامر الإلهية، ولكنها حركة تتجاوز في مداها الحدود التي حددها الشارع، فهو مبالغة في الالتزام بالدين، وليس مروفاً عنه في الحقيقة، بل هو نابع من القصد في الالتزام به (٢).

ثالثاً: أن الغلو ليس هو الفعل فقط، بل قد يكون تركاً (٣) فترك الحلال كالنوم والاكل ونحوه من أنواع الغلو، إذا كان هذا الترك على سبيل العبادة والتقرب إلى الله كما يفعل بعض الصوفية والنباتيين (٤).

رابعاً: الغلو على نوعين: اعتقادي وعملي.

الاعتقادي على قسمين:

اعتقادي كلي، واعتقادي فقط.

(١) رواه مسلم، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح (٢ / ١٠٢٠، رقم ١٤٠٧).

(٢) انظر: الغلو في الدين (٨٤).

(٣) مع الترك قد يكون فعلاً.

(٤) انظر السابق (٨٤).



والمراد بالغلو الكلي الاعتقادي ما كان متعلقاً بكليات الشريعة وأمهاات مسائلها .  
 أما الاعتقادي - فقط - فهو ما كان متعلقاً بكليات الشريعة وأمهاات مسائلها .  
 أما الاعتقادي فقط فهو ما كان متعلقاً بباب العقائد دون غيرها كالغلو في الائمة  
 وادعاء العصمة لهم ، أو الغلو في البراءة من المجتمع المعاصي أو تكفير أفراده  
 واعتزالهم .

ويدخل في الغلو الكلي الاعتقادي الغلو في فروع كثيرة إذ أن المعارضة الحاصلة  
 به تلشع عمالة لتلك المعارضة الحاصلة بالغلو في أمر كلي (١) .

أما الغلو الجزئي العملي ، فهو ما كان غلوياً في جزئية من جزئيات الشريعة  
 ومتعلقاً بباب الأعمال دون الاعتقاد ، فهو محصور في جانب الفعل سواء آكان قولاً  
 باللسان أم عملاً بالجوارح (٢) .

والغلو الكلي الاعتقادي أشد خطراً ، وأعظم ضرراً من الغلو العملي إذ أن الغلو  
 الكلي الاعتقادي هو المؤدي إلى الشقاق والانشقاق ، وهو المظهر للفرق والجماعات  
 الخارجة عن الصراط المستقيم ، وذلك كغلو الخوارج (٣) والشيعنة (٤) .

خامساً : أنه ليس من الغلو طلب الاكمل في كمية العبادة ، بل يدخل في تحديد  
 الاكمل أمور عدة تتعلق بالعمل ، وبمن قام بالعمل ، وكذلك من له صلة بهذا العمل .

(١) انظر : انقضاء الصراط المستقيم (١ / ٢٨٩) والغلو في الدين (٧٠) .

(٢) انظر : الغلو في الدين (٧٧) .

(٣) سموا بذلك خروجهم على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، بجمعهم إكفار علي ، وعنهان ، والحكمين  
 وأصحاب الجمل ، والخروج على السلطان الجائر ، وتكفير صاحب الكبيرة - وتخليده في النار ، خلافاً للتجدات منهم  
 (نجدة بن عامر) وتفرقوا إلى أكثر من عشرين فرقة : انظر مقالات الإسلاميين تلامشري (١ / ٨٦) والملل والنحل  
 للشهرستاني (١ / ١١٤) ، واعتقادات فرق المسلمين لكفر الرازي (٤٦) وما بعدها .

(٤) سموا بذلك لمشايعتهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، نصاً ووصية : إما جليلاً ، وإما خفياً ، وأن الإمامة  
 لا تخرج من ولده إلا بظن من غيره أو ثبته منه ، والإمامة عندهم من اصول الدين وقالوا بوجود العصمة للأنبياء  
 عن الكبار والصغار ، وانتولي والتبيري قولاً وعملاً وعتقاداً ، إلا في حالة الشقية ، وقد يطلق اسم الرافضة على  
 الشيعة وهذا كثير ، وقد يراد بالرافضة الفرقة التي في مقابل الزيدية وذلك لرفضهم زيد بن علي في قتاله هشام  
 بن عبد الملك . انظر : الملل والنحل (١ / ١٤٧-١٤٧) .

فالصدقة - مثلاً - يراعى فيها: المتصدق والمتصدق عليه، والمال المتصدق به، ولا يسمى كمالاً كلياً بالنظر للكمال الجزئي . وذكر ابن حجر - رحمه الله - ما يؤيد هذا المعنى ونسبه إلى ابن المتير فقال: وليس المراد منع طلب الاكمل في العبادة، فإنه من الامور المحمودة، بل منع الإفراط المؤدي إلى الملل أو المبالغة في التطوع نلفضي إلى ترك الأفضل .<sup>(١)</sup>

سادساً: أن الحكم على العمل بأنه غلو، أو أن هذا السوء من الغلاة، باب خطير، لا يقدر عليه إلا العلماء الذين يدركون حدود هذا العمل، وتبحروا في علوم العقائد وفروعها، لأن الحكم على الشيء فرع من تصوره، فقد يكون الأمر مشروعاً ويوصف صاحبه بالغلو، وما نحن نرى اليوم أن الملتزمين بشرع الله، المتمسكين بالكتاب والسنة يوصفون بالغلو والتطرف والتزمت ونحوها، ولذلك فإن المعيار في الحكم على الاعمال والأفراد والجماعات هو الكتاب والسنة وليست الأهواء والتقاليد والأعراف والعقول، وما تعارف عليه الناس، وقد ضل في هذا الباب أمم وأفراد وجماعات .

ويعد أن اتضح لنا معنى (الغلو) لغة وشرعاً، وما يتعلق به من معان وأقسام، أوضح معنى (الإفراط) بإيجاز، حيث ستضح صلته بالغلو .

### ثانياً: الإفراط:

لغة هو: التقدم ومجاوزة الحد .

قال ابن فارس: يقال: أفرط: إذا تجاوز الحد في الأمر، ويقولون: إياك والفرط، أي لا تجاوز القدر، وهذا هو القياس، لأنه إذا جاوز القدر فقد أزال الشيء عن وجهته .<sup>(٢)</sup>

وقال الجوهري: وأفرط في الأمر: أي جاوز فيه الحد<sup>(٣)</sup> .

(١) نظر: فتح الباري (١ / ٩٤) ، والغلو في الدين (١٥)

(٢) مقاييس اللغة، كتاب القاء، الرزء (٤ / ٤٩٠) .

(٣) نظر: لصاح مادة (فرط) (٣ / ١١٤٨)

والفرطة - بالضم - اسم للخروج والتقدم، ومنه قول أم سلمة <sup>(١)</sup> لعائشة <sup>(٢)</sup> **بُطِئَتْ**: «إن رسول الله ﷺ نهاك عن الفرطة في السبلا»، وفي رواية نهاك عن الفرطة في الدين، يعني السبق والتقدم ومجاوزة الحد .

والإفراط: الإعجال والتقدم، وأفرط في الأمر: أسرف وتقدم وكل شيء جاوز قدره فهو مفرط . <sup>(٣)</sup>

قال تعالى: **﴿إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْفِي﴾** (ش: ٤٥) .

قال الطبري - رحمه الله - : وأما الإفراط فهو الإسراف والإسقاط والتعدي، يقال منه: أفرطت في قولك، إذا أسرف فيه وتعدي، وأما التفريط فهو التواني، يقال منه فرطت في هذا الأمر حتى فات، إذا توانى فيه <sup>(٤)</sup> .

ونخلص مما سبق أن معنى الإفراط: تجاوز الحد، والتقدم عن القدر المطلوب وهو عكس التفريط سيأتي:

وقد تبين مما سبق من تعريفي الغلو والإفراط أن كلا منهما يصدق عليه: تجاوز الحد، وقد فسر الغلو بالإفراط كما سبق وإن كل واحد منهما يحمل معنى أبلغ من الثاني في بعض ما يستعمل فيه فالذي يشدد على نفسه بتحريم بعض الطيبات، أو بحرمان نفسه منها وصف الغلو ألصق به من الإفراط، والذي يعاقب من اعتدى عليه عقوبة يتعد بها حدود مثل تلك العقوبة وهكذا .

والذي يهمنا في هذا المبحث أن كلا من الغلو والإفراط خروج عن الوسطية فكل أمر يستحق وصف الغلو، أو الإفراط فليس من الوسطية في شيء .

(١) هي هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن بظة بن مرة، انشغوبة من أمهات المؤمنين دخل بها رسول الله ﷺ في سنة أربع من الهجرة بعد وفاة أبي سلمة **بِحَمِّهِ** وكانت آخر أمهات المؤمنين، عاشت نحواً من سبعين سنة، وتوفيت سنة (٦١هـ) . انظر ترجمتها سير اعلام النبلاء (٢ / ٢١٠) .

(٢) هي عائشة بنت الإمام الصديق الأكبر أبي بكر **بِحَمِّهِ** البنية القرشية أم المؤمنين، زوج النبي ﷺ افتقه نساء الأئمة على الإطلاق، توفيت عام (٥٧هـ) وقيل: (٥٩هـ) . انظر: سير اعلام النبلاء (٢ / ١٣٥) .

(٣) لسان الحرب: فصل القدر، باب فرط (٧ / ٣٦٩) .

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٦ / ١٧٠) .

## المبحث الثاني

### التفريط والجفاء

أولاً التفريط: وبعد أن اتضح لنا معنى الغلو والإفراط، وما يدل عليه كل منهما، نقف الآن مع ما يقابلهما، وهو التفريط والجفاء . والتفريط في اللغة هو التضييع كما في لسان العرب .

وفي حديث علي رضي عنه : ( لا يري الجاهل إلا مفرطاً أو مفرطاً، وهو بالتخفيف المسرف في العمل، وبالتشديد المقصر فيه، وفرط في الأمر يفرط فرطاً أي: قصر فيه وضيعه حتى فات، وكذلك التفريط <sup>(١)</sup> )

ومنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم : «أما إنه ليس في النوم تفريط» <sup>(٢)</sup> وإذن فالتفريط هو التقصير والتضييع والترك .

قال ابن فارس - رحمه الله - : وكذلك التفريط، وهو التقصير، لأنه إذا قصر فيه فقد قعد عن رتبته التي هي له . <sup>(٣)</sup>

وقال الجوهري - رحمه الله - : فرط في الأمر فرطاً، أي قصر فيه وضيعه حتى فات، وكذلك التفريط . <sup>(٤)</sup>

وقد وردت مادة (فرط) في القرآن في عدة مواضع .

قال تعالى : «قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا» (الأنعام: ٣١) .

قال الطبري - رحمه الله - : يا ندامتنا على ما ضيعنا فيها . <sup>(٥)</sup>

(١) لسان العرب، فصل الفاء، باب فرط (٧ / ٣٦٩) .

(٢) صحيح مسلم، كتاب الساجد، باب قضاء الصلاة (١ / ٤٧٣، رقم ٦٨١) .

(٣) معجم مقاييس اللغة، كتاب الفاء، باب الفاء والراء (٤ / ٤٩) .

(٤) النظر: الصحاح، مادة فرط (٣ / ١١٤٨) .

(٥) نظر: الطبري في تفسيره (٧ / ١٧٨) .

وقال القرطبي - رحمه الله - : وفرطنا معناه ضيعنا، وأصله التقديم، فقولهم: فرطنا . أي قدمنا العجز .

وقيل: (فرطنا) أي جعلنا غير الفارط السابق لنا إلى طاعة الله وتخلفنا . (١)

وقال تعالى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٢٨) .

قال الطبري - رحمه الله - : ما ضيعنا إثبات شيء منه (٢)

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - ما تركنا شيئاً إلا قد كتبناه في أم الكتاب (٣) .

وقال تعالى:

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ﴾ (الأنعام: ٦١) (٤)

قال الطبري - رحمه الله - : قد بينا أن معنى التفريط: التضییع فيما مضى

قبل، وكذلك تأويله المتأولون في هذا الموضع . قال ابن عباس - رضي الله عنهما - ﴿لَا يُفِرُّونَ﴾ : لا يضيعون (٥) .

وفي سورة يوسف: ﴿وَمَنْ قَبْلُ مَا فَرَطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ (يوسف: ٨٠) .

قال الطبري - رحمه الله - ومن قبل فعلتكم هذه تفريطكم في يوسف، يقول:

أو لم تعلموا من قبل هذا تفريطكم في يوسف (٦)

قال القاسمي - رحمه الله - : ﴿فَرَطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ قصرتم في شأنه . (٧)

وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا

جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ (النحل: ٦٢)

(١) انظر: تفسير الطبري (٦ / ٢١٣) .

(٢) انظر: تفسير الطبري (٧ / ١٨٨) .

(٣) انظر: تفسير الطبري (٧ / ١٨٨) .

(٤) انظر: تفسير الطبري (٧ / ٢١٨) .

(٥) انظر: المصدر نفسه (١٣ / ٣٥) .

(٦) انظر: تفسير الطبري (١٣ / ٣٥) .

(٧) انظر: تفسير القاسمي (٩ / ٣٥٧٩) .

قال سعيد بن جبير - رحمه الله - : ﴿ وَأَنْتُمْ مُفْرَطُونَ ﴾ منسيون مضيعون وقال قتادة رحمه الله: (مضاعون) .

وقال آخرون: إنهم معجلون إلى النار مقدمون إليها، وذهبوا في ذلك إلى قول العرب: أفرطنا فلاناً في طلب الماء إذا قدموه لإصلاح الدلاء . وقيل غير ذلك، ورجح الطبري رحمه الله أن معنى (مفراطون) مخلفون متروكون في النار، منسيون فيها<sup>(١)</sup> .

وقال تعالى في سورة الكهف: ﴿وَلَا تُطْعَمُونَ مِنْ أَغْفَلَتَا قَلْبِهِ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (الكهف: ٢٨) روى عن مجاهد - رحمه الله- : ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ ضائعاً وروي عنه: ضياعاً .

قال الطبري - رحمه الله - : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: معناه: ضياعاً وهلاكاً، ومن قولهم: أفرط فلان في هذا الأمر إفراطاً، إذا أسرف فيه وتجاوز قدره، وكذلك قوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ معناه: وكان أمره هذا الذي أغفلنا قلبه عن ذكرنا الرياء، والكبر، واحتقار أهل الإيمان، سرفاً قد تجاوز حده فضيع بذلك الحق وهلك<sup>(٢)</sup> .

وقال ابن الجوزي - رحمه الله - : في الآية أربعة أقوال أحدها: أنه أفرط في قوله .

والثاني: ضياعاً، والثالث: تدماً، والرابع: كان أمره التفريط، والتفريط: تقديم العجز .<sup>(٣)</sup>

وفي سورة الزمر: ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴾ (الزمر: ٥٦) .

(١) انظر: تفسير الطبري (١٤ / ١٧٧) .

(٢) انظر: المرجع السابق (١٥ / ٢٣٦) .

(٣) انظر: زاد التفسير (٥ / ١٢٢) .

قال الطبري - رحمه الله - : يقول: على ما ضيعت من العمل بما أمرني الله به، وقصرت في الدنيا في طاعة الله . (١)

وقال القاسمي - رحمه الله - : ﴿يَا حَسْرَتَى عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ﴾ أي قصرت ﴿فِي حُبِّ اللَّهِ﴾ أي في جانب أمره ونهيه . (٢)

هذه تفسير الآيات التي وردت فيها ما يدل على التفریط ومن خلال أقوال المفسرين تبين أنها تدل على الترك والتهاون والتقصير والتصييع مع اختلاف بسيط بين مدلول هذه المعاني وكلها في مقابل الإقراط والغلو .

### ثانياً: الجفاء:

فقال ابن فارس - رحمه الله - : الجيم والنفاء والحرف المعتل يدل على أصل واحد: نبو الشيء عن الشيء، من ذلك: جفوت الرجل، جفوة، وهو ظاهر الجفوة، أي الجفاء، وجفاء السرج عن ظهر الفرس، وأجفيته أنا . وكذلك كل شيء إذا لم يلزم شيئاً، يقال: جفا عنه يجفو .

والجفاء: خلاف البر، والجفاء: ما نفاه السبل، ومنه اشتقاق الجفاء . (٣)

وقال ابن منظور (٤): جفا الشيء يجفو جفاءً وتجافى: لم يلزم مكانه، كالسرج يجفو عن الظهر وكالجنب يجفوس عن الفراش، وفي التنزيل: ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ (السجدة: ١٦) وفي الحديث: «اقرأوا القرآن ولا تجافوا عنه» (٥) أي تعاهدوه ولا تباعدوا عن تلاوته .

وفي الحديث عن أبي هريرة - رضى الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «الحياء من الإيمان والإيمان في الجنة، والبذاء من الجفاء، والجفاء في النار» . (٦)

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٤ / ١٩) .

(٢) تفسير القاسمي (١٤ / ٥١٤٦) .

(٣) انظر: مقاييس اللغة، كتاب الجيم، باب الجيم والنفاء، مادة جفو (١ / ٤٦٥) .

(٤) انظر: لسان العرب، فصل الجيم، باب جفا (١ / ٤٩) .

(٥) أخرجه أحمد في المسند (٣ / ٤٢٨، ٤٤٤) رصحه الشيخ الألباني في صحيح الجامع رقم (١١٦٨) .

(٦) أخرجه الترمذي، كتاب الصفة والبر، باب ما جاء في الحياء (٤ / ٣٢٠ ولم ٢٠٠٩) .

وفي الحديث أيضاً: «من بدا جفأ» .<sup>(١)</sup> بالذال المهملة، خرج إلى البادية والجفاء غلظ الطبع . وفي صفة عليه السلام ليس بالجافي المهين أي: ليس بالغليظ الخلق، ولا الطبع .<sup>(٢)</sup>

وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذَبُ جَفَاءً ﴾ (الرعد: ١٧) .

قال الطبري - رحمه الله - : زعم بعض أهل العربية من أهل البصرة أن معنى قوله: ﴿ فَيَذَبُ جَفَاءً ﴾ تنشفه الأرض، وقال: يقال: جفا الوادي وأجفى: في معنى نشف<sup>(٣)</sup> .

وقال تعالى: ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ (السعد: ١٦) قال الطبري - رحمه الله - : تتحى جنوب هؤلاء الذين يؤمنون بآيات الله، الذين وصفت صفتهم، وترفع عن مضاجعهم التي يضطجعون لنامهم، ولا ينامون .

تتجافى: تتفاعل من الجفاء، والجفاء النبو . وإنما وصفهم - تعالى ذكره بالتجافى في جنوبهم عن المضاجع لتركهم الاضطجاع للنوم شغلاً بالصلاة .

ثم قال: إن الله وصف هؤلاء النوم بأن جنوبهم تنبو عن مضاجعهم شغلاً منهم بدعاء ربهم وعبادته خوفاً وطعماً، وذلك نبو جنوبهم عن المضاجع ليلاً . الخ<sup>(٤)</sup> .

وبذلك يتضح أن الجفاء هو النبو والترك، والبعد، وهو غالباً ما يحدث خلاف الأصل والعادة، وأكثر ما تستعمل كلمة جفأ لما هو محرم منهى عنه كالجفاء بما يقابله الصلة والبر، والجفاء الذي هو من الشدة والغلظة وهذه أمثلة يتضح فيها معنى التفريط والجفاء .

١ - عقوق الوالدين، جفاء .

٢ - تأخير عمل اليوم إلى الغد - دون سبب - تفريط .

(١) أخرجه أحمد (٢ / ٣٧١ ، ٤٤٠) ، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (١٧٧٢) .

(٢) انظر: لسان العرب، فصل الجيم، باب جفا (١ / ٤٩) .

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٣ / ١٣٧) .

(٤) انظر: تفسير الطبري (٢١ / ٩٩-١٠٢) .



- ٣ - إهمال تربية الأولاد، تفريط .
  - ٤ - ترك الأخذ بالأسباب تفريط .
  - ٥ - رؤية المتكررات وعدم إنكارها مع القدرة تفريط .
  - ٦ - الغلظة في المعاملة، جفاء .
  - ٧ - تأخير الصلاة عن وقتها تفريط .
  - ٨ - السلبية مع واقع المسلمين وشئونهم وشجونهم، جفاء وتفريط .
  - ٩ - عدم القيام بحقوق العلماء وضعف الصلة بهم، جفاء وتفريط .
  - ١٠ - قطع الأرحام وعدم صلتهم، جفاء وتفريط، وبهذا يتبين معنى التفريط والجفاء، وأن بينهما عمومًا وخصوصًا وهما يقابلان معنى الغلو والإفراط .
- وعند التأمل في استعمال العرب لهما يلاحظ :
- أن الجفاء يستعمل - غالبًا - فيما فيه قصد الأمر من الترك والبعد وسوء الخلق .  
أما التفريط فمشتق - غالبًا - التساهل والتهاون .
- والخلاصة :
- أن كل أمر اتصف بالتفريط أو بالجفاء فإنه يخالف الوسطية بمقدار اتصافه بأي من هذين الوصفين يكون بعده عن الوسطية وتحايفه عنها .



## المبحث الثالث

### الصراط المستقيم

إننا بدون فهم معنى (الصراط المستقيم)، وتحديد مدلوله، لا نستطيع فهم الوسطية على معناها الصحيح . وقد ورد لفظ الصراط المستقيم، في القرآن الكريم عشرات المرات، وجاء أيضاً بلفظ ﴿صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢٠] و ﴿صِرَاطُكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الاعراف: ١٦٠] ، ﴿صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٥٣] ونحو ذلك .

ففي سورة الفاتحة نجد قوله تعالى: ﴿ اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٥] ثم يفسره بأنه ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦ - ٧] .

وفي البقرة جاء قوله تعالى: ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ١٤٢] وجاء بعد هذه الآية مباشرة ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وسيأتي بيان العلاقة بين هاتين الآيتين، وعيسى عليه السلام، في سورة آل عمران يقول لقومه: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥١] .

ونجد أن سورة الأنعام من أكثر السور التي ورد فيها الحديث عن الصراط المستقيم ﴿مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩] ﴿وَأَجْتَنِينَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٧] ﴿وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٢٦] ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣] ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ١٦١] .

وفي سورة إبراهيم سماه صراط العزيز الحميد: ﴿لَتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١] وفي سورة طه، وصفه بالسوي فقال: ﴿فَتَسْلَمُونَ مِنْ أَصْحَابِ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾ [طه: ١٣٥] .

وفي سورة الحج أضافه للحميد فقال: ﴿وَهَدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ [الحج: ٣٤] وفي سورة المؤمنون عرفه دون وصف أو إضافة: ﴿وَأَنَّ

الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَابُنَهُ ﴿التؤمنون: ٧٤﴾ وفي مريم يقول إبراهيم عليه السلام لآبيه: ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ (مريم: ٤٣)

وقول الله في سورة الأنعام: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (الأنعام: ١٥٣).

هذه بعض الآيات التي وردت في ﴿الصراط﴾ فما معناه؟

قال الطبري - رحمه الله: في قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الشعنا: ٥) أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه، وذلك في لغة جميع العرب، ومن قول الشاعر:

أمير المؤمنين على صراط إذا اعوج الموارد مستقيم<sup>(١)</sup>

وقال ابن عباس: قال جبريل لمحمد ﷺ: اهدنا الصراط المستقيم: يقول اللهمنا انطريق الهادي، وهو دين الله الذي لا اعوج له. (٢)

قال الطبري - رحمه الله -:

وإنما وصفه الله بالاستقامة، لأنه صواب لا خطأ فيه (٣)

وقال: وكل حائد عن قصد السبيل، وسالك غير المنهج القويم فضال عند العرب، لإضلاله وجه الطريق (٤).

وقال ابن كثير - رحمه الله -:

واختلفت عبارات المفسرين من السلف والخلف في تفسير الصراط، وإن كان يرجع حاصلها إلى شيء واحد، وهو المتابعة لله ورسوله. (٥)

(١) انظر: تفسير الطبري (١ / ٧٣).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١ / ٧٤).

(٣) انظر: المصدر السابق (١ / ٧٥).

(٤) انظر: المصدر السابق (١ / ٨٤).

(٥) انظر: تفسير ابن كثير (١ / ٢٧).

### وإليك أقوال المفسرين في الصراط المستقيم:

فقد روى الطبري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «وذكر القرآن فقال: هو الصراط المستقيم»<sup>(١)</sup>.

وقال علي: الصراط المستقيم: كتاب الله تعالى .

ويمثل ذلك فسر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وقال جابر بن عبد الله رضي الله عنه أهدنا الصراط المستقيم الإسلام، قال: هو أوسع مما بين السماء والأرض . وقال ابن عباس: ذلك الإسلام . وقال ابن عباس رضي الله عنه: هو الطريق<sup>(٢)</sup>.

وقال القاسمي - رحمه الله - : أشار شيخ الإسلام ابن تيمية في مبحث له مهم نشره عنه هنا لما فيه من الفوائد الجليلة، قال رحمه الله: ينبغي أن يعلم أن الاختلاف الواقع من المفسرين وغيرهم على وجهين: أحدهما ليس فيه تضاد وتناقض، بل يمكن أن يكون كل منهما حقاً، وإنما هو اختلاف تنوع، أو اختلاف في الصفات أو العبادات وعمامة الاختلاف الثابت بين مفسري السلف من الصحابة والتابعين هو من هذا الباب . قاله - سبحانه وتعالى - إذا ذكر في القرآن اسماً مثل قوله: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ (الدعوة: ٥) فكل من المفسرين يعبر عن الصراط المستقيم بعبارة يدل بها على بعض صفاته، وكل ذلك حق، بمنزلة ما يسمى الله ورسوله، وكتابه بأسماء كل اسم منها يدل على صفة من صفاته .

فيقول بعضهم: الصراط المستقيم: كتاب الله أو اتباع كتاب الله .

ويقول الآخر: الصراط المستقيم هو الإسلام أو دين الإسلام .

ويقول الآخر: الصراط المستقيم: هو السنة والجماعة .

ويقول الآخر: الصراط المستقيم: طريق العبودية، أو طريق الخوف والرضا

(١) أخرجه الترمذي ، كتاب فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل القرآن، (٥ / ١٥٨ رقم ٢٩٠٦)، وإسناده مجهول، وفي الخازن مسان، وأخرجه أيضاً الدارمي (٢ / ٥٢٧ رقم ٣٣٣٢) وأخرجه أحمد مختصراً (١ / ٩١) . قال الخافظ ابن كثير في فضائل القرآن (١١-١٢): وقصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وقد وهم بعضهم في رفعه، وهو كلام حسن صحيح .

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١ / ٢٧) .

والحُب، وامتنال المأمور واجتناب المحذور، أو متابعة الكتاب والسنة، أو العمل بطاعة الله، ونحو هذه العبارات والأسماء ومعلوم أن المسمى هو واحد، وإن تنوعت صفاته وتعددت أسماؤه<sup>(١)</sup>

ثم قال في موضع آخر: فإن الصراط المستقيم أن تفعل في كل وقت ما أمرت به في ذلك الوقت من علم وعمل، ولا تفعل ما نهيت عنه، وهذا يحتاج في وقت إلى أن تعلم ما أمر به في ذلك الوقت، وما نهى عنه، وإلى أن يحصل لك إرادة جازمة لفعل المأمور، وكراهة لتترك المحذور، والصراط المستقيم قد فسر بالقرآن والإسلام، وطريق العبودية، وكل هذا حق، فهو موصوف بهذا وبغيره<sup>(٢)</sup>

قال القاسمي - رحمه الله - الصراط المستقيم: أصله الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف . ويستعار لكل قول أو عمل يبلغ به صاحبه الغاية الحميدة، فالطريق الواضح للحس، كالحق للعقل، في أنه إذا سير بهما أبلغنا السالك النهاية الحسنى<sup>(٣)</sup> .

وقال ابن عاشور - رحمه الله - : والصراط في هذه الآية (آية الفاتحة) مستعار - لمعنى الحق الذي يبلغ به مدركه إلى الفوز برضاء الله، لأن ذلك الفوز هو الذي جاء الإسلام بطلبه . والمستقيم: اسم فاعل من استقام، مطاوع قومه فاستقام والمستقيم: الذي لا اعوجاج فيه ولا تعاريج، وأحسن الطرق الذي يكون مستقيماً، وهو الجادة لأنه باستقامته يكون أقرب إلى المكان المقصود من غيره، فلا يضل فيه سالكه، ولا يتردد ولا يتحير . والمستقيم هنا مستعار للحق البين الذي لا تخالطه شبهة باطل، فهو كالطريق الذي لا تتخلله نبات، ثم قال: والأظهر عندي أن المراد بالصراط المستقيم: المعارف الصالحات كلها من اعتقاد وعمل .<sup>(٤)</sup>

هذه بعض أقوال المفسرين في معنى الصراط المستقيم، كما ورد في سورة الفاتحة . وحيث وردت آيات كثيرة ذكر فيها الصراط المستقيم سبق ذكر بعضها فإن

(٢) انظر: المرجع السابق (١ / ٢٢) .

(١) انظر: تفسير القاسمي (١ / ٢٠) .

(٤) انظر: تفسير التحرير والتنوير (١ / ١ / ١٩٠) .

(٣) انظر: المرجع السابق (١ / ١٩) .

معناها من هذا المعنى الذي سبق تقريره، ولإيضاح ذلك أذكر تفسير بعض هذه الآيات باختصار:

قال تعالى: ﴿وَأَجْتَنَّبَهُم وَهَدَيْتَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الأنعام: ٨٧) .

قال مجاهد - رحمه الله - : ومددناهم فأرشدناهم إلى طريق غير معوج وذلك دين الله الذي لا عوج فيه ، وهو الإسلام الذي ارتضاه ربنا لأنبيائه، وأمر به عباده <sup>(١)</sup> وفي قوله تعالى: ﴿وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ (الأنعام: ١٢٦) .

قال الطبري - رحمه الله - : هو صراط ربك، يقول: طريق ربك، ودينه الذي ارتضاه لعباده ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ يعني قويمًا لا اعوجاج به عن الحق . <sup>(٢)</sup>

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الأنعام: ١٦٦) .

قال الطبري - رحمه الله - : يقول: قل لهم إنني أرشدني ربي إلى الطريق القويم، وهو دين الله الذي ابتعثه به، وذلك الحقبة المسلمة، فوقفتي له . <sup>(٣)</sup>

وفي سورة الأعراف: ﴿قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمِ﴾ (الأعراف: ١٦) . قال الطبري - رحمه الله - : يقول لأجلسن لبني آدم صراطك

المستقيم، يعني طريقك القويم، وذلك دين الله الحق، وهو الإسلام وشرائعه . <sup>(٤)</sup> وفي قوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ (مريم: ٤٣) قال الطبري - رحمه

الله - : يقول أبصرك هدي الطريق المستوي الذي لا تضل فيه إن لزمته، وهو دين الله الذي لا اعوجاج فيه . <sup>(٥)</sup>

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّاكِبُونَ﴾ (المؤمنون: ٧٤) قال الطبري - رحمه الله - : يقول عن محجة الطريق، وقصد السبيل، وذلك دين

الله الذي ارتضاه لعباده العادلين . <sup>(٦)</sup>

وبهذا يتضح أن معنى الصراط في جميع هذه الآيات معنى واحد، وإن اختلفت العبارة والسياق .

(٢) انظر: المرجع السابق (٨ / ٣٢) .

(٤) انظر: المرجع السابق (٨ / ١٣٤) .

(٦) انظر: المرجع السابق (١٨ / ٤٤) .

(١) انظر: تفسير الطبري (٧ / ٢٦٢) .

(٣) انظر: المرجع السابق (٨ / ١٦٦) .

(٥) انظر: المرجع السابق (١٦ / ٩٠) .

## المبحث الرابع

## الصلة بين الوسطية والصراف المستقيم

كما تقدم يتضح أن معنى الصراف المستقيم يدل على الوسطية في مفهومها الشرعي الاصطلاحي الذي سبق تفريره، وبخاصة أن ما جعلته لازماً لمفهوم الوسطية وإطلاقها قد تحقق في معنى الصراف المستقيم، فالخيرية والبيئية ظاهرتان في هذا الأمر. فنجد في سورة الفاتحة لما قال تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة: ٥) عرفه فقال: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ (الفاتحة: ٦) ثم حدده فقال: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة: ٦ - ٧) فجعل الصراف المستقيم طريق الخيار، وهو الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدقيين والشهداء والصالحين وهو بين طريقي المغضوب عليهم والضالين .

وكذلك في سورة البقرة قال تعالى: ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (البقرة: ١٤٢) فقال بعدها مباشرة: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة: ١٤٣) وقد تحدث المفسرون عن الكاف في هذه الآية، وذكر غير واحد (الكاف) للربط بين جعلهم أمة وسطاً وهدايتهم للصراف المستقيم .<sup>(١)</sup>

وهذه بعض الأحاديث التي تزيد الأمر وضوحاً:

فعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: «كنا عند النبي ﷺ، فخط خطاً وخط خطين عن يمينه، وخط خطين عن يساره، ثم وضع يده على الخط الأوسط، فقال: هذا سبيل الله، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾» (٢)

وذكر القرطبي - رحمه الله - في تفسيره: أن رجلاً قال لابن مسعود رضي الله عنه ما

(١) انظر: تفسير التحرير والتنوير (٢ / ١ / ١٥)، والطبري (٢ / ٦) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في المقدمة باب اتباع رسول الله ﷺ (١ / ٦ رقم ١١) وله شواهد، وحسنه الشيخ الألباني رحمه الله في المشكاة رقم (١٦٦) ونقل عن الحاكم تصحيحه .

الصراط المستقيم ؟ قال تركنا محمد ﷺ في أدناه، وطرفه في الجنة، وعن يمينه جواد، وعن يساره جواد، وثم رجال يدعون من مر بهم، فمن أخذ في تلك الجواد انتهت به إلى النار، ومن أخذ عن الصراط انتهى به إلى الجنة، ثم قرأ ابن مسعود:

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ (الأنعام: ١٥٣) (١) .

وبالتأمل فيما سبق يتضح لنا ما يلي:

- ١ - أن الصراط المستقيم: تمثل قمة الوسطية وذروة سنامها وأعلى درجاتها، وأيتنا الفاتحة والبقرة حجة قاطعة في ذلك .
- ٢ - أن الوسطية تعني الخيرية، سواء أكانت خير الخيرين أو خيراً بين شرين، أو خيراً بين أمرين متفاوتين، وقد سبق تفصيل ذلك .
- ٣ - أن المقياس لتحديد الخيرية هو الشرع، وليس هوى الناس أو ما تعارفوا عليه أو ألفوه، فإن مفهوم الوسطية عند كثير من الناس تعني التنازل أو التساهل؛ بل والمداهنة أحياناً، حيث يختارون الأمر بين الخير والشر وهو إلى الشر أقرب في حقيقته ومآله، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .
- ٤ - أن هناك عوامل كثيرة، وأصولاً معتبرة (٢) تُوجب مراعاتها عند ضبط مفهوم الوسطية وتطبيقها على أمر من الأمور، حيث إن قصر النظر على أمر دون آخر يؤدي إلى خلاف ذلك ومجانبته .



(١) يختلف ذلك باختلاف الأحوال والفضايح، ولكل حالة ما يناسبها ضمن الضوابط الشرعية .

(٢) انظر: الوسطية في ضوء القرآن (٧٩، ٨٠، ٨١) .



# الباب الثاني

ملاحح الوسطية



## الباب الثاني

### ملامح الوسطية

تمهيد: للوسطية ملامح وسمات تحف بها، وتميزها عن غيرها، بمجموع تلك الملامح لا بأفرادها، وقد طالعت ما ورد في وسطية هذه الأمة بين الأمم، وكذلك ما كتبه بعض الذين بحثوا الوسطية، ومن خلال استقراء القرآن الكريم توصلت إلى تحديد سمات وملامح الوسطية .

وتحديد هذه الملامح مهمة أساسية في مثل هذا البحث، حتى لا تكون الوسطية مجالاً لأرباب الشهوات وأصحاب الأهواء ذلك أن الوسطية مرتبة عزيزة المتال، غالية الثمن، كيف لا وهي سمة هذه الأمة، ومحور تميزها بين الأمم؟! جعلها الله خاصية من خصائصها، تكرمًا منه وفضلاً: ﴿وَذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (البقرة: ٤) .

إن من أهم سمات الوسطية ما يلي:

- السمة الأولى: الخيرية .
- السمة الثانية: العدل .
- السمة الثالثة: اليسر ورفع الحرج .
- السمة الرابعة: الحكمة .
- السمة الخامسة: الاستقامة .
- السمة السادسة: البيئية .

وكل سمة من هذه السمات يدخل تحتها عدد من أفرادها، وصاين لكل سمة بما يلائم المقام، وفي الغرض، والله الهادي إلى سواء السبيل . واطن أن هذه الملامح بمجموعها تصلح ضابطاً لتحديد الوسطية ومعرفتها، بما يرد على السؤال الذي لا بد أن يرد في أذهان الكثيرين أين ضابط الوسطية وكيف تميزها عن غيرها؟

## الفصل الأول

### الخيرية

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ وقال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (١١٠: عمران) وقد بينت أن من معاني الوسطية الخيرية .

### المبحث الأول

#### أقوال المفسرين في آية الخيرية

قال ابن كثير - رحمه الله - : والوسط هنا: الخيار والاجود، كما يقال لفريش أوسط العرب نسباً وداراً، أي خيراها .<sup>(١)</sup> وفي تفسيره لقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: يعني الناس للناس، والمعنى: أنهم خير الامم وأنتفع الناس للناس، إلى أن قال: كما في الآية الأخرى، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة: ١٤٣) أي خياراً .<sup>(٢)</sup>

وقال الطبري - رحمه الله - : مقررًا خيرية هذه (الامة الوسط): فإن سأل سائل فقال: وكيف قيل: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ ؟ وقد زعمت أن تأويل هذه الآية أن هذه الامة خير الامم التي مضت، وإنما يقال: كنتم خير امة لقوم كانوا خياراً فتغيروا عما كانوا عليه؟ قيل: إن معنى ذلك بخلاف ما ذهب إليه، وإنما معناه أنتم خير امة، كما قيل: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ﴾ (الاعمال: ٢٦) وقد قال في موضوع آخر: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثُرْتُمْ﴾ (الاعراف: ٨٦) فإدخال كان في مثل هذا وإسقاطها بمعنى واحد، لأن الكلام معروف معناه . ولو قال أيضاً في ذلك قائل: ﴿كُنْتُمْ﴾ بمعنى التمام، كان تأويله خلقتم خير امة، أو وجدتم خير امة، كان معنى صحيحاً<sup>(٣)</sup> . وفي تفسيره

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١ / ١٩٠) .

(٢) انظر: المرجع السابق (١ / ٣٩١) .

(٣) انظر: تفسير الطبري (٤ / ١٥) .

لقوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (نقرة: ١٤٣) قال: وأما التأويل فإنه جاء بأن الوسط العدل، وذلك معنى الخيار، لأن الخيار من الناس عدولهم .<sup>(١)</sup>

وبما سبق يتضح أن الخيرية مما فسر به معنى الوسطية التي ذكرها الله من خصائص هذه الأمة، فما هي هذه الخيرية التي نعرف بها وسطية هذه الأمة ؟

قال الطبري - رحمه الله - معنى ذلك: كنتم خير أمة أخرجت للناس، إذا كنتم بهذه الشروط التي وصفهم - جل ثناؤه - بها، فكان تأويل ذلك عندهم: كنتم خير أمة تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله، أخرجوا للناس في زمانكم .<sup>(٢)</sup>

قال أبو السعود - رحمه الله<sup>(٣)</sup>: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ أي إيمانًا متعلقًا بكل ما يجب أن يؤمن به من رسول وكتاب وحساب وجزاء، وإنما لم يصرح به تفصيلاً لظهور أنه الذي يؤمن به المؤمنون، وللإيدان بأنه هو الإيمان بالله تعالى حقيقة .<sup>(٤)</sup> وقال القاسمي - رحمه الله - : ثم بين وجه الخيرية بما لم يحصل مجموعها لغيرهم بقوله: ﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١١٠) فهذه الصفات فضلوا على غيرهم عن قال تعالى فيهم: ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنِ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (الأنعام: ٧٩) ﴿ وَيَقُولُونَ تَزِمْنَا بِبَعْضٍ وَنُكْفَرُ بِبَعْضٍ ﴾ (النساء: ١٥٠) .

وقال محمد رشيد - رحمه الله - : والحق أقول: إن هذه الأمة ما فتئت خير أمة أخرجت للناس، حتى تركت الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ثم قال: وقد بين الفخر الرازي كون وصف الأمة هنا بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإيمان علة لكونها خير أمة أخرجت للناس، فقال: واعلم أن هذا الكلام مستأنف والمقصود

(١) انظر: المرجع السابق (٢ / ٧) .

(٢) انظر: المرجع السابق (٤ / ٤٤) .

(٣) هو محمد بن محمد بن مصطفى العمادي تلميذ الخفي القسري الأصولي الشاعر صاحب تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ولد سنة ٨٩٢هـ، وتوفي عام ٩٨٢هـ. انظر لوجسته في البدر الطالع: (١ / ٢٦١) والشذرات (٨ / ٣٩٨)، ومعجم القسرين (٢ / ٦٢٥-٦٢٦) .

(٤) انظر: تفسير القاسمي (٤ / ٩٣٦) .

منه بيان علة تلك الخيرية، كما تقول: زيد كريم، يطعم الناس ويكسوهم، ويقوم بما يصلحهم .

وتحقيق الكلام أنه ثبت في أصول الفقه أن ذكر الحكم مقروناً بالوصف المناسب له يدل على كون ذلك الحكم معللاً بذلك الوصف فهنا حكم تعالى بشيوت وصف الخيرية لهذه الأمة، ثم ذكر عقبيه هذا الحكم وهذه الطاعات، أعني الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإيمان، فوجب كون تلك الخيرية معللة بهذه العبادات .<sup>(١)</sup>

وقد وردت بعض الأحاديث التي تدل على خيرية هذه الأمة منها:

١ - روى الترمذي في تفسيره لهذه الآية أن رسول الله ﷺ قال: «إنكم تسمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله» .<sup>(٢)</sup>

٢ - وقال ﷺ: «أعطيت ما لم يعط أحد من الأنبياء، فقلنا: يا رسول الله ما هو؟ فقال: نصرت بالرعب، وأعطيت مفاتيح الأرض، وسميت أحمد، وجعل التراب لي طهوراً، وجعلت أمتي خير الأمم» .<sup>(٣)</sup>

فهذه الأحاديث مع آية آل عمران تبين خيرية هذه الأمة، التي جعلها الله أمة وسطاً، وقد جمع المفسرون بين معنيين الخيرية والوسطية، حتى جاء أحدهما تفسيراً للآخر، كما مر معنا . ولاهمية بيان معنى الخيرية، فسأذكر أبرز أوجه هذه الخيرية ليتضح لنا معنى الوسطية .



(١) انظر: تفسير المنار (٤ / ٦٠) .

(٢) أخرجه الترمذي ، كتاب تفسير القرآن، باب سورة آل عمران، (٥ / ٢١١ رقم ٣٠٠٦) قال الترمذي: هذا حديث حسن، وواقفه الشيخ الألباني رحمه الله كما في المشكاة رقم (٦٢٨٥) .

(٣) أخرجه أحمد (١ / ٩٨ ، ١٥٨) ، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: (١ / ٢٦٥-٢٦٦) وفيه عيد الله بن محمد بن عقيل، وهو سبن الحفظ ، قال الترمذي: حديث، وقد تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه، وسمعت محمد بن إسماعيل - يعني البخاري - يقول: كان أحمد بن حنبل ، وإسحاق بن إبراهيم ، والحريسي يتحدثون بحديث ابن عقيل: قلت: فالحديث حسن، والله أعلم .

## المبحث الثاني

### أبرز أوجه خيرية هذه الأمة <sup>(١)</sup>

لم تنل هذه الأمة هذه المكانة السامقة بين الأمم، مصادفة، ولا جزافاً ولا محاباة، قاله سبحانه وتعالى منزّه عن أن يكون في ملكه شيء من ذلك، فكل شيء عنده بمقدار، وهو يخلق ما يشاء ويختار، وهو سبحانه عندما أخبر أن هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس، بين وجه ذلك وعلته في نفس الآية فقال: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠) فهذه الأمور الثلاثة العظيمة القدر كانت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس، على أن هذه الأمور ليست هي كل ما كانت به هذه الأمة خير أمة إذ هناك أمور وخلال كثيرة أهلت هذه الأمة لهذه الخيرية، ولكن هذه الثلاثة أهمها وأعظمها، إذ لا تدوم ولا تستمر هذه الخيرية ولا تحفظ إلا بإقامتها وأدائها، فإن فقدت هذه الأمور في جيل من أجيال هذه الأمة لم يكن حرباً بهذه الخيرية التي حظيت بها هذه الأمة .

وسأعرض فيما يأتي لأهم أوجه هذه الخيرية، محاولاً الإيجاز وعدم الإطالة .  
فأقول: وبالله التوفيق .

### الوجه الأول: إيمانها بالله عز وجل:

إن إيمان هذه الأمة يتميز عن إيمان سائر الأمم بأنه إيمان عام وشامل، يشمل جميع الرسل التي أرسلت، والكتب التي أنزلت على جميع الأمم التي خلقت: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْكُمْ وَكُتِبَ وَرَسُولُهُ لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رَسُولِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة: ٢٨٥) .

وقال عليه السلام في حديث جبريل المشهور في بيان حد الإيمان الواجب على هذه الأمة: «أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره

(١) انظر: وسطية أهل السنة بين الفرق (٢١٠) .

وشراءه. (١) فحصل لهذه الأمة المحمدية من الإيمان بجميع الرسل، وجميع الكتب ما لم يحصل لغيرها باعتبار ما يأتي:

١ - أن هذه الأمة هي آخر الأمم، كما قال النبي ﷺ: «نحن الآخرون السابقون...» (٢) وقال في حديث آخر: «تكمل اليوم سبعين أمة نحن آخرها وخيرها» (٣) وفي حديث آخر: «نحن آخر الأمم وأول من يحاسب» (٤) فأمنت بجميع الرسل والكتب التي قبلها، مع إيمانها برسولها الخاتم، وكتابها المهيمن على جميع الكتب، ولم يقع ذلك إلا لها فحق لها أن تكون خير الأمم، لأنها جمعت خير ما عندهم من الإيمان بالكتب والرسل.

٢ - أن كثيراً من الأمم التي قبلها، لم تؤمن بمن كان قبلها من الرسل والكتب، بل كذبوا وكفروا بهم وهذا الوجه وإن جاء في الآية تقديم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لمعنى اختلف المفسرون في تحديده (٥) إلا أنه باتفاق الجميع هو الأساس الذي يبنى عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإذا لم يكن ثبت إيمان على أساسه يتصور المعروف فيؤمر به، والمنكر فينهى عنه، فليس هناك أمر بمعروف ولا نهى عن المنكر بالمعنى الشرعي.

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام (١ / ٣٦).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجمعة، باب فرض الجمعة (٢ / ٣٥٤)، رقم الحديث (٨٧٦).

(٣) أخرجه ابن ماجه: كتاب الزهد، باب صفة أمة محمد ﷺ (٢ / ١٤٣٣)، حديث رقم (١٢٨٧) وقال الشيخ الألباني: حسن، صحيح ابن ماجه (٢ / ٤٢٦).

(٤) أخرجه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب صفة محمد ﷺ (٢ / ١٤٣٤، ٤٢٩٠) وقال البوصيري: إسناده صحيح، ورجاله ثقات، وقال الشيخ الألباني: صحيح، صحيح ابن ماجه (٢ / ٤٢٧).

(٥) قيل: إنه أخطر الإيمان عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع تقدمه عليهما وجوداً ورتبة لأن دالتهما على غيرتهم أظهر من دلالتها عليهما. وقيل: للتعريف بأهل الكتاب الذين كانوا يدعون الإيمان، ولا يقدر على ادعاء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأنهم كانوا في مجموعهم لا يتساهون عن منكر فعلوه هما من خصائص هذه الأمة المعيزة لها، وقيل: ولأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب الإيمان بهما يستمر نقاؤه وصفاؤه وتوجهه، بل واستمراره، وكلما ضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ضعف الإيمان، ودخلت عليه البدع والمعاصي التي تحول دون عمقه وقوته.

انظر: تفسير أبي السعود (٢ / ٧١)، وتفسير المنار (٤ / ٦٤) بتصرف.



الوجه الثاني: أنها أمة تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر:

وهذا من أعظم ما به كانت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس، فهو من أظهر خصائصها، وأبرز ما تتميز به عن سائر الأمم، ولذلك قدمها الله عز وجل في الذكر على الإيمان به تعالى، مع كونه - أي الإيمان - مستقداً عليهما في الوجود والرتبة، فقال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُقِيمُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠)، وقد أمر الله هذه الأمة بأن تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر، وأن يكون فيها من يفهم بذلك فقال عز وجل: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٤) كما أوجب النبي ﷺ ذلك على أمته على حسب الاستطاعة وهي مراتب فقال: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» (١).

قال الإمام النووي - رحمه الله - : وأما قوله ﷺ: «فليغيره» فهو أمر إيجاب بإجماع الأمة، وقد تطابق على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الكتاب والسنة وإجماع الأمة، وهو أيضاً من النصيحة التي هي الدين، ولم يخالف في ذلك إلا بعض الرافضة، ولا يعتد بخلافهم . . . ثم إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية إذا قام به بعض الناس سقط الحرج عن الباقين، وإذا تركه الجميع أثم كل من تمكن منه بلا عذر ولا خوف . . . (٢)

ولما كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بهذه المثابة، عدتها كثير من السلف شرطاً في استحقاق الخيرية المشار إليها في الآية مع الإيمان بالله عز وجل: كما روى ابن جرير رحمه الله بسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه في حجة حجها قرأ هذه الآية ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ الآية . ثم قال: يا أيها الناس من سره أن يكون من تلك الأمة فليؤد شرط الله منها . (٣) وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب النهي عن المنكر (١ / ٦٩، رقم ٤٩).

(٢) شرح النووي مع مسلم كتاب الإيمان، باب وجوب الأمر بالمعروف (٢ / ٢٢-٢٣).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٧ / ١٠٢).

وأخرج عن مجاهد - رحمه الله - : في قوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ ، يقول : على هذا الشرط : أن تأمروا بالمعروف ، وتنهوا عن المنكر وتؤمنوا بالله .<sup>(١)</sup>

ولقد كانت هذه الأمة أكثر الأمم قياماً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بل لم يكن في أمة من الأمم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، مثل ما في هذه الأمة ، إذ كانت أعظم الأمم التي قبلنا وهم بنو إسرائيل مفرطين فيهما غير قائمين بهما كما قص الله عز وجل علينا خبرهم في قوله تعالى : ﴿ لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (٧٨) كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴿ (الثالث: ٧٨ - ٧٩) .

فلما قامت هذه الأمة بهذا الأمر مع نقصير غيرها من الأمم وتفريطها فيه ، كانت جذيرة بما أنبته الله ورسوله لها من الخيرية ، إذ خير الناس أمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر ، كما جاء عن النبي ﷺ فيما رواه الإمام أحمد في مسنده عن درة<sup>(٢)</sup> بنت أبي لهب قالت : « قام رجل إلى النبي ﷺ وهو على المنبر فقال : يا رسول الله : أي الناس خير ؟ فقال ﷺ : خير الناس أقرؤهم وأتقاهم ، وأمرهم بالمعروف ، وأنهاهم عن المنكر ، وأوصلهم للرحم » .<sup>(٣)</sup>

### الوجه الثالث: كونها خير الأمم للناس وأنفعها لهم:

وذلك أن هذه الأمة لما قامت بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكان من أعظم المعروف الذي تأمر به الإيمان بالله عز وجل وعبادته وحده ، ومن أنكر المنكر الذي تنهى عنه وتحذر الناس منه : الإشراك بالله وعبادة غيره من دونه ، كما قال عبد الله بن عباس رضي الله عنه : « تأمرونهم بالمعروف ، أن يشهدوا أن لا إله إلا الله ،

(١) المصدر السابق (٧ / ١٠٢) .

(٢) وهي : درة بنت أبي لهب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف الهاشمية ، ابنة عم النبي ﷺ ، أسنمت وهاجرت . انظر : ابن حجر ، الإصابة (٤ / ٢٩٧) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٦ / ٤٣٢) .

والإقرار بما أنزل الله، وتفاتلهم عليه، ولا إله إلا الله هو أعظم المعروف، وتنهونهم عن المنكر، والمنكر هو التكذيب، وهو أنكر المنكر. (١)

إنما كانت في الواقع تدعو الناس إلى ما فيه نفعهم ونجاتهم، وتنهاهم عما فيه هلاكهم، بإذلة في سبيل ذلك النفس والنفس، ليس لها هدف إلا القيام بما أوجه الله عليها من هداية الخلق إلى طريق النجاة، وإخراجهم من ظلمات الجهل والشك، والوثنية، إلى نور التوحيد والإيمان، وتحريرهم من عبودية العباد إلى عبودية الخالق جل وعلا، كما قال ربعي بن عامر (٢) رضي الله عنه لرستم (٣) قائد الفرس لما سأله: ما جاء بكم؟ قال: الله ابتعثنا، والله جاء بنا، لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لتدعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه حتى نقضي إلى موعود الله، قال: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبي، والمظفر لمن بقي . . . (٤)

لقد كان هذا الصحابي الجليل خير سفير لهذه الأمة إلى رستم وقومه، بين له مهمة هذه الأمة، وهدفها، وهو أنها لم تخرج لطلب ملك، أو مال أو دنيا وسلطان، وإنما أخرجها الله وابتعثها، كما قال عز وجل: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (٥) عمران: ١٠٤) بالبناء للمجهول للدلالة على أنها لم تخرج بنفسها لهوى أو مصلحة ذاتية، وإنما أخرجت للناس، والله هو الذي أخرجها، لتدعو الخلق إلى عبادة الخالق دون المخلوق، ليس لها هدف سوى ذلك. فإن هو تحقق كان ذلك غاية ما تطمح إليه وتسد به (فمن قبل منا ذلك، قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه يليها دوننا). (٥)

(١) انظر: تفسير الطبري (٧ / ١٠٥).

(٢) هو: ربعي بن عامر بن خالد، أمه به عمر المثنى بن حارثة، وكان من أشرف العرب، وكان على محنية جيش أبي عبيدة إلى العراق، وله ذكر في غزوة نهاوند، وولاه الأحنف بن قيس لما فتح خراسان على صخرستان. قال ابن حجر: رعد تقدم غير مرة أنهم كانوا لا يؤمرون إلا الصحابة. انظر الإصباح (١ / ٥٠٣).

(٣) انظر: رستم بن الفرخزاد الأرمي، قائد الفرس في القواسية. انظر: ابن كثير، البداية والنهاية (٧ / ٣٨).

(٤) انظر: تاريخ الأمم والملوك للطبري (٣ / ٥٢٠)، وانظر: البداية والنهاية (٧ / ٤٠).

(٥) انظر: وسطية أهل السنة بين الفرق (٢١١).

من أجل ذلك كانت هذه الأمة خير الأمم للناس، لأنها تدعوهم إلى الخير، ولا ترجو منهم ثمناً له، بل تجاهد من يحول بينها وبين تبليغ عباد الله دين الله، حتى يخلي بينهم وبينه، ثم بعد ذلك من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، إذا تبين للناس الرشد من الغي كما قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ (البقرة: ٢٥٦) ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِثُوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَاتِبِهِ يَشْوِي الوجوه بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (الكهف: ٢٩) .

لكن هذه الأمة بما أوتيت من حب الخير للغير، تكره للناس أن ينتهوا إلى هذا المصير الرهيب، وتجاهد نفسها - في غير من ولا أذى - في سبيل أن تحول بينهم وبينه . إن أمة تحمل للبشرية كل هذا الخير، غير مبالية بما يلقي من عنت وتعب، ونصب، بما في ذلك القتل والقتال، وغراق المال والعيال، ليهي بحق خليقة بأن تكون: ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ لأنها تسعى لنفعهم وهدايتهم وإنقاذهم من العذاب والعقاب الذي ينتظرهم .

يقول الصحابي الجليل أبو هريرة - رضي عنه - في هذا المعنى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: خير الناس للناس، تأنون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلون في الإسلام .<sup>(١)</sup> وكذا قال غير واحد من السلف كابن عباس<sup>(٢)</sup> ومجاهد، وعكرمة وغيرهم<sup>(٣)</sup> .

#### الوجه الرابع: كونها أكثر الناس استجابة للأنبياء:

أشار إلى هذا الوجه الإمام ابن جرير - رحمه الله - بقوله: (وقال آخرون إنما قيل: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ لأنهم أكثر الأمم استجابة للإسلام، ثم روي

(١) أخرجه البخاري ، كتاب التفسير ، باب ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (٨ / ٢٢) ، رقم الحديث (٤٥٥٧) مؤلفاً .

(٢) انظر: الدر المنثور ، للسيوطي ، (٤ / ٢٩٤) .

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٢ / ٧٧) .

عن الربيع<sup>(١)</sup> أنه قال في الآية: لم تكن أمة أكثر استجابة في الإسلام من هذه الأمة فمن ثم قال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾<sup>(٢)</sup>.

يدلل على ذلك ما جاء في الحديث الصحيح من كونه ﷺ أكثر الأنبياء تبعًا، كما في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «أنا أول شفيع في الجنة لم يصدق نبي من الأنبياء ما صدقت، وإن من الأنبياء نبيًا ما يصدق من أمته إلا رجل واحد»<sup>(٣)</sup>.

وعنه أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أكثر الأنبياء تبعًا يوم القيامة وأنا أول من يفرح باب الجنة»<sup>(٤)</sup>.

بوضح النبي ﷺ مبلغ هذه الكثرة فيقول في الحديث الذي رواه ابن عباس رضي الله عنهما: «عرضت على الأمم، فجعل النبي والنبيان يمرون معهم الرهط<sup>(٥)</sup> والنبي ليس معه أحد، حتى رفع لي سواد عظيم، قلت: ما هذا؟ أمتي هذه؟ قيل: بل هذا موسى وقومه، قيل: انظر إلى الأفق، فإذا سواد بجلا الأفق، ثم قيل لي: انظر هاهنا، وهاهنا - في آفاق السماء - فإذا سواد قد ملا الأفق، وقيل: هذه أمتك، ويدخل الجنة من هؤلاء سبعون ألفًا بغير حساب»<sup>(٦)</sup>.

وهذه النصوص الصحيحة صريحة في بيان أن المؤمنين التابعين للنبي ﷺ من هذه الأمة، أكثر من التابعين لأي نبي من الأنبياء من الأمم السابقة، فهذه الأمة أقرب الأمم إلى الحق واعتناقه، وهذه علامة الخير والرشد، وبذلك كانت ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ لكون المؤمنين والمهتدين منها أكثر منهم في الأمم قبلها.

(١) هو: الربيع بن أنس البصري، ثم الخراساني، روى عن أنس بن مالك وأبي العافية، قال العجلي: «صدوق» وقال أبو حاتم: «صدوق»، وهو أحب إلي من أبي العافية، وقال النسائي: ليس به بأس توفي سنة ١٣٩هـ، وقيل: (١٤٠هـ). انظر: تهذيب التهذيب (٣ / ٢٣٨).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٧ / ١٠٣).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة (١ / ١٨٨)، رقم الحديث (٣٣٢).

(٤) نفس المصدر والجزء والصفحة، رقم الحديث (٣٣٦).

(٥) الرهط: عدد يجمع من ثلاثة إلى عشرة. انظر: لسان العرب: (٧ / ٣-٥) مادة (ر ه ط).

(٦) أخرجه البخاري: كتاب الطب، باب من اتقى، أو كوي غيره، وقيل من لم يكن (١٠ / ١٥٥) رقم الحديث (٥٧٠٥).

### الوجه الخامس: كونها لا تجتمع على ضلالة:

وذلك أنها أمة ورثت الرسل في القيام بهداية البشر ودعوتها إلى ما دعا إليه سائر الرسل من الإيمان بالله وعبادته وحده، فهي ذات رسالة تبليغها، وتستمر في إبلاغها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ولذلك ما كان لهذه الأمة أن تضل عن مهمتها ورسالتها مهما طال عليها الأمد، وامتد بها الأجل لأنها إن ضلت هي فلن يهتدي أحد، لانقطاع الوحي والرسالة .

وقد يضل بعض أفرادها وطوائفها عن الحق، بل قد يكفر ويلحد وينافق طوائف منها ولكنها لا تجمع ولا تجتمع على ذلك أبداً . بذلك أخبرنا الصادق المصدوق عليه السلام ، فقال فيما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه : «إن الله قد أجاز أمتي أن تجتمع على ضلالة» (١)

بخلاف من قبلها من الأمم، فإنه كان الحق يغلب فيهم حتى لا تقوم به طائفة منهم، فهؤلاء أهل الكتاب، اليهود منهم والنصارى، اندثر الحق والدين الصحيح بينهم وانقرضت الفرقة التي كانت على الحق أو انحرفت، وأصبحت فرقتهم كلها على ضلال وكفر وشك، فهاهم بسائر فرقتهم وطوائفهم قد أجمعوا على الضلالة والكفر وأعرضوا عما جاء به الإسلام من الحق فليس منهم رجل رشيد .

أما هذه الأمة فإنها والحمد لله لا تجتمع على ضلالة أبداً، بل لا بد أن تبقى طائفة منها على الدين الصحيح ظاهرة قائمة به، كما قال عليه السلام : «لا تزال طائفة من أممي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون» (٢) وفي رواية أخرى: «لا تزال طائفة من أممي منصورين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة» (٣)

(١) ابن أبي عاصم: السنة (١ / ٤٦)، وحسنه الشيخ الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣ / ٣١٩-٣٢٠) رقم الحديث (١٣٣١) .

(٢) صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالسنة، باب لا تزال طائفة (٧ / ١٨٩)، الحديث رقم (٧٣١١)، أخرجه ابن ماجه: المقدمة، باب اتباع سنة رسول الله ﷺ (١ / ٦) رقم الحديث (٦) .

(٣) المرجع السابق .

فأمة تثبت على الهدى والتوحيد، ولا يذهب فيها نور النبوة والقرآن؛ بل لا يزال مشتتاً مضيئاً في يدها تحمله جيلاً بعد جيل إلى أن تلقى الله به آخر طائفة منها، لا شك أنها خير الأمم التي عرفتها البشرية، بما لم توغل كما أوغل الكثير من الأمم قبلها في الكفر والضلالة، وبما يبقى فيها من الخير والهدى ما لم يبق في غيرها من الأمم. (١)

الوجه السادس: كون الكتاب الذي أنزل عليها خير الكتب السماوية: وذلك من وجوه:

١ - إنه الكتاب الذي وصفه الله بأنه أحسن الحديث الذي أنزله .

فقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُثَابِهَا مُثَابِي تَقْشَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (الرسم: ٢٣) .

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - : (هذا مدح من الله - عز وجل - لكتابه القرآن العظيم المنزل على رسوله الكريم) . (٢) وهو نص في أن القرآن الكريم أفضل وأحسن من غيره من الكتب السماوية التي أنزلها الله عز وجل قبله .

٢ - إنه الكتاب السماوي الوحيد الذي تكفل الله بحفظه وصيانته من الزيادة والنقصان ومن التحريف والتبديل .

فقال جل وعلا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩) فالمراد بالذكر: القرآن، والضمير في قوله: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ راجع إليه على الصحيح .

قال فضيلة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي (٣) رحمه الله - : ( . . . ) وهذا هو

(١) انظر: وسطية أهل السنة بين التفرق (٢١٩) .

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧ / ٨٤) .

(٣) هو الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي العلامة الأصولي المفسر الثنوي الحافظ، المالكي مدعيًا صاحب التصانيف، ومنها أمواه البيان في تفسير القرآن، آداب البحث والمناظرة، توفي بمكة عام ١٣٩٣ هـ. انظر: الأعلام (٦ / ٤٥) .

الصحيح في معنى هذه الآية، أن الضمير في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ راجع إلى الذكر الذي هو القرآن، وقيل الضمير راجع إلى النبي ﷺ كقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (التوبة: ٦٧) والاول هو الحق كما يتبادر من ظاهر السياق. (١)

وأخبر جل وعلا: أن الباطل لا يتطرق إليه بحال، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت: ٤١ - ٤٢) فكتاب هذه الأمة محفوظ بحفظ الله له، وقد مضى على نزوله الآن أربعة عشر قرناً من الزمان ولا يزال كما أنزله الله على عبده ورسوله محمد ﷺ، لم يستطع أحد أن يزيد فيه حرفاً، أو ينقص منه حرفاً، أو يبدل فيه حرفاً مكان آخر، فهو محفوظ في السطور والصدور، يحفظه عشرات الآلاف من المسلمين، ولو أراد أحد أن يزيد فيه حرفاً أو ينقصه منه لرد عليه صغار أبناء المسلمين قبل كبارهم وذلك من حفظ الله له. (٢)

وهذه حقيقة ملموسة يعترف بها أعداء الإسلام فضلاً عن أبنائه، يقول وليم ميمور في كتابه (حياة محمد) - وهو معروف بتحامله على الإسلام ونبيه ﷺ - : (لم يمض على وفاة محمد ﷺ ربع قرن حتى نشأت منازعات عنيفة، وقامت طوائف، وقد ذهب عثمان بن عفان ضحية هذه الفتق ولا تزال هذه الخلافات قائمة، ولكن القرآن ظل كتاب هذه الطوائف الوحيد، إن اعتماد هذه الطوائف جميعاً على هذا الكتاب تلاوة، برهان ساطع على أن الكتاب الذي بين أيدينا اليوم هو الصحيفة التي أمر الخليفة المظلوم بجمعها وكتابتها، فلعله هو الكتاب الوحيد في الدنيا الذي بقي نصاً محفوظاً من التحريف طيلة ألف ومائتين سنة). (٣)

ويقول وهيري في تفسيره للقرآن: (إن القرآن أبعد الصحف القديمة بالإطلاق عن الخلط والإلحاق، وأكثر صحة وأصالة). (٤)

(١) انظر: أضواء البيان (٣ / ١٠٧).

(٢) انظر: وسطية أهل السنة بين الفرق (٢٢١).

(٣) حياة محمد (٢٢-٢٣) اقتبسها الشيخ أبو الحسن علي بن الحسن الندوي في كتابه النبوة والانبيااء في ضوء القرآن (٢١٢).

(٤) نفس المصدر السابق اقتبسه الشيخ أبو الحسن الندوي.



ويقول المستشرق (١) لين بول (١٨٣٢ - ١٨٩٥): (إن أكبر ما يمتاز به القرآن أنه لم يتطرق شك إلى أصالته، إن كل حرف نقرؤه اليوم نستطيع أن نتق بأنه لم يقبل أي تغيير منذ ثلاثة عشر قرناً). (٢)

وذلك بخلاف الكتب السماوية السابقة، التي طرأ عليها الكثير من التحريف والتبديل، والزيادة والنقصان، بل والضياع أيضاً، وكان من ذلك ما أشار إليه الحق تبارك وتعالى في غير ما آية من كتابه العزيز كقوله تعالى: ﴿أَقْطَمُوعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٧٥) وقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْسَتْ بِهَا لَنَا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (البقرة: ٧٩)

وقوله عز وجل: ﴿وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٣٨ عمران: ٧٨). وذلك لأن الله عز وجل لم يتكفل بحفظها، وإنما وكل ذلك إلى أهلها فضيعوا وحرفوا وبدلوا، قال تعالى:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ (٣٤ المائدة: ٤٤)

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله - : (فإن قيل: ما الفرق بين التوراة والقرآن، فإن كلا منهما كلام الله أنزله على رسول من رسله صلوات الله عليهم، والتوراة حُرِّفَتْ، وبدلت . . . . . والقرآن محفوظ من التبديل والتحريف، ولو حُرِّفَ منه أحد حُرُوفًا واحدًا فأبدله بغيره أو زاد فيه حرفًا أو نقص منه آخر لرد عليه آلاف الاطفال من صغار المسلمين فضلاً عن كبارهم ؟

(١) عالم في الآثار المصرية، له عدة مؤلفات. انظر: المستشرقون، لتجيب اتعقوبي (٢ / ١٦٤) والمستشرقون قوم من الغرب تعلموا تدراسة اللغة وتراث المسلمين للظعن في الإسلام. وتركوا أوطانهم وعاشوا في الشرق ومنهم من نال بالإسلام ودخل فيه.

(٢) عن كتاب النبوة والأنباء، لآبي الحسن الندوي (٢١٣).

قال: فالجواب: أن الله استحفظهم الثوراء، واستودعهم إياها، فخانوا الأمانة ولم يحفظوها، بل ضيعوها عمدًا، والقرآن العظيم لم يكل الله حفظه إلى أحد حتى يمكنه تضييعه، بل تولى حفظه جل وعلا بنفسه الكريمة المقدسة كما أوضحه بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ وقوله: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ (نصت: ٤٢ الآية إلى غير ذلك من الآيات). (١)

### ٣ - إنه الكتاب المهيم على الكتب قبله:

لما كان القرآن الكريم هو آخر الكتب السماوية المنزلة، وهو الكتاب الذي يحمل الصورة الأخيرة لدين الله، وهو المرجع الأخير في هذا الشأن، المرجع الأخير في عوائد الناس، وشرائعهم ونظام حياتهم (٢)، فقد جعله الله الكتاب المهيم على الكتب المنزلة قبله، فقال جل وعلا: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (البقرة: ٤٨)، أي: هو الشهيد والأمين والمؤتمن والرقيب والحاكم على كل كتاب قبله كما أثار ذلك عن ابن عباس وغيره. (٣)

يقول العلامة ابن كثير رحمه الله: (وهذه الأقوال كلها مستقاربة في المعنى، فإن اسم المهيم يتضمن هذا كله، فهو أمين، وشاهد، وحاكم على كل كتاب قبله، جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها، وأشملها وأعظمها وأحكمها، حيث جمع فيه محاسن ما قبله، وزاده من الكمالات ما ليس في غيره، فلهذا جملة شاهدك وأمينًا عليها كلها وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩). (٤)

### ٤ - إنه الكتاب الوحيد الذي تحدى الله البشر أن يأتوا بسورة من مثله:

القرآن الكريم معجزة الله الخالدة، التي آتاها نبيه ﷺ، للدلالة على صدقه

(١) انظر: أضواء البيان (٢ / ٨٩ - ٩٠).

(٢) انظر: سيد قطب في ظلال القرآن (٢ / ٧٤٧).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٠ / ٣٧٧ - ٣٧٨).

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣ / ١١٩).

ونبوته، فتحدى به الجن والإنس، أن يأتوا بمثله فقال: ﴿قُلْ لَنْ أَجْتُمِعَ الْإِنْسَ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الاسراء: ٨٨) وقال تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (النمل: ٣٤) ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افترأه قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَاذْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (مرد: ١٣) .

فلما لم يستطيعوا تحداهم أن يأتوا بسورة فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افترأه قُلْ فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِثْلِهِ وَاذْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (يونس: ٣٨) وهذا التحدي من خصائص هذا الكتاب العزيز، ولم يقع لكتاب قبله، لأن الله لم يجعلها معجزة لانبياؤه، وإنما اختص كل نبي منهم بمعجزة رئيسه من جنس ما برع فيه قومه، فكانت معجزة موسى عليه السلام إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص لبروز قومه في الطب، ثم جعل معجزة نينا عليه السلام هذا الكتاب الكريم المعجز بنظمه ومعناه فتحدى به العرب مع فصاحتهم وبلاغتهم التي عرفوا بها .

يقول عليه السلام: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله، فأرجو أن أكون أكثر تبعاً يوم القيامة» .<sup>(١)</sup> قال الإمام ابن كثير في معنى قوله عليه السلام: في الحديث: (إنما كان الذي أوتيته وحياً أي الذي اختلفت به من بينهم هذا القرآن المعجز للبشر أن يعارضوه بخلاف غيره من الكتب الإلهية، فإنها ليست معجزة والله أعلم) .<sup>(٢)</sup>

وبعد: فهذا غيض من فيض من فضائل هذا الكتاب العظيم، الذي أنزل على هذه الأمة، فهو الكتاب الوحيد الذي وصفه الله بأنه أحسن الحديث، والكتاب الوحيد الذي تكفل الله بحفظه وصيانته من بين سائر كتبه، وهو الكتاب الذي جعله الله مهيمناً وشاهداً على ما قبله من الكتب، حاوياً لأفضل وأحسن ما جاء فيها

(١) أخرجه البخاري ، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي (٩ / ٣) ، رقم الحديث (٤٩٨١) .

(٢) تفسير ابن كثير (١ / ٨٩) .

وزائداً عليها بفضائل كثيرة وهو الكتاب الوحيد الذي تحدى الله الجن والإنس أن يأتوا بمثله أو يمثل سورة من سوره .

وإن اختيار الله عز وجل لكتاب بهذه العظمة وهذا الفضل ليكون الكتاب الذي ينزله على هذه الأمة ليدل على فضل هذه الأمة وخيريتها وقال الحافظ ابن حجر مبيناً مناسبة إيراد الإمام البخاري حديث ابن عمر عن النبي ﷺ : «إنما أجلكم في أجل من خلا من الأمم، كما بين صلاة العصر ومغرب الشمس، ومثلكم ومثل اليهود والنصارى، كمثّل رجل استعمل عمالاً، فقال: من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟ فعملت اليهود، فقال: من يعمل لي من نصف النهار إلى العصر؟ فعملت النصارى، ثم أنتم تعملون من العصر إلى المغرب بقيراطين قيراطين، قالوا نحن أكثر عمالاً وأقل عطاء، قال: هل ظلمتكم من حفاكم؟ فقالوا: لا، قال: فذاك فضلي أوتيته من شئت» .<sup>(١)</sup> ومناسبة الحديث : من باب من جهة ثبوت فضل هذه الأمة على غيرها من الأمم وثبوت الفضل لها بما ثبت من فضل كتابها الذي أمرت بالعمل به<sup>(٢)</sup> .

الوجه السابع: كون نبيها أفضل الأنبياء والرسل عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام:

لقد بين عز وجل في كتابه الكريم انه فضّل بعض الرسل والأنبياء على بعض فقال: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ (البقرة: ٢٥٣) وقال في آية أخرى: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ (الإسراء: ٥٥) .

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - (٠٠٠) ولا خلاف أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء وأن أولي العزم منهم أفضلهم، وهم الخمسة المذكورون نصاً في آيتين من

(١) أخرجه البخاري ، كتاب فضائل القرآن، باب فضل القرآن على سائر الكلام (٩ / ٦٦ ، رقم الحديث ٥٠٢٦) .

(٢) فتح الباري (٩ / ٦٧) .

القرآن في سورة الاحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ (الاحزاب: ٧) وفي الشورى ﴿لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وُصِّىَ بِهِ نُوْحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وُصِّينَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ (الشورى: ١٣)، ولا خلاف أن محمداً ﷺ أفضلهم ثم بعده إبراهيم ثم موسى على المشهور. (١)

فتبيننا ﷺ أفضل الخلق قاطبة، وهو سيد البشر، كما أخبر عن ذلك ﷺ في قوله: «أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون بم ذلك؟» (٢) ثم بين ﷺ أنه يشفع للمخلق يوم القيامة حين لا يشفع هذه الشفاعة العظمى غيره من الأنبياء والرسل عليهم أفضل الصلاة والسلام. وقال ﷺ في حديث آخر: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع». (٣) وهو ﷺ حين يقول ذلك ويخبر به لا يقوله من باب التفاخر والتعالي، فقد صرح بنفي الفخر في رواية أخرى فقال: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر». (٤) وإنما قاله لوجهين:

أحدهما: امثال قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (النمل: ١١).

والثاني: أنه من البيان الذي يجب عليه تليغه إلى أمته ليعرفوه ويعتقدوه ويعملوا بمقتضاه ويوقروه ﷺ بما تقتضي مرتبته، كما أمرهم الله تعالى. (٥)

ولأنه لا يمكننا معرفة ذلك إلا بخبره ﷺ، إذ لا نبي بعده يخبرنا بعظيم قدره عند الله (٦) ولا يشكل على تفضيله ﷺ على غيره من الأنبياء والمرسلين، ما ورد من قوله ﷺ في حديث أبي هريرة: «لا تخبروني على موسى فإن الناس يصعقون

(١) تفسير القرآن العظيم (٥ / ٨٥).

(٢) أخرجه مسلم كتاب الإيمان، باب أدنى الجنة منزلة (١ / ٨٤، رقم الحديث ٣٢٧).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الفضائل، باب تفضيل نبينا محمد على جميع الخلائق (٤ / ١٧٨٢، رقم ٢٢٧٨).

(٤) أخرجه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب ذكر الشفاعة، (٢ / ١٢٤٠) رقم الحديث ٤٣٠٨، وصححه الشيخ

الإمامي. انظر: صحيح ابن ماجه (٢ / ٤٣٠).

(٥) النووي، شرح صحيح مسلم (١٥ / ٣٧).

(٦) انظر: ابن أبي العز، شرح الطحاوية (١٧٤).

فأكون أول من يفتق فإذا موسى ياطش بجانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي أو كان ممن استثنى الله» (١).

وقوله ﷺ في رواية أخرى: «لا تفضلوا بين الأنبياء» (٢).

وقوله ﷺ: «لا ينبغي لعبد أن يقول إني خير من يونس بن متى» (٣)، فإن المراد بالنهاي: التفضل المؤدي إلى تنقص المقبول من الأنبياء وهذا غير لازم لتفضيل النبي ﷺ، لأنهم أفاضل وهو أفضلهم من غير نقص أو تنقص لمكانتهم صلوات الله وسلامه عليهم.

وقال بعض أهل العلم: (المراد بالنهاي: التفضيل المؤدي إلى الخصومة والتنازع وقال بعضهم إنه ﷺ نهى عن تفضيله على موسى أو غيره من الأنبياء تواضعاً وتادباً وإلا فهو أفضلهم) (٤).

#### عموم رسالته:

وإن من أعظم ما به فضل نبي هذه الأمة صلوات الله وسلامه عليه، ما خصه الله به، من عموم البعثة، وشمول الرسالة لجميع الأمم، وليس ذلك لأحد قبله من إخوانه الرسل والأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام وفي بيان عموم رسالته يقول المولى تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف: ٥٨).

قال الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره - رحمه الله: (يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ قل يا محمد للناس كلهم: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ لا إلى بعضكم دون بعض، فمن كان منهم أرسل كذلك، فإن رسالتي ليست إلى بعضكم دون بعض، ولكنها إلى جميعكم) (٥).

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب وفاة موسى (٦ / ٤٤١) رقم الحديث (٣٤٠٨).

(٢) انظر: الفتح (٦ / ٤٤٤)، وتخرجه الألباني لشرح الطحاوية (١٧١).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وإن يونس بن المرسلين﴾ (٦ / ٤٥٠).

(٤) انظر: فتح الباري (٦ / ٤٤٦).

(٥) انظر: تفسير الطبري (١٣ / ١٧٠).

وقال الإمام ابن كثير - رحمه الله - : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ وهذا خطاب للأحمر والأسود، والعربي والعجمي، ﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ أي جميعكم وهذا من شرفه وعظمته أنه خاتم النبيين، وأنه مبعوث إلى الناس كافة، ثم ذكر بعض الآيات الدالة على ذلك وقال: والآيات في هذا كثيرة، كما أن الأحاديث في هذا أكثر من أن تحصر، وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه صلوات الله وسلامه عليه رسول إلى الناس كلهم. (١)

ومن الآيات الدالة على عموم رسالته ﷺ قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سبأ: ٢٨)، وقوله عز وجل: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧) .

ومن الأحاديث الواردة في ذلك ما جاء في الصحيحين من حديث جابر بن عبد الله، أن رسول الله ﷺ قال: «أعطيت خمسيناً لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأبى من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحللت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ويبعث إلى الناس عامة» (٢).

وكل الأنبياء والرسل قبله صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، كانوا يبعثون إلى أقوامهم خاصة دون غيرهم، كما أخبر الله عز وجل، فقال عن نوح: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ (نوح: ١) وقال: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ (الأعراف: ٥٩) وقال عن هود عليه السلام: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ (الأعراف: ٦٥) .

وقال عن صالح عليه السلام: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾ (الأعراف: ٧٣) وقال عن لوط عليه السلام: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ (الأعراف: ٨) وقال عن شعيب عليه السلام: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ (الأعراف: ٨٥) وقال عن موسى عليه السلام:

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣ / ٤٨٨) .

(٢) أخرجه البخاري : كتاب التيمم ( ١ / ٢٣٦-٢٣٥ ) رقم الحديث (٣٣٥) .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴿٤٧﴾ وَقَالَ عَنِ عِيسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (آل عمران: ٤٤٩)

وقال في حق محمد ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ (آسيا: ٢٨) لجميع الناس، بل والجن أيضاً فقد ثبت أنه ﷺ مرسل إليهم أيضاً، وقد بلغهم ﷺ كما أخبر المولى بذلك في قوله: ﴿وَإِذْ صَرَّفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤١﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ (الاحقاف: ٢٩ - ٣١) .

وقال الإمام ابن كثير في تفسيره - رحمه الله - : (فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمداً صلوات الله وسلامه عليه إلى الثقلين الإنس والجن حيث دعاهم إلى الله وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم، وهي سورة الرحمن ولهذا قال: ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ (١)

ختم النبوة به:

ومما يدل على مبلغ فضله ﷺ وعلو مقامه، أن الله ختم به النبوات وبرسالته تمت الرسائل، فلا تحتاج البشرية بعده إلى نبي، ولا بعد رسالته ودينه الكامل الشامل إلى رسالة أو دين يقول عز وجل: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رُّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ (الاحزاب: ٤٠) .

وفي الصحيح من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بني بيتاً فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية فجعل الناس يطوفون ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين» (٢)

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧ / ٢٨٦) .

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المشاقب باب خاتم النبيين (٤ / ٦٩٦ رقم الحديث ٢٥٣٥) .



وبعد: فإن هذه الأمة إنما حازت قصب السبق إلى الخيرات بنبيها محمد ﷺ، فإنه أشرف خلق الله وأكرم الرسل على الله، بعثه الله بشرع كامل عظيم، لم يعطه نبياً قبله ولا رسولاً من الرسل، فالعمل على منهجه وسبيله، يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه .<sup>(١)</sup>

ولامة يختار الله أفضل رسله، وأعلاهم مكانة ومرتبة عنده وأحبهم إليه فيبعثه فيها هادياً ونبياً ورسولاً لهي أمة حرة بأن تكون خير أمة، لأنها أمة خير الخلق والرسل منه تعلمت وعلى يديه تربت وبه فاقت الأمم .<sup>(٢)</sup>

الوجه الثامن: تقديمها على الأمم في الحشر والحساب يوم القيامة ودخول الجنة مع كونها آخر الأمم:

إن مما يدل على فضل هذه الأمة، كونها خير الأمم ما خصها الله به من التكريم والتشريف وتقديمها على سائر الأمم يوم القيامة في الحشر والحساب، كما قال ﷺ: «فنحن آخر الأمم، وأول من يحاسب يقال: أين الأمة الأمية ونبينا؟ فنحن الآخرون والأولون»<sup>(٣)</sup>

وفي الصحيح أنه ﷺ قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله، فالتاس لنا فيه تبع، اليهود غداً، والنصارى بعد غدا»<sup>(٤)</sup>

يقول الحافظ ابن حجر - رحمه الله - : أي: نحن الآخرون زماناً السابقون منزلة، قال: والمراد أن هذه الأمة وإن تأخر وجودها في الدنيا عن الأمم الماضية، فهي سابقة لهم في الآخرة بأنهم أول من يحشر وأول من يحاسب وأول من يقضي بينهم، وأول من يدخل الجنة .

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢ / ٧٨) .

(٢) انظر: وسطية أهل السنة بين الفرق (٢٣٢) .

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الجمعة، باب فرض الجمعة (٢ / ٣٥٤) رقم الحديث (٨٧٦) .

(٤) نفس المصدر السابق .

وفيل: المراد بالسبق: إحراز فضيلة اليوم السابق بالفضل وهو يوم الجمعة، ويوم الجمعة وإن كان مسبقاً بسبب قبله أو أحد تكن لا يتصور اجتماع الأيام الثلاثة متوالية إلا ويكون يوم الجمعة سابقاً<sup>(١)</sup>

وظاهر الحديث يشمل الأمرين، فقد نص على سبقها يوم القيامة، كما هو نص في سبقها في الاهتداء لأفضل الأيام الذي هو يوم الجمعة مع تأخرها عن اليهود والنصارى في الزمان والله تعالى أعلم، وهي كذلك أول الأمم دخولاً الجنة، مع كونها آخر الأمم زماناً، وذلك من تكريم الله لها، وتفضيله إياها، يقول ﷺ في ذلك: «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة، ونحن أول من يدخل الجنة»<sup>(٢)</sup>.

#### الوجه التاسع: كونها أكثر أهل الجنة:

لما كانت هذه الأمة أكثر الأمم استجابة للرسول صلوات الله وسلامه عليهم، حتى كان ﷺ أكثر الأنبياء تابعاً، امتازت بأنها أكثر من يدخل الجنة من الأمم، وفي ذلك دلالة جليلة على فضلها وخيريتها .

يقول ﷺ: «أترضون أن تكونوا ريع أهل الجنة؟ قلنا: نعم . قال: أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟ قلنا: نعم . قال: أترضون أن تكونوا شطر أهل الجنة؟ قلنا: نعم . قال: والذي نفس محمد بيده، إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة، وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة، وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر»<sup>(٣)</sup> وبذلك اتضحت لنا أوجه الخيرية لهذه الأمة، وبيننا معنى من معاني الوسطية ألا وهو الخيرية .



(١) نظر: فتح الباري (٢ / ٢٥٤) .

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (٢ / ٥٨٥) رقم (٨٥٥) .

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الرقاق، باب كيف أحضر (١١ / ٣٧٨) رقم الحديث (٦٥٢٨) .

## الفصل الثاني

### العدل

#### المبحث الأول

#### أقوال المضمرين في (أمة وسطاً)

أما العدل فقد صح فيه الحديث عن رسول الله ﷺ حيث فسر قوله تعالى: ﴿أُمَّةٌ وَسَطًا﴾ (البقرة: ١٤٣) بقوله: عدولاً وذلك في الحديث الذي رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري، حيث قال ﷺ: «الوسط العدل»<sup>(١)</sup> وفي رواية الطبري: قال ﴿أُمَّةٌ وَسَطًا﴾ عدولاً .<sup>(٢)</sup>

وقال القرطبي - رحمه الله - : الوسط: العدل، وأصل هذا أن أحمد الأشياء أوسطها . ثم قال: قال علماؤنا: أنبأنا ربنا - تبارك وتعالى - في كتابه بما أنعم علينا من تفضيله لنا باسم العدالة، وتولية الشهادة على جميع خلقه فجعلنا أولاً مكاناً، وكنا آخراً زماناً كما قال ﷺ: «نحن الآخرون الأولون»<sup>(٣)</sup> وهذا دليل على أنه لا يشهد إلا العدول، ولا ينفذ قول الغير على الغير إلا أن يكون عدلاً .<sup>(٤)</sup>

ومما يدل على أن العدل من ملامح الوسطية قول الطبري - رحمه الله - : وأما التأويل فإنه جاء بأن الوسط العدل، وذلك معنى الخيار، لأن الخيار من الناس عدولهم<sup>(٥)</sup> ثم ساق الأدلة من السنة وأقوال السلف في ذلك .

\* ■ \*

(١) رواه البخاري ، كتاب التفسير ، باب قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (٥ / ١٧٧) رقم (٤٤٨٧) .

(٢) تفسير الطبري (٢ / ٦) .

(٣) مسلم، كتاب الجمعة، باب عداية هذه الأمة ليوم الجمعة (٢ / ٥٨٥) رقم (٨٥٥) .

(٤) انظر: تفسير القرطبي (٢ / ١٥٥) .

(٥) انظر: تفسير الطبري (٢ / ٧) .

## المبحث الثاني

### وجوب العدل على هذه الأمة وصور من قيامها به

أولاً: وجوب العدل عند هذه الأمة:

العدل من الأسس والقيم التي جاءت بها جميع الشرائع السماوية، فأنزل الله به كتيبه، وأرسل به رسله، ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد: ٢٥) أي العدل فما من كتاب أنزل ولا رسول إلا أمر أمته بالعدل، وأوجبه عليها، والامم بين طائع آخذ منه بنصيب، وحائد مائل عن العدل والقسط بجهل أو هوى، والرسول ما تزال تجدد ما نسيت الأجيال، وتذكر الناس بما نسوا إلى أن ختمت الرسالات بخاتم الأنبياء نبينا محمد ﷺ. ولما كانت هذه الرسالة المحمدية خاتمة الرسالات، والنبى ﷺ خاتم الأنبياء والرسول، وهذه الأمة خاتمة الأمم، والأمة التي جعلها الله شاهدة على الناس وقيمة على البشرية، تبلغها دين الله، وتشهد لها بالإيمان أو عليها بالكفر والعصيان: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ فقد كان العدل من أهم ما يجب على هذه الأمة، بل هو من أعظم ما يميزها عن الأمم. ولم يكن الحق تبارك وتعالى بإيجاب العدل على هذه الأمة، بل أراد منها أن تجعله خلقاً من أخلاقها، وصفة من صفاتها، وصبغة تصطبغ بها من دون الناس، فأمرها أن تكون قائمة بالعدل، بل قوامه به بين الناس، لله عز وجل، لا لأي شيء آخر فلا تحابي فيه قريباً لقربته ولا تضار عدواً لعداوته: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ١٧٨).

قال الإمام ابن جرير في تفسير هذه الآية: (يعني بذلك جل ثناؤه: يا أيها الذين آمنوا بالله، ورسوله محمد ﷺ ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيام لله شهداء بالعدل، في أولياتكم وأعدائكم، ولا تجوروا في أحكامهم وأفعالكم فتجاوزوا ما حددت لكم في أعدائكم لعداوتهم ولا تقصروا فيما حددت لكم من أحكامي،

وحدودي في أوليائكم لولايتهم لكم، ولكن انتهوا في جميعهم إلى حدي، واعملوا فيه بأمرى). (١)

وقال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - : (أي: كونوا قائمين بالحق لله عز وجل، لا لأجل الناس والسمعة، وكونوا شهداء بالقسط، أي بالعدل لا بسالجور ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم؛ بل استعملوا العدل في كل أحد، صديقاً كان أو عدواً) (٢)  
وقال في موضع آخر: (أي: لا يحملنكم بغض أقوام على ترك العدل، فإن العدل واجب على كل أحد في كل أحد في كل حال). (٣)

فالعدل الذي أمرت به هذه الأمة، حق عام لكل أحد من الناس، لا يحجبه عن مستحقه شتآن ولا عداوة، ولا يحول دونه اختلاف لون ولا جنس بل ولا دين: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَعْدِلُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (النساء: ٥٨).

فالعدل حق لكل الناس جميع الناس، لا عدلاً بين المسلمين بعضهم وبعض فحسب، ولا عدلاً مع أهل الكتاب دون سائر الناس، وإنما هو لكل إنسان بوصفه (إنسان) فهذه الصفة - صفة الناس - هي التي يترتب عليها حق العدل في المنهج الرباني، وهذه الصفة التي يلتقي عليها البشر جميعاً، مؤمنين وكفاراً، أصدقاءً وأعداءً، سوداً وبيضاً، عربياً وعجماء، والأمة المسلمة قيمة على الحكم بين الناس بالعدل - متى حكمت في أمرهم-. (٤)

العدل واجب على هذه الأمة ولو كان فيه مراغمة لعواطف البغض والعداوة: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ وهو كذلك واجب

(١) تفسير الطبري (١٠ / ٩٥) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣ / ٥٨) .

(٣) النظر: نفس المصدر .

(٤) النظر: خلال القرآن (٢ / ٤١٤) .

ولو كان فيه مراغمة لكافة عواطف الحب والمودة والقرابة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَرَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ (نساء: ١٣٥) والامة مأمورة بأن تقوم بالعدل والقسط والشهادة لله وليس لأحد سواء، وأن يكون ذلك منهم بدافع التقوى والخوف من الله عز وجل حتى يصبح الجميع أمام العدل سواء بدون اعتبار لدوافع الحب والولاء والقرابة، أو البغضاء والشتان والعداوة، لأنها إنما تقوم بالعدل والقسط بين الناس لله وبأمر الله . والعدل بهذه الصورة الشاملة، لم تعرفه البشرية قط إلا على يد هذه الأمة، ولم تنعم به البشرية قط إلا تحت حكم الأمة المسلمة .

#### ثانيًا: قيام هذه الأمة بالعدل:

لم يكن العدل في حياة هذه الأمة المحمدية القائمة مجرد مثل عليا، أو وصايا تفخر بها دون ممارسة أو تطبيق، ولكنه كان واقعًا عاشته هذه الأمة ومارسته، وطبقته في واقع حياتها، على مر تاريخها الطويل، على تفاوت في ذلك التطبيق بين زمان وزمان، ودولة ودولة، وحسب اشتعال جذوة الإيمان في قلوب الحاكمين وخبوئها، غير أن ما يقطع به أنه لم يخل زمان ممن يقيم الحق والعدل ويقوم بالقسط ويحكم به من هذه الأمة .

وحسبنا أن نذكر فيما يلي صورًا من عدل هذه الأمة فيما بينها، ومع أعدائها وخصومها، وأهل ذمتها وسنختار هذه الصور من واقع الأمة من خلال تاريخها الطويل، ليعلم أن هذه الأمة لم تزل قائمة بالقسط بين الناس شاهدة به على الناس لله، وأنها جديرة بأن تكون الأمة الوسط الشاهدة على البشرية وأولى هذه الصور نعيشها مع سيد الخلق وإمام العالمين نبينا محمد ﷺ إمام هذه الأمة ومعلمها الخبير، وهو يضرب أروع الأمثلة ويلقن أمته أبلغ دروس العدل والإنصاف والمساواة<sup>(١)</sup>.

(١) انظر: وسطية أهل السنة بين الفرق (١٦٨) .

فها هو ﷺ يقيد أحد أصحابه من نفسه في طعنة طعنها إياه بالقدح في بطنه أثناء تسويته الصف للقتال، روى ابن إسحاق<sup>(١)</sup> أنه ﷺ: (عدل صفوف أصحابه يوم بدر وفي يده قدح<sup>(٢)</sup> يعدل به القوم، فمر بسواد بن غزية<sup>(٣)</sup> وهو مُسْتَلٌّ من الصف، قال ابن هشام: <sup>(٤)</sup> ويقال: مستصل<sup>(٥)</sup> من الصف - فطعن في بطنه بالقدح - وقال: استو يا سواد، فقال: يا رسول الله أوجعني وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقذني، فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه وقال: استقد . قال: فاعتنقه فقبل بطنه، فقال: ما حملك على هذا يا سواد؟ قال: يا رسول الله: حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك فدعا له رسول الله ﷺ بخير وقال له) .<sup>(٦)</sup>

وجاء يهودي يشتكي إليه أحد أصحابه قائلاً: (يا محمد: إن لي على هذا أربعة دراهم وقد غلبني عليها، قال أعطه حقه، قال: والذي نفسي بيده، ما أقدر عليها، قد أخبرته أنك تبعثنا إلى خيبر فأرجو أن نغتنم شيئاً فأرجع فاقضيه، قال: أعطه حقه . وكان رسول الله ﷺ إذا قال ثلاثاً لم يرجع .)<sup>(٧)</sup>

وكان ﷺ يفيم حدود الله على من وجب عليه ذلك في عدل وإنصاف لا تأخذه في ذلك لومة لائم ولا قرابة قريب ولا مكانة شريف، فها هو ﷺ وهو

(١) هو العلامة الإخباري أبو بكر القرشي الكندي مولاهم المنفي صاحب السيرة النبوية رُدد عام (٨٠هـ)، وتوفي عام (١٥١هـ) ، وقتل عنه الذمعي: هو أول من دون العلم في المدينة قبل مالك ودونه وكان في العلم بحراً عجائلاً ونكاً ليس بالمجود كما ينبغي . انظر: سير اعلام النبلاء (٧ / ٣٥) .

(٢) اتقداح: (بكر الحاف وسكون الدال: السهم) لسان العرب (٢ / ٥٥٦) .

(٣) هو: سواد بن غزية الأنصاري من بني عدي بن النجدر، شهد بدرًا وأمره النبي ﷺ على خيبر . انظر: ابن حجر، الإصابة (٢ / ٩٥) .

(٤) هو أبو محمد عبد الملك بن هشام أيوب الذهلي، رُئيل: اشميري، وهو الذي قام بتهديب سيرة ابن إسحاق، وهو من أئمة اللغة والنحو، كان مقيماً بمصر ، واجتمع بالشافعي توفي عام (٢١٨هـ) . انظر: سير اعلام النبلاء (١٠ / ٢٢٩) .

(٥) مستصل: أي خارج من نصل، بمعنى: خرج: لسان العرب (١١ / ٦٦٢) .

(٦) سيرة ابن هشام (١ / ٦٢٦) بتحقيق مصطفى السقا ورمضان .

(٧) أخرجه أحمد (٢ / ٤٢٣) .

الصادق المصدوق البار في قومه: لو أن ابنته سرقت لأقام عليها . لا يدفعه عنها كونها ابنة محمد ﷺ .

أخرج الإمام البخاري عن عائشة رضي الله عنها: «أن قريشاً أهتمهم المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا: من يكلم رسول الله ومن يجترئ عليه إلا أسامة فقال: أتشفع في حد من حدود الله؟ ثم قام: فخطب فقال: يا أيها الناس إنما ضل من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد، وإيم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها» .<sup>(١)</sup>

فإن قيل هذا محمد رسول الله ﷺ وليس غريباً منه هذا العدل ومن يعدل إن لم يعدل هو؟

قلنا: وهذا رجل من أصحاب رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يهتدي بهدى رسول الله ﷺ، فيقيم العدل والقسط بين الناس يحكم بالحق لرجل يهودي على مسلم، ولم يحمله كفر اليهودي على ظلمه والخياف عليه، أخرج الإمام مالك<sup>(٢)</sup> من طريق سعيد بن المسيب: (أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اختصم إليه مسلم ويهودي، فرأى عمر أن الحق لليهودي فقضى له، فقال له اليهودي: والله لقد قضيت بالحق . . .)<sup>(٣)</sup>

وكان رضي الله عنه يأمر عماله أن يوافوه بالمواسم، فإذا اجتمعوا قال: أيها الناس إنني لم أبعث عمالي عليكم ليصيبوا من أبتشاركم، ولا من أموالكم، إنما بعثهم ليحجزوا بينكم، وليقسموا فيتكم بينكم، فمن فعل به غير ذلك فليقم، فما قام أحد إلا رجل واحد قام فقال: يا أمير المؤمنين إن عمالك فلاناً ضربني مائة سوط، قال: فيم ضربته؟ قم فاقتضي منه، فقام عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين إنك إن فعلت

(١) أخرجه البخاري، كتاب الحدود، باب كرامة الشفاعة إذا رفع إلى السلطان (١٣ / ٨٧)، رقم الحديث (٦٧٨٨).

(٢) هو الإمام مالك بن أنس بن أبي عامر بن عمرو، إمام دار الهجرة، ولد عام (٩٢هـ) عام موت أنس بن مالك بن النضر، خادم رسول الله ﷺ، وطلب العلم بصدق وإخلاص، فكان أحد الأئمة الأربعة ففجع الله به المسلمين وتوفي ١٧٩هـ - انظر: سير أعلام النبلاء (٨ / ٤٩ - ١٣٥).

(٣) الموطأ: كتاب الأضحية، باب الترغيب في القضاء بالحق، (٧١٩)، رقم الحديث (٢).



هذا يكثر عليك ويكون سنة يأخذ بها من بعدك، فقال: أنا لا أقيّد، وقد رأيت رسول الله يقيد من نفسه قال: فدعنا فنترضه، قال: دونكم فارضوه، فافتدى منه بمائتي دينار كل سوط بدينارين. (١) وإن لم يرضوه لأقاده (٢) رضي.

وجاء رجل من أهل مصر يشكو ابن عمرو بن العاص واليه على مصر قائلاً: (يا أمير المؤمنين عائد بك من الظلم، قال: عدت معاذاً قال: سابقت ابن عمرو بن العاص فسبته، فجعل يضربني بالسوط ويقول: أنا ابن الأكرمين .

فكتب عمر إلى عمرو رضي يأمره القدوم ويقدم بابنه معه، فقدم فقال عمر: أين المصري؟ أخذ السوط فاضرب فجعل يضربه بالسوط ويقول عمر: اضرب ابن الأكرمين، قال أنس: فضرب، فوالله، لقد ضربه ونحن نحب ضربه، فما رفع عنه حتى نمنينا أن يرفع عنه، ثم قال عمر للمصري: اصنع على صلعة عمرو، فقال: يا أمير المؤمنين إنما ابنه الذي ضربني وقد اشتفيت منه، فقال عمر لعمر: مذكم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟! قال: يا أمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتيني. (٣)

فانظر إلى هذه المواقف الرائعة لعدالة هذه الأمة، رجل من عامة الناس وفي رواية أنه ذمي من أقباط مصر، يتظلم فيعطى حقه ويقاد من ابن الأمير يجاء به وبأبيه ليعطي الرجل حقه وينصف ثم انظر إلى الخاضرين من أصحاب النبي عليه السلام كيف أحبوا ذلك وأبدوه (فوالله، لقد ضربه ونحن نحب ضربه) لا تشفيًا منه ولا شماتة بعمر و ابنه، فالتوم فوق ذلك وأبعد ما يكونون عن التشفي والشماتة، ولكنهم جيل أحب العدل وعاشه وترى عليه على يد رسول الله عليه السلام، لذلك فهو يفيض الجور ولا يحب رؤيته في الأمة ولو كان رجل مخالف لها في عقيدتها ودينها وشرعها، ويفرح أشد الفرح لرؤية العدالة ترمي بجذورها في أعماق الأمة ليؤخذ حق ضعفائها وأتباعها من أقويائها (٤).

(١) الطبقات الكبرى، لابن سعد (٣ / ٢٩٣ - ٢٩٤).

(٢) أقاده: اقتصر منه .

(٣) فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم (٢٢٥-٢٢٦).

(٤) انظر: وسطية أهل السنة بين الفرق (١٧٠).

فإن قيل: هذا الخليفة الثاني أمير المؤمنين عمر الفاروق ومثله خلبن بإقامة العدل في رعيته .

فإليك صورة أخرى بظلمها ليس بخليفة ولا أمير، ولكنه رجل من عامة أصحاب رسول الله ﷺ هو الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة<sup>(١)</sup> يكل إليه النبي ﷺ خرص مزارع خيبر التي تركها ﷺ بيد اليهود، فيحاول يهود رشوته ليخفف عليهم في الخرص، فيشتد غضبه ﷺ أن ساوموه على أمانته وعدالته ويقول مخاطباً إخوان القردة والخنزير: (يا معشر اليهود: أنتم أبغض الخلق إليّ، قتلتم أنبياء الله عز وجل، وكذبتم على الله، وليس يحملني بغضي إياكم على أن أحيف عليكم وقد خرصت عشرين ألف وسق من تمر، فلأن شتمتم وإن أبيتم فلي، فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض قد أخذنا فاخرج عنا).<sup>(٢)</sup>

وأقر اليهود بعدم ظلمه واعترفوا بعدله ونصفته، فإن قيل هذا صحابي جليل تربي على يد الرسول ﷺ، فليس يبذل أن يعدل ويحكم بالقسط إذا وكل إليه الحكم في أمر من الأمور .

قلنا: لنذع جيل الصحابة رضوان الله عليهم، فإنهم جيل فريد الأصل فيهم الخير والعدالة، ولتجاوزهم إلى غيرهم ممن جاء بعدهم: فهذا شريح القاضي - رحمه الله -<sup>(٣)</sup> يتحاكم إليه أمير المؤمنين وخليفة المسلمين ورجل ذمي فيحكم شريح يرحمه الله للذمي على أمير المؤمنين، فقد أخرج البيهقي<sup>(٤)</sup> بسنده عن الشعبي<sup>(٥)</sup>

(١) هو عبد الله بن رواحة بن ثعلبة الأنصاري الخزرجي الشاعر المشهور، أحد النقباء لبنة العقبة، شهد بدرًا، وما بعدها، إلى أن استشهد بموته. ابن حجر، الإصابة (٢ / ٣٠٦).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣ / ٣٦٧) قال البيهقي في مجمع الزوائد: رجاله رجال الصحيح (٤ / ٢٢).

(٣) هو شريح بن الحارث بن فيس التكندي، قاضي الكوفة كان يكنى أبا أمية، توفي سنة ثمان أو تسع ومسعين وقد عاش مائة وثمانين سنة، ترجمته في طبقات ابن سعد (٦ / ١٣١) - والحلبي لأبي نعيم (٤ / ١٣٢)، وسير أعلام النبلاء (٤ / ١٠٠).

(٤) هو الإمام العلم أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي الشافعي، الحافظ - صاحب التصانيف الكثيرة المساندة، لزم أحكام مدة، وأخذ عنه، وعن غيره، توفي عام (٤٥٨هـ). انظر: سير أعلام النبلاء (١٨ / ١٦٣).

(٥) هو التابعي عامر بن شرجيل الشعبي الحميري أبو عمرو، ولد سنة (١٩هـ) بالكوفة عد من أذكياه العالم، توفي سنة ١٠٣هـ. انظر: تهذيب التهذيب (٥ / ٦٥).

قال: خرج علي بن أبي طالب رضي الله عنه، إلى السوق فإذا هو بنصراني يبيع درعاً قال: فعرف علي رضي الله عنه الدرع، فقال: هذه درعي، بيني وبينك قاضي المسلمين، قال: وكان قاضي المسلمين شريح، كان علي رضي الله عنه استفضاه، قال: فلما رأى شريح أمير المؤمنين قام من مجلس القضاء واجلس علياً رضي الله عنه في مجلسه، وجلس شريح قدامه إلى جنب النصراني، فقال له علي رضي الله عنه: يا شريح لو كان خصمي مسلماً لقتلته معه مقعد الخصم، ولكني سمعت رسول الله يقول: «لا تصافحوهم ولا تبدؤوهم بالسلام ولا تعودوا مرضاهم، ولا تصلوا عليهم، ونحوهم إلى مضايق الطريق، وصغروهم كما صغروهم الله»<sup>(١)</sup>. اقض بيني وبينه يا شريح فقال شريح: ما تقول يا أمير المؤمنين؟ قال: فقال علي رضي الله عنه هذه درعي ذهبت مني منذ زمان قال: فقال شريح: ما تقول يا نصراني؟<sup>(٢)</sup>

قال: فقال: ما أكذب يا أمير المؤمنين الدرع هي درعي، فقال شريح: ما أرى أن تخرج من يده فهل من بينة؟ فقال علي رضي الله عنه: صدق شريح. قال: فقال النصراني: أما أنا أشهد أن هذه أحكام الأنبياء أمير المؤمنين يجيء إلى قاضيه، وقاضيه يقضي عليه، هي والله يا أمير المؤمنين درعك. اتبعتك من الجيش وقد زالت عن جملتك الأورق، فأخذتها، فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، قال: فقال علي رضي الله عنه أما إذا أسلمت فهي لك، وحمله على فرس عتيق، قال فقال الشعبي: لقد رأيت يقاتل المشركين<sup>(٣)</sup>

وهذا النص يبين لنا كيف كان قضاء المسلمين يصدر عن أحكامهم العادلة فيما يعرض عليهم من قضايا في حرية تامة ولا تأخذهم في إقامة العدل لومة لائم، القوي والضعيف، الحكيم والمحكوم، المسلم والذمي، الراعي والمرعي، الأمير والحقير كل أمام القضاء سواء. لذا حكم القاضي شريح علي أمير المؤمنين رضي الله عنه للنصراني

(١) السنن الكبرى، كتاب آداب القاضي (١٠ / ١٣٦).

(٢) وفي رواية أن خصم علي رضي الله عنه يهودي. انظر: الخلية لأبي نعيم (٤ / ١٣٩).

(٣) السنن الكبرى، كتاب آداب القاضي، باب إحصاف الخصمين (١٠ / ١٣٦).

بما رآه حقاً، وأمير المؤمنين عليه السلام يرضى بالحكم ويصدق شريعاً على صحة ما قضي به، لأنه حكم بمقتضى قواعد الشرع، فكان ذلك كله سبباً في إسلام نصراني واهتدائه لما رأى من قيام هذه الأمة في رعاياها وأهل ذمتها بالعدل والقسط الذي هو من أحكام الأنبياء .<sup>(١)</sup>



(١) انظر: وسطية أهل السنن بين الفرق (١: ١٧) .

## المبحث الثالث

## اعتراف أعداء هذه الأمة بعدالتها

بلغت عدالة هذه الأمة يوم أن كانت في أوج قوتها ونفوذ سلطاتها، وقدرتها على البطش والظلم - إن أرادت - حذاً أذهل الأعداء وأخصوم، وجعلهم مشدوهين أمام عظمة هذه الأمة، والدين الذي ندين به وتدعو الأمم إليه، وبما جعلهم - على ما في قلوبهم من غل وحقد وحسد - يشيدون بعدالة هذه الأمة وسماحتها وقيامها بالقسط مع خصومها ومن يعيش في كنفها من أهل الديانات الأخرى قبل أبنائها ومواطنيها فنظقت ألسنتهم بما رأوا ولسوا من العدل والإنصاف والسماحة التي عاشوها وعوملوا بها في رحاب هذه الأمة وتحت سلطاتها، وحين تأتي الشهادة لهذه الأمة من الأعداء والأخصوم، فهي شهادة غير متهم ولا محاب، بل هي شهادة عدو، وخصم أنطقه واقع العدل الذي نعم به في جوار هذه الأمة، والرحمة التي مسته بما لم يجد لها مثيلاً حتى من بني قومه وعقيدته .

وقديماً قيل: والفضل ما شهدت به الأعداء .

وهذه مجموعة من اعترافات وشهادات الأمم وأهل الأديان الأخرى بعدالة هذه الأمة وإنصافها لمن عاش تحت شريعته منهم:

١ - روى البلاذري<sup>(١)</sup> من طريق سعيد بن عبد العزيز<sup>(٢)</sup> قال: بلغني أنه لما جمع هرقل<sup>(٣)</sup> للمسلمين الجموع وبلغ المسلمون إقبالهم إليهم لوقعة اليرموك، ردوا على أهل حمص<sup>(٤)</sup> ما كانوا أخذوا منهم من الحراج، وقالوا: قد شغلنا عن

(١) هو أبو جعفر أحمد بن يحيى بن جابر بن دود البلاذري ولد في أواخر القرن الثاني الهجري ببغداد ورحل في طلب العلم، وترجم كتاب من القومية إلى العربية كان عالماً فاضلاً شاعراً رابية ناسية، وله مؤلفات أشهرها أنساب الأشراف. توفي عام ٢٧٩ هـ، انظر: معجم الأدباء، (٥ / ٩٢)، النجوم الزاهرة (٢ / ٨٢) .

(٢) هو: سعيد بن عبد العزيز البصري المشفي معنى الشام، أحد الأئمة ثقة حجة مات عام ١٦٧ هـ . انظر: الفهرس ميزان الاعتدال (٢ / ١٤٩) .

(٣) هرقل: ملك الروم .

(٤) قال الحموي: بلد مشهور قديم بن دمشق وحلب . انظر: معجم البلدان (٢ / ٣٠٧) .

نصرتكم، والدفع عنكم، فأنتم على أمركم، فقال أهل حمص: لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم<sup>(١)</sup> ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم... (٢).

وكان أهل حمص نصارى، صالحهم المسلمون على أن يدفعوا الجزية والخراج ويتكفل ولي أمر المسلمين بحمايتهم، ودفع الأعداء عنهم، وقد كانوا قبل حكم المسلمين تحت حكم الروم وهم على دينهم.

فلما رأى المسلمون أنهم غير قادرين على الوفاء لهم بشرط الحماية ردوا عليهم ما أخذوا منهم، فأكبر ذلك أهل حمص، لأنهم لم يعهدوا مثله في أمة غير المسلمين وأشادوا بعدك المسلمين وحسن ولايتهم عليهم، وأنهم أحب إليهم من الروم مع كونهم على دينهم. وهذه شهادة صريحة بعدالة هذه الأمة التي مارست منهج القرآن في حياتها.

وهذا اعتراف آخر وشهادة أخرى من أهل وادي الأردن: لقد كتبوا إلى قائد المسلمين آنذاك وهو أبو عبيدة عامر بن الجراح<sup>(٣)</sup> رضي الله عنه معربين عن تقيهم لحكم المسلمين لما لسوا من عدالتهم ووفائهم وراقتهم بهم وأنهم يفضلونهم على الروم وإن كانوا على دينهم، قائلين: (يا معشر المسلمين أنتم أحب إلينا من الروم، وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى لنا وأرف بنا، وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا). (٤)

٣ - شهادة المششرق توماس و. أرنولد: (٥) يقول في كتابه: (الدعوة إلى

(١) الغشم: انظلم والعصب. انظر: سنن العرب (١٢ / ٤٢٧) مادة غشم.

(٢) فتوح البلدان (١٤٣).

(٣) هو أبو عبيدة بن عبد الله بن الجراح، أحد العشرة المبشرين بالجنة، أسلم فديناً وشهد بدرًا، مات شهيداً مطاعون حموا سنة ثمان عشرة، وله ثمان وخمسون سنة. ابن حجر القريب، (١ / ٣٨٨).

(٤) فتوح الشام (٩٧).

(٥) توماس وركر أرنولد (١٢٨٠-١٣٤٩هـ) مستشرق إنكليزي، تعلم في كمبريدج، واشتغل بالتدريس في عدة جامعات بالهند وباكستان، ثم عاد إلى لندن ودرس في جامعتها، وعين مديراً لمعهد الدراسات الشرقية، له عدة كتب بالإنجليزية عن العلوم الإسلامية، الأعلام للركلي (٢ / ٧٦-٧٧). انظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، (٢ / ٨٤).

الإسلام) وهو يتحدث عن اضطهاد الفرس للمسيحيين، موازناً بين سلوكهم وسلوك المسلمين؛ ولكن مبادئ التسامح الإسلامي حرمت مثل هذه الأعمال - التي كان يمارسها الفرس على رعاياهم من المسيحيين التي تطوي على الظلم - بل كان المسلمون على خلاف غيرهم، إذ يظهر لنا أنهم لم يألوا جهداً في أن يعاملوا كل رعاياهم من المسيحيين بالعدل والقسطاس). (١).

وقال عن إيثار أهل القدس وفلسطين لحكم المسلمين واعتباطهم به: (ومن المؤكد أن المسيحيين من أهالي هذه البلاد، أي: القدس قد آثروا حكم المسلمين على حكم الصليبيين). (٢).

٤ - شهادة واعتراف المششرق الأمريكي وول ديورانت: وهذا مستشرق يهودي صهيوني حاقد وضع في كتابه (قصة الحضارة) السم في الدسم، وطعن في الإسلام وفيه ﷺ وتعرض للمسيح عليه السلام بالطعن كثيراً، مما يجعلني أن أحذر من هذا الكتاب وأذكر من أراد أن يطالع عليه أن ينوخي الحذر ويتنبه لتلك السموم التي نشرها في كتابه هذا، ومع هذا أراد الله أن يظهر الحق على لسان هذا العدو اللدود.

يقول ديورانت مبيئاً أوضاع حال أهل الذمة الذين يعيشون في ظل الدولة الإسلامية: ولقد كان أهل الذمة المسيحيون، والزرادشتيون (٣) واليهود، والصابئون (٤) يتمتعون في عهد الخلافة الأموية بدرجة من التسامح لا نجد لها نظيراً في البلاد المسيحية في هذه الأيام، فلقد كانوا أحراراً في ممارسة شعائر دينهم، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم، ولم يفرض عليهم أكثر من ارتداء زي ذي لون خاص، ضريبة

(١) ترجمة حسن إبراهيم ورملة (٨٨).

(٢) الدعوة إلى الإسلام (١١٦).

(٣) الزرادشتيون: أتباع زرادشت بن بورشيب وهو رجل ظهر في أذربيجان في زمان الملك كشناسب بن الهراست، وزعم أنه نبي. وله كتاب يسمى (وندارستا) زعم أنه أنزل عليه، وكان يدعو إلى عبادة الله، واتكفر بالشیطان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم دخل التعريف الزرادشتية وأتت إلى أن أصبحت ديانة ثنوية معرسية. انظر: الشهرستاني، الملل (٢ / ٤٤).

(٤) الصابئة: نوعان: حنفاء موحدون، وصابئة مشركون يعبدون الكواكب. انظر: ابن تيمية، الرد على المنطقيين (٢٨٨).

عن كل شخص، تختلف باختلاف دخله . . . ولم تكن هذه الضريبة <sup>(١)</sup> تفرض إلا على غير المسلمين القادرين على حمل السلاح، ويعفى منها الرهبان، والنساء، والذكور الذين هم دون البلوغ والأرقاء والشيوخ، والعجزة، والعمي، والفقير الشديد. وكان الذميون يعفون في نظير هذه الضريبة من الخدمة العسكرية . . . ولا تفرض عليهم الزكاة . . . وكان لهم على الحكومة أن تحميهم) . <sup>(٢)</sup>

وهذا الشاهد التاريخي من مستشرق يهودي صهيوني يثبت أن المسلمين في الأندلس عاملوا أهل ذمتهم وفق القواعد التي وضعها وحددها الإسلام، وهي قواعد توفر لأهل الذمة الحماية وعدم الظلم وتسبغ الرحمة والعطف على الفقراء وذوي الأعدار، وتوفر لهم حرية ممارسة دينهم، وحرية الاكتساب، وهذا غاية العدل؛ بل هو إلى الفضل أقرب .

#### ٥ - اعتراف المستشرق ستانلي لين بول:

نقل عنه صاحب (قصة الحضارة) العبارة التالية: لم تنعم الأندلس طول تاريخها بحكم رحيم، عادل، كما نعمت به في أيام الفاتحين) . <sup>(٣)</sup>

ثم عقب المستشرق اليهودي - بقوله - : (ذلك حكم يصدره مستشرق مسيحي عظيم) ثم غلب عليه حده وخبثه وحفده وأراد أن يقلل من شأن هذه الشهادة والإشادة مع اعترافه بصحة حكم إستانلي، قائلاً: (قد ينطلب تحمسه شيئاً من التقليل من شأنه، لكن هذا الحكم يعد أن نقص منه ما عساه أن يكون فيه من التحمس يظل مع ذلك قائماً صحيحاً) . <sup>(٤)</sup>



(١) ليست ضريبة، إنما هي الجزية تؤخذ مقابل توفير المسلمين لهم الحماية والأمان حتى من أعدائهم الخارجين .

(٢) قصة الحضارة (١٣ / ١٣٠ - ١٣١) .

(٣) إن عبارة الفاتحين العرب دس من المستشرقين وخصوصاً أن طلائع الفتح الأثري كانت بقيادة طارق بن زياد، وهو من

أصل بربري، والصحيح أن هذه البلدان فتحها المجاهدون المسلمون لنشر دين الله في الأرض .

(٤) قصة الحضارة (١٣ / ٢٩٢) .



## البحث الرابع

### العدل عند أهل الكتاب

إذا تكلمنا عن العدل عند أهل الكتاب، وبينما ما وصلوا إليه من ظلم وجور، وجنوح عن الإنصاف والقط، وهم أهل كتاب أنزل الله عليهم الكتب، وأرسل إليهم الرسل تترى، ومع ذلك حادوا عن الحق وحرّفوا وظلموا وطفوا واستبدوا فكيف بغيرهم من الأمم التي لم تحط بما حظوا به من توالي الرسالات وكثرة الأنبياء ولذلك نكتفي بالعدل عند أهل الكتاب خشية الإطالة .

وسأين العدل عند اليهود أولاً فيما بينهم، ثم فيما بينهم وبين غيرهم من الناس، ثم عن العدل عند النصارى كذلك فيما بينهم، ثم فيما بينهم وبين الأمم الأخرى .

أولاً: مبدأ العدل عند اليهود:

أ - العدل فيما بينهم:

لقد أمرهم أنبياءهم أن يقوموا بالعدل والقط، وأن لا يتظالموا ولا يظلموا أحداً، وأنزل الله عليهم التوراة فيها هدى ونورا، وفصل لهم فيها الحدود والأحكام والقصاص المعادل، كما أخبر الله بذلك في القرآن الكريم، حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوُا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (١٤) وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الأنعام: ١٤ - ١٥) .

وبقي بين أيدي اليهود من أسفار التوراة - مع تحريفهم وتبديلهم لها - أثر مما

ورد ذكره في القرآن الكريم، وسأورد فيما يلي بعض نصوص أسفار التوراة، التي توجب على اليهود الحكم بالعدل والقسط، وتحذره من الظلم والجور في القضاء والكيل والوزن، ففي (سفر الملوك) أن الرب كلم موسى عليه السلام قائلاً: (لا ترتكبوا جوراً في القضاء، ولا تأخذوا بوجه مسكين ولا تحترم وجه كبير، بالعدل تحكم لقريبك). (١)

وفيه أيضاً: (وإذا نزل عندكم غريب في أرضكم فلا تظلموه، كالوطني منكم يكون لكم الغريب النازل عندكم وتحبه كنفسك، لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر، أنا الرب إلهكم لا ترتكبوا جوراً في القضاء لا في القياس ولا في الوزن ولا في الكيل، ميزان حق ووزنات حق وإيفاء حق وهين حق تكون لكم أنا الرب إلهكم الذي أخرجكم من أرض مصر فتحفظون كل فرائضي وكل أحكامي وتعملونها أنا الرب). (٢)

وفيه أيضاً ما يدل على القصاص وأن النفس بالنفس: (وإذا أمت أحد إنساناً فإنه يقتل) (٣)، (ومن قتل بهيمة يعرض عنها ومن قتل إنساناً يقتل، حكم واحد يكون لكم، الغريب يكون كالوطني إني أنا الرب إلهكم). (٤)

وفي (سفر الخروج): (من ضرب إنساناً فمات يقتل قتلاً) (٥) فقد دل إذن القرآن الكريم، وأسفار التوراة التي بقيت بأيديهم على وجوب العدل عليهم والقصاص الحق عندهم، وتحريم الظلم والجور، فماذا فعل اليهود؟ لقد تلاعبوا بالنصوص وبدلوها وحرفوها، ولم يقوموا فيها بينهم بالعدل والقسط، وفرقوا بين القوي والضعيف، والحاكم والمحكوم والغني والفقير والشريف والوضيع، ولم يعدلوا بين الخلق في إقامة القصاص والحدود، كما أخبرنا رسول الله ﷺ عنهم في حديث المخزومية التي سرقت فقطع يدها وغضب ممن جاء يشفع فيها وقام فيهم خطيباً قائلاً: أيها

(١) إصحاح (١٩) فقرة (١٥).

(٢) إصحاح (١٩) فقرة (٣٣-٣٧).

(٣) لاويين: إصحاح (٢٤)، فقرة (١٧).

(٤) لاويين: إصحاح (٢٤)، فقرة (٢١-٢٢).

(٥) إصحاح (٢١)، فقرة (١٢).

الناس إنما ضل من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد . . . (١)

ومن الأدلة على هذه المسلك المشين ليهود ما أخرجه أبو داود وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان قريظة والنضير، وكان النضير أشرف من قريظة، فكان إذا قتل رجل من قريظة رجلاً من النضير قتل به، وإذا قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة فودي بمائة وسق من تمر، فلما بعث النبي ﷺ قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة فقالوا: ادفعوه لنا نقتله، فقالوا بيننا وبينكم النبي ﷺ فأتوه فنزلت على الرسول ﷺ: «وَأَنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ» (النساء: ٤٢) . والقسط النفس بالنفس، ثم نزلت: «أَفْحَكُمُ الْجَاهِلِيَّةَ يَتَفَوَّنُ» (النساء: ٥٠) (٢).

فانظروا كيف مالوا عن حكم الله عز وجل وتلاعبوا بحدوده، فأقاموا الحد، والتقصاص على الضعيف فيهم، وصرفوه عن ذي المكانة والقوة والمنعة، والعجب لا ينقصي من ثمالتهم على ذلك واتفاقهم عليه . وهذا شاهد آخر على اختلاف ميزان العدل عند اليهود، ومبلغ ظلمهم وجورهم، ونعطيهم لحدود الله عز وجل: أخرج الإمام البخاري رحمه الله عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: «إن اليهود جاءوا إلى رسول الله فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا فقال لهم رسول الله ﷺ ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟ فقالوا: نفضحهم، ويجلدون قال عبد الله بن سلام (٣): كذبتهم إن فيها الرجم فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده، فإذا فيها آية الرجم، قالوا: صدق يا محمد فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما، فرأيت الرجل يحني على المرأة بقبها الحجارة» (٤).

(١) أخرجه البخاري . كتاب الحدود ، باب كراهية اشتقاقه من الحد إذا رفع إلى السلطان (١٢ / ٨٧) ، رقم الحديث (٦٧٨٨) .

(٢) أخرجه أبو داود : كتاب النيات ، باب النفس بالنفس ، (٤ / ٦٣٤) ، رقم الحديث (٤٤٩٤) .

(٣) هو عبد الله بن سلام بن أشبارت الإسرائيلي حليف بني عوف بن الخزرج أسلم عند قدوم النبي ﷺ المدينة، وشهد له الرسول ﷺ بالجنة، وشهد مع عمر فتح بيت المقدس، والجابية، وتوفي عام (٤٣هـ) . انظر ترجمته في تهذيب التهذيب (٥ / ٢١٩) .

(٤) أخرجه البخاري : كتاب الحدود ، باب أحكام أهل الذمة وإحصانهم إذا نوا، ورفعوا للإمام : (١٢ / ١٦٦) رقم الحديث (٦٨٤١) .

وفي رواية مسلم<sup>(١)</sup>: «أن اليهود حمموا وجه الزاني وجلدوه ولما سألهم النبي ﷺ قائلاً: أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم قالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم فقال: أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى أهكذا تجدون حد الزاني في كتابكم؟ قال: لا، ولولا أنك تشدني بهذا لم أخبرك بحده الرجم، ولكنه كثير في أشرفنا فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، فذنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيم على الشريف والوضيع فجعلنا التحميم والجلد مكان الرجم . . . .»<sup>(٢)</sup>

وفي (سفر التثنية من التوراة جاء في شأن حد الزاني النص الآتي: (ولكن إن كان هذا الأمر صحيحاً لم توجد عذرة الفتاة، يخرجون الفتاة إلى باب بيت أبيها ويرجمها رجال مدينتها بالحجارة حتى تموت، لأنها عملت قباحة في بني إسرائيل بزناها في بيت أبيها، فتتزع الشر من وسطك .

وإذا وجد رجل مضطجعاً مع امرأة زوجة بعل يقتل الاثنان الرجل المضطجع مع المرأة والمرأة، فتتزع الشر من إسرائيل .

إذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل فوجدها رجل في المدينة فاضطجع معها فأخرجوها كليهما إلى باب تلك المدينة وأرجموهما بالحجارة حتى يموتا، الفتاة من أجل أنها لم تصرخ في المدينة، والرجل من أجل أنه أذل امرأة صاحبه، فتتزع الشر من وسطك)<sup>(٣)</sup>

### ب - العدل عند اليهود مع غيرهم من الأمم:

إن نظرة اليهود إلى غيرهم من الأمم والشعوب نظرة تعالٍ وازدراء، فهم يرون أنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه كما أخبر الله عن عقالتهم هذه

(١) هو مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري أحد أئمة الحديث ومشاهيره، ولد عام (٤٠٤هـ)، وتوفي عام

(٢٦٦هـ)، وصحيح مسلم يحتل المرتبة الثالثة بعد صحيح البخاري - انظر: تهذيب الأسماء للنووي (٢ / ٨٩) .

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الحدود، باب رجم اليهود، أهل اللغة في الزنى، (٣ / ١٣٢٧) رقم الحديث (١٧٠٠) .

(٣) تلبية: (٢٢)، فقرة (٢٠-٢٥) .

وأكدبهم فيها، فقال جل وعلا: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَفْعَلُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (البقرة: ١٨) .

وكانوا يرون أن غيرهم من الأمم لا حق لهم في عدل ولا نصف، بل ويستحلون منهم الدماء والأفئس والأموال بحجة أن غير اليهود كفار مشركون لا حرمة لهم، وقد نبأنا الله خبرهم وقولهم هذا وعدمهم كذبة مفترين في ذلك فقال عز وجل: ﴿ وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مِنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِطَارٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بَدِينَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران: ٧٥) .

ومرادهم بالأميين العرب والمشركون وكل ما ليس بيهودي روى ابن جرير عن قتادة رحمه الله في قوله: ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾، قال: ليس علينا في المشركون سبيل، يعنون من ليس من أهل الكتاب<sup>(١)</sup>

وفي أسفار التوراة المحرقة ما يشي بهذا المسلك الذي انتهجه يهود تجاه الأمم الأخرى: ففي (سفر الخروج) ضمن الوصايا العشر التي يزعمون أن موسى عليه السلام تلقاها من ربه: (لا تشهد على قريب شهادة زور، ولا تشته بيت قريبك لا تشته امرأة قريبك، ولا أمته ولا ثوره، ولا حماره، ولا شيئاً مما لقريبك)<sup>(٢)</sup> فمفهوم قوله (قريبك) في هذا النص، أن غير القريب يجوز لهم اشتهاه امرأته وبيته . . . وقد فهم اليهود هذا الفهم، ونص (التلمود)<sup>(٣)</sup> على ذلك كما سيأتي ذكر نصوص منه .

وفي (سفر التثنية) إياحة التعامل بالربا مع غير اليهودي، وتحريمه مع اليهودي:

(١) تفسير الطبري مع التصرف (٦ / ٥٢٢) .

(٢) سفر الخروج : إصحاح (٢)، فقرة (١٦-١٧) .

(٣) التلمود: وهو الكتاب الذي يحتوي على التعاليم اليهودية والتشريعات، يزعم اليهود أن موسى عليه السلام عندما تلقى التوراة مكتوب تلقى معه التلمود مشافهة وهو تفسير وتعميل للتوراة وهو عندهم أقدس منها (أي، هي، برايتس، نضح التلمود: ٢٦) .

للأجنبي تفرض يربا ولكن لأخيك لا تفرض يربا) <sup>(١)</sup> بل يمنع التلمود إقراض غير اليهودي إلا يرباً: (غير مصرح لليهودي أن يقرض الأجنبي إلا بالربا) <sup>(٢)</sup> ولقد أخبرنا الحق تبارك وتعالى أنه نهاهم عن أكل الربا وأكل أموال الناس بالباطل وأنهم لما خالفوا وظلموا وأكلوا الربا حرم عليهم بعض الطيبات التي كانت حلالاً عقوبة لهم في الدنيا، قال تعالى: ﴿فَبَطَلْهُمْ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِيبَاتٌ أُحِلَّت لَهُمْ وَبِضْعُهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخَذَهُمُ الرَّبُّ وَقَدْ نَهَوْا عَنْهُ وَأَكَلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (النساء: ١٦ - ١٦١).

وهذه بعض النصوص من التلمود التي تسمح لليهود أن تعتدي على أموال الأيمن بل ودمائهم وأعراضهم، تسوق منها أمثله ليتضح مدى ظلم اليهود وجورهم.

#### ١ - إباحة دماء غير اليهود:

يقول التلمود: (أقتل الصالح من غير الإسرائيليين، ومحرم على اليهودي أن ينجي أحداً من باقي الأمم من هلاك، أو يخرج من حفرة يقع فيها، لأنه بذلك يكون حفظ حياة أحد الوثنيين) <sup>(٣)</sup>

(ومن العدل أن يقتل اليهودي بيد كل كافر، لأن من يسفك دم الكافر يقرب قرباناً لله) <sup>(٤)</sup> وكل من ليس يهودي فهو كافر عندهم .

#### ٢ - إباحة عرضه:

يقول التلمود: (لا يخطئ اليهودي إذا تعدى على عرض الأجنبي، لأن كل عقد نكاح عند الأجانب فاسد، لأن المرأة التي لم تكن من بني إسرائيل كبهيمة والعقد لا يوجد مع البهائم وما شاكلها) . <sup>(٥)</sup>

(١) خروج: إصحاح (٢٠) فقرة (١٦-١٧) .

(٢) الكنز المرصود في قواعد التلمود : ترجمة د. يوسف نصر (٩٠) .

(٣) الكنز المرصود في قواعد التلمود (٩٠) .

(٤) نفس المصدر (٩١) .

(٥) المرجع السابق (٩٥) .

قال ميموند اليهودي: (إن لليهود الحق في اغتصاب النساء الغير مؤمنات، أي الغير يهوديات). (١)

٣ - إباحة ماله:

يقول التلمود: (إن الله حلل أموال باقي الأمم لبني إسرائيل لما رأهم قد خالفوا السبع الوصايا المختصة بعبادة الأوثان، والزنى والقتل والسرقه، وأكل لحم الحيوانات الغير مذبوحة، وخصاء الإنسان وإيلاد حيوان من غير جنسه). (٢)

وفي شأن رد الاموال المفقودة لغير اليهودي يقول التلمود: (إن الله لا يغفر ذنباً ليهودي يرد للاممي ماله المفقود، وغير جائز رد الأشياء المفقودة من الاجانب). (٣)

وبهذا يتضح أن اليهود أهل ظلم وجور وفساد يظلمون الناس ويستحلون دماءهم وأعراضهم وأموالهم ويعدون ذلك ديناً، قاتلهم الله أنى يؤفكون .

ثانياً: العدل عند النصارى:

١ - العدل فيما بينهم:

النصارى يتبعون التوراة في الأحكام والتشريعات، وما أمر به اليهود من العدل في الأحكام والحدود، وإيفاء الكيل والوزن وخلاف ذلك فبانه يسري على أمة النصارى كذلك .

لكن لما بغى اليهود وقست قلوبهم، وأحلوا ما حرم الله، وأكلوا أموال الناس بالباطل، جاء المسيح ليردهم إلى الجادة فلم يأمرهم بالعدل فحسب بل تجاوزه إلى الفضل والعفو، وأمرهم ألا يقابلوا الإساءة بمثلهما، وأن لا يعتدوا على من اعتدى عليهم؛ بل قال لهم كما جاء في الإنجيل (متى) الذين يزعمون أنه مما أنزل على عيسى عليه السلام (قد سمعتم أنه قيل: العين بالعين والسن بالسن، أما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشرير؛ بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر، ومن أراد

(١) المرجع السابق (١٥٢) .

(٢) المرجع السابق (٧٨-٧٩) .

(٣) المرجع السابق (٨٣) .

أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فخل له رداءك أيضاً، ومن سخرك ميلاً فامش معه اثنين، ومن سالك فاعطه، ومن أراد أن يفترض منك فلا تمنعه، وقد سمع أنه قيل: أحبب قريبك وابغض عدوك، أما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم واحسنوا إلى من يبغضكم، وصلوا لاجل من يعنتكم ويضطهدكم).<sup>(١)</sup>

لكن أمة النصراني لم تهتد، بل حرفت وبدلت فضلت عن سواء السبيل، ولئن كان اليهود مغضوب عليهم فإن النصراني ضالون، كما ثبت عن النسطري عليه السلام أنه قال في تفسير قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (التوبة: ٧) قال: «إن المغضوب عليهم اليهود وإن الضالين النصراني». (٢)

وأول ضلالهم، وعظم جورهم وبغيهم أن عدلوا بربهم غيره، وجعلوا له شركاء، إذ جعلوه ثالث ثلاثة، ونارة جعلوا المسيح عليه السلام هو الإله، وأخرى ابن الإله، قال تعالى عن كفرهم وضلالهم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ (التوبة: ١٧) وقال في آية أخرى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (التوبة: ٣٠)

وقال عز وجل في آية أخرى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (التوبة: ٣١) وقال سبحانه: ﴿وَقَالَتِ الْنَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ (التوبة: ٣٠).

والشرك بالله، واتخاذ غيره معه، من أعظم الظلم كما أخبر الحق تبارك وتعالى على لسان العبد الصالح لقمان: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٣).

ولما نزل قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ

(١) إنجيل متى: الإصحاح السادس، فقرة (٣٨-٤٤).

(٢) أخرجه أحمد (٤ / ٣٧٨)، من حديث عدي بن حاتم.



وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ (الأنعام: ٨٢) سبق ذلك على الصحابة وقالوا: وأينا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّهُ لَيْسَ الَّذِي تَعْتُونَ، أَلَمْ تَسْمَعُوا قَوْلَ الْعَبْدِ الْمَصَالِحِ: ﴿يَا بَنِيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ إِنَّمَا هُوَ الشِّرْكُ» (١).

وقال الخافظ ابن كثير في تفسيره: (قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، أَي هُوَ أَعْظَمُ الظُّلْمِ). (٢).

فإذا كان القوم قد ارتكبوا أعظم الظلم والجور وظلموا أنفسهم بجعلهم لله أندادا ومعه شركاء فماذا نتوقع منهم -وقد ضلوا وظلموا- غير الظلم والجور في جل حياتهم، لأنه بناو دينهم عليه. فلم يكونوا قائمين بالعدل وانفسط فيما بينهم، وقول الرسول ﷺ في قصة المخزومية التي سرقت: «إِنَّمَا ضَلَّ مِنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ» (٣) يشملهم وإن كان هو في اليهود أظهر، وهؤلاء رهبانهم الذين هم عبادهم وعلمناؤهم، وهم الصفوة فيهم والقدوة، والذين يفترض أن يكونوا أقرب القوم إلى العدل وعدم الظلم فإذا هم ظلمة جائرين معندين على أموال الناس بالباطل كما أخبرنا الله بذلك عنهم، وكما يدل عليه واقع الكنائس وسيرتها يقول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَجْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (النوبة: ٣٤).

يقول الخافظ ابن كثير: (ذلك أنهم يأكلون الدنيا بالدين ومناصبهم ورياستهم في الناس، ويأكلون أموالهم بذلك). (٤).

ولعل من أبرز مظاهر ذلك ما تمارسه الكنيسة من إصدار ما عرف بـ (صكوك الغفران) (٥) وهي صكوك يصدرها أهل السلطة في الكنيسة من السبابوات والمطارنة

(١) أخرجه أحمد (١ / ٣٧٨).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦ / ٣٣٨).

(٣) أخرجه البخاري: كتاب الحدود، باب تزجية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان: (١٢ / ٨٧ رقم: ٦٧٨٨).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٤ / ٨٠).

(٥) الاطلاع على صورة ونحو هذه الصكوك، راجع كتاب محاضرات في التصويتية، لآبي زهرة (١٧٢)، والمسيحية

تذكر أحمد شلبي (٢٥٤).

والبطارقة، والقساوسة، باسم الكنيسة، يغفر بمقتضاها حاملها ما اقترفه من الآثام والخطايا في حياته، مقابل أن يدفع مبالغ للكنيسة وهذا إلى جانب كونه أكلاً لأموال الناس بالباطل فهو أيضاً قول على الله بلا علم وافتراء عليه، وتعدّ على ألوهيته عز وجل إذ لا يملك غفران الذنوب والعفو عنها إلا هو سبحانه ولكن القوم ضلوا ضلالاً بعيداً .

ومن صور جور هذه الأمة وعدم عدلها، أن كل فرقة وطائفة منها إذا تسلطت على الفرق الأخرى أذاقتها ألواناً من الظلم والبطش، والاضطهاد، ولم ترقب فيهم إلا ولا ذمة. يقول د. أحمد شلبي: (تكرر في تاريخ المسيحية حدث عظيم لم يختلف، وهو التجاء الجانب القوي إلى أعنف وأقسى وسائل الاضطهادات، والتعذيب، والتنكيل والحرق، والإفناء يسلطها على الجانب المضعف . . . والعجيب أن المسيحيين اضطهدوا من اليهود والرومان، ونزلت بهم الويلات في القرون الثلاثة الأولى، فلما بدأ جاثيهم يشتد رأيناهم ينزلون نفس الويلات بمخالفهم من أبناء دينهم، ومن أتباع الأديان الأخرى، ومن هنا فبنت مذاهب مسيحية كثيرة كان بعضها في وقت ما له الغلبة في العدد، ولكن تنقصه القوة والسلطان، وكان فناء هذه المذاهب بسبب قوة اليهود والرومان أحياناً، وأحياناً بسبب قسوة فرق مسيحية أخرى قوية واشتدت بالباطرة وذوي النفوذ<sup>(١)</sup> .

وهذا مصداق قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يَنْبَغُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (المائدة: ٦٤)

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: (. . . أي فأنفسنا بينهم العداوة والتباغض لبعضهم بعضاً، ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة، وكذلك طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين، يكفر بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم

(١) السجدة (٢٣٧) .

بعضاً، فكل فرقة تحرم الأخرى ولا تدعها تلج معيها، فالملكية<sup>(١)</sup> تكفر اليعقوبية<sup>(٢)</sup> وكذلك الآخرون، وكذلك النسطورية<sup>(٣)</sup> والأريوسية<sup>(٤)</sup> كل طائفة تكفر الأخرى . . .<sup>(٥)</sup>

وكمثال على ما ذكر من ظلم أمة النصارى وجور بعضهم على بعض، ما لاقاه أقباط مصر - وهم من الطائفة اليعقوبية - من ظلم واضطهاد على يد أبناء دينهم البيزنطيين الذين كانوا يحكمونهم قبل الفتح الإسلامي لمصر .

يقول المستشرق توماس آرنولد: ( . . . فإن اليعاقبة - وهم الأقباط - الذين كانوا يكوّنون السواد الأعظم من السكان المسيحيين، قد عوملوا معاملة مجحفة من أتباع المذهب الأرثوذكسي<sup>(٦)</sup> التابعين للباط، الذين ألغوا في قلوبهم بذور السخط والحقن اللذين لم ينسهما أعقابهم حتى اليوم . كان بعضهم يعذب ثم يلقى بهم في البيم، وتبع كثير منهم بطريقهم إلى المنفى لئنجوا من أيدي مضطهديهم، وأخفى عدد كبير منهم عقائدهم الحقيقية، وتظاهر بقبول قرار خلقدونية .<sup>(٧)</sup>

وقد جلب الفتح الإسلامي إلى هؤلاء القبط - ذلك اللفظ الذي يطلق على المسيحيين من اليعاقبة في مصر - حياة تقوم على الحرية الدينية التي لم ينعموا بها قبل ذلك بقرن من الزمان) .<sup>(٨)</sup>

(١) الملكية: أو الملكانية: أصحاب ملكان الذي ظهر في أرض الروم، ومعظم الروم ملكانية، صرحوا بوثنيات البثلث، وقالوا: إن الكلمة تجددت بجسد المسيح، وتدعت بتاسوته، انظر: الشهرستاني، الملل والنحل، (٢ / ٢٧) .

(٢) اليعقوبية: نسبة إلى يعقوب البراذعي، مصري ظهر في منتصف القرن السادس الميلادي يقول: إن المسيح ذو طبيعة واحدة امتزج فيه عنصر الإله بعنصر الإنسان، وتكون من الاتحاد طبيعة واحدة جامعة بين اللاهوت والبسوت . انظر: محاضرات في النصرانية: (١٤٠-١٥٩) .

(٣) النسطورية: نسبة إلى نسطور الحكيم الذي ظهر في زمان الآمور، يرى العذراء لم تشد إليها . انظر: الشهرستاني، الملل (٢ / ٢٩) .

(٤) الأريوسية: أصحاب تريوس، وكان فسيماً بإسكندرية، ومن قوله: التوحيد للجرد وأن عيسى مخلوق، وأنه كلمة الله . انظر: ابن حزم الفصل: (١ / ٢٨) .

(٥) هم أتباع الكنيسة الشرقية . انظر: المسبحة (٢٣٨) .

(٦) انظر: محاضرات في النصرانية: لأبي زهرة (١٣٧) .

(٧) نفس المصدر السابق، ص (١٣٧) .

(٨) الدعوة إلى الإسلام (١٣٣) .

وكثيراً ما كان الفتح الإسلامي مُخلّصاً لكثير من طوائف النصارى من حقد واضطهاد وظلم، وبجانب عامل العدل والتسامح الذي عرف به الفاتحون المسلمون، كان هذا من العوامل التي جعلت الكثير من المسيحيين يفضلون الحكم الإسلامي على حكم أبناء دينهم من أتباع الطوائف الأخرى .<sup>(١)</sup>

### ثالثاً: العدل فيما بينهم وبين غيرهم من الأمم:

وإذا فتحنا ملفات التاريخ وجدنا النصارى قد بلغوا منتهى الظلم والاضطهاد لمن يقع تحت حكمهم وسلطانهم من أهل الأديان الأخرى من قتلهم وترحيلهم واضطهادهم، وكانت أعمالهم الانتقامية سيامة ثابتة تستهدف إفناء الخصوم ومحو آثارهم، فقد ارتكبوا الكثير من المذابح التي دبرت ونفذت بوحشية بالغة ارتكبوا فضائع وجرائم يندى لها جبين الإنسانية ومن الشواهد التاريخية في ذلك ما فعلوه بسكان بيت المقدس إبان استيلائهم عليها، عندما تخاذل العبيديون للدفاع عنها، إذ اكتفى واليهم آنذاك - افتخار الدولة - بتأمين نجاة مع حرسه الخاص، وترك المدينة للفصليين يعيشون فيها فساداً، بعد أن دافع عنها دفاعاً هزلياً، ذرأً للرماد في العيون .<sup>(٢)</sup>

واليك ما قاله (القس ريمند) وهو شاهد عيان من النصارى: (وشاهدنا أشياء عجيبة، إذ قطعت رعوس عدد كبير من المسلمين، وقتل غيرهم رمياً بالسهام، أو أرغموا على أن ينفوا بأنفسهم من فوق الأبراج، وظل بعضهم يعذب عدة أيام، ثم أحرق في النار، وكنت ترى في الشوارع أكوام الرعوس والأيدي والأرجل والأقدام، وكان الإنسان أينما سار فوق جواده يسير بين جثث الرجال والخيال)<sup>(٣)</sup>

ويقول المستشرق ستيفن رنسميان في وصف ذلك: (على أنه لم ينبج من المسلمين بحياتهم إلا هذه الفئة القليلة - وهم افتخار الدولة والي العبيديين على القدس وحرسه الخاص - إذ أن الفصليين وقد زاد في جنونهم ما أحرزوه من نصر كبير بعد شقاء وعناء شديد، انطلقوا في شوارع المدينة، وإلى الدور والمساجد يقتلون كل من

(١) انظر: وسطية أهل السنة بين الفرق (١٩٨) .

(٢) انظر: وسطية أهل السنة بين الفرق (١٩٩) .

(٣) انظر: رول ديورانت، قصة الحضارة، (١٥ / ٢٥) .

يصادفهم من الرجال والنساء والأطفال، دون تمييز، استمرت المذبحة طوال مساء ذلك اليوم وطوال الليل ولم يكن علم تانكرد<sup>(١)</sup> عاصمًا للاجئين إلى المسجد الأقصى من القتل، ففي الصباح الباكر من اليوم الثاني دخلت باب المسجد ثلة من الصليبيين فأجهزت على جميع اللاجئين وحينما توجه ريموند آجيل في الضحى لزيارة ساحة المعبد أخذ يتلمس طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبتيه . وفر يهود بيت المقدس جميعاً إلى معبدهم الكبير، غير أنه تقرر إلغاء القبض عليهم بحجة أنهم ساعدوا المسلمين فلم تأخذهم الرحمة والرفقة، فأشعلوا النار في المعبد، ولقي اليهود بداخله مصرعهم محترقين . يقول: (وتركت مذبحه بيت المقدس أثراً عميقاً في جميع العالم، ليس معروفاً بالضبط عدد ضحاياها<sup>(٢)</sup> غير أنها أدت إلى خلو المدينة من سكانها المسلمين واليهود) .<sup>(٣)</sup>

فانظر الفرق الشاسع بين دخول الصليبيين هذه المدينة المقدسة لدى المسلمين والمسيحيين واليهود، وبين دخول القائد المسلم صلاح الدين . وفي الأندلس عندما استولى النصارى الحاقدين ألحقوا بالمسلمين ضرراً من الأذى والظلم والجور والعدوان، يصور ذلك الدكتور توفيق الطويل في إيجاز فيقول:

(وقد استفدت الكنيسة جهدها في إقناع المسلمين المقيمين في إسبانيا، لكي يرتدوا عن دينهم ويعتقوا المسيحية ديناً، وعلى غير جدوى ما بذلت من جهود، فاستجمعت محكمة التفتيش كل قواها، واعتصمت بالجرأة والتعصب، وصبت عذابها على المسلمين في غير رفق ولا عدائة حتى اعتنق النصرانية من خار في ميدان الكفاح، وهاجر من خار بين التمسك بعقيدته، واحتمال الأم العذاب، وفي عام ١٦٠٩ و ١٦١٠ تم إجلاء ألوف المسلمين عن إسبانيا بعد أن أغرقوا بدمهم أرضها، وكتبوا في المقاومة أنصع الصفحات في تاريخ الجهاد في سبيل الله)<sup>(٤)</sup> .

(١) أحد قواد الصليبيين ، كان لشعور تاراهو استسلموا ورفعوا علمه على المسجد .

(٢) ذكر ابن الأثير أنهم يزيدون عن سبعين ألفاً ( ٨ / ١٨٩ ) .

(٣) انظر: تاريخ الحروب الصليبية ( ١ / ٤٠٤ - ٤٠٤ ) .

(٤) انظر: قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام ( ٧١ - ٧٢ ) .

وأما في العصر الحاضر فأقرب الشواهد إلى الذاكرة على ظلم النصارى ومبلغ حقدهم واضطهادهم، ما فعله نصارى لبنان الموارنة ضد المسلمين الفلسطينيين في مخيمي (صبرا وشاتيلا) من مجازر ومذابح أودت بأرواح الآلاف من قاطني المخيمين مع ما صاحب ذلك من النهب والتدمير الشامل لمحتويات المخيمين وذلك عقب اجتياح الجيش اليهودي الصهيوني لمدينة بيروت وغيرها من المدن اللبنانية عام ١٩٨٢م، ١٤٠٢ هـ .

يقول أحد شهود العيان: ( . . . دفنت في يوم واحد عددًا إجماليًا مائة وثلاثة جثة . . . وعندما دخلت المخيم رأيت اللحم ملزقًا على الخيطان وتستطيع أن تقول كل أساليب القتل قد استخدمت: الساطور، البارود، الرصاص، العصي، كاتم الصوت . . . وكان بين الضحايا من كان عمره تسعين سنة . . . ومن بين الذين دفنهم أطفال أعمارهم بين ٦ - ٧ سنوات ونساء من مختلف الأعمار، كانوا أي: النصارى - يقتلون كل شيء يتحرك قدامهم) .<sup>(١)</sup>

فقد أصبحت معلومة لكل إنسان على وجه العمورة من اغتصاب وقتل وذبح وتشريد . إن النصارى ما كانوا في عدائهم عدولاً، ولا رحماء بمخالفهم، كما هو شأن الإسلام، فقد كانت أعمالهم بخصوصهم تفوق كل وصف، ولولا ما نقله شهود العيان عما أنزلوه بغيرهم من الظلم والعدوان لما استطاع المرء أن يصدق هذه الأعمال الموغلة في الوحشية والشناعة: من قوم لا دين لهم، فضلاً عن قوم يدعون أنهم أتباع المسيح عليه السلام، وبهذه اتضح ملمح من ملامح الوسطية وكيف مارسته أمة الإسلام مقارناً مع غيرها من أهل الكتابين واتضح لنا أنهم حادوا عن العدل إلى الظلم .



(١) وجّه درر المجوس (٢ / ٥٨-٥٩) .

## الفصل الثالث

### اليسر ورفع الحرج

تمهيد: إن من أول ما يتبادر إلى أذهاننا عندما نطلق كلمة (الوسطية) هو معنى اليسر والتيسير، ورفع الحرج، وهذا الفهم صحيح فإن من أبرز سمات الوسطية: التيسير ورفع الحرج .

وقد تقرر فيما مضى أن هذا الدين هو دين (الوسط)، فلا غلو ولا جفاء، ولا إفراط ولا تفريط . واليسر ورفع الحرج مرتبة عالية بين الإفراط والتفريط، وبين التشدد والتنطع وبين الإهمال والتضييع .

يقول الدكتور صالح بن حميد: (إن رفع الحرج والسماحة والسهولة راجع إلى الاعتدال والوسط، فلا إفراط ولا تفريط، فالتنطع والتشدد حرج من جانب عسر التكليف، والإفراط والتقصير حرج فيما يؤدي إليه من تعطيل المصالح وعدم تحقيق مصالح الشرع) . (١)

وقال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (بقرة: ١٤٣) فالتوسط هو منبع الكمال، والتخفيف والسماحة ورفع الحرج على الحقيقة هو في سلوك طريق الوسط والعدل) . (٢)

ولاهمية بيان عناية الإسلام بهذا الجانب وتأكيد عليه، فسأذكر بعض ما ورد في ذلك من الكتاب والسنة، وأئمة السلف من الصحابة وغيرهم مع ذكر أقوال بعض المفسرين حول آيات التيسير ورفع الحرج وقيل أن أبداً في ذكر الأدلة من الكتاب والسنة أذكر تعريفاً موجزاً للتيسير ورفع الحرج فأقول:

(١) رفع الحرج في الشريعة الإسلامية (١٣) .

(٢) المرجع السابق (١٣) .

## المبحث الأول

### تعريف اليسر والوسع في اللغة والاصطلاح

#### أ - اليسر والوسع في اللغة:

قال ابن منظور في تعريف اليسر: (اليسر: اللين والانتقاد، والميسرة: السعة والغنى وتيسر الشيء واستيسر: تسهل، واليسر: ضد العسر) (١).

#### ب - في الاصطلاح (عند المفسرين والعلماء)

وذكر الزمخشري - رحمه الله - في تعريف اليسر والوسع: (إن الوسع هو ما يسع الإنسان ولا يضيق عليه، ولا يجرح فيه، فإله لا يكلف النفس إلا ما يتسع فيه طوقها، وتيسير عليها دون مدى غاية الطاقة والمجهود، فقد كان في طاقة الإنسان أن يصلي أكثر من الخمس، ويصوم أكثر من شهر ويحج أكثر من حجة) (٢).

وذكر القاسمي في تفسيره أن اليسر: (عمل لا يجهد النفس ولا يشغل الجسم) (٣). وقال الدكتور صالح بن حميد: (إن اليسر والوسع: ما يقدم عليه الإنسان من غير أن يلحقه مشقة زائدة، ومن غير أن يحتاج لبذل كل ما لديه من طاقة ومجهود) (٤).



(١) لسان العرب (٥)، كتاب (رز) باب يسر: ٢٩٥.

(٢) الكشاف (١ / ٤٠٨).

(٣) القاسمي (٣ / ٤٦٧).

(٤) رفع الخرج في الشريعة (٤٦).



## المبحث الثاني

### رفع الحرج

- أ - في اللغة: الحرج: (أضيق الضيق، وحرج فلان على فلان: إذا ضيق عليه) (١)  
 ب - في الاصطلاح: (كل ما أدى إلى مشقة زائدة في البدن أو النفس أو المال حالاً أو مآلاً) . (٢)

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى:

﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (نوح: ٧٨)

(توسعة الإسلام، ما جعل الله من التوبة والكفارات) (٣) .

- وقال الضحاك (٤) في تفسير الآية: - جعل الدين واسعاً ولم يجعله ضيقاً .  
 وقال مقاتل بن حيان (٥): (لم يضيق الدين عليكم ولكن جعله واسعاً لمن دخله، وذلك أنه ليس مما فرض عليهم فيه إلا وقد ساق إليهم عند الاضطرار فيه رخصة) .

وبعد هذا التعريف للحرج يكون رفع الحرج هو:

(إزالة ما يؤدي إلى هذه المشاق الموضحة في التعريف، ويستوجه الرفع والإزالة إلى حقوق الله سبحانه وتعالى؛ لأنها مبنية على المسامحة، ويكون ذلك إما بارتفاع

(١) لسان العرب (٢) كتاب (ج، ح)، باب (حرج) (٢٣٢) .

(٢) رفع الحرج في الشريعة الإسلامية (٤٧) .

(٣) تفسير الطبري (١٧ / ٢٠٦) .

(٤) هو المفسر الثقة الضحاك بن مزاحم الهلالي أبو القاسم، ويقال: أبو محمد الخراساني، روى عن طائفة من الصحابة، ولم يثبت له سماع من أحد من الصحابة، وثقه الإمام أحمد، والدارقطني، وغيرهما . كان جليل القدر والعلم في التفسير، أخذ جملة من عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، توفي سنة ١٠٢ هـ، انظر (١ / ٩٤)، تهذيب التهذيب (٤ / ٤٤٣)، سير أعلام النبلاء (٤ / ٤٤٩) .

(٥) أصله من بفتح، ويقال له الخراساني المروزي، وهو أزدي بالولاء، انتقل إلى البصرة وعاش بها برز على ضعفه ومثوقه عن بعض العلماء عن أسماء، كابن سيرين وعصرو بن شبيب، والزهري اتهمه بكثرة الأئمة بالكذب والضعف في الرواية، والتمسك في الحديث، والجسارة على الكذب، وغير ذلك من الأوصاف الجارحة، توفي سنة (١٥٠ هـ) انظر: ترجمة للجرجحين لابن حبان (٣ / ١٤) .

الإثم عند الفعل، وإما بارتفاع الطلب للفعل، وحينما يرتفع كل ذلك ترتفع حالة الضيق التي يعانيها المكلف حينما يستشعر أنه يقدم على ما لا يرضي الله، وهذا هو الحرج النفسي والخوف من العقاب الأخروي .

كما يرتفع الحرج الخسي حينما يكون التكليف شاقاً فيأتي العفو من الله سبحانه وتعالى إما بالكف عن الفعل الموقع في الحرج، وإما بإباحة الفعل عند الحاجة إليه).<sup>(١)</sup>



(١) رفع الحرج في الشريعة الإسلامية (٤٨) .

## المبحث الثالث

## أدلة التيسير والوسع ورفع الحرج

## من الكتاب والسنة، وأقوال الصحابة والتابعين

أولاً: الأدلة من القرآن الكريم:

وردت آيات كثيرة جداً تبين أن هذا الدين دين يسر، وأن الله قد رفع الحرج عن هذه الأمة فيما يشق عليها، حيث لم يكلفها إلا وسعها . وسأبين أدلة التيسير، ثم أدلة رفع الحرج، ثم أدلة عدم التكليف بغير الوسع والطاقة .

## ١ - أدلة التيسير والتخفيف:

قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥) وقال سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾ (النساء: ٢٨) وقال عز وجل: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ (الاعلام: ٨) وقال في سورة الشرح: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشرح: ٥ - ٦) وفي سورة الطلاق: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ (الطلاق: ٤) وقال - جل من قائل: ﴿يَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ (الطلاق: ٧) .  
هذه بعض الآيات التي تفيد التيسير على هذه الأمة . قال القاسمي في تفسير آية البقرة، قال الشعبي: (إذا اختلف عليك أمران، فإن أيسرهما أقربهما إلى الحق لهذه الأمة) (١).

وقد ذكر المفسرون في تفسيرهم لهذه الآيات أن الله أراد لهذه الأمة اليسر ولم يرد لها العسر (٢) .

## ٢ - أدلة رفع الحرج:

من أقوى الأدلة في الدلالة على رفع الحرج قوله - تعالى - : ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: ٧٨) .

(١) تفسير القاسمي (٢ / ٤٢٧) .

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢ / ١٥٦) ، وتفسير ابن كثير (١ / ٢١٧) .

قال الطبري في تفسير هذه الآية: (جعل الدين واسعاً ولم يجعله ضيقاً) . قال ابن كثير: (أي: ما كلفكم ما لا تطيقون وما ألزمكم بشيء يشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجاً ومخرجاً) . (١)

وقال سبحانه: ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُظَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (البقرة: ١٨٥) وفي سورة التوبة: ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (التوبة: ٩١) .

وقال في سورة الاحزاب: ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ﴾ (الاحزاب: ٣٨) وفي سورة النور: ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ (النور: ٦١) .

وفي هذه الآيات دلالة ظاهرة على رفع الحرج عن هذه الأمة، وأن الله لم يجعل في التشريع حرجاً وبعض هذه الآيات وإن كانت خاصة في أحكام معينة، ولكننا نجد التعليل عاماً، فكان التخفيف ورفع الحرج في هذه الأحكام والفروض بإعادة الشيء إلى أصله وهو رفع الحرج عن هذه الأمة، فكل شيء يؤدي إلى الحرج لسبب خاص أو عام فهو معفو عنه، رجوعاً إلى الأصل والقاعدة . (٢)

### ٣ - أدلة عدم التكليف بما يضراد الوسع والطاقة:

قال سبحانه في سورة البقرة: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (البقرة: ٢٨٦) وقال الله تعالى كما في الحديث الصحيح: «قد فعلت» (٣)، وكذلك قوله: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نُسِيْنَا أَوْ أخطأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ (البقرة: ٢٨٦) .

قال الدكتور صالح بن حميد: (والوسع ما يسع الإنسان فلا يعجز عنه ولا يضييق عليه ولا يحرج فيه، فقوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ أي: لا

(١) تفسير الطبري (١٧ / ٢٠٧) .

(٢) انظر: الوسطية في ضوء القرآن (٦-١٠٧-١١) .

(٣) أخرجه مسلم. كتاب الإيمان، باب لا يكلف الله إلا ما يطيق (١ / ١١٦) رقم (١٢٦) .

يحملها إلا ما تسعه وتطبيقه ولا تعجز عنه أو يخرجها دون مدى غاية الطاقة، فلا يكلفها بما يتوقف حصوله على تمام صرف القدوة، فإن عامة أحكام الإسلام تقع في هذه الحدود، ففي طاقة الإنسان وقدرته الإتيان بأكثر من خمس صلوات وصيام أكثر من شهر، ولكن الله جلت قدرته ووسعت رحمته أراد بهذه الأمة اليسر ولم يرد بها العسر<sup>(١)</sup>.

ومن الأدلة على أن التكليف بحدود الوسع والطاقة قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (الاعراف: ٤٢) ويقول سبحانه في سورة المؤمنون: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

قال القاسمي: (فسنة الله جارية على أنه لا يكلف النفوس إلا وسعها)<sup>(٢)</sup> وجاء التأكيد على هذه القاعدة عند ذكر بعض الأحكام الفرعية فقال سبحانه: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٣٢).

وكذلك في سورة الطلاق: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ (الطلاق: ٧) وكذلك أيضاً في سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (الأنعام: ١٥٢).

هذه هي الآيات التي وردت مبينة أن التكليف بحسب الوسع والطاقة، لا شك أن الأحكام الشرعية إذا كانت مطلوبة في حدود الوسع والاستطاعة دون بلوغ الطاقة، ففي ذلك الدلالة الظاهرة على أن الحرج مرفوع، وأن اليسر سمة هذا الدين، والتوسعة على العباد خاصية من خصائصها، فهي الخفيفة السهلة والوسطية التي لا عنت فيها ولا مشقة<sup>(٣)</sup>.

(١) رفع الحرج في الشريعة الإسلامية (٦٩).

(٢) انظر: تفسير القاسمي (١٢ / ٤٤٠٠).

(٣) انظر: رفع الحرج (٧٣).

## ثانياً: الأدلة من السنة النبوية:

نعت الله نبيه محمد ﷺ بأنه رحيم بأمته يعز عليه كل ما فيه مشقة عليهم قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨) وظهرت شفقتة ورحمته بأمته في السنة النبوية في أقواله عليه الصلاة والسلام وأفعاله وجميع سيرته ﷺ، بل كان عليه الصلاة والسلام يخشى أن يكون قد أمر أمته أو سلك فيهم طريقاً فيه مشقة أو إعنات، كما كان عليه أفضل الصلاة والسلام ينهى أصحابه عن سلوك طريق التعمق والتشدد، وسأبين أحاديث وردت في يسر هذا الدين وسماحته ورفع الحرج عنه، وأحاديث توضح لنا خشية النبي ﷺ أن يكون قد شق على أمته، وأحاديث في أمر الصحابة بالتخفيف عن التعمق والتشديد وإنكار ذلك عليهم .

وما سأذكره من أحاديث يبين أن الدين كله يسر لا عسر فيه ولا حرج، وفيه ما يتعرض لقضايا جزئية كبعض أحكام الصلاة والنصيام ونوافل العبادات، ولا شك أن كل ذلك يدل بمجموعه دلالة قاطعة على رفع الحرج عن هذا الدين وبعده عن العسر والمشقة .

١ - أحاديث في بيان يسر هذا الدين وسماحته ورفع الحرج عنه :

١- أخرج البخاري في صحيحه تعليقاً: «قيل يا رسول الله: أي الأديان أحب إلى الله؟ قال: الخفيفة السمحة» .<sup>(١)</sup>

٢ - أخرج البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ عندما أرسل معاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما قال لهما: «يسرا ولا تعسرا ويسرا ولا تشفرا»<sup>(٢)</sup>

٣- وأخرج البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا» .<sup>(٣)</sup>

(١) البخاري، فتح الباري، كتاب الإيمان، باب الدين يسر (١ / ١١٦) .

(٢) البخاري، فتح الباري : كتاب الآداب، باب يسروا ولا تعسروا (١ / ٥٤١) .

(٣) البخاري، فتح الباري : كتاب الإيمان ، باب يسر الدين، (١ / ١١٦) .

٤ - روت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لم يعثني معتاً ولا متعتاً، ولكن بعثني معلماً ميسراً»<sup>(١)</sup>.

٥ - وفي مسند الإمام أحمد، قال ﷺ: «إن خير دينكم أيسره، إن خير دينكم أيسره»<sup>(٢)</sup>.

وأهل الكتاب يعلمون أنه عليه السلام قد بعث بالتخفيف واليسر ولهذا لما زنى رجل منهم في عهد النبي ﷺ قال بعضهم لبعض اذهبوا بنا إلى هذا النبي: «فإنه بعث بالتخفيف»: إلى آخر القصة التي أنكروا فيها الرجم في شريعتهم<sup>(٣)</sup>.

ب - أحاديث تدل على خشية ﷺ أن يكون قد شق على أمته:

ثبت عن النبي ﷺ جملة أحاديث تدل على شففته الشامة على أمته، وخشيته أن يكون قد جلب عليها ما يعتتها أو يشق عليها وتجنبه كل طريق يؤدي إلى ذلك وإليك بعضه منها:

١ - صلى رسول الله ﷺ التراويع ليلة فصلى بصلاته ناس، ثم صلى من القابله فكثر الناس، ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة فلم يخرج إليهم، فلما أصبح قال: «قد رأيت الذي صنعتم فلم يمنعني من الخروج إليكم إلا أنني خشيت أن تفرض عليكم، وفي الرواية الأخرى فتعجزوا عنها»<sup>(٤)</sup>.

٢ - قال ﷺ: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك»<sup>(٥)</sup> بل أنه عليه الصلاة والسلام يخفف الصلاة ويتجوّز فيها - وهي قرء عينه وفيها الراحة التي ينشدها - رفقاً بحال المؤمنين ومراعاة لضعفهم واتشغال بالهم ودفعاً لكل ما يدخل المشقة عليهم.

(١) أخرجه مسلم، كتاب الطلاق، باب تخيير حلاق امرأته لا يكون إلا بالنية (٢ / ٤٦٠ - ٤٦١) رقم (٤٧٨).

(٢) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤ / ١٨٨)، رواه نظيراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح.

(٣) انظر: جامع الأصول لابن الأثير: (٣ / ٥٤٥).

(٤) صحيح مسلم مع النووي: كتاب الصلاة، باب صلاة التراويح (٦ / ٤١ - ٤٢).

(٥) صحيح مسلم مع النووي، كتاب الطهارة، باب السواك (٣ / ١٤٣).

٣ - قال عليه السلام : «إني لأقوم إلى الصلاة وأنا أريد أو أطول فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجاوز كراهية أن أشق على أمه» . (١)

والأحاديث في هذا الشأن من باب المثال لا من باب الحصر .

ج - في أمر النبي عليه السلام أصحابه بالتخفيف ونهيهم عن التعمق والتشديد وإنكار ذلك عليهم:

بل كان عليه السلام يتبع أحوال بعض الصحابة الذين ينسب إليهم ذلك فينكر عليهم ويوجههم إلى طريق اليسر والاعتدال وهذه مجموعة من الأحاديث التي توضح هذا وتبينه:

١ - كان معاذ بن جبل رضي الله عنه يصلي مع النبي عليه السلام ثم يأتي قومه فبعضهم فصلى ليلة مع النبي عليه السلام ثم أتى قومه فأفتح بسورة البقرة فأنحرف رجل فلم ثم صلى وحده وانصرف، فقالوا له: أنافقت يا فلان؟

قال: لا والله، ولأتين رسول الله فلاخيرته، فأتى رسول الله عليه السلام فقال: يا رسول الله: إنا أصحاب نواضح - وهي الإبل التي يستقى عليها - نعمل بالنهار، وإن معاذاً صلى معك العشاء ثم أتى فأفتح بسورة البقرة، فأقبل رسول الله عليه السلام على معاذ فقال: «يا معاذ أفان أنت؟ اقرأ بكذا، وفي الرواية الأخرى: «سبح اسم ربك الأعلى، والليل إذا يغشى، والمضحى» (٢).

٢ - جاء رجل إلى رسول الله عليه السلام فقال: «إني لأتأخر عن صلاة الصبح من أجل فلان مما يطيل بنا» . يقول راوي الحديث - وهو أبو مسعود الأنصاري (١) - فما

(١) سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب تخفيف الصلاة، (١ / ٢٠٩، رقم ٧٨٩).

(٢) هو معاذ بن جبل بن عمرو أبو عبد الرحمن الأنصاري، شهد المشاهد كلها، أعلمهم باختلال الحرم، مات بزيه في طائفة عمواس سنة ثمان عشر. انظر: الاستيعاب (١٠٠ / ١٠٤ / ١٠٥)، الإصابة (٩ / ٢١٩).

(٣) صحيح مسلم مع النووي: كتاب الصلاة، باب تخفيف الأئمة، (٤ / ١٨٦ - ١٨٧).

(٤) هو الصحابي الأنصاري أبو مسعود عقية بن عمرو بن ثعلبة الخزرجي يمتعه المشهور بكنيته شهد العقبة، واختلف في شهوده بلزم، وقد شهد أحدًا وما بعدها، ونزل الكوفة، وكان من أصحاب علي واستخلفه مرة على الكوفة، مات بعد سنة أربعين للهجرة، الإصابة (٢ / ٢٨٤).



رأيت النبي ﷺ غضب في موعظة قط أشد مما غضب يومئذ، فقال: «أبها الناس إن منكم متفرين، فأيكم أم الناس فليوجز فإن من ورائه الكبير والضعيف وذو الحاجة» (١).

بل قد بلغ الحال ببعض الصحابة رضوان الله عليهم، أن أرادوا الأخذ بعزائم الأمور ومخالفة الرسول ﷺ في بعض ما كان يترخص فيه - ظناً منهم أنه طريق التقوى والخشية، وأن ترخصات النبي ﷺ خاصة به لأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

وكان هؤلاء القوم فهموا أن الأخذ بالأشد هو الاتقى وهو الأقرب إلى الله سبحانه وتعالى؛ لكن الرسول ﷺ أوضح لهم أن الطريق الصحيح هو في الاتباع والافتداء، وأن اتباع اليسر والسهولة والأخذ برخص الله هو منهج رسول الله ﷺ فهو أعلم الناس بشرعه وأشدهم له خشية (٢).

٣ - يوضح ذلك: ما روته عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أمرهم من الأعمال بما يطيقون قالوا: «إنا لسنا كهيتك يا رسول الله، إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فيغضب حتى يعرف الغضب في وجهه ثم يقول: إن أتاكم وأعلمكم بالله أنا» (٣).

فهو عليه السلام الجامع للفتوتين العلمية والعملية وعمله ومنهجه هو المنهج المستقيم، وفي هذا الحديث بيان أن الطريق الصحيح والمنهج السليم هو الوقوف عند ما حدده الشارع من عزيمة أو رخصة، واعتقاد أن الأخذ بالأرق الموافق للشرع أولى من الأشق المخالف له، كما أعلمهم عليه السلام أنه وإن كان الله قد غفر له، لكنه مع ذلك أخشى الناس لله وأتقاهم فما فعله ﷺ من عزيمة أو رخصة فهو في غاية التقوى والخشية، ومن هنا ندرك غضبه عليه السلام على هؤلاء الذين حاولوا سلوك

(١) صحيح مسلم مع النووي، كتاب الصلاة - باب تخفيف الأثمة - (٤ / ١٨٤).

(٢) انظر: روضة المخرج في الشريعة (٨٣).

(٣) صحيح البخاري - فتح الباري، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ «إن أضعكم بالله» (١ / ٨٨-٨٩، رقم الحديث ٢٠).

منهج التعمق والتشدد ظناً منهم أن ذلك طريق النجاة، وإذا فلا غرابة أن رأيناه عليه السلام يتعقب الذين يلتزمون التشديد والأخذ بالأشق<sup>(١)</sup>.

٤ - ودخل ﷺ مرة المسجد فإذا حبل ممدود بين ساريتين فقال: ما هذا الحبل؟ فقالوا: حبل لزيب، فإذا فترت تعلقت به، فقال ﷺ: «حلوه ليصل أحدكم نشاطه فإذا فتر فليرقده»<sup>(٢)</sup>.

٥ - وفي السنن عن عقبة بن عامر<sup>(٣)</sup> أن أخته نذرت أن تمشي إلى البيت فقال النبي ﷺ: «إن الله لا يصنع بشقاءه شيئاً فلتركب» وفي رواية: «إن الله لغني عن مشيها مروها فلتركب»<sup>(٤)</sup>.

هذه هي سنة رسول الله ﷺ وطريقته: سلوك الطريق الوسط واتباع اليسير، وسلوك غير ذلك رغبة في سنة رسول الله - فيه الخطر الشديد والوعيد العظيم المؤدي إلى منهج التنطع والإفراط، بل لقد ثبت نهييه عليه السلام لبعض أصحابه عن التشديد والتكلف ممن التزموا هذا الجانب ما يؤدي بهم إلى الانقطاع وعدم التمكن من المواصلة وإهمال حقوق وواجبات للنفس والأهل وكل من له به تعلق.

٦ - فهذا عبد الله بن عمرو بن العاص<sup>(٥)</sup> يقول: «قال لي رسول الله ﷺ: يا عبد الله ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟ فقلت: بلى يا رسول الله: قال فلا تفعل، صم وأفطر وقم وتم فإن جسدك عليك حقاً، وإن لعينك عليك حقاً وإن تزوجك عليك حقاً، وإن لزورك عليك حقاً، وإن يحسبك أن تصوم كل

(١) انظر: رفع الحرج في الشريعة (٨٣).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب ما يكره من التشدد في العبادة، (٢ / ٦) رقم (١١٥٠).

(٣) هو عقبة بن عامر بن عيسى الجهني، روى عن الرسول ﷺ كثيراً وروى عنه جماعة من الصحابة والتابعين، كان من أهل الصفة، وكان فارساً عالمًا بالقراءات والفقه، فصيح اللسان، شاعرًا وهو أحد من جمع القرآن، وشهد فتح أشبام، مات في خلافة معاوية<sup>(٤)</sup>. انظر: حلية الأولياء: (١ / ٨)، أسد الغاية (٣ / ٥٥).

(٤) جامع الأصول (١٦ / ٥٤٤-٥٤٦).

(٥) هو عبد الله بن عمرو بن العاص السهمي القرشي أحد العبادة القهقريين، وقد أسلم قبل أبيه، ثم هاجر قبل الفتح، كان عابداً واهتماً من ورثة الحديث، توفي عام (٤٣هـ) انظر الإصابة، رقم (٤٨٣٨).

وانظر: حلية الأولياء (١ / ٢٨٣).

شهر ثلاثة أيام فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها فإن ذلك صيام الدهر كله، فشددت فشدد علي، قلت: يا رسول الله إني أجد قوة، قال: فصم صيام نبي الله داود عليه السلام، ولا تزد عليه. قلت: وما كان صيام نبي الله داود عليه السلام؟ قال: نصف الدهر، فكان عبد الله يقول بعد ما كبر يا ليتني قبلت رخصة النبي ﷺ<sup>(١)</sup>.

٧ - وحينما نهى عليه الصلاة والسلام عن الوصال في الصيام: نفيقال له رجل من المسلمين فإنك تواصل يا رسول الله؟ قال وأبكم مثلي: «إني آبيت يطعمني ربي ويسقيني، فلما أبوا أن يشتهوا عن الوصال واصل بهم يوماً ثم رأوا الهلال فقال: لو تأخر لزدتكم كالتنكيل لهم حين أبوا أن يشتهوا. وفي الرواية الأخرى قيل: إنك تواصل؟ قال إني آبيت يطعمني ربي ويسقيني، فاكلفوا من العمل ما تطيقون»<sup>(٢)</sup>.

وتوجيهات رسول الله في هذا مما يجعل عن الحصر في مثل هذا المقام فالسهولة والرفق والاختد باليسر ومراعاة الأحوال ديدنه ﷺ.

ثالثاً: فهم الصحابة والتابعين لرفع الحرج في الشريعة.

أ - الصحابة:

صحابه رسول الله ﷺ هم الفئة الذين اختارهم الله ليشاهدوا تنزل الوحي ويسمعوا من رسول الله ﷺ أقواله ويشاهدوا أفعاله ويأتمروا بأوامره مباشرة ويسترشدوا بتوجيهاته ويقتدوا بتطبيقاته، فهم الذين عاشوا عصر النبوة، كما عاشوا الإسلام خالصاً نقياً لذا فإذن أفعالهم وأقوالهم نماذج عملية لإرادة تطبيق الإسلام النقي الصافي، وفي هذا المقام سأورد بعضاً مما أثير عنهم مما يوضح جوانب عملية في التطبيق والفتوى في العصر الإسلامي الأول بكل ما يتمتع به من سهولة ويسر.

١ - يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في وصف منهج إخوانه من الصحابة والاقتراء بهم: «من كان منكم مستناً فليستن بمن قد مات فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة»، «أولئك أصحاب محمد كانوا أفضل هذه الأمة وأبرها قلباً وأعمقها علماً

(١) رواه البخاري فتح الباري - كتاب الصيام - باب حل الجسم في الصوم (٤ / ٢٦٠) رقم الحديث (١٩٧٥).

(٢) البخاري، فتح الباري، كتاب الصيام، باب الوصال، (٤ / ٢٣٨) حديث رقم (١٩٦٥).

وأقلها تكلفاً، اختارهم الله لصحة نبيه وإقامة دينه فأعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم على أثرهم وسيرتهم فإنهم كانوا على الهدى المستقيم»<sup>(١)</sup> .  
 ويقول أيضاً: «ياكم والتنطع وياكم والتعمق وعليكم بالعتيق»<sup>(٢)</sup>  
 هؤلاء هم أصحاب رسول الله ﷺ وهذا هو منهجهم سموخ في العلم وبعُدُ  
 عن التكلف وصلاح في القلوب ومقاومة للتنطع والتشدد لقد كانوا على الهدى  
 المستقيم والطريق الواضح .

٢ - عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (كنا عند عمر رضي الله عنه فسمعته يقول: نُهِيتَا  
 عن التكلف»<sup>(٣)</sup>

قال الدكتور صالح بن حميد: (هذه الصيغة وإن كان لها حكم المرفوع ، غير  
 أنها تدل على أن البعد عن التكلف هو منهج عمر وغيره من الصحابة)<sup>(٤)</sup> وقد مر  
 عمر رضي الله عنه في طريق فسقط عليه شيء من ميزاب، فقال رجلٌ مع عمر: (يا صاحب  
 الميزاب، ماؤك طاهر أو نجس ؟ فقال عمر رضي الله عنه: يا صاحب الميزاب: لا تخبرنا،  
 ومضى)<sup>(٥)</sup> .

#### ب - التابعين:

نهج التابعون رضي الله عنهم نهج رسول الله ﷺ وصحابته الكرام علماء وعملاً وتوجيهاً  
 وإرشاداً واقتداءً ولقد كان من طريقهم البعد عن الشدة والتكلف والأخذ باليسير من  
 الأمر وإليك أمثلة من أقوالهم:

١ - قال الإمام الشعبي -رحمه الله-: (إذا اختلف عليك أمران فإن أيسرهما

أقربهما إلى الحق<sup>(٦)</sup> لقوله تعالى:

﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥)<sup>(٧)</sup>

(١) منهاج السنة لابن تيمية (١ / ١٦٦) .

(٢) انظر: جامع علوم الحكم، (٢٧٠)، ورفع الحرج (٨٧) .

(٣) انظر: إغاثة اللهفان (١ / ١٥٩)، ورفع الحرج (٨٨) .

(٤) انظر: رفع الحرج (٨٨) .

(٥) انظر: إغاثة اللهفان (١ / ١٥٤)، ورفع الحرج (٨٩) .

(٦) انظر: تفسير القاسمي (٣ / ٤٢٧) .

(٧) القاسمي (٣ / ٤٢٧) .

٢ - وقال معمر <sup>(١)</sup> وسفيان الثوري <sup>(٢)</sup>: (إنما العلم أن تسمع بالرخصة من ثقة فأما التشديد فبحسنه كل أحد) . <sup>(٣)</sup>

٣ - وقال إبراهيم النخعي <sup>(٤)</sup>: (إذا تخالجت أمران فظن أن أحبهما إلى الله أبسهما) <sup>(٥)</sup> فإن التأمل لهذه الآثار من انكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة يلحظ أن هذا المعنى غائب عن واقع وفهم كثير من المسلمين، وقليل منهم من يدرك هذه الحقيقة ويتعامل معها، حيث إنه يوجد هناك من لو سئل عن هذا الأمر لأجاب الإجابة الصحيحة، ولكن عند التأمل في واقعه وتعامله والتزامه ومنهجه لا نجد إلا الإفراط أو التفريط .

والعجب أن بعض هؤلاء كأنه أغير على دين الله من رسول الله ﷺ بل من الله - جل وعلا - الذي يقول: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: ٧٨) ويقول تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥) ويقول: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (النساء: ٢٨) .

وهذا لا يعني - أيضاً - التفريط والتساهل والتهاون بحجة أن هذا الدين يسر، والتوسعة إلى الشارع لا إلى أهواء الناس ورغباتهم وما ألفوه ودرجوا عليه، فلا إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا جناف (كلا طرفي قصد الأمور ذميم) ثم إن قضية التيسير والتوسعة قضية منهج متكامل وليست تتعلق بجزئية أو جزئيات كما يتصور بعض الناس .

(١) هو معمر بن راشد أبو عمرو البصري - نزل اليمن، سمع قتادة والزهري، وغيرهما روى عنه حميد الرزاق الصنعاني وغيره، ثقة - ثلث فاضل، مات رحمه الله سنة ثلاث وخمسين ومائة .

انظر: التاريخ الكبير (٧ / ٣٧٨)، وميزان الاعتدال (٤ / ٦٥٤) .

(٢) هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، شيخ الإسلام، إمام الحفاظ، سيد العلماء في زمانه، مات رحمه الله تعالى سنة إحدى وستين ومائة، انظر: الجرح والتعديل (١ / ٥٥)، وتاريخ بغداد (٧ / ١٥١) .

(٣) رفع الجرح (٩٢) . انظر: جامع بيان العنم وفضله (٢٨٥)

(٤) هو الإمام القاضي إبراهيم بن يزي بن نيسر بن الأسود، أبو عمران النخعي من أكابر التابعين صلاحاً وصدقاً ورواية وحسناً لتحديث، عاش بالكوفة، وكان زماناً مجتهداً له مدد خاص توفي سنة (٩٦هـ) . تهذيب التهذيب

(٥) (١ / ٦٧٧)، وحلقة الأولياء (٤ / ٢١٩) .

(٥) انظر: رفع الجرح (٩٢) ، والآثار لأبي يوسف (١٩٦) .

وبهذا التعريف والشمول ندرك أن هذا الأمر يندرج في منهج الوسطية، التي هي سمة من سمات هذه الأمة، وخاصية من خصائصها، فلن نستطيع أن ندرك حقيقة الوسطية إلا إذا فهمنا سمة اليسر والتوسعة ورفع الحرج، وألا تصيح الوسطية معنى مفرغاً من حقيقته، وقولاً نظرياً لا وجود له في الواقع، وبذلك يفقد هذا الدين خاصية لها أثرها في حياة الناس ومآلهم<sup>(١)</sup>.



(١) انظر: الوسطية في ضوء القرآن الكريم (١١٦).

## الفصل الرابع

### الحكمة

تمهيد: إن الحكمة ملمح من ملامح الوسطية، وبيان هذا: أن التوسط هو توسط معنوي، وتحديد هذا التوسط يكون بمراعاة جميع الأطراف، تحقيقًا للمصالح، ودرءًا للمفاسد، وهذه هي الحكمة الشرعية وبعبارة أخرى: فإن الوسطية أمر نسبي، يخضع لتحديده لعوامل عدة لا بد من مراعاتها، ولا يتحقق ذلك إلا بإتقان الحكمة. ومن أجل إلقاء مزيد من الضوء على هذه الحقيقة سأبين الحكمة في اللغة وفي الاصطلاح الشرعي وعند المفسرين وأنواعها ودرجاتها وبعض الأمثلة في تطبيقها.

### المبحث الأول

#### الحكمة في اللغة والاصطلاح

أ - في اللغة: جاءت الحكمة في اللغة بعدة معان، منها:

- ١ - تستعمل بمعنى: العدل، والعلم، والحلم، والنبوة والقرآن، والإنجيل وأحكم الأمر: أتقنه فاستحكم ومنعه عن الفساد<sup>(١)</sup>.
- ٢ - والحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها حكيم<sup>(٢)</sup>.
- ٣ - والحكيم: المتقن للأمور، يقال لسرجل إذا كان حكيمًا: قد أحكمته التجارب<sup>(٣)</sup>.
- ٤ - والحكم والحكيم هما بمعنى: الحاكم والقاضي، والحكيم فعيل بمعنى فاعل، أو هو الذي يحكم الأشياء ويتقنها، فهو فعيل بمعنى: مفعول<sup>(٤)</sup>.

(١) القاموس المحيط، باب الميم، فصل الحاء، (١٤١٥).

(٢) نسان العرب، باب الميم، فصل الحاء، (١٢ / ٤٤٣).

(٣) انتهاء في غريب الحديث والأثر، باب الحاء مع الكاف، مادة حكم (١ / ١١٩) نظر: نسان العرب، باب الميم فصل الحاء، (١٢ / ١٤٠).

(٤) انظر: انتهاء في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، باب الحاء مع الكاف، مادة حكم: (١ / ٤٤٩).

٥ - والحكمة: إصابة الحق بالعلم والعقل<sup>(١)</sup>.

٦ - والحكيم: المانع من الفساد، ومنه سميت حكمة اللجام، لأنها تمنع الفرس من الجري والذهاب في غير قصد، والسورة المحكمة: الممنوعة من التغيير وكل التبديل، وأن يلحق بها ما يخرج عنها ويزاد عليها ما ليس منها.

والحكمة من هذا، لأنها تمنع صاحبها من الجهل، ويقال: أحكم الشيء إذا أتقنه ومنعه من الخروج عما يريد، فهو محكم وحكيم عن التكثير<sup>(٢)</sup>.

٧ - والحكمة: ما أحاط بحنكي الفرس، سميت بذلك، لأنها تمنعه من الجري الشديد، وتذلل الدابة لراكبها، حتى تمنعها من الجماع ومن كثير من الجهل، ومنه اشتقاق الحكمة، لأنها تمنع صاحبها من أخلاق الأراذل<sup>(٣)</sup>.

٨ - والحكم: هو المنع من الظلم، وسميت حكمة الدابة، لأنها تمنعها، يقال: حكمت الدابة وأحكمتها، ويقال: حكمت السفينة وأحكمت إذا أخذت على يديه، والحكمة هذا قياسها، لأنها تمنع من الجهل، وتقول: حكمت فلاناً تحكيمياً: منعه عما يريد<sup>(٤)</sup>.

استعملت في عدة معان تتضمن معنى المنع:

فالعادل: يمنع صاحبه من الوقوع في الظلم.

والحلم: يمنع صاحبه من الوقوع في الغضب.

والعلم: يمنع صاحبه من الوقوع في الجهل.

والنبوة، والقرآن، والإنجيل: فالنبي إنما بعث لمنع من بعث إليهم من عبادة غير الله، ومن الوقوع في المعاصي والآثام، والقرآن والإنجيل وجميع الكتب السماوية أنزلها الله تتضمن ما يمنع الناس من الوقوع في الشرك وكل منكر وقبيح.

(١) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصبهاني، كتاب الحاء، مادة: حكم (١٢٧).

(٢) انظر: اجتمع لأحكام القرآن للقرطبي (١ / ٢٨٨) مع التصرف.

(٣) انظر: المعنجات النيرة، مادة حكم، (١ / ١٤٥).

(٤) مقاييس اللغة (٢ / ٩١)، باب الحاء والكاف، مادة حكم.



ومن فسر الحكمة بالمعرفة فهو مبني على أن المعرفة الصحيحة فيها معنى المنع، والتحديد، والفصل بين الأشياء، وكذلك الإتيان، فبه منع للنبي المتقن من تطرق الخلل والفساد إليه، وفي هذا المعنى قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : (الإحكام هو الفصل والتميز والفرق والتحديد الذي به يتحقق الشيء ويحصل إتقانه ولهذا دخل فيه معنى المنع كما دخل في الحد بالمنع جزء معناه لا جميع معناه)<sup>(١)</sup> .

### ب - تعريف الحكمة في الاصطلاح الشرعي :

ذكر العلماء مفهوم الحكمة في القرآن الكريم والسنة النبوية<sup>(٢)</sup> واختلفوا على أقوال كثيرة، فقيل: الحكمة: النبوة، وقيل: القرآن، والفقهاء به: ناسخة ومنسوخة، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه وأمثاله :

وقيل: الإصابة في القول والفعل، وقيل: معرفة الحق والعمل به، وقيل: العلم النافع والعمل الصالح، وقيل: الخشية لله، وقيل: السنة، وقيل: الورع في دين الله، وقيل: العلم والعمل به، ولا يسمى الرجل حكيماً إلا إذا جمع بينهما، وقيل: وضع كل شيء في موضعه، وقيل: سرعة الجواب مع الإصابة<sup>(٣)</sup> وقد ذكر بعضهم تسعة وعشرين قولاً في تعريف الحكمة<sup>(٤)</sup> .

(وهذه الأقوال كلها قريب بعضها من بعض ؛ لأن الحكمة مصدر من الإحكام، وهو الإتقان في قول أو فعل، فكل ما ذكر فهو نوع من الحكمة التي هي الجنس، فكتاب الله حكمة، وسنة نبيه ﷺ حكمة، وكل ما ذكر من التفضيل فهو حكمة، وأصل الحكمة ما يمتنع به من السفه، فقيل للعلم حكمة ؛ لأنه يمتنع به من السفه، وبه يعلم الامتناع من السفه الذي هو كل فعل قبيح . . . )<sup>(٥)</sup> .

(١) مجموعة الرسائل الكبرى، لابن تيمية (٢ / ٧) .

(٢) انظر: البخاري مع الفتح، كتاب العلم، باب لا غشيط في العلم والحكمة (١ / ١٦٥) .

(٣) تفسير القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (١ / ٤٣٦، ٣ / ٦٠-٦١)، تفسير ابن عثيمين (١ / ٢٥٦) .

(٤) زاد المسير (١ / ٣٢٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢ / ١٣١)، (٣ / ٦٠-٦١) .

(٥) انظر: تفسير نهر المحيط (٢ / ٣٢٠) .

(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣ / ٣٣٠) .

وعند التأمل والنظر نجد أن التعريف الشامل الذي يجمع ويضم جميع هذه الأقوال في تعريف الحكمة هو: (الإصابة في الأقوال والأفعال، ووضع كل شيء في موضعه).<sup>(١)</sup>

فجميع الأقوال تدخل في هذا التعريف، لأن الحكمة مأخوذة من الحكم وفصل القضاء الذي هو معنى الفصل بين الحق والباطل، يقال: إن فلاناً حكيم بين الحكمة، يعني: أنه بين الإصابة في القول والفعل، فجميع التعاريف داخله في هذا القول، لأن الإصابة في الأمور إنما تكون عن فهم بها، وعلم، ومعرفة، والمصيب عن فهم منه بمواضع الصواب يكون في جميع أمور: فهماً، خاشعياً لله، فقيهاً علماً، عاملاً بعلمه، ورعاً في دينه . . . والحكمة أعم من النبوة، والنبوة بعض معانيها وأعلى أقسامها، لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مسددون، مفهمون، وموفقون لإصابة الصواب في الأقوال، والأفعال، والاعتقادات، وفي جميع الأمور.<sup>(٢)</sup>

والحكمة في كتاب الله نوعان<sup>(٣)</sup>: مفردة ومقرونة بالكتاب فالمفردة كقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥) وقوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة: ٢٦٩) وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (النمل: ١٧).

وهذه الحكمة فسرت بما تقدم من أقوال العلماء في تعريف الحكمة، وهذا النوع كثير في كتاب الله . أما الحكمة المقرونة بالكتاب، فهي السنة من أقوال النبي ﷺ وأفعاله، وتقريراته، وسيرته، كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٩).



(١) الحكمة في الدعوة إلى الله (٢٧).

(٢) نظر: تفسير نظيري (١ / ١٣٦، ٣ / ٦١).

(٣) نظر: مدارج السالكين لأن القيم (٢ / ٤٧٨)، والتفسير القيم لابن القيم (٢٢٧).

## المبحث الثاني

### العلاقة بين التعريف اللغوي والشرعي

عند التأمل والنظر نجد علاقة قوية بين المعنى اللغوي والشرعي فكلاهما يجعل العلم النافع، والعمل الصالح الصواب المحكم المتقن أصلاً من أصول الحكمة، وعلى هذا فيكون التعريف الجامع المانع للحكمة هو: (الإصابة في القول والعمل والاعتقاد ووضع كل شيء في موضعه بإحكام وإتقان)<sup>(١)</sup>. والله أعلم.

وبهذا التعريف يتبين ويتضح أن الحكمة لا تقتصر على الكلام اللين أو الترغيب، أو الخلم، أو الرفق، أو العفو... بل هي إتقان الأمور واحكامها بأن تنزل جميع الأمور منازلها، فيوضع القول الحكيم والتعليم والتربية في مواضعها، وتوضع الموعظة في موضعها، والمجادلة بالتي هي أحسن في موضعها، ومجادلة الظالم المعتاد في موضعها كما قال عز وجل: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ (النكوت: ١٦) ويوضع الزجر، والقوة، والغلظة، والشدّة، والسيف في مواضعها، وهذا هو عين الحكمة. وقد قال أحكم الحاكمين لسيد الحكماء والناس أجمعين: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ (التوبة: ٧٣) كل ذلك بإحكام وإتقان ومراعاة لأحوال المدعويين، والأزمان، والأماكن في مختلف العصور والبلدان، وبإحسان القصد والرغبة فيما عند الكريم المنان<sup>(٢)</sup>. ومن أراد البرهان العملي على ذلك فعليه أن ينظر إلى ما كان عليه رسول الله ﷺ ومعاملته لأصناف الناس، وهو الذي أعطاه الله من الحكمة ما لم يعط أحداً من العالمين<sup>(٣)</sup>.

ومن أفضل التعريفات للحكمة التي يعرف بها علاقتها بالوسطية تعريف الشيخ عبد الرحمن السعدي، والأستاذ سيد قطب رحمهم الله.

(١) نظر: الحكمة في الدعوة إلى الله، لعبد الفضلي (٣٠).

(٢) نظر: فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٩ / ١٦٤)، مفتاح دار السعادة لابن القيم (١ / ١٩٤)، التفسير القيم (٣١٤).

(٣) نظر: التفسير القيم لابن القيم (٣١٤).

قال عبد الرحمن بن سعدي - رحمه الله - : {الحكمة: هي العلوم النافعة، والمعارف الصائبة، والعقول المسددة، والألباب الرزينة، وإصابة الصواب في الأقوال والأفعال، ثم قال: وجميع الأمور لا تصح إلا بالحكمة التي هي وضع الأشياء في مواضعها، وتنزيل الأمور منازلها، والإقدام في محل الإقدام، والإحجام في موضع الإحجام} (١).

وقال سيد قطب - رحمه الله - : {القصد والاعتدال وإدراك العلل والغايات، والبصيرة المستثيرة التي تهديه للصالح الصائب من أخركات والأعمال} (٢).  
وكلاهما في غاية الدلالة على صلة الحكمة بالوسطية .

وقال ابن القيم - رحمه الله - : {وأحسن ما قيل في الحكمة قول مجاهد ومالك: إنها معرفة الحق والعمل به، والإصابة في القول والعمل، وهذا لا يكون إلا بفهم القرآن، والفقه في شرائع الإسلام، وحقائق الإيمان} (٣). وقال: في موضع آخر: {هي: فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي} (٤).  
وقوله: {على الوجه الذي ينبغي}، من أقوى دلالات الوسطية وقال في موضع آخر: الحكمة: {أن نعطي كل شيء حقه، ولا تعديه حده، ولا تعجله عن وقته، ولا تؤخره عنه} (٥).

ونخلص مما سبق: أن الحكمة لا بد من اعتبارها عند تحديد معنى الوسطية؛ بل إن الالتزام بالوسطية وعدم الجنوح إلى الإفراط أو التفريط هو عين الحكمة وجوهرها، وذلك أن الخروج عن الوسطية له آثاره السلبية، إما عاجلاً، أو آجلاً، وهذا يخالف الحكمة وينافيها .

(١) انظر: تفسير السعدي (١ / ٣٣٢).

(٢) انظر: في ظلال القرآن (١ / ٣١٢).

(٣) انظر: البصير القيم (٢٢٦).

(٤) انظر: مدارج السالكين (٢ / ٤٧٩).

(٥) انظر: مدارج السالكين (٢ / ٤٧٨).

ومن الأمثلة التي توضح ذلك:

أمر الابن بالصلاة لسبع سنين، وضربه عليها ضرباً غير مبرح بعد بلوغ العاشرة، فإننا نجد التوسط في هذه القضية ظاهراً بين الإفراط والتفريط، وهذه هي الحكمة، حيث فرق بين من لم يبلغ السابعة، وبين من بلغها، وكذلك من بلغ العاشرة يختلف أمره، ثم من أدرك الحلم يختلف عما سبق . . . وهكذا، فقد نُزِّلَ الأمور منازلها، ووضع الأشياء مواضعها . وصدق الله العظيم: ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (البقرة: ١٢٩) .



### المبحث الثالث

#### أنواع الحكمة

**النوع الأول:** حكمة علمية نظرية، وهي الاطلاع على بواطن الأشياء، ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها خلقاً وأمرأ، قدراً وشرعاً .

**النوع الثاني:** حكمة عملية، وهي وضع الشيء في موضعه (١) .

فالحكمة النظرية مرجعها إلى العلم والإدراك، والحكمة العملية مرجعها إلى فعل العدل والصواب، ولا يمكن خروج الحكمة عن هذين المعنيين ؛ لأن كمال الإنسان في أمرين: أن يعرف الحق لذاته، وأن يعمل به، وهذا هو العلم النافع والعمل الصالح .

وقد أعطى الله عز وجل أنبياءه ورسله ومن شاء من عباده الصالحين هذين النوعين، قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا ﴾ وهو الحكمة النظرية: ﴿ وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ (النساء: ٨٣) وهو الحكمة العملية .

وقال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ﴾ (ش: ١٤) وهو الحكمة النظرية: ﴿ فَاعْبُدْنِي ﴾ وهو الحكمة العملية .

وقال عن عيسى عليه السلام: ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾، وهي الحكمة النظرية: ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ (مريم: ٣٠-٣١) وهو الحكمة العملية .  
وقال في شأن محمد عليه السلام: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ وهو الحكمة النظرية، ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾ (محمد: ١٩) وهو الحكمة العملية .

وقال في جميع الأنبياء: ﴿ يُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ﴾ وهو الحكمة النظرية، ثم قال: ﴿ فَاتَّقُونِ ﴾ (نمل: ٢) وهو الحكمة العملية (٢) .

الحكمة العملية لها ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: (أن نعطي كل شيء حقه، ولا تعديه حده، ولا تعجله عن

(١) انظر: أفرح السبق

(٢) انظر: التفسير الكبير، للفخر الرازي، (٧ / ٦٨) .

وقته، ولا تؤخره عنه). لما كانت الأشياء لها مراتب وحقوق تقتضيها، ولها حدود ونهايات تصل إليها ولا تتعداها، ولها أوقات لا تتقدم عنها ولا تتأخر، كانت الحكمة مراعاة هذه الجهات الثلاث بأن تعطي كل مرتبة حقها الذي أحقه الله لها بشرعه وقدره، ولا تتعدى بها حدها فتكون منعدياً مخالفاً للحكمة، ولا تطلب تعجيلها عن وقتها فتخالف الحكمة، ولا تؤخرها عنه فنسوتها، وهذا حكم عام لجميع الأسباب مع مسياتها شرعاً وقدرًا، فإضاعتها تعطيل للحكمة بمنزلة إضاعة البذر وسقي الأرض، ونعدي الحق كسقيها فوق حاجتها، بحيث يفرق البذر والزرع ويفسد، وتعجيلها قبل وقتها كحصاده قبل إدراكه وكماله، وهذا يكون فعل ما ينبغي على الوجه الأكمل في الوقت المناسب<sup>(١)</sup>.

**الدرجة الثانية:** معرفة عدل الله في وعيده، وإحسانه في وعده، وعدله في أحكامه الشرعية والكونية الجارية على الخلاق، فإنه لا ظلم فيها ولا جور. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (نساء: ٤٠)، وكذلك معرفة بره في منعه، فإنه سبحانه هو الجواد الذي لا ينقص خزائنه الإنفاق، ولا يفيض ما في يمينه سعة عظامه، فهو سبحانه لا يضع بره وفضله إلا في موضعه ووقته بقدر ما تقتضيه حكمته، فما أعطى إلا بحكمته ولا منع إلا بحكمته، ولا أضل إلا بحكمته.

**الدرجة الثالثة:** البصيرة، وهي قوة الإدراك والفتنة والعلم والخبرة<sup>(٢)</sup> والبصيرة هي أعلى درجات العلم التي تكون نسبة العلم فيها إلى القلب كنسبة المرئي إلى البصر، وهذه الخصيصة التي اختص بها الصحابة عن سائر الأمة ثم المخلصين من أتباع النبي ﷺ، وهي أعلى درجات العلماء<sup>(٣)</sup> قال تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف: ١٠٨) فقد أمر الله رسوله ﷺ أن يخبر الناس أن هذه طريقته ومسلكه وستته وهي الدعوة

(١) انظر: مدارج السالكين (٢ / ٤٧٩).

(٢) المعجم الوسيط، مادة: بصر، (١ / ٥٩).

(٣) انظر: مدارج السالكين (٢ / ٤٨٢).

إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يدعو إلى الله على بصيرة من ذلك  
ويقين، وبرهان وعلم وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على  
بصيرة ويقين وبرهان عقلي وشرعي<sup>(١)</sup>.

### والبصيرة في الدعوة إلى الله تنقسم إلى ثلاثة أمور:

**الأمر الأول:** أن يدعو الداعية على بصيرة فيما يدعو إليه بأن يكون عاقلًا بالحكم  
الشرعي فيما يدعو إليه، لأنه قد يدعو إلى شيء يظنه واجباً وهو في شرع الله غير  
واجب فيلزم عبادة الله بما لم يلزمهم الله به، وقد يدعو إلى ترك شيء يظنه محرماً  
وهو في دين الله غير محرم، فيحرم على عبادة الله ما أحله الله لهم.

**الأمر الثاني:** أن يكون على بصيرة في حال المدعو، فلا بد من معرفة حال  
المدعو: الدينية، والاجتماعية، والاعتقادية والنفسية والعلمية، والاقتصادية حتى يقدم  
له ما يناسبه.

**الأمر الثالث:** أن يكون على بصيرة في كيفية الدعوة<sup>(٢)</sup> وقد رسم الله طرق  
الدعوة ومسالكها في آيات كثيرة منها: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ﴾  
(يوسف: ٨) وهذه قاعدة قوية متبناة في الدعوة إلى الله تعالى ثم تكون هذه القاعدة  
متفرعة إلى ثلاثة أبواب: وهي الدعوة إلى الله: بالحكمة والموعظة الحسنة، والأجدال  
بأنبي هي أحسن<sup>(٣)</sup>. قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ  
وَجَادِلْهُمْ بِلَاثِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥).

أما الباب الرابع: في الدعوة إلى الله باستخدام القوة عند الحاجة إليها كما قال  
تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِاللَّيْ هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ (العنكبوت:  
٤٦) ولا شك أن أحسن الطرق في دعوة الناس طريقة القرآن، ومخاطبته لهم،  
ومجادلتهم<sup>(٤)</sup>.

(١) النظر: تفسير ابن كثير (٢ / ٤٩٦)، وتفسير السعدي (١ / ٦٣).

(٢) النظر: زاد الداعية إلى الله للشيخ محمد بن صالح العثيمين (٧).

(٣) هذا التقسيم الجيد للقاعدة والثلاثة أبواب، للشيخ عبد القادر شيبه الخمد في محاضرة بالرياض عنونها: طريق  
الدعوة إلى الله، سنة ٨-١٤ هـ.

(٤) النظر: الفتاوى لابن تيمية (١٩ / ١٥٨-١٧٣).



## المبحث الرابع

### أركان الحكمة

توظف: الحكمة أركان ودعائم تقوم عليها، وأركانها التي تقوم عليها، ثلاثة هي: العلم، والحلم، والأناة. وأقاتها وأضدادها، ومعاول هدمها: الجهل، والطيش، والمجلة، ولا حكمة لجاهل، ولا طائش، ولا عجول<sup>(١)</sup>.

#### أولاً: العلم:

العلم من أعظم أركان الحكمة، ولهذا أمر الله به، وأوجبه قبل القول والعمل، فقال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبَكُمْ وَمَتَوَلِّكُمْ﴾ (سجد: ١٩) وقد بوب الإمام البخاري - رحمه الله - لهذه الآية بقوله: (باب: العلم قبل القول والعمل)<sup>(٢)</sup>.

وذلك أن الله أمر نبيه بأمرين: بالعلم، ثم العمل، والمبدوء به العلم في قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾، ثم أعقبه بالعمل في قوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ فدل ذلك على أن مرتبة العلم مقدمة على مرتبة العمل، وأن العلم شرط في صحة القول والعمل، فلا يعتبران إلا به، فهو مقدم عليهما؛ لأنه مصحح للنية المصححة للعمل<sup>(٣)</sup> والعلم ما قام عليه الدليل، والنافع منه ما جاء به الرسول ﷺ وقد يكون علم من غير الرسول، ولكن في أمور دنيوية، مثل الطب والحساب، والفلاحة والتجارة<sup>(٤)</sup> ولا شك أنه لا ينهي عن العلم إلا قطاع الطريق، ونواب إبليس وشرطه<sup>(٥)</sup>.

وقد قسم الإمام ابن تيمية - رحمه الله - العلم النافع الذي هو أحد دعائم الحكمة وأسسها - إلى ثلاثة أقسام، فقال رحمه الله: (والعلم الممدوح الذي دل عليه

(١) انظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢ / ٤٨٠).

(٢) البخاري مع الفتح، كتاب العلم، باب انعلم قبل القول والعمل (١ / ١٥٩).

(٣) انظر: فتح الباري، كتاب العلم، باب انعلم قبل القول والعمل (١ / ١٦٠).

(٤) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٣ / ١٣٦، ١٣٨ / ٦).

(٥) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم (٢ / ٤٦٤).

الكتاب والسنة هو العلم الذي ورثه الأنبياء كما قال النبي ﷺ : «إن الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه فمن أخذ بحظ وافر» (١).

### وهذا العلم ثلاثة أقسام:

القسم الأول: علم بالله، وأسمائه، وصفاته، وما يتبع ذلك، وفي مثله أنزل الله سورة الإخلاص وآية الكرسي ونحوهما.

القسم الثاني: علم بما أخبر الله به مما كان من الأمور الماضية، وما يكون من الأمور المستقبلية، وهو كاتن من الأمور الحاضرة، وفي مثل هذا أنزل الله آيات التفصيص، والوعد، والوعيد، وصفة الجنة والنار، ونحو ذلك.

القسم الثالث: العلم بما أمر الله به من العلوم المتعلقة بالقلوب والجوارح من الإيمان بالله من معارف القلوب وأحوالها، وأقوال الجوارح وأعمالها، وهذا يندرج فيه: العلم بأصول الإيمان وقواعد الإسلام ويندرج فيه العلم بالأقوال والأفعال الظاهرة، ويندرج فيه ما وجد من كتب الفقهاء من العلم بأحكام الأفعال فإن ذلك جزء من جزء من علم الدين.

والناس إنما يغلطون في هذه المسائل؛ لأنهم يفهمون معانيات الأسماء الواردة في الكتاب والسنة، ولا يعرفون حقائق الأمور الموجودة، فرب رجل يحفظ حروف العلم التي أعظمها حفظ حروف القرآن ولا يكون له من الفهم، بل ولا من الإيمان ما يتميز به على من أوتي القرآن ولم يؤت حفظ حروف العلم قال ﷺ : «مثل المؤمن الذي يقرأ كمثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل الثمرة لا ريح لها وطعمها حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب، وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الخنزيرة ليس لها ريح وطعمها مر» (٢).

(١) سنن أبي داود، كتاب العلم، باب اخذت على طلب العلم (٣ / ٣٦٧).

(٢) البخاري مع فتح، كتاب الأطعمة، باب ذكر الطعام، (٩ / ٥٥٥).

فقد يكون الرجل حافظاً لحروف القرآن وسوره، ولا يكون مؤمناً؛ بل يكون منافقاً، فالمؤمن الذي لا يحفظ حروفه وسوره خير منه، وإن كان ذلك المنافق ينتفع به الغير كما ينتفع بالريحان، وأما الذي أوتي العلم والإيمان، فهو مؤمن حكيم عليم، فهو أفضل من المؤمن الذي ليس مثله في العلم مع اشتراكهما في الإيمان فهذا أصل يجب معرفته (١).

والعلم النافع هو أعظم أركان الحكمة التي من أوتيتها فقد أوتي خيراً كثيراً هو ما كان مشروئاً بالعمل، أما العلم بلا عمل، فهو حجة على صاحبه يوم القيامة، ولهذا حذر الله المؤمنين من أن يقولوا ما لا يفعلون، رحمة بهم، وفضلاً منه وإحساناً فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ (الصف: ٢-٣).

وحذرهم من كتمان العلم، وأمرهم بتبليغه للبشرية على حسب الطاقة والجهد، وعنى حسب العلم الذي أعطاهم الله - عز وجل - لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ (البقرة: ١٥٩).

وهذه الآية، وإن كانت نازلة في أهل الكتاب وما كتّموه من شأن الرسول ﷺ وصفاته، فإن حكمها عام لكل من اتصف بكتّم ما أنزل الله من البيّنات الدالات على الحق، المظهرات له، والعلم الذي تحصل به الهداية إلى الصراط المستقيم، ويتبين به طريق أهل التعميم من طريق أهل الجحيم، ومن نبذ ذلك، وجمع بين المفسدين: كتّم ما أنزل الله، والغش لعباد الله، لعنه الله، ولعنه جميع الخليقة؛ لسعيهم في غش الخلق وفساد أديانهم، وإبعادهم عن رحمة الله، فجوّزوا من جنس عملهم، كما أن معلم الناس الخير يستغفر له كل شيء حتى اخوت في الماء والظير في الهواء تسعبه في مصلحة الخلق وإصلاح أديانهم؛ ولأنه قريبهم من رحمة الله، فجوّز من جنس عمله (٣).

(١) انظر: شاوي من تسمية بتصرف، (١١ / ٣٩٦).

(٢) انظر: تفسير عبد الرحمن بن ناصر السعدي (١ / ١٨٦).

وقد بين عليه السلام أن: «من سئل عن علم بعلمه فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من ناره»<sup>(١)</sup> فبين بذلك وغيره أن العلم النافع الذي هو أحد أركان الحكمة لا يكون إلا مع العمل به، ولهذا قال سفيان<sup>(٢)</sup> في العمل بالعلم والحرص عليه: (أجهل الناس من ترك ما يعلم، وأعلم الناس من عمل بما يعلم، وأفضل الناس أخشعهم لله)<sup>(٣)</sup> وقال رحمه الله: (يراد للعلم: الحفظ، والعمل، والاستماع، والإنصات، والنشر)<sup>(٤)</sup>

وقال الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود - رضي عنه -: (تعلموا، تعلموا فإذا علمتم فاعملوا)<sup>(٥)</sup>.

وقال رضي عنه: (إن الناس أحسنوا القول كلهم، فمن وافق فعله قوله فذلك الذي أصاب حظه، ومن خالف قوله فعله فإثمًا يوبخ نفسه)<sup>(٦)</sup>.

وقال علي بن أبي طالب رضي عنه: (يا حملة العلم اعملوا به، فإنما العالم من علم ثم عمل، ووافق علمه عمله، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم، تخالف سريرتهم علانيتهم، ويخالف عملهم علمهم، يفعدون حلقًا فيأهي بعضهم بعضًا، حتى أن الرجل ليقضب على جلسه أن يجلس إلى غيره ويدعه، أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله عز وجل)<sup>(٧)</sup>.

وقال أبو الدرداء<sup>(٨)</sup> رضي عنه: (لا تكون تقياً حتى تكون عالماً، ولا تكون بالعلم جميلاً حتى تكون به عاملاً)<sup>(٩)</sup>.

(١) الترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في كتمان العلم (٥ / ٢٩).

(٢) سفيان بن عيينة بن أبي عمران، الإمام الكبير شيخ الإسلام، ولد سنة (١٠٧هـ) عنس ٩١ سنة. نظر: سير أعلام النبلاء (٨ / ٤٥٤-٤٧٤).

(٣) أخرجه اندارمي في سننه، في المقدمة، باب فضل العلم والعمل، (١ / ٨١).

(٤) عن المصدر السابق (١ / ٨١).

(٥) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١ / ١٩٥).

(٦) نفس المرجع (٢ / ٦).

(٧) أخرجه ابن عبد البر في جامع العلم وفضله (٢ / ٧).

(٨) هو الصحابي الجليل عويمر بن عامر، وقيل: مالك أو ثعلبة بن قيس بن أمية الخزرجي الأنصاري. أسلم يوم بدر، وشهد أحدًا وما بعدها، وهو حكيم هذه الأمة، توفي لسنتين يقينًا من خلافة عثمان رضي عنه، وقيل بعد صديقين. الإصابة (٣ / ١٦).

(٩) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢ / ٧).

قال الشاعر:

إذا العلم لم تعمل به كان حجة عليك ولم تعذر بما أنت جاهله  
فإن كنت قد أوتيت علماً فإتما يصدق قول المرء ما هو فاعله<sup>(١)</sup>

وبهذا يتضح أن العلم لا يكون من دعائم الحكمة التي هي من ملامح الوسطية إلا باقتترانه بالعمل، وقد كان علم السلف الصالح - وعلى رأسهم أصحاب النبي ﷺ مقروناً بالعمل، ولهذا كانت أقوالهم وأفعالهم، ومآثر تصرفاتهم تزخر بالحكمة، ولهذا قال ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها»<sup>(٢)</sup>.

وقد دعا النبي ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنه بالحكمة، والفقه في الدين، فقال رضي الله عنه: اللهم علمه الحكمة وفي لفظ «اللهم علمه الكتاب» وفي لفظ «اللهم فقهه في الدين»<sup>(٣)</sup>.

فكان - رضي الله عنه - حبراً نلأمة في علم الكتاب والسنة والعمل بهما استجابة لدعوة النبي ﷺ.

### أسباب وطرق تحصيل العلم:

والعلم النافع له أسباب يتال بها وطرق تسلك في تحصيله وحفظه من أهمها:

١ - أن يسأل العبد ربه العلم النافع، ويستعين به تعالى، ويفتقر إليه وقد أمر الله نبيه محمداً ﷺ بسؤاله أن يزيد علماً إلى علمه<sup>(٤)</sup>.

فقال تعالى: «وقل رب زدني علماً» (م: ١١٤)، وقد كان ﷺ يقول: «اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علماً»<sup>(٥)</sup>.

(١) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢ / ٧).

(٢) البخاري معفتح، في كتاب العلم، باب الاحتياط في العلم والحكمة (١ / ١٦٥).

(٣) البخاري معفتح، في كتاب فضائل الصحابة، باب ذكر بن عباس (٧ / ١٠٠).

(٤) نظراً: تفسير الإمام الطبري (٢ / ٢٢٣)، وتفسير انعملة السعدي (٥ / ١٩٤).

(٥) الترمذي: كتاب الدعوات، باب العفو والعافية (٥ / ٥٧٨).

٢ - ومنها الاجتهاد في طلب العلم، والشوق إليه، والرغبة الصادقة فيه ابتغاء مرضات الله تعالى، وبذل جميع الأسباب في طلب الكتاب والسنة<sup>(١)</sup> وقد جاء رجل إلى أبي هريرة رضي عنه فقال: (إني أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه، فقال أبو هريرة رضي عنه: كفى بتركك له تضيعاً)<sup>(٢)</sup>. ولهذا قال بعض الحكماء عندما سئل: ما السبب الذي ينال به العلم؟ قال: بالحرص عليه يتبع، وبالحب له يستمع، والفراغ له يجتمع، (علم علمك من بجهل، وتعلم ممن يعمل، فإنتك إن فعلت ذلك علمت ما جهنت، وحفظت ما علمت)<sup>(٣)</sup>.

ولهذا قال الإمام الشافعي رحمه الله:

أخي لن تنال العلم إلا بستة  
ذكاء وحرص، واجتهاد وبلغة  
سأنتك عن تفصيلها ببيان  
وصحبة أسناذ وظول زمان<sup>(٤)</sup>

٣ - ومنها: اجتناب جميع المعاصي بتقوى الله - تعالى - فإن ذلك من أعظم الوسائل إلى حصول العلم، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٨٢) وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ (الأنفال: ٢٩) وهذا واضح بين أن من اتقى الله جعل له علماً يفرق به بين الحق والباطل<sup>(٥)</sup>. ولهذا قال عبد الله بن مسعود - رضي عنه -: (إني لأحسب أن الرجل ينسى العلم قد علمه بالذنوب يعمله)<sup>(٦)</sup>.

وقال عمر بن عبد العزيز<sup>(٧)</sup> رحمه الله: (خمس إذا أخطأ القاضي منهن خطأ<sup>(٨)</sup>)

(١) انظر: تفسير السعدي (٥ / ١٩٤).

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١ / ١٠٤).

(٣) الترحيم الصانق (١ / ١٠٢ - ١٠٣).

(٤) ديوان الشافعي (١١٦).

(٥) نظري: تفسير ابن كثير (١ / ٣٣٨)، وتفسير السعدي (١ / ٣١٩).

(٦) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١ / ١٩٦).

(٧) هو الإمام العلامة، المجتهد الزاهد العابد، الرشيد تسيّد أسير المؤمنين، كان من أئمة الجهاد والاجتهاد، ومن خلفاء الرشدين، سيرته المعطرة محل عبادة وقراءة، توفي عليه رحمة الله عام (١٠١هـ)، سير اعلام النبلاء، (٥ / ١١٤).

تهذيب التهذيب (٣ / ٨٨)، حلية الأولياء (٥ / ٢٥٣).

(٨) عمدة: حكمة، نظري: فتح الباري (١٣ / ١٢٦).

كانت فيه وصمة<sup>(١)</sup> أن يكون: فهماً، حليماً، عقيماً، صليماً<sup>(٢)</sup> عالماً شتولاً عن العلم<sup>(٣)</sup>.

وقال الإمام الشافعي رحمه الله:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي  
وأخبرني بأن علم الله نور  
فأرشدني إلى ترك المعاصي  
ونور الله لا يهدي لعاصي<sup>(٤)</sup>

وقال الإمام مالك للإمام الشافعي - رحمهما الله تعالى - : (إني أرى الله قد جعل في قلبك نوراً فلا تطفئه بظلمة المعصية)<sup>(٥)</sup>.

٤ - ومنها: عدم الكبر والحياء عن طلب العلم، ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها: (نعم النساء نساء الأنصار، لم يمتعن الحياء أن يتفقهن في الدين)<sup>(٦)</sup>.

وقال مجاهد: (لا يتعلم العلم مستحي ولا مستكبر).

٥ - ومنها: بل أعظمها وليها: الإخلاص في طلب العلم، قال عليه السلام: «من تعلم علماً مما يتقى به وجه الله عز وجل، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»<sup>(٧)</sup>. يعني ربحها.

٦ - العمل بالعلم: وما تقدم بتضح أن العلم لا يكون ركناً من أركان الحكمة ودعائمها إلا بالعمل، والإخلاص، والمتابعة، وبذلك تدخل هذه الأمور في ملامح الوسطية.

(١) وصمة: عيباً. انظر: فتح تباري (١٣ / ١٤٦).

(٢) قولاً شديداً، يقف عند الحق ولا يميل مع الهوى. انظر الفتح (١٣ / ١٤٦).

(٣) البحاري مع الفتح، كتاب الأحكام، باب من يستوجب الرجل انقضاء؟ (١٣ / ١٤٦).

(٤) وكيع بن الجراح بن مليح، الإمام الحافظ، حدثت العراق، ولد سنة (١٢٩هـ) ومات سنة (١٩٦هـ). انظر: سير اعلام النبلاء (٩ / ١٤٠)، وتهذيب التهذيب (١١ / ١٠٩).

(٥) ديوان الشافعي (٨٨)، وانظر: اجواب الكافي لم سأل عن الرداء الشافعي، لابن القيم (١-٢).

(٦) البحاري مع الفتح، كتاب العلم، باب الحياء مع العلم (١ / ٢٢٨).

(٧) أبو داود، كتاب العلم، باب في طلب العلم بغير نكح، (٣ / ٣٢٣).

## ثانياً: الحلم:

الحلم: بالكسر: العقل<sup>(١)</sup>، وحلم حلمًا: نأى وسكن عند غضب أو مكروه مع قدرة، وصفح، وعقل<sup>(٢)</sup> ومن أسماء الله تعالى: (الحليم) وهو الذي لا يستخفه شيء من عصبان العباد، ولا يستغفزه الغضب عليهم، ولكنه جعل لكل شيء مقداراً فهو منه إليه<sup>(٣)</sup> والحلم: ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب<sup>(٤)</sup>

والحلم: هو حالة متوسطة بين رذيلتين: الغضب، والبلادة فإذا استجاب المرء لغضبه بلا تعقل ولا تبصر كان على رذيلة، وإن تبلى، وضيع حقه ورضي بالهضم والظلم كان على رذيلة، وإن تحلى بالحلم مع القدرة، وكان حلمه مع من يستحقه كان على فضيلة .

وهناك ارتباط بين الحلم وكظم الغيظ، وهو أن ابتداء التخلق بفضيلة الحلم يكون بالتحلم: وهو كظم الغيظ، وهذا يحتاج إلى مجاهدة شديدة، لما في كظم الغيظ من كتمان ومقاومة واحتمال، فإذا أصبح ذلك هيئة راسخة في النفس، وأصبح طبعاً من طبيعتها كان ذلك هو الحلم، والله أعلم<sup>(٥)</sup> .

وقد وصف الله نفسه بصفة الحلم في عدة مواضع من القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (الن عمرون: ١٥٥) ونلاحظ أن الآيات التي وصفت الله بصفة الحلم قد قرنت صفة الحلم في الغالب بعد إشارة سابقة إلى خطأ واقع، أو تفريط في أمر محمود، وهذا أمر يتفق مع الحلم لأنه تأخير عقوبة: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ (فاطر: ٤٤) .

(١) تقاموس المحيط، باب الميم، فصل الحاء، (١٤١٦) .

(٢) المعجم الوسيط، مادة: حلم (١ / ١٤٤) .

(٣) نهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، حروف الحاء مع اللام (١ / ٤٢٤) .

(٤) المفردات في غريب القرآن، للمراغب الأصفهاني، مادة: حلم (١٢٩) .

(٥) نظراً: مفردات غريب القرآن (١٢٩)، أخلاق القرآن للبربراسي (١ / ١٨٢)، الأخلاق الإسلامية عبد الرحمن الميداني (٢ / ٣٢٦) .



ونجد أيضاً أن عدداً من الآيات التي وصفت الله بالحلم قد قرن فيها ذكر الحلم بالعلم، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ (الحج: ٥٩) وهذا يفيد - والله أعلم بمراده - أن كمال الحلم يكون مع كمال العلم، وهذا من أعظم أركان الحكمة<sup>(١)</sup> التي هي من أهم ملامح الوسطية .

ومما يؤكد أن الحلم من أعظم أركان الحكمة - التي ينبغي للداعية أن يدعو بها إلى الله - مدح النبي ﷺ للحلم وتعظيمه لأمره وأنه من الخصال التي يحبها الله قوله للأشج<sup>(٢)</sup>: «إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يَحِبُّهُمَا اللَّهُ: الْحِلْمَ وَالْإِنَانَةَ»<sup>(٣)</sup>.

وفي رواية الأشج: يا رسول الله ، أنا تخلقت بهما أم الله جبلني عليهما ؟ قال: «بل الله جبلك عليهما . قال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله»<sup>(٤)</sup>.

وسبب قول النبي ﷺ ذلك للأشج ما جاء في حديث الوفد أنهم لما وصلوا المدينة بادروا إلى النبي ﷺ وأقام الأشج عند رحالهم فجمعها وعقل ناقته، وليس أحسن نياجه، ثم أقبل إلى النبي ﷺ فقربه النبي ﷺ وأجلسه إلى جانبته، ثم قال لهم النبي ﷺ: «تبايعون على أنفسكم وقومكم ؟ فقال القوم: نعم، فقال الأشج: يا رسول الله، إنك لم تزاول الرجل على شيء أشد عليه من دينه، نيايعك على أنفسنا، وترسل من يدعوهم، فمن اتبعنا كان منا، ومن أبى قاتلناه، قال: صدقت، إن فيك خصلتين .»<sup>(٥)</sup>

فالإنانة: تربصه حتى نظر في مصالحه، ولم يعجل، والحلم: هذا القول الذي قاله، الدال على صحة عقله، وجودة نظره للعواقب . . .<sup>(٦)</sup> ومما يؤكد أن الحلم من

(١) اخلاق القرآن للشرباصي (١ / ١٨٥) .

(٢) المنذر بن عازق بن المنذر العصري، أجمع عبد القيس، كان سيد قومه، رجع بعد إسلامه إلى البحرين مع قومه، ثم نزل البصرة، بعد ذلك ومات بها بظلمة . انظر: تهذيب التهذيب (١٠ / ٢٦٧) .

(٣) مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله (١ / ٤٨) .

(٤) أبو داود، كتاب الأدب، باب في قبلة الجسد (١ / ٣٥٧)، وأحمد (٤ / ٦٠٦، ٣ / ٢٣) .

(٥) مسلم وشرح النووي، كتاب الإيمان، باب مبايعة النبي ﷺ لوفد عبد قيس (١ / ١٨٩) .

(٦) شرح النووي، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله (١ / ١٨٩) .

أعظم أركان الحكمة ودعائمها العظام أنه خلق عظيم من أخلاق النبوة والرسالة، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام هم عظماء البشر، وقدوة أتباعهم من الدعاة إلى الله والصالحين في الأخلاق المحمودة كافة .

وقد واجه كل واحد منهم من قومه ما يثير الغضب، ويغضب منه عظماء الرجال ولكن حملوا عليهم، ورفقوا بهم حتى جاءهم نصر الله، وعلى رأسهم إمامهم وسيدهم، وخاتمهم ﷺ ولم يكن غريباً أن يوجهه الله تعالى إلى قمة هذه السيادة حين يقول له: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٥٩)﴾ وَأَمَّا يَنْزِعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعًا فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿ (الاعراب: ١٩٩ - ٢٠٠) ﴾ وَلَا تَسْوِي الْحَسَنَةَ وَلَا السَّيِّئَةَ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿ (نبت: ٣٤) ، وقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: ١٥٩) .

وقد بلغ ﷺ في حلمه، وعفوه في دعونه إلى الله تعالى الغاية المثالية والدلائل على ذلك كثيرة جداً منها على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

١ - عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كنت أمشي مع النبي ﷺ وعليه برد نحراي غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجيبه بردائه جيذة شديدة حتى نظرت صفحة عاتق النبي ﷺ قد أثرت به حاشية الرداء من شدة جيذته، ثم قال: يا محمد، مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إلى رسول الله ﷺ فضحك، ثم أمر له بعطاء» (١) .

وهذا من روائع حلمه ﷺ وكماله، وحسن خلفه، وصفحه الجميل، وصبره على الأذى في النفس، والمال، والتجاوز على جفاء من يريد تألفه على الإسلام، ولينأس به الدعاة إلى الله، والولاة بعده في حلمه، وخلقه الجميل من الصفح، والإغضاء، والعفو، والدفع بالتي هي أحسن (٢) .

(١) البخاري مع الفتح، كتاب فرض الخمس، باب ما كان يعطي النبي ﷺ مؤلفه قنوبهم وغيرهم من الخمس (٦ / ٢٥١) .

(٢) انظر: شرح ابن تيمية مع مسلم كتاب التزكاة، باب إعطاء المؤلفة ومن يخاف على إيمانه (٧ / ١٤٧) .

٢ - وعن جابر بن عبد الله - رضي - فإنه غزا مع رسول الله ﷺ قبل نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلة في واد كثير الأعضاء، فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة، وعلق بها سيفه، وتنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، وإذا عنده أعرابي، فقال: إن هذا اخترط علي سيفي وأنا نائم، فاستبقت وهو في يده صلته، فقال: من يمنعك مني؟ فقلت: الله ثلاثاً ولم يعاقبه وجلس. (١)

وفي هذا دلالة واضحة على قوة يقينه، وصبره على الأذى، وحلمه على الجهال، وشدة رغبته في استتلاف الكفار، ليدخلوا في الإسلام ولهذا ذكر أن هذا الأعرابي رجع إلى قومه وأسلم، واهتدى به خلق كثير (٢). وهذا مما يؤكد أن الحلم من أعظم أركان الحكمة ودعامتها.

٣ - ومن عظيم حلمه عدم دعائه على من آذاه من قومه، وقد كان باستطاعته أن يدعو عليهم، فيهلكهم الله، ويدمرهم، ولكنه ﷺ حلِيم حكيم بهدف إلى الغاية العظمى، وهي رجاء إسلامهم أو إسلام ذريتهم، ولهذا قال ابن مسعود - رضي - كاني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبأ من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون (٣).

وعما يدل على أن الحلم ركن من أركان الحكمة ملازمة صفة الحلم للأنبياء قبل النبي ﷺ في دعوتهم إلى الله تعالى.

فهذا إبراهيم أبو الأنبياء عليه وعليهم الصلاة والسلام، قد بلغ من الحلم مبلغاً عظيماً حتى وصفه الله بقوله: «وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ قَلَمًا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ» (التوبة: ١١٤).

(١) البخاري مع الفتح، كتاب الجهاد والسير، باب من علق سيفه (٦ / ١١٣).

(٢) البخاري مع الفتح، كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع (٧ / ٤٩٣).

(٣) مسلم مع شرح النووي، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد (١٢ / ٦٥٠).

فقد كان إبراهيم كثير الدعاء حليماً عن ظلمه، وأتاله مكروهاً، ولهذا استغفر  
 لأبيه مع شدة آذاه له في قوله: ﴿قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَنْ لَمْ تَنْتَه  
 لِأَرْجُمَنَّكَ وَأَهْرُنِّي مَلِيًّا﴾ قال سلام عليك سأستغفر لك ربّي إنّه كان بي حليماً \* وأعتر لكم  
 وما تدعون من دون الله وأدعوا ربّي عسى ألا أكون بدعاء ربّي شقيماً (سورة: ٤٦ - ٤٨) .  
 فحلم عنه مع آذاه له، ودعا له، واستغفر<sup>(١)</sup> ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ  
 لِأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (التوبة: ١١٤) وهكذا جميع الأنبياء والمرسلين، كانوا من أعظم الناس حلماً  
 مع أقوامهم في دعواتهم إلى الله تعالى<sup>(٢)</sup> .

ومن وراء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، يأتي الدعاء إلى الله والصالحون من  
 أتباعهم، إذا كان الله عز وجل قد جعل محمداً ﷺ مثلاً عالياً في الحلم، فقد  
 أراد لأتباعه أن يسيروا على نهجه وسته، ولذلك يقول تعالى عن الأخيار من  
 هؤلاء: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا  
 سَلَامًا﴾ (الفرقان: ٦٣) فمن صفاتهم أنهم أصحاب حلم، فإذا سفه عليهم الجهال بالقول  
 السيء لم يقابلوهم عليه بمثله، بل يعفون ويصفحون، ولا يقولون إلا خيراً، كما كان  
 رسول الله ﷺ ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً .

وينبغي أن يعلم أن الغضب لله يكون محموداً، ولا يدخل في الغضب المذموم،  
 فالغضب المحمود يكون من أجل الله عندما ترتكب حرمات الله، أو تترك أوامره  
 ويستهان بها، وهذا من علامات قوة الإيمان ولكن بشرط أن لا يخرج هذا الغضب  
 عن حدود الحلم والحكمة، وقد كان رسول الله ﷺ بغضب لله إذا انتهكت  
 محارمه، وكان لا ينتقم لنفسه، ولكن إذا انتهكت حرمات الله لم يقم لغضبه شيء،  
 ولم يضرب بيده خادماً، ولا امرأة إلا أن يجاهد في سبيل الله، وقد خدّمه أنس بن  
 مالك رضي الله عنه عشر سنوات، فما قال له: أف قط، ولا قال له شيء فعله: لم فعلت  
 كذا؟، ولا لشيء لم يفعله ألا فعلت كذا؟<sup>(٣)</sup>

(١) انظر: تفسير كثير (٢ / ٣٩٦)، والبيهقي (٢ / ٣٣٢) .

(٢) انظر موسوعة الاخلاق للشرباصي (١ / ١٨٥) .

(٣) سخاوي مع الفتح: كتاب الادب، باب ما يجوز من الغضب لأمر الله (١٠ / ٥٣٣) .

وهذا لا يتنافى الحلم والحكمة، بل الغضب لله في حدود الحكمة من صميم الحلم والحكمة وقوله: ﴿وَأذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٣١) وقوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَقِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (ان عمران: ١٦٤) ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَقِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الحج: ٥) وغير ذلك من الآيات .

ومن فسر الحكمة المقرونة بالكتاب بالسنة: الإمام الشافعي<sup>(١)</sup> والإمام ابن القيم<sup>(٢)</sup>، وغيرهما من الأئمة<sup>(٣)</sup> .

### ثالثاً: الأناة:

الأناة في اللغة: التثبت وعدم العجلة، يقال: تأنى في الأمر: مكث ولم يعجل، والاسم منه: أناة<sup>(٤)</sup> ويقال: تأنى في الأمر: ترفق، وتأنق، وتأنق، واستأنى به: انتظر به وأمهله<sup>(٥)</sup> وتأنى الأناة بمعنى التبين والتثبت في الأمور، يقال: تبين في الأمر والرأي: تثبت، وتأنى فيه ولم يعجل<sup>(٦)</sup> .

(١) هو الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي ينسب نسب إلى عبد مناف جد النبي ﷺ ، وقد رحمه الله بفرقة سنة (١٥٠هـ) وتلقى العلم بمكة والمدنية، هو إمام المذهب الشافعي، وتسلط على يده عملاء اجلاء منهم الإمام أحمد بن حنبل، وأبو ثور، وإبراهيم بن خالد الكلبي، وغيرهم، وكانت له مسأرة جليلة ومناقب عظيمة، توفي رحمه الله بمصر في رجب من سنة (٤٠٤هـ) من مؤلفاته (الأم، الرسالة) ، انظر: البداية والنهاية لابن كثير (١٠ / ٢٥١) ، وطبقات الشافعية (١١ / ١٤) .

(٢) هو الإمام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي المعروف بلقب الخواري، وقد رحمه الله بدمشق سنة ٦٩١هـ، وتوفي في رجب سنة ٧٥٦هـ تسلم على شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ولازمه، ويعتبر من المجتهدين ، وله مصنفات كثيرة جداً في مختلف العلوم والفنون منها: إعلام الموقعين ، و زاد المعاد في هدي خير العباد، الطرق الحكمية، ذيل طرفة الخاتلة لابن رجب، (٢ / ٤٤٧) ، وابن القيم حياته وآثاره . د. بكر عبد الله أبو زيد (٧) .

(٣) انظر: مدارج السالكين لابن القيم (٢ / ٤٧٨) ، والتفسير القيم (٢٢٧) .

(٤) المصنوع اللين : عادة، إني (١ / ٢٨) .

(٥) انظر: مختار الصحاح، عادة: أي : ١٣ ، المعجم الوسيط: (١ / ٣١) .

(٦) انظر: المعجم الوسيط ، مادة أناة (١ / ٨٠) ، ومادة ثبت (١ / ٩٣) .

ويأتي الثبين بمعنى: التبصر: التعرف والتأمل، يقال: تبصر الشيء، وتأمل في رؤية تبين ما يأتيه من خير أو شر<sup>(١)</sup> وعلى ضوء ما تقدم تكون الأناة هي: التصرف الحكيم بين العجلة والتباطؤ<sup>(٢)</sup>.

والأناة مظهر من مظاهر خلق الصبر، وهي من صفات أصحاب العقل والرياسة، بخلاف العجلة فإنها من صفات الرعونة والطيش، وهي تدل على أن صاحبها لا يملك الإرادة القوية القادرة على ضبط نفسه تجاه انفعالاته العجولة، وبخلاف التباطؤ والنواني فهما من صفات أصحاب الكسل والتهاون بالأمور، ويدلان على أن صاحبهما لا يملك القدرة على دفع همته للقيام بالأعمال التي تحقق له ما يريده، أو ليس لديه همة عالية تنشد الكمال، فهو يرضى بالدنيات، وإثارةً للفراحة، وكسلاً عن القيام بالواجب.

والأناة تسمح للمسلم بأن يحكم أموره، ويضع الأشياء في مواضعها، فهي ركن من أركان الحكمة. وقد ذم الإسلام الاستعجال ونهى عنه، وذم التباطؤ والكسل ونهى عنه، ومدح الأناة وأمر بها وعمل على تربية المسلمين على الأناة والتمسك بالحكيم في القيام بالأعمال وتصريف الأمور<sup>(٣)</sup>. قال تعالى للنبي ﷺ تربية له وتعليماً: ﴿لَا تَحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (٦٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (٦٧) فَإِذَا قُرَأَتْهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (٦٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (النجم: ٦٦ - ٦٨).

فأمر سبحانه نبيه بعدم العجلة ومسايقه الملك في قراءته وتكفل الله له أن يجمعه في صدره وأن يسره لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه، وأن يبينه له ويفسره<sup>(٤)</sup>. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه: ١١٤) وأمر سبحانه عباده المؤمنين والدعاة إلى الله تعالى بالتأني في الأمور

(١) انظر: القاموس المحيظ، باب التواضع، فصل لياه (٤٤٨).

(٢) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسماؤها لعبد الرحمن الميداني (٢ / ٣٥٢).

(٣) نفس المصدر (٢ / ٣٥٣ - ٣٥٤) يتصرف.

(٤) انظر: تفسير ترمذ (١ / ٤٥٠).

والثبوت فيها: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِحُّوا عَلَيَّ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ (احمرن: ٦) قرأ الجمهور: ﴿فتبينوا﴾ . من التبين، وهو التأمل، وهناك من قرأ: ﴿فتثبتوا﴾، والمراد من التبين التعرف والتفحص، ومن التثبت: الأناة وعدم العجلة، والتبصر في الأمر الواقع والخير الوارد حتى يتضح ويظهر (١).

ولعظم أمر الأناة والتبين أمر الله بها حتى في جهاد الكفار في سبيل الله الذي هو من أعظم وسائل الدعوة إلى الله تعالى، فقال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَتَّبِعُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنْ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (النساء: ٩٤) .

ومن المعلوم أن الأمور قسمان: أمور واضحة، وأمور غير واضحة .

فالواضحة البينة لا تحتاج إلى تثبيت وتبين، لأن ذلك تحصيل حاصل .

وأما الأمور المشككة غير الواضحة فإن الداعية خاصة والمسلمين عامة بحاجة إلى التثبت فيها والتبين، فإن ذلك يحصل فيه من الفوائد الكثيرة، والكف عن شرور عظيمة ما يجعل المسلم في سلامة عن الزلل، وبذلك يعرف دين العبد وعقله ورزاقه (٢).

ومما يزيد الآية السابقة وضوحاً ما رواه البخاري في صحيحه عن ابن عباس - رضي الله عنهما - : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴾ قال: كان رجل في غنيمة له فلاحه المسلمون، فقال السلام عليكم فقتلوه وأخذوا غنيمته، فأنزل الله في ذلك قوله: ﴿ تَتَّبِعُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ تلك الغنيمة، وقرأ ابن عباس السلام (٣) .

(١) انظر: فتح التقدير، للإمام الشوكاني (٤ / ٦٠) .

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي (٢ / ١٣٢) .

(٣) البخاري مع الفتح: كتاب التفسير، سورة النساء، باب: ولا تقولوا (٨ / ١٠٧) .

وعن أسامة بن زيد <sup>(١)</sup> رضي الله عنه قال: فبعثنا رسول الله إلى الحرقة من جهينة، قال: فصبحنا القوم فهزمتناهم، قال ولحقت أنا ورجلي من الانتصار رجلاً منهم، قال فلما غشيتناه قال: لا إله إلا الله، قال فكف عنه الانتصاري فطعته برمحي حتى قتلته، قال: فلما قدمنا بلغ النبي ﷺ قال: فقال لي: يا أسامة، أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟ قال: قلت: يا رسول الله، إنما كان متعوداً، قال: فقال: أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله، قال فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم<sup>(٢)</sup>. وفي رواية قال: قلت يا رسول الله: إنما قالها خوفاً من السلاح قال: «أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقوالها أم لا؟» فما زال يكررها حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ<sup>(٣)</sup>. ولهذا كان النبي ﷺ أعظم الناس أناة وثباتاً، فكان لا يقاتل أحداً من الكفار إلا بعد التأكد بأنهم لا يقيمون شعائر الإسلام، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: «إن النبي ﷺ كان إذا غزا بنا قومًا لم يكن يغزو بنا حتى يصبح وينظر، فإن سمع أذاناً كف عنهم، وإن لم يسمع أذاناً أغار عليهم . . .»<sup>(٤)</sup>.

وكان ﷺ يعلم ويربي أصحابه على الأناة والثبات في دعوتهم إلى الله تعالى ومن ذلك أنه كان يأمر أمير سره أن يدعو عدوه قبل القتال إلى إحدى ثلاث خصال:

- ١ - الإسلام والهجرة، أو إلى الإسلام دون الهجرة، ويكونون كأعراب المسلمين .

٢ - فإن أبوا الإسلام دعاهم إلى بذل الجزية .

٣ - فإن امتنعوا عن ذلك كله استعان بالله وقاتلهم<sup>(٥)</sup> .

ومن تربيته لأصحابه رضي الله عنهم على الأناة وعدم العجلة قوله: «إذا أقيمت الصلاة

(١) هو حب رسول الله ﷺ ، وابن حبه أسامة بن زيد بن حازمة بن شرحبيل الكلبي أبو محمد سولي رسول الله ﷺ استعمله رسول الله ﷺ على جيش فيه أبو بكر وصهر ﷺ، فلم يغد إلا في خلافة أبي بكر بعث إلى الشام، ثم انتقل إلى المدينة فمات بها سنة (٥٤هـ) . الإصافية : (١ / ٤٦) سير اعلام النبلاء (٢ / ٤٩٦) .

(٢) البخاري مع الفتح : كتاب المغازي باب بعث النبي ﷺ أسامة (٧ / ٥٩٦) .

(٣) مسلم مع شرح النووي: كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله ، (٢ / ٩٨) .

(٤) البخاري مع الفتح: بلفظه مطولاً، في كتاب الأذان، باب ما يحقن من الأذان من النداء : (٢ / ١٠٧) .

(٥) مسلم مع النووي: كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعث ووصيته بإعصم بآداب الغزو وغيرها



فلا تأتوها تسعون، وأتوها تمشون، وعليكم السكينة فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فاتموا<sup>(١)</sup>.

والمرسل عليهم الصلاة والسلام هم صفوة الخلق وقدوتهم، وهم أكمل الناس آتاء وحلمًا، وأعظمهم في ذلك وأوفرهم حظًا محمد ﷺ. ومن أمثلة ذلك قصة سليمان مع الهدهد وتبته وعدم عجلته، قال سبحانه عن ذلك: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدُودَ أَمْ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ \* لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ (النمل: ٢٠ - ٢١) نجد نبي الله سليمان النبي الملك الحارم يتهدد الجندي الغائب المخالف، ولكن سليمان ليس ملكًا جبارًا في الأرض، ولا متسرعًا عجولاً، وهو لم يسمع بعد حجة الهدهد الغائب، فلا ينبغي أن يترك الأناة والتثبت ويفضي في شأنه قضاء نهائيًا قبل أن يسمع منه ويتبين عذره، ومن ثم تبرز سمة النبي العادل المثبت ﴿أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي حجة قوية واضحة توضح عذره وتفي بالمأخذة عنه<sup>(٢)</sup>.

والداعية إلى الله عز وجل إذا تثبت، وتأمل في جميع أموره اكتسب ركنًا من أركان الحكمة، ينفي ألا تقتصر في منهجه المتكامل على التأملي والتثبت في الأفعال والأقوال فحسب، بل عليه أن يجري ذلك على القلب في خواطره وتصورات، وفي مشاعره وأحكامه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (الاسراء: ٣٦) فلا يقول اللسان كلمة، ولا يور حادثة ولا يحكم العقل حكمًا، ولا يبرم الداعية أمرًا إلا وقد تثبت من كل جزئية، ومن كل ملابسة، ومن كل نتيجة، حتى لا يبقى هنالك شك ولا شبهة في صحتها، وحينئذ يصل الداعية المسلم المتمسك بهذه الضوابط إلى أعلى درجات الأناة والحكمة والسداد بإذن الله تعالى<sup>(٣)</sup>.

أما العجلة فهي مذمومة، قال سبحانه عن فرعون: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ﴾ (الزخرف: ٥٤) استخفهم وحملهم على الضلالة والجهل، واستخف عقولهم، يقال: استخفه عن رأيه إذا حمله على الجهل وأزاله عما كان عليه من الصواب<sup>(٤)</sup>.

(١) البخاري مع الفتح، كتاب الجمعة، باب المشي إلى الجمعة، (٢ / ٤٥٣).

(٢) انظر: في ظلال القرآن لسيد قطب (٥ / ٢٦٣٨).

(٤) تفسير ابن كثير (٤ / ١٣٠)، وشرح السنة للبقوي (١٣ / ١٧٥).

وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَسْتَخَفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ (الروم: ١٠) ولا شك أن الإنسان قد خلق من عجل: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ﴾ (النبي: ٢٧)، ولكنه بحمد الله إذا امتثل أمر الله وترك نهيهِ حثت أخلاقه وطبائعه .

والعجلة لها أسباب ينبغي اجتنابها، منها: عدم النظر في العواقب، وسنن الله في الكون، ومنها الشيطان عدو الإنسان، فإن أساس العجلة من الشيطان، لأنه الحامل عليها بوسوسته، فيمنع من التثبت والنظر في العواقب، فبقبح المستعجل في المعاصب والفشل<sup>(١)</sup>، ولذلك قيل:

يا صاحبي تلوما لا تعجلا      إن النجاح رهين أن لا تعجلا

وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه: (لا يزال الرجل يجني من ثمرة العجلة الندامة)<sup>(٢)</sup> وينبغي أن يعلم أن العجلة المدمومة ما كان في غير طاعة، ومع عدم التثبت وعدم خوف الفوت، ولهذا قيل لبعض السلف: لا تعجل، فالعجلة من الشيطان، فقال: لو كان كذلك لما قال موسى ﴿وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ (ص: ٨٤) .

واخلاصة: أنه يستثنى من العجلة ما لا شبهة في خيريته، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ (النبي: ٩٠) وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه<sup>(٣)</sup> قال الأعمش<sup>(٤)</sup>: ولا أعلمه إلا عن النبي صلى الله عليه وسلم: «التؤدة<sup>(٥)</sup> في كل شيء خير إلا في عمل الآخرة»<sup>(٦)</sup> .

وبهذا يعلم أن الأناة في كل شيء محمودة وخير إلا ما كان من أمر الآخرة بشرط مراعاة الضوابط التي شرعها الله حتى تكون المسارعة مما يحبه الله تعالى . وبهذا ينتهي الركن الثالث من أركان الحكمة التي هي من أهم ملامح الوسطية .

(١) شرح السنة للبخاري (١٣ / ١٧٦) .

(٢) تحفة الأحوذني شرح جامع الترمذي ، أبواب خير والعتة ، باب ما جاء في الثأني والعتة . (٦ / ١٢٩) .

(٣) هو أبو إسحاق سعد بن مالك بن أمية ويقال له: ابن وهيب بن عبيد مناف بن زهرة بن كلاب القرشي الزهري ، شهد بدرًا وما بعدها ، وهو أول من رمى سهم في سبيل الله ، كان آخر العشرة المبشرين بالجنة وقفة ، توفي بالعقيق سنة إحدى وخمسين ، وقيل: ست ، وقيل: ثمان ، والثاني أشهر . النظر: الإصابة: (٣ / ٣١) ، البداية والنهاية: (٨ / ٧٨) .

(٤) هو سليمان بن مهران الأسدي الكاهلي ، أبو محمد الكوفي الأعمش ، ثقة حافظ عارف بالقرآن وروح ، لكنه يفسر ، من الخاصة ، مات سنة سبع وأربعين ومائتين . انظر: تقريب التهذيب (٢٥٤) لأن حمر .

(٥) التؤدة: الثأني . انظر عون المعبود شرح سنن أبي داود كتاب الأدب ، باب الرفق: (٣ / ١٥) .

(٦) أبو داود: كتاب الأدب ، باب الرفق ، (٤ / ٢٥٥) ، صحيح الألباني ، انظر: صحيح سنن أبي داود (٣ / ٩١٣) .

## الفصل الخامس الاستقامة

تمهيد: الوسطية استقامة، ولو لم تكن على نهج الاستقامة لكانت انحرافاً، والانحراف إما إفراط أو تفريط، وذلك الوسطية ومباين لها، كما سبق بيان ذلك، وهناك شعور لدى بعض الناس أن الوسطية تعني التنازل - ولو قليلاً - عن حقيقة الأمر والنهي، ولقد عبر أحد الباحثين عن هذا الشعور الذي يختلج في صدور بعض الناس، حيث طرح سؤالاً ورد عليه، ومما قاله: هل المقصود بالوسطية مرونة الأمة، بحيث لا تصطدم بالأفكار والمبادئ الأخرى عند الالتقاء بها، بل تقابلتها للأخذ والعطاء والتنازل عن جزء مما عندها، من أجل تنازل الطرف الآخر، والالتقاء عند نقطة وسط ترضي جميع الأطراف ؟

ثم رد على هذا المسلك وبين مخالفته لحقيقة الوسطية<sup>(١)</sup> ومن هنا فإن من ملامح الوسطية، بل وضوابطها الاستقامة، ولذلك فمن ادعى الوسطية مع خروجه عن الاستقامة، فهذه ليست الوسطية الشرعية في شيء، بل هي وسطية نسبية غير التي نتحدث عنها .



(١) انظر: الوسطية في الإسلام لتفريد عبد القادر: (١٤) .

## المبحث الأول

## أدلة القرآن

ولذا فإن من المناسب - ونحن نتحدث عن ملامح الوسطية - أن أبين معنى الاستقامة وحدودها ليوضح المراد: فقد وردت آيات كثيرة تأمر بالاستقامة ونحث عليها، فإله - جل وعلا - يقول لرسوله ﷺ: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْفُوا﴾ (هود: ١١٢) وفي سورة الشورى: ﴿فَلِلَّذَلِكَ فَادِعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ (الشورى: ١٥) وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (نصت: ٣٠) وفي سورة الجن: ﴿وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾ (الجن: ١٦) وفي سورة فصلت: ﴿أَمَّا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ (نصت: ٦) فهذه الآيات وغيرها تبين منزلة الاستقامة ومكانتها، وبما أن لزوم الصراط المستقيم استقامة على دين الله وشرعه، وهذا عين الوسطية وجوهرها، ولذلك لا بد من إيضاح الاستقامة.

## تعريف الاستقامة:

قال الراغب: استقامة الإنسان لزومه للمنهج المستقيم نحو: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ (نصت: ٣٠).

وقال ابن القيم: الاستقامة ضد الطغيان، وهو مجاوزة الحدود في كل شيء،<sup>(١)</sup> وقال القرطبي: الاستقامة: الاستمرار في جهة واحدة من غير أخذ في جهة اليمين والشمال<sup>(٢)</sup>. وسئل صديق الأمة وأعظمها استقامة - أبو بكر الصديق رضي الله عنه - عن الاستقامة؟ فقال: (أن لا تشرك بالله شيئاً)<sup>(٣)</sup>. يريد الاستقامة على محض التوحيد، فإن من استقام على محض التوحيد الصادق الذي يدين به الصديق واستقام له توحيداً على العلم الصادق بأسماء الله وصفاته وآثارها في الأنفس والآفاق، استقام في كل شأنه على الصراط المستقيم، فاستقام له كل عمل وكل حال.<sup>(٤)</sup>

(١) انظر: تفسير القرطبي (٩ / ١٠٧).

(٢) المرجع السابق: (٢ / ٥٢٨).

(٣) انظر: مدارج السالكين (٢ / ٦٠٤).

(٤) تهذيب مدارج السالكين: (٢ / ٥٢٧).

## المبحث الثاني

## أدلة السنة

في صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله رضي الله عنه <sup>(١)</sup> قال قلت يا رسول الله: «قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك؟ قال: قل آمنت بالله، ثم استقم» <sup>(٢)</sup> وعن ثوبان <sup>(٣)</sup> رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولن يحافظ على الوضوء إلا مؤمن» <sup>(٤)</sup>.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سدوا وقاربوا، واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل» <sup>(٥)</sup>.

وفي مسند الإمام أحمد عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه» <sup>(٦)</sup>.

وفي رواية الترمذي عن أبي سعيد مرفوعاً وموقوفاً: «إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان، فتقول: اتق الله فبئنا، وإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا» <sup>(٧)</sup>.

وروى الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْهَمُوا﴾ قال: قد قالها الناس، ثم كفر أكثرهم، فمن مات عليها فهو ممن استقام» <sup>(٨)</sup>.

(١) هو سفيان بن عبد الله بن ربيعة بن خازن الثعلبي الطائفي له صحبة، وكان عامل عمر على الطائف . الإصابة (٥٣ / ٢).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب جامع أوصاف الإسلام (١ / ٦٥).

(٣) هو مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبي من أرض الحجاز، فاشترى النبي صلى الله عليه وسلم وأعتقه، فلتزم النبي صلى الله عليه وسلم وحفظ عنه كثيراً من العلم، وطأن عمر، واشتهر ذكره، ومات بحدود سنة ٥٤ هـ، انظر: تهذيب التهذيب: ٢ / ٣١.

(٤) سنن ابن ماجه، كتاب الظهارة وسننها، باب المحافظة على الوضوء: (٩ / ١٠٢، ١٠١) صححه الشيخ الألباني - رحمه الله - في الإرواء رقم (٤١٢).

(٥) مسلم، كتاب صفات المنافقين، باب لن يدخل أحد الجنة: (٤ / ٢٨١٦).

(٦) أخرجه أحمد (٣ / ١٩٨).

(٧) أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، باب حفظ اللسان، (٤ / ٥٢٣، رقم ٢٤٠٧).

(٨) أخرجه الترمذي، كتاب التفسير، باب سورة حم السجدة، (٥ / ٣٥١، رقم ٣٢٥٠) وضمه الألباني - رحمه الله - في ضعيف الجامع (٤٠٧٩).

## المبحث الثالث

## أقوال العلماء في الاستقامة

وقال عمر - رضي الله عنه - الاستقامة: (أن تستقيم على الأمر والنهي، ولا تروغ روغان الثعالب) (١).

وقال عثمان بن عفان - رضي الله عنه - : (استقاموا: أخلصوا العمل لله) (٢)

وقال علي ابن أبي طالب، وابن عباس رضي الله عنهما : (استقاموا: أدوا الفرائض) (٣)

وقال الحسن: (استقاموا على أمر الله . فعملوا بطاعته، واجتنبوا معصيته) . وقال مجاهد: (استقاموا على شهادة أن لا إله إلا الله حتى لحقوا بالله). (٤)

وقال ابن تيمية - رحمه الله - : (استقاموا على محبته وعبوديته، فلم ينتفتوا عنه بمئة ولا بسرة) (٥)

وقال ابن القيم:

(فالاستقامة كلمة جامعة، آخذة بمجامع الدين، وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق، والوفاء، والاستقامة تتعلق بالأقوال، والأفعال، والأحوال والنيات، فالاستقامة فيها وقوعها لله، وبالله وعلى أمر الله، ثم قال: سمعت شيخ الإسلام - رحمه الله - يقول: أعظم الكرامة لزوم الاستقامة) (٦)

وهذه المعاني متقاربة، ويفسر بعضها بعضاً .

وأختم الكلام عن الاستقامة بما قاله ابن القيم في مدارج السالكين مما يتضح معه

(١) تهذيب مدارج السالكين (٢ / ٥٢٨) .

(٢) تهذيب مدارج السالكين (٢ / ٥٢٨) .

(٣) تهذيب مدارج السالكين (٢ / ٥٢٨) .

(٤) المرجع السابق (٢ / ٥٢٩) .

(٥) المرجع السابق (٢ / ٥٢٩) .

(٦) انظر: تهذيب مدارج السالكين: نفس المصدر .

علاقة الاستقامة بالوسطية، وأنه لا استقامة بلا وسطية، ولا وسطية بدون استقامة قال: (وهي - أي الاستقامة - على ثلاث درجات الدرجة الأولى: الاستقامة على الاجتهاد في الاقتصاد، ولا عاديًا رسم العلم، ولا منجاوزًا حد الإخلاص، ولا مخالفتًا نهج السنة<sup>(١)</sup>).

قال ابن القيم شارحًا قول الهروي<sup>(٢)</sup>:

(هذه درجة تتضمن ستة أمور: عملاً واجتهادًا فيه، وهو بذل المجهود، واقتصادًا، وهو السلوك بين طرفي الإفراط - وهو الجور على النفس - والتفريط بالإضاعة. ووقوفًا مع ما يرسمه العلم، لا ووقوفًا مع داعي الخيال، وافراد المعبود بالإرادة وهو الإخلاص ووقوع الأعمال على الأمر، وهو متابعة السنة، فبهذه الأمور الستة تتم لأهل هذه الدرجة استقامتهم، وبالخروج عن واحد منها يخرجون عن الاستقامة، وإما خروجًا كليًا، وإما خروجًا جزئيًا.

والسلف يذكرون هذين الأصلين كثيرًا، وهما: الاقتصاد في الأعمال والاعتصام بالسنة، فإن الشيطان يشم قلب العبد ويختبره، فإن رأى فيه داعية للبدعة، وإعراضًا عن كمال الانقياد للسنة، أخرجه عن الاعتصام بها، وإن رأى فيه حرصًا على السنة، وشدة طلب لها: لم يظفر به من باب اقتطاعه عنها، فأمره بالاجتهاد، والجور على النفس، ومجاوزة حد الاقتصاد فيها، قائلًا له: إن هذا خير وطاعة، والزيادة والاجتهاد فيها أكمل، فلا تفتقر مع أهل الفتور، ولا تنم مع أهل النوم، فلا يزال يحثه ويحرضه، حتى يخرج عن الاقتصاد فيها، فيخرج عن حدها، كما أن الأول خارج عن هذا الحد، فكذلك هذا الآخر خارج عن الحد الآخر<sup>(٣)</sup>.

وهذا حال الخوارج الذين يحقر أهل الاستقامة صلاتهم مع صلواتهم، وصيامهم

(١) انظر: المرجع السابق (٢ / ١٠٥).

(٢) هو أبو إسحاق عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي الحنبلي الصوفي المتوفى سنة ٤٨١هـ، من شيوخ الإمام ابن القيم. انظر: مقلة تهذيب مدارج السالكين (١ / ٧).

(٣) تهذيب مدارج السالكين (١ / ٧)، تأمل هذا الكلام تجد علاقته بالوسطية منه.

مع صيامهم وقراءتهم مع قراءتهم، وكلا الأمرين خروج عن السنة إلى البدعة، لكن هذا إلى بدعة التفريط والإضاعة، والآخر إلى بدعة المجاوزة والإسراف . وقال بعض السلف: (ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان، إما إلى تفريط، وإما إلى مجاوزة، وهي الإفراط ولا يبالي بأيهما ظفر، زيادة أو نقصان<sup>(١)</sup> . وهذا الكلام عن الاستقامة هو عين الوسطية وجوهرها) .



(١) المرجع السابق (٢ / ١٠٧) .



## الفصل السادس

### البيئية

تمهيد:

إن البيئية من لوازم وصفات الوسطية، وحيث ذكرت ذلك مختصراً فإني أزيده هنا وضوحاً وبيانياً، فأقول: إن إطلاق لفظ البيئية يدل على وقوع شيء بين شيئين أو أشياء، وقد يكون ذلك حساً ومعنى .

وعندما نقول: إن الوسطية لا بد أن تتصف بالبيئية، فإننا لا نعني مجرد البيئية الظرفية، بل الأمر أعمق من ذلك، حيث إن هذه الكلمة تعطي مدلولاً عملياً على أن هذا الأمر فيه اعتدال وتوازن وبعد عن الغلو والتطرف أو الإفراط والتفريط . وبهذا تكون البيئية صفة مدح، لا مجرد ظرف عابر ومن هذا التفسير جاءت علاقة البيئية بالوسطية، وقد رأيت جمهوراً من العلماء ربطوا بين الوسطية والبيئية ولا غرابة في ذلك، فإن لهذا أصلاً في اللغة والاشتقاق، كما سبق بيان ذلك، وهو المتبادر إلى الأذهان عند إطلاق هذه الكلمة .



## المبحث الأول

### أقوال العلماء في البيئية

ولأهمية هذه القضية سأذكر بعض أقوال العلماء، ومن قال بذلك منهم في القديم والحديث<sup>(١)</sup>.

١ - الإمام الطبري، حيث قال في تفسيره: (وأنا أرى أن الوسط في هذا الموضع هو الوسط الذي بمعنى الجزء، الذي هو بين طرفين، مثل وسط النار . وأرى أن الله تعالى ذكره - إنما وصفهم بأنهم وسط لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلو فيه، غلو النصاري الذين غلوا بالترهب، وقبلهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله، وقتلوا أنبياءهم، وكذبوا على ربهم، وكفروا به، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها)<sup>(٢)</sup>.

٢ - قال شيخ الإسلام: (فإن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة<sup>(٣)</sup> يؤمنون بذلك، كما يؤمنون بما أخبر الله به في كتابه من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكيف ولا تمثيل، بل هم الوسط في فرق الأمة، كما أن الأمة هي الوسط في الأمم فهم وسط في باب صفات الله تعالى بين أهل التعطيل الجهمية وأهل التمثيل المشبهة. وهم وسط في باب أفعال الله بين الجبرية<sup>(٤)</sup> والقدرية<sup>(٥)</sup> وغيرهم وفي باب

(١) نظر: لوسطية في ضوء القرآن .

(٢) نظر: تفسير الطبري (٦ / ٦) .

(٣) هم أهل الحق ومن عداهم قائل البدعة فإنهم : الصحابة **بركة** ومن سلك نهجهم من خيار التبعية رحمة الله عليهم، ثم أصحاب الحديث ومن تبعهم من الفقهاء جيلاً فجيلاً إلى يومنا هذا، ومن اقتدى بهم من أنواع من شرق لأرض وغربها رحمة الله عليهم) . انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل (٢ / ١١٣) .

(٤) سموا بذلك نسبة إلى الجبر، وهو جسر العبد وحمله على فعله، فهو كالرشة في مهب الريح، لا أثر له على فعله، فالفعل لله تعالى والعبد محمله، وهم صنفان: خالصة وهي التي لا تثبت لتعبد لعلاً، ولا قدرة على الفعل أصلاً، ومتوسطة، وهي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة أصلاً، وجهمية من فرق الجبرية . انظر: الملل والنحل: (١ / ٨٥) .

(٥) هم الذين يحتجون بالقدر ويقولون لو كان الله كارهاً لعلنا لأنكره، علينا بالعقوبة، ولما مكنتنا منه وظهر الكلام في القدر في عصر عبد الملك بن مروان وكان هذا في آخر عهد الصحابة، وأون من تكلم في القدر معبد الجهني الذي أخذ من سوسن النصراني، ثم أخذ من معبد غيلان انتقفي لعنهم الله . تهذيب التهذيب (١٠ / ٢٢٦) .

وعبد الله بين المرجئة<sup>(١)</sup> والوعيدية من القدرية وغيرهم وفي باب أسماء الإيمان والدين بين الحرورية<sup>(٢)</sup> والمعتزلة<sup>(٣)</sup> وفي أصحاب رسول الله ﷺ بين الراضية والخوارج<sup>(٤)</sup>.

٣ - وقال الشيخ رشيد رضا: (إن الوسط هو العدل والخيار، وذلك أن الزيادة على المطلوب في الأمر إفراط، والتقص عنه تفريط وتقصير، وكل من الإفراط والتفريط مثل عن اجادة القومية، فهو شر ومذموم، فالخيار هو الوسط بين طرفي الأمر، أي المتوسط بينهما)<sup>(٥)</sup>.

٤ - وقال الدكتور يوسف القرضاوي<sup>(٦)</sup>: (ونعني بها - أي الوسطية - المتوسط أو التعادل بين طرفين متقابلين أو متفاوتين، بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير، ويطرده المقابل، وبحيث لا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه، ويطعن على مقابله، ويحيف عليه، ثم ذكر بعض الأمثلة في ذلك)<sup>(٧)</sup>.

٥ - وقال الأستاذ محمد قطب<sup>(٨)</sup> في كتابه (منهج التربية الإسلامية): إن الوسطية هي التوازن، والتوازن هو العدل، حيث قال في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة: ١٤٣) وسطاً في كل شيء، متوازنين في كل ما تقومون به من

(١) الأرجاء على معنيين: أحدهما التأخير، والمرجئة قد أغروا الأعمال عن مسمى الإيمان، والثاني إعطاء الرجاء والمرجئة فالوفا؛ لا تضر مع الإيمان معصية. والمرجئة أربعة أصناف - مرجئة الخوارج، ومرجئة الجبرية، ومرجئة القدرية، والمرجئة الخالصة. انظر: الملل والنحل (١ / ١٣٩).

(٢) فرقة من فرق الخوارج.

(٣) سموا بذلك لاعتزاز واصل بن عطاء حلقة الحسن البصري وهم يقولون بخلق القرآن وبخلود مركب الكبيرة في النار، وأنه بمنزلة بين التوثيق ونفي القدر، ويقولون العباد خالقون لأنفسهم، ووجوب إنصاف النعمة والتوحيد، وهو عندهم العدل، ومنه وجوب فعل الصالح والأصلح عنى الله، وحبب الفسح والتحسين التعقلين. انظر: الملل والنحل (١ / ٤٣).

(٤) شرح العقيدة الوسطية (١٢٤).

(٥) انظر: تيسير المسار (٢ / ٤).

(٦) هو الشيخ الداعية الفقيه الدكتور يوسف القرضاوي من علماء الأزهر ومن قيادات الإخوان المسلمين له جهود مشكورة في مجال الدعوة والعلم والآن مقيم في قطر.

(٧) انظر: الخصائص العامة للإسلام (١٢٧).

(٨) محمد قطب من كبار مفكري العلماء الإسلاميين المعاصرين وهو شقيق الأستاذ محمد قطب - رحمه الله - والآن مقيم في مكة مدرساً في الدراسات العليا في جامعة أم القرى.

نشاط . ثم بين أن الوسطية تعني التوفيق بين أشياء كثيرة، كالتوفيق بين مطالب الفرد الواحد، وبين مطالب الجموع، والتوفيق بين العمل للعاجلة والآجلة وهكذا<sup>(١)</sup> .

٦ - وقال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: (وبالجملة فإن الله العليم الحكيم أمر بالوسط في كل شيء بين خلقين ذميين، تفریط وإفراط)<sup>(٢)</sup> .

٧ - وقال الدكتور عمر الأشقر<sup>(٣)</sup>: (من المعضلات التي لم ينجح المشرعون من البشر في حلها ألتطرف في التشريع، فبعض القوانين تخرج إلى أقصى اليسار، وبعض آخر ينجح إلى أقصى اليمين، وكلما يوفق واضعو القوانين إلى التوسط والاعتدال)<sup>(٤)</sup>

وقال في موضع آخر: (إذا نظرت إلى الشريعة الإسلامية وجدتها وسطاً في كل أحكامها، فأحكامها بين الغالي والجافي)<sup>(٥)</sup>

٨ - قال عمر بهاء الدين الأميري: (وقد كان من تدبير الله الحكيم العليم في هذه الأمة أن جعل وسطيتها في كل مجال: فهي موطن الرسالة الأولى، وفي ساحتها الحضارية المشعة المترامية الأطراف - من بعد - في مناخ محتمل، جو مسعف، لا في مناطق بركانية زلزالية، ولا لاطية استوائية، ولا متجمدة قطبية، حيث تقعد قساوة الطبيعة بالإنسان عن الحركة والنشاط والإعمار الحضاري .

وهي وسط في موقعها الجغرافي المهم، حيث كانت مهبط الوحي، أرض الإسلام ومهد الأمة الإسلامية الأولى فهي الوسط بين الشمال والجنوب، والشرق والغرب، وهي مركز الموصل بين إفريقيا وآسيا، وطرف ممتد من أوربا، وهي الرباط البري بين الطرق المائية)<sup>(٦)</sup> .

(١) انظر: منهج التربية الإسلامية (١ / ٢٨) .

(٢) انظر: القواعد الحسان (٩٠) .

(٣) هو عمر الأشقر من غربيي جامعة المدينة، ومن علماء فلسطين كان استاذاً محاضراً في جامعة الكويت ثم انتقل إلى جامعة الأردن له سلسلة محاضرة في العقائد .

(٤) خصائص الشريعة الإسلامية (٨٦-٨٧) .

(٥) خصائص الشريعة الإسلامية (٨٦-٨٧) .

(٦) انظر: وسطية الإسلام وامته في ضوء الفقه الحضاري (٥٨) .

ومن خلال ما سبق يتضح لنا أن وصفة البيئية أمر أساس في تحديد الوسطية، وأن هؤلاء العلماء والكتاب اعتبروا هذا الأمر قضية مسلمة في تحديدهم، وتعريفهم للوسطية وهذه البيئية ليست مجرد الظرفية، وإنما هي التي تعطي الدلالة على التوازن والاستقامة والعدل، ومن ثم الخيرية فهذه هي الوسطية الحقة، وهذا الذي قرره علماؤنا العظام من السابقين واللاحقين كما بينت وفصلت .



## المبحث الثاني

### دليل تطبيقي للملامح الوسطية

وبعد أن اتضحت ملامح الوسطية سأذكر دليلاً عملياً تبرز فيه جميع هذه الملامح، حيث يمثل أعلى درجات الوسطية: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «جاء ثلاثة رهط إلي بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادته، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: «أين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر».

فقال أحدهم: «أما أنا فأصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً». فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني»<sup>(١)</sup>.

وسأذكر ملامح الوسطية من هذا الحديث:

#### أولاً: الخيرية:

وهذا يتضح من قوله صلى الله عليه وسلم: «إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له» ثم يبين أنه يأخذ بالوسطية: فيصوم ويفطر، ويصلي وينام، ويتزوج النساء، فلولا أن هذا العمل لا يعارض الخشية والتقوى، بل يطرد معهما لم يذكرها في هذا المقام، واستخدم أفعال التفضيل «أخشاكم أتقاكم» وهي أعلى درجات الخيرية.

فاتضح أن هذه الوسطية التي يرشدنا إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم تمثل الخشية والتقوى وهذه هي الخيرية في أفضل صورها.

#### ثانياً: الاستقامة:

وتظهر هذه الحقيقة في قوله صلى الله عليه وسلم: «فمن رغب عن سنتي فليس مني» إذن فالاستقامة هي بأن يصوم ويفطر، وينام ويرقد، ويتزوج النساء، والخروج عنها

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب الرغبة في النكاح، حديث رقم (٥٠٦٣).

انحراف عن الاستقامة، فهذا العمل الذي يمثل الوسطية، لا نقول إنه لا يعارض الاستقامة، بل هو الاستقامة بعينها، حيث جعله الرسول ﷺ من سنته وهل الاستقامة إلا الالتزام بسنته والاختصاص بها .

### ثالثاً: اليسر ورفع الحرج:

وهذا أمر جلي وبن، فتحن بين عمليين وردا في هذا الحديث، تبطل وامتناع عن النساء والزواج مع ما في ذلك من مشقة وحرج ويقابله تزوج النساء مع ما في ذلك من قضاء النوطر، والمودة والرحمة والمحباب الاولاد .

الاول يمثل الانحراف عن سنة النبي ﷺ مع ما فيه من مشقة وعسر، والثاني يمثل الوسطية مع ما فيه من تخفيف ويسر ورحمة، ودفع الحرج . رقل مثل ذلك في الصيام والقيام .

إذن فالوسطية في اليسر ورفع الحرج، وليس في التكلف والمشقة والعنت .

### رابعاً: الحكمة:

فإنه بالنظر إلى قدرة النفس ومدى تحملها وغفلة هؤلاء القوم عن قدرتهم في فورة الحماس والانديفاع، جاء الرسول ﷺ بضع الأمور مواضعها، ويجعلها في مسارها الطبيعي، فإن أحب العمل إلى الله ما دام عليه صاحبه، ولو التزم هؤلاء الرجال بما قالوا لتعبوا عاجلاً أو آجلاً، ثم إن هذا الفعل نفسه مخالفة لصريح الحكمة وحقيقتها وذلك أن الحكمة هي وضع الشيء في موضعه، والإصابة في القول والعمل، وهذا هو عين ما وجه إليه ﷺ .

### خامساً: العدل:

وتبرز صفة العدل بالنظر إلى مطالب النفس وواجبات العبادة، فقد جعل لكل منها نصيباً، فعدل بين حق الرب وحق النفس، ولم يكن في ذلك حيف وشطط، وحاشاه من ذلك .

سادساً: البيبة:

والأمثلة تبرهن على ذلك .

١ - امتناع عن الزواج مطلقاً - إفراط . ويقابله التفريط وهو اتباع الشهوات دون وازع أو قيد وبينهما قضاء الشهوة والوطر، ولكن ضمن الضوابط الشرعية، ويتمثل في الزواج وهذا هو الوسط، وهو المشروع .

٢ - صيام دائم - إفراط .

إفطار دائم - تفريط .

الصيام أحياناً - والفطر أحياناً وسط بين الأمرين وهو المشروع في ضوابطه الشرعية .

٣ - القيام مطلقاً - إفراط .

النوم مطلقاً - تفريط .

القيام والنوم حسب الطاقة ودون تكلف - وسط وهذا هو المشروع (١) .

ومن خلال هذا التطبيق العملي للامح الوسطية في ضوء هذا الحديث، يتضح المراد، مما يساعد على فهم الوسطية .



(١) الوسطية في ضوء القرآن : (١٢٦-١٢٧) .



## خلاصة الجزء الأول

- يتضح للقارئ الكريم من خلال هذا الكتاب المتواضع في مجهوده عدة أمور منها:
- ١ - أن المعنى اللغوي لكلمة (وسط) تدل على معاني الخير، والعدل، والجودة والرفعة والمكانة العلية وما تصرف منها يؤول إلى معاني متقاربة .
  - ٢ - من خلال أسئلة المفسرين اتضح لي لا التزام بين الوسط والوسطية فكل وسطية فهي وسط، ولا يلزم من كل وسط أن يكون دليلاً على الوسطية، فقد يكون من الوسط المكاني أو الزماني ونحوه .
  - ٣ - ومن خلال ما ذكره علماء التفسير يتبين لنا أن كلمة الوسط، تستعمل في معانٍ عدة أهمها:
    - أ - بمعنى الخيار والأفضل العدل .
    - ب - قد ترد لما بين شيئين فاضلين .
    - ج - تستعمل لما كان بين الجيد والردى،، والخير والشر .
  - ٤ - وتبين لي أن الوسطية تطلق على الأمر الذي فيه خيرية وبينية وأن أي أمر اتصف بالخيرية والبينية فهو الذي يصح أن يطلق عليه وصف الوسطية حيث اتضح لي تلازم بين الخيرية والبينية في إطلاق مصطلح الوسطية .
  - ٥ - لا نستطيع فهم الوسطية حتى نفهم أسسها وهي الغلو أو الإفراط والجفاء أو التفريط والصراط المستقيم .
  - ٦ - كل أمر فيه غلو أو إفراط فهو خروج عن الوسطية .
  - ٧ - كل أمر اتصف بالتفريط أو الجفاء فإنه يخالف الوسطية ويمقدار اتصافه بأي من هذين الوصفين يكون بعده عن الوسطية وثجافيه عنها .
  - ٨ - إن الصراط المستقيم يمثل قمة الوسطية وذروة سنامها وأعلى درجاتها .
  - ٩ - إن المقياس المعير في فهم الوسطية هو الشرع، وليس ما نعارف عليه الناس من مدهاته وتنازل وتساهل .

- ١٠ - إن هناك عوامل كثيرة، وأصولاً معتبرة تجب مراعاتها عند ضبط مفهوم الوسطية وتطبيقها على أمر من الأمور، حيث إن قصر النظر عن أمر دون آخر يؤدي إلى الانحراف عن مفهوم الوسطية .
- ١١ - للوسطية سمات وملامح تحضه بها وتميزها عن غيرها، ومن أهم هذه الملامح سمة الخيرية، وسمة العدل، وسمة اليسر ورفع الحرج، وسمة الحكمة، وسمة البيئية، وسمة الاستقامة .
- ١٢ - إن خيرية هذه الأمة تتحقق بأمر أهمها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله .
- ١٣ - إذا قارنت بين اليهودية والنصرانية والإسلام في دنيا الناس اتضحت وسطية الإسلام .
- ١٤ - إن سمة اليسر والتوسعة ورفع الحرج قضية منهج متكامل وليست تتعلق بجزئية أو جزئيات كما يتصور بعض الناس . وأن هذا منمّح من ملامح الوسطية، ولا نستطيع فهم الوسطية إلا إذا فهمنا هذه السمة البارزة في ديننا .
- ١٥ - إن الحكمة هي وضع الشيء في محله وهي سمة مهمة من سمات الوسطية؛ بل من أهم سماتها .
- ١٦ - إن الاستقامة على منهج الله هي عين الوسطية وجوهرها الاصيل .
- ١٧ - إن صفة البيئية أمر مهم في تحديد الوسطية وهذه البيئية ليست مجرد الظرفية، وإنما هي التي تعطي الدلالة على التوازن والاستقامة والعدل، ومن ثم الخيرية فهذه هي الوسطية الحقة، وهذا ما قرره العلماء الكرام من السابقين واللاحقين .

وأشركوا لنا أن الحمد لله رب العالمين

# الجزء الثاني

وسطية  
القرآن الكريم  
في العقائد



## خطة الجزء الثاني

### وسطية القرآن الكريم في العقائد

قامت بتقسيم هذا الجزء إلى سبعة فصول:

الفصل الأول: في القرآن يقرر منهج الوسطية

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: التعريف بالقرآن .

المبحث الثاني: في وسطية القرآن في العقيدة .

الفصل الثاني: في وسطية القرآن في باب توحيد الله وأسمائه وصفاته

ويشتمل على أربعة مباحث:

المبحث الأول: موقف أمة اليهود .

المبحث الثاني: موقف النصارى .

المبحث الثالث: موقف المسلمين .

المبحث الرابع: مفهوم الإيمان كما جاء في القرآن .

الفصل الثالث: الملائكة

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: صفات الملائكة الخلقية .

المبحث الثاني: علاقتهم مع الله والإنسان والكون وعبادهم .

الفصل الرابع: في الكتب السماوية

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تحريف اليهود وتزويرهم .

المبحث الثاني: تحريف النصارى للإنجيل .

المبحث الثالث: وسطية القرآن بين الكتب السماوية .

الفصل الخامس: وسطية القرآن في أنبياء الله ورسله

ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: موقف اليهود من أنبياء الله ورسله .

المبحث الثاني: موقف النصارى .

المبحث الثالث: موقف المسلمين من أنبياء الله ورسله .

الفصل السادس: في وسطية القرآن في اليوم الآخر

ويشتمل على ستة مباحث:

المبحث الأول: أنواع المكذبين بالبعث .

المبحث الثاني: نظرة في نصوص اليوم الآخر عند أهل الكتاب .

المبحث الثالث: أدلة البعث والتشور .

المبحث الرابع: طعام أهل النار وشرابهم ولباسهم .

المبحث الخامس: صور من عذاب أهل النار .

المبحث السادس: صفة الجنة .

الفصل السابع: في وسطية القرآن في القضاء والقدر

ويشتمل على عشرة مباحث:

المبحث الأول: تعريف القضاء والقدر، والعلاقة بينهما .

المبحث الثاني: الإفراط والتفريط .

المبحث الثالث: ظهور بدعني نفي القدر والقول بالجبر .

المبحث الرابع: مجمل اعتقاد أهل السنة والجماعة في باب القدر .

المبحث الخامس: الأدلة من الكتاب والسنة في باب القدر .

المبحث السادس: مراتب القدر وأركانها .

المبحث السابع: وسطية أهل السنة في مسألة أفعال العباد .

المبحث الثامن: وسطية أهل السنة في معنى إرادة الله ومشيتته .

المبحث التاسع: أقسام التقدير التي جاءت في القرآن الكريم والسنة .

المبحث العاشر: ثمرات الإيمان بالقدر .

الخلاصة: ودونت فيها أهم النتائج التي وصلت إليها في هذا الجزء، وأسأل الله

العلي العظيم أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم .

وأسأل الله عز وجل أن يجعل هذا العمل المتواضع خالصاً لوجهه الكريم، وأن

يغفر لي أي خطأ أو زلل وقع في، إنه سميع قريب .

## الفصل الأول

### القرآن يقرر منهج الوسطية

تمهيد: نزل القرآن الكريم هداية للناس ونوراً، يخرج به الله من شاء من الظلمات إلى النور، ولزوم منهج الوسطية عين الاستقامة والهداية والصراط المستقيم، ولذلك فقد جاءت الآيات مستفيضة ترسم منهج الوسطية وتدلل عليه . والوسطية منهج متكامل شامل غير محصور في ركن من الأركان، لا في جزئية من الجزئيات ولا في حكم من الأحكام، ولا في أصل من الأصول، فالإسلام كله وسط، وهذه الأمة هي أمة الوسط: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (الفر: ١٢٣).

ولذلك جاء القرآن مقررًا لمنهج الوسطية في أبواب الاعتقاد، والعبادات والحكم والتحاكم، وفي باب الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغيرها من الأبواب والمجالات وبيئاتاً لهذه الحقيقة وتجليات لها، سنعيش مع كتاب الله متأملين بعض ما ورد فيه، تأكيداً لهذه الحقيقة وتأصيلاً لها، وقبل أن أشرع في الهدف المطلوب، ومعنى المنهج في اللغة وفي الاصطلاح . سأقف مع فائحة الكتاب حيث إنها من أولها إلى آخرها تقرر هذه الحقيقة وتؤكددها .



## المبحث الأول

## التعريف بالقرآن الكريم

أولاً: معنى القرآن في اللغة:

القرآن من مادة قرأ، ومنه قرأت الشيء، فهو قرآن: أي جمعته، وضممت بعضه إلى بعض، فمعناه: الجمع والضم . ومنه قولهم: ما قرأت هذه الناقة سلى قطاً، وما قرأت جنيناً، أي لم تضم رحمها على ولد<sup>(١)</sup> .

قال أبو عبيدة<sup>(٢)</sup> رحمه الله: ( . . . وإنما سمي قرآناً لأنه يجمع السور فيضمها وتفسير ذلك في آية القرآن، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (الفينة: ١٧) مجازة: تأليف بعضه إلى بعض (٠٠٠) ثم قال: وفي آية أخرى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ (نمل: ٩٨) مجازة: إذا تلوت بعضه في إثر بعض، حتى يجتمع، وينضم بعضه إلى بعض، ومعناه: يصير إلى معنى التأليف والجمع، ثم استشهد على هذا المعنى، بقول عمرو بن كلثوم<sup>(٣)</sup>:

ذِرَاعِي حُرَّةٌ أَدْمَاءَ بَكْرٍ هِجَانِ اللَّوْنِ لَمْ يَقْرَأْ جَنِينًا<sup>(٤)</sup>

أي لم تضم في رحمها ولدًا قط<sup>(٥)</sup> فسمى القرآن قرآناً، لأنه جمع القصص، والأمر والنهي، والوعد والوعيد، والآيات والسور: بعضها إلى بعض .<sup>(٦)</sup>

ويذكر أبو بكر الباقلائي<sup>(٧)</sup>: أن القرآن يكون مصدرًا واسماً: مصدرًا كما في

(١) انظر: الصحاح لتجوهرى، مادة قرأ: (١ / ٦٥) .

(٢) هو معمر بن المشي النخعي مولاهم البصري، النحوي، صاحب التصانيف، ولد سنة (١١٠هـ)، ومات سنة (٢٠٩هـ)، وتوفي: (٢٦٠هـ) . انظر سير اعلام النبلاء (٩ / ٤٤٥) .

(٣) هو عمرو بن كلثوم التميمي من أصحاب المعتقات السبع، ومن كبار شرواه الجاهلية . انظر: شرح المفردات: (١٨٠) .

(٤) انظر: شرح القصائد السبع الطوال، لأبي بكر محمد بن القاسم الأبياري (٣٨٠) .

(٥) مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر النخعي (١ / ٣-١) .

(٦) انظر: لسان العرب، كتاب (أ-ب) فصل الهمزة، باب قرأ: (١ / ١٢٨) .

(٧) هو إمام المتكلمين ورأس الأشاعرة أبو بكر محمد بن العلي بن محمد القاسمي المعروف بابن الباقلائي البصري المالكي صاحب المنهاج وكان له بحامع المنصور حنفة عظيمة، وكان ورده في الليل عشرين ترويضه في الحصر والفسر فإذا فرغ منها كتب حسماً وثلاثين ورقة من تصنيفه ويمد من أكبر الأشاعرة توفي سنة ٤١٣هـ . انظر: شذرات الذهب (٢ / ١٦٧) .



قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (البقرة: ١٧) واسمًا كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ (الاسراء: ٤٥) ويروى عن الشافعي رحمه الله: أن القرآن اسم علم لكتاب الله، غير مشتق: كالنوراء، والإنجيل<sup>(١)</sup>.

قال الفرطبي رحمه الله: (والصحيح الاشتقاق في الجميع)<sup>(٢)</sup>. أي في القرآن والنوراء والإنجيل.

### معنى القرآن في الاصطلاح:

القرآن الكريم هو اسم لكلام الله تعالى، المنزل على عبده ورسوله: محمد ﷺ، وهو اسم لكتاب الله خاصة، ولا يسمى به شيء غيره من سائر الكتب<sup>(٣)</sup>، وإضافة الكلام إلى الله تعالى إضافة حقيقية، من باب إضافة الكلام إلى قائله.

ولما ظهر الخوض في صفات الله تعالى، وفي كلام الله خاصة، من قبل الزنادقة، وفرق المبتدعة، احتاج أهل السنة إلى تعريف القرآن تعريفاً يظهر فيه معتقدهم في صفات الله تعالى عامة، وفي صفات الكلام خاصة، ومنه القرآن، مخالفين بذلك أهل البدع من الجهمية والمعتزلة وغيرهم.

فقال أبو جعفر الطحاوي<sup>(٤)</sup> رحمه الله: وإن القرآن كلام الله، منه بدا بلا كيفية قولاً، وأنزله على رسوله وحياً، وصدقه المؤمنون على ذلك حقاً وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية، فمن سمعه، فزعم أنه كلام البشر فقد كفر<sup>(٥)</sup>.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢ / ٢٩٨).

(٢) نفس المرجع السابق (٣ / ٢٩٨).

(٣) المرجع السابق: (٢ / ٢٩٨).

(٤) هو الخافض الفقيه أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي الأدي المصري، شيخ الحنفية في عصره في مصر، ونسب إلى طحاء، غربة بصعيد مصر توفي عام (٣٢١هـ) بمصر. انظر: البداية والنهاية (١١ / ١٧٤).

(٥) شرح الطحاوية (١٢١-١٢٢).

## ثانياً: التعريف بالمنهج في اللغة والاصطلاح:

### أ - معنى المنهج في اللغة: (١)

المنهج من مادة نهج، ينهج نهجاً، وهو الطريق البين الواضح، ويطلق على الطريق المستقيم، والمنهج، والمنهاج والنهج: بمعنى واحد. وفي التنزيل قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَا جَاةٌ﴾ (البقرة: ٤٨). قال ابن عباس رضي الله عنه: سيلاً وسنة (٢) وهو مروى عن مجاهد، وعكرمة واخسن البصري، وغيرهم وروى عن ابن عباس سنة وسيلاً، ورجح ابن كثير رحمه الله التفسير الأول، لظهوره في المعنى ومناسبته (٣). وقال الخافظ ابن حجر رحمه الله: (والمنهاج: السيل، أي الطريق الواضح) (٤) وتفسير ابن عباس الأول هو المختار.

### ب - معنى المنهج في الاصطلاح:

المنهج هو الطريق المؤدي إلى التعريف على الحقيقة في العلوم، بواسطة طائفة من القواعد العامة، والتي تهيمن على سير العقل، وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة (٥) وبعبارة أوجز: هو القانون أو القاعدة التي تحكم أي محاولة للدراسة العلمية، وفي أي مجال (٦)، ومن ثم تختلف المناهج باختلاف العلوم التي تبحث فيها، فلكل علم منهج يناسبه، ومع وجود حد مشترك بين المناهج المختلفة، وقد تتعاون - وهو الغالب - مجموعة من المناهج خدمة ومعالجة فن واحد. (٧)

### سورة الفاتحة تقرر منهج الوسيطية:

إن أم الكتاب تقرر منهج الوسيطية من أولها إلى آخرها وأظهر آية فيها شاهدة بذلك هي قوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ (الفاتحة: ٦) وما بعدها.

(١) انظر: لسان العرب، باب النهج، فصل النون، (٢ / ٢٨٢).

(٢) صحيح البخاري مع الفتح، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ بي الإسلام على خمس (١ / ٦٠).

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣ / ١٢٠).

(٤) انظر: فتح الباري، كتاب الإيمان، باب بني الإسلام، (١ / ٦٤).

(٥) انظر: العلم والبحث العلمي، حسين رشوان، (١٤٣-١٤٤).

(٦)، (٧) انظر: منهج البحث العلمي عند العرب، لجلال موسى (٢٧٦).

وهذه الآية صريحة في تحديد المنهج الوسط، ذلك أنها بيّنت أن هذا الصراط هو صراط الذين أنعم الله عليهم. قال الطبري رحمه الله: (أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه، وكذلك في لغة جميع العرب، فمن ذلك قول الشاعر -

أعير المؤمنين على صراطٍ إذا اعوجَّ المواردُ مستقيم

قال ابن عباس رحمه الله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ يقول أنهمنا الطريق المهادي، وهو دين الله الذي لا عوج له<sup>(١)</sup> ثم قال: وكل حائد عن قصد السبيل ومالك غير المنهج القويم فضال عند العرب، لإضلاله وجه الطريق<sup>(٢)</sup>.

وقد بين الله لنا أن الصراط المستقيم هو منهج الوسط، حيث قال واصفاً الصراط المستقيم ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة: ٧) ومنهج المغضوب عليهم يمثل التفريط، بينما يمثل منهج الضالين الإفراط، فهما منهجان دائران بين الغلو والخفء.

قال ابن كثير رحمه الله: (غير صراط المغضوب عليهم، وهم الذين فسدت إرادتهم، فعلموا الحق وعدلوا عنه، ولا صراط الضالين، وهم الذين فقدوا العلم، فهم هائمون في الضلالة لا يهتدون إلى الحق)<sup>(٣)</sup>

وبهذا يتبين لنا أن هناك ثلاثة طرق طريق الذين أنعم الله عليهم، وطريق المغضوب عليهم، وطريق الضالين، والله أمرنا بالالتزام بسبيل الذين أنعم الله عليهم، لأنه هو الصراط المستقيم، وهو منهج وسط بين سبيلين منحرفين، وهما سبيل اليهود والنصارى، وكل طريق منحرف عن منهج الصراط المستقيم فله حظ من أحد هذين السبيلين. ولأن الاستقامة تعني الوسطية كما تبينها آية الفاتحة، وكما وضحت ذلك في ملامح الوسطية جاءت الآيات متعددة تدعو إلى الاستقامة بأساليب متعددة وألفاظ متقاربة وهي تدور بين الخير والإنشاء. ومن هذا المنطلق،

(١) نظراً: تفسير الطبري (١ / ٧٣، ٧٤).

(٢) المرجع السابق (١ / ٨٤).

(٣) نظراً: تفسير ابن كثير (١ / ٢٩).

وبعد أن تقرر أن طريق الاستقامة هو طريق الأمة الوسط، فإن كل آية وردت في الاستقامة فهي آية في تحقيق الوسطية والدعوة إليها والآيات في هذا الباب كثيرة جداً أذكر بعضاً منها دلالة على المراد، وبياناً لهذا المنهج .

قال سبحانه: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمِن تَابِ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا﴾ (هود: ١١٢) وقال ﴿فَلذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ (الشورى: ١٥) فقله تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ بعد أن أمر بالاستقامة، والطفيان وهو مجاوزة الحد<sup>(١)</sup> وهو خروج عن منهج الوسطية إلى الانحراف عن السبيل .

وفي الآية الثانية: قال سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ واتباع الهوى خروج عن الاستقامة، وانحراف عن منهج الوسط وتواصل الآيات في هذا الشأن، ففي سورة البقرة ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (البقرة: ١٤٢) وفي آل عمران ﴿وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وفي الانعام ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ (الانعام: ١٥٢) وفيها ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ (الانعام: ١٦٦) وفي النحل ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِّرَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (النحل: ٧٦) .

وفي سورة الزخرف ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الزخرف: ٤٣) وفي سورة الملك ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الملك: ٢٢) إلى غير ذلك من الآيات، حيث إن كل واحدة منها دلالة على أن الصراط المستقيم هو الطريق الذي أمرنا باتباعه واجتناب ما عداه ؛ لأنه هو طريق الحق والعدل والوسط، وما عداه طريق الضلال والغواية والانحراف عن الصراط المستقيم، وما هو الشيطان يعلن هذه الحقيقة قائلاً كما ذكر الله في سورة الاعراف: ﴿قَالَ قِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الاعراف: ١٦) وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿مَنْ يَشَأِ اللهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الانعام: ٢٩) .

(١) انظر: تفسير القرطبي (٩ / ١٠٧) .

وفي سورة التكاوير ﴿ فَأَيْنَ تَذَهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ (التكاوير: ٢٧ - ٢٨) وهذه الآية نص في أن القرآن كله دعوة للاستقامة والسير على المنهج الحق، قال القرطبي (إن هو) يعني القرآن ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ أي موعظة وزجر: ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾ أي يتبع الحق ويقيم عليه <sup>(١)</sup>.

ومما سبق يتضح لنا أن سورة الفاتحة وضعت القاعدة والمنطلق ورسمت المنهج وحددت معالمه ثم جاءت الآيات بعد ذلك مفررة لذلك وداعية له .



(١) انظر: تفسير القرطبي (١٩ / ٣٤٣) .

## المبحث الثاني

### وسطية القرآن في العقيدة

أولاً: التعريف بالعقيدة:

أ - العقيدة لغة (من العقد، وهو الربط والشدة بقوة، منه الإحكام والإبرام، والتماسك والمراصة والإثبات والتوثق) <sup>(١)</sup>.

ب - العقيدة في الاصطلاح: كلمة العقيدة لم تكن موجودة في الكتاب والسنة، ولا في أمهات المعاجم، وإن أول من تم الوقوف على ذكره لجمعها (عقائد) هو القشيري <sup>(٢)</sup> سنة ٤٣٧ هـ في كتاب الرسالة وهي كلمة مولدة لم تكن في الصدر الأول <sup>(٣)</sup>.

وقد عرفها الدكتور ناصر العقل <sup>(٤)</sup> فقال: (الإيمان الجازم بالله وما يجب له في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره، وشره، وبكلى ما جاءت به النصوص الصحيحة في أصول الدين وأمر الغيب وأخباره وما أجمع عليه السلف الصالح والتسليم لله تعالى في الحكم والأمر والقدر والشرع ولرسوله ﷺ بالطاعة والتحكيم والاتباع) <sup>(٥)</sup>.

يشمل التوحيد، والإيمان، والإسلام، والغيبات، والنبوات، والقدر، والأخبار، وأصوله الأحكام القطعية، وسائر أصول الدين، والاعتقاد، ويتبع الرد على أهل الأهواء والبدع وسائر الملل والنحل والمذاهب الضالة، والموقف منهم ومن مسميات هذا العلم، العقيدة، والتوحيد، والسنة، وأصول الدين.

(١) انظر: لسان العرب، مادة عقد، فصل العين المهملة (٣ / ٢٩٤).

(٢) هو أبو القاسم عبد الكريم بن هوزن بن عبد الملك القشيري صاحب الرسالة والتفسير وغيرهما، صاحب أبا علي الدقاق وغيره، أخذ الفقه فأنثه، وأخذ الأصول على ابن فورك، والأستاذ أبي إسحاق، ولد سنة ٣٧٧ هـ، وتوفي سنة ٤٦٥ هـ. انظر: تاريخ بغداد (١١ / ٨٣)، ترجمته رقم (٥٧٦٣).

(٣) انظر: معجم الناهي المفضلة للشيخ بكر أبو زيد (٢٤٦).

(٤) هو ناصر عبد الكريم العقل من علماء العقائد بجد محصل على درجة الدكتوراه وأشرف على رسائل علمية في كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود.

(٥) مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة (٩).

والعقيدة في الإسلام تقابل الشريعة، إذ الإسلام عقيدة وشريعة تعني التكليف العملية التي جاءت في القرآن والسنة النبوية في العبادات والمعاملات . والعقيدة هي أمور علمية يجب على المسلم أن يؤمن بها: لأن الله أخبرنا بها بطريق كتابه، أو بطريق وحيه إلى رسوله ﷺ وأصول العقائد التي أمرنا الله باعتقادها هي التي حددها الرسول ﷺ في حديث جبريل المشهور بقوله: «الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، والتقدر خيره وشره من الله تعالى» (١) فالعقيدة في ديننا هي التي تدور حول قضايا معينة، هي التي أخبرنا بها الله ورسوله، وليست اعتقاد أي شيء وحتى تصبح هذه عقيدة لا بد أن تصدق بها تصديقاً جازماً لا ريب فيه، فإن كان فيها ريب أو شك كانت حثناً لا عقيدة (٢) والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ (الحجرات: ١٥) وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (البقرة: ١٧٠) وقال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ (آل عمران: ٩) و«المشركين المرتابين» ﴿وَأَرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فِيهِمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ (البقرة: ٤٥) والمسائل التي يجب اعتقادها أمور غيبية، ليست مشاهدة منظورة، وهي التي عناها الله بقوله عندما مدح المؤمنين: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ (البقرة: ٣) فالله غيب وكذلك الملائكة واليوم الآخر، أما الكتب والرسل فقد يتبادر أنها تشاهد وتُنظر، ولكن المراد هو الإيمان بنسبتها إلى الله أي كون الرسل مبعوثين من عند الله، وأن الكتب منزلة من عند الله، وهذا أمر غيبي.

#### ثانياً: العقيدة الصحيحة والعقيدة الفاسدة:

العقيدة ليست مختصة بالإسلام، بل كل ديانة أو مذهب لا بد لأصحابه من عقيدة يقيمون عليها نظام حياتهم، وهذا ينطبق على الجماعات والأفراد والأمم والشعوب، والعقائد منذ بدء الخليقة إلى اليوم، وإلى أن يربث الله الأرض ومن عليها وهي فسمان:

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب الإيمان بالتقدير (١ / ٣٨)، رقم (٨).

(٢) انظر: العقيدة في الله لعمر الأشقر، (٩ - ١٠).

الأول: يمثل العقيدة الصحيحة، وهي تلك العقائد التي جاءت بها الرسل المكرام في أي زمان ومكان، وهي عقيدة واحدة، لأنها منزلة من العليم الخبير الحكيم العزيز .  
والقسم الثاني: يشمل العقائد الفاسدة على كثرتها وتعددتها، وفسادها ناشئ من كونها تناج أفكار البشر ومن وضع مفكريهم وعقلائهم، وعلمهم محدوداً ومقيداً بقبود بشرية متمثلة في عادات وتقاليد وأفكار .

وأحياناً يأتي فساد العقيدة من تحريفها، وتغييرها وتبديلها، كما هو الحال بالنسبة للعقيدة اليهودية والنصرانية في الوقت الحاضر، فإلهما حرفتا منذ عهد بعيد، فسادهما كان من هذا التحريف، وإن كانت عقيدتها سليمة الأصل<sup>(١)</sup> .

#### ثالثاً: أين العقيدة الصحيحة اليوم ؟

العقيدة الصحيحة لا توجد إلا في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، لأنهما محفوظتان لحفظ الله لهما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩) والعقائد في غير الإسلام وإن كان في بعضها قلبل من الحق، فإنها لا تمثل الحق ولا تجليه .

فالعقيدة الصحيحة السليمة لا توجد في اليهودية ولا في النصرانية، ولا في كلام الفلاسفة . . . وإنما توجد في الإسلام في أصله: الكتاب والسنة ندية طرية صافية مشرفة، تملأ القواد إيماناً ونوراً وحياءً وبيئناً، ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نُّهْدِي بِهِ ﴾ (البورى: ٥٢) وتفتح العقل بالحجة والبرهان: ﴿ إِن فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الرعد: ٤) وتنسجم مع الفطرة: ﴿ فَطَرَتِ اللَّهُ النَّبِيَّ فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ (الروم: ٢٠) .

#### رابعاً: ماذا تعني العقيدة ؟

العقيدة الإسلامية ضرورية للإنسان؛ لأنه بدونها تائه ضائع يفقد ذاته ووجوده،

(١) انظر: العقيدة في الله ، ص (١٦) .



والعقيدة الإسلامية وحدها التي تحييب على التساؤلات التي شغلت ولا تزال تشغل الفكر الإنساني، بل وتحيره من أين جئت؟ ومن أين جاء هذا الكون؟ من الموجد؟ ما صفاته ما أسماؤه؟ لماذا أوجدنا وأوجد الكون؟ وما دورنا في هذا الكون وما علاقتنا بالخالق الذي خلقنا؟ وهل هناك عوامل غير منظورة وراء هذا العالم المشهور؟ وهل هناك مخلوقات عاقلة مفكرة غير هذا الإنسان؟ وهل بعد هذه الحياة من حياة أخرى نصير إليها؟ وكيف تكون تلك الحياة إن كان الجواب بالإيجاب؟ لا توجد عقيدة سوى العقيدة الإسلامية اليوم تحييب على هذه الأسئلة إجابة صادقة مقنعة<sup>(١)</sup> وكل من لم يعرف هذه العقيدة، أو لم يعتقها فإن حاله لن يختلف عن حال ذلك الشاعر البائس<sup>(٢)</sup> الذي لا يدري شيئاً:

جئت ، لا أعلم من أين ، ولكني أتيت  
ولقد أبصرت، قدامي طريقاً فمشيت  
وسابقي سائراً إن شئت هذا أم أبيت  
كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي؟  
لست أدري

أجديد أم قديم أنا في هذا الوجود  
هل أنا حر طليق أم أسير في قيود  
هل أنا قائد نفسي في حياتي أم مفود  
أتمنى أنني أدري ولكنني  
لست أدري

وطريقي ما طريقني؟ أطويل أم قصير

(١) انظر: العقيدة في الله، ص (١٢).

(٢) هو إيليا أبو ماضي من قصيدة له طويلة بعنوان (الغلام) من ديوانه (الجدائل) (١٠٦).

هل أنا أصعد أم أنا أمبط فيه وأغور  
أنا السائر في الدرب أم الدرب تسير ؟  
أم كللانا واقف والدهر يجري  
لست أدري

ليت شعري وأنا في عالم الغيب الأمين  
أتراني كنت أدري أنني فيه دفين  
وبأنني سوف أبدر وبأنني سأكون  
أم تراني كنت لا أدرك شيئاً ؟  
لست أدري

أتراني قبلما أصبحت إنساناً سوياً  
كنت محوياً أو محالاً أم تراني كنت شيئاً  
اللهذا اللغز حل ؟ أم سيبقى ابدياً  
لست أدري . . . ولماذا لست أدري  
لست أدري<sup>(١)</sup>

وهذا الشاعر الملحد فقد معرفة الحقائق الكبرى فأصبح في هذه الخيرة والقلق والشك والأمراض النفسية، وأين هو من المسلم الذي يدري ويعرف معرفة مستيقنة كل هذه الحقائق فإذا به يجد برد اليقين، وهدوء البال، وإذا به يسير في طريق مستقيم إلى غاية مرسومة يعرف معالمها، ويدري غايتها .

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا سِوَاهُ تَعَالَى وَمَا يَشْرِكُونَ﴾ (الروم: ٤٠) وقال تعالى: ﴿وَمَا

(١) هو إيلى أبو ماضي من قصيدة له طويلة بعنوان (الطلاسم) من ديوانه (اجتدارك) (١٠٦) .

خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿ (الشورى: ٥٦) واستمع إلى الشاعر البائس يتحدث عن الموت والمصير :

إن يك الموت قصاصاً أي ذنب للطهارة ؟  
 وإن كان ثوباً، أي فضل للذةارة  
 وإذا كان وما فيه جزاء أو خسارة  
 فلم الأسماء إنم وصلح  
 لست أدري

إن يك الموت رقاداً بعده صححو طويل  
 فلماذا ليس يفتى صحونا هذا الجميل  
 ولماذا المسره لا بدري متى وقت الرحيل  
 ومتى ينكشف الستر فيدري ؟  
 لست أدري

إن يك الموت هجوعاً يملأ النفس ملاماً  
 وانعتاقاً لا اعتفقالاً وابتداء لا اختاماً  
 فلماذا لا أعشق النوم ولا أهوى الحماما ؟  
 ولماذا تجزع الأرواح منه  
 لست أدري

أوراء القبر بعد الموت بعث ونشور ؟  
 فحياة، فخلود، أم فناء فدثور ؟  
 اكلام الناس أصدق أم كلام الناس زور ؟

أصبح أن بعض الناس يدري

لست أدري

إن أكن أبعث بعد الموت جسماناً وعقلاً

أترى أبعث بعضاً أم ترى أبعث كلاً

أترى أبعث طفلاً أم ترى أبعث كهلاً ؟

ثم هل أعرف بعد الموت ذاتي ؟

لست أدري (١)

(لست أدري) تلك هي الإجابة عن التساؤلات الخالدة وليست هي قولة شاعر فحسب (فسقراط) الفيلسوف الذي بعد من عمالقة الفلاسفة، يقول بصريح العبارة (الشيء الذي لا أزال أجهله جيداً أنني لست أدري) (٢) بل أن اللا أدريه) مذهب فلسفي قديم.

إنه الضلال: الضلال عن الحقيقة إنه الشقاء، شقاء القلب وتعاسة النفس وضياح الضمير المشغل المكدود، وكم في الحياة من أمثال هذا الشاعر البائس الضال بعضهم يستطيع أن يفصح عن شقوته، وحيرته، وبعضهم يحس ويعاني وتبقى أفكاره حية نفسه الشقية (٣).

بالإسلام وحده يصبح الإنسان يدري، يدري من أين جاء، وإلى أين المصير، يدري لماذا هو موجود وما دوره في هذه الحياة . قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يُعَشِّي مَكِبًا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يُعَشِّي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الملك: ٢٢) إن البشرية تخيطت في دياجير الظلام، وانتكست في مهاوي الشرك وضلت عن سواء السبيل، انحرفت عن منهج التوحيد، الذي جاءت به الأنبياء والمرسل، فأصيبت البشرية في عقولها وفكرها

(١) هو إيتنا أبو ماضي من قصيدة له طويقة بعنوان (الظلام) من ديوانه (الجنادول) (١-٧).

(٢) الدين لدراز: (٦٩).

(٣) انظر: العقيدة في الله ص (١٥).

وقلبها بالشرك وما ينبثق عنه من ضياع في المنهج والفكر والعقيدة والأخلاق، فانحرفت اليهودية عن التوحيد الذي جاء به موسى عليه السلام، على دراية من أحبارهم وعلمائهم ولذلك غضب الله عليهم، وأضاعت النصارى الحق الذي جاء به عيسى عليه السلام فضلوا سواء السبيل .

فأصبحت البشرية في ظلمة شديدة قبل نزول القرآن ويزوغ فجر الإسلام كانت البشرية قبل نزول القرآن تعج بركام العقائد والتصورات المنحرفة في ذات الله وفي الكون وفي الحياة وفي الإنسان وفي الموت وفي الجزاء وفي الحساب وفي الكتب السماوية وفي رسل الله وفي أقدار الله وقضائه وأصبحت البشرية بين إفراط وتفريط بعيدة عن الصراط المستقيم حادت عن الوسطية والاعتدال، والاستقامة فبعض البشر زعم أن الملائكة بنات الله، ثم عبدوا الملائكة كما فعل مشركو العرب، وبعضهم قالوا عزير ابن الله كما فعلت اليهود، ووصف المولى عز وجل بصفات لا تليق به من صفات النقص وشبهه بمخلوقاته، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

وشاعت بين البشرية عبادة الأصنام، إما بوصفها تماثيل للملائكة، وإما بوصفها تماثيل للأجداد، وإما لذاتها، وكانت الكعبة التي بنيت لعبادة الله وحده، تعج بالأصنام، إذ كانت تحتوي على ثلاثمائة وستين صنماً . غير الأصنام الكبرى في جهات متفرقة .

ومما يدل على أن اللات والعزى ومناة كانت تماثيل للملائكة ما جاء في القرآن الكريم في سورة النجم ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ (٦٩) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٧٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٧١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٧٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ (٧٣) أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّىٰ (٧٤) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ (٧٥) وَكَمْ مِنْ مُلْكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُرِضَىٰ (٧٦) إِنْ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ (٧٧) وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً (٧٨) ﴾ (النجم: ٦٩ - ٧٨) .

وانتشرت بين الناس عبادة الكواكب، وكانت قبيلة حمير تعبد الشمس وكنانة القمر، ولخم وجذام المشتري، وطبي سهيلاً، وقيس العبور، وأسد عطار.

وقد جاء عن هذا في سورة فصلت: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (نصت: ٣٧) وجاءت في سورة النجم: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرِيِّ﴾ (النجم: ٤٩) وكثرت الإشارات إلى خلق النجوم وربوبية الله سبحانه لها كبقية خلافته، وذلك لنفي ألوهية الكواكب وعبادتها، لقد سادت الصورة الشائنة للتصورات في الجزيرة العربية حيث بلاد الشام والرومان حيث النصرانية المحرفة، واليهودية المغضوب عليها وأصبحت البشرية شرقاً وغرباً، وجنوباً وشمالاً تعج بركام من بقايا العقائد السماوية المحرفة، ويحتم على ضمير البشرية في كل مكان، والذي كانت تنبثق منه أنظمتهم وأوضاعهم وآدابهم وأخلاقهم<sup>(١)</sup>.

من ثم كانت عناية الإسلام الكبرى موجهة إلى تحرير أمر العقيدة وتحديد الصورة الصحيحة التي يستقر عليها الضمير البشري في حقيقة الألوهية، وعلاقتها بالخالق، وعلاقة الخالق بها . . . فتستقر عليها نظمهم وأوضاعهم وعلاقتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وآدابهم وأخلاقهم كذلك، فلا يمكن أن تستقر هذه الأمور كلها، إلا أن تستقر الألوهية وتبين خصائصها واختصاصاتها.

وعنى الإسلام (في أصله الكتاب والسنة) بإيضاح طبيعة الخصائص والصفات الإلهية المتعلقة بالخلق والإرادة والهيمنة والتدبير . . . ثم بحقيقة الصلة بين الله والإنسان . . . فلقد كان معظم الركام في ذلك الشبه الذي تخبط فيه العقائد والفلسفات، مما يتعلق بهذا الأمر الخطير الأثر في الضمير البشري وفي الحياة الإنسانية كلها .

فالذي يعرف الجاهلية هو الذي يدرك قيمة الإسلام، ويعرف كيف يحرص على رحمة الله المتمثلة فيه، ونعمة الله المتحققة به، إن جمال هذه العقيدة وكمالها

(١) انظر: خصائص الصور الإسلامي ومقوماته (٤٢) .

وتناسقها وبساطة الحقيقة الكبيرة التي تمثلها . . . إن هذا كله لا يسجل للقلب والعقل، كما يتجلى من مراجعة ركाम الجاهلية - السابقة للإسلام واللاحقة - عندئذ تبدو هذه العقيدة رحمة . . . رحمة حقيقية . . . رحمة للقلب والعقل . ورحمة بالحياة والأحياء . رحمة بما فيها من جمال وبساطة، ووضوح وتناسق، وقرب وأنس، وتجارب مع الفطرة مباشر عميق<sup>(١)</sup> .

خامساً: هل تطورت العقيدة عبر الزمان ؟

يرى كثير من الباحثين الغربيين أن الإنسان لم يعرف العقيدة على ما يعرفها عليه اليوم مرة واحدة، ولكنها ترقى وتطورت في فترات وقرون متعاقبة، ولا عجب أن يقول بهذا الإفك من لم يمنحهم الله كتابه الذي بين فيه تاريخ العقيدة بوضوح لا لبس فيه إلا أن الغريب أن يسلك هذا المذهب رجال يعدون أنفسهم ويعدهم غيرهم باحثين مسلمين .

ومن أمثال أولئك عباس محمود العقاد الذي يرى في كتابه (الله) وهو كتاب يبحث في نشأة العقيدة الإلهية: أن الإنسان ترقى في العقائد، ويرى أن ترقى الإنسان في العقائد موافق تماماً لترقيه في العلوم .

يقول: (كانت عقائد الإنسان الأولى مساوية لحياته الأولى، وكذلك كانت علومه وصناعاته، فليست أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل الأديان والعبادات، وليست عناصر الحقيقة في واحدة منها بأوفر من عناصر الحقيقة في الأخرى)<sup>(٢)</sup> .

بل يرى أن تطور العقيدة لدى الإنسان كان أشق من تطور العلوم والصناعات ويقول: وينبغي أن تكون محاولات الإنسان في سبيل الدين أشق وأطول من محاولاته في سبيل العلوم والصناعات، لأن حقيقة الكون الكبرى أشق مطلباً وأطول طريقاً من حقيقة هذه الأشياء المتفرقة التي يعالجها العلم تارة والصناعة تارة أخرى .

(١) انظر: المرجع السابق ، (٤٦) .

(٢) العقيدة في الله ص (٢٤٣) نقلاً عن كتاب الله (العقائد) .

ويرى أن الحقيقة الإلهية لم تتجلى للناس مرة واحدة يقول: (فالرجوع إلى أصول الأديان في عصور الجاهلية الأولى لا يدل على بطلان التدين، ولا على أنها تبحث عن محال، كل ما يدل عليه أن الحقيقة الكبرى أكبر من أن تتجلى للناس كاملة في عصر واحد) (١).

ثم أخذ يستعرض آراء الباحثين في تاريخ العقيدة، فمنهم من يرى أن السبب في نشأة العقيدة هو ضعف الإنسان بين مظاهر الكون وأعدائه من قوى الطبيعة والأحياء بعضهم يرى أن العقيدة الدينية عبادة (الطوطم)، كأن تتخذ بعض القبائل حيواناً (ضوطمياً) تزعمه أباً لها، وقد يكون شجراً أو حجراً يقدسونه، إلى آخر تلك الفروض التي قامت في أذهان الباحثين الغربيين .

ومع الأسف فقد سرت هذه النظرية إلى بعض الكتاب مثل مصطفى محمود في كتابه (الله) واعتنتها جملة من الدارسين والذي أوقع هؤلاء في هذا الخطأ أمور:

الأول: أنهم ظنوا أن الإنسان اهتدى إلى العقيدة بدون معلم يعلمه ومرشد يوضح له: فما دام الأمر كذلك فلا بد أن يترفى في معرفته بالله كما ترفى في العلوم والصناعات .

ثانياً: أنهم قدروا أن الإنسان الأول خلق خلقاً ناقصاً غير مؤهل لأن يتلقى الحقائق العظمى كاملة، بل إن تصوراتهم عن الإنسان الأول تجعله أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان .

الثالث: أنهم عندما بحثوا في الأديان ليتبينوا تاريخها لم يجدوا أمامهم إلا تلك الأديان المحرفة أو الضالة فجعلوها ميدان بحثهم، فأخضعوها للدراسة والتمحيص، وأنى لهم أن يعرفوا الحقيقة من تلك الأديان التي تمثل انحراف الإنسان في فهم العقيدة (٢).

(١) المرجع السابق (٢٤٤) .

(٢) المرجع السابق (٢٤٤-٢٤٥) .



## سادساً: القرآن وحده يوضح تاريخ العقيدة .

ليس هناك كتاب في الأرض يوضح تاريخ العقيدة بصدق إلا كتاب الله سبحانه وتعالى ففيه علم غزير في هذه الموضوع، وعلم البشر لا يمكن أن يدرك هذا الجانب إدراكًا وافياً لأسباب:

الأول: أن ما نعرفه عن التاريخ الإنساني قبل خمسة آلاف عام قليل، أما ما نعرفه قبل عشرة آلاف عام فيعتبر أقل من القليل، وما قبل ذلك يعتبر مجاهيل لا يدري علم التاريخ من شأنها شيئاً، لذا فإن كثيراً من الحقيقة ضاع بضائع التاريخ الإنساني .

الثاني: أن الحقائق التي ورثها الإنسان اختلطت بساطل كثير، بل قد ضاعت في أمواج متلاطمة في محيطات واسعة من الزيف والدجل والتحريف، وما يدل على ذلك كتابة تاريخ حقيقي لشخصية أو جماعة ما في العصر الحديث تعتبر من أشق الأمور، فكيف بتاريخ يمتد إلى فجر البشرية ؟

الثالث: أن قسماً من التاريخ المثلب بالعقيدة لم يقع في الأرض، بل في السماء<sup>(١)</sup> لذا كان الذي يستطيع أن يمدنا بتاريخ حقيقي لا ليس فيه هو الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ (آل عمران: ٥) .

## تاريخ العقيدة كما يرويه القرآن الكريم:

أعلمنا الله سبحانه أنه خلق آدم خلقاً مستقلاً سوياً متكاملأً، ثم نفخ فيه من روحه، وأسكنه جنته، وأباح له أن يأكل هو وزوجه منها كيف يشاء إلا شجرة واحدة، فأغراه عدوه إبليس بالآكل من الشجرة، فأطاع عدوه، وعصى ربه فأهبطه الله من الجنة إلى الأرض، وقبل الهبوط وعده الله سبحانه بأن ينزل عليه وعلى ذريته هداية كي يعرف الإنسان بربه ومنهجه وتشريعه ووعد المستجيبين بالهداية في الدنيا والسعادة في الآخرة، وتوعد الله المنكبرين بالمعيشة الضنكة في الدنيا وبالشفاء في الآخرة ﴿فَلَمَّا أَهْبَطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَأَمَّا يَا تَيْكُم مِّتِي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ

(١) المرجع السابق (٢٤٥) .

وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿  
 (البقرة: ٣٨ - ٣٩) . وفي سورة طه يقول سبحانه: ﴿ قَالَ اهْبِطْ مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ  
 عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى لِّمَنِ اتَّبَعْ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٢) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِّي  
 ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ  
 كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ﴿ (طه: ١٢٢ - ١٢٥) .

سابعاً: الجليل الأول كان على التوحيد .

هبط آدم إلى الأرض، وأنشأ الله من ذريته أمة كانت على التوحيد الخالص كما  
 قال تعالى: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ أي على التوحيد والدين الحق، فاختلغوا  
 ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا  
 اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ (البقرة: ٢١٣) .

وفي حديث أبي أمامة أن رجلاً سأل الرسول ﷺ قال: «يا رسول الله أتبي  
 كان آدم؟ قال: نعم، مكلم، قال: فكيف بينه وبين نوح؟ قال: عشرة قرون». وذكر  
 ابن عباس رضي الله عنهما: إن كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام<sup>(١)</sup> .

ومقدار القرن مائة سنة وعلى ذلك يكون بين آدم ونوح ألف سنة وقد تكون المدة  
 أكثر من ذلك إذ قيد ابن عباس هذه القرون العشرة بأنها كانت على الإسلام، فلا  
 ينفي أن يكون بينهما قرون أخرى على غير الإسلام . وقد يكون المراد بالقرن الجليل  
 من الناس قال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴾ (الإسراء: ١١٧) وقوله:  
 ﴿ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ (المؤمنون: ٣١) .



(١) تفسير الطبري (٢ / ٣٢٥ - ٣٢٦) .

## الفصل الثاني

### وسطية القرآن في باب توحيد الله وأسمائه وصفاته

تمهيد: إن التأمل في كتاب الله تبارك وتعالى وما جاء فيه عن دعوات الرسل وما أنزل عليهم من الكتب ليخرج بحقيقة واحدة، أطبق عليها جميع الرسل، وأنزلت بها جميع الكتب السماوية، هذه الحقيقة هي: الدعوة إلى توحيد الله وعبادته دون سواه، فهي أسس الرسالات وعمودها الفقري، وهي القاسم المشترك بينها، وإن اختلفت بعد ذلك الشرائع والمناهج فما من نبي أرسل ولا كتاب أنزل إلا وكان أول ما يدعو إليه هو توحيد الله تبارك وتعالى .

يقول الله عز وجل في تقرير هذه الحقيقة:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ﴾ (النحل: ٣٦) وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٢٥) .

وإذا استعرضنا القرآن الكريم في حديثه عن رسل الله عليهم الصلاة والسلام نجد أن كل رسول قال لقومه: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (المؤمنون: ٢٣ ، الأعراف: ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٥) . ابتداء من أولهم نوح عليه السلام، وانتهاء بخاتمهم نبينا محمد ﷺ .

فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام دينهم واحد، وهو الإسلام وشرائعهم مختلفة كما قال المصطفى ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد» (١) .

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب «واذكر في الكتاب مريم» (٦ / ٤٧٨) .

قال الحافظ ابن حجر: (ومعنى الحديث: أن أصل دينهم واحد وهو التوحيد وإن اختلفت فروع الشرائع، وقيل: المراد أن أزمعتهم مختلفة) (١).

وقال الحافظ ابن كثير في معنى الحديث: (أي: القدر المشترك بينهم وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن اختلفت شرائعهم ومنهاجهم) (٢).

لقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (البقرة: ٤٨).

وكل الأنبياء أخبروا بأنهم مسلمون ودعوا قومهم للإسلام؛ لأنه الدين الحق الذي لا يقبل الله غيره:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (آل عمران: ٦٩) ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا قُلْنَا يَقْبَلُ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: ٨٥).

وهذا يدل على أن دين جميع الأنبياء واحد وهو الإسلام ودعوتهم واحدة وهي الدعوة لتوحيد الله عز وجل وإفراده بالعبادة، على هذا مضى رسل الله والمسلمون من أمهم، ولكن قومهم غيروا وبدلوا بعدهم وحرفوا وأدخلوا في دين الله ما لم يأذن به الله، وشمل التحريف والتبديل أساس دعوة الرسل، وهو التوحيد، وما يتعلق بذات الله عز وجل من الأسماء والصفات فتفرقت الأمم في ذلك ما بين مُفْرِطٍ، ومُفَرِّطٍ، وغال ومقصر لإعراضهم عن هدي المرسلين واتباعهم غير سبيل المؤمنين.

ومن أعظم الأمم اختلافاً وضلالاً في هذا الباب، أمنا اليهود والنصارى، فاليهود غلب عليهم التقصير والتفريط والجفاء، وإن كان لديهم غلو وإفراط، والنصارى غلب عليهم الغلو والإفراط وإن كان وقع منهم تفريط وتقصير في جوانب، والمسلمون اتبعوا الرسل، فهدوا لأقوم السبل، فكان قولهم هدى بين ضلالتين، وحقاً بين باطلين، فهو كلب سائق يخرج من بين فرث ودم. وإليك البيان في ما ذهبت إليه كل من هذه الأمم الثلاث في هذا الباب (٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٧ / ١٨٣).

(١) فتح الباري (٦ / ٤٨٩).

(٣) رسيطة أهل السنة بين الفرق (٢٤٢-٢٤٣).

## المبحث الأول

### موقف أمة اليهود

عرفنا مما تقدم أن أمة يهود، أمة غلب عليها طابع التفريط والتقصير في هذا الباب، بل هو الغالب عليهم في أكثر الأبواب:

ولعل من أبرز مظاهر تفريطهم وتقصيرهم في هذا الباب أمرين:

الأول: اتخاذهم الأنداد لله عز وجل، وعبادة الأصنام.

والثاني: إغراقهم في تشبيه الخالق بالمخلوق، ووصف الله عز وجل بالمقائض التي لا تليق إلا بالمخلوق.

فأما الأمر الأول: وهو اتخاذهم الأنداد وعبادة الأصنام، فإن النجوم لما أنقذهم الله من عدوهم فرعون وجنوده، وجاوز بهم البحر مع موسى عليه السلام، وأغرق عدوهم على مشهد منهم، ومروا على قوم يعكفون على أصنام لهم، عالت نفوسهم إلى الوثنية وطالبوا موسى عليه السلام أن يجعل لهم مثلها: يقول الله جل وعلا في ذلك: ﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (الاعراف: ١٣٨) ثم بين لهم موسى عليه السلام ضلال أولئك وبطلان عملهم، وأن الإله الحق هو الله الذي فضلهم على العالمين فقال: ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ وَيَاطِلُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٣٩) قال أغير الله أبغىكم إليها وهو فضلكم على العالمين ﴿ (الاعراف: ١٣٩ - ١٤٠).

١ - اتخاذهم العجل في زمن موسى:

لم يلق نصح موسى عليه السلام وتذكيره ووعظه من القوم قلبًا واعيًا أو أدنا صاغية، فما أن تركهم عليه السلام وذهب إلى ربه يناجيه، حتى اتخذوا العجل من بعده إلهًا من دون الله قال تعالى: ﴿ وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلِمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ (الاعراف: ١٤٨)

﴿وَأَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (البقرة: ٥١) ثم بين تعالى من تولى كبر إضلالهم وصناعة العجل لهم، فقال: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ (٨٥) فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يعل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم مؤعدي (٨٦) قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ونكنا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقدفتناها فكذلك ألقى السامري (٨٧) فأخرج لهم عجلًا جسداً له خواراً فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فتسبي ﴿ (ط: ٨٥ - ٨٨) .

فبين تعالى أن الذي عمل لهم العجل هو السامري، ومن العجيب أن كتاب العهد القديم ينسب هذا العمل الشنيع إلى هارون عليه السلام كما جاء في (سفر الخروج) (١) .

ولقد تكرر من القوم، اتخاذ الأصنام وعبادتها بعد موسى عليه السلام .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : (وأهل الكتاب معترفون بأن اليهود عبدوا الأصنام مرات - ١٠٠ - ) (٢) .

وفي كتاب العهد القديم، إشارات كثيرة لعبادتهم الأوثان والأصنام، من ذلك .

١ - ما جاء في (سفر الملوك الثاني) عن عودتهم لعبادة العجل في عهد رحبعام (٣) بقول السفر: ( ١٠٠٠ ) وعمل عجلي ذهب وقال لهم: كثير عليكم أن تصعدوا إلى أورشليم هو ذا أكهتك يا إسرائيل الذين اصعدوك من أرض مصر ووضع واحداً في بيت أبل، وجعل الآخر في دان) (٤) .

٢ - عبادتهم الأفعى وبعض التماثيل:

يذكر (سفر الملوك الثاني) عن الملك حزقيال أنه: (أزال المرتفعات وكسر التماثيل

(١) انظر: العهد القديم، سفر الخروج من إصحاح (٣٢) فقرة (١-٦) .

(٢) الجواب الصحيح من يدل دين المسيح (٣ / ٢٤٧) .

(٣) هو رحبعام بن سليمان عليه السلام ملك بعد أبيه .

(٤) سفر الملوك الأول، إصحاح (١٢)، فقرة (٢٨-٢٩) .

وقطع السوازي وسحق حية التحاسن التي عملها موسى ؛ لأن بني إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها (١٠٠) (١) .

على أن موسى عليه السلام لم يعمل تمثالاً تحاسياً لحية، وإنما كانت عصاه تنقلب إلى حية تسمى معجزة له، ثم تعود سيرتها الأولى بعد ذلك عصاً ينوكاً عليها ويهشُّ بها على غنمه، لكن لعل بني إسرائيل عملوا ذلك ونسبوه إلى موسى عليه السلام لتروج عند الناس ويعظموها ويعبدوها .

وأما الأمر الثاني: وهو قولهم بالتشبيه ووصف الخالق بصفات المخلوق:

وهذا أمر مشهور عنهم، حتى عدّه الشهرستاني<sup>(٢)</sup> من طباعهم الملازمة لهم، فإن القوم أسرفوا في تشبيه الله عز وجل بالمخلوق ووصفوه جل وعلا بالثقائق التي تختص بالمخلوق .

ولقد سجل عليهم القرآن الكريم صوراً من ذلك، وكتابهم الذي بين أيديهم ينضح بالكثير من ذلك، ونحن نذكر فيما يلي نماذج من أقوالهم التي شبهوا فيها الخالق عز وجل بخلقه .

١ - فمن ذلك: (وصفهم الله بالفقر) .

وهي صفة لا تليق بخالق البشر، ولكن القوم لا عقول لهم ولا حياة عندهم، يقول عز وجل في ذلك: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَتَقَوْلُ زُوفُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (آل عمران: ١٨١) .

٢ - ومن ذلك: (وصفهم له بأن يده مغلولة) .

قال عز وجل ذكراً قولهم هذا: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُفَقُّ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ (الاحزاب: ٦٤) .

(١) بصحاح (١٨)، فقرة (٤) .

(٢) انظر: الملل والنحل (١ / ١٠٦)، هو ابو الفتح عبد الكريم توفى (٥٤٨هـ) .

٣ - وصفوه بأنه: (يحزن، ويندم على أفعاله) تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

يصفه (سفر التكوين) بذلك فيقول: (ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم فحزن الرب أنه عمل الإنسان الذي خلقه، الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء، لأنني حزنت أنني علمتهم) (١).

٤ - ووصفوه: (بالتعب والاستراحة) تعالى عن ذلك .

جاء في (سفر الخروج): (أذكر يوم السبت لتقدس، ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك، لا تصنع عملاً أنت وابنك وابنتك وعبيدك وأمتك وبهيمنتك، وتريلك الذي داخل أبوابك ؛ لأن في ستة أيام صنع الرب الأرض والسماء والبحر وكل ما فيها واستراح في اليوم السابع لذلك بارك الرب اليوم السابع وقدمه) (٢) وفي سفر (التكوين): (فأكملت السموات والأرض وكل جندها وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل واستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل) (٣).

٥ - وقالوا: (بأنه إنسان وصارع يعقوب عليه السلام إلى الفجر) .

ففي (سفر التكوين): (سبقي يعقوب وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر، ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب فخذه فانخلع حتى فخذ يعقوب في مصارعة معه، وقال: أطلقني لأنه قد طلع الفجر، فقال: لا أطلقك إن لم تباركني فقال له: ما اسمك؟ فقال يعقوب، فقال: لا يدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل إسرائيل ؛ لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت . . . فدعا يعقوب اسم المكان فيثيل قائلاً: لأنني نظرت الله وجهاً لوجه ونجيت نفسي) (٤).

(١) إصحاح (٦)، فقرة (٥-٨) .

(٢) إصحاح (٢٠)، فقرة (١-١٧) .

(٣) إصحاح (٢)، فقرة (١-٢) .

(٤) إصحاح (٣٢)، فقرة (٢٤-٣٠) .



٦ - وصفوه بما يفيد أنه « (لا يعلم الغيب ويحتاج علامات يميز بها بني إسرائيل من غيرهم ، فوضع الدم علامة على بيوت بني إسرائيل ليميزها عن بيوت المصريين حتى لا يهلكهم) . ففي (سفر الخروج): (أن الرب كلم موسى عليه السلام وقال له فيما قال: فإني أجتاز في أرض مصر هذه الليلة وأضرب كل بكر في أرض مصر من الناس والبهائم ، وأصنع أحكاماً بكل آلهة المصريين أنا الرب، ويكون لكم الدم علامة على السموات التي أنتم فيها فأرى الدم وأعبر عنكم فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب أرض مصر) <sup>(١)</sup> .

٧ - أنهم: جعلوا له أبناء كما أن للمخلوق أبناء .

جاء في (سفر التكوين): (وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا) <sup>(٢)</sup> . وحكى الله عز وجل عنهم أنهم جعلوا له ابناً فقال: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ ﴾ (البقرة: ٣٠) .



(١) سفر الخروج، إصحاح (١٢)، فقرة (١٢-١٣) .

(٢) إصحاح (٦)، فقرة (١-٢) .

## المبحث الثاني

### موقف النصارى

لقد ضلت أمة النصارى في هذا الباب ضلالاً بعيداً، ولعل أمة من الأمم لم تضل في دينها وربها والهها كما ضل الذين قالوا إنا نصارى . ولا عجب فالضلالة صفتهم المميزة لهم، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في قوله: «اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضلال»<sup>(١)</sup> . قال ذلك في تفسير قول الله عز وجل: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة: ٧) ولعل من أعظم ضلالهم في باب توحيد الله وصفاته أنهم:

#### ١ - شبهوا المخلوق بالخالق:

وأضفوا عليه من الصفات والخصائص ما لا يليق إلا بالله عز وجل ولا يصلح إلا له سبحانه فوصفوا المخلوق بصفات الخالق المختصة به، فقالوا: (إنه يخلق، ويرزق، ويغفر، ويرحم، ويتوب على الخالق ويتوب ويعاقب)<sup>(٢)</sup> وهذه الصفات من خصائص الربوبية، وصفات الألوهية التي لا تكون إلا لله سبحانه .

وذلك أن هذه الأمة الضلالة، جعلت المسيح عليه السلام هو الله، كما ذكر الله عز وجل قولهم هذا وكفرهم به فقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ (النساء: ١٧) وتارة جعلوه ابناً لله سبحانه وتعالى عما يقول المبطلون، وعن قولهم هذا يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّى ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (التوبة: ٣٠) .

وقالوا تارة أخرى إنه شريك لله وجزء من ثلاثة يتكون منها الإله كما ذكر الله قولهم هذا وكفرهم به أيضاً فقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ

(١) الترمذي: كتاب التفسير، باب من سورة الفاتحة (٥ / ٢٠٤) .

(٢) الوصية الكبرى، لاسر تسمية، (٤) .

إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٢﴾ (البقرة: ٧٢)  
 فالهوا المسيح عليه السلام وجعلوه شريكًا لله، وعبدوه من دونه، بل وصفوه بأخص  
 صفات الألوهية والربوبية من الخلق والرزق والإحياء، والإماتة؛ وبذلك فاقوا عباد  
 الأصنام والأوثان الذين قالوا في معبوداتهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾  
 (الزمر: ٢٤) ولم يضيفوا إليها شيئًا من خصائص الربوبية كالخلق والرزق ونحو ذلك، بل  
 أقروا بكل ذلك لله وحده كما قال عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ  
 يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ  
 الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (يونس: ٣١) ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ  
 وَالْأَرْضَ وَنَسَخَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (التكوير: ٦١) ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ  
 مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا  
 يَعْقِلُونَ﴾ (التكوير: ٦٣) ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ  
 بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (النساء: ٢٥).

أما هؤلاء فلما سألتهم عن شيء من ذلك ليقولن المسيح، فهو عندهم الإله  
 الخالق المحي المميت، باعث الرسل، ومنزّل الكتب، حكى الإمام ابن القيم عنهم  
 أنهم قالوا (وليس المسيح عند طوائفنا الثلاثة هكذا). بنبي ولا عبد صالح، بل هو  
 رب الأنبياء وخالقهم وباعثهم ومرسلهم ونامرهم، ومؤيدهم ورب الملائكة<sup>(١)</sup>.  
 وفي قرارهم الذي قرروه في (مجمع نيقية)<sup>(٢)</sup> الذي عقدوه سنة ٣٢٥م وسموه بـ  
 (الإماتة) ونصوا فيه على ألوهية المسيح عليه السلام، وصرحوا بأنه هو الذي سينزل  
 للقضاء بين الناس يوم القيامة ومحاسبتهم ومجازاتهم فقالوا: (وهو مستعد للمجيء  
 تارة أخرى للقضاء بين الناس يوم القيامة ومحاسبتهم ومجازاتهم) وقالوا: (وهو  
 مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء)<sup>(٣)</sup>.

(١) هداية الخياري (٢٦٩).

(٢) سمي بذلك نسبة إلى مدينة نيقية من أعمال إسطنبول التي اجتمع بها عدد من علماء النصارى، وكان من قراراتهم  
 القول بالهبة المسيح.

(٣) انظر: أشهر سني، الملل والنحل، (٢ / ٢٨).

يقول أحد قساوستهم في رسالة إلى أبي عبيدة الخزرجي<sup>(١)</sup>، مصرحاً بالوهمية المسيح وأنه خالق السموات والأرض: (أما بعد حمد الله الذي هدانا لدينه، وأيدنا يمينه، وخصنا بآيته ومحبوته، ومد علينا رحمته بصلبه المسيح إلهنا، الذي خلق السموات والأرض وما بينهما، والذي أمدنا بدمه المقدس ومن عذاب جهنم وفانا . . .) (٢).

وقال مخاطباً أبا عبيدة داعياً إياه للإيمان بالوهمية المسيح الخالق: (وما عقتادكم كلها إلا حسنة، وكان عندكم عدل كثير في أصل دينكم، وخير شامل، فلو آتتم بالمسيح وقتتم: إنه هو الله خالق السموات والأرض لكمل إيمانكم) (٣).

وهكذا نرى النصارى يصفون المسيح عليه السلام بصفات الربوبية المختصة برب العالمين عز وجل، وهذا أمر انفردوا به من بين العالمين، ولم يقتصر الأمر على المسيح عليه السلام، بل جعلوا لغيره من الخلق بعض صفات الله تبارك وتعالى، فجعلوا مريم عليها السلام آلهة؛ لأنها أم الله بزعمهم، ووصفوها بالجلوس على العرش مع الله عز وجل، وسألوها ما لا يسأل إلا من الله عز وجل.

يقول الإمام ابن القيم: (وأما قولهم في مريم: فإنهم يقولون إنها أم المسيح ابن الله ووالدته في الحقيقة . . . وأنها على العرش جالسة عن يسار الرب تبارك وتعالى والد ابنها، وابنها عن يمينه، قال: والنصارى يدعونها، ويسألونها سعة الرزق وصحة البدن وطول العمر ومغفرة الذنوب) (٤).

وهذه الأمور لا يملكها إلا الله عز وجل ولا يسألها إلا هو سبحانه، ولقد أشار القرآن الكريم إلى قول النصارى بالوهمية مريم في قوله تبارك وتعالى مخاطباً عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَنْتَ لِنَاسٍ آتِخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ

(١) هو أبو جعفر أحمد بن عبد الصمد بن أبي عبيدة الخزرجي الساعدي كان مشهوراً بالذكاء والنبيل، مات يقاس بالقرب عام ٥٨٢ هـ.

(٢) أبو عبيدة الخزرجي، بين المسيحية والإسلام، ص (٧٢).

(٣) نفس المصدر (٨٧).

(٤) هدية الحياى (٢٦٦).

دُونَ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قَائِلُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ .

بل خصوا كنائسهم وبابواتهم ومطارنتهم ببعض خصائص الله عز وجل كمغفرة الذنوب ودخول الجنة والحرمات منها ففي المجمع الثاني عشر من مجامعهم المعقود في سنة ١٢١٥م قرروا: (أن الكنيسة البابوية تملك الغفران وتمنحه لمن تشاء) (١) وبناء على هذا الفرار قامت الكنيسة بإصدار ما يسمى بـ (صكوك الغفران) .

يقول أحد قسهم في هذا: (وقد جعل الله في أيدي المطارين ما لم يجعله في يد أحد، وذلك أن كل ما يفعلون في الأرض بفعله الله في السماء، فإذا أذنبنا فهم الذين يقبلون التوبات ويعضون عن السيئات بأيديهم صلاح الأحياء والاموات) (٢) ماذا أبقوا لله عز وجل؟!!

٢ - ومن ضلالهم في هذا الباب أيضاً أنهم سبوا الخالق عز وجل وتنقصوه وذلك من وجهين:

الأول: قولهم إنه اتخذ ولداً، حيث قالوا: إن المسيح ابن الله، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ النَّصَارَى النَّمِيسُ بْنُ اللَّهِ ﴾ (البقرة: ١٣٠) وقد نزه الله عز وجل نفسه عن اتخاذ صاحبة والولد فقال: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلِداً سُبْحَانَ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانُونَ ﴾ (البقرة: ١١٦) وقال سبحانه: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلِداً (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدْأ (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَضَطَّرَّنُ مِنْهُ وَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدْأً (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلِداً (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلِداً (٩٢) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ (ريم: ٨٨ - ٩٢)، فأنكر قولهم، ونزه نفسه عن أن يكون له ولد .

وبين سبحانه في آية أخرى أن الولد لا يكون إلا من صاحبة، وهو سبحانه لا

(١) أبو زهرة، التصانيف (١٤٨) .

(٢) أبو عبيدة الخزرجي، بين المسيحية والإسلام، ص (٩١) .

صاحبه له، فقال عز وجل: ﴿بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام: ١٠١) .

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: (أي: كيف يكون له ولد، ولم تكن له صاحبه؟ أي: الولد إما يكون متولداً عن شيئين متناسلين، والله لا يناسبه ولا يشابهه شيء من خلقه، لأنه خالق كل شيء فلا صاحبة ولا ولد...) (١) .

وقد بين سبحانه في الحديث القدسي، أن من نسب إليه اتخاذ الولد فقد شتمه وسبه بقوله ذلك، ففي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «قال الله: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي، فزعم أنني لا أفدر أن أعبيده كما كان، وأما شتمه إياي فقولته: لي ولد فيحائي أن أتخذ صاحبة أو ولداً» (٢) .

الثاني: زعمهم أن الله سبحانه وتعالى عن قولهم علواً كبيراً (نزل من السماء وتجد من روح القدس وصار إنساناً وحبل به وولد من مريم البتول وقتل وصلب) (٣) .  
وقال القس القسوطي في رسالته إلى أبي عبيدة الخزرجي يشرح فيها مذهبه: ( . . . ) فهبط بذاته من السماء والتحم في بطن مريم العذراء البتول أم النور فانخذ لنفسه منها حجاباً كما سبق في حكيمته (٤) .

يقول الإمام ابن القيم: ( . . . ) إن هذه الأمة - أي: النصارى ارتكبت محذورين عظيمين، لا يرضى بهما ذو عقل ولا معرفة، أحدهما: الغلو في المخلوق، حتى جعلوه شريك الخالق وجزءاً منه، وإلهاً آخر معه، ونفوا أن يكون عبداً له .

والثاني: تنقص الخالق وسبه ورميه بالعظائم، حيث زعموا أنه سبحانه وتعالى عن قولهم علواً كبيراً - نزل من العرش عن كرسي عظمته، ودخل في فرج امرأة

(١) تفسیر ابن کثیر (٣ / ٣٠٦) .

(٢) البخاري، كتاب التفسير، باب «وقالوا اتخذ الله ولداً» . . . (٨ / ١٦٨، رقم ٤٤٤٨٢) .

(٣) انظر: الشهرستاني، الملل والنحل، (٢ / ٢٨) .

(٤) أبو عبيدة الخزرجي، بين السبحة والإسلام، ص (٨٣-٨٤) .

وأقام تسعة أشهر يتخبط بين البول والدم والنجو<sup>(١)</sup> وقد علتة أطباق المشيمة والرحم والبطن، ثم خرج من حيث دخل، رضيعاً صغيراً يمحس الثدي . . . ثم صار إلى أن لطمت اليهود خديه، وربطوا يديه، وبصقوا في وجهه وصفعوا قفاه، وصلبوه جهراً بين لصين، واليسوه إكليلاً من الشوك وسمروا يديه ورجليه، وجرعوه أعظم الآلام، هذا هو الإله الحق الذي بيده أتقنت العوالم وهو المعبود المسجود له، ولعمر الله إن هذه مسبة لله سبحانه ما سبه بها أحد من البشر قبلهم ولا بعدهم ( . . . ) .

وذكر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ أنه قال فيهم: (أهينوهم ولا تظلموهم، فلفد سبوا الله عز وجل مسبة ما سبه إياها أحد من البشر)<sup>(٢)</sup> .

وذكره شيخ الإسلام ابن تيمية من قول معاذ بن جبل رضي الله عنه<sup>(٣)</sup> .



(١) النجو: ما يخرج من البطن من ربح وغائط . انظر: لسان العرب (١٥ / ٣٠٦) .

(٢) زينة اللهبان من مصائد الشيطان (٢ / ٢٧٨) .

(٣) اجتراب الصحيح (٢ / ٥٢) .

## المبحث الثالث

## موقف المسلمين

أما هذه الأمة المسلمة فقولها في هذا الباب هو ما جاء به المرسلون من توحيد الله وإفراده بالعبادة، فأمنت بأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا إله غيره، ولا رب سواه، هو رب العالمين، وخالق الكون، ومدبره: ﴿لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: ٥٤) وتزهوه سبحانه عن الأنداد، واتخاذ صاحبة والأولاد، تصديقاً لقوله تعالى عن نفسه: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ مُبْجَانٌ اللَّهُ عَمَّا يُصَفُونَ﴾ (المؤمنون: ٩١)، وقالوا كما قال مؤمنو الجن: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ (الجن: ٣) وقوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝﴾ (٢) ولم يكن له كفواً أحدٌ﴾ (الإخلاص) .

ورصفوه سبحانه بصفات الكمال والجلال، وتزهوه عن جميع صفات النقص، كما تزهوه عن أن يماثله شيء من المخلوقات في شيء من الصفات (١) ولم يصفوه إلا بما وصف به نفسه سبحانه، أو وصفته به رسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، من غير تعظيم ولا تمثيل فلم يشبهوه بشيء من خلقه لا في ذاته ولا في صفاته - كما فعل اليهود - بل قالوا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١٦) . ولم يشبهوا شيئاً من خلقه به، لا في ذاته ولا في شيء من صفاته، ولم يجعلوا له نظيراً أو نداً أو مثيلاً أو شريكاً في شيء من خصائص الوهية وربوبيته - كما صنع النصارى - بل تزهوه سبحانه عن الشبيه والنظير والكفء والند والمثيل (٢) .

وإذا تأملت سورة الإخلاص وجدت بها صفات الكمال لله سبحانه وتعالى وهو

(١) منهاج السنة لابن تيمية (٥ / ١٦٩) .

(٢) وسطية أهل السنة بين الفرق (٢٥٨) .



أنه المنفرد بها وحده دون ما سواه قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (الإخلاص) ففي هذه السورة وصف الله سبحانه نفسه بأنه أحد صمد، فهذان الوصفان يدلان على اتصاف الله بغاية الكمال المطلق (١).

وذكر أبو هريرة في معنى الصمد: (أنه المستغني عن كل أحد والمحتاج إليه كل أحد) (٢).

ومن خلال قول أبي هريرة في معنى الصمد يدل على الإثبات والتنزيه، فالإثبات بوصفه سبحانه بأنه هو الذي يصمد إليه أي: يرجع إليه في كل أمر، وذلك لأنه هو المتصف بجميع صفات الكمال، فهو القادر على كل شيء، والفعال لما يريد، والذي بيده الخلق والأمر والجزاء، وما من قوة لغيره تعالى إلا يهيئته منه، إذا شاء أبغها ومتى شاء سلبها فالمرجع والمرد إليه سبحانه (٣).

وأما التنزيه، فبوصفه تعالى بأنه غني عن كل شيء فلا افتقار فيه بوجه من الوجوه، لا في وجوده فإنه الأول الذي ليس قبله شيء وهو الذي لم يلد ولم يولد، ولا في بقاءه فإنه الذي يُطعم، ولا في أفعاله فلا شريك ولا ظهير (٤).

كما أن وصفه سبحانه بأنه أحد صمد يدل على اتصافه بالكمال المطلق وكذلك يدلان على معنى آخر وهو نفي الولادة والتولد عن الله سبحانه، فإن الصمد جاء في بعض الأقوال بأنه لا جوف له ولا أحشاء، فلا يدخل فيه شيء فلا يأكل ولا يشرب سبحانه وتعالى كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَعْبُدُوا اللَّهَ أُنْخَذُوا لِيَا فَاظِرُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُهُمْ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: ١٤) وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ

(١) علو الله في خلقه . بصرف (٢٨) .

(٢) تفسير القرطبي (٢ / ٢٤٥) .

(٣) علو الله على خلقه، بصرف (٢٨-٢٩) .

(٤) المرجع السابق (٢٨-٢٩) .

أَنْ يُظْعَمُونَ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿الذاريات: ٥٦-٥٨﴾ فإن الواحد هو الذي لا كفؤ له ولا نظير فيمتنع أن تكون له صاحبة .

والتولد إنما يكون من شيتين قال تعالى : ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿الانعام: ١٠١﴾ وفي قوله تعالى : ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفْوًا أَحَدٌ﴾ (الإخلاص: ٢) وفي هذا سلب عن المخلوق مكافأته ومماثلته للخالق ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (الأنعام: ١) أي يعدلون به غيره فيجعلون له من خلقه عدلاً .

ومثال هذا قوله تعالى : ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ (مريم: ٦٥) أي لا شيئاً يساميه ولا ندأ ولا عدلاً ولا نظيراً له يساويه ، فأنكر التشبيه والتشثيل وبهذا يتبين لنا أن تنزيهه سبحانه عن العيوب والنقائص واجب لذاته ، كما دلت على ذلك سورة الإخلاص (١) .



## المبحث الرابع

### مفهوم الإيمان كما جاء في القرآن

لا ريب أن مفهوم الإيمان عندما نصل إليه من خلال القرآن وتوضيح سيد الانام عليه أفضل الصلاة والسلام هي الوسطية بعينها في هذا الباب، وهي الاستقامة والاعتدال، لذلك حرصت على إيضاح مفهوم الإيمان كما جاء في القرآن والسنة خصوصاً وأن الناس قد وقعوا في الإفراط والتفريط لبعدهم عن الوحيين الكتاب والسنة .

#### أولاً: في حد الإيمان وتفسيره:

إن معرفة حدود الأشياء وتفسيرها الذي بوضوحها، يجب أن تستخدم أحكامها: فإن الحكم على الأشياء فرع عن تصورهما، فمن حكم على أمر من الأمور - قبل أن يحيط علمه بتفسيره، ويتصوره تصوراً يميزه عن غيره - أخطأ خطأ فاحشاً .

أما حد الإيمان وتفسيره، فهو: (التصديق الجازم، والاعتراف التام بجميع ما أمر الله ورسوله بالإيمان به، والانقياد ظاهراً وباطناً، فهو تصديق القلب واعتقاده المتضمن لأعمال القلوب وأعمال البدن، وذلك شامل للقيام بالدين كله <sup>(١)</sup> .

ولهذا كان الأئمة والسلف يقولون: الإيمان قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح وهو: قول وعمل واعتقاد يزيد بالطاعة، ويتقص بالمعصية . فهو يشمل عقائد الإيمان، وأخلاقه، وأعماله، فالإقرار والاعتراف بما لله تعالى: من الأسماء الحسنى، والصفات الكاملة العليا، والأفعال الناشئة عن أسمائه وصفاته، وهو من أعظم أصول الإيمان، وكذلك الاعتراف بما لله من الحقوق الخاصة - وهو: التآله والتعبد لله ظاهراً وباطناً - من أصول الإيمان والاعتراف بما أخبر الله به عن ملائكته وجنوده، والموجودات السابقة واللاحقة ؛ والإخبار باليوم الآخر، كل هذا من أصول الإيمان <sup>(٢)</sup> .

(١) التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، ثلثيني (٩) .

(٢) النظر المرجع السابق (١٠) .

وكذلك الإيمان بجميع الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - وما وصفوا به في الكتاب والسنة من الأوصاف الحميدة، كل هذا من أصول الإيمان . كما أن أعظم أصول الإيمان: الاعتراف بانفراد الله بالوحدانية والالوهية، وعبادة الله وحده لا شريك له، وإخلاص الدين لله، والتسليم بشرائع الإسلام الظاهرة، وحقائقه الباطنة كل هذا من أصول الإيمان ولهذا رتب الله على الإيمان دخول الجنة والنجاة من النار، ورتب عليه رضوانه والفلاح والسعادة . ولا يكون ذلك إلا بما ذكرنا: من شموله للعقائد وأعمال القلوب، وأعمال الجوارح، لأنه متى فات شيء من ذلك، حصل من النقص وفوات الثواب، وحصول العقاب - بحسبه .

بل أخبر الله تعالى: أن الإيمان المطلق تنال به أرفع المقامات في الدنيا، وأعلى المنازل في الآخرة، فقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّٰدِقُونَ ﴾ (احمد: ١٩) .

والصديقون هم أعلى أخلق درجة بعد درجة الأنبياء في الدنيا، وفي منازل الآخرة، وأخبر في هذه الآية، أن من حقق الإيمان به وبرسوله، نال هذه الدرجة ويفسر ذلك ويوضحه ما ثبت في الصحيحين عنه عليه السلام قال: «إن أهل الجنة ليترامون الغرف في الجنة، كما ترامون الكوكب الشرقي أو الغربي في الأفق ؛ لتفاضل ما بينهم ؛ فقالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: بلى والذي نفسي بيده ؛ رجال آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين » (١) .

وإيمانهم بالله وتصديقهم للمرسلين: في ظاهرهم وباطنهم، في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم، وفي كمال طاعتهم لله ولرسوله، فقيامهم بهذه الأمور، به يتحقق إيمانهم بالله وتصديقهم للمرسلين ، وقد أمر الله في كتابه بهذا الإيمان العام الشامل، وما يتبعه: من الانقياد والاستسلام ؛ وأثنى على من قام به، فقال في أعظم آيات الإيمان: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِنْ قَبْلِهِ وَمَا نَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ عَدُوًّا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَنَدْعُو بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (آل عمران: ١٠٣) .

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الترافيق، باب صفة الجنة والنار، رقم (٦٥٥٦)، ومسلم كتاب الجنة، باب تراخي أهل الجنة أهل الغرف رقم (٢٨٣٠) .

وإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ (البقرة: ١٣٦) .

فأمر الله عباده بالإيمان بجميع هذه الأصول العظيمة والإيمان الشامل بكل كتاب أنزله الله ، وبكل رسول أرسله الله ؛ والإخلاص والاستسلام والانقياد له وحده بقوله : ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ كما أتت على المؤمنين في آخر السورة بالقيام بذلك ، فقال : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (البقرة: ٢٨٥) .

فأخبر : أن الرسول ومن معه من المؤمنين ، آمنوا بهذه الأصول ولم يفرقوا بين أحد من الأنبياء ؛ بل آمنوا بهم جميعاً ، وبما أوتوه من عند الله ؛ وأنهم التزموا طاعة الله ، فقالوا : سمعنا وأطعنا ؛ وطلبوا من ربهم : أن يحقق لهم ذلك وأن يعفو عن نقصيرهم ببعض حقوق الإيمان ، وأن مرجع الخلافات كلهم ومصيرهم إلى الله يجازيهم بما قاموا به من حقوق الإيمان ، وما ضيعوه منها كما قال تعالى عن أتباع الأنبياء عيسى وغيره أنهم قالوا : ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ (آل عمران: ٥٣) فأمنوا بقلوبهم ، والتزموا بقلوبهم ، وانقادوا بجوارحهم ؛ وسألوا الله أن يكتبهم مع الشاهدين له بالتوحيد وأن يحقق لهم القيام به : قولاً وعملاً واعتقاداً .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّت قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٢ - ٤) .

الصلاة فرضها ونفلها : يقيمونها ظاهراً وباطناً ، ويؤتون الزكاة ، وينفقون النفقات الواجبة والمستحبة ، ومن كان على هذا الوصف فلم يبق من الخير مطلباً ، ولا من الشر مهرباً .

ولهذا قال : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ ، الذين يستحقون هذا الوصف على الحقيقة ، ويحققون القيام به ظاهراً وباطناً ، ثم ذكر ثوابهم الجزيل - المغفرة المتضمنة

لنزول كل شر ومحذور ورفعة الدرجات عند ربهم، والرزق الكريم المتضمن من النعم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِقُرُوبِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنْ ابْتغى وراء ذلك فأولئك هم العادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿ (المؤمن: ١ إلى ١٠) .

فسر الله الإيمان في هذه الآيات بجميع هذه الخصال فإنه أخبر بفلاح المؤمنين، ثم وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ إلى آخر الآيات المذكورة - فمن استكمل هذه الأوصاف فهو المؤمن حقاً، ومضمونها: القيام بالواجبات الظاهرة والباطنة، واجتناب المحرمات والمكروهات، وتكميلهم للإيمان استحقوا أن يكونوا ورثة جنات الفردوس التي هي أعلى الجنات ، كما أنهم قاموا بأعلى الكمالات . وهذه صريحة في أن الإيمان يشمل عقائد الدين، وأخلاقه، وأعماله الظاهرة والباطنة، ويترتب على ذلك: أنه يزيد بزيادة هذه الأوصاف والتحقق بها، وينقص بنقصها ؛ وأن الناس في الإيمان درجات متفاوتة بحسب تفاوت هذه الأوصاف (١) .

ولهذا كانوا ثلاث درجات: سابقون مفربون، وهم الذين قاموا بالواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات، وفضول المباحات، ومقتصدون، وهم: الذين قاموا بالواجبات، وتركوا المحرمات، وظالمون لأنفسهم، وهم: الذين تركوا بعض واجبات الإيمان، وفعلوا بعض المحرمات، كما ذكرهم الله بقوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿ (نازم: ٣٢) وقد يعطف الله على الإيمان، الأعمال الصالحة أو التقوى أو الصبر، للحاجة إلى ذكر المعطوف، لتلا يقظ الظان أن الإيمان

(١) انظر: التوضيح والبيان ، ص (١٦) .

يكتفى فيه بما في القلب فكما في القرآن من قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (البقرة: ٢٧٧) ثم يذكر خيراً عنهم، والأعمال الصالحة من الإيمان فمن ادعى أنه مؤمن: وهو لم يعمل بما أمر الله به ورسوله من الواجبات، وترك المحرمات فليس بصادق في إيمانه وهذا من وسطية القرآن واستقامته واعتداله وحكمته في هذا الباب .

كما يقرن بين الإيمان والتقوى، في مثل قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٤) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (يونس: ٦٢ - ٦٣) فذكر الإيمان الشامل لما في القلوب من العقائد والإرادات الطيبة، والأعمال الصالحة، ولا يتم للمؤمن ذلك حتى يتقي ما يسخط الله من الكفر والفسوق والعصيان، ولهذا حقق ذلك بقوله: ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ كما وصف الله بذلك خيار خلقه، بقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنْ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَنَعْتِمُ وَلَكِنْ اللَّهُ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَتْ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ (٧) فَضلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (الحجرات: ٧ - ٨) فهذه أكبر المنن؛ أن يحبيب الله الإيمان للعبد، ويزينه في قلبه، ويزينه حلاوته، وتنقاد جوارحه للعمل بشرائع الإسلام، ويبغض الله إليه أصناف المحرمات والله عليم بمن يستحق أن يتفضل عليه بهذا الفضل، حكيم في وضعه في محله اللائق به .

كما ثبت في الصحيح من حديث أنس رضي الله عنه أنه قال عليه السلام: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يرجع عن دينه، كما يكره أن يقذف في النار»<sup>(١)</sup> فذكر أصل الإيمان الذي هو محبة الله ورسوله؛ ولا يكتفي بمطلق المحبة، بل لا بد أن تكون محبة لله مقدمة على جميع المحاب، وذكر تفرعها: بأن يحب لله، ويبغض لله فيحب الأنبياء والصديقين، والشهداء والصالحين؛ لأنهم قاموا

(١) رواه مسلم، شرح النووي، كتاب الإيمان، باب الحياء، شعبة الإيمان (٦ / ٦) .

بحباب الله واختصهم من بين خلقه، وذكر دفع ما يناقضه، وأنه يكره أن يرجع عن دينه أعظم كراهة، تقدر أعظم من كراهة إلقائه في النار .

وأخير في هذا الحديث أن للإيمان حلاوة في القلب، إذا وجدها العبد سلتة عن المحبوبات الدنيوية، وعن الأعراض النفسية، وأوجبت له الحياة الطيبة، فإن من أحب الله ورسوله لهج بذكر الله طبعاً - فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره - واجتهد في متابعة الرسول ﷺ وقدم متابعتة على كل قول، وعلى إرادة النفوس وأغراضها، من كان كذلك فنفسه مطمئنة مستحلبة للطاعات، قد انشرح صدر صاحبها للإسلام، فهو على نور من ربه، وكثير من المؤمنين لا يصل إلى هذه المرتبة العالية: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ (النجم: ١٢٢) .

وكذلك في الصحيحين من حديث أبي هريرة أنه ﷺ قال: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول: لا إله إلا الله؛ وأدناها: إمطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان». وهذا صريح أن الإيمان يشمل أقوال اللسان، وأعمال الجوارح، والاعتقادات والأخلاق، والقيام بحق الله، والإحسان إلى خلقه، فجمع في هذا الحديث بين أعلاه وأصله وقاعدته وهو قول: لا إله إلا الله؛ اعتقاداً وتأنها، وإخلاصها لله بين أدناه، وهو إمطة العظم والشوكه وكل ما يؤدي، عن الطريق فكيف بما فوق ذلك: من الإحسان وذكر الحياء، والله أعلم: لأن الحياء به حياة الإيمان، وبه بدع العبد كل فعل قبيح كما به يتحقق كل خلق حسن، وهذه الشعب - المذكورة في هذا الحديث - هي جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة . وهذا - أيضاً - صريح في أن الإيمان يزيد وينقص بحسب زيادة هذه الشرائع والشعب واتصاف العبد بها أو عدمه، ومن المعلوم أن الناس يتفاوتون فيها تفاوتاً كبيراً، فمن زعم: أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص فقد خالف الحق مع مخالفته لنصوص الشارع كما نرى (١) .

(١) انظر: التوضيح والبيان (٢٢) .



والانقياد لحكم الله ورسوله من علامات الإيمان قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥) فأقسم تعالى أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله، ولا يبقى في قلوبهم حرج وضيق من حكمه وينقادوا له انقياداً، وينشروحوا حكمه، وهذا شامل في تحكيمه في أصول الدين، وفي فروعه، وفي الأحكام الكلية، والأحكام الجزئية<sup>(١)</sup>. وفي صحيح البخاري عن أنس مرفوعاً: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لآخيه ما يحب لنفسه»<sup>(٢)</sup> وذلك يقتضي أن يقوم بحقوق إخوانه المسلمين الخاصة والعامه، فإنه من الإيمان ومن لم يتم بذلك وبحب لهم ما يحب لنفسه، فإنه لم يؤمن الإيمان الواجب، بل نقص إيمانه بقدر ما نقص من الحقوق الواجبة عليه<sup>(٣)</sup>.

وفي صحيح مسلم من حديث العباس بن عبد المطلب<sup>(٤)</sup> قال: قال عليه السلام: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً»<sup>(٥)</sup>.

والرضا بذلك يقتضي الفرح بذلك، والسرور بربوبية الله له، وحسن تديره وأفضليته عليه، وأن يرضى بالإسلام ديناً، ويفرح به، ويحمد الله على هذه النعمة التي هي أكبر المنن، حيث رضي الله له الإسلام ووفقه له، واصطفاه له ويرضى بمحمد عليه السلام نبياً، إذ هو أكمل الخلق، وأعلاهم في كل صفة كمال، وأمه وأتباعه أكمل الأمم وأعلاهم، وأرفعهم درجة في الدنيا والآخرة.

فالرضا بنبوة الرسول ورسالته، واتباعه من أعظم ما يشعر الإيمان، ويدوق به العبد حلاوته، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (آل عمران: ١٦٤)

(١) انظر: التوضيح والبيان (٢٣).

(٢) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لآخيه (١ / ١١).

(٣) انظر: التوضيح والبيان، (٢٤).

(٤) هو العباس بن عبد المطلب بن هشام بن عبد مناف بن قصي القرشي أبو الفضل هم النبي عليه السلام، أسلم قبل عام الفتح، وقدمه عمر في صلاة الاستسقاء، وتوفي عام (٢٢هـ).

(٥) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب من رضي بالله وبالإسلام، وبمحمد عليه السلام (١ / ٦٢).

قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨).

فكيف لا يرضى المؤمن بهذا الرسول الكريم الرؤوف الرحيم ؛ الذي أقسم الله أنه لعلى خلق عظيم ، وأشرف مقام للعبد انتسابه لعبودية الله ، واقتداؤه برسوله ﷺ ، ومحبيه واتباعه ؛ وهذا علامة محبة الله ؛ واتباعه تنحقق المحبة والإيمان . قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ (آل عمران: ٣١) . وفي صحيح مسلم من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي قال قلت : يا رسول الله ؛ قل لي في الإسلام قولاً ، لا أسأل عنه أحداً بعدك ، قال : قل : آمنت بالله ، ثم استقم<sup>(١)</sup> .

فبين ﷺ بهذه الوصية الجامعة أن العبد إذا اعترف بالإيمان ظاهراً وباطناً ، ثم استقام عليه قولاً وعملاً وفعلًا وتركًا ، فقد كمل أمره ، واستقام على الصراط المستقيم ، ورجي له فلاح الدارين . وبعد هذا العرض الموجز لمفهوم الإيمان كما جاء في القرآن ووضحته أحاديث سيد ولد عدنان عليه أفضل الصلاة والسلام يتضح لنا مفهوم الإيمان بعيداً على من أنكره جملة كالملاحدة أو انحرف في فهم حقيقته كالفلاسفة أو حرفوه عن أصله كاليهود أو ضلوا عن تصور معانيه والوقوف على ماهيته كالتنصاري وبذلك يتضح لنا مفهوم الإيمان ووسطية واستقامة واعتدال القرآن في عرضه .

وابتعدت عن أقوال من وقع في البدع في حقيقة هذا الجانب من المعتزلة والخوارج والمرجئة والجهمية واكتفيت بقول واعتقاد أهل السنة والجماعة الذين هم الصحابة رضي الله عنهم ، وكل من سلك نهجهم من خيار التابعين رحمة الله عليهم ، ثم أصحاب الحديث ومن تبعهم من الفقهاء جيلاً فجيلاً إلى يومنا هذا ومن اقتدى بهم من العوام في شرق الأرض وغربها رحمة الله عليهم<sup>(٢)</sup> .

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام (١ / ٦٥) .

(٢) انظر: انفصل في الملل والأهواء والنحل (٢ / ١١٣) .

وقد بين النبي ﷺ أن النجاة لا تكون إلا لمن كان على ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ومن تابعهم إلى يوم الدين قال رسول الله ﷺ: «... وتفترق امتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا واحدة قالوا: وما هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي»<sup>(١)</sup>

### ثانياً: منهج القرآن في الأمور التي يستمد منها الإيمان:

بما أن الإيمان أعظم المطالب وأهمها وأعمها؛ لذلك جعل الله له مواد كبيرة تجلبه وتقويه، كما أنه له أسباب تضعفه وتوهيه .

والمواد التي تجلبه وتقويه أمران: مجمل ومفصل أما المجمل فهو: التدبر لآيات الله المتلوة: من الكتاب والسنة؛ والمتأمل لآياته الكونية على اختلاف أنواعها، واخرص على معرفة الحق الذي خلق له العبد، والعمل باحثاً؛ فجميع الأسباب مرجعها إلى هذا الاصل العظيم .

### وأما التفصيل: فالإيمان يحصل ويقوى بأمور كثيرة: منها بل أعظمها:

أولاً: معرفة أسماء الله الحسنى الواردة في الكتاب والسنة، واخرص على فهم معانيها، والتعبد لله فيها، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الاسماء: ١٨٠) فالتأمل في أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى من منهج الوسطية والإلحاد في أسمائه وصفاته خروج عن منهج الوسطية الذي رسمه القرآن: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ (الاسماء: ١١٠) والذين يصفون الله بغير ما وصف به نفسه في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ، يلحدون في آيات الله، وهذا انحراف عن الصراط المستقيم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾ (نمل: ٤٠) ولذلك فإن الحرص على معرفة أسماء الله الحسنى وفهم معانيها يزيد الإيمان .

فقد ثبت في الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «إن لله تسعة وتسعين اسماً - مائة

(١) رواه الترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء في اقراء هذه الأمة (٥ / ٢٦) رقم الحديث (٢٦٤١) وحسنه .

إلا واحداً - من أحصاها، دخل الجنة<sup>(١)</sup> أي من حفظها، وفهم معانيها، واعتددها، وتعبده الله بها دخل الجنة، والجنة لا يدخلها إلا المؤمنون فاعلم: أن ذلك أعظم يتبرع ومادة لحصول الإيمان وقوته وثباته ؛ معرفة الأسماء الحسنى هي أصل الإيمان، والإيمان يرجع إليها .

ومعرفتها تتضمن أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وهذه الأنواع هي روح الإيمان وروحه، وأصله وغايته . فكلما ازداد العبد معرفة بأسماء الله وصفاته، ازداد إيمانه وقوي يقينه، فينبغي للمؤمن: أن يبذل مقدوره ومستطاعه في معرفة الأسماء والصفات، وتكون معرفته سائلة من داء التعطيل، ومن داء التمثيل اللذين ابتلي بهما كثير من أهل البدع المخالفة لما جاء به الرسول ﷺ بل تكون المعرفة متلقاة من الكتاب والسنة، وما روي عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان فهذه المعرفة النافعة التي لا يزال صاحبها في زيادة في إيمانه وقوة يقينه، وطمأنينة في أحواله<sup>(٢)</sup>

ويعجني في هذا المقام كلام نفيس للعلامة ابن القيم رحمه الله حيث يقول: (ومشهد الأسماء والصفات من أجلّ المشاهد والمطلع على هذا المشهد يعرف أن الوجود متعلق خلقاً وأمرًا بالأسماء الحسنى والصفات العلى، ومرتبطة بها وإن كل ما في العالم بما فيه من بعض آثارها ومقتضياتها فاسمه الحميد، المجيد، بمنع ترك الإنسان سدى مهملاً معطلاً، لا يؤمر ولا ينهى، ولا يثاب ولا يعاقب، وكذلك اسمه (الحكيم) يأبى ذلك، وهكذا فكل اسم من أسمائه له موجبات وله صفات لا ينبغي تعطيلها عن كمالها ومقتضياتها والرب تعالى يحب ذاته وأوصافه وأسمائه، فهو عفو يحب العفو، ويحب المغفرة، ويحب التوبة، ويفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يخطر بالبال .

وكان تقدير ما يغفره ويعفو عن فاعله، ويحلم عنه، ويتوب عليه ويسامحه

(١) البخاري مع الفتح، كتاب الدعوات، باب لله مائة اسم (١٦ / ٢٦٨)، رقم الحديث (٦٤١٠) .

(٢) انظر: التصريح والبيان (٤١) .

بموجب أسمائه وصفاته، وحصول ما يحبه ويرضاه من ذلك، وما يحمد به نفسه ويحمد به أهل سمواته وأهل أرضه، وما هو من موجبات كماله ومقتضى حمده وهو سبحانه الحميد المجيد، وحمده ومجده يقتضيان آثارهما ومن آثارهما: مغفرة الزلات وإقالة العثرات، والعضر عن السيئات أو المسامحة عن الجنايات مع كمال القدرة على استيفاء الحق، والعلم منه سبحانه بالجناية ومقدار عقوبتها فحلمه بعد علمه، وعفوه بعد قدرته، ومغفرته عن كمال عزته وحكمته كما قال عيسى عليه السلام في القرآن: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِنْ تُغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (ثلاثة: ١١٨) أي فمغفرتك عن كمال قدرتك وحكمتك لست كمن يغفر عجزاً، ويسامح جهلاً بقدر الحق؛ بل أنت عليم بحقك، قادر على استيفائه حكيم في الأخذ به، فمن تأمل سريان آثار الأسماء والصفات في العالم، وفي الأمر يتبين له أن مصدر قضاء هذه الجنايات من العبيد، وتقديرها هو في كمال الأسماء والصفات والأفعال وغايتها أيضاً مقتضى حمده ومجده، كما هو مقتضى ربوبيته وإلهيته، فله في كل ما قضاه وقدره الحكمة البالغة، والآيات الباهرة .

والله سبحانه دعا عباده إلى معرفته بأسمائه وصفاته وأمرهم بشكره ومحبته وذكره وتعبدهم بأسمائه الحسنى وصفاته العلى لأن كل اسم له تعبد مختص به، علماً ومعرفة وحالاً، وأكمل الناس عبودية: المتعبد بجميع الأسماء والصفات التي يطلع عليها البشر فلا يحجبه اسم عن اسم آخر، كما لا يحجبه التعبد باسمه (القدير) عن التعبد باسمه (الخليم الرحيم) أو يحجبه عبودية اسمه (المعطي عن عبودية اسمه (المانع) أو عبودية اسمه (الرحيم، العفو، والغفور) عن اسم المنتقم أو التعبد بأسماء (البر، والإحسان، واللطيف) عن أسماء العدل والجبروت، والعظمة والكبرياء وهذه طريقة الكمال من السائرين إلى الله، وهي طريقة مشتقة من قلب القرآن قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ (الأعراف: ١٨٠) والدعاء بها يتناول دعاء المسألة ودعاء الشاء ودعاء التعبد<sup>(١)</sup> وهو سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته ويشو عليه بها، ويأخذوا بحفظهم من عبوديتها .

(١) انظر: مدارج السالكين (٢ / ٤١٧ - ٤١٨ - ٤١٩) .

قاله تعالى يحب موجب أسمائه وصفاته، فهو عليه يحب كل عليم وهو (جواد) يحب كل جواد، (ونير) يحب الونير (جميل يحب الجمال) عفو يحب العفو وأهله (حيي) يحب الحياة وأهله (ير) يحب الأيرار (شكور) يحب أنشاكين (صبور) يحب الصابرين (حليم) يحب أهل الخلم، فلمجته سبحانه للتوبة والمغفرة، والعفو والصفح خلق من يغفر لهم ويتوب عليهم ويعفو عنهم، وقدر عليهم ما يقتضي وقوع المكروه الميغوض له، لينرتب عليه المحبوب له المرضي له (١).

وظهور أسماء الله وصفاته في هذه الحياة وفي النفس البشرية وفي الكون كله واضح، لا يحتاج إلى دليل، إلا أن الاهتداء إلى تلك الآثار أو الالتباه لها ينوقف على توفيق الله تعالى، بل إن التوفيق نفسه من آثار رحمته التي وسعت كل شيء فلو فكر الإنسان في هذا الكون الفسيح وفي نفسه لرجع من هذه الجولة الفكرية، بعجائب واستفاد منها فوائد ما كان يحلم بها ولو تأملنا هذه الآية الكريمة لرأينا أموراً تعجز عن التعبير عنها قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥) فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿النون: ١١٥ - ١١٦﴾ ومما يدل ويؤكد أهمية هذا التوحيد هو ما تنمته أسماء الله وصفاته في قلب المؤمن من زيادة الإيمان ورسوخ في اليقين، وما تجلبه له من النور والبصيرة التي تحفظه من الشبهات المضللة والشهوات المحرمة (٢).

فهذا العلم إذا رسخ في القلب أوجب خشية الله لا محالة، فلكل اسم من أسماء الله تأثير معين في القلب والسلوك، فإذا أدرك القلب معنى الاسم وما تضمنه واستشعر ذلك، تجاوب مع هذه المعاني وانعكست هذه المعرفة على تفكيره وسلوكه ولكل صفة عبودية خاصة هي من موجباتها ومقتضياتها فالأسماء الحسنى والصفات العلى مفتضية لآثارها من العبودية، وهذا مطرد في جميع أنواع العبودية التي على القلب والجوارح فمثلاً: عِلْمُ الْعَبْدِ بِتَفَرُّدِ الرَّبِّ تَعَالَى بِالضَّرِّ وَالنَّفْعِ وَالْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ

(١) انظر: مدارج السالكين (٢ / ٤٢٠).

(٢) انظر: دراسات في مباحث توحيد الأسماء والصفات، للتميمي (١٤-١٥).

والخلق والرزق والإحياء والإماتة يثمر له عبودية التوكل عليه باطنًا، ولوازم التوكل وثمراته ظاهراً، وعلمه بسمعه تعالى وبصره وعلمه وأنه لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وأنه يعلم السر وأخفى ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور يثمر له حفظ لسانه وجوارحه وخطرات قلبه عن كل ما لا يرضي الله، وأن يجعل نعلق هذه الأعضاء بما يحبه الله ويرضاه فيثمر له ذلك الحياء باطنًا، ويثمر له الحياء اجتناب المحرمات والقبائح، ومعرفة بغناه وجوده وكرمه وبره وإحسانه ورحمته توجب له سعة الرجاء ويثمر له ذلك من أنواع العبودية الظاهرة والباطنة بحسب معرفته وعلمه (١).

وكذلك معرفته بجلال الله وعزه تثمر له الخضوع والاستكانة والمجبة، وتثمر له تلك الأحوال الباطنة أنواعاً من العبودية الظاهرة هي موجباتها، وكذلك علمه بكماله وجماله وصفاته العلى ووجب له محبة خاصة بميزة أنواع العبودية فرجعت العبودية إلى مقتضى الأسماء والصفات وارتبطت بها (٢).

وهذه الأحوال التي تتصف بها القلوب: هي أكمل الأحوال وأجل وصف يتصف به القلب ويتصبع به، ولا يزال العبد يبرن نفسه عليها حتى تنجذب نفسه وروحه بدواعيه منقاداً راغية وبهذه الأعمال القلبية تكمل الأعمال البدنية فتسال الله أن يملأ قلوبنا من معرفته ومحبهه والإنابة إليه، فإنه أكرم الأكرمين، وأجود الأجودين (٣).

لكل صفة من صفة الله أثر في قلب المؤمن .

وقد يظن بعض الذين يدعون العلم، ومن لا حظ لهم من علوم الشريعة، أن معرفة أسماء الله وصفاته لا تؤثر في الإيمان بالله من حيث الزيادة والنقصان ولا تؤثر في القلوب، ولذلك لا فائدة من معرفتها أو جهلها أو إثباتها أو إنكارها، وقد توسع في هذا الجانب الفلاسفة الذين وصفوا الله تعالى بصفات من عند أنفسهم

(١) انظر: مفتاح دار السعادة، لابن القيم (٢ / ٩٠).

(٢) انظر: مفتاح دار السعادة، لابن القيم (٢ / ٩٠).

(٣) انظر: القواعد الحسان، للمعدني، (١٣٠).

وأنكروا وجحدوا ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ فأنحرفوا عن منهج الوسطية ووقعوا في الإفراط والتفريط وابتعدوا عن الصراط المستقيم ومنهج الاعتدال الذي بينه القرآن الكريم .

ومما لا ريب فيه أنه ليست هناك صفة لله في القرآن أو في السنة إلا وقد ساقها الله تعالى لحكمة ومنفعة وغاية ولولا ذلك لما ساقها ولما ذكرها لأن كلامه وكلام رسوله ينزه عن العبث والمغش والحشو . ومن ظن أن الله يحشو كلامه بما لا فائدة في ذكره أو لا غاية من ورائه أو لا أهمية له فقد اتهم الله بالتقص واللغو .

وليبيان أن لكل صفة من صفات الله أثراً في قلب المؤمن سنين ذلك ببعض التفاصيل من حيث إن لكل صفة في القلب أثراً يتضح ذلك ويخرج في السلوك البشري، فلا توجد صفة من صفات الله إلا ولها أثر وفائدة، وإنما الذي ينكر الأثر هم الجهلة والمجاهدين أما علماء أهل السنة والجماعة فبينوا ذلك الأمر بياناً أوضح من الشمس في رابعة النهار .

#### أثر صفة العظمة:

وهذه الصفة مشتقة من اسمه تعالى العظيم، والعظمة صفة من صفاته لا يقوم لها خلق، والمقصود أن عظمة الله سبحانه لا يمكن أن يتصف بها أحد من خلقه والله خلق بين الخلق عظمة يعظم بها بعضهم بعضاً، فمن الناس من يعظم مالاً، ومنهم من يعظم لفضل، ومنهم من يعظم لعلم، ومنهم من يعظم لسلطان، ومنهم من يعظم لجاه، وكل واحد من الخلق إنما يعظم لمعنى دون معنى، والله عز وجل يعظم في الأحوال كلها، فينبغي لمن عرف حق عظمته سبحانه أن لا يتكلم بكلمة يكرهها الله، ولا يرتكب معصية لا يرضاها الله .

فإذا شعر العبد بعظمة الله خاف مولاه واتقاه ورجب في مرضاته سبحانه وتعالى، والحديث الدال على صفة العظمة قول رسول الله ﷺ : «يقول تبارك وتعالى: العظمة إزارى والكبرياء ردائي فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار» (١) .

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب الزهد، باب انبعاث من الكبر (٢ / ١٣٩٧)، رقم الحديث (٤١٧٥)، وصححه الشيخ الألباني رحمه الله .



## أثر صفة يد الله:

ومن الصفات التي جحدتها قلوب النساء وانكرها الزنادقة قديماً، وصف الله نفسه سبحانه بأن له يَدَيْنِ، وهذا ما قد مدح الله به نفسه في آيات كثيرة من كتابه، وقد مدحه بها النبي ﷺ في أحاديث كثيرة وهي تدخل في صفات الله الذاتية، وقد بين سبحانه في الآيات والأحاديث عظمة عطائه وسعة فضله وأن يده الكريمة جل وعلا دائمة العطاء والإنفاق، وفي مجال قوته وجبروته وبطشه وكمال قدرته وبيان عظمته أن السموات والأرض يوم القيامة تكون يمينه: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (النور: ٦٧) .

ولا شك أن أثر الإيمان بهذه الصفة في قلب المؤمن عظيم؛ لأنه يورث القلب المهابة لله والخوف منه وتعظيم أمره، وشأنه وأنه الملك الذي قهر الملوك، وأنه لا مفر من قبضته، ولا ملجأ منه إلا إليه .

## أثر اسم الله الحميد:

وهذا الاسم يتضمن لصفة الحمد بكل أنواعه، فهي صفة ذاتية لله عز وجل لا تنفك عنه وتظهر آثارها باستمرار في كل لحظة، ومعناها أنه سبحانه مستحق لكل أنواع الحمد، لأنه المحمود في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، وليس ذلك لأحد سواه سبحانه، كما يبدو لي أن العبد لا بد أن يسلك في حياته سلوكاً يحمد عليه، لأن أعماله جميعاً يجب أن تكون خالصة للحميد، ولو أن كل فرد تحرى أن يكون عمله حميداً لصلح أمر الناس في الدنيا والآخرة، ولاخسفت المنازعات فيما بينهم والخصومات ولعاشوا جميعاً إخوة في الله متحابين<sup>(١)</sup> .

## أثر اسم الله المهيمن:

ومن آثار هيمنته سبحانه أنه يملك أن يتصرف في خلقه كيف يشاء؛ لأنه ملكهم

(١) انظر: مفهوم الأسماء والصفات، مقال في مجلة الجامعة الإسلامية العدد (٥٩) : ٧٠-٧٩ .

والمالك من حقه أن يتصرف في ملكه بكافة أنواع التصرف من نماذج هذه التصرفات ما ذكره الله تنبيهاً وتذكيراً باستمرار وشمول هيمنته على خلقه سبحانه وتعالى (١)

قال تعالى:

﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (١٢) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمَنْ كَلَّ كُرْبًا ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (١٣) قُلِ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿ (الأنعام: ٦٣ - ٦٥) وإذا شعر القلب بهيمنة ربه عليه جأ إليه وطلب العون منه لدفع ضرر أو جلب نفع، والآيات في هذا الباب كثيرة، وكذلك أحاديث رسول الله ﷺ .

#### أثر صفة العلو في قلب العبد:

إذا أيقن العبد أن الله تعالى فوق السماء، عال على عرشه بلا حصر، ولا كيفية، وأنه الآن في صفاته كما كان في قدمه، كان لقلبه في صلاته وتوجهه، ودعائه.

ومن لا يعرف ربه بأنه فوق السماء على عرشه، فإنه يبقى ضائعاً لا يعرف وجهة معبوده، ولكن ربما عرفه بسمعه، وبصره وقدمه وتلك بلا هذا معرفة ناقصة، بخلاف من عرف أن إلهه الذي يعبده فوق الأشياء، فإذا دخل في الصلاة وكبر وتوجه قلبه إلى جهة العرش منزهاً له تعالى، مفرداً له كما أفرد في قدمه والوهيته واعتقد أنه في علوه قريب من خلقه، وهو معهم بعلمه وسمعه وبصره وإحاطته وقدرته ومشيتته، وذاته، فوق الأشياء، فوق العرش، ومتى شعر قلبه بذلك في الصلاة أشرق قلبه، واستنار، وأضاء بأنوار المعرفة والإيمان وعكفت أشعة العظمة على قلبه وروحه، ونفسه، فانشرح لذلك صدره، وفوي إيمانه، ونزه ربه عن صفات خلقه، من الحصر والحلول، وذاق حينئذ شيئاً من أدواق السابقين المقربين (٢).

(١) المرجع السابق (٧٠-٧٩).

(٢) انظر: الشبيحة في صفة اثر جل وعلا لتواسطي (٥).

## أثر صفة السمع:

قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (النساء: ١)

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (الحمد لله وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي صلى الله عليه وسلم تكلمه وأنا في ناحية البيت، ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا...﴾ (١)

أقول: لو أن دارس الأسماء والصفات ومدرسيتها تأملوا ما دلّت عليه هذه الصفات وأشعر المرء نفسه أنه مراقب في جميع أحواله وأن ما ينطق به لسانه يسمعه خالقه من فوق سبع سموات في حينه وأنه سيجازيه على ذلك لانعكس على سلوكه وأخلاقه وأعماله وسيرته في مجتمعه، ولظهرت الأخلاق الربانية وأصبح الشخص لله ولياً يمشي على وجه الأرض، ونشعرنا أن الأخلاق الرفيعة ثمرة من ثمرات التوحيد، وبقدر ما يملك العبد من الإيمان والتوحيد ينعكس ذلك ويظهر على أخلاقه .

ولا بد أن تراعي قواعد السلف عند تأملنا وتفكرنا في أسماء الله وصفاته التي تزيدنا إيماناً بالله العلي العظيم، ويعجبني في هذا المقام أن أكتب ما كان يقوله ويكرره شيعي الفاضل عبد المحسن العباد في دروسه بالمدينة النبوية (المذهب الحق وسط بين الطرفين في قضية الإثبات، فلا نقى ولا تأويل، وفي التنزيه فلا تشبيه ولا تمثيل، وكل من المشبهة والنفاة جمعوا بين إساءة وإحسان) .

فالمشبهة: أحسنوا إذ أثبتوا فلم ينفوا الصفات، وأسأءوا إذ شبهوا ومثلوا، وأهل السنة والجماعة جمعوا بين الحسينين وسلموا من الإساءتين، فالإحسان الذي عند الطرفين عندهم، وليس عندهم ما عند كل من الإساءة وذلك أنهم أثبتوا ما أثبت في الكتاب والسنة من الصفات، ونزهوا الله عن مشابهة خلقه، وكما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١) فأول الآية تنزيه وانحرها إثبات، فمثل

(١) البخاري مع الفتح، كتاب التوحيد، باب وكان لله سمياً بصيراً، (١٣ / ٣٨٤) .

هذا المذهب الحق بالنسبة إلى الطرفين المتقابلين كالدين السائح للمشاريين الذي يخرج من بين فرث ودم<sup>(١)</sup>.

ثانياً: تدبر القرآن على وجه العموم:

فإن التدبر لا يزال يستفيد من علوم القرآن ومعارفه، ما يزداد به إيماناً، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَلَّيْتُمْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الأنفال: ٢) وكذلك إذا نظرنا إلى انتظامه، وإحكامه؛ وأنه يصدق بعضه بعضاً، ويوافق بعضه بعضاً، ليس فيه تناقض ولا اختلاف: تبين أنه تنزيل من حكيم حميد: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (نصت: ٤٢) وأنه لو كان من عند غير الله، لوجد فيه - من التناقض والاختلاف - أمور كثيرة، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النس: ٨٢) وهذا من أعظم مقويات الإيمان، ويقويه من وجوه كثيرة: فالؤمن بمجرد ما يتلو آيات الله، ويعرف ما فيها من الأخبار الصادقة، والأحكام الحسنة - يحصل له من أمور الإيمان، خير كبير فكيف إذا أحسن تأمله، وفهم مقاصده وأساره؟! ولهذا كان المؤمنون الكمل يقولون: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ (ن عمران: ١٩٣).

ثالثاً: معرفة أحاديث النبي ﷺ وما تدعو إليه من علوم الإيمان وأعماله:

كلها من محصلات الإيمان ومقوياته، فكلما ازداد العبد معرفة بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ازداد إيمانه ويقينه، وقد يصل في علمه وإيمانه إلى مرتبة اليقين، فقد وصف الله الراسخين في العلم، الذين حصل لهم العلم التام القسوي الذي يدفع الشبهات والريب، ويوجب اليقين التام، ولهذا كانوا سادة المؤمنين الذين استشهد الله بهم واحتج بهم على غيرهم من المرتابين والجاحدين، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (ن عمران: ٧).

(١) عشرين حديثاً من صحيح مسلم، لعبد المحسن العباد (١٧٧-١٧٨).

فالراسخون زال عنهم الجهل والريب وأنواع الشبهات، وردوا المشابهة من الآيات إلى المحكم منها، وقالوا: آمنا بالجميع، فكلها من عند الله؛ وما منه، وما تكلم به وحكم به كله صدق وحق. وقال تعالى: ﴿لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ (النساء: ١٦٢).

وقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران: ١٨). ولعلمهم بالقرآن العلم التام، وإيمانهم الصحيح استشهد بهم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الزوم: ٥٦) وأخبر تعالى في عدة آيات، أن القرآن آيات للمؤمنين وآيات للموقنين، لأنه يحصل لهم بتلاوته وتدبره - من العلم واليقين والإيمان - بحسب ما فتح الله عليهم منه، فلا يزالون يزدادون علماً وإيماناً و يقيناً (١).

رابعاً: ومن طرق موجبات الإيمان وأسبابه - معرفة النبي ﷺ - ومعرفة ما هو عليه من الاخلاق العالية، والاصناف الكاملة، فإن من عرفه حق المعرفة لم يرتب في صدقه وصدق ما جاء به من الكتاب والسنة والدين الحق كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُكْرُونَ﴾ (التوبن: ٦٩).

فمعرفة ﷺ توجب للعبد المبادرة إلى الإيمان بما لم يؤمن به، وزيادة الإيمان بما آمن به. وقال تعالى حاثاً لهم على تدبير أحوال الرسول الداعية للإيمان: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِي وَفِرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (سبأ: ٤٦).

واقسم تعالى بكمال هذا الرسول وعظمة اخلاقه، وأنه أكمل مخلوق بقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ وَمَا يَسْطُرُونَ \* مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْحُونٍ \* وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ \* وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾ (الفلم: ١ - ٤) فهو ﷺ أكبر داع للإيمان في أوصافه الحميدة،

(١) نظراً: التوضيح والبيان (٤٢-٤٣).

وشمائله الجميلة، وأقواله الصادقة النافعة، وأفعاله الرشيدة فهو الإمام الأعظم،  
والقدوة الأكمل: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الاحزاب: ٢١)، ﴿وَمَا أَنَاكُمْ  
الرُّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحجر: ٧).

وقد ذكر الله عن أولي الألباب الذين هم خواص الخلق أنهم قالوا: ﴿رَبَّنَا إِنَّا  
سَمِعْنَا مُنَادِيًا﴾ وهو هذا الرسول الكريم ﴿يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ بقوله وخلقه وعمله ودينه،  
وجميع أحواله ﴿أَنْ آمَنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ (١٩٣: عمران)، أي: إيمانًا لا يدخله ريب.

ولما كان هذا الإيمان من أعظم ما يقرب العبد إلى الله، ومن أعظم الوسائل التي  
يحبها الله - نوسلوا بإيمانهم أن يكفر عنهم السيئات وينيلهم المطالب العاليات،  
فقالوا: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمَنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا  
وَكْفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ (١٩٣: عمران).

ولهذا كان الرجل المنصف - الذي ليس له إرادة إلا اتباع الحق مجرد ما يراه  
ويسمع كلامه - يبادر إلى الإيمان به ﷺ، ولا يرتاب في رسالته بل كثير منهم -  
مجرد ما يرى وجهه الكريم - يعرف أنه ليس بوجه كذاب وقيل لبعضهم: (لِمَ  
بادرت إلى الإيمان بمحمد قبل أن تعرف رسالته؟ فقال: ما أمر بشيء، فقال العقل،  
ليته نهى عنه ولا نهى عن شيء فقال العقل لبيته أمر به) (١).

فاستدل هذا العاقل الموفق - بحسن شريعته، وموافقيتها للعقول الصحيحة -  
على رسالته ١ فبادر إلى الإيمان به (٢) ولهذا استدل ملك الروم هرقل - لما وصف له  
ما جاء به الرسول ﷺ وما كان يأمر به، ومل ينهى عنه - استدل بذلك أنه من  
أعظم الرسل ٢ واعترف بذلك اعترافاً جلياً ولكن منعه الرئاسة وخشية زوال ملكه  
من اتباعه؛ كما منعت كثيراً ممن اتضح لهم أنه رسول الله حقاً، وهذا من أكبر موانع  
الإيمان في حق أمثال هؤلاء، وأما أهل البصائر والعقول الصحيحة، فإنهم يرون هذه  
الموانع والرئاسات والشبهات والشهوات، ولا يرون لها قيمة: حتى يعارض بها الحق

(١)، (٢)، المرجع السابق (٤٩).

الصحيح النافع، المتمر للسعادة عاجلاً وآجلاً . ولهذا السبب الأعظم كان المعتنون بالقرآن حفظاً ومعرفة، والمعتنون بالأحاديث الصحيحة أعظم إيماناً و يقيناً من غيرهم، وأحسن عملاً في الغالب (١) .

خاصةً: ومن أسباب الإيمان ودواعيه التي بينها القرآن التفكير في الكون، في خلق السموات والأرض وما فيهن من المخلوقات المتنوعة، والنظر في نفس الإنسان، وما هو عليه من الصفات المتنوعة قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (١٩٠) وقال تعالى: ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (القدريات: ٢١) .

فإن التأمل والتفكير في الكون والنفس وآيات الله المنظورة داع قوي للإيمان، لما في هذه الموجودات من عظمة الخلق الدالة على قدرة خالقها وعظمته ؛ وما فيها من الحسن والانتظام، والإحكام الذي يحير الألباب، الدال على سعة علم الله، وشمول حكمته ؛ وما فيها من أصناف المنافع والنعم الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى، الدالة على سعة رحمة الله، وجوده وبره، وذلك كله يدعو إلى تعظيم مبدعها وبارئها وشكره، والتهلج بذكره ؛ والخلص الدين له وهذا هو روح الإيمان وسره (٢) وإذا تأملنا في مخلوقات الله كلها، نجد أنها مضطرة ومحتاجة إلى ربها من كل الوجوه، وأنها لا تستغني عنه طرفه عين خصوصاً ما نشاهده في نفسك من أدلة الاقترار وقوة الاضطراب، وذلك يوجب للعبد كمال الخضوع، وكثرة الدعاء والتضرع إلى الله: في جلب ما يحتاجه من منافع دينه ودنياه، ودفع ما يضره في دينه ودنياه، ويوجب له قوة التوكل على ربه، وكمال الثقة بوعده، وشدة الطمع في بره وإحسانه، وبهذا يتحقق الإيمان، ويقوى التعبد فإن الدعاء مخ العبادة وأصلها (٣) قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (١٥) كذلك التفكير في كثرة نعم الله وآلانه المعامة والخاصة التي لا يخلو منها مخلوق طرفه عين فإن هذا يدعو إلى الإيمان .

(١) شجرة الإيمان، للمسدي ، (٤٩) .

(٢) (٣) التوضيح والبيان (٥١) .

ولهذا دعى الله الرسل والمؤمنين إلى شكره، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢] فالإيمان يدعو إلى الشكر والشكر ينمو به الإيمان فكل منهما ملازم وملزوم للآخر .

سادساً: ومن أسباب دواعي الإيمان التي بينها القرآن الإكثار من ذكر الله في كل وقت، ومن الدعاء الذي هو مخ العبادة، فإن الذكر لله يغرس شجرة الإيمان في القلب ويغذيها وينميتها، وكلما ازداد العبد ذكراً لله قوي إيمانه ؛ كما أن الإيمان يدعو إلى كثرة الذكر، فمن أحب الله أكثر من ذكره، ومحبة الله هي: الإيمان، بل هي روحه . قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦] وقال تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] .

سابعاً: ومن الأسباب الجالبة للإيمان التي بينها القرآن السعى والاجتهاد في تحقيق مقام الإحسان في عبادة الله والإحسان إلى خلقه قال تعالى: ﴿وَمَن يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [البقرة: ١٢٨] وقال تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣] .

فعلى العبد: أن يعبد الله كأنه يشاهده، فإن لم يقوَ على هذا استحضر أن الله يشاهده ويراه ؛ فيجتهد في إكمال العمل وإتقانه ولا يزال يجاهد نفسه ليتحقق بهذا المقام العالي، حتى يقوى إيمانه ويقينه ويصل في ذلك إلى حق اليقين وطريق المحسنين كما جاء في القرآن بيان صفاتهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ \* آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ \* كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ \* وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ \* وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [البقرات: ١٥-١٩] . وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْذُرُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الن عمران: ١٣٤] .

وبذلك يتضح لنا صفات المحسنين ويكون الإحسان إلى الخلق بالقول والفعل والمال والجاه وأنواع المنافع هو من الإيمان ومن دواعي زيادته، والجزء من جنس



للعمل، فكما أحسن إلى عباد الله، وأوصل إليهم من براه ما يقدر عليه، أحسن الله إليه أنواعاً من الإحسان ومن أفضلها: أن يقوى إيمانه ورجسته في فعل الخير، والتفرب إلى ربه، وإخلاص العمل له (١).

ثامناً: ومن الأمور التي تقوي الإيمان وتزيده ما ذكره الله تعالى في سورة المؤمنين من قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ (المؤمنون: ١-١١) فهذه الصفات الثمان، كل واحدة منها تثمر الإيمان وتنميه؛ كما أنها من صفات الإيمان وداخله في تفسيره كما تقدم، فحضور القلب في الصلاة، وكون المصلي يجاهد نفسه على استحضار ما يقوله ويفعله: من القراءة والذكر والدعاء فيها، ومن القيام والقعود، والركوع والسجود من أسباب زيادة الإيمان وغوه (٢).

وقد سمي الله تعالى الصلاة إيماناً بقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيمَانَكُمْ﴾ (البقرة: ١١٣) ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (المنكوت: ٤٥) فحشاء ومنكر يتنافى الإيمان، كما أنها تحتوي على ذكر الله الذي يغذي الإيمان وينميه؛ لقوله: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (المنكوت: ٤٥) والزكاة كذلك تنمي الإيمان وتزيده فرحها ونقلها وقد بين النبي ﷺ كونها برهان على إيمان صاحبها فهي تغذي الإيمان وتنميه، والإعراض عن اللغو الذي هو كلام لا خير فيه، وكل فعل لا خير فيه - بل يقولون الخير ويفعلونه، وتركون الشر قولاً وفعلًا - لا شك أنه من الإيمان ويزداد به الإيمان ويشمر.

ولهذا كان الصحابة رضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ومن بعدهم، إذا وجدوا غفلة أو تشعث إيمانهم، يقول بعضهم لبعض «اجلس بنا نؤمن ساعة» فيذكرون الله، ويذكرون نعمه الدينية والدينية، فينجدد بذلك إيمانهم، وكذلك العفة عن الفواحش خصوصاً فاحشة الزنى، ولا ريب أن هذا من أكبر علامات الإيمان ومنمياته.

فالمؤمن لخوفه مقامه بين يدي ربه، ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ (التارعات: ٤٠) إجابة

(١)، (٢) التوضيح والبيان (٥٤).

لداعي الإيمان، وتغذية لما معه من الإيمان، ورعاية العهود والأمانات وحفظها من علامات الإيمان، وإذا أردت أن تعرف إيمان العبد ودينه فانظر حاله: هل يرضى الأمانات كلها مائبة أو قولية، أو أمانات أخفوق؟ وهل يرضى الحقوق والعهود والعقود التي بينه وبين الله، والتي بينه وبين العباد؟ إذ لم يكن كذلك نقص من دينه وإيمانه بمقدار ما انتقص من ذلك. وحتماً بالمحافظة على الصلوات على حدودها، وحقوقها، وأوقانها - لأن المحافظة على ذلك بمنزلة الماء الذي يجري في بستان الإيمان فيسقيه وينميه ويؤتي أكله كل حين.

تاسعاً: ومن دواعي زيادة الإيمان وأسبابه الدعوة إلى الله وإلى دينه والتواصي بالحق والتواصي بالصبر؛ والدعوة إلى أصل الدين، والدعوة إلى التزام شرائعه بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. وبذلك يكمل العبد بنفسه، ويكمل غيره كما أقسم تعالى بالعصر: أن جنس الإنسان لفي خسر إلا من اتصف بصفات أربع: الإيمان والعمل الصالح اللذين بهما تكمل النفس، والتواصي بالحق - الذي هو العلم النافع والعمل الصالح والدين الحق - وبالصبر على ذلك كله؛ يكمل غيره.

وذلك: أن نفس الدعوة إلى الله والتصبحة لعباده، من أكبر مقومات الإيمان وصاحب الدعوة لا بد أن يسعى بنصر هذه الدعوة، ويقوم الأدلة والبراهين على حقيقتها، ويأتي الأمور من أبوابها، ويتوصل إلى الأمور من طرقها، وهذه الأمور من طرق الإيمان وأبوابه<sup>(١)</sup> قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُرٌّ عَظِيمٌ وَإِنَّمَا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿ (نمل: ٢٣ - ٣٦) ومن حرص على نصح الناس ودعوتهم إلى دين الله لا بد أن يجازيه الله ويؤيده بنور منه، وروح وإيمان وقوة توكل، فإن الإيمان وقوة التوكل على الله، يحصل بهما

(١) التوضيح والبيان (٥٨).

النصر على الأعداء من شياطين الإنس وشياطين الجن<sup>(١)</sup> قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (النحل: ٩٩) والمتصدي لنصرة الحق، لا بد أن يفتح عليه فيه من الفتوحات العلمية والإيمانية بمقدار صدقه وإخلاصه.

عاشراً: ومن أهم مواد الإيمان ومقوماته توطئ النفس على مقاومة ما ينافي الإيمان من شعب الكفر والتفارق والفسوق والعصيان. فقد ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه الأسباب المقوية للنمية للإيمان ووضحها رسول الله ﷺ، كذلك بين المولى عز وجل الموانع والعوائق وأرشد إلى دفعها؛ وهي الإقلاع عن المعاصي، والتوبة مما يقع منها، وحفظ الجوارح كلها عن المحرمات، ومقاومة فتن الشبهات القادحة في علوم الإيمان، المضعفة له، والشبهات المضعفة لإرادات الإيمان، فإن الإرادات التي أصلها الرغبة في الخير ومحبه والسعي فيه، لا تتم إلا بترك إرادات ما ينافيها من رغبة النفس في الشر، ومقاومة النفس الأمارة بالسوء. فمن حفظ العبد من الوقوع في فتن الشبهات، وفتن الشهوات تم إيمانه وقوى يقينه<sup>(٢)</sup>

فالعبد المؤمن الموفق لا يزال يسمى في أمرين: أحدهما: تحقيق أصول الإيمان وفروعه والتحقق بها علماً وعملاً وحالاً. والثاني: السعي في دفع ما ينافيها وينقصها أو ينقضها من الفتن الظاهرة والباطنة؛ ويداوي ما قصر فيه من الأول، وما تجرأ عليه من الثاني بالتوبة النصوح، وتدارك الأمر قبل فواته<sup>(٣)</sup>. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠١) أي مبصرون الخلل الذي وقعوا فيه، والنقص الذي أصابهم من طائف الشيطان، الذي هو أعدى الأعداء للإنسان؛ فإذا أبصروا تداركوا هذا الخلل بسده، وهذا الفتق يرتقه، فردوا إلى حالهم الكاملة، وعاد عدوهم حسيراً ذليلاً، وإخوان الشياطين: ﴿يَمْدُونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠٢).

الشياطين لا تقصر عن إغوائهم وإيقاعهم في أشراك الهلاك، والمستجيبون لهم لا

(١) التوضيح والبيان (٥٨).

(٢)، (٣) المرجع السابق (٦٦).

يقصرون عن طاعة أعدائهم والاستجابة لدعوتهم حتى يقعوا في الهلاك ؛ ويحق عليهم الخسار، وبعد هذا العرض الموجز لمفهوم الإيمان تبين أن ما جاء به القرآن ووضحه سيد الأنام ﷺ هو الصراط المستقيم والاستقامة والاعتدال بعيداً عن ما وقع فيه الملاحدة من الزور والبهان، ووقع فيه الفلاسفة من تصورات خاطئة مريضة في أسماء الله وصفاته وأفعاله وذاته .

ولقد وقع الناس بين إفراط وتفريط وانكسار وغلوا، فأكرم الله البشرية بهذا الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ففي جانب الإيمان بالله تعالى جاء القرآن بالمنهج الوسط الذي تجسدت فيه ملامح الوسطية من حكمة واستقامة واعتدال وعدل وبينية .

وقبل الانتهاء من مبحث الإيمان وأسباب زيادته رأيت من باب الفائدة والحث على استيعاب وفهم هذا الموضوع المهم في حياة الناس أن أتطرق إلى فوائد الإيمان وثمراته كما جاءت في القرآن موضحاً الآثار والفوائد والثمرات العاجلة والآجلة في القلب والبدن والراحة والحياة الطيبة في الدنيا والآخرة، وذكر القرآن الكريم لهذه الفوائد والثمار يرسم لنا الصورة البانعة الحية في وسطية القرآن في قضية الإيمان .

### ثالثاً: فوائد الإيمان وثمراته .

إن من حكمة الله الربانية أن جعل قلوب عباده المؤمنين تحس وتتذوق وتشعر بثمرات الإيمان لتندفع نحو مرضاته والتوكل عليه سبحانه وتعالى، فإن شجرة الإيمان إذا ثبتت وقويت أصولها وتفرعت فروعها، وزهت أغصانها، وأبتعت أفنانها عادت على صاحبها وعلى غيره، بكل خير عاجل وآجل في الدنيا والآخرة وثمار الإيمان وثمراته وفوائده كثيرة، قد بينها الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم فمن أعظم هذه الفوائد والثمار .

أولاً: الاغتباط بولاية الله الخاصة، التي هي أعظم ما تنافس فيه المتنافسون، وتسابق فيه المتسابقون وأعظم ما حصل عليه المؤمنون، قال تعالى: ﴿ألا إن أولياء الله

لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ثم وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦١﴾﴾ (يونس: ٦٢ - ٦٣) فكل مؤمن تقى، فهو لله ولي ولأية خاصة، من ثمراتها ما قاله الله عنهم: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴿٢٥٧﴾﴾ (البقرة: ٢٥٧) أي يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، ومن ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات المعاصي إلى نور الطاعة ومن ظلمات الغفلة إلى نور اليقظة والذكر، وحاصل ذلك أنه يخرجهم من ظلمات الشرور المتنوعة إلى ما يرفعها من أنوار الخير العاجل والآجل . وإنما حازوا هذا العطاء الجزيل، بإيمانهم الصحيح، وتحققهم هذا الإيمان بالتقوى فإن التقوى من تمام الإيمان .

ثانياً: الفوز برضا الله ودار كرامته قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيَطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٍ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٧﴾﴾ (البقرة: ٧٦ - ٧٧) فنالوا رضا ربهم ورحمته، والفوز بهذه المساكن الطيبة بإيمانهم الذي كملوا به أنفسهم، وكملوا غيرهم بقيامهم بطاعة الله وطاعة رسوله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فاستولوا على أجل الوسائل، وأفضل الغايات وذلك فضل الله .

ثالثاً: ومن ثمرات الإيمان أن الله يدفع عن المؤمنين جميع المردة، وينجيهم من الشدائد كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴿٣٨﴾﴾ (الحج: ٣٨) أي يدافع عنهم كل مكروه، يدافع عنهم شر شياطين الإنس وشياطين الجن، ويدافع عنهم الأعداء، ويدافع عنهم المكاره قبل نزولها ويرفعها أو يخفضها بعد نزولها، ولما ذكر تعالى ما وقع فيه يونس عليه السلام وأنه: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ قال: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾﴾ (البقرة: ٩٦ - ٩٧) إذا وقعوا في الشدائد كما أنجينا يونس، قال النبي ﷺ: «دعوة أخي

يونس ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه كربته لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين» وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ (التغلق: ٤) .

فالمؤمن المتقي ييسر الله له أموره وييسره للبسرى، ويجنبه العسرى، ويسهل عليه الصعاب ويجعل له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً؛ ويرزقه من حيث لا يحتسب، وشواهد هذا كثيرة من الكتاب والسنة (١) .

رابعاً: ومنها أن الإيمان والعمل الصالح الذي هو فرعه يثمر الحياة الطيبة في هذه الدار، وفي دار القرار قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الشحل: ٩٧) .

ذلك أن من خصائص الإيمان، أنه يثمر طمأنينة القلب وراحته وقناعته بما رزق الله، وعدم تعلقه بغيره، وهذه هي الحياة الطيبة فإن أصل الحياة الطيبة راحة القلب وطمأنينته، وعدم تشوشه مما يتشوش منه الفاعل للإيمان الصحيح .

خامساً: ومنها: أن جميع الأعمال والأقوال إنما تصح وتكمل بحسب ما يقوم بقلب صاحبها من الإيمان والإخلاص ولهذا يذكر الله هذا الشرط الذي هو أساس كل عمل، مثل قوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ (الانبيا: ٩٤) أي لا يجحد سعيه ولا يضيع عمله؛ بل يضاعف بحسب قوة إيمانه وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَّشْكُورًا﴾ (الإسراء: ١٩) والسعي للآخرة هو العمل بكل ما يقرب إليها، ويدني منها، من الأعمال التي شرعها الله على لسان نبيه محمد ﷺ فإذا تأسست على الإيمان، ونبت عليه كان السعي مشكوراً مقبولاً مضاعفاً، لا يضيع منه مثقال ذرة . وأما إذا فقد العمل الإيمان، فلو استغرق العامل ليلته ونهاره فإنه غير مقبول قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ (الفرقان: ٢٣) وذلك لأنها أسست على غير الإيمان بالله ورسوله الذي روحه الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول ﷺ . قال تعالى:

(١) التوضيح والبيان (٦٧) .

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا \* الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا \* أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾ (الكهف: ١٣ - ١٥) فهم لما فقدوا الإيمان، وحل محلّه الكفر بالله وآياته حبطت أعمالهم، قال تعالى: ﴿لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ﴾ (الزمر: ٦٥) ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: ٨٨).

ولهذا كانت الردة عن الإيمان تحبط جميع الأعمال الصالحة، كما أن الدخول في الإسلام والإيمان يجب ما قبله، من السيئات وإن عظمت، والثبوت من الذنوب المنافية للإيمان، والقادحة فيه والمنقذة له تجب ما قبلها<sup>(١)</sup>.

سادساً: ومن ثمرات الإيمان أن صاحب الإيمان يهديه الله إلى الصراط المستقيم ويهديه إلى علم الحق، وإلى العمل به، وإلى تلقي المحاب بالشكر، وتلقي المكارم والمصائب بالرضا والصبر قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ (يونس: ٩) وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ (التغابن: ١١).

ذكر الشوكاني<sup>(٢)</sup> رحمه الله في تفسير هذه الآية: (هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم. ولو لم يكن من ثمرات الإيمان، إلا أنه يسلي صاحبه عن المصائب والمكاره التي كل أحد عرضة لها في كل وقت، ومصاحبة الإيمان واليقين أعظم مسل عنها، ومهون لها وذلك لقوة إيمانه وقوة توكله، ولقوة رجائه بثواب ربه، وطمعه في فضله فحلاوة الأجر تخفف مرارة الصبر، قال تعالى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْمِنُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْمِنُونَ كَمَا تَأْمِنُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ (التساءل: ٤٠٤).<sup>(٣)</sup>

(١) المرجع السابق (٧٥).

(٢) هو الإمام محمد بن علي الشوكاني، له تصانيف نقاض، محدث وفقيه وأصولي، ومفسر، وأسم تفسيره فتح القدير، توفي (١٢٥٠هـ)، انظر: مناهج المفسرين (٥٠).

(٣) فتح القدير للشوكاني (٥ / ٢٣٦).

سابعاً: ومن ثمرات الإيمان ولوازمه وفوائده وخيراته من الأعمال الصالحة ما ذكره الله بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ (زبور: ٩٦) أي بسبب إيمانهم وأعمال الإيمان يحبهم الله ويجعل لهم المحبة في قلوب المؤمنين، ومن أحبه الله وأحبه المؤمنون من عباده حصلت له السعادة والفلاح والفوائد الكثيرة من محبة المؤمنين من الثناء والدعاء له حياً وميتاً، والافتداء به، وحصول الإمامة في الدين (١).

وهذه أيضاً من أجل ثمرات الإيمان: أن يجعل الله للمؤمنين الذينكملوا إيمانهم بالعلم والعمل لسان صدق ويجعلهم أئمة يهتدون بأمره كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أئمةً يهتدون بأمرنا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (شعراء: ٢٤) فيالصبر واليقين اللذين هما رأس الإيمان وكماله نالوا الإمامة في الدين (٢).

ثامناً: ومنها قوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (المجادلة: ١٦) فهم أعلى الخلق درجة عند الله وعند عباده في الدنيا والآخرة وإنما نالوا هذه الرفعة، بإيمانهم الصحيح وعلمهم ويقينهم، والعلم واليقين من أصول الإيمان .

تاسعاً: ومن ثمرات الإيمان حصول البشارة بكرامة الله، والامن التام من جميع الوجوه، كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٢٢٣) فأطلقها ليعم الخير العاجل والآجل، وقيدتها في مثل قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (البقرة: ٢٥) فلهم البشارة المطلقة والمقبدة، ولهم الامن المطلق في مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (النساء: ٨٢) ولهم الامن المقيد في مثل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (النساء: ٤٨) فنمى عنهم الخوف لما يستقبلونه، والحزن بما مضى عليهم، وبذلك يتم لهم الامن .

فالؤمن له الامن التام في الدنيا والآخرة: أمن من سخط الله وعقابه، وأمن من

(١)، (٢) التومصيح والبيان (٧٦) .



جميع المكاراه والشرور وله البشارة الكاملة بكل خير، كما قال تعالى: ﴿لَهُمُ الْبَشِيرُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ (يونس: ٦٤) .

ويوضح هذه البشارة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَغْفِرُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْحَيَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ (٣١) نَزَلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ (صافات: ٣٠ - ٣٢) .

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحديد: ٢٨) فرتب على الإيمان حصول الثواب المضاعف، وكمال النور الذي يمشي به العبد في حياته، ويمشي به يوم القيامة: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ (الحديد: ١٢) .

فالؤمن من يمشي في الدنيا بنور علمه وإيمانه وإذا طغثت الأنوار يوم القيامة مشى بنوره على الصراط حتى يجوز به إلى دار الكرامة والتعظيم، وكذلك رتب المغفرة على الإيمان، ومن غفرت سيئاته سلم من العقاب، ونال أعظم الثواب (١) .

عاشراً: ومن ثمرات الإيمان حصول الفلاح الذي هو إدراك غاية الغايات، فإنه إدراك كل مطلوب، والسلامة من كل مرهوب والهدى الذي هو أشرف الوسائل، كما قال تعالى بعد ذكره المؤمنين بما أنزل على محمد ﷺ وما أنزل على من قبله، والإيمان بالغيب، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة اللتين هما من أعظم آثار الإيمان قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (البقرة: ٥) .

فهذا هو الهدى التام والفلاح الكامل، فلا سبيل إلى الهدى والفلاح اللذين لا صلاح ولا سعادة إلا بهما إلا بالإيمان التام بكل كتاب أنزله الله، وبكل رسول أرسله الله، فالهدى أجل الوسائل، والفلاح أكمل الغايات (٢) .

(١) ، (٢) المرجع السابق (٧٩-٨٠) .

الحادي عشر: ومن ثمرات الإيمان: الانتفاع بالمواعظ والتذكير بالآيات:

قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات: ٥٤)

وقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الحجر: ٧٧).

وهذا لأن الإيمان يحمل صاحبه على التزام الحق واتباعه، علماً وعملاً وكذلك معه الآلة العظيمة والاستعداد لتلقي المواعظ النافعة والآيات الدالة على الحق، وليس عنده مانع يمنعه من قبول الحق، ولا من العمل به.

وأيضاً: فالإيمان يوجب سلامة الفطرة، وحسن القصد، ومن كان كذلك انتفع بالآيات، ومن لم يكن كذلك فلا يستغرب عدم قبولهم للحق واتباعه له، ولهذا يذكر الله - في سياق تمنع الكافرين من تصديق الرسول ﷺ وقبولهم الحق الذي جاء به - السبب الذي أوجب لهم ذلك وهو الكفر الذي في قلوبهم، يعني لأن الحق واضح وآياته بيّنة واضحة والكفر أعظم مانع يمنع من اتباعه، أي فلا نستغربوا هذه الحالة، فإنها لم تزل دأب كل كافر<sup>(١)</sup>.

الثاني عشر: ومنها أن الإيمان يقطع الشكوك التي تعرض لكثير من الناس فتتضر

بدينهم، قال تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ (غبيرات: ١٥) أي دفع

الإيمان الصحيح الذي معه الرب والشك الموجود، وإزالته بالكلية، وقاوم الشكوك التي تلقىها شياطين الإنس والجن، والنفوس الأمارة بالسوء فليس لهذه العلة المهلكة دواء إلا تحقيق الإيمان. ولهذا ثبت في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «لا يزال الناس يسألون حتى يقال: هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ فمن وجد ذلك فليقل آمن بالله»<sup>(٢)</sup>. وفي رواية «فليستعذ بالله وليتته»<sup>(٣)</sup>.

(١) انظر: التوضيح وتبيان (٨١).

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان، (١ / ١١٩).

(٣) المرجع السابق (١ / ١٢٠).

وبهذا بين ﷺ الدواء النافع لهذا الداء المهلك وهو ثلاثة أشياء: الانتهاء عن هذه الوسوس الشيطانية، والاستعاذة من شر من ألقاها وشبه بها: ليضل بها العباد، والاعتصام بعصمة الإيمان الصحيح الذي من اعتصم به كان من الأمنين . وذلك لأن الباطل يتضح بطلانه بأمر كثيرة أعظمها العلم أنه منافي للحق، وكل ما نقض الحق فهو باطل ﴿فَمَاذَا بَعُدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ (يونس: ٣٢) .

الثالث عشر: ومنها أن الإيمان ملجأ المؤمنين في كل ما يلزم بهم، من سرور وحزن وخوف وأمن، وطاعة ومعصية، وغير ذلك من الأمور التي لا يد لكل أحد منها ؛ فيلجئون إلى الإيمان عند الخوف فيطمئنون إليه ويزيدهم إيماناً وثباتاً، وقوة وشجاعة ويضمحل الخوف الذي أصابهم كما قال تعالى عن خيار الخلق: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (٧٧) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ دِيَارِهِمْ فَأَتَىٰ خِيَابَ الْمَدِينَةِ بَعْدَ إِذْ هَلَكَ الْأَكْثَرُ الْأَوَّلُ﴾ (ال عمران: ١٧٣ - ١٧٤) .

لقد اضمحل الخوف من قلوب هؤلاء الأخيار، وخلفه قوة الإيمان وحلاوته وقوة التوكل على الله، والثقة بوعده، ويلجئون إلى الإيمان عند الطاعة والتوفيق للأعمال الصالحة، فيعترفون بنعمة الله عليهم بها ؛ وأن نعمته عليهم فيها أعظم من نعم العافية والرزق، وكذلك يحرصون على تكميلها، وعمل كل سبب لقبولها وعدم ردها أو نقصها، ويسألون الذي تفضل عليهم بالتوفيق لها، أن يتم عليهم نعمته بقبولها، والذي تفضل عليهم بحصول أصلها، أن يتم لهم منها ما انتقصوه منها: ﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ (تونس: ٦١) ويلجئون إلى الإيمان إذا ابتلوا بشيء من المعاصي بالمبادرة إلى التوبة منها، وعمل ما يقدر عليه من الحسنات لجبر نقصها قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (الاعراف: ٢٠١) .

فالؤمنون في جميع تقلباتهم وتصرفاتهم ملجؤهم إلى الإيمان ومفرغهم إلى تحقيقه ودفع ما ينافيه وبضاده، وذلك من فضل الله عليهم ومنه <sup>(١)</sup> وخوقاً من

(١) التوضيح والبيان (٨٥) .

الإطالة نقتصر على هذه الثمرات العظيمة التي بينها المولى عز وجل ، وبذلك نستيقن أن كتاب الله جاء تبياناً لكل شيء ، وعرض قضية الإيمان من جوانبها المتعددة النافعة للناس وبين وسائل زيادة الإيمان ، ورغبنا فيه بذكر فوائده وثماره بحكمة بالغة تليق بالحكيم العليم جل وعلا .

وبين المولى عز وجل في كتابه حقيقة الإيمان بأنه اعتقاد بالجان ونطق باللسان ، وعمل بالأركان ووضعنا على الصراط المستقيم وسلمت عقول المسلمين وقلوبهم من أمراض التعطيل والتشبيه ، والإفراط والتفريط ، ووقع أهل البدع في الانحراف عن جادة الصواب وطريق أهل الاستقامة ؛ لأنهم ابتعدوا عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وفهم الصحابة والتابعين لهم بإحسان من علماء وفقهاء ومحدثين .



## الفصل الثالث

### الملائكة

تمهيد: إن الإيمان بالملائكة أصل من أصول الاعتقاد، لا يتم الإيمان إلا به، والملائكة من عوالم الغيب التي امتدح الله المؤمنين بها، تصديقاً لخبر الله سبحانه وإخبار رسوله ﷺ، وقد بين الله سبحانه وتعالى في كتابه وستة نبيه هذا الموضوع بحيث أصبح - عند من اطلع على هذه النصوص - الإيمان بها واضحاً، وليس فكرة غامضة، وهذا ما يعمق الإيمان ويرسخه، فإن المعرفة التفصيلية أقوى وأثبت من المعرفة الإجمالية.

وبين الله سبحانه وتعالى الانحراف الذي وقع فيه الناس في اعتقادهم في الملائكة منذ القديم فهناك من عبدهم، وهناك من ظن أنهم بنات الله، وأما الفلاسفة فإنهم يرون أن الملائكة هم الأقلاك التي نراها في الفضاء وبعضهم أنكر وجودها، وأما اليهود فعادوا بعضهم ووصفوا الملائكة بأنهم يشربون ويأكلون<sup>(١)</sup>.

كما ذكرت التوراة المحرفة في سفر التكوين وبعض أسفارهم أن الملائكة لا تأكل ولا تشرب واضطرب أمرهم في هذا الشأن، واستزلهم الشيطان وتصور التوراة جبريل عليه السلام بأنه شيطان - لعنة الله على اليهود - يصنع الغواية، يغوي الأنبياء؟

قالت التوراة المحرفة: (قد رأيت الرب جالساً على كرسية، وكل جنود السماء وقوف لديه، عن يمينه وعن يساره فقال الرب: من يغوي آخاب فيصعد ويسقط في رامون جلعاد، فقال: هذا هكذا وقال: ذاك هكذا، ثم خرج الروح - يعني - جبريل ووقف أمام الرب وقال: أنا أغويه، وقال له الرب بماذا؟ فقال: أخرج وأكون روح كذب في أفواه جميع أنبيائه فقال: إنك تغوية وتقتدر؟ فأخرج وافعل هكذا)<sup>(٢)</sup>.

(١) الإسلام في مواجهة الاستشراق، عبد العظيم الطمعي، (١٩٥).

(٢) سفر التكوين: الإصحاح (١٨) الفقرات (١-٨).

يا سبحان الله يجعلون جبريل روح كذب في أفواه جميع أنبياء أخاب والرب يشجعه على ذلك !! وبذلك اتضحت مسائل الناس في اعتقادهم في الملائكة بين منكر لها وهم الملاحدة، وبين متصور لها بأفلاك وأوهام وهم الفلاسفة، وبين زاعم بأنها بنات الله وعبودها من دون الله وهم مشركو العرب .

وجاء القرآن ليبين منهج الوسطية في هذا الركن من العقائد بما ينفع الناس ويدلهم على الصراط المستقيم الذي هو الوسطية في هذا الدين وجاء القرآن الكريم موضحاً ما ينفع الناس ويصحح تصوراتهم وأفكارهم ومعتقدهم في قضايا الاعتقاد وغيرها . إن المسلم يعتقد اعتقاداً جازماً بأن لله ملائكة موجودين مخلوقين من نور، وأنهم : ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ [التبريم: ٦١] وأنهم قائمون بوظائفهم التي أمرهم الله بالقيام بها . ولا يصلح إيمان عبد حتى يؤمن بوجودهم، وبما ورد في حقهم من صفات وأعمال في كتاب الله سبحانه، وستة رسوله ﷺ من غير زيادة ولا نقصان، ولا تحريف (١) .

قال تعالى :

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]

وفي الحديث الصحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما سأل جبريل عليه السلام عن الإيمان قال ﷺ : «إن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره» (٢) .

فوجود الملائكة ثابت بالدليل القطعي الذي لا يمكن أن يلحقه أدنى شك، ومن هنا كان إنكار وجودهم كفرًا بنص القرآن العظيم، فقد قال عز وجل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦] .

(١) انظر: الإيمان لحمد نعيم ياسين (٤٨) .

(٢) انظر: البخاري مع الفتح، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل (١ / ١٤٠) .

والذي يجمع الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، التي تكلمت عن الملائكة، وأوصافهم وأعمالهم وأحوالهم، يلاحظ: أنها تناولت في الغالب ما بين علاقتهم بالخالق سبحانه وبالكون، والإنسان، فعرفنا سبحانه من ذلك على ما ينفعنا في تطهير عقيدتنا، ونزكية قلوبنا وتصحيح أعمالنا .

وأما حقيقة الملائكة، وكيف خلفهم، وتفصيلات أحوالهم، فقد استأثر سبحانه بها، وهذا من وسطية القرآن وحكمة الرحمن حيث سبحانه وتعالى يعرف الناس في حدود ما يحتاجون إليه، ويصلح أحوالهم في المعاش والمعاد، وما تطبيقه عقولهم فألله سبحانه وتعالى لم يطلعنا على جميع المغيبات، سواء منها ما تعلق بجلاله وصفاته وأسمائه وما تعلق بمخلوقاته الغيبية، والمؤمن الصادق يقر بكل ما أخبر به الخالق مجملاً أو مفصلاً، ولا يزيد على ذلك، ولا ينقص منه، ولا يتكلف البحث عن ما لا ينفعه ولا يخوض فيه <sup>(١)</sup> .



(١) الإيمان: لعمد تميم ياسين (١٧) .

## المبحث الأول

### صفات الملائكة الخلقية

إن الخالق عز وجل لم يخبرنا من صفاتهم الخلقية إلا النزر القليل، فأخبرنا سبحانه أنهم خلقوا قبل آدم، إذ ورد في القرآن أن الله أخبرهم بأنه سيخلق الإنسان، ويجعله في الأرض . قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٣) .

وأما المادة التي خلقوا منها، فقد أخبرنا الرسول ﷺ أن الله خلقهم من نور، فقد أخرج مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «خلقت الملائكة من نور وخلق الجن من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»<sup>(١)</sup> وتدل النصوص في مجموعها على أن الملائكة مخلوقات نورانية ليس لها جسم مادي يدرك بالحواس الإنسانية، وأنهم ليسوا كالبشر فلا يأكلون، ولا يشربون، ولا ينامون، ولا ينزأوجون، مطهرون من الشهوات الحيوانية، ومنزهون عن الأثام والخطايا، ولا يتصفون بشيء من الصفات المادية، التي يتصف بها ابن آدم<sup>(٢)</sup>.

#### أ - لهم القدرة على التشكل:

غير أن لهم القدرة على أن يتشكلوا بصور البشر، بإذن الله تعالى كما أخبر الله عز وجل عن جبريل عليه السلام أنه جاء مريم في صورة بشرية، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَى فِي الْكِتَابِ مَرْيَمُ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ (مريم: ١٦ - ١٧) .

وفي حديث جبريل المشهور، حين جاء يعلم الصحابة معنى الإسلام، والإيمان، والإحسان، وأمراط الساعة، ذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه جاء على هيئة رجل

(١) أخرجه مسلم، كتاب الزهد والرفاق، باب أحاديث مخرقة (٤) / ٢٢٩٤ .

(٢) شرح ملا علي القاري على التفة الأكبر (١٦) .



شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، وأنه جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبته إلى ركبته ووضع كفيه على فخذه ثم شرع في السؤال<sup>(١)</sup>.

### ب - لهم أجنحة:

ومن صفاتهم الخلقية التي أخبرنا الله بها أنه جعل لهم أجنحة يتفاوتون في أعدادها، فقال سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أجنحةٍ مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير﴾ (نمل: ١) هذا ما أخبرنا به الله عز وجل عن الملائكة من حيث خلقتها، ونؤمن به كما جاء، ولا نسأل عن غيره ولو كان في التفصيل نفع لعباد الله لما حجب عنهم معرفته، فهو اللطيف الرحيم بهم، يعلمهم الحق والخير، وهذا من حكمة القرآن وهدايته إلى الصراط المستقيم ووسطيته في الأمور.



(١) انظر: البخاري مع الفتح، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل، (٢ / ١٤).

## المبحث الثاني

### علاقتهم مع الله والإنسان، والكون، وعدددهم

#### أ - علاقتهم مع الله:

فهي علاقة العبودية الخالصة، والطاعة والامتثال، والخضوع المطلق لأوامره عز وجل، لا ينتسبون إليه سبحانه إلا بهذه النسبة، فهم ليسوا آلهة من دونه سبحانه، ولا ذرية له، ولا بنات كما قال المشركون من قبل، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ \* لَا يُسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ \* يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ مِنْهُمْ مِنْ شَيْئِهِ \* يُسْقِطُونَ ﴾ (الانبيا: ٢٦ - ٢٨) وقال تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (النحل: ٥) وقال تعالى: ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (التحريم: ٦) .

فهم خلق من مخلوقات الله الكثيرة، يطيعونه سبحانه ولا يقدرّون على شيء من تلقاء أنفسهم، وهم لا يستطيعون أن يقترحوا على الله شيئاً بفضل قوتهم، وهم منقطعون دائماً لعبادة الله وطاعة أمره . قال تعالى: ﴿ وَمَا مِمَّا إِيَّاهُ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافِرُونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾ (الصافات: ١٦٤ - ١٦٦) .

وإذا كانت هذه حقيقة أمرهم فقد انحرف عن الصراط المستقيم ووقع في الشرك بالله من عبد أو استعان بالملائكة أو اعتقد أن لهم من الأمر شيء .

قال تعالى: ﴿ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَوْلِيَاءَ أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ٨٠) .

#### ب - علاقة الملائكة بالكون والإنسان:

دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة، وأنها موكلة بأصناف المخلوقات، وأنه سبحانه، وكل بالشمس والقمر ملائكة، وبالافلاك ملائكة، وبالحيال ملائكة، وبالسحاب ملائكة، وبالطر ملائكة، وبالرحم ملائكة تدبر أمر النطفة حتى يتم

خلقها، وبالموت ملائكة ووكل بكل عبد ملائكة يحفظونه ووكل بكل مخلوق،  
وبكل حوادث الكون وظواهره ملائكة<sup>(١)</sup>.

وهذا لا يتنافى ما يلاحظ في الكون من قوانين وأسباب يرتبط بعضها ببعض ؛  
لأن هذه القوانين والأسباب إنما هي مخلوقات من مخلوقات الله، والملائكة موكلة  
بها أيضاً، وموكلة برعايتها، كما نرى المخلوقات الأخرى، ولولا إرادة الله في  
حفظ هذه الأسباب والقوانين، ولولا قدرته في تسخير الملائكة للحفاظ عليها، فإن  
العقل لا يستلزم أبداً بقاءها على هذه الآماد الطويلة في انتظامها وتناسقها<sup>(٢)</sup>.

وأما الإنسان فيدخل بحياته القظرية في تلك الرعاية التي وكل الله سبحانه  
الملائكة بها؛ لأنه مخلوق من مخلوقات الله في الكون بل هو المخلوق الذي سخر  
الله له ما في الكون كله، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا  
فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا  
هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (نعمان: ٢٠).

وفوق هذا فإن للملائكة أعمالاً أخرى في حياة الإنسان الإرادية هدفها - كما  
حده الله لهم - هداية البشر، وإسعادهم، ومساعدتهم على عبادة الله، وعونهم  
على اختيار الهدى والصلاح، واجتناب الشر والقساد والضلال.

فهم الذين اختارهم رب العالمين لإيصال هداه إلى أهل الأرض عن طريق رسله  
الكرام والملك المختار لهذه المهمة هو جبريل عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَيَّ قَلْبِكَ  
لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤).

كما أخبرنا عز وجل أنه سخرهم للدعاء للمؤمنين والاستغفار لهم، فقال  
سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ

(١) الإيمان: لمحمد نعيم ياسين (٥٥).

(٢) الإيمان: لمحمد نعيم ياسين (٥٥).

لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتُهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿ (غافر: ٧ - ٩) .

وهم يشجعون العبد على طاعة ربه، وعبادته ويحثونه بالذكر والقرآن، ويحثونه على العلم والخير، ويحضررون صلاته وقراءته وفي ذلك كله أحاديث صحيحة .  
وهم أيضاً يشبِّون العبد على العمل الصالح، وخاصة الجهاد في سبيل الله تعالى، كما قال تعالى:

﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلِفِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ (الأنفال: ١٢) .

ومن أعمالهم التي أخبرنا عنها رب العالمين مما له أثر عظيم في تفويم حياة العباد وحفظهم من المعصية والشر، ما وكل إليهم من مراقبة أعمال العباد وكتابتها بعد إحصائها. فقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمَ مَا تَوْسُوسُ بِهِ نَفْسَهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ \* إِذْ يَتَلَفَّى الْمُتَلَفِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ \* مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿ (سورة ق: ١٦-١٨) وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾ (الأنعام: ١١-١٢) وقال تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُوبُونَ ﴾ (الزمر: ٨) .

وقد وجدت كلاماً نفياً جامعاً لابن القيم في كتابة إغاثة اللفهقان من مصايد الشيطان) عن علاقة الملائكة بالإنسان . فقال: (والملائكة الموكلة بالإنسان من حين كونه نطفة إلى آخر أمره، لهم وله شأن آخر: فإنهم موكلون بتخليقه ونقله من طور إلى طور، وتصويره وحفظه في أطباق الظلمات الثلاث، وكتابة رزقه وعمله، وأجله وشقاوته، وسعادته وملازمته في جميع أحواله، وإحصاء أقواله وأفعاله وحفظه في حياته، وقبض روحه عند وفاته، وعرضها على خالقه وفاطره، وهم الموكلون بعذابه

وتعيمة في البرزخ، وبعد البعث، وهم الموكلون بعمل آلات التعيم والعذاب، وهم المثبتون للعيد المؤمن بإذن الله والمعلمون له ما ينفعه، والمقاتلون الذابون عنه، وهم أولياؤه في الدنيا والآخرة، وهم الذين يعدونه بالخير ويدعونه إليه، وينهونه عن الشر، يحذرونه منه فهم أولياؤه وأنصاره، وحفظته ومعلموه، وناصحوه، والداعون له، والمستغفرون له، وهم الذين يصلون عليه ما دام في طاعة ربه، ويصلون عليه ما دام يعلم الناس الخير، ويبشرونه بكرامة الله في منامه وعند موته ويوم بعثه، وهم الذين يزهون في الدنيا ويرغبونه في الآخرة، وهم الذين يذكرونه إذا نسي وينشطونه إذا كسل، ويشبتونه إذا جزع، وهم الذين يسعون في مصالح دنياه وآخرته، فهم رسل الله في خلقه وأمره، وسفراؤه بينه وبين عباده تنزل بالأمر من عنده في أقطار العالم وتصعد إليه بالأمر).<sup>(١)</sup>

وكل الذي قال ابن القيم رحمه الله استنبطه من كتاب الله وما صح من الأحاديث عن رسول الله ﷺ .

### ج - عدد الملائكة:

وهم كثير، لا يحصي عددهم إلا الله قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾ (الدنر: ٣٦) .

وهكذا منهج القرآن في بيان حقيقة الملائكة، فيه ملامح الوسطية بعيداً عن الغلو والإفراط والتفسير والمطلوب من المؤمن أن يؤمن بالملائكة إيماناً تفصيلياً وإجمالاً، فيجب عليه الإيمان بالملائكة التي وردت أسماؤهم في الكتاب أو السنة بالتفصيل ومن هؤلاء رؤسائهم الثلاثة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل.<sup>(٢)</sup>

(١) انظر: إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ٢٦ / ١٢٥ .

(٢) الكواشف الجليلة عن معاني الوسطية (٣٦) .

وجبريل هو الملك الموكل بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح وقد ورد ذكره هو وميكائيل في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيَّ قَلْبًا بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧) مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٩٧ - ٩٨) .

وجبريل عليه السلام عادته اليهود ظلمًا وعدوانًا وانتكاسًا وبعدًا عن الصراط المستقيم، أما الفلاسفة فأنكروا الملائكة جمعة . وقد اتنى الله سبحانه عليه في القرآن أحسن الثناء ووصفه بأجمل الصفات، قال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنُوسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنُوسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ (التكوير: ١٥ - ٢١) وقال تعالى في وصفه: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى (٦)﴾ (الشع: ٥ - ٦) .

وأما ميكائيل فهو الملك الموكل بالقطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان (١) وأما إسرافيل فهو: الملك الموكل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مآتهم (٢) ومن الملائكة الذين ورد ذكرهم في القرآن مالك، خازن النار، قال تعالى: ﴿وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ (الزمر: ٧٧) فهؤلاء وغيرهم من ورد ذكر أسمائهم في أحاديث ثبتت صحتها يجب الإيمان بهم، وبما نيظ بهم من الوظائف والأعمال، وأما الملائكة الذين لم يرد ذكرهم، فيجب أن نؤمن بهم بصورة إجمالية، ونؤمن بما ذكر من أصنافهم، وأفعالهم في القرآن والسنة فنؤمن بالكرام الكاتبين الذين جعلهم الله علينا حافظين، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٦) كَرِيمًا كَاتِبِينَ (١٧) يَعْلَمُونَ مَا تَقُولُونَ﴾ (الأنفال: ١٦ - ١٧) .

كما قال تعالى: ﴿لَهُ مَعْقِبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ يَحْفَظُونَهُ مِّن أَمْرِ اللَّهِ﴾ (الرعد: ١١) وذكرت بعض كتب التفسير أنهم اثنان عن اليمين وعن الشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، ومكان آخران يحفظانه ويحرسانه واحد من أمامه وواحد من ورائه، فهو بين أربعة ملائكة .

(٢) إغاة اللفظان (٢ / ١٢٢) .

(١) انظر: أصول الإيمان لمحمد بن عبد الوهاب .

وروي الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:  
 «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة، قالوا: وإياك  
 يا رسول الله؟ قال: وإياي، لكن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير»<sup>(١)</sup>

ونؤمن بملك الموت الموكل بقبض أرواح العالمين قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ  
 الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (السجدة: ١١) ولم يصرح القرآن باسمه،  
 والأحاديث الصحيحة، وجاء في بعض الآثار تسميته بعزرائيل<sup>(٢)</sup> قاله أعلم .

ونؤمن بحملة العرش، الذين أخبر عنهم الله في القرآن فقال سبحانه: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ  
 عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ قَمَانِيَّةٌ﴾ (الحاقة: ١٧)

ونؤمن كذلك بالملائكة الموكلين بالنار، أعادنا الله منها، وهم الزبانية،  
 ومقدموهم تسعة عشر قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَازِنَةِ الْجَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ  
 عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ (عاد: ٤٩) قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ  
 نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَقْعَلُونَ مَا  
 يُؤْمَرُونَ﴾ (التحریم: ٦) وقال تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ (القدر: ٢٠-٢١) .

ونؤمن أيضاً بالملائكة الموكلين بالجنات الذين يهيئون الضيافة لساكنيها، من ملابس  
 ومآكل ومشارب ومصنوعات وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر  
 على قلب بشر . وإذا أردت أن تعرف ما صح عن رسول الله ﷺ عن الملائكة  
 فيمكنك أن ترجع إلى صحيح البخاري .

وبذلك يكون القرآن الكريم قد رسم لنا منهج الوسطية في إيماننا بالملائكة، وهذا  
 يبعدنا عن الوقوع في الخرافات والأوهام التي وقع فيها من لا يؤمنون بالغيب، ولا  
 يتلقون معارفهم عن الوحي الإلهي .

(١) مسلم، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب تحريش الشيطان (٤ / ٢٦١٧) .

(٢) أصول الإيمان لمحمد بن عبد الوهاب (١٤) .

وبهذا المعتقد يكون المسلم على منهج الاستقامة الذي أمر الله به وعلى الصراط المستقيم، فإن من يستشعر بقلبه وجود الملائكة جنود الرحمن، ويؤمن برقابتهم لأعماله وأقواله، وشهادتهم على كل ما يصدر عنه، يستحي من الله ومن جنوده، فلا يخالفه ولا يعصيه، لا في العلانية، ولا في السر، إذ كيف له ذلك وهو يعلم أن كل شيء محسوب ومكتوب ومشهود عليه .

وإيمانه بالملائكة الكرام يكسبه الصبر على مواصلة الجهاد في سبيل الله وعدم اليأس، والشعور بالأنس والطمأنينة التي هي من لوازم الإيمان بالملائكة وما أخبر الله من أفعالها وأحوالها وبهذا يتضح لنا أن من نعم الله علينا خلقه للملائكة وإخباره لنا عما يتفعلنا في معتقدنا في هذه المخلوقات الطائفة العابدة لله عز وجل .

وأسأل الله تعالى أن تكون صورة الاعتقاد في الملائكة قد اتضحت ملامحها من استقامة على الطريق وسلامة في التصور وعمق في المنهج وحكمة في خلفتها واعتدال في وضعها وعدل في حقيقتها بعيدة عن الغلو والإفراط والتفريط والإنكار .





## الفصل الرابع

### الكتب السماوية

تمهيد: إن من أركان الإيمان الاعتقاد بالكتب السماوية، وأنها من عند الله سبحانه وتعالى، إلا أن هناك من البشر من أنكر الكتب السماوية جملة وهم الملاحدة، وهناك من حرف الكتب السماوية وأضاف إليها ما لم ينزل الله به من سلطان، وهم اليهود والنصارى وقعوا في الغلو وفي الإفراط وابتعدوا عن الصراط المستقيم، وقد اتضح ذلك عندما تكلمنا عن منهج الوسطية في توحيد الله وأسمائه وصفاته، حيث رأينا ما وقع فيه اليهود من التحريف، وما وقعت فيه النصارى كذلك، وقد وضَّح الله سبحانه وتعالى ما وقع فيه أهل الكتاب من التحريف والتبديل .

### المبحث الأول

#### تحريف اليهود وتزويرهم

أما اليهود فقد تفتنوا في التزوير، وأضافوا في كتابهم المقدس وحذفوا منه واتبعوا كافة الأساليب الشيطانية وقد بين الله في كتابه العزيز أنواعاً من تحريف اليهود للتوراة:

أولاً: إلباس الحق بالباطل:

كان بنو إسرائيل يخلطون الحق بالباطل، بحيث لا يتميز الحق من الباطل، وقد سجل القرآن الكريم هذا الجرم عليهم، قال سبحانه: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤١﴾ وَأَمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوْلَىٰ كَافِرِيهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونَ ﴿٤٢﴾ وَلَا تَلْبَسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴿البقرة: ٤١ - ٤٢﴾ وقال سبحانه: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبَسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ﴿آل عمران: ٧٦﴾ .

ومن أبلغ الصور وأقبحها في إلباس الحق ادعاء الكهنة والاحبار - في التوراة

التي بأيديهم - أن هارون عليه السلام هو الذي جمع الذهب من بني إسرائيل واشترك معهم في صناعة العجل الذهبي، ووافقهم على عبادته من دون الله، وفي الوقت نفسه يبرئون السامري، فهارون الذي تحمل المشاق عليه الصلاة والسلام في سبيل إقناع فرعون بالتوحيد جعلوه داعية الشرك والكفر، ولكن القرآن الكريم كان لهذه الدعوى بالمرصاد، فكذبهم، وبين حقيقة الأمر (١١).

قال تعالى: ﴿فَكَذَّبكَ النَّاسُ السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورًا فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلِ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَنْ نُبْرِحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ (سجدة: ٨٧ - ٩٠).

فهذا هو الصدق حقاً إنما عمل لهم العجل السامري، أما هارون فنهاهم ولكنهم عصوه وكادوا يقتلونه.

### النوع الثاني: من التحريف كتمان الحق:

لا شك أن الله حق، ولا يقول إلا حقاً، والتسوية التي أنزلت على موسى كلها حق؛ لأنها كلام الله تعالى؛ ولكن بني إسرائيل كانوا يكتُمون الحق قاصدين بذلك إخضاع كتاب الله لأهوائهم وشهواتهم، فالآيات التي يرون فيها منفعة لهم عاجلة أو تكون في جانب حججهم يفرونها، وأما الآيات التي يرون أن فيها دليلاً عليهم فيكتمونها، ولهذا سجل الله عليهم هذا الكتم في كتابه فقال سبحانه: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ قَلْبُسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (سورة عمران: ٧١).

ومن أعظم ما كتمه أهل الكتاب هو ما وجدوه في كتبهم من صفات محمد ﷺ واختيار الله له رسولاً إلى الناس أجمعين وقد كانوا يعرفونه في كتبهم كما يعرفون أبناءهم ولكنهم إذا سئلوا عن ذلك كتموا (١٢).

(١) انظر: الفصل، آية حزم (١ / ٢٥٦).

(٢) انظر: تفسير البغوي (١ / ٦٧، ١٦٢، ٣١٥).

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٧٦) ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الاسم: ٢٠).

وقد بين عز وجل صفاته ﷺ الكاملة في التوراة والإنجيل فقال عز وجل: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (الاعراف: ١٥٦ - ١٥٧) ومع هذه الأوصاف العظيمة التي كانوا يعرفونها مكتوبة عندهم أنكروا نبوته ﷺ وكنتموا ما علموه .

### النوع الثالث: إخفاء الحق:

وقد كان أهل الكتاب يخفون من أحكام التوراة الشيء الكثير، قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (البقرة: ١٧٥) ومن الأحكام التي أخفاها اليهود حكم رجم الزاني والمحصن، فقد جاءوا إلى النبي ﷺ برجل منهم وامرأة قد زنيا، فقال لهم: كيف تفعلون بمن زنى منكم؟ قالوا: نحممهما ونضربهما . فقال: لا تجدون في التوراة الرجم؟ فقالوا: لا نجد فيها شيئاً . فقال لهم عبد الله بن سلام كذبتم، فأتوا بالتوراة فأتوها إن كنتم صادقين، فوضع مدارسها الذي يدرسها منهم كفه على آية الرجم، فطفق يقرأ ما دون يده وما وراءها، ولا يقرأ آية الرجم، فترج يده عن آية الرجم، فقال ما هذه؟ فلما رأوا ذلك قالوا: هي آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما... الحديث<sup>(١)</sup>.

ولهذا قال سبحانه: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ أُوتِيتُمْ هَذَا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا﴾ إلى

(١) البخاري مع التلخيص، كتاب التفسير، سورة آل عمران، باب: ﴿قال فأتوا بالتوراة﴾ (٨ / ٢٤٤).

قوله: ﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَقُولُونَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٤١ - ٤٢) . وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فُرُيقًا مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (آل عمران: ٢٣) .

فأنكر سبحانه على أهل الكتاب المتمسكين فيما يزعمون بكتائبهم التوراة والإنجيل، وإذا دعوا إلى التحاكم إلى ما فيهما من طاعة الله فيما أمرهم به فيهما من أتباع محمد ﷺ تولوا وهم معرضون عنهما وهذا في غاية ما يكون من ذمهم (١) .

### النوع الرابع: لبي اللسان:

من أنواع تحريف اليهود للتوراة: لبي اللسان، فهم يلوون آياتهم ويعطفونها بالتحريف، ليلبسوا على السامع اللفظ المنزل بغيره، ويقتلون آياتهم حين يقرأون كلام الله تعالى لإمائه عما أنزله الله عليهم إلى اللفظ الذي يريدونه .

قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ٧٨) .

ومن التحريف لبي اللسان ما كان يفعله اليهود مع رسول الله ﷺ بقولهم: ﴿وَأَسْمِعْ غَيْرَ مَسْمُوعٍ﴾ (النساء: ٤٦) ويقصدون معنى اسمع لا سمعت، أي: يدعون على النبي ﷺ وقد كان المسلمون يقولون للنبي ﷺ راعنا، من المراعاة والمعنى: فأرع سمعت لكل منا، فلما سمع اليهود هذه اللفظة اغتموا الفرصة في التحريف، لأن معناها عندهم السب والطعن بمعنى يا أحمق (٢) ولكن الله عز وجل كشف سترهم فقال: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمِعْ غَيْرَ مَسْمُوعٍ وَرَاعِنَا لَبِئْسَ مَا بَالُكُمُ الْيَهُودِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمِعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء: ٤٦) .

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١ / ٣٥٦) .

(٢) انظر: تفسير البهوتي: (١ / ١٢٨، ١٠٢) .

ونهى الله المؤمنين عن صفات اليهود فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنًا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (البقرة: ١٠٤).

النوع الخامس: تحريف الكلام عن مواضعه:

أثبت الله عز وجل على أهل الكتاب هذا النوع من التحريف فقال عز وجل: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ (النساء: ٤٦) ﴿فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ (النساء: ١٣).

وقال عز وجل: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُواكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ (النساء: ٤١) وهذا النوع من التحريف له أربع صور كالتالي:

- ١ - تحريف التبديل: وهو وضع كلمة مكان كلمة، أو جملة مكان جملة .
- ٢ - تحريف بالزيادة: ويكون بزيادة كلمة أو جملة .
- ٣ - تحريف بالنقص: وهو إسقاط كلمة أو جملة من الكلام المنزل على موسى عليه السلام .
- ٤ - تحريف المعنى: تبقى الكلمة أو الجملة كما هي ولكنهم يجعلونها محتملة لمعنيين، ثم يختارون المعنى الذي يتفق مع أهوائهم وأغراضهم<sup>(١)</sup>. وهذه الصورة لها أمثلة كثيرة من التوراة لا يشع المقام لذكرها<sup>(٢)</sup>.

ومن رحمة الله تعالى وكرمه أنه عندما ذكر ما فعلوه من العظائم دعاهم إلى التوبة، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْتُوا الْكِتَابَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمَسَ وُجُوهاً فَتَرُدَّهَا عَلَيَّ أَدْبَارَهَا أَوْ نُلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَصْحَابَ النَّارِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (النساء: ٤٧) فلو آمنوا بالله وملائكته وجميع كتبه ورسله لكفَّر عنهم سيئاتهم وأدخلهم الجنة<sup>(٣)</sup>.

(١) التوراة دراسة وتحليل للدكتور محمد شني شنيوي (٨٣) .

(٢) انظر: بغائة اللفهان (٢ / ٣٤٤-٣٤٢) .

(٣) انظر: تفسير السعدي (٣١٩) .

قال تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكُنَّا عَنْهُمْ سَيِّئِينَ وَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾  
 وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَالْزَكَاةَ وَآمَنُوا بِرُسُلِهِمْ لَنُزِّلْنَا بِهِمْ سَمَاوَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ  
 مَاءً مَّحْلُومًا ﴿٦٦﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَافِقِينَ ﴿٦٧﴾ أَزْجَلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءُ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾﴾ (البقرة: ٦٥ - ٦٨)

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ كَانُوا خَيْرًا لَّهَيَّبْنَا لَهَا الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرَهُمْ  
 الْفَاسِقُونَ﴾ (آل عمران: ١١٠) .



## المبحث الثاني

### تحريف النصارى للإنجيل

وأما النصارى فقد حرقوا الإنجيل وبذلك ابتعدوا عن الصراط المستقيم وإليك ما يثبت التحريف في الأناجيل:

أولاً: النتيجة التي لا مفر من التسليم بها أن الأناجيل القانونية الموجودة الآن ما هي إلا كتب مؤلفة، وهي تبعاً لذلك معرضة للخطأ والصواب، ولا يمكن الادعاء ولو لحظة أنها كتبت بإلهام؛ فلقد كتبها أناس مجهولون، في أماكن غير معلومة، وفي تواريخ غير مؤكدة، والشيء المؤكد أن هذه الأناجيل مختلفة غير متآلفة، بل إنها متناقضة مع نفسها، ومع حقائق العالم الخارجي، لأنها فشلت في تنبؤات كثيرة، كالفول بنهاية العالم، وهذا القول قد يضاف النصراني العادي، بل قد يصدمه؛ ولكن بالنسبة للعالم النصراني فقد أصبح ذلك عنده حقيقة مسلم بها<sup>(١)</sup> لما أجراه من أبحاث، ولما علم من واقع الإنجيل .

ثانياً: الشواهد على التحريف من الأناجيل:

أ - جاء في إنجيل مرقس: أن المسيح قال لتلاميذه: (اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليفة كلها، من آمن واعتمد خلص، ومن لم يؤمن يدان، وهذه الآيات تتبع المؤمنين يخرجون الشياطين باسمي، ويتكلمون بالسنة جديدة، يحملون حيات، وإن شربوا شيئاً مميئاً لا يضرهم، ويضعون أيديهم على المرضى فيبرمون)<sup>(٢)</sup>.

ففي هذا النص حجة على النصارى من وجهين:

الوجه الأول: قولهم عن عيسى إنه أمرهم أن يبشروا بالإنجيل فدل ذلك على أن إنجيلاً أناهم به وليس هو عندهم الآن، وإنما عندهم أربعة أناجيل متغايرة، وليس

(١) انظر: المناظرة بين الإسلام والنصرانية (٣٥-٥٠) .

(٢) انظر: الفصل لابن حزم، (٦ / ١٣٩) وعزاه المحقق إلى إنجيل مرقس، والإصحاح (١٦ / ١٥-١٨) .

منها إنجيل ألف إلا بعد رفع عيسى عليه السلام بأعوام كثيرة، فصح أن ذلك الإنجيل الذي أخبر المسيح أنه أتاهم به وأمرهم بالتبشير به ذهب عنهم ؛ لأنهم لا يعرفون له أصلاً، وهذا ما لا يمكن سواء .

الوجه الثاني: قولهم إنه وعد كل من آمن بدعوة التلاميذ أنهم يتكلمون بلغات لا يعرفونها، وينفون الجن عن المجانين، ويضعون أيديهم على المرضى فيبرءون ويحملون الحيات، وإن شربوا شربة قتالة لا تضرهم، وهذا وعد ظاهر الكذب ؛ فإن ما من النصراني أحد يتكلم بلغة لم يتعلمها، ولا منهم أحد ينفي جنياً، ولا من يحمل حية فلا تضره، ولا من يضع يده على مريض فيشفى، ولا منهم أحد يسقى السم فلا يضره، وهم معترفون بأن بوحننا - صاحب الإنجيل - قتل بالسم وحاشا لله أن يأتي نبي بمواعيد كاذبة، وهذا دليل على تحريف النصراني وناقضهم وتكذيبهم أنفسهم<sup>(١)</sup>.

ب - ومن ذلك ما جاء في إنجيل متى أن عيسى عليه السلام دعا على شجرة تين خضراء فبيست التينة في الحال، فتعجب التلاميذ من ذلك، فقال لهم عيسى: (الحق أقول لكم إن كان لكم إيمان، ولا تشكو أمر التينة فقط، بل إن قلتم أيضاً لهذا الجبل انتقل وانطرح في البحر فيكون)<sup>(٢)</sup>.

وهذا فيه حجة على النصراني، وذلك أن الأمر لا يخلو من أن يكون النصراني مؤمنين بالمسيح عليه السلام، أو غير مؤمنين، فإن كانوا مؤمنين، فقد كذبوا المسيح فيما نسبوه إليه في هذه المقالة - وحاشا له من الكذب - فليس منهم أحد قدر على أن يأمر حبة من خردل بالانتقال فتنتقل، فكيف على قلع جبل وإلقائه في البحر . وإن كانوا غير مؤمنين به فهم بإفراهم هذا كفار، ولا يجوز أن يصدق كافر<sup>(٣)</sup>.

وبهذا يتبين أن الأناجيل وقع فيها تحريف عظيم، ولا يعتمد عليها، ولا مخرج

(١) انظر: الفصل لابن حزم (٢ / ١٣٩) .

(٢) انظر: الفصل لابن حزم، (٢ / ١٣٩) .

(٣) المرجع السابق (٢ / ٩٨) .



من هذا التيه إلا بالدخول في الإسلام وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه ما اقترفه النصارى وما أدخلوه على حقيقة النبوة: من تأليه جماعة منهم لعيسى ابن مريم، وقول بعضهم بالتثليث، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ (٢٣٥: ٧٢) وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثٌ ثَلَاثَةٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٢٣٥: ٧٣) فجاء القرآن الكريم، وبين هذا التحريف، وبين العقيدة السليمة عن عيسى وأمه، فقال تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نَبِّئُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤفَكُونَ﴾ (٢٣٥: ٧٥) والحق الذي لا يمارى فيه منصف أنه لا يوجد اليوم على ظهر الأرض كتاب تصلح نسيته إلى الخالق تبارك وتعالى سوى القرآن الكريم، ومن وسطية القرآن في ركن الكتب السماوية بيانه ما وقع فيها من الانحراف والابتعاد عن الصراط المستقيم وأعطانا القول الفصل في هذا المجال ولم يترك ما يفيدنا وينفعنا فيما يتعلق بهذا الشأن وغيره .

فبين سبحانه وتعالى أن التوراة أصلها من عند الله وحدث فيها التحريف بسبب أحبارهم وورهبانهم قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّهْبَانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحَفُّوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوْنَ النَّاسَ وَآخِشُوا اللَّهَ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٢٣٥: ٤٤) .

وبين سبحانه وتعالى أن الإنجيل أصله من عند الله إلا أن علماءهم حرقوه قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يَنْبَغُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (٢٣٥: ١٤ - ١٥) .

وأخبر سبحانه وتعالى أن الزبور أنزلها على داود عليه السلام فقال تعالى:

﴿وَرَبِّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ (الاسراء: ٥٥) وأخبرنا سبحانه عن الصحف التي أنزلها على إبراهيم وموسى التي أخبر الله عنها بقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَبَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ (٢٦) وإبراهيم الذي ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا لَهُ آيَاتِنَا فَكَفَرٰهُنَّ وَأَوْرَثَهُنَّ وَآخَرِينَ آخَرِينَ﴾ (٢٧) ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ (٢٨) ﴿وَأَن سَعَىٰ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ (٢٩) ﴿ثُمَّ يُجْزَأُ الْجَزَاءَ الْأَوَّلَىٰ﴾ (٣٠) ﴿وَأَن إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ (التجم: ٣٦ - ٤٢) .

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ (١٤) وذكر اسم ربه فصلَّى ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (١٦) والآخره خير وأبقى (١٧) إن هذا ففي الصحف الأولى (١٨) صحف إبراهيم وموسى ﴿(الاعرا: ١٤ - ١٦)﴾ .

وأما الكتب الأخرى التي نزلت على سائر الرسل، فلم يخبرنا الله تعالى عن اسمائها، وإنما أخبرنا سبحانه أن لكل نبي أرسله الله، رسالة بلغه قومه، فقال: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (البقرة: ٢١٣) .

فمن حكمة الله أنه بين لنا ما يفيدنا في ديننا وآخرتنا فيجب علينا أن نؤمن بهذه الكتب التي لم تُسمَّ إجمالاً، ولا يجوز لنا أن ننسب كتاباً إلى الله تعالى سوى ما نسيه إلى نفسه مما أخبرنا عنه في القرآن الكريم.



## المبحث الثالث

## وسطية القرآن بين الكتب السماوية

ومن وسطية القرآن في باب الإيمان بالكتب السماوية بيانه أن هذه الكتب نزلت بالحق والنور والهدى وتوحيد الله سبحانه في ربييته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وأن ما نسب إليها مما يخالف ذلك إنما هو من تحريف البشر وصنعهم .

ومن وسطية القرآن ما ميزه الله وخصه به عن سائر الكتب المقدسة التي سبقت نزوله من الكتب المنزلة من أهمها:

أنه تضمن خلاصة التعاليم الإلهية، وجاء مؤيداً ومصدقاً لما جاء في الكتب السابقة من توحيد الله، وعبادته، ووجوب طاعته، وجمع كل ما كان متفرقاً في تلك الكتب من الحسنات والفضائل، وجاء مهيمناً ورقياً عليها، يقر ما فيها من حق، ويبين ما دخل عليها من تحريف وتغيير<sup>(١)</sup> قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَا جَاوِزًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَبِئْسَ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (المائدة: ٤٨) .

ومن وسطية القرآن أنه جاء بشريعة عامة للبشر فيها كل ما يلزمهم لسعادتهم في الدارين، نسخ بها جميع الشرائع العملية الخاصة بالاقوام السابقة وأثبت فيها الأحكام النهائية الخالدة الصالحة لكل زمان . إن القرآن الكريم هو الكتاب الرباني الوحيد الذي تعهد الله بحفظه فقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩) وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (١٦) لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (نصفت: ٤١ - ٤٢) .

(١) انظر: الإيمان لعمد ياسين (١٠٠) .

والقرآن الكريم أنزله على رسوله محمد ﷺ للناس كافة وليس خاصاً بقوم معينين، كما كانت تنزل الكتب السابقة فكان حفظه من التحريف، وصيافته من عبث الناس، ليبقى ما فيه حجة الله على الناس، قائمة حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

بعكس الكتب الأخرى، فقد وجه الكلام في كل واحد منها إلى أمة خاصة دون سائر الأمم، وهي وإن اتفقت في أصل الدين إلا أن ما نزل فيها من الشرائع والأحكام كان خاصاً بأزمنة معينة وأقوام معينين قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَمَلْنَا مِنْكُمْ شَرْعَةً وَمِنْهَا جَا﴾ (التوبة: ٤٨).

لذلك لم يتعهد الله سبحانه بحفظ أي منها على مدى الدهور والأيام والأزمان كما هو الحال بالنسبة للقرآن، وقد نكَّلتُ عن أوجه الخيرية للقرآن الكريم في باب ملامح الوسطية .

وبهذا أرجو من الله العلي العظيم أن أكون قد وفقت في بيان وسطية القرآن بالسنة للكتب السماوية .



## الفصل الخامس

### وسطية القرآن في أنبياء الله ورسله

تمهيد: لقد كان من أعظم نعم الله عز وجل على عباده أن بعث فيهم رسلاً منهم يعرفون نسبهم وأخلاقهم، اختارهم من خيارهم واصطفاهم من أوسطهم مكانة ونسباً، يدعون قومهم إلى خير يتفعلهم في دنياهم وأخراهم وينهونهم عن كل ما فيه هلاكهم وضررهم في دنياهم وأخراهم، يدعونهم إلى عبادة الله وحده واتباع أوامره واجتناب نواهيه ويحذرونهم من الشرك بالله ومعصيته، ومخالفة أوامره وارتكاب نواهيه - فما من أمة إلا خلا فيها نذير، وبعث إليها رسلاً أو رسولاً، وذلك رحمة من الله بعباده، ولشلا يقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير، يقول في ذلك تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ (النحل: ٣٠)

ويقول الله عز وجل: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْفَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (١٦٣) وَرَسُولًا قَدْ قَصَصْنَاكُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرَسُولًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا (١٦٤) رَسُولًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١٦٣-١٦٤)

فبين سبحانه أنه أرسل رسله إلى عباده مبشرين ومنذرين، فمن عصاهم فله أليم العذاب والعقوبة، لئلا يحتج من كفر بالله وعبد الأنداد أو ضلَّ عن سبيله بأن يقول إن الله أراد عقابه:

﴿لَوْلَا أَرْسَلْتُ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتُبَّحَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ (عد: ١٦٤)

ولقد بلغ الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، ما أرسلوا به، ونصحوا لأمرهم، غاية النصح، وبينوا لهم أوضح بيان وأجلاء، ما يجب عليهم في دينهم ودنياهم،

وما أعد الله لأهل طاعته من ثواب، وأهل معصيته من عذاب، وسلكوا في تبليغ قومهم رسالات ربهم كل مسلك فدعواهم ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً ولم يسألوهم على ذلك أجراً، بل تحملوا في سبيل نصحتهم وهدايتهم ألوان الشدائد وضروب المتاعب والأذى<sup>(١)</sup>.

ولقد تباينت مواقف الأمم تجاه أنبيائهم ورسولهم، ما بين مؤمن بهم متبع لهم، وبين كافر بهم مؤذٍ لهم، وبين غالٍ فيهم مثلك لهم فوق المترقة التي أنزلهم الله إياها، وفي هذا المبحث سنعرض لموقف اليهود والنصارى والمسلمين في أنبياء الله ورسوله . وإنما اخترنا هذه الأمم من بين سائر الأمم، لكونها أكثر الأمم أنبياء ورسلاً، ولكونهم أهل كتب سماوية نزلت إليهم، ولكونهم آخر ثلاث أمم أرسل إليها رسل أدرك بعضها بعضاً .



(١) انظر: وسطية أهل السنة بين الفرق (٢٥٦) .

## المبحث الأول

### موقف اليهود من أنبياء الله ورسله

لقد كان لليهود من أنبياء الله ورسله مواقف شائنة مخزية تنبئ عن حيث في الظلمة، وفساد في السيرة والسريرة، وانسحاق للنفس والهيوى، وإعراض عن الحق والهدى . وإذا نحن أجلنا النظر في كتاب الله عز وجل، نحصل لنا أن مواقف اليهود من رسل الله تتلخص في الأمور التالية:

**الأمر الأول:** أنهم فرقوا بين رسل الله ولم يؤمنوا بهم جميعاً بل آمنوا ببعض وكفروا بالبعض الآخر (بمجرد انتشهي والعادة)، لا عن دليل قاهم إلى ذلك، فإنه لا سبيل لهم إلى ذلك بل بمجرد الهوى والعصية) (١).

ومن أعظم الرسل الذين كفروا بهم وكذبوا برسالتهم، عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، على أنهم كذبوا وكفروا بأنبياء آخرين غيرهما بدليل قتلهم لكثير من أنبيائهم كما سيأتي وقد عد الله من يؤمن ببعض الرسل ويكفر بالبعض الآخر كافراً، بل هو الكافر حقاً فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (النساء: ١٥٠ - ١٥١).

قال الإمام ابن جرير في تفسير هذه الآية: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ يعني أنهم يقولون نصدق بهذا ونكذب بهذا، كما فعلت اليهود في تكذيبهم عيسى ومحمد ﷺ، وتصديقهم بموسى وسائر الأنبياء قبله بزعمهم وكما فعلت النصراني من تكذيبهم محمداً ﷺ، وتصديقهم عيسى وسائر الأنبياء قبله بزعمهم (٢).

**الأمر الثاني:** أنهم خذلوا أنبياءهم ولم يقوموا بتصرهم، وقد أخذ الله عليهم ميثاقهم لينصروهم فقال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا

(١) تفسير ابن كثير (٢ / ٢٩٦).

(٢) جامع البيان (٩ / ٣٥١).

وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتُم برُسلي وعزرتُمومهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرنَّ عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضلَّ سواء السبيل ﴿ (البقرة: ١٧) .

قال الحافظ ابن كثير: (أي: نصرتموهم وآزرتموهم على الحق) <sup>(١)</sup> . فلم يفوا بميثاقهم، وما لبثوا أن قالوا لموسى عليه السلام لما قال لهم: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ ﴿ (البقرة: ٢١) ﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا فِيهَا قَوْمٌ جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنُودِلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿ (البقرة: ٢٢) .

ثم ما لبثوا أن أعلنوا خذلانه، وعدم القتال معه، ودخلوا بينه وبين عدوه فد: ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنُودِلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ﴿ (البقرة: ٢٢) ﴾ فكان جزاؤهم التيه في الأرض أربعين سنة: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿ (البقرة: ٢٦) .

الأمر الثالث: أنهم تنقصوا بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ورموهم بارتكاب كبائر الذنوب، والصفوا بهم كل رذيلة ومن ذلك .

١ - ما نسبوه إلى هارون عليه السلام من أنه صنع لهم العجل، الذي عبده من دون الله جاء في (سفر الخروج) .

(ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل، اجتمع الشعب على هارون وقالوا له: قم اصنع لنا آلهة نسير أمامنا ؛ لأن هذا موسى الرجل الذي أسعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه، فقال لهم هارون: انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبناتكم وبناتكم وآقوني بها، فترزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالأزميل وصنعه

(١) تفسير القرآن العظيم (٣ / ٦٢) .



عجلاً مسبوكاً، فقالوا هذه كهتك يا إسرائيل التي أصدتتك من أرض مصر، فلما نظر هارون بني مذبحاً أمامه ونادي هارون وقال: غداً عيد للرب فيكروا في الغيد وأصدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة وجلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب<sup>(١)</sup>.

هكذا يصور هذا السفر نبياً عظيماً من أنبياء الله بعثه ليدعو الناس إلى توحيد الله - في صورة صانع للأصنام، مخر لقومه بعبادته من دون الله عز وجل - ونحن نقطع بأن هذا النص مما كتبه اليهود بأيديهم، وقالوا هو من عند الله وما هو من عند الله، وإنه (ليدل على أن محرري هذه الأسفار لا يراعون لأنبيائهم حرمة ولا يرجون لهم وقاراً ولا يتورعون عن أن ينسوا إليهم أية نفيضة حتى خيانة الرسالة نفسها التي بعثوا من أجلها ودفع قومهم إلى الشرك بالله)<sup>(٢)</sup>.

ولقد ذكر الله في القرآن الكريم قصة عبادة اليهود للعجل، وبين أن الذي صنع العجل وأغراهم بعبادته هو السامري وليس هارون عليه السلام؛ بل أخبر عز وجل أن هارون عليه السلام حذر قومه من ذلك ولكن القوم لم يلتفتوا إلى تحذيره وعصوه، وخالفوه إلى ما نهاهم عنه فقال عز وجل: ﴿وَمَا أَعْجَلَتْكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ (٨٣) قال هم أولاء علي أتري وعجلت إليك رب لترضى (٨٤) قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري (٨٥) فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يجل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم مواعيدي (٨٦) قالوا ما أخلفنا مواعيدك بملكنا ولكننا حملنا أوزارنا من زينة القوم فقد فتانا كذلك ألقى السامري (٨٧) فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فسي (٨٨) أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً (٨٩) ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فُتِمَ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قالوا لن نبرح عليه عما كفين حتى يرجع إلينا موسى ﴿ (٨٣ - ٩١) .

(١) الكتاب المقدس، العهد القديم سفر الخروج، الإصحاح (٣٢)، فقرة (١-٦) .

(٢) انظر: الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، للدكتور علي عبد الواحد، (٤٦) .

فهذه الآيات تنطق في وضوح براءة هارون عليه السلام مما نسب إليه اليهود، وتشهد بافترائهم وكذبهم وتقولهم على الله عز وجل ورسله ألا بش ما يزرون .  
ورموا نبي الله الأواب سليمان عليه السلام بأنه في أواخر أيامه مال إلى مائة نسائه على عبادة الأوثان وبنى لألهتهن المعابد وأن قلبه مال معهن إلى هذه الألهة ولم يكن ذلك مخلصاً في إيمانه بربه عز وجل وتجد ذلك في (سفر الملوك الأول) من كتبهم المقدسة<sup>(١)</sup>.

فهذا سليمان النبي الكريم الذي لم يقر ملكة سبأ وقومها على عبادة الشمس والقمر من دون الله، وبذل ما في وسعه لهدايتهم إلى عبادة الله رب العالمين، فأظهر لها من آيات الله التي آتاه ما حدا بها إلى الهداية والإسلام فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (النمل: ٤٤) ومع ذلك ينسب إليه اليهود الميل إلى عبادة الأصنام والإذعان لرغبة نسائه في ذلك، سبحانه اللهم هذا بهتان عظيم .

٢ - نسبتهم لبعض الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام شرب الخمر وارتكاب فاحشة الزنى والقتل فتسبوا إلى أبي الأنبياء نوح عليه السلام أنه شرب الخمر حتى سكر وثلث وانكشفت سوته ذكر ذلك في (سفر التكوين)<sup>(٢)</sup> هكذا يصور كتاب اليهود المقدس نوحاً عليه السلام الذي مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله لئلا ينهاروا وسراً وجهاراً، في صورة فاسق لا يفوق من السكر، قاتلهم الله أتى يؤفكون .

ونسبوا إلى نبي الله لوط عليه السلام الزنى بابنتيه، فقالوا: إن ابنتيه تأمرتا عليه وأسقتاه خمرًا حتى ثمل وزنى بهما وحملتا منه، ذكر ذلك في سفر التكوين<sup>(٣)</sup>.  
وهذا نبي الله الملك الصالح داود عليه السلام تنسب إليه الثورة المزعومة الزنى بإحدى زوجات قائد من قواد جنوده فخشي اقتضاح أمره فاحتال بقتله، وتزوج

(١) انظر: سفر الملوك الأول، إصحاح (١١) آية (٤) - (١) .

(٢) وسطية أهل السنة بين الفرق (٢٦٦) .

(٣) انظر: سفر التكوين، الإصحاح (١٩) ، آية (٣٠-٣٧) .

امراته من بعده ثم ذكروا أن داود طلب عودة أوريا زوج المرأة المزعومة من المعركة ليقيم مع زوجته .

في محاولة من داود لإخفاء جريمته ونسبة الحمل لأوريا، ولكن أوريا لم يدخل على أهله، ولما يش منه داود كتب إلى قائده بأمره بأن يجعل أوريا في مقدمة الجيش والتراجع عنه عند اشتداد الخطر ليهلك، ذكر ذلك في (سفر صموئيل الثاني) (١) .  
فانظر رحمك الله كيف صوروا نبياً كريماً بهذه الصورة المررية، فلم يكن لهم نسبة الزنى إليه، حتى جعلوه متأمرًا على المقتل، بل أمرًا به (٢) .

الأمر الرابع: أنهم قتلوا بعض أنبيائهم:

لقد سجل الله عليهم في القرآن الكريم هذا الموقف المشين من أنبيائهم في غير ما آية، مفرغًا لهم وموبخًا على هذا الصنيع القبيح، والجرم العظيم الذي ارتكبهوا بحق من أرسل لهدايتهم وبعث لإرشادهم إلى صراط الله المستقيم، من أنبياء الله ورسله قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (البقرة: ٨٧) .

وقال عز وجل: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَآرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ (٧٠: القصص) فاستجلبوا بهذا الموقف المخزي غضب الله عز وجل ومقته وسخطه واستوجبوا عذابه ونقمته: ﴿وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (البقرة: ٦١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (آل عمران: ٢١) .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلاثمائة نبي،

(١) سفر صموئيل الثاني: إصحاح (١١) فقرة (١٤-١٦) .

(٢) انظر: وسطية أهل السنة ، (٢٦٨) .

ثم يقيمون سوقاً يقتلهم في آخر الزمان) (١). ومن أعظم الانبياء الذين قتلوهم زكريا وابنه يحيى عليهما السلام، فقد أخرج الحاكم (٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله عز وجل: ﴿يَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ قال عمران (٣): بعث عيسى ابن مريم في اثني عشر رجلاً من الخواريين يعلمون الناس فكان بينهما عن نكاح ابنة الأخ وكان ملك له ابنة أخ تعجبه فأرادها وجعل يقضي لها كل يوم حاجة فقالت لها أمها: إذا سألك عن حاجتك فقول لي: أن تقتل يحيى بن زكريا، فقال لها الملك: ما حاجتك؟ فقالت: حاجتي أن تقتل يحيى بن زكريا فقال: سلي غير ذلك فقالت: لا أسأل غير هذا، فلما أتى أمر به فذبح . . .

وذكر الإمام ابن جرير (٤) وغيره قتل بني إسرائيل زكريا عليه السلام كما قتلوا ابنه يحيى، وقد أجمعوا على قتل المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، ولكن الله حفظه من كيدهم، ورفعهم إليه، وألقى شبهه على غيره فقتلوه وصلبوه وهم يعتقدون أنهم قتلوا المسيح عليه السلام، كما ذكر ذلك عنهم الحق تبارك وتعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِمَّنْ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١٥٧ - ١٥٨).

ويبدو أن هذا الخلق ظل ملازمًا لهم تجاه أنبياء الله ورسله، ولم يكن ذلك منهم مع أنبيائهم فقط، فقد حاولوا قتل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فلدسوا له السم صلوات الله عليه وسلامه بغية قتله، وحاول بنو النضير اغتياله بإلقاء الصخرة عليه (٥) جرياً على عادتهم في الخبيث والكيدهم لرسول الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، كما ثبت في الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه: «إن امرأة يهودية أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم بشاة مسمومة، فأكل منها فجيء بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألها عن ذلك؟ فقالت: أردت لأقتلك قال: ما كان الله ليسلطك على ذلك - قال - أو قال: علي قال: قالوا:

(١) انظر: ابن كثير في تفسيره (١ / ١٤٦).

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري توفي سنة (٤٠٤هـ) من أكبر علماء الحديث.

(٣) انظر: جامع البيان، (٦ / ٢٨٤). (٤) انظر: ابن هشام، السير (٢ / ١٩٠).

ألا تقتلها؟ قال: لا قال: فما زلت أعرسها في لهوات<sup>(١)</sup> رسول الله ﷺ<sup>(٢)</sup>. وتشير بعض الروايات إلى أن النبي ﷺ مات وهو يجد أثر سم اليهود له، ففي حديث عائشة رضي الله عنها كان النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه: يا عائشة: ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخير، فهذا أوان انقطاع أبهري من ذلك السم<sup>(٣)</sup>. وبعد: فهذا هو موقف يهود من رسل الله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم؛ إيماناً ببعض وكفر ببعض، وتنقص منهم وإيذاء، وسب، وشتم، وقذف بارتكاب جرائم السكر والعريضة، والزنى والقتل، ثم تشريد ومطاردة وقتل لبعضهم وهي مواقف تدل على مبلغ تفریط القوم وبعدهم عن الوسطية وعن الصراط المستقيم وعن العدل والاستقامة في حق أنبياء الله ورسله، وعظم تقصيرهم وشدة جفائهم وعداوتهم وبما غلوا وأفرطوا في حق بعض أنبيائهم، وأنزلوهم فوق مكانة النبوة والرسالة، كما وقع منهم في حق العزيز عليه السلام إذ قالوا إنه ابن الله كما ذكر الله عز وجل ذلك في قوله: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَوْنَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَاتْلُهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤفَكُونَ» (براءة: ٣٠).

ومن مظاهر غلوهم اتخاذ قبور أنبيائهم مساجد، كما أخبر المصطفى ﷺ بذلك ولعنهم لأجله فقال: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»<sup>(٤)</sup> وفي حديث آخر قال ﷺ: «قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»<sup>(٥)</sup>. فالقوم كان لديهم غلو في بعض أنبيائهم، لكن لما كان الغالب عليهم الجفاء والتفریط في هذا الجانب ظن بعض الناس أنه لم يقع منهم غلو، لكثرة ما ورد في القرآن من نسبة قتل الأنبياء وتكذيبهم إليهم، بل ربما لهوى في نفرس البعض، حاول التشكيك في الأحاديث التي أشرنا إليها وأوهم أنها تعارض ما جاء في القرآن من ذكر جفائهم للأنبياء، وغفل أو تغافل عن أن القرآن الكريم كما جاء فيه نسبة التفریط إليهم، جاء فيه أيضاً نسبة الإفراط والغلو إليهم كما تقدم في شأن العزيز عليه السلام.

(١) لهوات: جمع لهاة وهي اللحمة في سقف اتس الفم.

(٢) البخاري: كتاب الهدية، باب قبور الهدية من المشركين، (٥ / ٣٢٠) رقم الحديث (٢٦١٧).

(٣) البخاري: كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ (٩ / ١٣١).

(٤)، (٥) البخاري: كتاب الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، (١ / ٥٣٢).

## المبحث الثاني

### موقف النصارى

إذا كان اليهود غلب عليهم التفريط والتقصير والجفاء في حق أنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين مع غلوهم في بعضهم كالعزير عليه السلام فإن النصارى قد ذهبوا إلى أقصى الطرف المعاكس فغلب عليهم الغلو والإفراط ولا سيما في نبي الله عيسى عليه السلام، على أنهم فرطوا وقصروا أيضاً في حق الله؛ بل وفي حق عيسى عليه السلام أيضاً، ويمكن إجمال مواقفهم في هذا الباب في الأمور التالية:

**الأمر الأول:** أنهم لم يؤمنوا بجميع الرسل والأنبياء، بل فرقوا بينهم فآمنوا ببعض وكفروا ببعض وغلوا في بعض، وهم معنيون أيضاً بقوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنُكْفِرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٥) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (البقرة: ١٥٠ - ١٥٦) وقدمنا إيراد هذه الآية في الكلام على موقف اليهود، وذكرنا ما قاله الإمام ابن جرير في تفسيرها، وفيه أن النصارى ممن آمن ببعض الأنبياء وكفروا ببعض، حيث آمنوا بعيسى وموسى بزعمهم وكفروا بمحمد عليه السلام.

**الأمر الثاني:** أنهم غلوا وأفرطوا في نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام، ورفعوه فوق المكانة التي جعله الله فيها، وأنزلوه فوق المنزلة التي أنزله الله إياها. فلم يؤمنوا به عبداً لله ورسولاً نبياً، وإنما جعلوه هو الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة يشكلون منها الإله، وعبدوه من دون الله عز وجل وأضافوا إليه من الأفعال والأعمال ما لا يصح إضافته ونسبته إلا إلى الله عز وجل، فكانت عقيدتهم فيه التي أجمعوا عليها بعد (مجمع نيقية) <sup>(١)</sup>. وسموها بـ (الإمامة) على النحو التالي:

الإيمان:

(١) سمي بذلك نسبة إلى مدينة نيقية من أعمال بفسطاط التي اجتمع بها عدد من علماء النصارى، وكان من أهم قراراته القول بالهبة المسيح عليه السلام. انظر: النصرانية لأبي رجرة (١٢٤)، وانظر: ابن القيم، هداية الحيارى (٣٢٢).

١- بإله واحد، أب، ضابط الكل، خالق السماء والأرض صانع ما يرى وما لا يرى .

٢- ويرب واحد يسوع، الابن الوحيد المولود من الأب قبل الدهور من نور الله إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساو للأب في الجوهر الذي به كان كل شيء الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خطايانا نزل من السماء وتجسد في روح القدس ومن مريم العذراء، وصلب حياً على عهد ييلاطس وتآلم وقبر، وقام من الاموات في اليوم الثالث على ما في الكتب وصعد إلى السماء وجلس على يمين الرب وسبأني ليدين الأحياء والاموات، ولا فناء لملكه . . . (١)

لقد ذكر القرآن الكريم غلوهم في عيسى عليه السلام، وقولهم بالوهيته ونبوته لله عز وجل، وكفرهم بذلك، فقال جل وعلا: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ (٧٧: آل عمران) ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٧٣: آل عمران) .

وقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّىرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَتُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (البقرة: ٣٠) .

وورد في بعض الأناجيل بعض التصوص التي اعتمد عليها النصارى في تأليه المسيح ونبوته، ومن ذلك ما جاء في إنجيل (يوحنا) كقوله: (في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة لله هذا كان في البدء عند الله، كل به كون وبغيره لم يكن شيء مما كون) (٢) .

فجعل المسيح هو الكلمة، وجعل الكلمة هي الله، فالمسيح هو الله، تعالى الله عن قولهم .

وفيه أيضاً أن المسيح عليه السلام أبرأ أعمى فرده بصيراً، وأن اليهود لما سألوه من

(١) انظر: الاسفار المقدسة (١١١) ، المثل والعمل (٢ / ٢٨) لشهرستاني .

(٢) إنجيل يوحنا، الإصحاح الأول، فقرة (١-٤) .

رد إليك بصرك أخبرهم بذلك ووعظهم فطردوه، وسمع يسوع أنهم طردوه خارجاً فلقيه وقال له أتؤمن أنت بابن الله، فأجاب وقال: ومن هو يا سيدي لأؤمن به، فقال له يسوع قد رأيت وهو الذي يكلمك فقال له: قد آمنت يا رب وسجد له<sup>(١)</sup>.

على أن في هذا الإنجيل وغيره من الأناجيل من التناقضات في هذا الباب الكثير، بل فيه ما يدل على بشرية المسيح وعبوديته وأنه نبي وليس باله وليس من غرضنا هنا ذكر ذلك، وإنما القصد الإشارة إلى قولهم بالوهية المسيح وبنوته لله عز وجل<sup>(٢)</sup>.

الأمر الثالث: خذلانهم لنبيهم وعدم نصرته، إن من الواجب على اتباع الرسل وخاصة أصحابهم وحواريهم، أن ينصروهم ويعزروهم ويقدموهم بأنفسهم وأموالهم كما تقدم ذكر أخذ الله ميثاق بني إسرائيل على نصر الرسل ومؤازرتهم . ولكن قوم عيسى عليه السلام، وتلاميذه خذلوه ولم ينصروه عندما أراد أعداؤه اليهود أخذه وقتله، بل أسلمه بعضهم ودل عدوه عليه لولا أن الله رفعه وألقى شبهه على بعض تلاميذه .

وقد أثبت النصارى أن تلاميذ المسيح وأصحابه أسلموه لليهود وخلوا بينهم وبينه وقبض بعضهم سناً لذلك، وهذا غاية الخذلان ذكر ذلك في إنجيل متى<sup>(٣)</sup>.



(١) إنجيل يوحنا، الإصحاح التاسع، فقرة (٢٥ - ٢٧) .

(٢)، (٣) متى، الإصحاح السادس والعشرون، فقرة (١٤ - ٥٧) .



## المبحث الثالث

## موقف المسلمين من أنبياء الله ورسله

ينبع موقف المسلمين في هذا الباب من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ منهما تستقي هذه الأمة مواقفها واعتقادها وسائر أمور دينها وعنهما تصدر، لذلك جاء موقفهما من أنبياء الله ورسله موقفاً معتدلاً وسطاً، لا غلو فيه ولا إفراط ولا تفريط أو تقصير فيها، ولم تضل فيه كما ضلت أمم قبلها ؛ لأنها لم تغل فيه بمجرد الرأي والهوى، ولم تتبدع فيه ما لم يأذن به الله ولا رسوله ﷺ .

الأمر الأول: أن هذه الأمة آمنت بجميع الأنبياء والمرسلين ولم تفرق بين أحد منهم فتؤمن ببعض وتكفر ببعض كما فعل اليهود والنصارى ذلك أن الله عز وجل أمرها في كتابه الكريم بقوله: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٦) .

قال الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية: (أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلاً، وبما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملاً، ونص على أعيان من الرسل، وأجمل ذكر بقية الأنبياء، وأن لا يفرقوا بين أحد منهم، بل يؤمنوا بهم كلهم . . .) (١) .

وقال فتادة: (أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا ويصدقوا بأنبيائه ورسله كلهم ولا يفرقوا بين أحد منهم) (٢) .

وَعَدَّ الرَّسُولَ ﷺ الْإِيمَانَ بِالرَّسْلِ أَحَدَ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ السِّتَةِ الَّتِي لَا يَكُونُ الْمَرْءُ مُؤْمِنًا إِلَّا إِذَا اسْتَكْمَلَهَا فَقَالَ ﷺ فِي حَدِيثِ جَبْرِيلَ الْمَشْهُورِ: «الْإِيمَانُ أَنْ تُوْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ وَرَسُولِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُوْمِنَ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» (٣) .

(١) تفسير القرآن الكريم (١ / ٢٧٦) .

(٢) الظفر: ابن جرير في تفسير (٣ / ١١١) .

(٣) مسلم، كتاب الإيمان، باب الإيمان والإسلام، (١ / ٣٦-٣٧) .

فرسم القرآن الكريم لهذه الأمة طريقة الاستقامة فاستجابت لأمر الله ورسوله وأمنت برسول الله جميعاً، وشهد الله لها بهذا الإيمان في محكم كتابه فقال: ﴿أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْكُمْ وَكُتِبَ وَرُسُلُهُ لَا تَفْرُقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

ويبلغ من عمق إيمانها برسول الله وتصديقها لهم، أنها تشهد لهم على أنهم بالبلاغ، كما تقدم في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لا يدعى نوح يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال لامته، هل بلغتكم؟ فيقولون: ما اتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول محمد وأمته، فيشهدون أنه قد بلغ، ويكون الرسول عليهم شهيداً، فذلك قوله جل ذكره، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣) (١).

الامر الثاني: أنها لم تنتقص أحداً منهم، كما فعل غيرها من الأمم، بل وقرتهم وعزرتهم ونصرتهم، ونفت عنهم كل ما يتدح في أشخاصهم أو نبوتهم ورسالتهم، وأثبتت عصمتهم من الكفر، وارتكاب الكبائر قبل الرسالة وبعدها، وفي الصغائر خلاف، والجمهور على عصمتهم من تعمدتها (٢).

لأنهم صفوة الله من خلقه، كما أخبر الله في غير ما آية من كتابه فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٣٣)

وقال عن موسى عليه السلام: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ (طه: ٢٥) وقال عن جميع رسله: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمَنْ النَّاسِ﴾ (الحج: ٧٥).

فهذه الأمة تؤمن وتعتقد أن رسل الله وأنبيائه أفضل الخلق وأطهرهم وأزكاهم،

(١) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب «وكذلك جعلناكم أمة» (٨ / ١٧١ رقم الحديث (٤٤٨٧)).

(٢) انظر: لوائح الأئمة، للسفاري، (٢ / ٣٠٣-٣٠٥).

وانهم منزهون عن الدنيا مبرؤون من كل سوء صادقون في أقوالهم، قدوة وأسوة في أفعالهم وأعمالهم، لا يأتون منكراً ولا يقولون زوراً، ولا يستحقون ذمّاً ولا يستوجبون عقاباً، أمرنا الله بالافتداء بهم واتباع هديهم فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ۝٨٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ آتَدَهُ ﴿ (الأنعام: ٨٩ - ٩٠) .

وترى محبتهم واجبة، ونصرتهم لازمة؛ لذلك كان نبيها ورسولها محمد ﷺ، أحب إليها من النفس والمال، والولد والوالد، كما جاء في الحديث الصحيح عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» (١) .

ولما أخذ رسول الله بيد عمر بن الخطاب وقال له عمر يا رسول الله: «لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي»، فقال النبي ﷺ لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي، فقال النبي ﷺ الآن يا عمر» (٢) .

ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يقدون النبي ﷺ بأموالهم وأنفسهم، فكان منهم من يقيه بجسده ووقع السهام والنبال كما صنع أبو دجاجة (٣) في غزوة أحد (٤) . ولم يخذلوه قط أو يتخلفوا عن نصره والقتال بين يديه، حتى قال قائلهم يوم بدر وهو المقداد بن عمرو بن عمرو بن أمية: «يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلْ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (الأنعام: ٢٤) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما

(١) البخاري، كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ (١ / ٥٨) .

(٢) البخاري، الإيمان والنذور، باب كيف كانت بين النبي ﷺ (١١ / ٥٢٣)، رقم (٦٦٣٢) .

(٣) أبو دجاجة هو: مسماك بن غرسة، متفق على شهوده بدرًا، وكان ممن ذب عن النبي ﷺ يوم أحد، استشهد باليمامة، انظر: الإصابة، (٤ / ٥٨) .

(٤) انظر: سيرة ابن هشام (٢ / ٨٩) .

(٥) هو المقداد بن عمرو الكندي، شهد بدرًا والمشاهد بعدها، وكان فارسًا يوم بدر، مات سنة (٣٣هـ)، في خلافة عثمان، انظر: ابن حجر، الإصابة (٣ / ٤٥١) .

مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى برك السعdad<sup>(١)</sup> جالدنا معك من دونه حتى يبلغه . . .»<sup>(٢)</sup>

يرى الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه هذا الموقف العظيم من المقداد رضي الله عنه مشيداً به متمنياً أن يكون هو صاحبه فيقول (شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً، لأن أكون صاحبه أحب إلي مما عدل به<sup>(٣)</sup> أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يدعو على المشركين فقال: لا تقول كما قال قوم موسى ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ ولكننا نقاتل عن بينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم أشرق وجهه وسره، يعني قوله<sup>(٤)</sup> .

وقال سعد بن معاذ<sup>(٥)</sup> رضي الله عنه في هذا المقام: (. . . فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله، فسر رسول الله بقول سعد ونشطه ذلك . . .)<sup>(٦)</sup>

فتأمل موقف هذه الأمة من نبيها، وانظر أي بون بينه وبين موقف قوم موسى عليه السلام في قولهم: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾<sup>(٧)</sup> أو موقف النصاري الذي أسلموا نبيهم لأعدائهم ليقتلوه ويصلبوه يزعمهم، وتأمّر بعض تلاميذه وحوارييه عليه، كما تقدم بيان ذلك في فعل القوم من أنبيائهم .

الأمر الثالث: أنهم لم يغلوا فيهم أو يفرطوا في مدحهم بالباطل: وإنما قدرتهم

(١) هو موضع وراء مكة بخمس ليالٍ مما يلي البحر، وقيل: بلد باليمن، وقيل: موضع في أقصى أرض هجر، وقيل: أقصى حجر باليمن، الحموي، معجم البلدان (١٣ / ٣٩٩-٤٠٠) .

(٢) ابن هشام، السيرة، (١ / ٦٦٥) .

(٣) حدث به: أي وزن به، والمراد البالغة في عظمة ذلك الشهود، انظر: فتح الباري (١ / ٢٨٧) .

(٤) ابن خباري: كتاب المغاري، باب قوله: ﴿إذ تستغيثون ربكم﴾ (٧ / ٢٨٧) .

(٥) هو سعد بن معاذ بن النعمان سيد الأوس، شهد بدرًا، ورمي بسهم يوم الخندق معاشر بعد ذلك شهراً حتى حكم في بني فريظة، ثم انتفض حوجه فمات، وذلك سنة خمس. انظر: ابن حجر، الإصابة، (٢ / ٢٧) .

(٦) ابن هشام، سيرة، (١ / ٦٦٥) .

حق قدرهم، وعززوهم ونصروهم، وأحبوهم، وعظموهم وأجلوهم غاية التعظيم والإجلال، ولم يفرطوا في مدحهم ولم يبالفوا في إطرائهم والثناء عليهم ولم يجاوزوا الحد في ذلك، ولم ينزلوهم فوق المنزلة التي أنزلهم الله إياها، ولم يرفعوهم فوق المقام الذي لهم، فلم يجاوزوا بهم منزلة الرسالة والنبوة ومقام العبودية لله، وهما المقام والمنزلة التي أنزلهم الله إياها وأقامهم فيها وخاطبهم وذكرهم بها في كتابه العزيز<sup>(١)</sup> فقال عن نوح: ﴿ذُرِّيَّةٌ مِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (الإسراء: ٣). وقال عن داود عليه السلام: ﴿اصْبِرْ عَلَيَّ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (مر: ١٧).

وقال عن سليمان عليه السلام: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (مر: ٣٠). وقال عن أيوب عليه السلام: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ (مر: ٤١) وقال في إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَانَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَنْصَارِ﴾ (مر: ٤٥) ثم قال عن عيسى عليه السلام: ﴿لَنْ يَسْتَكْفِرَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (النساء: ١٧٧).

وقال عن خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ...﴾ (الإسراء: ١) وقال: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ (النجم: ١٠).

فمقام الرسالة والعبودية هو المقام الذي شرف به عباده المرسلين ومن عليهم به، وهم صلوات الله وسلامه عليهم بأبوان أن يرفعوا فوق ذلك، وينهون أمهم به ويحذرونهم من مجاوزة هذا المقام، ويقول في هذا المصطفى صلى الله عليه وسلم: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله»<sup>(٢)</sup>.

فالأنبياء والمرسلين بشر يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، ويتزوجون النساء،

(١) وسعية أهل السنة بين الفرق (٢٨٢-٢٨٣).

(٢) البخاري: أحاديث الأنبياء، باب نزل الله عز وجل: «ذكر من الكتاب مريم» (٦ / ٤٧٨).

ولكثير منهم بنون وحفدة وليسوا بالهة ولا أبناء الله، كما ضل النصارى في عيسى عليه السلام، يقول الحق تبارك وتعالى على لسان محمد ﷺ مقررًا هذه الحقيقة: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ (التكوير: ١١٠) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ (الزمر: ٣٨) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلِكَ مِنَ الرُّسُلِ إِلَّا إِيَّاهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَمْشُوا فِي الْأَسْوَاقِ﴾ (الفرقان: ٢٠).

فهذه منزلة الرسل والأنبياء كما جاءت في القرآن لا إفراط ولا تفريط ولا غلو ولا تقصير فأمنت بها أمة الإسلام، فرسل الله عبيد لا يعبدون، ورسلا لا يكذبون؛ بل يطاعون ويتبعون.



## الفصل السادس

### وسطية القرآن في اليوم الآخر

#### المبحث الأول

##### أنواع المكذبين بالبعث

كذب كثير من الناس قديماً وحديثاً بالبعث والنشور، وبعض الذين قالوا بإثباته صوروه على غير الصورة التي أخبرت بها الرسل، وقد بين الله سبحانه وتعالى قول المكذبين وذمهم وكفرهم وتهديمهم وتوعددهم، قال تعالى: ﴿ وَإِن تَعْجَبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَأَنذَرْنَا تَرَابًا أَنَّا لَمِنَ خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (ترعد: ٥) ﴿ وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (الأنعام: ٢٩-٣٠) وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا أَأَنذَرْنَا أَنذَارًا عَظِيمًا وَرَقَاتًا أَنَّا لَمُبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٦﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (الاسراء: ٤٩ - ٥١) .

وقد تعرض شيخ الإسلام ابن تيمية لبيان أنواع المكذبين بالبعث والنشور من اليهود والنصارى والصابئة والفلاسفة ومناقفي هذه الأمة فقال: (وإنما المخالف في ذلك أحد رجلين إما كافر، وإما منافق:

أما الكافر فإن اليهود والنصارى ينكرون الأكل والشرب والنكاح في الجنة، يزعمون أن أهل الجنة إنما يتمتعون بالأصوات المطربة والأرواح الطيبة مع نعيم الأرواح، وهم يقرون مع ذلك بحشر الأجساد مع الأرواح ونييمهما وعذابهما، وأما طوائف من الكفار وغيرهم من الصابئة والفلاسفة ومن وافقهم فيقرون بحشر الأرواح فقط، وأن النعيم والعذاب للأرواح فقط .

وطوائف من الكفار والمشركين وغيرهم ينكرون المعاد بالكلية، فلا يقرون لا بمعاد

الأرواح، ولا الأجساد، وقد بين الله تعالى في كتابه على لسان رسوله أمر معاد الأرواح والأجساد ورد على الكافرين والمنكرين لشيء من ذلك، بياناً تاماً غاية التمام والكمال .

وأما المنافقون من هذه الأمة الذين لا يقرون بالفاظ القرآن والسنة المشهورة فإنهم يحرفون الكلام عن مواضعه، ويقولون هذه أمثال ضربت لنفهم المعاد الروحاني، وهؤلاء مثل القرامطة الباطنية الذين قولهم مؤلف من قول المجوس والصابئة، ومثل المتفلسفة الصابئة المتسبين إلى الإسلام وطائفة ممن ضاهوهم: من كاتب أو متطبب، أو متكلم، أو متصوف، كأصحاب رسائل (إخوان الصفا) وغيرهم، أو منافق وهؤلاء كلهم كفار يجب قتلهم باتفاق أهل الإيمان<sup>(١)</sup>.

وذكر رحمه الله تعالى في موضع في الآخرة بأمثال مضرورية لتفهم ما يقوم بالنفس بعد الموت من اللذة والألم، لا بإثبات حقائق منفصلة يتعم بها، ويتألم بها<sup>(٢)</sup>.

وحقيقة قول هؤلاء أن الله لم يكن صادقاً في إخباره عن حقائق ما في المعاد، وكذلك رسوله ﷺ، ولذلك سمي شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الصنف من المتفلسفة المخالف لما عليه المسلمون في أمر المعاد (بأهل التخييل) وقال فيهم: (فأهل التخييل هم المتفلسفة ومن سلك سبيلهم، ومن متكلم ومتصوف، ومتفقه، فإنهم يقولون إن ما ذكره الرسول من أمر الإيمان بالله والآخرة إنما هو تخييل للحقائق ليتفجع به الجمهور، لا أنه بين به الحق، ولا هدى الخلق، ولا أوضح الحقائق)<sup>(٣)</sup>.

وقد صنف الدكتور عمر الأشقر المكذبين بالبعث والنشور إلى ثلاثة أصناف:<sup>(٤)</sup>

**الأول:** الملاحدة الذين أنكروا وجود الخالق، ومن هؤلاء كثير من الفلاسفة الدهرية الطبايعية، ومنهم الشيوعيون في عصرنا، وهؤلاء ينكرون صدور الخلق عن

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٤ / ٣١٣) .

(٢) المرجع السابق (١٣ / ٢٢٨) .

(٣) مجموع الفتاوى (٥ / ٣١) .

(٤) اليوم الأسمر . القائمة الكبرى . لعمر الأشقر، (٧٢) .



خالق، فهم منكرون للنشأة الأولى والثانية، ومنكرون لوجود الخالق أصلاً . ولا يحسن مناقشة هؤلاء في أمر المعاد، بل يناقشون في وجود الخالق وواحدانيته أولاً ثم يأتي إثبات المعاد بعد ذلك، لأن الإيمان بالمعاد فرع عن الإيمان بالله .

الثاني: الذين يعترفون بوجود الخالق، ولكنهم يكذبون بالبعث والنشور، ومن هؤلاء العرب الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَيْسَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (القصص: ٢٥)

وهم القائلون فيما حكاه الله عنهم: ﴿أَنذَا كُنَّا تَرَابًا وَأَبَاؤُنَا أَنَا لَمُخْرَجُونَ﴾ (١٧) لقد وعدنا هذا نحن وأبائنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ (النمل: ٦٧ - ٦٨) .

وهؤلاء يدعون أنهم يؤمنون بالله، ولكنهم يدعون أن قدرة الله عاجزة عن إحيائهم بعد إيمانهم، وهؤلاء هم الذين ضرب الله لهم الأمثال، وساق لهم الحجج والبراهين لبيان قدرته على البعث والنشور، وأنه لا يعجزه شيء . ومن هؤلاء طائفة من اليهود يسمون بالصادقين، يزعمون أنهم لا يؤمنون إلا بتوراة موسى، وهم يكذبون بالبعث والنشور والجنة والنار .

الثالث: الذين يؤمنون بالمعاد على غير الصفة التي جاءت بها الشرائع<sup>(١)</sup> .



(١) نفس المصدر السابق، ص (٧٢) .

## المبحث الثاني

### نظرة في نصوص اليوم الآخر عند أهل الكتاب

لا شك أن الكتب السماوية التي أنزلها الحق تبارك وتعالى كانت تزخر نصوصها بذكر اليوم الآخر، والتخويف منه، والتبشير بما أعدّه الله للمؤمنين به في جنات النعيم، والتحذير من النار وأهوال القيامة، إلا أن هذه الكتب طرأ عليها تحريف كثير، وذهب كثير من نصوصها التي تتعرض لليوم الآخر<sup>(١)</sup>.

ففي التوراة التي تنسب إلى موسى لا نجد إلا نصاً واحداً يصرح بيوم القيامة، وهو في التوراة السامرية صريح للغاية، ولكنه في التوراة العبرية يحتمل معنيين . ففي التوراة السامرية (اليس هو مجموعاً عندي مختوماً في خزائني إلى يوم الانتقام والمكافأة وقت تزل أقدامهم)<sup>(٢)</sup>.

وفي التوراة العبرانية هكذا: (اليس ذلك مكتوباً عندي مختوماً عليه في خزائني، لي الثقمة والجزاء في وقت تزل أقدامهم)<sup>(٣)</sup>.

فنص السامرية يدل على أن الفصل إنما يكون في يوم القيامة الذي سماه يوم الانتقام والمكافأة، أما نص العبرانية فإنه يجب أن يكون الانتقام في الدنيا، ويجوز أن يكون في الآخرة، ولذلك فإن الصادقين من اليهود الذين لا يؤمنون إلا بتوراة موسى العبرية لا يؤمنون بالبعث والنشور، لعدم وجود دلالة تدل على البعث والنشور . أما أسفار الأنبياء الأخرى في التوراة ففيها بعض النصوص التي تصرح بالبعث والنشور، وكذلك الأناجيل .

١ - ففي سفر دانيال: (كثيرون من الراقدين تحت التراب يستيقظون، هؤلاء إلى الحياة الأبدية، وهؤلاء إلى العار، والازدراء الأبدي)<sup>(٤)</sup>.

(١) انرجع السابق، ص (٩٢) .

(٢) سفر التثنية الاشرع، الاصحاح (٣٢)، ص (٣٤-٣٥) من التوراة السامرية .

(٣) تنورة العبرانية نغلاً عن اليوم الآخر . القيامة الكبرى، (٩٢) .

(٤) سفر دانيال . الاصحاح (١٢) .

٢ - وفي سفر المزامير يذكر الحشر إلى النار فيقول: (مثل الغنم إلى النار يساقون، الموت يرعاهم، ويسودهم المستقيمون غداة، وصورتهم تلي، والهاوية مسكن لهم) (١).

٣ - وفي إنجيل لوقا إشارة إلى عذاب القبر، فقد جاء فيه: (ومات الغني ودفن، فرفع عينه في الهاوية وهو في العذاب) (٢).

فالمقبور من أهل الفجور يكون في العذاب ويرى مقعده من النار، والهاوية هي النار .

٤ - وفي إنجيل متى: (فإن أعضرتك يدك أو رجلك فاقطعها وألقها عنك خير لك أن تدخل الحياة أعرج أو أقطع من أن تلقى في النار الأبدية ولك يدان أو رجلان) (٣).

٥ - ومن أكثر الكتب التي تحدثت عن الجنة والنار إنجيل برنابا، فقد تحدثت عن أهل الجنة، وأتاهم يأكلون ويشربون، ولكنهم لا يتبولون، ولا يتغوطون، لأن طعامهم وشرابهم ليس فيه خبث ولا فساد، ولكن النصارى يكذبون بهذا الإنجيل الذي ظهر أخيراً في عصرنا هذا . النصارى يعتقدون أن الذي ينعم أو يعذب في القيامة هو الروح فحسب، وقال بقولهم بعض الذين يتسبون إلى الإسلام من الفلاسفة والفرق الباطنية الضالة (٤).



(١) سفر المزامير، الخامس والخمسين، الفقرة (٥) .

(٢) إنجيل لوقا، الإصحاح السادس عشر، الفقرة (٢٢) .

(٣) إنجيل متى، الإصحاح الثامن عشر، الفقرة (٨) .

(٤) اليوم الآخر، انقباة الكبرى، (٩٤) .

### المبحث الثالث

#### أدلة البعث والنشور

الإيمان بالمعاد دل عليه القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، والقرآن كله من فائقته إلى خفائه مملوء بذكر أحوال اليوم الآخر وتفاصيل ما فيه، وتقرير ذلك بالأخبار الصادقة والأمثال المضروبة للاعتبار والإرشاد، وكما ذكر القرآن الأدلة عليه، ورد على منكريه، وبين كذبهم واقتراءهم .

والفطرة السليمة تدل عليه وتهدي إليه، ولا صحة لما يزعمه الضالون من أن العقول تنفي وقوع البعث والنشور، فإن العقول لا تمتع وقوعه، والأنبياء لا يأتون بما تحيل العقول وقوعه، وإن جاءوا بما يحير العقول<sup>(١)</sup> ومن وسطية القرآن، وحكمته واستقامته على الصراط المستقيم جاءت الأدلة التي تكلمت على البعض بأساليب متنوعة ومنعددة تخاطب الفطرة، والعقل السليم، وتؤثر في أعماق القلوب فإذا تأملت وتفكرت في كتاب الله اتضح لك أدلة كثيرة منها:

أولاً: إخبار المليم الخبير بوقوع القيامة:

ومن أعظم الأدلة الدالة على وقوع المعاد إخبار الحق تبارك وتعالى بذلك، فمن آمن بالله وصدق برسوله الذي أرسل، وكتابه الذي أنزل فلا مناص له من الإيمان بما أخبرنا به من البعث والنشور والجزاء والحساب والجنة والنار، وقد نوع الحق تبارك وتعالى أساليب الإخبار ليكون أوقع في النفوس وأكد في القلوب:

١ - ففي بعض المواضع يخبرنا بوقوع ذلك اليوم إخباراً مؤكداً (بان) أو (بان واللام) كقوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ (طه: ١٥)

وقوله: ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (نجم: ٨٥) وقوله: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ (الأنعام: ١٣١) وقوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ (نزلات: ٧) .

(١) اليوم الآخر، ص (٧٣) .

٢ - وفي موضع آخر يقسم الله تعالى على وقوعه ومجيئه كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ (التيسر: ٨٧).

ويقسم على تحقيق ذلك بما شاء من مخلوقاته كقوله: ﴿وَالذَّارِيَاتُ ذُرُوءًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتُ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتُ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمَقْسَمَاتُ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَوَاقِعُ ﴿٦﴾ (الذاريات: ١ - ٦) وقوله: ﴿وَالطُّورُ ﴿١﴾ وَكِتَابٌ مُنظُورٌ ﴿٢﴾ فِي رَقٍ مُنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتُ الْمَعْمُورُ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفُ الْمَرْفُوعُ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرُ الْمَسْجُورُ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾ (الطور: ١ - ٨).

٣ - وفي بعض المواضع يأمر رسله بالإقسام على وفوع البعث وتحقيقه، وذلك في معرض الرد على المكذبين به المتكرين له، كقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴿١﴾﴾ (سبأ: ٣) وقوله: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ أَحَقَّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴿١٠٣﴾﴾ (يونس: ١٠٣) وقوله: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ﴿٧﴾﴾ (التيسر: ٧).

٤ - وفي مواضع أخرى يذم المكذبين بالمعاد كقوله: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (يونس: ٤٥).

وقوله: ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ (التورى: ١٨) وقوله: ﴿بَلْ إِذْ أَرْكَعَ عَلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ (النمل: ٦٦).

٥ - وأحياناً يمدح المؤمنين بالمعاد: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧﴾﴾ (٧) رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٧﴾ (ان عمراء: ٧ - ٨).

٦ - وأحياناً يخبر أنه وعد صادق، وخير لازم، وأجل لا شك فيه: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٣﴾﴾ (١٣) وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مُعَدُودٍ ﴿١٣﴾ (مرد: ١٣) وقوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ (الذاريات: ٥).

٧ - وفي بعض الأحيان يخبر عن مجيئه واقتربه كقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَرَأَاهُ قَرِيبًا﴾ (المدارج: ٦ - ٧) وقوله: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ (النحل: ١) .

٨ - وفي مواضع أخرى يمدح نفسه تبارك وتعالى بإعادة الخلق بعد موتهم، ويذم الآلهة التي يعبدها المشركون بعدم قدرتها على الخلق وإعادته كقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا تُشْرِكُوا﴾ (القرآن: ٢) .

٩ - وبين في مواضع أخرى أن هذا الخلق وذاك البعث وبعثكم ﴿إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ (الناس: ٢٨) وقال: ﴿أَبْحَسِبُ الْإِنْسَانَ أَنْ لَنْ تَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ (٢) ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسِرِّي بُنَائِهِ﴾ (النبأ: ٣ - ٤) .

ثانياً: ومن وسطية القرآن في إقناع الناس بالإيمان باليوم الآخر الاستدلال على النشأة الأخرى بالنشأة الأولى:

استدل القرآن على الخلق الثاني بالخلق الأول، فنحن نشاهد في كل يوم حياة جديدة تخلق أطفال يولدون، وطيور تخرج من بيضها، وحيوانات تلدها أمهاتها، وأسمك تملأ البحر والنهر، يرى الإنسان ذلك كله بأم عينيه، ثم ينكر أن يقع مثل ذلك مرة أخرى بعد أن يبدي الله هذه الحياة .

إن الذين يطلبون دليلاً على البعث بعد الموت يعتقدون عن أن خلقهم على هذا النحو أعظم دليل، فالقادر على خلقه، قادر على إعادة خلقهم، وقد أكثر القرآن من الاستدلال على النشأة الآخرة بالنشأة الأولى، وتذكير العباد المستبعدين لذلك بهذه الحقيقة: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَأَلْذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ (٦٦) ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ (مریم: ٦٦ - ٦٧) .

ويذكرنا القرآن في موضع آخر بالخلق الأول للإنسان، فأبونا آدم خلقه الله من تراب، فالقادر على جعل التراب بشراً سوياً، لا يعجزه أن يعيده بشراً سوياً مرة أخرى بعد موته، ويذكرنا أيضاً بخلقنا نحن - ذرية آدم - فإنه خلقنا من سلالة من

ماء مهين، تحول هذا الماء فأصبح نطفة، ثم صارت النطفة علقة، ثم تحولت إلى مضخة - إلى أن نفخ فيها الروح، وجعلها إنساناً سوياً . فالقادر على هذا الخلق المشاهد المعلوم، قادر على إحياء الخلق وإحياء الموتى (١).

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُمْ مَّنْ يَتَوَلَّىٰ وَمِنكُمْ مَّنْ يَرُدْ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾ (الحج: ٥ - ٧) .

وقد أمر الله عباده بالسير في الأرض، والنظر في كيفية بدء الخلق ليستدلوا بذلك على قدرته على الإعادة: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٩) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (التكوير: ١٩ - ٢٠) .

ثالثاً: ومن الأدلة التي ذكرت في القرآن في الاستدلال على البعث: القادر على خلق الأعظم قادر على خلق ما دونه قبيح في نظر البشر أن يرمى بالعجز عن حمل الشيء الخسير من يستطيع حمل العظيم، ومثله إذا غلب إنسان رجلاً شديد اليأس قوياً لا يقال له: إنك لا تستطيع أن تصرع هذا المهزبل الضعيف، ومن استطاع أن يبني قصرًا لا يعجزه بناء بيت صغير . ولله المثل الأعلى، فإن جملة خلقه ما هو أعظم من خلق الناس، فكيف يقال للذي خلق السموات والأرض أنت لا تستطيع أن تخلق ما دونها (٢).

قال تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ

(١) شيوع الأخرى، من (٧٧) .

(٢) المرحع السابق: (٧٨) .

وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿يس: ٨١﴾ وقال تعالى: ﴿لَخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ (غافر: ٥٧) .

قال ابن تيمية رحمه الله: (فإنه من المعلوم ببداية العقول أن خلق السموات والأرض أعظم من خلق أمثال بني آدم، والقدرة عليه تُبلغ وأن هذا الأيسر أولى بالإمكان والقدرة من ذلك) (١) .

وقال شارح الطحاوية: (أخبر تعالى أن الذي أبداع السموات والأرض على جلالتها، يُحيي عظاماً قد صارت رميمًا، فيردها إلى حالتها الأولى) (٢) .

رابعاً: قدرته تبارك وتعالى على تحويل الخلق من حال إلى حال: الذين يكذبون بالبعث يرون هلاك العباد، ثم فناءهم في التراب، فيظنون أن إعادتهم بعد ذلك مستحيلة: ﴿وَقَالُوا أَبَدًا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَتِنَا لِقَابُ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (السجدة: ١٠) .

والمراد بالضللال في الأرض تحلل أجسادهم، ثم اختلاطها بتراب الأرض، تقول: ضل السمن في الطعام، إذا ذاب وانماح (٣) فيه .

وقد بين الحق تبارك وتعالى في أكثر من موضع أن من قام الوهيته وربوبيته قدرته على تحويل الخلق من حال إلى حال، ولذا فإنه يميت ويحيي ويخلق ويقني، ويخرج الحي من الميت، والميت من الحي قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حَسْبَانَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿(الأنعام: ٩٥ - ٩٦) .

ومن الحبة الجامدة الصماء يخرج نبتة غضة خضراء تزهر وتثمر ثم تعطي هذه النبتة الحية حبوباً جامدة ميتة، ومن الطيور الحية يخرج البيض الميت، ومن البيض الميت تخرج الطيور المتحركة المفردة التي تنطلق في أجواء الفضاء .

(١) مجموع الفتاوى ، لابن تيمية (٣ / ٢٩٩) .

(٢) اليوم الآخر، ص (٧٩) .

(٣) اليوم الآخر، ص (٧٩) .



إن قلب العباد، موت فحياة، ثم موت فحياة، دليل عظيم على قدرة الله التي تجعل النفوس تخضع لعظمته وسلطانه: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (نور: ٢٨).

وقد ذكرت الأدلة التي ذكرتها في الاحتجاج على البعث من الاستدلال على النشأة الأخرى بالنشأة الأولى، ومن كون المقادر على خلق الأعظم قادر على خلق ما دونه، وتحويل المخلوق من حال إلى حال في سورة يس في موضع واحد من كتاب الله، وهذا يدل على وسطية القرآن واستقامته على الصراط المستقيم واعتداله وقوة حجته في إقناع الناس بإقامة الحجج والبراهين.

قال تعالى: ﴿وَضَرَبْنَا لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْفَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي فِي يَدَيْهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (يس: ٧٨ - ٨٣).

ونزلت هذه الآيات في أبي بن خلف حيث أتى رسول الله ﷺ بعظم ثم قال يا محمد من يحيي هذا وهو رميم، قال: الله يحييه ثم يميت ثم يدخلك النار، فقتله رسول الله ﷺ يوم أحد، وقيل: نزلت في العاص بن وائل<sup>(١)</sup>.

ولو كان صاحب المقولة المذكورة في أسباب النزول لييباً عاقلاً لم يسأل هذا السؤال، لأن وجوده وخلقه في هذه الحياة يجيب على السؤال، وقد وضع النص هذا المعنى الذي أجمله في البداية فقال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (يس: ٧٩) فاحتج بالإبداء على الإعادة، وبالنشأة الأولى على النشأة الأخرى، إذ كل عاقل يعلم ضرورياً أن من قدر على هذه قدر على هذه، وأنه لو كان عاجزاً عن الثانية لكان عن الأولى أعجز وأعجز.

(١) نظر: جامع البيان، تفسير الطبري، (١٢ / ٣٠).

ولما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على المخلوق، وعلمه بتفاصيل خلقه أتبع ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (يس: ٧٩) فهو عليم بتفاصيل الخلق الأول وجزئياته، مواده وصورته، فكذلك الثاني، فإذا كان تام العلم، كامل القدرة كيف يتعذر عليه أن يحيي العظام وهي رميم؟<sup>(١)</sup>

٢ - ثم أكد الأمر بحجة قاهرة وبرهان ظاهر، يتضمن جواباً عن سؤال ملحد آخر يقول: العظام إذا صارت رميمًا عادت طبيعتها باردة يابسة، والحياة لا بد أن تكون مادتها وحاملها طبيعة حارة رطبة بما يدل على أمر البعث، ففيه الدليل والجواب معاً، فقال: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا إِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ﴾ (يس: ٨٠) فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر، الذي هو في غاية الحرارة واليبوسة من الشجر الأخضر الممتلئ بالرطوبة والبرودة، فالذي يخرج الشيء من ضده، تنفاد له مواد المخلوقات وعناصرها ولا يستعصي عليه، هو الذي يفعل ما أنكروه الملحد ودفعه من إحياء العظام وهي رميم<sup>(٢)</sup>.

٣ - ثم أكد هذا يأخذ بالدلالة من الشيء الأجل الأعظم، على الأيسر الأصغر فإن كل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم الجليل فهو قادر على ما دونه بكثير قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (يس: ٨١).

فأخبر أن الذي أبدع السموات والأرض على جلالتهما، وعظم شأنهما، وكبر أجسامهما، وسعتهما، وعجيب خلقهما، أقدر عليه أن يحيي عظاماً قد صارت رميمًا، فيردها إلى حالتها الأولى<sup>(٣)</sup>.

٤ - ثم أكد تبارك وتعالى ذلك وبينه بيان آخر، وهو أن فعله ليس بمتزلة غيره، الذي يفعل بالألات والتكلفة، والنصب والمشقة، ولا يمكنه الاستقلال بالفعل، بل

(١) شرح العقيدة الفخرية: (٤٦).

(٢) اليوم الآخر، القيامة الكبرى، (٨٢).

(٣) شرح العقيدة الفخرية، (٤٦).

لا بد معه من إله ومعين؛ بل يكفي في خلقه لما يريد أن يخلقه ويكونه نفس إرادته وقوله للمكون ﴿كُنْ﴾ فإذا هو كائن كما شاء وأراده ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (س: ٨٢) ثم ختم هذه الحجة بإخباره أن ملكوت كل شيء بيده، فيفرق فيه بفعله وقوله: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (س: ٨٢) .

خامساً: ومن أدلة البعث التي جاءت في القرآن الكريم ما ذكر الله في كتابه من إحياء بعض الأموات في هذه الحياة .

ومن ذلك ما أخبر الله تعالى عن قوم موسى قال تعالى: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ (البقرة: ٥٥) فأخذتهم الساعة وهم ينظرون، ثم بعثهم بعد موتهم ﴿فَأَخَذْتُمُ السَّاعَةَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (س) ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ﴿(البقرة: ٥٥ - ٥٦) وقبيل بني إسرائيل الذي اختلفوا في قتله فأمرهم نبيهم أن يذبحوا بقرة ويضربوا القتل بجزء منها، فأحياء الله وأخبر عن قتله: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ٧٣) .

وأخبر المولى عز وجل عن الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف خشيبة الموت، فأماتهم الله ثم أحياهم قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ لَا يُشْكِرُونَ﴾ (البقرة: ٢٥٢) وأخبرنا المولى عز وجل عن قصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها فتعجب من إحياء الله لها بعد موتها، فأماته الله مائة عام ثم بعثه حتى يوقن أن الله على كل شيء قدير قال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَىٰ الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٥٩) .

وإبراهيم عليه السلام دعا ربه أن يريه كيف يحيي الموتى، فكان هذا المشهد الذي

حدثنا الحق تبارك وتعالى عنه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذَا أُلْتِمَ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّیَطْمِئِنُّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٦٠) .

أمره الله أن يأخذ أربعة من الطيور فبذبحها، ثم يفرق أجزاءها على عدة جبال، ثم تادها أمراً بإيها بالاجتماع، فكان كل عضو يأتي ويقع في مكانه، فلما تكامل اجتماعها نفخ الله فيها الروح وانطلقت محلقة في الفضاء .

وعيسى عليه السلام كان يصنع من الطين كهيئة الطير ثم يتفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وكان يحيي الموتى بإذن الله، فقد قال لقومه:

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (آل عمران: ٤٩) .

وأصحاب الكهف ضرب الله على آذانهم في الكهف ثلاثمائة وتسع سنين ثم قاموا من رقدتهم بعد تلك الأزمان المتطاولة: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِيًّا فَقَالُوا لَبِئْسَ مَا يَدْعُونَ لَكُمْ بِهِ يَا قَوْمِ أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ بَآيَاتُ الْكُتُبِ﴾ (الكهف: ١٢) . ﴿كَذَلِكَ بَعَثْنَا لِيَتَسَاءَلُوا بِهِمْ قَالِ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالَوا لَبِئْسَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ (الكهف: ١٦) . ﴿وَلَبِئْسَ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسْعًا﴾ (الكهف: ٢٥) .

وكانت آية موسى الكبرى عصا جامدة يلقيها على الأرض فتتحول بقدرة الله إلى ثعبان مبین: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ (الشمس: ٣٢) ، وعندما ألقى السحرة حبالهم وعصيتهم ألقى موسى عصاه فإذا هي تتلع تلك العصي والحبال على كثرتها: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (الشمس: ٤٥) .

سادساً: ومن أدلة القرآن على إثبات البعث، ضربه المثل بإحياء الأرض بالنبات، وقد ضرب الله المثل لإعادة الحياة إلى الجثث الهامدة والعظام البالية بإحيائه الأرض بعد موتها بالنبات: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ

لَمُحِبِّي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿الرَّوْبِ: ٤٠﴾، وقال: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُبْرِحُ سَحَابًا فَمَسَّاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿نَاطِر: ٩﴾ .

سابعاً: والدليل السابع الذي ذكر في القرآن الاستدلال بحكمة الله حيث إن حكمته تقتضي بعث العباد للجزاء والحساب، فإن الله خلق الخلق لعبادته وأرسل الرسل وأنزل الكتب لبيان الطريق الذي يعبدونه ويطيعونه ويتبعون أمره ويجتنبون نهيه، فمن العباد من استفاد على طاعة الله، وبذل نفسه وماله في سبيل ذلك، ومنهم من رفض الاستقامة على طاعة الله، وطغى وبعث، فأليس بعد ذلك أن يموت المصالح والطالح ولا بد أن يجزي الله المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، قال تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (ن: ٣٥ - ٣٧) .

إن الملاحظة الذين ظلموا أنفسهم هم الذين يظنون الكون خلق عبثاً وباطلاً لا لحكمة، وأنه لا فرق بين مصير المؤمن المصلح والكافر المفسد، ولا بين التقي والفاجر، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٣٧﴾ أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿ص: ٢٧ - ٢٨﴾ .

فهذه أساليب القرآن في إقناع الناس بالبعث اعتمدت على خطاب العقل والانسجام مع الفطرة والتجاوب مع القلوب، ونجد في القرآن الكريم وصفاً لاهوال يوم القيامة، ويصور القرآن الكريم بعض معالم أهوال يوم القيامة، من قبض الأرض وطى السماء، ودك الأرض ونسف الجبال وتفجير البحار وتسجيرها، وموران السماء وانفطارها، وتكوين الشمس وخسوف القمر وتناثر النجوم، ويصور لنا القرآن الكريم حال الكفار وذلتهم وهوانهم وحسرتهم وبأسهم واحباط أعمالهم، وتخاصم العابدين والمعبودين وتخاصم الأتباع وقادة الضلالة، وتخاصم الضعفاء والسادة وتخاصم الكافر وقرينه الشيطان، ومخاصمة الكافر أعضائه وتخاصم الروح والجسد، وتكلم

القرآن عن الشفاعة وبين شروطها والمقبول منها، والمرفوض، والمراد بالحساب والجزاء، وعن مشهد الحساب، وهل يسأل الكفار؟ ولماذا يسألون؟ وحدثنا القرآن الكريم عن اقتصاص المظالم بين الخلق، وكيف يكون الاقتصاص في يوم القيامة، وبين المولى عز وجل في القرآن عظم شأن الدماء، وبين أن هناك يوم القيامة توضع الموازين التي توزن بها الأعمال، وأخبرنا النبي ﷺ عن الخوض ومن الذين يردون على الخوض والذين يذادون عنه .

وصور القرآن الكريم حشر الكفار إلى النار، ومرور المؤمنين على الصراط، وخلص المؤمنين من المنافقين، وهذا الذي ذكرنا كله من وسطية القرآن في باب الإيمان باليوم الآخر، وحكمته البالغة في إخباره بما ينفع الناس وترغيبهم وترهيبهم منه، حتى يستعدوا لذلك اليوم بالأعمال الصالحة ويتعدوا عن الأعمال المحرمة .



## المبحث الرابع

### طعام أهل النار وشرايهم ولباسهم

تكلم القرآن الكريم عن طعام أهل النار وبين أنه الضريع والزقوم، وأن شرايهم الحميم والغساق قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ (٤٤) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ (نفاثية: ٦ - ٧) والضريع شوك بأرض الحجاز يقال له الشيرق .

وعن ابن عباس: الشيرق (نبت ذو شوك لا طيء بالأرض، فإذا هاج سمي ضريعاً) <sup>(١)</sup> . وقال قتادة: (من أضرع الطعام وأبشعه) <sup>(٢)</sup> .

وهذا الطعام أكلهم له نوع من أنواع العذاب، لا يتلذذون به ولا تستفح به أجسادهم .

أما الزقوم فقال تعالى فيه: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ (٤٤) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (٤٥) كغَلِي الْحَمِيمِ﴾ (سجدة: ٤٤-٤٦) وقد وصف الله شجرة الزقوم في آية أخرى فقال: ﴿أَذَلُّكَ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ (٤٦) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٤٦) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْحَمِيمِ (٤٤) ظَلَعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيَاطِينِ (٤٥) فَإِنَّهُمْ لَأَكَلُونَ مِنْهَا فَمَا لَنُورِنَا مِنْهَا الْبُطُونَ (٤٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشُرْبًا مِنْ حَمِيمٍ (٤٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْحَمِيمِ﴾ (الصافات: ٤٦-٤٨) .

وقال في موضع آخر: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَأَكَلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ (٥٢) فَمَا لَنُورِنَا مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٢) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهَيْمِ (٥٥) هَذَا نَزَّلْنَاهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ (الروافعة: ٥١) .

ويؤخذ من هذه الآيات أن هذه الشجرة خبيثة، جذورها تضرب في قعر النار، وفروعها تمتد في أرجائها، وثمر هذه الشجرة قبيح المنظر لذلك شبهت برؤوس الشياطين، وقد استقر في النفوس قبح رؤوسهم وإن كانوا لا يرونهم، ومع حيث

(١) ، (٢) التخفيف من النار، لأن رجب (١١٤) .

هذه الشجرة وحيث ظلمها، إلا أن أهل النار يلقى عليهم الجوع بحيث لا يجدون مفرًا من الأكل منها إلى درجة ملء البطون، فإذا امتلأت بطونهم أخذت تغلى في أجوافهم كما يغلي دودي الزيت، فيجدون لذلك آلامًا مبرحة، فإذا بلغت الحال بهم هذا المبلغ اندفعوا إلى الخميم وهو الماء الحار الذي تنامي حره، فشرّبوا منه كشرّب الإبل التي تشرب، وتشرب ولا تروى لمرض أصابها، وعند ذلك يقطع الخميم أمعاءهم ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ (سعد: ١٥) هذه هي ضيافتهم في ذلك اليوم العظيم (١).

وإذا أكل أهل النار هذا الطعام الحبيث من الضريع والزقوم غصوا به لقبحة وخبثه وفساده:

﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴾ (٣٦) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿ (الزلزال: ١٢-١٣) .

ومن طعام أهل النار الغسلين، قال تعالى: ﴿ قَلِيلٌ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴾ (٣٥) وَلَا طَعَامَ إِلَّا مِنْ غَسَلِينَ ﴿ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴾ (نعام: ٣٥ - ٣٧) وقال تعالى: ﴿ هَذَا فَلْيَذُقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ (٥٧) وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴿ (س: ٥٧-٥٨) .

والغسلين والغساق بمعنى واحد، وهو ما سأل من جلود أهل النار من القسيح والصديد، وقيل ما يسيل من فروج النساء الزواني ومن نفن لحوم الكفرة وجلودهم، وقال القرطبي: (هو عصارة أهل النار) (٢).

أما شرابهم فهو الخميم قال تعالى: ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ (سعد: ١٥) وقال: ﴿ وَإِنْ يَسْتَعِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (التكوير: ٢٩) وقال: ﴿ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ \* يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيفُهُ ﴾ (براهيم: ١٦ - ١٧) وقال: ﴿ هَذَا فَلْيَذُقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ (س: ٥٧) وقد ذكرت هذه الآيات أربعة أنواع من شراب أهل النار:

(١) اليوم الآخر، الجنة والنار، لعمرو الأشقر، (٨٨).

(٢) بقعة أولي الاعتناء، مما ورد في ذكر الجنة والنار، صديق حسن، (٨٦).



الأول: الحميم، وهو الماء الحار الذي تناهى حره .

الثاني: الخساق، وقد مضى الحديث عنه، فإنه يذكر في مأكول أهل النار ومشروبهم .

الثالث: الصديد، وهو ما يسيل من لحم الكافر وجلده .

الرابع: المهل وهو كعكر الزيت، فإذا قرب وجهه سقطت فروة وجهه فيه (١) .  
أكلهم النار:

ومن أصحاب الذنوب من يطعمه الله جمر جهنم جزاء وفاً

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا  
وَيَصِلُونَ نَجِيرًا﴾ (النساء: ١٠) .

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا  
يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ (البقرة: ١٧٤) .

لباس أهل النار:

أما لباس أهل النار فقد أخبرنا تبارك وتعالى أنه يفصل لأهل النار حبل من النار، كما قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ نُهُمُ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ  
الْحَمِيمُ﴾ (الصح: ١٩) وكان إبراهيم الشيعي إذ تلا هذه الآية يقول: (سبحان من خلق من النار ثياباً) (٢) .

وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٥٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قَطْرَانٍ  
وَتَعْلَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾ (إبراهيم: ٤٩) والقطران: هو النحاس المذاب .



(١) اليوم الآخر، الجنة والنار، (٩٠) .

(٢) التلخيص من النار، لابن الجوزي، (١١٦) .

## المبحث الخامس

## صور من عذاب أهل النار

أولاً: تفاوت عذاب أهل النار .

إن الآيات القرآنية قد بينت تفاوت أصحاب النار في العذاب كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ (النساء: ١٤٥) وقوله : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ (غافر: ٤٦) وقوله : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ (النحل: ٨٨) .

وقد بين النبي ﷺ ذلك في قوله : \* إن منهم من تأخذه المنار إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه إلى حجزته، ومنهم من تأخذه إلى ترقوته\* . وفي رواية إلى «عنقه»<sup>(١)</sup> . وفي صحيح البخاري: حدثنا رسول الله ﷺ عن أخف الناس عذاباً فقال: \* إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لرجل توضع في أخصص قدميه جمرة تغلي منها دماغه»<sup>(٢)</sup> .

وعن تفاوت أصحاب النار في العذاب يقول القرطبي: (هذا الباب يدل على أن كفر من كفر فقط، ليس ككفر من طغى وكفر وتمرد وعصى، ولا شك أن الكفار في عذاب جهنم متفاوتون، كما قد علم من الكتاب والسنة، ولأنا نعلم على التقطع والنيات أنه ليس عذاب من قتل الأنبياء والمسلمين وفتك وأفسد في الأرض وكفر مساوياً لعذاب من كفر فقط، وأحسن للأنبياء والمسلمين، ألا ترى أباً طالب كيف أخرجته النبي ﷺ إلى ضحضاح لتصرنه إياه وذبه عنه وإحسانه إليه)<sup>(٣)</sup> .

وقال ابن رجب: (واعلم أن تفاوت أهل النار في العذاب هو بحسب تفاوت أعمالهم التي أدخلوا بها النار) إلى أن قال: (وكذلك تفاوت عذاب عصاة الموحدين

(١) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة عبيدها، باب لمدة حر النار، (٤ / ٢٦٨٥) .

(٢) البخاري مع الفتح كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، (١١ / ١٢٤) .

(٣) التذكرة لقرطبي (١٠٩) .

في النار بحسب أعمالهم، فليس عقوبة أهل الكباثر كعقوبة أصحاب الصغائر، وقد يخفف عن بعضهم بحسنات أخرت له أو بما شاء الله من الأسباب، ولهذا يموت بعضهم في النار (١).

### ثانياً: إنضاج الجلود:

إن نار الله يوم القيامة تحرق جلود أهل النار، والجلد موضع الإحساس الألم الاحتراق، ولذلك فإن الله يبدل لهم جلوداً أخرى غير تلك التي احترقت لتحترق من جديد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (النار: ٥٦).

### ثالثاً: الصهر:

من ألوان العذاب التي ذكرت في القرآن صب الحميم فوق رؤوسهم، والحميم هو ذلك الماء الذي انتهى حره، فليشده حره تذوب أمعاؤهم وما حوته بطونهم: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ نَفْسٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٦) يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ (الجم: ١٩-٢٠).

أخرج الترمذي من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ حتى يخلص إلى جوفه فيسلب ما في جوفه، حتى يبرق من قدميه، وهو الصهر، ثم يعود كما كان». وقال: حسن غريب صحيح (٢).

### رابعاً: اللفح:

ومن إهانة الله لأهل النار أنهم يحشرون في يوم القيامة على وجوههم عمياً وصماً وبكماً. قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيًَّا وَبُكْمًا وَصَمًّا مَا وَاهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ (الاسراء: ٩٧) ويلقون في النار على وجوههم: ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَكَبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النمل: ٩٠).

(١) التخويف من النار: (١٤٢-١٤٣).

(٢) جامع الأصول لابن الأثير (١٠ / ٥٤٠) والترمذي كتاب صفة جهنم، باب ما جاء في شراب أهل النار، رقم (٢٥٨)، (٦٠٧ / ٥).

ثم إن النار تلتفح وجوههم وتغشاها أبداً لا يجدون حائلاً يحول بينهم وبينها :  
 قال تعالى : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ  
 وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ (الأنبياء: ٢٠٩) ﴿ تَلْتَفِحُ وَجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالْحِجُونَ ﴾ (نور: ١٠٤)  
 ﴿ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ وَتَعَشَى وَجُوهُهُمُ النَّارُ ﴾ (براهيم: ٥٠) ﴿ أَقْمَنُ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ  
 الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ (نور: ٢٤) .

وانظر إلى هذا المنظر الذي تقشعر لهوله الأبدان : ﴿ يَوْمَ تَقَلَّبُ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ  
 يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴾ (الحزاب: ٦٦) .

#### خامساً: السحب :

ومن أنواع العذاب الآليم سحب الكفار في النار على وجوههم : ﴿ إِنَّ الْمَجْرِمِينَ  
 فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُقُوا مِنْ سُقْرِ ﴾ (النمر: ٢٧ - ٢٨)  
 ويزيد من آلامهم حال سحبهم في النار أنهم مقيدون بالقيود والأغلال والسلاسل :  
 ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَمَا أُرْسِلْنَا بِهِ رُسُلًا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (٧) إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ  
 وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧٦) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ (عنبر: ٧٠ - ٧٢) .

#### سادساً: تسويد الوجوه :

يسود الله في الدار الآخرة وجوه أهل النار :  
 ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ  
 فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ (ال عمران: ١٠٦) وهو سواد شديد، كأنما حلت ظلمة  
 الليل في وجوههم : ﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ  
 اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا  
 خَالِدُونَ ﴾ (يونس: ٢٧) .

#### سابعاً: إحاطة النار بالكفار :

قال تعالى : ﴿ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَاطَبَةُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا

خالدون ﴿البقرة: ٨١﴾ ولا يكون المرء كذلك إلا إذا كان كافراً مشركاً، يقول صديق حسن خان <sup>(١)</sup>: (المراد بالسبئية هنا الجنس، ولا بد أن يكون سببها محيطاً به من جميع جوانبه، فلا تبقى له حسنة، ومدت عليه مسالك النجاة، والخلود في النار هو للكفار والمشركين، فيتعين تفسير السبئية والحطية في هذه الآية بالكفر والشرك وبهذا يبطل تشبث المعتزلة والخوارج، لما ثبت في السنة مستواتراً من خروج عصاة الموحدين من النار) <sup>(٢)</sup>.

ولما كانت الخطايا والذنوب تحيط بالكافر إحاطة السوار بالمعصم، فإن الجزء من جنس العمل، ولذا فإن النار تحيط بالكفار من كل جهة، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ (الأعراب: ٤١) والمهاد ما يكون من تحتهم، والغواش جمع غاشية وهي التي تغشاهم من فوقهم، والمراد أن التيار تحيط بهم من فوقهم ومن تحتهم، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ (التكوير: ٥٥) وقال في موضع آخر: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ (الزمر: ١٦) وقد صرح بالإحاطة في موضع آخر: ﴿وَإِنْ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (التوبة: ٤٩) وقد قرى بعض السلف المهاد بالفراش، والغواش باللحف <sup>(٣)</sup>.

وتأتي الإحاطة من ناحية أخرى، وذلك أن للنار سوراً يحيط بالكفار، فلا يستطيع الكفار مغادرتها أو الخروج منها، كما قال تعالى:

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (التكوير: ٢٩) وسرادق النار سورها وحائطها الذي يحيط بها <sup>(٤)</sup>.

(١) أحد علماء الهند المجددين والساكنين سبيل السلف الصالح، محمد صديق خان بن حسن بن علي بن لطف الله الحسيني البخاري القنوجي أبو العليم، ولد ونشأ في قنوج بالهند، وتزوج بمكة بهيوان، وأخذ عنه مداراته للإنجليز، وتولى بعض الأمور لهم، توفي سنة ١٣٠٧ هـ. انظر الأعلام: (٦ / ١٦٧).

(٢) بقظة أولي الاعتبار (٦٧).

(٣) تفسير ابن كثير (٣ / ١٦٨).

(٤) اليوم الآخر لجنة والنار (١٠٢).

## ثامناً: اطلاع النار على الأفتدة:

قال تعالى: ﴿ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ٤ ﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ٥ ﴿ نَارُ اللَّهِ الْمَوْقُودَةُ ٦ ﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْتِدَةِ ﴿ (المزة: ٤ - ٧) قال محمد بن كعب (١) القرظي: (تأكله النار إلى فؤاده، فإذا بلغت فؤاده أنشئ خلقه، وعن ثابت البناني (٢) أنه قرأ هذه الآية، ثم قال: (تحرقهم النار إلى الأفتدة وهم أحياء لقد بلغ منهم العذاب، ثم يبكي) (٣).

## تاسعاً: قيود أهل النار وأغلالهم وسلاسلهم ومطارقهم:

أعد الله لأهل النار سلاسلًا وأغلالًا وقيودًا ومطارقًا: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴾ (الإنسان: ١١) ﴿ إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ﴾ (٣٦) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿ (الزلزل: ١٢ - ١٣) والأغلال توضع في الاعناق: ﴿ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (سبا: ٣٣) ﴿ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾ (غافر: ٧٦).

والأنكال: القيود سميت أنكالا ؛ لأنه يعذبهم ويُنكل بهم بها ﴿ لَدَيْنَا أَنْكَالٌ ﴾ (الزلزل: ١٢) والسلاسل نوع آخر من ألوان العذاب التي يقيد بها المجرمون في الدنيا، وانظر إلى هذه الصورة التي أخبرنا بها الكتاب الكريم: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴾ ثُمَّ الْجَحِيمِ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿ (الحاقة: ٣٠ - ٣٢) وأعد الله لأهل النار مقامع من حديد وهي المطارق التي تهوي على المجرمين وهم يحاولون الخروج من النار، فإذا بها تطوح بهم مرة أخرى إلى سواء الجحيم: ﴿ وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يُخْرَجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿ (النجم: ٢٧ - ٢٢).

(١) هو محمد بن كعب بن سليم القرظي المدني من حلفاء الأوس، كان أبوه من سبي بني قريظة إمام علامة صادق، توفي ١٠٨ هـ، سير أعلام النبلاء (٥ / ٦٥) شذرات الذهب، (١ / ١٣٦) - وتهذيب التهذيب (٩ / ٤٢٠) -  
 (٢) هو الإمام الزاهد التابعي الفاضل، ثابت بن أسلم البناني أبو محمد أس بن مالك، وهو أثبت الناس في أس، وهو من انقطاعات الأئمة، توفي سنة ١٢٧ هـ، وقيل ١٢٣ هـ، انظر: تهذيب التهذيب (٢ / ٢).  
 (٣) التخويف من النار، لابن رجب (١٤٦).

عاشراً: قرن معبوداتهم وشياطينهم في النار:

قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٥٨﴾ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (الأنبياء: ٩٨ - ٩٩) يقول ابن رجب: (لما عبد الكفار الآلهة من دون الله، واعتقدوا أنها تشفع لهم عند الله، وتقربهم إليه، عوقبوا بأن جعلت معهم في النار إهانة لهم وإذلالاً، ونكاية لهم وإبلاغاً في حسرتهم وندامتهم، فإن الإنسان إذا قرن في العذاب بمن كان سبب عذابه كان أشد في ألمه وحسرتة) (١).

قال القرطبي: (وإنما يجمعان في جهنم؛ لأنهما قد عبدا من دون الله، لا تكون النار عذاباً لهما؛ لأنهما جماد، وإن يفعل ذلك بهما زيادة في تبييت الكافرين وحسرتهم، وهكذا قال بعض أهل العلم) (٢).

ولهذا المعنى يقرن الكفار بشياطينهم ليكون أشد لعذابهم ﴿وَمَنْ يَعْتَسِبْ عَنِ ذَنْبِ الرَّحْمَنِ تَقِيصٌ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٢٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ (الزخرف: ٣٦ - ٣٩).

الحادي عشر: حسرتهم وندمهم ودعاؤهم:

عندما يرى الكفار النار يتدمون أشد الندم، ولات ساعة مندم: ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (يونس: ٥٤) وعندما يطلع الكافر على صحيفة أعماله، فيرى كفره وشركه الذي يؤهله للخلود في النار، فإنه يدعو بالشبور والهلاك، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَأَىٰ ظَهْرَهُ ﴿١١﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١٢﴾ وَيَصْلِي سَجِيرًا﴾ (الانشقاق: ١٠ - ١٢).

ويتكرر دعاؤهم بالويل والهلاك عندما يلقون في النار، ويصلون حرها: ﴿وَإِذَا

(١) التخریف من الشور، لابن رجب (١٠٥).

(٢) التذكرة للقرطبي (٣٩٢).

أَتَقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّبِينَ دَعُوا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٤٣﴾ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿(المزمل: ١٤٣ - ١٤٤)﴾ وهناك يعلو صراخهم ويشتم عويلهم، ويدعون ربهم آمليين أن يخرجهم من النار: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ (النار: ٣٧) وهم يعترفون في ذلك الوقت بضلالهم وكفرهم وقله عقولهم: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (الكافرون: ١١٠-١١١) ولكن طلبهم يرفض بشدة، ويجابون بما يستحق أن تجاب به الأنعام: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٥﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا عِندَنَا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسِئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠٦ - ١٠٨) .

لقد حق عليهم القول، وصاروا إلى المصير الذي لا ينفع معه دعاء ولا يقبل فيه رجاء: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِن حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (السجدة: ١٢ - ١٤) .

ويتوجه أهل النار بعد ذلك النداء إلى خزنة النار، يطلبون منهم أن يشفعوا لهم كي يخفف الله عنهم شيئًا مما يعانونه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَلَيْنَا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوْ لِمَ تَدْعُونَ رَبَّكُمْ بِمَا لَيْسَ بِغِيَاثِكُمْ قَالَوا بَلَى قَالُوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ (غافر: ٤٩ - ٥٠) وعند ذلك يسألون الشفاعة كي يهلكهم ربهم: ﴿وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنتُمْ﴾ (الزخرف: ٧٧) .

لقد خسر هؤلاء الظالمون أنفسهم وأهلبيهم عندما استحبوا الكفر على الإيمان، واستمع إلى عويلهم وهم يرددون حال العذاب: ﴿يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ (الاحزاب: ٦٦) ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا ففِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ (مرد: ١٠٦) .



قال الليث <sup>(١)</sup> رحمه الله: (الزفير أن يملا الرجل صدره حال كونه في الغم الشديد من النفس ويخرجه، والشهيق أن يخرج ذلك النفس) <sup>(٢)</sup>.

وما ذكرت من صور العذاب في القرآن الكريم يدل على أن العذاب حسي ومعنوي، وفيه من الوضوح والبيان ما يجعل الإنسان صاحب الفطرة السوية من أن يستجيب لأوامر الله ويجتنب نواهيه، وهذه الصور الحية لا توجد في التوراة ولا في الإنجيل ولا في غيرها من الكتب المقدسة، وهذا يدل على وسطية القرآن وحكمته في عرض اليوم الآخر بمشاهدة الحية في الترهيب بدون إفراط أو تفريط أو زيادة أو نقصان، ويأذن الله مستكلم في الصفحات القادمة عن جانب الترغيب والله الهادي إلى سواء السبيل.



(١) الليث بن سعد هو شيخ النصارى المصرية الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي، ويكنى أبا الحارث، ولد سنة (٩٤هـ) بقرقند، وكان غنياً سخياً، يزيد دخله عن عشرين ألف دينار سنوياً، مع ذلك لم يجب الزكاة في ماله، لأنه من شدة مسخائه ما كان يقي عنده نصاب الزكاة، قال الشافعي فيه: الليث أوقف من مالك، إلا أنه ضيعه أصحابه. توفي عام (١٧٥هـ) نظر ترجمته في تاريخ بغداد (١٣ / ٣)، تذكرة الحفاظ (١ / ٣٠٧).

(٢) بقظة أولي الاعتبار، تصديق حسن خان، (٧٢).

## المبحث السادس

## صفة الجنة

أولاً: الجنة لا مثل لها .

إن نعيم الجنة شيء أعده الله لعباده المستقين نابع من كرم الله وجوده وفضله، ووصف لنا المولى عز وجل شيئاً من نعيمها إلا أنه ما أخفاه الله عنا من نعيم شيء عظيم لا تدركه العقول، ولا تصل إلى كنهه الأفكار . قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة: ١٧) .

وقد جاء في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فاتقوا الله إن شئتم» ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١) .

وقد بين الله سبحانه وتعالى سبب هذا الجزاء بما وفقهم إليه من أعمال عظيمة من قيام ليل، وإنفاق في سبيله قال تعالى:

﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (١٦)  
فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة: ١٧) .

ثانياً: أبواب الجنة:

وصف الله سبحانه وتعالى في كتابه الجنة بأن لها أبواباً يدخل منها المؤمنون كما تدخل منها الملائكة قال تعالى: ﴿جَنَّاتٍ عِدْنٍ مُمْتِنَةٍ لَهُنَّ الْأَبْوَابُ﴾ (مر: ٥٠)  
وقال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ (٢٤) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (الرعد: ٢٣-٢٤) .

وأخبر الحق تبارك وتعالى أن هذه الأبواب تفتح عندما يصل المؤمنون إليها،

(١) البخاري مع الفتح، كتاب بدء الخلق، باب صفة الجنة (٦ / ٣٦٦) رقم (٣٢٤٤) .

وتستقبلهم الملائكة محيية بسلامة الوصول: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (نور: ٧٣) .

وعدد أبواب الجنة ثمانية، وأحد هذه الأبواب يسمى الريان وهو خاص بالصائمين كما في حديث البخاري عن النبي ﷺ قال: «في الجنة ثمانية أبواب فيها باب يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون» (١) .

وقد بين العلماء أن هناك باباً ثلثين من الصلاة، وباباً للمتصدقين وباباً للمجاهدين، فمن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة وهكذا (٢) .

### ثالثاً: درجات الجنة:

إن أهل الجنة متفاوتون فيما بينهم على حساب أعمالهم وتوفيق الله لهم وكذلك درجاتهم في الآخرة، بعضها فوق بعض قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ﴾ (ص: ٧٥) وأولياء الله المؤمنون المتقون في تلك الدرجات بحسب إيمانهم وتقواهم قال تعالى:

﴿مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْمُعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ (١٨) ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ (١٩) ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (٢٠) انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجاتٍ وأكبر تفضيلاً ﴿ (الإسراء: ١٨ - ٢١) .

فبين سبحانه أن أهل الآخرة يتفاضلون فيها أكثر ما يتفاضل الناس في الدنيا وأن درجات الآخرة أكبر من درجات الدنيا . قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلٍ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتِلُوا وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ (تخديد: ١٠) .

(١) البخاري مع الفتح، كتاب بدء الخلق، باب صفة أبواب الجنة (٦ / ٣٦٦) رقم (٣٧٤٤) .

(٢) انظر: فتح بهاري (٦ / ٣٧٨) .

وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٦﴾ دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٥ - ٩٦﴾ .

وقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «من آمن بالله وبرزسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، جاهد في سبيل الله، أو جلس في أرضه التي ولد فيها، فقاتلوا يا رسول الله: أفلا نبشر الناس؟! قال: إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله، فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، أراه قال: وفوقه عرش الرحمن منه تفتح أنهار الجنة» (١).

#### رابعاً: أنهار الجنة:

ذكر القرآن الكريم أنهار الجنة في آيات عديدة قال تعالى: ﴿وَيَسِّرُ اللَّهُ لِيَأْتِيَهُمْ رِجْلًا مِنْ جَبَلٍ مِنْ تَحْتِهَا نَاقُورٌ مِنْ نَارٍ كَالسَّمَرِ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴿٢٥﴾ .

ومن الأنهار التي ذكرها النبي ﷺ في أحاديثه في الجنة ما رواه البخاري عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «رفعت لي السدره، فإذا أربعة أنهار نهران ظاهران، ونهران باطنان، فأما الظاهران فالنيل والفرات، وأما الباطنان: فنهران في الجنة» (٢).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة» (٣).

(١) البخاري مع الفتح، كتاب الجهاد، باب درجات المجاهدين، (٦ / ١٤).

(٢) صحيح البخاري مع الفتح، كتاب الأثرية، باب شرب اللبن، (١٠ / ٧٣).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الجنة، باب ما في الدنيا من أنهار الجنة (٤ / ٢٦٨٣).

ومن أنهار الجنة الكوثر الذي أعطاه الله لرسوله ﷺ ، ففي صحيح البخاري عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «بينما أنا أسير في الجنة، إذ أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، فإذا طيبة أو صينه مسك أذفره» شك الرواي (هدية) (١).

وقد فسر ابن عباس الكوثر بالخير الكثير الذي أعطاه الله لرسوله ﷺ وبين سعيد بن جبير أن النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه (٢).

#### خامساً: عيون الجنة:

في الجنة عيون كثيرة مختلفة الطعوم والمشارب قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (المع: ٤٥) ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾ (الزمر: ٤١) وقال في وصف الجنتين اللتين أعدهما لمن خاف ربه ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ (الرحمن: ٥٠) وقال في وصف الجنتين اللتين دونهما ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَضَافَتَانِ﴾ (الرحمن: ٦٦).

وفي الجنة عينان يشرب المقربون ماءهما صرفاً غير مخلوط، ويشرب منهما الأبرار الشراب مخلوطاً بمزوجةً بخيرها، العين الأولى: عين الكافور قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ (الإنسان: ٥ - ٦) فقد أخبر أن الأبرار يشربون - شرابهم ممزوجاً من عين الكافور - بينما عباد الله يشربونها خالصاً.

العين الثانية: عين التسميم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ ﴿عَلَى الْأُرَائِكِ يَنْظُرُونَ﴾ ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ ﴿وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾ ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُعْرِضُونَ﴾ (الطغين: ٢٢ - ٢٨) ومن عيون الجنة عين تسمى السلسبيل، قال تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا﴾ ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا﴾ (الإنسان: ١٧ - ١٨).

(١) صحيح البخاري مع الفتح، كتاب الرقاق، باب في الخوض (١١ / ٤٧٢).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب في الخوض، فتح الباري، (١١ / ٤٧٥).

## سادساً: قصور الجنة وخيامها:

بني الله لأهل الجنة مساكن طيبة حنة كما قال تعالى: ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ (التوبة: ٧٢) وقال تعالى: ﴿ وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ ﴾ (سبا: ٢٧) وقال في جزاء عباد الرحمن: ﴿ أُولَئِكَ يَجْزُونَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَعْبِيَةً وَسَلَامًا ﴾ (القرآن: ٧٥) وقال تعالى واصفاً هذه الغرفات: ﴿ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخَلِّفُ اللَّهُ الْمِعَادَ ﴾ (الزمر: ٢٠).

وقد أخبرنا المولى عز وجل أن في الجنة حساباً قال تعالى: ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴾ (الرحمن: ٧٢) وهذه الخيام عجيبة، فهي من لؤلؤ؛ بل هي من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها في السماء ستون ميلاً وفي بعض الروايات عرضها ستون ميلاً ففي صحيح البخاري عن النبي ﷺ قال: «الخيمة درة مجوفة طولها في السماء ثلاثون ميلاً، في كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون»<sup>(١)</sup>.

## سابعاً: نور الجنة:

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا بُكْرَةٌ وَعِشْيَا ﴾ (٥٧) تلك الجنة التي نُورِتْ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿ (مريم: ٦٢ - ٦٣) أي في وقت البكرات ووقت العشيات، لا أن هناك ليلاً ونهاراً، ولكنهم في أوقات تتعاقب يعرفون مضيها بأضواء وأنوار)<sup>(٢)</sup>.

ويقول ابن تيمية في هذا الموضوع: (والجنة ليس فيها شمس ولا قمر ولا ليل، ولا نهار، لكن تعرف البكرة والعشية بنور يظهر من قبل العرش)<sup>(٣)</sup>.

## ثامناً: وصف بعض شجر الجنة:

صدره المنتهى: وهذه الشجرة ذكرها المولى عز وجل في كتابه العزيز وأخبر

(١) صحيح البخاري مع الفتح، كتاب بدء الخلق، باب صفة الجنة، (٦ / ٣٦٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٤ / ٤٧١).

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية (٤ / ٣١٢).

سبحانه أن رسولنا ﷺ رأى جبريل على صورته التي خلقه الله عليها عندها، وأن هذه الشجرة عند جنة المأوى التي غشيتها ما غشيتها مما لا يعلمه إلا الله عندما رآها الرسول ﷺ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٢) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ (١١) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٣) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (١٤) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ (النجم: ١٤ - ١٧).

شجرة طوبى: وهذه شجرة عظيمة كبيرة تصنع ثياب أهل الجنة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لا طوبى لشجرة في الجنة مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها<sup>(١)</sup>.

الشجرة التي يسير الراكب في ظلها مائة عام: هذه شجرة هائلة لا يقدر قدرها إلا الذي خلقها، وقد بين الرسول ﷺ عظم هذه الشجرة بأن أخير أن الراكب لفرس من الخيل التي تعد للسباق يحتاج إلى مائة عام حتى يقطعها إذا سار بأقصى ما يمكنه. فني صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة، واقروا إن شئتم: ﴿وَوَظِلٌّ مُمْدُودٌ﴾ (الزمر: ٣٠)»<sup>(٢)</sup>.

وهذا يدل عن خلق بديع وقدره الصانع البديع سبحانه وتعالى.

تاسعاً: نعيم أهل الجنة:

لقد مدح القرآن الكريم نعيم الآخرة ودم الدنيا الفانية ورغب في ما عند الله على متاع الدنيا القريب العاجل في مواضع كثيرة، كقوله تعالى: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ أَتَقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ (آل عمران: ١٩٨).

وقوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَهُمْ فِيهِ وَرِزْقٌ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (طه: ١٣١) وقوله: ﴿قُلْ أُوْنِيْكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذٰلِكُمْ لِلَّذِيْنَ اتَّقَوْا عِنْدَ

(١) سلسلة الاحاديث الصحيحة ثلاثيات، (٤ / ٦٣٩، رقم الحديث ١٩٨٥).

(٢) البخاري مع الفتح - كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة (٦ / ٣٦٦).

رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ  
بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٦﴾ (آل عمران: ١٦) والآيات في هذا الباب كثيرة .

#### عاشراً: طعام أهل الجنة وشرابهم:

ذكر الله سبحانه وتعالى أن في الجنة ما تشتهيهِ الأنفس من المأكَل والمشارب: ﴿وَفَاكِهَةٌ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ (٢٠) وَلَعْمٍ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿ (الرأفة: ٢٠) ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهُيهِ  
الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ (الزمر: ٧١) .

وقد أباح الله لهم أن يتناولوا من خيراتها وألوان طعامها وشرابها ما يشتهون: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ (سجدة: ٢٤) .

#### الحادي عشر: خمر أهل الجنة:

من الشراب الذي يتفضل الله به على أهل الجنة الخمر، وخمر الجنة خالٍ من  
العبوب والآفات التي تتصف بها خمر الدنيا، فخمر الدنيا تذهب العقول، وتصدع  
الرموس، وتوجع البطون، وتقرض الأبدان، وتجلب الأسقام، وقد تكون معيبة في  
صنعها أو لونها أو غير ذلك، أما خمر الجنة فإنها خالية من ذلك كله، وجميلة  
صافية رائعة (١) . قال تعالى: ﴿يُظَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿٤٥﴾ بِيضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ  
﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ (النساء: ٤٥ - ٤٧) فقد وصف الله جمال لونها  
(بيضاء) ثم بين أنها تلذ شاربها لا يمل من شربها ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ (النساء: ٤٧)  
وقال في موضع آخر يصف خمر الجنة: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ  
وَأَبَارِقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿١٨﴾ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزَفُونَ﴾ (الرأفة: ١٧ - ١٨) .

قال ابن كثير في تفسير هذه الآيات: (لا تصدع رءوسهم، ولا تنزف عقولهم،  
بل هي ثابتة مع الشدة المطرية واللذة الحاصلة، وروى الضحاك عن ابن عباس أنه  
قال: في الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقيء والبول، فذكر الله خمر  
الجنة، ونزهها عن هذه الخصال) (٢) .

(٢) تفسير ابن كثير (٦ / ٥١٤) .

(١) نظر: اليوم الآخر، الجنة وشار، د. عمر الأشقر (٢٣٠)



وقال تعالى في موضع آخر: ﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ (٢٥) خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ (التطهين: ٢٥ - ٢٦) والرحيق الخمر، ووصف هذا الخمر بوصفين: الأول أنه مختوم أي موضوع عليه خاتم الأمر الثاني: أنهم إذا شربوه وجدوه في ختام شرايهم له رائحة المسك (١).

الثاني عشر: طعام أهل الجنة وشرايهم لا دنس معه:

الجنة دار خالصة من الأذى، وأهلها مطهرون من أوساخ أهل الدنيا، ففي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يصفون فيها، ولا يمتخطون، ولا يتغوطن» (٢).

وليس هذا خاص بأول زمرة تدخل الجنة، وإنما هو عام في كل ما يدخل الجنة، ففي رواية عند مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تدخل الجنة من أمتي على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشد نجم في السماء إضاءة ثم هم بعد ذلك منازل، لا يتغوطن، ولا يتبولون، ولا يمتخطون، ولا ييزقون» (٣).

فالذي يتفاوت فيه أهل الجنة عما نص عليه في الحديث قوة نور كل منهم، أما خلوصهم من الأذى فإنهم يشتركون فيه جميعاً، فهم لا يتغوطن ولا يتبولون، ولا يتقلون، ولا ييزقون، ولا يمتخطون. وفضلات الطعام والشراب تتحول إلى رشح كرشح المسك يفيض من أجسادهم، كما يتحول بعض منه إلى جشاء ولكنه جشاء تنبعث منه روائح طيبة عبقرة عطرة.

ففي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتقلون، ولا يتبولون ولا يتغوطن، ولا يمتخطون». قالوا: فما بال الطعام؟ قال: جشاء كجشاء المسك» (٤).

(١) المرجع السابق (٢٣٠).

(٢) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة، (٦ / ٢٦٧).

(٣) رواه مسلم، كتاب الجنة، باب أول زمرة تدخل الجنة، (٤ / ٢١٨٨)، رقم الحديث (٢٨٣٤).

(٤) المرجع السابق (٤ / ٢١٨٠)، رقم الحديث (٢٨٣٥).

الثالث عشر: آتية طعام أهل الجنة وشرابهم:

آتية طعام أهل الجنة، التي يأكلون ويشربون بها من الذهب والفضة قال تعالى:

﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ (الزمر: ٧١) أي وأكواب من ذهب .

وقال: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآبِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا﴾ (الإنسان: ١٥) أي اجتمع فيها صفاء القوارير وبياض الفضة .

ومن الآية التي يشربون بها الأكواب والأباريق والكنوس: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ (٣٧) بأكواب وأباريق وكأس من معين ﴿ثَوَابِقَ﴾ (١٧-١٨) والأكواب ما لا أذن له ولا عروة ولا خرطوم، والأباريق: ذوات الأذان والعري، والكأس: القدح الذي فيه الشراب .

الرابع عشر: لباس أهل الجنة وحليهم ومباخرهم:

أهل الجنة يلبسون فيها الفاخر من اللباس، ويتزينون فيها بأنواع الخلي من الذهب والفضة والنؤلؤ، فمن لباسهم الحرير، ومن حلالهم أساور الذهب والفضة والنؤلؤ قال تعالى:

﴿يَحْلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ (النمل: ٣٣)

﴿وَحَلَّوْاْ أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ (الإنسان: ٢١) وملايسهم ذات اللون، ومن ألوان الثياب التي يلبسون الأخضر من السندس والامسترق:

﴿يَحْلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتِزْقٍ مُّتَّكِنٍ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نَعَمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (التكوير: ٣١) .

ولباسهم أرقى من أي ثياب صنعها الإنسان، فقد روى البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب <sup>(١)</sup> رضي عنه قال: «أتي رسول الله ﷺ بثوب من حرير، فجعلوا

(١) هو البراء بن عازب بن الحارث الأنصاري الأوسي، أبو عمارة، وقيل: أبو عمرو هو ربه وصحبه، شهد أحد وما بعدها . واستسفر يوم بدر، وشهد مع علي رضي عنه الجمل وصفين، وحرب الجوز، مات سنة اثنين وسبعين من الهجرة . انظر الإصابة (١ / ١٤٦-١٤٧) .

يعجبون من حسنه ولينه، فقال رسول الله ﷺ: «لنأدب سعد بن معاذ»<sup>(١)</sup> في الجنة أفضل من هذا»<sup>(٢)</sup>.

وقد أخبر الرسول ﷺ أن لأهل الجنة أمشاطاً من الذهب والفضة، وأنهم يتبخرون بعود الطيب، مع أن روح المسك نفوح من أبدانهم الزاكية، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن الرسول ﷺ في صفة الذين يدخلون الجنة: «أتيتهم الذهب والفضة، وأمشاطهم الذهب، ووقود مجامرهم الآلوة - عود الطيب - ورشحهم المسك»<sup>(٣)</sup>.

وثياب أهل الجنة وحليهم لا تبلى ولا تفتى، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من يدخل الجنة ينعم لا يبأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفتى شبابه»<sup>(٤)</sup>.

#### الخامس عشر: فرش أهل الجنة:

فرش أهل الجنة عظيمة القدر، بطائنها من الإستبرق، فما بالك بظاهرها، وهناك ترى النمارق مصفوفة على نحو يسر الخاطر ويبهج النفس والزرايبي مبثوثة على شكل منسق متكامل قال تعالى: ﴿فِيهَا سُرُورٌ مُّرفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مُّوَضَّوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَّوَارِبُ مِثْرَاقَةٌ﴾ (الغاشية: ١٣ - ١٦) ﴿مُتَكِينِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٌ﴾ (الرحمن: ٥٤).

﴿مُتَكِينِينَ عَلَى رُفُوفٍ خُضْرٍ وَعِجْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ (الرحمن: ٧٦) والمراد بالنمارق: المخاد والمساند والمساند، والزرايبي: البسطة، والعبقري: البسط الجياد، والرُفوف، رياض الجنة وقيل نوع من الثياب، والأرائك: السرور.

(١) هو أبو عمر سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأشهل الأوسي الأنصاري سيد الأوس رمي يوم الخندق بسهم فغاش بعد ذلك شهر حتى حكم في بني قريظة حكمه المشهور الذي وافق فيه حكم الله من فوق سبع سموات وبعد ذلك مات بسبب انقراض جرحه وذلك سنة خمس للهجرة. انظر: الإصابة (٢ / ٣٥).

(٢) صحيح البخاري مع الفتح، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة (٦ / ٣٦٧) رقم الحديث (٣٢٤٨).

(٣) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب في صفة الجنة، رقم (٣٢٤٦).

(٤) صحيح مسلم كتاب الجنة، باب في دوزخ نعيم الجنة (٤ / ٢١٨١)، رقم الحديث (٢٨٣٦).

## السادس عشر: خدم أهل الجنة:

يخدم أهل الجنة ولدان ينشئهم الله لخدمتهم، يكونون في غاية الجمال والكمال، كما قال تعالى:

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ \* بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ﴾ (الزّينة: ١٧-١٨)

قال ابن كثير رحمه الله: (يطوف على أهل الجنة للخدمة ولدان من ولدان أهل الجنة (مخلدون) أي: على حالة واحدة مخلدون عليها، لا يتغيرون عنها لا تزيد أعمارهم عن تلك السن، ومن فسروهم بأنهم مخرصون، في آذانهم الاقرطة، فإنما عبر عن المعنى، لأن الصغير هو الذي يليق له ذلك دون الكبير وقوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لَوْلُوا مُنْتَوِرًا﴾ (الإنسان: ١٩).

أي إذا رأيتهم في انتشارهم في قضاء حوائج السادة وكثرتهم وصباحة وجوههم وحسن ألوانهم وثيابهم وحنيتهم، حسبتهم لؤلؤًا منتورًا، ولا يكون في التشبيه أحسن من هذا، ولا في المنظر أحسن من اللؤلؤ المنتور على المكان الحسن<sup>(١)</sup>.

## السابع عشر: اجتماع أهل الجنة وأحاديثهم:

أهل الجنة يزور بعضهم بعضًا، ويجتمعون في مجالس طيبة يتحدثون ويذكرون ما كان منهم في الدنيا، وما من الله به عليهم من دخول الجنان، قال تعالى في وصف اجتماع أهل الجنة:

﴿وَتَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَيَّ سُرُورٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ (الخير: ٢٧).

وحدثنا القرآن عن أصناف الاحاديث التي يتكلمون بها في مجتمعاتهم: ﴿وَأَقْبَلِ بَعْضُهُمْ عَلَيَّ بَعْضٌ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ (الضرر: ٢٥-٢٨)

ومن ذلك تذكرهم أهل الشر الذين كانوا يشككون أهل الإيمان ويدعونهم إلى

(١) تفسير ابن كثير (٧ / ١٨٤).

الكفران: ﴿فَأَقْبِلْ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ٥١﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥٢﴾ يَقُولُ أَتُنكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٣﴾ أَفَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٤﴾ قَالَ هَلْ أُنْتُمْ مُطَّلَعُونَ ﴿٥٥﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كُنتَ لَتَرْدِينِ ﴿٥٧﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتَ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٨﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتِئِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَوْتَتِنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٦٠﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦١﴾ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦٢﴾ (الصافات: ٥٠ - ٦١) .

#### الثامن عشر: نساء أهل الجنة:

زوجة المؤمن في الدنيا زوجته في الآخرة إذا كانت مؤمنة قال تعالى:

﴿جَنَّاتٌ عِدْنَ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ (الزمر: ٢٢)

وهم في الجنات منعمون مع الأزواج، يتكثرون في ظلال الجنة مسرورين فرحين:

﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأُرْشَاتِ مُتَكَوِّنُونَ﴾ (يس: ٥٦)

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ (الزحرف: ٧٠) .

#### التاسع عشر: الحور العين:

قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ (النحن: ٥٤) والحور: جمع حوراء،

وهي التي يكون بياض عينيها شديد البياض، وسواده شديد السواد، والعين: جمع

عيناء، والعيناء هي واسعة العين . وقد وصف الله في القرآن الحور العين بأنهن

كواعب أتراب قال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣٦﴾ حِدَائِقٍ وَأَعْتَابًا ﴿٣٧﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾

(النن: ٣٦ - ٣٧) والكاعب: المرأة الجميلة التي يوز ثديها، والأتراب المتقاربات في

السن، والحور العين من خلق الله في الجنة، أنشأهن الله إنشاء فجعلهن أبكاراً، عرباً

أتراباً: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرْبًا أَتْرَابًا﴾ (البقرة: ٣٥ - ٣٧)

وكونهم أبكاراً يقضي أنه لم يتكهنن قبلهم أحد، كما قال تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ

الطَّرْفِ لَمْ يَغْطِهِنَّ بَأْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾ (الرحمن: ٥٦) .

وقد حدثنا القرآن عن جمال نساء الجنة فقال: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٥﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ

الْمَكْنُونِ﴾ (البقرة: ٢٢-٢٣) والمراد بالمكثون: المخفي المصان، الذي لم يغير صفاء لونه

ضوء الشمس، ولا عبث الأيدي، وشبههن في موضع آخر بالياقوت والمرجان:  
**﴿فِيَهُنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَغْمَسْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ﴾ (٥٦) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٥٧)**  
**كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ (الرحمن: ٥٦ - ٥٨) .**

والياقوت والمرجان حجران كريمان فيهما جمال، ولهما منظر حسن بديع، وقد وصف الحور بأنهن قاصرات الطرف: وهن اللواتي قصرن بصرهن على أزواجهن، فلم تطمح أنظارهن لغير أزواجهن، وقد شهد الله لحور العين بالحسن والجمال، وحسبك أن شهد الله بهذا ليكون قد بلغ غاية الحسن والجمال: **﴿فِيَهُنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ﴾ (٧٠) ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٧١) ﴿حُورٌ مُّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ (الرحمن: ٧٠ - ٧١) . ونساء الجنة لسن كنساء الدنيا، فإنهن مطهرات من الخيض والنفاس، والبصاق والمخاط والبول والغائط، وهذا مقتضى قوله تعالى: **﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (القرء: ٢٥) .****

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن جمال نساء أهل الجنة، ففي الحديث الذي يرويه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون ولا يتخبطون، ولا يتغوطون، وآتيتهم فيها الذهب، وأمشاطهم من الذهب والفضة، ومجامرهم الألوه، ورضحهم من وراء اللحم من الحسن» (١) .

وانظر إلى هذا الجمال الذي يحدث عنه الرسول ﷺ هل تجد له نظيراً مما تعرف؟ ولو أن امرأة من أهل الجنة أطلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بينهما، ولئلا يريها، ولتصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها» (٢) .

العشرون: أفضل ما يعطاه أهل الجنة: (النظر إلى وجهه الكريم رضوان الله) .  
 قال الطحاوي: (الرؤية حق لأهل الجنة، بغير إحاطة ولا كيفية، كما نطق به

(١) رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، صفة الجنة، فتح الباري، (٦ / ٣٧٧) .

(٢) البخاري مع الفتح كتاب جهاد، باب وروجهنم بحور عين، (٦ / ١٩) .

كتاب ربنا: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ (٢٦) إلى ربها ناظرة ﴿ (النبأ: ٢٢ - ٢٣) وتفسيره على ما أراد الله تعالى وعلمه، وكل ما جاء في ذلك الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ فهو كما قال، ومعناه على أنه أراد أن لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا، فإنه ما سلم في دينه إلا من سلم لله عز وجل ولرسوله ﷺ ورد علم ما اشتبه عليه إلى عالمه) (١).

وقد صرح الحق تبارك وتعالى برؤية العباد لربهم في جنات النعيم: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ (٢٦) إلى ربها ناظرة ﴿ (النبأ: ٢٢).

والتكفار والمشركون يحرمون من هذا النعيم العظيم، والتكرمة الباهرة: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ (التفتين: ١٥).

قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، يقول تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى» زاد في رواية: «ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ (يونس: ٢٦).

وأما عن رضوان الله الذي يعطي لأهل الجنة، فعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يقول يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير كله في يدك، فيقول هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً» (٢).

الحادى والعشرون: آخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين:

يجر المؤمنون في الموقف العظيم بأهوال عظام، ثم يمرون على الصراط فيشاهدون

(١) انصارية (٢٠٠٣).

(٢) مشكاة المصابيح (٢ / ٨٨).

هولاً ورجباً، ثم يدخلهم الله جنات النعيم بعد أن أذهب عنهم الحزن، فيرون ما أعد الله لهم فيها من خيرات عظام، فترتفع ألسنتهم تسبح ربهم وتقديسه، فقد أذهب عنهم الحزن، وصدقهم وعده وأورثهم الجنة: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٣٩) الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب﴾ (ناظر: ٣٤ - ٣٥) .

وآخر دعواهم في جنات النعيم الحمد لله رب العالمين: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجُ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (برس: ١٠) .

وألى هنا أرجو أن أكون قد بينت قضية الإيمان باليوم الآخر من خلال القرآن الكريم وهدى سيد المرسلين ﷺ ، وقد لمست من خلال بحثي ملامح الوسطية من حكمة قرآنية واستقامة ربانية واعتدال وعدل في الأحكام ووضع طالب الحقيقة على صراط مستقيم .





## الفصل السابع

### وسطية القرآن في القضاء والقدر

تمهيد:

هذه مباحث في باب القضاء والقدر، ذلك الباب العظيم، الذي لا شك في أنه من أعظم أبواب العقيدة وأهمها، فهو أحد أركان الإيمان الستة التي وردت في حديث جبريل - عليه السلام - ولا يؤمن إنسان على الحقيقة حتى يؤمن به، فالإيمان به تمام التوحيد، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: (القدر نظام التوحيد، فمن وحد الله وآمن بالقدر تم توحيد، ومن وحد الله وكذب بالقدر نقض توحيد) (١).

(والقدر هو قدرة الله، كما قال الإمام أحمد - رحمه الله -) (٢).

فالذي يكذب به مكذب لقدرة الله عز وجل - وما يدل على أهميته ما يترتب على الإيمان به من عظيم الثمرات على الأفراد والمجتمعات في الدنيا وفي الآخرة، وما يدل على أهميته أن كتب العقيدة اهتمت به أيما اهتمام، وأظالت في ذكره، والحديث عنه كالإبانة لابن بطّة، والشريعة للأجري، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي، والحجة في بيان المحجة للأصبهاني وغيرها.

ففهم هذا الباب على الوجه الصحيح والإلام به - ولو على سبيل الإجمال - من الأهمية بمكان، وقد جاء هذا الباب في القرآن الكريم واضحاً وشرحه النبي صلى الله عليه وآله وسلم أتم الشرح، وتلقاه الصحابة عنه فكانوا رضوان الله عليهم أعظم الناس فهماً خفيفة الإيمان بالقدر، فأثر ذلك فيهم أيما تأثير، فكانوا أشجع الناس، وأكرمهم، وأنقاهم، ثم دب في هذه الأمة داء الأمم، وقد ركبت ستر من كان قبلها، فدخلت الفلسفات اليونانية والهندية وعقائد اليهود المحرفة والنصارى الزائفة إلى بلاد المسلمين، وظهرت بدعة القدرية في البصرة ودمشق، فوقع أول شرك في الأمة وهو

(١) مسوع الفتاوى لابن تيمية (٣ / ١١٣).

(٢) مسائل والمسائل المرورية عن الإمام أحمد (١ / ١٣٥).

نفي القدر، فتصدي علماء السنة نُنك البدعة وينوا عوارها ودحضوا باطلها وأظهروا الحق ونشروه .

ومما لا شك فيه أن باب القدر - أعرض أبواب العقيدة، فلقد حار النظار والعقلاء قديماً وحديثاً - في شأنه وفي فهم حقيقته، فلم يصلوا إلى اليقين والنصواب، ذلك لأنهم التمسوا الهدى في غير مضافه، فحاروا وحجروا، وتعبدوا وأتعبوا . وقد وفق الله سبحانه وتعالى أهل السنة والجماعة لفهم هذا الباب، وذلك لاتباع ما جاء في الكتاب والسنة وأثار السلف الصالح، إذ لا يمكن لأحد أن يفهم هذا الباب على وجه التفصيل فهماً صحيحاً - إلا كما فهمه أهل السنة والجماعة - سلف هذه الأمة الصالح، وإذا نظرت إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ انتظم العقد في هذا الباب وظهرت ملامح الوسطية فيه وسلمت من الإفراط والتفريط والغلو واجفأ والبعد عن الصراط المستقيم . وتجد القرآن الكريم والسنة المطهرة ترشدنا إلى أبواب يستطيع العقل البشري أن يجول فيها في هذا الباب وتنهانا عن أمور يستحيل العقل أن يصل إليها .

فالأمور التي يستطيع العقل البشري أن يجول فيها ويفهمها من منطلق النصوص، كالبحث في مراتب القدر وأقسام التقدير، وخلق أفعال العباد إلى غير ذلك من مباحث القدر .

والأمور التي نهانا الشرع عن الخوض فيها مثل: الخوض في القدر بالباطل وبلا علم ولا دليل، والاعتماد في معرفة القدر على العقل البشري الفاضل بعيداً عن هدي الكتاب والسنة ؛ لأن العقل البشري لا يستقل بمعرفة ذلك على وجه التفصيل، وكذلك البحث عن الجانب الخفي في القدر الذي هو سر الله في خلقه، وكذلك التنازع في القدر الذي يؤدي إلى اختلاف الناس فيه واختراقهم، فهذا مما نهينا عنه . وبذلك يتضح للباحث منهج الوسطية في هذا الباب إذا ألمَّ بأطراف الموضوع، معتمداً على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

## المبحث الأول

### تعريف القضاء والقدر والعلاقة بينهما

أولاً: القدر في اللغة: (مصدر قدر يقدر قدراً وقد تسكن داله) (١).

قال ابن فارس: (قدر: القاف والذال والراء أصل صحيح يدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته؛ فالقدر مبلغ كل شيء، يقال: قدره كذا أي مبلغه، وكذلك القدر، وقدرت الشيء أقدره وأقدر من التقدير) (٢).

والقدر: محركة: القضاء والحكم، وهو ما يقدره - عز وجل - من القضاء، ويحكم به من الأمور.

والتقدير: التروية والتفكير في تسوية أمر، والقدر كالقدر؛ وجميعها جمعها أقدار (٣).

والقدر في الاصطلاح: (تقدير الله للكائنات حسبما سبق به علمه، واقتضته حكمته) (٤).

أو هو: (ما سبق به العلم وجرى به القلم، مما هو كائن وأنه - عز وجل - قدر مفادير الخلاق؛ وما يكون من الأشياء قبل أن تكون في الأزل، وعلم - سبحانه وتعالى - أنها ستقع في أوقات معلومة عنده - تعالى - وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدرها) (٥).

### ثانياً: القضاء في اللغة:

أ - القضاء في اللغة: (هو الحكم والصنع، والحتم، والبيان، وأصله القَطْع، والفصل، وقضاء الشيء، وإحكامه، وإمضاؤه، والفراغ منه فيكون بمعنى الخلق) (٦).

(١) نهاية في غريب الحديث لابن الأثير، (٤ / ٢٢).

(٢) معجم مقاييس اللغة، كتاب القاف، باب الذال والذال، (٥ / ٦٢).

(٣) القاموس المحيوط فصل القاف، مادة قدر (٥٩١).

(٤) رسائل في العقيدة للشيخ اس عثيمين - رحمه الله - (٢٧).

(٥) لوائح الأنوار البهية للسفاريني، (١ / ٣٤٨).

(٦) انظر: معجم مقاييس اللغة، كتاب القاف، ذب القاف والمضاد، (٤ / ٩٩).

## ب - العلاقة بين القضاء والقدر:

١ - قيل: (المراد بالقدر التقدير، والقضاء الخلق، كقوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [ص: ١٢] أي خلقهن، فالقضاء والتقدير أمران متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر، لأن أحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر، والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه) (١).

٢ - وقيل العكس: (فالقضاء هو العلم السابق الذي حكم الله به في الأزل، والقدر هو وقوع الخلق على وزن الأمر المقضي السابق) (٢).

قال ابن حجر العسقلاني: (وقالوا أي العلماء: القضاء هو الحكم الكلي الإجمالي في الأزل، والقدر جزئيات ذلك الحكم وتفصيله) (٣).

٣- قيل: إذا اجتمعا افترقا بحيث يصبح لكل واحد منهما مدلول بحسب ما مر في القولين السابقين، وإذا افترقا اجتمعا، بحيث إذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر (٤).

قوله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ (التوبة: ١٧).

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ (الأنعام: ٢٨) وروى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال سئل النبي ﷺ عن أبناء المشركين، فقال: «اللله أعلم بما كانوا عاملين» (٥).

وقال ﷺ: «ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار» (٦).



(١) انتهية في غريب حديث (٤ / ٧٨).

(٢) البخاري مع الفتح، كتاب القدر، (١١ / ١٨٦).

(٣) انظر: الدرر السنية في الأجوبة المتجددة (١ / ٥١٢-٥١٣).

(٤) البخاري مع الفتح، كتاب القدر، باب الله أعلم بما كانوا عاملين (١١ / ٥٢) رقم الحديث (٦٥٩٧).

(٥) أخرجه مسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق آدمي، (١ / ٢٧-٢٨)، رقم الحديث (٢٦٤٧).

(٦) مسلم، كتاب القدر، باب حجج آدم موسى، (١ / ٢٤٤)، رقم الحديث (٢٦٥٢).

## المبحث الثاني

### الافراط والتضييق في باب القدر

قد ضل في باب القدر فرق شتى من الناس، ومنشأ ضلالهم اتباعهم للهوى ونظرهم إلى النصوص بعين عوراء فبأخذون ما وافق أهواءهم، ويعمون، أو يتعمون عن غيره، ومن أشهر الفرق التي ضلت في هذا الباب ما يلي:

#### ١ - الفلاسفة:

الذين أنكروا (علمه تعالى بالجزيئات، وقالوا إنه يعلم الأشياء على وجه كلي ثابت، وحقبة قولهم أنه لا يعلم شيئاً، فإن كل ما في الخارج هو جزئي) (١).

وقد تأثر اليهود والنصارى بالفلسفة القديمة وتجدد في كتبهم المحرفة ما يقيد إنكار علم الله تعالى كما في سفر التكوين (٢) حيث زعم اليهود أن الله تعالى: (لا يعلم الغيب ويحتاج علامات يميز بها بني إسرائيل من غيرهم، فوضع الدم علامة على بيوت بني إسرائيل ليميزها عن بيوت المصريين حتى لا يهنكهم) (٣).

وأما النصارى فقد جعلوا المخلوق إنهما ونفوا عن إلههم أن تكون له إرادة ومشيئة وعلم بما يحصل له أو لمخلوقاته، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً (٤) وهذا بسبب بُعدهم عن الكتب المقدسة الصحيحة وتأثيرهم بالفلسفات الباطلة، ويكفي في الرد عليهم قوله تعالى:

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (الأنعام: ٥٩).

#### ٢ - من يعتقدون تأثير الكواكب والأسماء والأبراج:

كحال الذين ينظرون في النجوم والأسماء، ليستطلعوا من خلالها أسرار القدر،

(١) دره معارض العقول والنقل (٩ / ٣٩٧).

(٢) سفر التكوين، ص ١٢، فقرة (١٢-١٣).

(٣) وسطية أهل السنة بين الفرق (٢٤٩).

(٤) الحكمة في الدعوة إلى الله (٤٤٤).

فتجدهم يقولون: إذا ولد فلان في البرج الفلاني أو كان يحمل الاسم الفلاني فسيصيبه كذا وكذا في يوم كذا وكذا، وما يقولون - أيضاً - من اسمك تعرف حظك، ومن شهر ميلادك تعرف حظك، ونحو ذلك من هذا الهذيان والتخرص والرجم بالغيب، فهذا ضلال في باب القدر، لأن القدر غيب والغيب لا يعلمه إلا الله عز وجل .

### ٣ - غلاة الصوفية:

الذين غلبوا في الجبر: (من يزعمون الترقى في مقام الشهود للحقيقة الكونية، والربوبية الشاملة، فيرون كل ما يصدر من العبد من ظلم، وكفر، وفسوق هو طاعة محضة لأنها تجري وفق ما قضاء الله وقدره وكل ما قضاء وقدره فهو محبوب لديه، مرضي عنده، فإذا كان قد خالف أمر الشارع بارتكابه هذه المحظورات - فقد أطاع إرادة الله، وتقد مشيئته، فمن أطاع الله في قضائه وقدره هو كمن أطاعه في أمره ونهيه كلاهما قد قام بحق العبودية لله) (١) .

(ومن ثم فلا لوم، ولا تثريب، بل الكل مطيع بفعله لإرادة ربه، فصححوا بذلك إيمان فرعون وعبدة العجل، واليهود والتصارى والمجوس) (٢) .

كما صرح بذلك ابن عربي (٣) الصوفي بقوله:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي	إذا لم يكن ديني إلى دينه دان
لقد صار قلبي قابلاً كل صورة	فمرعى لغزلان ودير لرهبان
أدين بدين الحلب أني توجهت	وأنسواح توراة ومصحف قرآن
وبيت لأوثان وكعبة طائف	ركائبه فالحب ديني وإيمان (٤)

(١) شرح نوبة ابن القيم، لتهامس (١ / ٣٧٢) .

(٢) المتزلة بين التقديم والتأخير، لشمس عيده، طارق عبد الحكيم، (٥٨) .

(٣) هو أبو بكر محمد بن هاني بن محمد العربي الخليلي النطنفي المعروف بحبي الدين بن عربي، شعبي سوء، كذاب، من أهل وحدة، لوجوده، قال أشباه مكرها عدوها المحققون مروراً وزندقة، مات سنة ٦٣٨هـ، انظر: ميزان الاعتدال (٣ / ٦٥٩)، رقم ترجمته (٦٦٠) .

(٤) رسائل وفتاوى في دم ابن عربي الصوفي، د. موسى اندريش، (٧٤) .

وكقول عبد الكريم الجيلي<sup>(١)</sup> ، وهو من أهل وحدة الوجود:

وأسلمت نفسي حيث أسلمني الهوى      وما لي عن حكم الحبيب تنازع  
فضوراً تراني في المساجد راعياً      واني طوراً في الكنائس راع  
إذا كنت في حكم الشريعة عاصياً      فإني علم اخفيتسمة طائع<sup>(٢)</sup>  
وكما قال أحدهم:

أصبحت منفصلاً بما يختاره      مني ففعلي كله طاعات

وهذا المذهب من أحدث المذاهب، ولا يشك بكفر أصحابه؛ بل هو من أقبح أنواع الكفر قال ابن تيمية رحمه الله: (فإن من احتج بالقدر وشهود الربوبية العامة لجميع المخلوقات، ولم يفرق بين المأمور، والمحذور، والمؤمنين والكفار، وأهل الطاعة، وأهل المعصية، لم يؤمن بأحد من أرسل، ولا بشيء من الكتب، وكان عنده إبليس وأدم سواء، ونوح وقومه سواء، وفرعون وموسى سواء، والسابقون الأولون وكفار مكة سواء)<sup>(٣)</sup>. فلا يشك عاقل في كفره.

#### ٤ - الجبرية:

(وهم الذين غلب في إثبات القدر حتى أنكروا أن يكون للعبد فعل - حقيقة لا بل هو في زعمهم لا حرية له ولا فعل، كالريشة في مهب الريح، وإنما تسند إليه الأفعال مجازاً، فيقال: صلى وصام، وقتل، وسرق، كما يقال طلعت الشمس، وجرت الريح، ونزل المطر، فاتهموا ربهم بانظلم، وتكليف العباد بما لا قدرة لهم عليه ومجازاتهم على ما ليس من فعلهم، واتهموه بالعبث في تكليف العباد، وأبطلوا الحكمة في الأمر والنهي إلا ساء ما يحكمون)<sup>(٤)</sup>.

(١) هو عبد الكريم بن إبراهيم بن عبد الكريم الجيلي، من سبط عبد القدر الجيلاني، من علمائه الصوفية له كتب كثيرة، منها الإنسان الكامل، والناظرة الإلهية، توفي عام ٨٣٢هـ. انظر: الأعلام لتزركلي (٤ / ١٧٥-١٧٦).

(٢) هذه هي الصوفية، عبد الرحمن الوكيل، (٩٦).

(٣) مجموع الفتاوى (٨ / ١٠٠).

(٤) انظر: شرح نونية ابن القيم للهراس (١ / ٢٧٢).

وهؤلاء في الحقيقة يزعمون أن الله هو الفاعل الحقيقي لأفعالهم، بخلاف ما عليه أهل السنة؛ الذين يقولون إن الله هو الخالق والعبد هو الفاعل، ولذا ترتب على فعله الثواب والعقاب، وهؤلاء - الجبرية - يسمون بالقدرية المشركية، لأنهم شابهوا المشركين في قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ (النجم ١٦٨) وهذا كلام ظاهر البطلان .

### ٥ - القدرية:

وهم أتباع معبد الجهنمي<sup>(١)</sup> وغيلان الدمشقي<sup>(٢)</sup>، وأتباع واصل بن عطاء<sup>(٣)</sup>، وعمرو بن عبيد<sup>(٤)</sup> من المعتزلة، ومن وافقهم، هؤلاء هم القدرية، وقولهم في القدر: إن العبد مستقل بعمله في الإرادة والقدرة، وليس لمشيئة الله تعالى، وقدرته في ذلك أثر، ويقولون: إن أفعال العباد ليست مخلوقة لله، وإنما العباد هم الخالقون لها ويقولون: (إن الذنوب الواقعة ليست واقعة بمشيئته الشاملة، وغلاتهم يتكروون أن يكون الله قد علمها، فيجحدون بمشيئته الشاملة، وقدرته النافذة، ولهذا سموا مجوس هذه الأمة، لأنهم شابهوا المجوس الذين قالوا: إن نلكون إلهين: إله النور: وهو خالق الخير، وإله الظلمة: وهو خالق الشر .

والقدرية جعلوا لله شريكاً في خلقه فزعموا أن العباد يخلقون أفعالهم،

(١) هو المتدع القسري معبد بن عبد الله بن علي الجهني البصري أول من قال بالقدر وكان ممن سمع الحديث عن ابن عباس وصحروان بن حصين وانتقل إلى المدينة، ونشر مذهبه فيها وكان قد تلقاه من رجل نصراني يسمى موسى وأخذ عن معبد غيلان الدمشقي، قتله عبد الملك بن مروان وصلبه سنة ٨٠هـ، الكامل لابن الأثير: (٤ / ٧٥) .

(٢) هو غيلان بن مسلم الدمشقي أبو مروان من البغداد الذين أهلوا الناس، ثاني من تكلم في المنع ودعا إليه، وإليه نسب فرقة الغيلانية من القدرية، أثنى الإمام الأوزاعي بقتله فصب على باب كيسان بدمشق بعد سنة (٦٠٥هـ) . البداية وانتهاء (٩ / ٣٤-٣٥) .

(٣) واصل بن عطاء البصري، العزول المتكلم البليغ المنشدق، الذي كان يلغى نثره فبلاغته مجر نثره وتجنبها في خطابه، فأتى عنه أبو الفتح الأزدي: رجل سوء كافر، كان من أجيال المعتزلة مات (١٣١هـ) انظر: ميزان الاعتدال (٤ / ٣٦٩) .

(٤) عمرو بن عبيد بن باب، أبو عثمان البصري المعتزلي القدرية، اعتزل مجلس الحسن هو وجماعة معه، سموا المعتزلة، وكان يشتم الصحابة ويكذب في الحديث وهذا لا تعبدك، مات سنة ١٤٣هـ . انظر ميزان الاعتدال (٣ / ٢٧٣) .



واستدلوا استللاً أعموراً ببعض الآيات، كما في قوله - تعالى - : ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ (التكوير: ٢٨) .

وقوله : ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ (التكوير: ٢٩) .

وأولوا ما عدا ذلك مما يخالف مذهبهم كما في قوله - تعالى - : ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (التكوير: ٢٩) ومثلاً ضلال هؤلاء في البداية أنهم أرادوا تنزيه الله - عز وجل - عن الشر فوقعوا في نفي القدر، ويكفي في الرد عليهم قوله - تعالى : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الصافات: ٩٦) .



### المبحث الثالث

#### ظهور يد عتي في القدر والقول بالجبر

في أواخر عصر الصحابة رضوان الله عليهم، كانت البداية الحقيقية لنشأة الاختلاف والكلام في القدر إذ نبع في وقتهم معبد الجهني الذي قال بنفي القدر، كما روى الإمام مسلم عن يحيى بن معمر<sup>(١)</sup>.

قال: (كان أول من قال في القدر بالبصره معبد الجهني، ثم ذكر يحيى أنه لقي عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال يا أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قبلنا ناس يقرءون القرآن ويتقرون العلم<sup>(٢)</sup> . . . وانهم يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنف<sup>(٣)</sup> .

فقال ابن عمر منكراً عليهم ذلك: فإذا لقيت ذلك فأخبرهم أنني بريء منهم، وأنهم برآء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنشئه، ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر<sup>(٤)</sup>.

ومعبد إنما تلقى هذه المقالة عن رجل نصراني كان قد أسلم ثم تنصر مرة أخرى، فكان معبد أول من نشر ذلك ونادى به وأظهره ولا سيما بالبصرة قال الإمام الأوزاعي<sup>(٥)</sup> رحمه الله: (أول من نطق في القدر رجل نصر، فأخذ عنه معبد الجهني وأخذ غيلان عن معبد)<sup>(٦)</sup>.

فهؤلاء هم أقطاب القدرية الأوائل، وكان مذهبهم في القدر يدور على أمرين:

(١) يحيى بن عمر البصري نزيل مرو وفاضلها لغة مصيغ، وكان يرسل، مات قبل المائة - انظر: ابن حجر في التقريب: (٢ / ٣٦١).

(٢) يطلبونه ويتبعونه.

(٣) أنف: أي مستأنف، ثم يسبق به قدر ولا عثم من الله، وإنما يعلمه بعد وقوعه - انظر: صحيح مسلم شرح النووي (١ / ١٥٦).

(٤) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإسلام والإيمان، (١ / ٣٦).

(٥) هو الإمام العابد الحجة الثقة عبد الرحمن بن عمرو الأزدي الفقيه روى عن كثير من التابعين، وكان رأساً في العلم والحديث والآداب، يزار في الكتابة، كان يكثر من الصلاة والعبادة، ونباه الفيل - توفي في بيروت سنة ١٤٨ هـ - نظر تهذيب التهذيب (٦ / ٢٣٨)، شذرات الذهب (٤ / ٣٤١).

(٦) الأجرى، الشريعة، (٣٣٤٣)، اللالكائي (١ / ٣٤١).

أحدهما: نفي علم الله سبحانه بالأشياء قبل وقوعها . والثاني: نفي خلقه لأفعال العباد، وأنها ليست واقعة بقدره، وهؤلاء هم غلاة القدرية الأوائل، وقد انقرض مذهبهم والمتأخرون منهم يشبّهون علم الله سبحانه بالأشياء قبل وقوعها ونفوا خلقه لأفعال العباد .

قال القرطبي رحمه الله: (قد انقضى هذا المذهب، أي مذهب غلاة القدرية - ولا نعرف أحداً ينسب إليه من المتأخرين قال: والقدرية اليوم مطبقون على أن الله عالم بأفعال العباد قبل وقوعها وإنما خالفوا السلف في زعمهم بأن أفعال العباد مقدورة لهم واقعة منهم على جهة الاستقلال وهو مع كونه مذهب باطل أخف من الأول) (١) .

وهذا المذهب هو الذي تبنته المعتزلة وجعلته أصلاً من أصولها التي قام عليها كيان الاعتزال، وبسبب قولهم به عرفوا بالقدرية لتفهم القدر، وفي مقابل القول بنفي القدر، ظهر قول مضاد ومعاكس له وهو القول بأجبر، ومضمونه أن الإنسان مجبور على أفعاله، وأنه لا يقدر منها على شيء، فهو كالريشة في مهب الريح . وأول من عرف عنه القول بذلك في الإسلام الجهم بن صفون (٢) . الذي قال من مقالته: (أنه لا حد في الحقيقة إلا لله وحده، وأنه هو الفاعل وأن الناس إنما تنسب إليهم أفعالهم على المجاز كما يقال: تحركت الشجرة ودار الفلك، وزالت الشمس وإنما فعل ذلك بالشجرة والفلك والشمس الله - سبحانه . . .) .

ومن خلال مقالتي الطائفتين، يتبين لنا أن القدرية النضاه مفرطون في هذا الباب، مفتضرون فيه بما سلبوا الله قدرته وقولهم: إن العباد هم الخالقون لأفعالهم، كما يتضح لنا مدى غلو الجهمية الجبرية في إثبات القدر حتى سلبوا الإنسان مشيئته وإرادته وعدوه بمنزلة الجماد، وأنه لا فعل له في الحقيقة، وأنه مجبور على أفعاله غير مختار فيها، وكلا الفريقين من الإفراط والتفريط على شفا جرف هار، والطريق

(١) وسطية أهل السنة بين الفرق (٣٧١) .

(٢) جهم بن صفوان السمرقندي أبو صحرار من موالي بني راسب، رأس الجهمية الضال ابتدع، ملك في زمن صفار الثاميين، وقد روج شرراً عظيماً، انظر: ميزان الاعتدال (١ / ٢٢٦) .

المستقيم القصد . فكل منهما قد أخطأ، وضل في هذا الباب، وإن كان هذا لا يمنع أن يكون مع كل منهما بعض الحق والصواب، لكن الحق المحض والصواب المحض ليس هو في قول واحد منهما، وإنما هو في قول خارج عن قولهما جمع ما عند كل من الفريقين من حق وصواب وخللا مما وقع فيه الفريقان من خطأ وضلال، ذلك هو قول أهل السنة والجماعة في هذا الباب، الذي هو حق بين الباطلين، وهدى بين الضاللتين، به كانوا وسطاً بين إفراط وتفريط الفريقين في هذا الباب، كما سنوضح ذلك في الصفحات القادمة .



## المبحث الرابع

### مجمل اعتقاد أهل السنة والجماعة في باب القدر

سئل شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - سؤالاً عن القدر فأجاب عنه إجابة مطولة ضمنها مجمل اعتقاد أهل السنة والجماعة في هذا الباب وبما قاله: (مذهب أهل السنة والجماعة في هذا الباب وغيره ما دل عليه الكتاب والسنة، وكان عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، وهو أن الله خالق كل شيء، وربّه ومثيقه، وقد دخل في ذلك جميع الأعيان القائمة بها، من أفعال العباد، وغير أفعال العباد .

وأنه - سبحانه - ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا يكون في الوجود شيء إلا بمشيئته، وقدرته، لا يستتبع عليه شيء شاء، بل هو قادر على كل شيء ولا يشاء شيئاً إلا وهو قادر عليه، وأنه - سبحانه - يعلم ما كان، وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون .

وقد دخل في ذلك أفعال العباد، وغيرها وقدّر الله مقادير الخلاق قبل أن يخلقهم، وقَدَّرَ آجالهم، وأرزاقهم، وأعمالهم، وكتب ذلك، وكتب ما يصيرون إليه من سعادة، وشقاوة، فهم يؤمنون بخلقهم لكل شيء، وقدرته على كل شيء، ومشيئته لكل ما كان، وعلمه بالأشياء قبل أن تكون، وتقديره لها، وكتابتها إياها قبل أن تكون) (١) .

إلى أن قال: (وسلف الأمة وأئمتها متفقون أيضاً على أن العباد مأمورون بما أمرهم الله به متتهيون عما نهاهم عنه، ومتفقون على الإيمان بوعده، ووعيده الذي نطق به الكتاب والسنة، ومتفقون على أنه لا حجة لأحد على الله في واجب تركه، ولا محرم فعله، بل لله الحجة البالغة على عباده) (٢) .

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (٨ / ٤٤٩ - ٤٥٠) .

(٢) المرجع السابق (٨ / ٤٥٦) .

وقال: (ومما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها - مع إيمانهم بالقضاء والقدر، وأن الله خالق كل شيء، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه يضل من يشاء، ويهدي من يشاء - أن العباد لهم مشيئة وقدر، يفعلون بمشيئتهم، وقدرتهم ما أقدرهم الله عليه، مع قولهم: إن العباد لا يشاءون إلا أن يشاء الله<sup>(١)</sup>)

كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ ۝٥٤ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ۝٥٥ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ (البقرة: ٥٤ - ٥٦) .



(١) المرجع السابق (٨ / ٢٥٩) .

## المبحث الخامس

### الأدلة من الكتاب والسنة والإجماع والضرورة والعقل في باب القدر

دل على هذا الركن العظيم من أركان الإيمان الكتاب، والسنة والإجماع، والضرورة، والعقل، وأخس .

أولاً من القرآن: أما الأدلة من القرآن العظيم: فكثيرة جداً منها قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مُقَدُّورًا﴾ (الاحزاب: ٣٨) وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (الفر: ٤٩) وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (الفرقان: ٢) .

ثانياً السنة: أما الأدلة من السنة: فكما قال عليه الصلاة والسلام، كما في حديث جبرائيل عليه السلام: «وتؤمن بالقدر خيره وشره»<sup>(١)</sup> .

وروى مسلم في الصحيح عن طاوس<sup>(٢)</sup> قال: (أدركت ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل شيء بقدر، قال وسمعت عبد الله بن عمر يقول: كل شيء بقدر حتى العجز والكيس أو الكيس والعجز)<sup>(٣)</sup> .

وقال ﷺ: «وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا؛ ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل»<sup>(٤)</sup> .

ثالثاً الإجماع: أما الإجماع: (فقد أجمع المسلمون على وجوب الإيمان بالقدر خيره وشره من الله)<sup>(٥)</sup> .

رابعاً الضرورة: أما الضرورة: فإن الإيمان بالقدر أمر معلوم بالضرورة قديماً وحديثاً ولم ينكره إلا الشواذ من الأمم، ولم يقع الخطأ في نفي القدر وإنكاره، وإنما وقع في

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب ما جاء في القدر (١ / ٣٨ رقم ٨) .

(٢) هو الإمام الشافعي طاوس بن كيسان اليماني، أبو عبد الرحمن الجندبي، أحد الأعلام علماء وأدباً وعملوا، أخذ عن جماعة من الصحابة، وأخذ عنه جماعة، توفي سنة ١٠٦ هـ - (تعبير (١ / ٩٩) . انظر: تهذيب التهذيب (٥ / ٨) .

(٣) مسلم، كتاب القدر، باب كل شيء بقدر، (٤ / ٢٠٤٥ رقم ٢٦٥٥) .

(٤) مسلم، كتاب القدر، باب الأمر بالضرورة وترك العجز، (٤ / ٢٠٥٢ رقم ٢٦٦٤) .

(٥) انظر: الإيمان بالقضاء والقدر، لمحمد إبراهيم الحمد (٢٦) .

فهمه على الوجه الصحيح ، ولهذا قال سبحانه عن المشركين : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ ﴾ (الأنعام : ١٤٨) .

فهم ألبتوا المشيئة لله لكنهم احتجوا بها على الشرك ، ثم بين سبحانه أن هذا هو شأن من كان قبلهم ، كما في قوله : ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ (الأنعام : ١٤٨) وكانت العرب في الجاهلية تعرف القدر ولا تنكره ، ولم يكن هناك من يرى أن الأمر مستأنف ، وهذا ما نجد مشوثاً في أشعارهم ، كما في قول عترة <sup>(١)</sup> :

يا عبل ابن من المنيعة مهربي  
إن كان ربي في السماء قضاها؟! <sup>(٢)</sup>  
وكما في قول طرفة <sup>(٣)</sup> :

فلو شاء ربي كنت قيس بن خالد <sup>(٤)</sup>  
ولو شاء ربي كنت عمرو بن مرثد <sup>(٥)</sup>  
وقول لبيد <sup>(٦)</sup> :

صادقن منها غرة فأصبنها  
إن المنايا لا تطيش سهامها <sup>(٧)</sup>

خامساً العقل: أما دلالة العقل فهي: أن العقل الصحيح يقطع أن الله هو خالق هذا الكون، ومدبره، ومالكة، ولا يمكن أن يوجد على هذا النظام البديع والتناسق المتألف، والارتباط المتحتم بين الأسباب والمسببات هكذا صدفة، إذ الموجود صدفة ليس له نظام في أصل وجوده، فكيف يكون منتظماً حال بقائه وتطوره؟ فإذا نقرر عقلاً أن الله هو الخالق لزم ألا يقع شيء في ملكه إلا وقد شاءه وقدره .

(١) هو عترة بن شداد العسي، من شعراء الجاهلية من أصحاب المعلقات ، اشتهر بشجاعة فائقة وأسماء نادرة . انظر: شرح المعلقات لقرطبي (١١٨) .

(٢) ديوان عترة (٧٤) .

(٣) هو طرفة بن العبد بن سفيان، من شعراء الجاهلية، ومن أصحاب المعلقات ، نزل وهو ابن عشرين عاماً . انظر: شرح المعلقات (٧٨) .

(٤) سيد من سادات العرب، شريف النسب، عظيم الحسب ، كثير الآل والأولاد .

(٥) سيد من سادات العرب، اشتهر بكرة المال ونجاعة الأولاد، وشرف النسب .

(٦) هو لبيد بن ربيعة بن مالك العامري مخضرم من المصمريين . ومات في خلافة معاوية وله معلقة مشهورة . انظر شرح المعلقات (٢٢٦) .

(٧) ديوان لبيد بن ربيعة العامري (١٧١) .



## المبحث السادس

### مراتب القدر وأركانها

ومن وسطية القرآن الكريم وحكمته وإرشاده إلى الصراط المستقيم بيانه مراتب القدر والتي نسمي عند العلماء أحياناً بأركانها، وضبطها وفهمها يعين المسلم على فهم باب القدر، ولا يتم الإيمان بالقدر إلا بتحقيقتها كلها، لأن بعضها مرتبط ببعض فمن أقر بها جميعاً اكتمل إيمانه بالقدر، ومن انتقص واحداً منها أو أكثر اختل إيمانه بالقدر وهذه الأركان هي:

- ١ - العلم      ٢ - الكتابة      ٣ - المشيئة      ٤ - الخلق .

#### المرتبة الأولى:

وهو الإيمان بأن الله عالم بكل شيء جملة وتفصيلاً، أولاً، وأبداً سواء كان ذلك مما يتعلق بأفعاله، أو بأفعال عباده، فعلمه محيط بما كان، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون عن علمه الموجود، والمعدوم، والممكن، والمستحيل، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وقد علم جميع خلقه قبل أن يخلقهم، فعلهم وأرزاقهم، وآجالهم وأقوالهم، وأعمالهم، وجميع حركاتهم، وسكناتهم، وأهل الجنة .

وهذه المرتبة - وهي العلم السابق - اتفق عليها الرسل من أولهم إلى آخرهم، واتفق عليها جميع الصحابة، ومن تبعهم من هذه الأمة، وخالفهم مجوس هذه الأمة - القدرية الغلاة - والأدلة على هذه المرتبة كثيرة جداً منها:

قوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ (الحشر: ٢٢) .

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ (البقرة: ٢٥٥)

وقوله: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْفَرُ

مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (سبا: ٣)

## المرتبة الثانية الكتابة:

وهي الإيمان بأن الله كتب ما سبق علمه من مقادير الخلائق إلى يوم القيامة في اللوح المحفوظ، وقد أجمع الصحابة، والتابعون، وجميع أهل السنة وأخديث على أن كل ما هو كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب في أم الكتاب التي هي اللوح المحفوظ، والذكر، والإمام المين، والكتاب المين، والأدلة على هذه المرتبة كثيرة من الكتاب والسنة، منها قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (الحج: ٧٠) . وقوله: ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ (تورة: ٥١) .

وقال عن محاجة موسى عليه السلام لفرعون: ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴾ (٥١) قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾ (طه: ٥١ - ٥٢) .

وروى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء » وقال النبي ﷺ: « ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة أو النار، إلا وقد كتبت شقية أو سعيدة » (١) .

## المرتبة الثالثة: المشيئة:

وهذه المرتبة تقتضي الإيمان بمشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا حركة، ولا سكون، ولا هداية، ولا إضلال إلا بمشيئته، وهذه المرتبة قد دل عليها إجماع الرسل من أولهم إلى آخرهم، وجميع الكتب المترلة من عند الله، والفطرة التي فطر الله الناس عليها، وأدلة العقل، والنصوص الدالة على هذا الأصل كثيرة جداً، من الكتاب والسنة، منها قوله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾ (نجم: ٦٨) وقوله: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴾ (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ (تكهف: ٢٣-٢٤) .

(١) مسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق لأدمي، (٤ / ٢٠٣٨)، رقم (٦٦٤٦) .

وقال ﷺ: «إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصفه حيث يشاء»، ومشيئة الله النافذة، وقدرته الشاملة يجتمعان فيما كان، وسيكون بفترقان فيما لم يكن، ولا هو كائن، فما شاء الله كونه فهو كائن بقدرته لا محالة، وما لم يشأ كونه فإنه لا يكن لعدم مشيئته، لا لعدم قدرته عليه، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْلَحُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (البقرة: ٢٥٣) فعدم اقتتالهم ليس لعدم قدرة الله، ولكن لعدم مشيئته ذلك ومثاله قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْمَهْدِيِّ﴾ (الأنعام: ٣٥) وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ (الأنعام: ١٠٧).

### مرتبة الخلق:

وهذه المرتبة تقتضي الإيمان بأن جميع الكائنات مخلوقة لله بذواتها، وصفاتها، وحركاتها، وبأن كل من سوى الله مخلوق موجد من العدم، كائن بعد أن لم يكن، وهذه المرتبة دلت عليها الكتب السماوية، وأجمع عليها الرسل عليهم الصلاة والسلام، واتفقت عليها الفطور، والعقول السليمة، والأدلة على هذه المرتبة كثيرة منها قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الزمر: ٦٢) وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (تبارك: ٢).

وأخرج البخاري في خلق أفعال العباد عن حذيفة <sup>(١)</sup> قال قال النبي ﷺ: «إن الله يصنع كل صانع وصنعه» <sup>(٢)</sup>.

هذه هي مراتب القدر الأربع التي لا يتم الإيمان بالقدر إلا بها.

وأفعال العباد داخله في عموم خلقه تعالى، ولا يخرجها شيء من عموم قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فالأفعال هي من الله خلقاً وإيجاداً وتقديراً، وهي من العباد فعلاً وكسباً، فالله هو الخالق لأفعالهم، وهم الفاعلون لها، فتؤمن بجميع

(١) هو حذيفة بن اليمان العمسي من نجباء الصحابة وهو صاحب سر النبي ﷺ في المنافقين كان يسأل رسول الله ﷺ عن الشر لنحنسه، شهد مع النبي ﷺ أحد وشهد فتوح العراق، وتوفي بالمدائن (٣٦٦هـ). انظر: أسد الغابة (١ / ٢٦٨)، سير أعلام النبلاء (٢ / ٣٦٦).

(٢) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأهل التعطيل: ٢٥، باب أفعال العباد.

نصوص الكتاب والسنة الدالة على شعول خلق الله، وقدرته لكل شيء، من الأعمال والأوصاف، كما تؤمن بنصوص الكتاب والسنة الدالة على أن العباد هم الفاعلون حقيقة للخير والشر، وعلى هذا اتفق أهل السنة والجماعة<sup>(١)</sup>.

ومن الأدلة الصريحة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الصفات: ٩٦) قال المفسرون في معنى (ما) في الآية وجهان:

أحدهما: أن تكون بمعنى المصدر، فيكون المعنى والله خلقكم وعملكم.

والثاني: بمعنى الذي، فيكون المعنى، والله خلقكم وخلق الذي تعملونه بأيديكم من الأصنام، وفي هذه الآية دليل على أن أعمال العباد مخلوقة لله<sup>(٢)</sup>.



(١) انظر: المسائل والمسائل، للإمام أحمد (١ / ١٢٧ إلى ١٥٠).

(٢) زاد المسير لابن الجوزي (٧ / ٧٠) وانظر: جامع البيان للطبري (١٢ / ٧٥) ولغسبر القرآن شعول لابن كثير (٤ / ١٥).

## المبحث السابع

### وسطية أهل السنة في مسألة أفعال العباد

هذه المسألة من أخطر مسائل القدر، ولقد زنت فيها أقدام، وحارت فيها عقول وأفهام، فقد اختلف الناس هل الأفعال والأعمال الصادرة عن العباد مخلوقة لله عز وجل مقدورة له، أم لا؟ وافترقوا في ذلك إلى طرفين وواسطة.

الطرف الأول (الجبرية): سموا بذلك نسبة إلى الجبر لقولهم به في باب القدر. والجبر هو: إسناد فعل العبد إلى الله<sup>(١)</sup> أو نفي الفعل حقيقة عن العبد وإضافته إلى الرب تعالى<sup>(٢)</sup>.

الطرف الثاني القدرية: وقولهم في أفعال العباد أنها غير مخلوقة لله عز وجل، وأنهم هم المحدثون لها دونه، وهذا أصل من أصول مذهب المعتزلة<sup>(٣)</sup>.

الواسطة بين الطرفين (وهم أهل السنة):

قولهم في أفعال العباد هو:

١ - أنها مخلوقة لله عز وجل على الحقيقة.

٢ - وهي فعل للعباد على الحقيقة.

٣ - وأنهم قادرون على أفعالهم بقدرة حقيقية مؤثرة في وقوع الفعل منهم، والله هو الذي أقدرهم على ذلك، هذا هو مجمل قول أهل السنة في هذه المسألة، والذي عليه سلف الأمة وأئمتهم، قال محرر مذهب أهل السنة وضابط أصوله وقواعده بحق شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وأما جمهور أهل السنة المتبعون للسلف والأئمة فيقولون: إن فعل العبد فعل له حقيقة، ولكنه مخلوق لله مفعول لله، لا يقولون هو نفس فعل الله، ويفرقون بين الخلق والمخلوق والفعل والمفعول)<sup>(٤)</sup>.

(١) التبرينات لنجرجاني (٧١).

(٢) انظر: الملل والنحل (١ / ٨٥).

(٣) انظر: شرح الأصول الخمسة لفتاوى عبد الجبار (٧٧٢).

(٤) انظر: منهاج السنة (٢ / ٢٩٨).

إن الجبرية محقون في قولهم: إن الله خالق أعمال العباد ومخبطون في قولهم: إن العبد ليس بفاعل لأفعاله في الحقيقة وإنما الفاعل هو الله .

والقدرية: محقون في إبانهم قدرة العبد على أفعاله، وفعله لها ومسئوليته عنها

ومخبطون في قولهم: إن العبد خالق أفعاله، وإن الله ليس بخالق لأفعال العبيد، فأثبتوا خالقين مع الله (١) .

وأهل السنة: قالوا: بما مع الطائفتين من حق فقالوا: الله خالق أعمال العباد على الحقيقة ؛ لأن العباد خلق له وأفعال المخلوقين مخلوقة، لقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الصافات: ٩٦) وقول النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَصْنَعُ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنَعْتَهُ» (٢) .

وقالوا: العبد فاعل لفعله حقيقة، وقادر عليه بإقدار الله له عليه، والله أثبت للعبيد فعلاً فقال: ﴿وَمَا تَعْمَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ (البقرة: ١٩٧) وقال: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (مريم: ٣٦) ونحو ذلك فلم ينفوا فعل العبد أصلاً كما قالت الجبرية، ولم يجعلوا العباد خالقين لأفعالهم من دون الله عز وجل كما قالت القدرية .

فهدى الله أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، وعملوا بجميع النصوص الواردة في الباب، ولم يضربوا بعضها ببعض، فإن الجبرية عملوا بالنصوص الدالة على أنه خالق كل شيء وأن كل شيء بقدر الله وقضائه ومشيئته، وأغفلوا ما دل منها على أن للعبد فعلاً وقدرة وإرادة .

والقدرية أخذوا بالنصوص الدالة على أن العبد هو الفاعل لفعله على الحقيقة وأن له قدرة وإرادة ومشية، واختياراً، وأهملوا ما دل منها على خلق الله لأفعال عبيده، وعموم قدرته عليها، ومشيئته لها، والحق هو إعمال جميع النصوص كل فيما دل عليه، وهو ما هُدي له أهل السنة، فليس في كتاب الله وستة رسوله ﷺ

(١) وسطية أهل السنة بين الفرق (٣٨١) .

(٢) الإمام البخاري، خلق أفعال العباد، (٢٥) .

تضارب أو تناقض، والجمع بين ما في ظاهره شيء من ذلك ممكن عند أهل العلم والحق<sup>(١)</sup>.

وهذا ما فعله أهل السنة، فكانوا بذلك وسطاً بين الطائفتين، وجاء قولهم هدى بين الضالّتين، ضلالة الجبر المقضي إلى تعطيل الأمر والنهي، وإبطال الثواب والعقاب، وضلالة نفي القدر الذي حاصله وجود خالفين من دون الله وتجويز أن يكون في ملكه ما لا يقدر عليه ولا يريد<sup>(٢)</sup>.



(١) انظر: وسطية أهل السنة بين الفرق (٣٨٢).

(٢) انظر: افرجع السنن (٣٨٣).

## المبحث الثامن

### وسطية أهل السنة في معنى إرادة الله ومشيتته ومحبته ورضاه

تباينت مواقف الفرق، واختلفت أقوالها في باب إرادة الله ومشيتته، فضل في ذلك طوائف، وهدى الله المعتصمين بكتابه، وسنة نبيه لما اختلفوا فيه من الحق .

١- فقالت المعتزلة: كل ما أراده الله وشاءه فقد أحبه ورضيه، فسووا بين إرادته ومشيتته وبين محبته وجعلوهما باباً واحداً ثم قالوا: الكفر والفسوق والعصيان لا يحبها ولا يرضاهما، فلا يريدنها ولا يشاؤها فأخرجوها من محيط إرادته وعموم مشيتته (١) .

٢- وقالت الجبرية: الكون كله بقضاء الله وقدره، والله هو الخالق الفاعل في الحقيقة، وإن الإنسان مجبور على أفعاله لا قدرة له ولا إرادة، فكل ما وقع في الكون يكون محبوباً مرضباً له (٢)، سواء في ذلك الإيمان والكفر والطاعات والمعاصي، إذ كل ذلك وقع بإرادته ومشيتته فسووا بين الإرادة والمحبة والرضى (٣) .

لذلك احتجوا بالقدر على المعاصي، وقال قائلهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ (الأنعام: ١٤٨) .

٣- وقال أهل السنة: ليس معنى إرادة الله ومشيتته هو معنى محبته ورضاه؛ بل بينهما فرق لا يد من التبه له، فإن الإرادة في كتاب الله نوعان:

١- إرادة شرعية دينية: وهي تتضمن معنى المحبة والرضى، كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥) وقوله: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ (٢٧) يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴿ (النساء: ٢٧ - ٢٨) .

(١) انظر: شرح الأصول الخمسة (٤٦٤) .

(٢) انظر: شرح الطحاوية (٢٧٩) .

(٣) نفس المصدر: (٢٧٩) .



ب - إرادة قدرية كونية خلقية: وهي التي بمعنى المشيئة الشاملة لجميع الموجودات وذلك مثل الإرادة في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (البقرة: ٢٥٣) وقوله: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ (مرد: ٣٤) وقالوا: وإن كان يريد المعاصي إرادة كونية قدرية فهو لا يحبها ولا يرضأها ولا يأمر بها، بل يبغضها ويسخطها، ويكرهها وينهى عنها، هذا قول السلف والأئمة قاطبة فيفترقون بين إرادته التي تتضمن محبته ورضأه وبين إرادته ومشيئته الكونية القدرية التي لا يلزم منها المحبة والرضى (١).

وبهذا التمييز بين الإرادتين يمتاز قول أهل السنة عن قول كل من فريقى القدرية والمعتزلة، والجبرية، الذين مساوا بين الإرادة والمشية وبين المحبة والرضى، فضل المعتزلة إذ ذهبوا إلى القول بأنه يقع في ملك الله ما لا يريد ولا يشاء، وهلك أهل الجبر بقولهم: إن الكفر والشرك والعصيان محبوبة لله مرضية عنده، ومنشأ ضلال الفريقين إنما هو تسويتهم بين الإرادة والمشية وبين المحبة والرضى وجعلهم معنى إرادته هو معنى محبته ورضأه.

وهدى الله أهل السنة لأحسن القول فميزوا وفرقوا بين الأمرين، وخلصوا بالحق من بين الضالتين، وهذا عنوان وسطيتهم المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وآية اعتدالهم واتزانهم (٢).



(١) وسطية أهل السنة بين الفرق (٣٨٧).

(٢) المرجع السابق.

## المبحث التاسع

### أقسام التقدير التي جاءت في القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين

١ - التقدير العام: وهو تقدير الرب لجميع الكائنات، بمعنى علمه بها، وكتابه لها ومشيئته، وخلقه لها، ويدل على هذا النوع أدلة كثيرة منها قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (الحج: ٧) .

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: «أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء»<sup>(١)</sup> .

٢ - التقدير البشري: وهو التقدير الذي أخذ الله فيه الميثاق على جميع البشر بأنه ربيهم وأشهدهم على أنفسهم بذلك، والذي قدر الله فيه أهل السعادة وأهل الشقاوة .

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ (الأعراف: ١٧٢) .

٣ - وعن هشام بن حكيم<sup>(٢)</sup> أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أتبتدأ الأعمال ثم قضى القضاء؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله أخذ ذرية آدم من ظهورهم ثم أشهدهم على أنفسهم ثم أفاض بهم في كفيه فقال هؤلاء في الجنة، وهؤلاء في النار، فأهل الجنة ميسرون لعمل أهل الجنة، وأهل النار ميسرون لعمل أهل النار»<sup>(٣)</sup> .

(١) رواد مسلم، كتاب القدر، باب حجج آدم وموسى، (٤ / ٢٠٤٤) رقم الحديث (٢٦٥٣) .

(٢) هو هشام بن حكيم بن حزام بن خويشد الأسدي، له صحبة ورواية، وكان بأمر معروف ربه عن السكر، وكان عمر إذا رأى منكراً قال: أما ما عشت أنا وهشام بن حكيم فلا يكون هذا . توفي في أول خلافة معاوية، انظر: سير اعلام النبلاء (٣ / ٥٤) .

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب السنة بتحقيق الشيخ الألباني رحمه الله (١ / ٧٣) ، قال الشيخ الألباني: إسناده صحيح ورجاله كلهم ثقات .

٤ - التقدير العمري: وهو تقدير كل ما يجري على العبد في حياته إلى نهاية أجله، وكتابه شقاوته، أو سعادته، وقد دل على ذلك حديث الصادق المصدوق في الصحيحين عن ابن مسعود مرفوعاً: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علفه مثل ذلك، ثم يكون مضغاً مثل ذلك، ثم يرسل الملك، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات، يكتب رزقه، وأجله ومشي أو سعيده»<sup>(١)</sup>.

٥ - التقدير السنوي: وذلك في ليلة القدر في كل سنة ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ (الدخان: ٤) وقوله: ﴿تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ (٤) ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ (القدر: ٤ - ٦) يكتب فيها - أي هذه الليلة - ما يحدث في السنة من موت وحياة، وعز وذل، ورزق ومطر، حتى احتجاج يقال: يحج فلان، يحج فلان، روى هذا عن ابن عمر، وأبن عباس، وكذا الحسن وسعيد ابن جبير<sup>(٢)</sup>.

٦ - التقدير اليومي: ويدل عليه قوله تعالى: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (الرحمن: ٢٩) قيل في تفسيرها: (شأنه أن يعز ويزل، ويرفع ويخفض، ويعطي ويمنع، ويعني ويفقر، ويضحك ويبكي، ويميت ويحيي)<sup>(٣)</sup> إلى غير ذلك.



(١) البخاري، كتاب الفطر، باب (١)، (٧٦ / ٢٦٧ رقم الحديث: ١٦٥٩٤).

(٢) الإيمان بالقضاء والقدر (٥٥).

(٣) المرجع السابق (٢٩).

## المبحث العاشر

### ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر

نسأل الله تعالى أن نكون قد وفقنا لإظهار ملامح الوسطية في قضية الإيمان بالقضاء والقدر من خلال القرآن والسنة النبوية وأقوال العلماء حتى يكون المؤمن قد وضع نفسه على الصراط المستقيم والاستقامة على شرع الله في كل مسأله وأموره الدينية والدينية . ولا شك أن الفهم الصحيح والاعتقاد الراسخ بمفهوم أهل السنة والجماعة في قضية القضاء والقدر ليرتب عليه ثمار نافعة ومفيدة تعود على الأفراد والمجتمعات في الدنيا والآخرة، فمن تلك الثمرات ما يلي:

- ١ - أداء عبادة الله عز وجل: فالقدر مما تعبدنا الله سبحانه وتعالى بالإيمان به .
  - ٢ - الإيمان بالقدر طريق الخلاص من الشرك: فالمجوس زعموا أن المنور خالق الخير، والظلمة مخالفة الشر، والقدرية قالوا: إن الله لم يخلق أفعال العباد، فهم أثبتوا خالقين مع الله جل وعلا وهذا شرك، والإيمان بالقدر على الوجه الصحيح توحيد الله .
  - ٣ - الشجاعة والإقدام: فالذي يؤمن بالقدر يعلم أنه لن يموت إلا إذا جاء أجله، ولا يناله إلا ما كتب له، فيقدم غير هباب ولا مبال بما يناله من الأذى والمصائب في سبيل الله . كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام .
- |                      |                                      |
|----------------------|--------------------------------------|
| أي يومي من الموت أفر | يوم لا يقدر أو يوم قدر               |
| يوم ما قدر لا أرهبه  | وإذ قدر لا يتجني أخذر <sup>(١)</sup> |
- ٤ - قوة الإيمان: فالذي يؤمن بالقدر يقوى إيمانه، فلا يتخلى عنه ولا يتزعزع أو ينضعضع مهما ناله في ذلك السبيل .
  - ٥ - الصبر والاحتساب ومواجهة الصعاب: فالذين لا يؤمنون بالقدر ربما يؤدي

(١) ديوان الإمام علي (٧٩-٨٠) .

الجزع ببعضهم إلى أن يكفروا بالله، وبعضهم يجن، وبعضهم يصبح موسوساً، وبعضهم يلجأ إلى المخدرات، وبعضهم يقتل نفسه، ولذلك يكثر الانتحار في البلاد التي لا يؤمن أهلها بالقدر كأمریکا، والسويد، والنرويج بل إن الأمر وصل بالسويد إلى أن يفتحوا مستشفيات للانتحار، وأسباب ذلك ترجع لأمر نافية، فبعضهم ينتحر بسبب تخلي خطيته عنه، وبعضهم بسبب رسوبه في الامتحان وبعضهم بسبب وفاة المطرب الذي يحبه، وقد يكون الانتحار جماعياً .

والعجيب في الأمر أن غالبية المتحررين ليسوا من الفقراء، بل هم من الطبقة الثغنية، بل ويقع الانتحار في الأطباء النفسيين الذين يظن أنهم يجلبون السعادة للناس (١) .

٦ - الهداية كما قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ (التين: ١) .

٧ - الكرم: فالذي يؤمن بالقدر، وأن الفقر والغنى بيد الله، وأنه لا يفترق إلا إذا قدر الله له ذلك - فإنه ينش ولا يبالي .

٨ - الإخلاص: فالذي يؤمن بالقدر لا يعمل لأجل الناس، لعلمه أنهم لن ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له .

٩ - إحسان الظن بالله وقوة الرجاء: فالمؤمن بالقدر حسن الظن بالله، قوي الرجاء به في كل أحواله .

١٠ - الخوف والحذر من الله: فالمؤمن بالقدر على حذر من الله، إذ لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون، فلا يفتخر بعمله مهما كان كبيراً، فإن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها حيث يشاء والخواتيم علمها عند الله - عز وجل - .

١١ - الإيمان بالقدر يقضي على كثير من الأمراض التي تفتك بالمجتمعات، وتزوع الاحقاد بينهما، وذلك مثل ذبيلة الخسد، فالمؤمن لا يحسد الناس على ما

(١) الإيمان بالقضاء والقدر، لمحمد إبراهيم الحمد (٢٥) .

أتاهم الله من فضله ؛ لإيمان منه بأن الله هو الذي رزقهم وقدر لهم ذلك ، فأعطى من شاء ومنع من شاء ابتلاءً وامتحاناً منه - عز وجل - وأنه حين يحسد غيره ، إنما يعترض على القدر (١) .

١٢ - التوكل واليقين والاستسلام لله والاعتماد عليه كما قال تعالى : ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ (التوبة: ٥١) .

١٣ - عدم الاعتماد على الكهان والمنجمين والمشعوذين والتمسح بأثرية القبور ، ودعاء غير الله ، وصرف شيء من أنواع العبادة لغير الله ؛ لأنها لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضرراً .

١٤ - التواضع : فالؤمن بالقدر إذا رزقه الله بمال ، أو جاه ، أو علم ، أو غير ذلك تواضع لله ، لعلمه أن هذا من الله ، ولو شاء الله لانتزعه منه ، وإنه على كل شيء قدير .

١٥ - ومن ثمرات الإيمان بالقدر : السلامة من الاعتراض على أحكام الله الشرعية ، وأقداره الكونية والتسليم لله في ذلك كله .

١٦ - ومن ثمراته : الجهد والحزم في الأمور ، والحرص على كل خير ديني أو دنيوي كما في قوله ﷺ : « احرص على ما ينفعك واستعن بالله ، ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل » (٢) .

١٧ - الشكر : فالؤمن بالقدر يعلم أن ما به من نعمة فمن الله وحده ، وأن الله هو الدافع لكل مكروه ونقمة ، فنبعث بسبب ذلك شكر الله إذ هو المنعم المتفضل الذي قدر له ذلك ، وهو المستحق للشكر وهذا لا يعني ألا يشكر الناس .

١٨ - الرضا : فيرضى بالله رباً مديراً مشرعاً ، فتمتلي نفسه بالرضا عن ربه فإذا

(١) انظر : مجلة البحوث الإسلامية عدد (٣٤) : ٢٥٠ بحث وسطية أهل السنة في القدر .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب القدر ، باب الأمر بالقوة وترك العجز (٢٠٥٢ رقم ٢٦٦٤) .

رضي بالله أرضاء الله - عز وجل - «فالرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا، ومستراح العابدين» (١).

١٩ - يفرح المؤمن بالقدر بذلك الإيمان الذي حرم منه أمم كثيرة: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ قَبْدُكُ قَلِيلٌ حُورًا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (برس: ٥٨).

٢٠ - الاستقامة على المنهج سواء في السراء والضراء: فالعباد فيهم قصور، ونقص وضعف لا يستقيمون على منهج سواء إلا من آمن بالقدر، فإن النعمة لا تبطره والمصيبة لا تقتطه.

٢١ - عدم اليأس من انتصار الحق: فالؤمن بالقدر يعلم علم اليقين أن العقاب للمتقين وإن قدر الله في ذلك نافذ لا محالة، فلا يدب اليأس إلى قلبه، ولا يعرف إليه طريقاً مهما احلوكت ظلمة الباطل.

٢٢ - علو الهمة، وعدم الرضا بالدون، وعدم الرضا بالواقع الاليم: فالؤمن بالقدر تجده عالي الهمة لا يرضى بالدون ولا بالواقع الاليم المر، ولا يتسلم له محتجاً بالقدر، إذ أن هذا ليس مجال الاحتجاج بالقدر؛ لأنه من المصائب، والاحتجاج بالقدر إنما يسوغ عند المصائب دون المعائب؛ بل إن إيمانه بالقدر يحتم عليه أن يسعى سعياً حثيثاً لتغيير هذا الواقع حسب قدرته واستطاعته (٢).

٢٣ - الإيمان بالقدر على وجه الحقيقة يكشف للإنسان حكمة الله - عز وجل - فيما يقدره من خير أو شر قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقر: ٢١٦).

وما أجمل قول الشاعر:

كم نعمة لا تستقل بشكرها

لله في طي المكاره كامنه (٣)

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب (٢ / ٤٧٦).

(٢) الإيمان بالنقص والقدر (٢٩).

(٣) انظر: جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى للفرناهي (٣ / ٥٢).

وقول الآخر:

تجرى الامور على حكم القضاء وفي طي الحوادث محبوب ومكروه  
وربما سرني ما كنت أحذره وربما ساءني ما كنت أرجوه (١)

٢٤ - ومن ثمراته هزة النفس والقناعة والتحرر من رق المخلوقين:

فالمؤمن بالقدر يعلم أن رزقه مكتوب، وأنه لن يموت حتى يستوفي رزقه، ويدرك أن الله كافيه وحسبه ورزقه، وأن العباد مهما حاولوا إيصال الرزق له، أو منعه عنه فلن يستطيعوا إلا بشيء قد كتبه الله، فينبعث بذلك إلى القناعة وعزة النفس، والإجمال في الطلب وترك التكالب على الدنيا والتحرر من رق المخلوقين، وقطع الطمع مما في أيديهم، والتوجه بالقلب إلى رب العالمين، وهذا أسس فلاحه ورأس نجاحه، ومن جميل ما يذكر في هذا المعنى ما ينسب لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قوله:

أفادتني القناعة كل عز وهل عز أعز من القناعة  
فصيرها لنفسك رأس مال وصير بعدها التفوى بضاعة  
نحز ربحاً وتغنى عن بخيل وتنعم في الجنسان بصير ساعة (٢)

٢٥ - سكون القلب وطمأنينة النفس وراحة البال: فهذه الأمور من ثمرات

الإيمان بالقضاء والقدر، وهي هدف منشود، فكل من على وجه البسيطة يبتغيها ويبحث عنها، وإنك لتجد عند خواص المسلمين من العلماء العاملين، والعباد القائمين المشبعين، من سكون القلب، وطمأنينة النفس ما لا يخطر على بال، ولا يدور حول ما يشبهه خيال، فلهم في ذلك الشأن القدر المعلى والنصيب الأوفى فهذا أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول: (أصبحت ومالي سرور إلا في مواضع القضاء والقدر) (٣).

(١) انظر: جنة الرضا في التسليم لـ قدر الله ونفس للفرداوي (٣ / ٥٢).

(٢) ديوان الإمام علي (١٢١-١٢٢).

(٣) جامع العلوم والحكم (١ / ٢٨٧)، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم (٩٧).



وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول: (إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة) (١).

ويقول مقولته المشهورة التي قالها عندما اقتيد إلى السجن: (ما يصنع أعدائي بي، أنا جنتي وستاتي في صدري، أينما رحلت فهي معي لا تفارقتي، أنا حبيبي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سباحة) (٢).

بل إنك تجد عند عوام المسلمين من سكون القلب وراحة البال، ويرد اليقين ما لا تجده عند كبار الكتاب والمفكرين والأطباء من غير المسلمين فكم من الأطباء غير المسلمين على سبيل المثال من يعجب، ويذهب به العجب كل مذهب، وذلك إذا كان لديه مريض مسنم واكتشف أنه مصاب بداء خطير - كالسرطان مثلاً - فترى هذا الطبيب يحنار في كيفية إخبار هذا المريض، ومصارحته بعلته، فتجده يقدم رجلاً ويؤخر الأخرى، وتجده يهد الطريق، ويضع المقدمات، كل ذلك خشية من ردة فعل المريض إزاء هذا الخبر، وما أن يُعلمه بمرضه، وبخيره بعلته - إلا ويفاجأ بأن هذا المريض يستقبل هذا الخبر بنفس راضية، وصدر رحب، وسكينة وهدوء. لقد أدهش كثيراً من هؤلاء إيمان المسلمين بالقضاء والقدر فكتبوا في هذا الشأن، معبرين عن دهشتهم، مسجلين شهادتهم بقوة عزائم المسلمين، وارتفاع معنوياتهم، وحسن استقبالهم لصعوبات الحياة (٣).

فهذه شهادة حق من قوم حرموا الإيمان بالله وبفضائه وقدره:

ومليحة شهدت لها ضررتها والفضل ما شهدت به الأعداء

ومن هؤلاء الكتاب الذين كتبوا في ذلك - الكتاب المشهور (ر. ن. س بودلي) مؤلف كتابي (رياح على الصحراء) و (الرسول) وأربعة عشر كتاباً أخرى، والذي أورد رأيه (ديبل كارينجي) في كتابه (دع ألقوا وابدأ الحياة) في مقالة بعنوان (عشت

(١) الشهادة الزكية في نناء الأئمة على ابن تيمية لرعي الخليلي (٣٤).

(٢) شيخ الإسلام ابن تيمية، جهاد، ودعوته، عقيدته، أحمد القطان، محمد الزين (١٠٠٦).

(٣) انظر: الإيمان بالقضاء والقدر (٣٢).

في جنة الله) يقول بودلي: (في عام ١٩١٨ م وليت ظهري العالم الذي عرفته طيلة حياتي، ويممت شطر أفريقيا الشمالية الغربية، حيث عشت بين الأعراب في الصحراء، وقضيت هنالك سبعة أعوام، وأتقنت خلالها لغة البدو، وكنت أرزدي زبهم، وأكل من طعامهم، واتخذ مظاهرهم في الحياة، وغدوت مثلهم أمتك أغنام، وأنا م كما ينامون في الخيام، وقد تعمقت في دراسة الإسلام، حتى إنني ألقت كتاباً عن محمد ﷺ عنوانه (الرسول)، وكانت تلك الأعوام السبعة التي قضيتها مع هؤلاء البدو الرحل من أمتع سني حياتي، وأحفلها بالسلام، والاطمئنان، والرضا بالحياة، وقد تعلمت من عرب الصحراء كيف أتغلب على المقلق، فهم بوصفهم مسلمين - يؤمنون بالقضاء والقدر، وقد ساعدهم هذا الإيمان على العيش في أمان، وأخذ الحياة مأخذاً سهلاً هيناً، فهم لا يتعجلون أمراً، ولا يلقون بأنفسهم بين يرائين اللهم قلقاً على أمر، إنهم يؤمنون بأن (ما قدر يكون) وأن الفرد منهم (لن يصيبه إلا ما كتب الله له) وليس معنى هذا أنهم يتواكلون أو يقفون في وجه الكارثة مكتوفي الأيدي كلا) (١)

ثم أردف قائلاً: (ودعني أضرب لك مثلاً لما أعنيه (هبت ذات يوم عاصفة عاتية حملت رمال وادي (الرون) في فرنسا، وكانت العاصفة حارة شديدة الحرارة، ولكن العرب لم يشكو إطلاقاً، فقد هزوا أكتافهم، قالوا كمنتمهم المأثورة (قضاء مكتوب) لكنهم ما أن مرت العاصفة حتى اندفعوا إلى العمل بنشاط كبير فذبحوا صغار الخراف قبل أن يودي القيظ بحياتهم، ثم ساقوا الماشية إلى الجنوب نحو الماء فعلموا هذا كله في صمت وهدوء، دون أن تبدو من أحدهم شكوى، قال رئيس القبيلة الشيخ: لم تنقد الشيء الكثير، فقد كنا خليقين بأن نفقد كل شيء ولكن حمداً لله وشكراً، فإن لدينا نحو أربعين في المائة من ماشيتنا، وفي استطاعتنا أن نبدأ بها عملنا من جديد) (٢)

(١) انظر: الإيمان بالقضاء والقدر (٣٢).

(٢) دع القلق وابدأ الحياة، ديل كارنيجي (٢٩٠، ٢٩١).

وثمة حادثة أخرى، فقد كنا نقطع الصحراء بالسيارة يوماً، فاتفجرت إحدى الإطارات، وكان السائق قد نسي استحضار إطار احتياطي؛ وتولاني الغضب، وانتابني القلق والهم، وسألت صاحبي من الأعراب: ماذا وعسى أن نفعل؟ فذكرني بأن الاندفاع إلى الغضب لن يجدي فتيلاً، بل هو خليق أن يدفع الإنسان إلى الطيش والحمق، ومن ثم درجت بنا السيارة وهي تجري على ثلاث إطارات ليس إلا، لكنها ما لبثت أن كفت عن السير، وعلمت أن البنزين قد نفذ، وهنالك أيضاً لم تثر فائرة أحد من رفاقي الأعراب، ولا فارقهم هدوؤهم، بل مضوا يقطعون الطريق سيراً على الأقدام<sup>(١)</sup>.

وبعد أن استعرض بودني تجربته مع عرب الصحراء علق بقوله: (قد أقتعتني الأعوام السبعة التي قضيتها في الصحراء بين الأعراب الرحل - أن مرضى النفوس، والسكران الذين تحفل بهم أمريكا وأوربا - ما هم إلا ضحايا المدينة التي تتخذ السرعة أساساً لها، إنني لم أعان شيئاً من القلق قط وأنا أعيش في الصحراء، بل هنالك في جنة الله وجدت السكينة، والقناعة، والرضا<sup>(٢)</sup>).

وأخيراً اختتم كلامه بقوله: (وخلاصة القول أنني بعد انقضاء سبعة عشر عاماً على مغادرتي الصحراء - مازلت أتخذ موقف العرب حيال قضاء الله، فأقبل الحوادث التي لا حيلة لي فيها بالهدوء والامتثال والسكينة، ولقد أفلحت هذه الطبع التي اكتسبتها من العرب في تهدئة أعصابي أكثر مما تفعل آلاف المسكنات والعقاقير<sup>(٣)</sup>).

وبهذا نكون قد أوضحنا ملامح وسطية القرآن في باب الاعتقاد والله الهادي إلى سواء السبيل.

ونرجو من القاريء الكريم أن لا ينسى العبد الفقير إلى الله كاتب هذه الأسطر بالدعاء في ظهر الغيب بالمغفرة والرحمة والشهادة في سبيل الله تعالى وأن بكرمه بالصدقة الجزرية بعد وفاته إنه ولي ذلك والقادر عليه.

(١) نفس المصدر السابق (٢٩٠-٢٩١).

(٢)، (٣) نفس المصدر السابق (٢٩١-٢٩٥).

## خلاصة الجزء الثاني

- ١ - إن القرآن الكريم كلام الله، منه بدأ بلا كيفية قولاً، وأنزله على رسوله وحيًا، وصدقه المؤمنون على ذلك حقًا وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية .
- ٢ - إن سورة الفاتحة تقرر منهج الوسطية من أولها إلى آخرها ووضعت القاعدة والمنطلق ورسمت منهج الوسطية وحددت معالنه ثم جاءت الآيات بعد ذلك مفررة لذلك وداعية له .
- ٣ - إن كلمة العقيدة في الاصطلاح: لم تكن موجودة في الكتاب والسنة، ولا في أمهات المعاجم وأن أول من ثم الوقوف على ذكره جسمها (عقائد) هو القشيري سنة ٤٣٧هـ .
- ٤ - ومصطلح العقيدة يشمل التوحيد، والإيمان، والإسلام، والغيبيات، والنبوات، والقدر والأخبار، وأصوله الأحكام القطعية، وسائر أصول الدين، والاعتقاد، ويتبعه الرد على أهل الأهواء والبدع وسائر الملل والنحل والمذاهب الضالة ومن مسميات علم العقائد التوحيد، والسنة، وأصول الدين .
- ٥ - إن العقيدة الصحيحة لا توجد إلا في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ لأنهما محفوظتان لحفظ الله لهما .
- ٦ - إن معرفة حقيقة أسماء الله وصفاته وأفعاله من أهم العلوم التي يجب أن يحرص على معرفتها العبد؛ لأن هذا العلم إذا رسخ في القلب أوجب خشية الله لا محالة .
- ٧ - إن القرآن الكريم أشار إلى أسباب الإيمان وثمراته في كتاب الله تعالى حتى تتطلع القلوب وتشتاق النفوس إلى الأخذ بأسباب الإيمان وتحرص على ثمراته .

٨- إن الإيمان بالملائكة أصل من أصول الاعتقاد، لا يتم الإيمان إلا به، والملائكة من عوالم الغيب التي امتدح الله المؤمنين بها، تصديقاً لحبر الله سبحانه وإخبار رسوله ﷺ .

٩- إن من أركان الإيمان الاعتقاد بالكتب السماوية وأنها من عند الله سبحانه وتعالى، إلا أن البشر هناك من أنكر الكتب السماوية جملة وهم الملاحدة، وهناك من حرّف الكتب السماوية وأضاف إليها ما لم ينزل به من سلطان وهم اليهود والنصارى وقعوا في الغلو وفي الإفراط وابتعدوا عن الصراط المستقيم .

١٠- إن القرآن الكريم رسم لهذه الأمة الاستقامة فاستجابت لأمر الله ورسوله ﷺ وأمنت برسل الله جميعاً وشهد الله لها بهذا الإيمان في محكم كتابه .

١١- إن القرآن الكريم والسنة النبوية مملوءة بذكر أحوال اليوم الآخر ونفاصيل ما فيه وتقرير ذلك بالأخبار الصادقة والأمثال المضروبة للاعتبار والإرشاد .

١٢- من وسطية القرآن الكريم وحكمته وإرشاده إلى الصراط المستقيم بيانه مراتب القدر والتي تسمى عند العلماء بأركانه .

١٣- إن منهج أهل السنة في باب القدر وسط بين الإفراط والتفريط ويظهر ذلك في مسألة أفعال العباد وأنها مخلوقة لله عز وجل على الحقيقة، وهي فعل للعباد على الحقيقة وأنهم قادرون على أفعالهم بقدره حقيقة مؤثرة في وقوع الفعل منهم، والله هو الذي أقدرهم على ذلك .

١٤- إن مفهوم الإرادة في كتاب الله نوعان:

أ- إرادة شرعية دنيوية .

ب- إرادة قدرية كونية خلقية وفهمها له أهمية عظيمة في استيعاب القضاء والقدر .

١٥ - إن الفهم الصحيح والاعتقاد الراسخ بمفهوم أهل السنة والجماعة في قضية القضاء والقدر يُبثرتب عليه ثمار نافعة ومفيدة تعود على الأفراد والمجتمعات في الدنيا والآخرة .

وأثرت دعواتنا أن التمسك لله رب العالمين



# الجزء الثالث

وسطية

القرآن الكريم

في العبادة والأخلاق والتشريع





## الفصل الأول

### وسطية القرآن في العبادة

تمهيد: منذ أن خلق الله الإنسان أوجد فيه القلب والعقل، والعاطفة والفكر، ووجه القدرة والإرادة، وأمره وزوجه أن يسكنوا الجنة، ونهاهما عن أكل الشجرة، وكان أمره - سبحانه - ونهيه المقتضى ألوهيته وربوبيته على من كانت مقتضيات بشريته وأدميته محلاً صالحاً للعبودية الثامة، ومن أول نظرة نجد أن هذه الحقيقة التي تشتمها عقيدة الرسل الكرام - عليهم السلام - ابتداءً، تقول لنا: إن هذا بيان حاسم للتفريق بين ألوهية الباري - سبحانه وتعالى - المقتضية للمخلوق والأمر، كما يشاء وفق علمه وحكمته، وبين عبودية الخلق المقتضية للسمع، والانقياد، وفق التركيب الرباني الموجود في الإنسان المتجلي في الإرادة والقدرة، ومن هنا لا بد من وجود قاعدة الجد والقصد، والوسط والاعتدال، والعدل والحق في بناء هذا الكون بالتميز بين حقيقة الألوهية بحقوقها ولوازمها، وبين حقيقة العبودية بحدودها وضوابطها، وما ينتج من هاتين الحقيقتين من سمات وصفات ونتائج وهذه هي الانطلاقة الأولى لقضية التوحيد بالنسبة للإنسانية على وجه العمورة، بدأت من آدم - عليه السلام - أبي البشر مروراً بالأنبياء والمرسلين - عليهم السلام - حتى قيام الساعة، انفتحت وظيفة الإنسان في هذه الحياة، وتحددت بها مهمته في هذا الوجود (١).

يقول ابن تيمية رحمه الله: (فالإنسان وكل مخلوق فقير إلى الله بالذات، وفقره من لوازم ذاته، يمنع أن يكون إلا فقيراً إلى خالقه، وليس أحد غنياً بنفسه إلا الله وحده، فهو الصمد الغني عما سواه، وكل ما سواه فقير إليه فالعبد فقير إلى الله من جهة ربوبيته ومن جهة ألوهيته) (٢).

ذلك (أن الله خلق الخلق لعبادته الجامعة لعرفته والإنابة إليه، ومحبته، والإخلاص له . . . وحاجتهم إليه في عبادتهم إياه، وتأنهم كحاجتهم وأعظم في

(١) انظر: حقيقة البدعة وأحكامها (١ / ١٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١ / ٤٢).

خلقه لهم وربوبيته إياهم، فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم، وبذلك يصيرون عاملين متحركين، ولا صلاح لهم ولا فلاح، ولا نعيم، ولا لذة بدون ذلك بحال، بل من أعرض عن ذكر ربه فإن له معيشة ضنكًا ونحشره يوم القيامة أعمى<sup>(١)</sup>.

وهذه الوظيفة، وهذه المهمة للإنسان في الحياة الدنيا، هي التي من أجلها أنزل الله الكتب وأرسل الرسل؛ فالرسل إنما دعوا إلى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (البقرة: ٥) فإنهم كلهم دعوا إلى توحيد الله وإخلاص عبادته من أولهم إلى آخرهم فقال نوح: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ (الاعراف: ٥٩) وكذلك قال هود وصالح وشعيب وإبراهيم، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل: ٣٦)، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٢٥) (٢)

وبذلك يتضح للقارئ الكريم أن العبادة هي الوظيفة الأولى والأساسية للإنسان في هذه الحياة .



(١) مجموع الفتاوى (١ / ٢٣) .

(٢) مدارج السالكين (١ / ١٠١) .

## المبحث الأول

### معنى العبادة في اللغة والشرع

أولاً في اللغة: العبادة والعبودية والعبودية: الطاعة<sup>(١)</sup>

وفي لسان العرب: أصل العبودية: الخضوع والتذلل .

والتعبد: التمسك، والعبادة: الطاعة .

والتعبد: التذلل، والتعبيد: التذليل .

بغير معبد مذلل، وطريق معبد، مسلك مذلل<sup>(٢)</sup> .

ويرى أبو الاعلى المودودي في معنى العبادة استناداً إلى الاستعمال اللغوي لمادة

(ع . ب . د) أن أصل معنى العبادة هو الإذعان الكلي، والخضوع الكامل، والطاعة المطلقة<sup>(٣)</sup> .

ثانياً: العبادة في الشرع: خضوع وحب<sup>(٤)</sup> والعبادة المأمور بها العبد تتضمن معنى

الذل والخضوع لله ومعنى الحب، فهي تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له<sup>(٥)</sup> .

قال ابن تسمية - رحمه الله - : (والإله هو المعبود الذي يستحق غاية الحب

والعبودية والإجلال والإكرام والخوف والرجاء . . . )<sup>(٦)</sup> .

وينص ابن القيم - رحمه الله - : على أن (العبادة تجمع أصلين غاية الحب بغاية

الذل والخضوع)<sup>(٧)</sup> ودعائم هذه العبادة التي تنتظم أعمال الإنسان كلها القلبية،

والعلمية الفردية والجماعية : المحبة والخوف والرجاء . وقد جعل ابن القيم هذه

(١) القاموس المحيط ، كتاب (الذل)، فصل (العين) (٣٧٨) .

(٢) لسان العرب، كتاب (الذل)، فصل (العين المهملة) (٣ / ٦٧٦) .

(٣) القسطنطيات الأربعة في القرآن، للمودودي (٩٧) .

(٤) العبادة في الإسلام، للشيخ القرطبي حفظه الله (٣١) .

(٥) النظر: مجموع الفتاوى (١ / ٢٠٧) .

(٦) مجموع الفتاوى (٢٨ / ٣٥) .

(٧) مدارج السالكين (١ / ٧٤) .

الثلاث في قلب المؤمن: (بمنزلة الطائر ، فالمحبة رأسه ، والخوف والرجاء جناحاه ، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران ، ومتى قطع الرأس مات الطائر ، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر<sup>(١)</sup> . وبهذا يتضح مفهوم العبادة في الشرع .



(١) المصدر السابق ( ١ / ٥١٧ ) .

## المبحث الثاني

### التفريط والإفراط في العبادة

وقبل أن ألج في بيان منهج القرآن في العبادة، وبيان ملامح الوسطية في ذلك، أرى من المناسب ذكر المناهج السائدة فيما يتعلق بالعبادة تفريطاً وإفراطاً، فأقول وبالله التوفيق .

**المنهج الأول:** ويمثله اليهود في تفريطهم وجفائهم، فلو تأملنا في التوراة - بعد تحريفها- لوجدنا تقديس المادة غلب على بنودها، فلا نقرأ في أسفار التوراة ذكراً للأخرة، حتى ما ورد فيها من وعد ووعد فإنما هو متعلق بالدنيا فقط، فلا يعمل الشخص إلا لتحقيق كسب عاجل، أو خوفاً من عقوبة عاجلة، بل بلغوا وطبقوا ماديتهم حتى في معرفة الله، فقالوا: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ جَاءَهُمْ كِتَابُ رَبِّكَ يُبَيِّنُ لَهُمْ أَعْيُنَهُمْ فَذَبَحُوا عَنْهُمْ إِيَّاهُ وَضَحَّوْا لَهُمْ سَبْعِينَ نَجْمًا جِدَارِ السَّمَاءِ بَاطِنًا وَأَقْبَلُوا إِلَيْهِمْ كَيْدًا مُزْمَرًا وَكَانُوا فِيهَا كَافِرِينَ﴾ (البقرة: ١٧٥) وقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهَنَّمَ﴾ (البقرة: ٢٤) .

ووفقاً لهذا التصور المادي الدنيوي أغرق هؤلاء في تقديس المحسوسات، واتخذوها للرفي، وأصبحت القيم المادية محور الحياة، ونحو الإنسان في نظر هؤلاء إلى آله تتحرك، ومعدة تهضم، وكائن يلهو وقد وصفهم القرآن الكريم، وبين مدى تعلفهم بالحياة الدنيا وحرصهم عليها فقال - تعالى - : ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ﴾ (البقرة: ٩٦) أي حياة، حتى لو كانت حياة البهائم ونحوها وذلك لأنهم يخشون الموت ﴿وَلَنْ يَسْمُوهَ أَبَدًا﴾ (البقرة: ٩٥) لأنهم ربطوا غايتهم بالدنيا، فعلمهم للدنيا وعبادتهم للمآرب دنيوية ! فإذا انتهت الدنيا فقد فانه كل شيء فهم بهذا أغرقوا في الشهوات، وعبدوا أنفسهم للمعاديات، فهم كمشركي قريش الذين قالوا: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ (البقرة: ٢٤) وهذا المنهج يمثل التفريط في أسوأ صورته وحالاته، ولذلك أمرنا الله أن نستعيد منه في كل صلاة، ونسأله أن يجنبنا إياه: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (البقرة: ٢٧) .

أما المنهج الثاني: وهو المنهج القائم على الروحانيات، وذلك بإعلانها وتمجيدها،

والإغراق في مفهوم العبادة والرهينة، ويمثل هذا المنهج النصارى، وهو منهج الإفراط والغلو وابتدع النصارى رهبانية قاسية على النفس، تحرم الزواج، وتكبت الغرائز، وتمنع كل أنواع الزينة وطيبات الرزق، وترى ذلك رجساً من عمل الشيطان وبالغوا في العبادة، وأخرجوها عن كبريتها، وعن المراد منها، وأصبحت رهبانية غالية مشوهة، مغذية للأجساد، ابتدعوها من أنفسهم، بلا حجة ولا برهان، ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ (حديد: ٢٧) .

ولذلك كانت حالهم ومآلهم: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعَاشِيَةِ (١) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ

(٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصَلِّي نَارًا خَامِئَةً﴾ (الثانية: ١ - ٤) وهذا المنهج يمثل الإفراط والغلو، وهو الوجه الثاني من وجوه الانحراف عن الصراط المستقيم، ولذلك أمرنا بأن نسأل الله أن يجنبنا إياه: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (الجمعة: ٧) .



### المبحث الثالث

#### الغلو في العصر النبوي

لقد عاش رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام رضوان الله عليهم أجمعين عاملين بمنهج الوحي على أفضل وجه وأعدله، وقدموا لنا صورة مثالية فريدة في تنفيذ منهج الله بتوازنه واعتداله ووسطيته، وشمونه وواقعيته وكماله .

وبذلك نالوا شرف خيرية هذه الأمة قال رسول الله ﷺ: «خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»<sup>(١)</sup>. إلا أنه قد وقعت بعض المواقف الفردية المعدودة من بعض الصحابة تشير إلى الاتجاه إلى سبيل الغلو، والتشدد في الدين عن حرص صادق للزيادة من الخير، ولكن الرسول الكريم والمرابي العظيم ﷺ كان له بالمرصاد، فردهم عن هذا السبيل، وقوم هذا العوج، وصحح نظريتهم، وأرشدهم إلى سبيل الاعتدال والخير القويم، فاستجابوا وأطاعوا، كل ذلك كان بأسلوب حكيم<sup>(٢)</sup>.

#### النموذج الأول: الثلاثة رهط:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ. فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال أحدهم: أما أنا فأنا أقوم الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً فسجاء رسول الله ﷺ فقال: أنتم الذين قنتم كذا وكذا؟... أما والله إني لأحساكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»<sup>(٣)</sup>.

فهذا موقف من مواقف الغلو يجلي لنا سبب هذه النزعة: وهي الرغبة الصادقة

(١) صحيح البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب فضل أصحاب النبي ﷺ (٤/ ٢٢) رقم (٢٦٠٠).

(٢) انظر: ظاهرة الغلو في الدين، محمد عبد الحكيم، (٨١).

(٣) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح (٦/ ١٤٢)، رقم (٥٠٦٣).

في التزود من الخير دفعتهم للسؤال عن أسلوب النبي ﷺ في عبادته، فلما علموا، رأوا أن ذلك قليل فقالوا ما قالوا .

ولكن الرسول ﷺ لم يقر هذا الاتجاه فبادر بعلاجه، وصحح نظرهم لتحصيل خشية الله وتقواه، فبين أنها ليست بالتضلع من أعمال والتفريط في أخرى، ولكنها تحصل بالموازنة بين جميع مطالب الله، وهذا هو عين الوسطية واختمة والاستقامة والاعتدال والعدل<sup>(١)</sup>.

نموذج آخر: عبد الله بن عمرو بن العاص:

قال عبد الله بن عمرو: قال لي النبي ﷺ: «الم أخير أنك تقوم الليل وتصوم النهار؟ قلت: إني أفعل ذلك، قال: فإنك إذا فعلت ذلك هجمت عبتك، ونفقت نفسك، وإن لنفسك حقاً ولأهلك حقاً فصم وأفطر، وقم ونم»<sup>(٢)</sup>.

هذا موقف لشاب صالح تقي، أشرب قلبه حب الله وذاق حلاوة الوقوف بين يديه، فأسهر ليلة، وأظلم نهاره وزهد في الدنيا ولذاتها وبالغ في ذلك، وكان السبب في ذلك إرادة الخير، ولكن رسول الله ﷺ كانت عينه ساهرة اهتماماً بشئون أمته فلم يقره على هذا المسلك برمته؛ بل هذب هذه النزعة حتى تؤتي ثمارها، كلى ذلك بأسلوب حكيم، فبين له ﷺ أن الفطرة الإنسانية والطبيعة البشرية لا تتحمل ذلك دوماً، نعم قد تتحملة فترة ولكن تحدث بعد ذلك انتكاسه، ولنا في تاريخ الرهبان عبرة وفي هذه القصة أيضاً، وبين ﷺ أن المبالغة في العبادة بصحبها غالباً تقصير في حقوق أخرى كثيرة<sup>(٣)</sup>.

نموذج آخر: أبو إسرائيل:<sup>(٤)</sup>

عن ابن عباس قال: بينما النبي ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم فسأل عنه

(١) نظرو: طاهرة الغلو في الدين (٨٥) .

(٢) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب ما يكره من ترك قيام الليل (٢) رقم (٦١٥٣) .

(٣) طاهرة الغلو في الدين (٨٥) .

(٤) صحاحي مختلف في اسمه فضيل: بيرة، رجيل: قنبر، رجيل: قيسر، ومختلف في تسميته، فضيل: أنصاري، وجيل: قرشي، وقيل: عامر، وليس في الصحابة من يشاركه في اسمه أو كنيته، وليس له ذكر إلا في هذا الحديث.

انظر: الإصابة (٤ / ٦٧)، تجريد أسماء الصحابة (٢ / ١٤٧) .



فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم، فقال النبي ﷺ: «مروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه»<sup>(١)</sup>.  
فهذا يدل على سماحة وبسر الشريعة .

### نموذج آخر: أبو الدرداء:

أخى رسول الله ﷺ بين سلمان<sup>(٢)</sup> وبين أبي الدرداء «فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة»<sup>(٣)</sup> فقال: ما شأنك متبذلة؟ قالت: إن أخاك أبا الدرداء ليس له حاجة في الدنيا . قال: فلما جاء أبو الدرداء قرب إليه طعاماً فقال: كل فأني صائم قال: ما أنا يأكل حتى تأكل ، قال: فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء ليقوم . فقال له: سلمان: نم فنام، ثم ذهب يقوم فقال له: نم فنام، فلما كان عند الصبح قال له سلمان: قم الآن فقاما فصليا، فقال: إن لنفسك عليك حقاً، ولربك عليك حقاً، ولنبيك عليك حقاً، فذكر ذلك، فقال له: «صدق سلمان»<sup>(٤)</sup>.

فهذه نمرة من ثمرات الأخوة الصادقة التي غرسها الرسول ﷺ في نفوس أصحابه، وهذه الأخوة عليها معول كبير في تقويم مسلك الغلو، إذ هي تنشئ التفاهم والثقة وهما عنصران ضروريان في العلاج، وكان علاج سلمان فيه حزم وحكمة: فأبى أن يأكل إلا إذا أكل معه أبو الدرداء، ولما أرخى الليل سدوله، سلك طريقة عملية متدرجة في علاج الجموح وضبطه، فأمره بالنوم في أوله، ثم قام معه في آخره وصليا جميعاً. وهكذا نجح العلاج عند توفر: الأخوة، والحزم، والحكمة، ولين الطرف الآخر<sup>(٥)</sup>.

(١) صحيح البخاري ، كتاب الأيمان والنذور، باب النذر فيما لا يملك (٧ / ٢٩٧ ، رقم الحديث ٦٧٠٤) .

(٢) هو الصحابي القمري أبو عبد الله سلمان الفارسي ، ويقال له: سلمان ابن الإسلام، وسلمان الخير، سمح النبي ﷺ فأسلمه، وكان رقيباً، أول مشاهد الخندق، ثم بقية المشاهد ، وفتوح العراق، وولي المدائن، اتفق على أنه عاش مائتين وخمسين سنة، توفي (٣٦هـ) انظر: الإحصاء (٢ / ٦٠) . وسير أعلام النبلاء (١/ ٤٥) .

(٣) التبدل: ترك الشئين والتبديل بالهيشة الجميلة . انتهية (١/ ١١١) ، وكان سؤلف سلمان من أم الدراء قبل أن ينزل الأمر بالحجاب .

(٤) صحيح البخاري : كتاب الأدب ، باب صنع الطعام والتكفف للضيف (٧ / ١٣٦) رقم (٦١٣٧) .

(٥) انظر: ظاهرة الغلو في الدين (٨٩) .

## نموذج آخر:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل علي رسول الله ﷺ وعندي امرأة فقال: من هذه؟ فقلت فلانة لا تنام من الليل، فذكر من صلاتها قال: (عليكم من العمل ما تطيقون، فوالله: لا يبسل الله حتى تمهلوا) وكان أحب الدين إليه ما دوام عليه صاحبه<sup>(١)</sup> وهذا توجيه نبوي كريم نحو الاعتدال والوسط .

## نموذج آخر:

عن أنس رضي الله عنه قال: دخل رسول الله ﷺ المسجد وحبل معدود بين سايرتين . فقال: ما هذا؟ قالوا: لزيب<sup>(٢)</sup> تصلي، فإذا كسلت أو فترت أمكت به فقال: حلوه، ليصل أحدكم نشاطه، فإذا كسل أو فتر فليقعده<sup>(٣)</sup>

فهذا الحديث يدل على أن النساء لم يكن أقل حرصاً من الرجال على النزود من الخير، والتنافس في أعمال البر، وقد تجلّى ذلك في هذه النزعة الجامحة نحو العبادة، ولكن الرسول ﷺ لم يقر هذا الجموح الضار، فعمد إلى الزجر عنه، وأمر بالوسط النافع ولنستمع الآن إلى تعليق الإمام النووي النافع حول هذين الحديثين فيقول: (فيه دليل على الحث على الاقتصاد في العبادة واجتناب التعمق، وليس الحديث مختصاً بالصلاة؛ بل هو عام في جميع أعمال البر، وفي الحديث كمال شفقتة ﷺ ورافته بأتمته؛ لأنه أرشدهم إلى ما يصلحهم، وهو ما يمكنهم الدوام عليه بلا مشقة ولا ضرر فتكون النفس أنشط، والقلب منشرحاً فتم العبادة، بخلاف من تعاطى من العبادة ما يشق عليه فإنه يصدد أن يتركه أو بعضه أو يفعله بكلفة وبغير انشراح القلب فيفوته خير عظيم .

وقد ذم الله سبحانه وتعالى من اعتاد عبادة ثم فرط فقال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ (الحديد: ٢٧) وقد

(١) صحيح البخاري، كتاب التهجد، باب ما يكره من التشديد في العبادة (١٦/٢) رقم (١١٥١) .

(٢) هي زينب بنت النبي ﷺ .

(٣) صحيح البخاري، كتاب التهجد، باب ما يكره من التشديد في العبادة (١٦/٢) رقم (١١٥٠) .

ندم عبد الله بن عمرو بن العاص على تركه قبول رخصة رسول الله ﷺ في تخفيف العبادة ومجانبة التشديد<sup>(١)</sup> .

### نموذج آخر: الزهد الغالي:

وقد ظهرت عند بعض الصحابة نزعة شديدة إلى العبادة والغلو فيها والانقطاع لها وحرموا على أنفسهم طيبات أحلت لهم فأنزل الله آيات تنكر عليهم هذا السبيل وتردهم إلى طريق الوسطية والاعتدال، ذكر الإمام الطبري (إن مجموعة من الصحابة منهم عثمان بن مظعون<sup>(٢)</sup> وعلي بن أبي طالب، وابن مسعود: تبتلوا فجلسوا في البيوت، واعتزلوا النساء، ولبسوا المسوح، وحرموا طيبات الطعام والملابس إلا ما يأكل ويلبس أهل السياحة من بني إسرائيل، وهموا بالخصاء، وأجمعوا لقيام الليل، وصيام النهار، فنزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (النور: ٨٧) .

يقول: لا تستوتوا بغير سنة المسلمين، يريد ما حرّموا من النساء والطعام واللباس، وما أجمعوا له من قيام الليل وصيام النهار، وما هموا به من الخصاء، فلما نزلت فيهم بعث إليهم رسول الله ﷺ فقال: «إن لأنفسكم حقاً، وإن لآعينكم حقاً، صوموا وأقظروا، وصلوا وتاموا فليس منا من ترك سنتنا، فقالوا: اللهم أسلمنا واتبعنا ما أنزلت»<sup>(٣)</sup> .

وقد ذكر هذه القصة بعض التابعين مرسله ولها شاهد في صحيح البخاري من حديث سعد بن أبي وقاص رضيه وقال: رد رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل، ولو أذن له لاختصينا<sup>(٤)</sup> .

(١) مسلم شرح النووي، كتاب صلاة المسافر، باب فضيلة العمل الدائم (٧١/٦) .

(٢) هو عثمان بن مظعون بن حبيب ومحب الحنفي أبو السائب من سادة ومن أولياء الله المتقين الذين هنأوا بوقفاتهم في حياة نبيهم صلى عليهم وكان أول من دفن بالبقيع . انظر: سير أعلام النبلاء (١٤٢/١) .

(٣) تفسير الطبري (١١/٧) .

(٤) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب ما يكره من التبتل (١٤٥/٦) رقم (٥٠٧٣) .

إن أعمال النبي ﷺ وأقواله، وتوجيهاته، ترجمة حية للقرآن الكريم، ونلاحظ: من هدى النبي ﷺ في علاجه لمسلك الغلو بدأ علاجه ﷺ في بداية أمر الغلو قبل أن يستفحل خطره، حتى قضى عليه، كل ذلك بحكمة رائعة مبنية على معالجة الأمر بروح الشفقة والرحمة والأخوة، والتدرج في العلاج، وتقديم الحلول النافعة، وبيان محاذير وعيوب الغلو من التقصير في حقوق أخرى وإن الفطرة البشرية لا تطيق الاستمرار على هذا الغلو، وسر الغلاة وعدم التنشيع بهم، مع الحوار الهادئ معهم، وتصحيح المفاهيم، وبيان السبيل القويم، فالخشية والتقوى تحصل بالتوازن، لا بالمبالغة في أمر وإهمال أمور<sup>(١)</sup>.

إن الأحاديث والتوجيهات النبوية التي ذكرتها صريحة في رسم منهج الوسطية في العبادة، والحث على الاقتصاد والاعتدال فيها والنهي عن التعمق والتشدد، والاقتصاد على ما يطاق من العبادة، والابتعاد عن تكلف ما لا يطاق .



(١) ظاهر الغلو في الدين (٩٣) .

## المبحث الرابع

## تقرير القرآن لمنهج الوسطية في العبادة

نجد أن القرآن الكريم قرر منهج الوسطية في العبادة في آيات كثيرة، تنظم فيما يلي: -

أولاً: الآيات التي تبين انحراف أولئك الذين صرفوا العبادة عن وجهها الصحيح، وذلك مثل:

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغْبِرُ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ (توهم: ٦٤) .

وقوله: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تُعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (النمل: ٤٣)

وقوله: ﴿قُلْ اتَّعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ (الأنعام: ٧٦)

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (التوهم: ٣) .

ومثل ذلك قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمُبِينُ﴾ (الحج: ١٦) .

فهذه الآيات وأمثالها ترسم منهج الوسطية في العبادة ببيان انحراف طريق هؤلاء الذين قلبوا العبادة عن وجهها الصحيح .

قال ابن كثير في قوله - تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ قال مجاهد وقتادة وغيرهما: (على حرف) على شك وقال غيرهم: على طرف، ومنه حرف الحبل، أي: طرفه، أي: دخل في الدين على طرف، فإن وجد ما يحبه استقر وإلا انشمر<sup>(١)</sup> .

وانظر: إلى قول القرطبي، حيث إن كلامه نص في محل الشاهد قال: (على حرف) على شك، قاله مجاهد وغيره، وحقيقته أنه على ضعف في عبادته، كضعف

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/٩٠٢) .

القائم على حرف مضطرب فيه، وحرف كل شيء: طرفه وشفيره وحده؛ ومنه حرف الجليل، وهو أعلاه المحدد وقيل: (على حرف) أي على وجه واحد، وهو أن يعبد على السراء دون الضراء، ولو عبدوا الله على الشكر في السراء والصبر على الضراء لما عبدوا الله على حرف، وقيل: (على حرف) على شرط<sup>(١)</sup>.

وقال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ (الزمر: ٢٣) أي ليشفعوا لنا ويقربونا عنده منزلة، ولهذا كانوا يقولون في تليثهم إذا حجوا في جاهليتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، وهذه الشبهة هي التي اعتمدها المشركون في قديم الدهر وحديثه، جاءهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، بردها والنهي عنها، والدعوة إلى أفراد العبادة لله وحده لا شريك له، وأن هذا شيء اخترعه المشركون من عند أنفسهم لم يأذن الله فيه، ولا رضي به، بل أبغضه ونهى عنه<sup>(٢)</sup>.

ثانياً: الآيات التي جاءت تأمر بعبادة الله وحده، ونصف عبادته بالاستقامة، ويأن عبادته هي الكلمة السواء، وغير ذلك مما يدل على أن عبادته هي الطريق الوسط السالم من الانحراف والضلال: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ﴾ (آل عمران: ٦٤).

وقال في أكثر من موضع: ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبِّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ (آل عمران: ٥٦). وقال: ﴿ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ (الحجر: ٩٩).

والآيات التي جاءت تأمر بعبادة الله وحده كثيرة جداً، فما من نبي إلا قال لقومه: ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ (الأنعام: ١٠٩).

قال الطبري في قوله تعالى: ﴿ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ ﴾ (آل عمران: ٦٤) يعني بذلك -جل ثناؤه- قل يا محمد لاهل الكتاب، وهم أهل التوراة والإنجيل تعالوا هلموا

(١) نظراً: تفسير القرطبي (١٢/١٧).

(٢) نظراً: تفسير ابن كثير (٤/٥٤).

إلى كلمة سواء يعني إلى كلمة عدل بيننا وبينكم والكلمة العدل: وهي أن نوحده الله فلا نعبد غيره، ونيراً من كل معبود سواه، ﴿وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا﴾ (ن عمران: ٦٤) (١).

وقال ابن كثير في الآية نفسها: ﴿سَوَاءٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي عدل ونصف نستوي نحن وأنتم فيها، ثم فسرها بقوله: ﴿أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا﴾ (ن عمران: ٦٤) لا وثناً ولا صليباً ولا صنماً ولا طاغوتاً ولا تاراً ولا شيئا، بل نفرد العبادة لله ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل: ٣٦).

وقال رشيد رضا: قال الأسناذ الإمام في قوله تعالى: ﴿تَعَالَوْا سَوَاءٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ لما نكلوا دعاهم إلى أمر آخر، هو أصل الدين وروحه الذي اتفقت عليه دعوة الأنبياء، وهو سواء بين الفريقين، أي عدل ووسط لا يرجح فيه طرف آخر، وقد فسره بقوله: ﴿أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ﴾ (٢) الآية.

وبهذا يتضح لنا أن هذه الآية نص في الوسطية في العبادة، وهي عبادة الله وحده.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (ن عمران: ٥١) فقد قال الطبري في معناها ذلك هو الطريق القويم، والهدى المتين الذي لا اعوجاج فيه (٣).

وقال في آية مريم: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (مريم: ٣٦) يقول: هذا الذي أوصيتكم به، وأخبرتكم أن الله أمرني به هو الطريق المستقيم، الذي من سلكه نجا، ومن ركبته اهتدى؛ لأنه دين الله الذي أمر به أنبياءه (٤).

وقال المقاسمي: في قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (مريم: ٣٦): (أي قويم، من تبعه رشد وهدى، ومن خالفه ضل وغوى) (٥).

(١) انظر: تفسير الطبري (٣/ ٣٠١).

(٢) انظر: تفسير المنار (٣/ ٣٢٥).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٣/ ٢٨٣).

(٤) انظر: تفسير الطبري (١٦/ ٨٥).

(٥) انظر: تفسير المقاسمي (١١/ ٤١٣٧).

وقد سبق أن أوضحت أن الوسطية تعني الاستقامة، وأن قوله تعالى: ﴿اهدنا الصراطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (التذمة: ٦) من أقوى الأدلة على منهج الوسطية، كما يفرره القرآن الكريم.

ثالثاً: الآيات التي جاءت في بعض أنواع العبادة كالصلاة والدعاء وغيرهما، حيث نجد فيها أمراً بالتزام منهج الوسط، ونهيًا عن الإضاعة أو الرهينة، وهو ما يمثل الإفراط والتفريط .

وسأذكر بعض الآيات التي وردت في ذلك، مقتصرًا على ما يبين المراد، مع بيان دلالة الآية على الوسطية:

١ - ذم الله الإفراط في العبادة والغلو فيها، حيث قال في حق بني إسرائيل من النصارى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد: ٢٧) .

قال القاسمي: (الرهبانية هي المبالغة في العبادة، والرياضة والانتقطاع عن الناس، وإيثار العزلة والتبتل) (١) .

وقال ابن كثير: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ أي: ابتدعتها أمة النصارى ما كتبناها عليهم. أي: ما شرعناها لهم، وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم، ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ ، أي: فما قاموا بما التزموه حق القيام، وهذا ذم لهم من وجهين: أحدهما: الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله .

الثاني: في عدم قيامهم بما التزموه، مما زعموا أنه قرينة تفسريهم إلى الله - عز وجل (٢) .

وهذه الرهبانية التي ابتدعها النصارى لم يشرعها الله، وهي غلو في العبادة، ولذلك كانت النتيجة عدم قدرتهم على المحافظة عليها لمشتقتها وصعوبتها .

(١) انظر: تفسير القاسمي (٨/١٦) .

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤/٣١٥) .



وقول الله - تعالى : ﴿ مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ دليل على أن الله لا يشرع ولا يكلف بما فيه غلو ومشقة ، كما سبق بيانه ولقد اعترف عدد من متأخري النصارى بخطأ هذا الغلو والرهبنة التي ابتدعها أسلافهم ، وأنها ليست من دين الله ، ونحن لسنا بحاجة إلى ذلك ؛ لأن الله قد بين هذا الأمر في كتابه ، ولكن هذا الاعتراف له دلالات التي لا تخفى .

وقد ذكر القاسمي بعض هذه الاعترافات تفصيلاً ، أذكر موجزاً منها (١) :

قال صاحب ربحانة النفوس - وهو نصراني : (إن الرهبنة قد نشأت من التوهم بأن الانفراد عن معايشرة الناس ، واستعمال التفشفات والتأملات الدينية ، وهي ذات شأن عظيم ، ولكن لا يوجد سند لهذا الوهم في الكتب المقدسة ؛ لأن مثال المسيح ، ومثال رسله يضادانه بامتقامة ، ثم قال ، ونحن نقول بكل جرأة : إنه لا يوجد في جميع الكتب المقدسة مثال ، ونحن نقول للرهبنة ، ولا يوجد أمر من أوامره ينزج بها ، بل العكس) (٢) .

وذكر القاسمي نقلاً عن النصارى من كتاب البراهين الإنجيلية ضد الأباطيل البابوية : إن ذم الزيجة خطأ ، لأنها عمل الأفضل ، لأن الرسول أخبر بأن الزواج خير من التوقد بنار الشهوة . ثم قال : ومن المعلوم أن الطبيعة البشرية تغضب الإنسان على استيفاء حقها ، ومن العدل أن نستوفيها - إلى أن قال : ولذلك نرى كثيراً من المساوسة والشمامسة ، لا بل من البابوات المدعين بالعصمة ، قد تكردسوا في هوة الزنى ، لعدم تحصنهم بالزواج الشرعي .

ثم قال : فالطريقة الرهبانية هي اختراع شيطاني قبيح ، لم يكن له رسم في الكتب المقدسة ، ولا في أجيال الكنيسة الأولى وختم كلامه الطويل - بقوله : ولا تتسع الصحف لشرح جميع الأضرار التي وقعت على العالم بسبب الرهبنات . ثم عقب القاسمي على ذلك : وهو حجة عليهم منهم (٣) .

(١) انظر : تفسير القاسمي (١٦/٥٦٩٨) .

(٢) المرجع السابق (١٦/٥٧٠٠) .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير (٣/١٢٧) .

هذه نتيجة الرهينة والإفراط والغلو الذي ذمه الله، فقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ (البقرة: ١٧٦) وقال: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ (تغديد: ٢٧).

وكما ذم الله الغلو والرهينة فقد ذم التفريط والتضييع والإهمال، فقال سبحانه: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ (سريم: ٥٩).

وقال ابن كثير مبيِّناً دلالة هذه الآية على الخروج عن منهج الوسطية .

لما ذكر الله - تعالى - حزب السعداء، وهم الأنبياء عليهم السلام، ومن اتبعهم من القانتين بحدود الله، وأوامره، المؤدبين فرائض الله، التاركين لزواجره، وذكر أنه ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ أي قرون أخرى: ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ . وإذا أضاعوها فهم لما سواها من الواجبات أضيع؛ لأنها عماد الدين وقوامه، وخير أعمال العباد، وأقبلوا على شهوات الدنيا وملانها، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها، فهؤلاء سيلقون غيًّا، أي خسارة يوم القيامة (١).

وقال الشنقيطي في تفسير الآية: (فخلف من بعد أولئك النبيين خلف، أي: أولاد سوء . ثم قال: إن هذه الخلف السئ الذي خلف من بعد أولئك النبيين الكرام كان من صفاتهم القبيحة أنهم أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات ثم قال: فإذا عرفت الكلام في الآية الكريمة، وأن الله توعد فيها من أضاع الصلاة واتبع الشهوات بالغي، الذي هو الشر العظيم، والعذاب الأليم، فاعلم أنه أشار إلى هذا المعنى في مواضع أخرى، كقوله في ذم الذين يضيعون الصلاة ولا يحافظون عليها وتهديدهم: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ (البقرة: ٤، ٥) وأشار في مواضع كثيرة إلى ذم الذين يتبعون الشهوات، وتهديدهم، وكقوله تعالى: ﴿ذُرِّمُوا يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْتَهِمُوا الْأَمَلُ فَسُوفَ يَعْلَمُونَ﴾ (الجن: ٣) .

وفهم من مفهوم مخالفة الآية الكريمة أن الخلف الطيبين لا يضيعون الصلاة، ولا يتبعون الشهوات، وقد أشار إلى هذا في مواضع كثيرة من كتابه، كما في سورة

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/١٣٧).

المؤمنين في وصف المؤمنين وكقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (التارعات: ٤٠-٤١) (١).

٢- وبعد أن ذكر الآيات التي تدل على النهي عن الغلو والإفراط أو التفریط والنضيق ذكر بعض الآيات التي تأمر بالتزام الوسط بين الإفراط والتفریط، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا وَاتَّبِعْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ١١) . نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ متوارٍ بمكة: ﴿وَلَا تُجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا﴾ كان ﷺ إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فلما سمع ذلك المشركون سبوا القرآن، وسبوا من أنزله، ومن جاء به، قال: فقال الله تعالى لبيه ﷺ: ﴿وَلَا تُجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن ﴿وَلَا تُخَافُ بِهَا﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ﴿وَاتَّبِعْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (٢).

قال القرطبي: روى مسلم عن عائشة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُ بِهَا﴾ قالت: أنزل هذا في الدعاء (٣).

والشاهد أن هذه الآية تأمر بالتوسط بين أمرين منهي عنهما وهما الجهر الشديد، والمخافته والإسرار ﴿وَاتَّبِعْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ . وقال تعالى: ﴿وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (الأعراف: ٥٥) .

قال القرطبي: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ﴾ أي دون الرفع في القول، أي: أسمع نفسك كما قال: ﴿وَاتَّبِعْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ (الإسراء: ١١) أي: بين الجهر والمخافته (٤).

وقال ابن كثير: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ أي: اذكر ربك في نفسك رغبة ورهبة، وبالقول لا جهراً، ولهذا قال: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ وهكذا يستحب أن يكون الذكر، لا يكون نداء ولا جهراً بليغاً (٥).

(١) انظر: أضواء البيان، للشيخ الشقيطي (٤/٣٠٧) .

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣/٦٨) .

(٣) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب خروج النساء إلى المساجد (١/٣٢٦) رقم (٤٤٧) .

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٢٨١) .

(٥) انظر: تفسير القرطبي (٧/٣٥٥) .

وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (البقر: ١٧) قال ابن كثير: أي جهدكم وطاقتكم وهذه الآية ناسخة لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢) لأنه لما نزلت هذه الآية اشتد على القوم العمل فقاموا حتى ورمت عراقيهم، وتفرحت جباههم فانزل الله تعالى هذه الآية تخفيفاً للمسلمين: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (البقر: ١٧) فسخت الآية المذكورة ودلالة الوسطية على هذا القول واضحة جلية.

وتقف امام قوله تعالى في سورة المزمل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ (المزمل: ١-٤) ثم قال في آخر السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصِيَهُ فَبَقِيَ عَلَيْكَ فَاذْرُوهَا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ (المزمل: ٢٠).

قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: ﴿فَاذْرُوهَا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ أي: من غير تحديد بوقت، أي: ولكن قوموا من الليل ما تيسر، وعبر عن الصلاة بالقراءة، كما قال في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تُجْهَرُ بِصَلَاتِكَ﴾ (الإسراء: ١١٠) أي بقراءةك<sup>(١)</sup>.

وقال القرطبي: قوله: ﴿فَبَقِيَ عَلَيْكَ﴾ قيل: (أي: فتاب عليكم من فرض القيام إذ عجزتم، وأصل التوبة الرجوع، فالمعنى: رجع لكم من تثقيل إلى تخفيف، ومن عسر إلى يسر)<sup>(٢)</sup>.

وفي الآيات السابقة دلالة واضحة على منهج الوسطية في قيام الليل.



(١) انظر: المرجع السابق (٤/٤٣٨).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٩/٥٢).

## المبحث الخامس

### حقيقة العبادة في القرآن الكريم والسنة النبوية

ساد بين الناس مفاهيم خاطئة للعبادة، وصرفت عقولهم وقلوبهم وأعمالهم عن هذه الوظيفة التشريفية التي خلق الله الإنسان من أجلها، وسخر له كل شيء في نفسه وفي الكون من حوله؛ ليقوم بها وفق أمر خالقه، وعند تأمل القرآن الكريم والسنة النبوية وما تحويه من أخبار وأوامر ونواهي ووعد ووعيد، نجد كلها تدور حول تقرير ألوهية الله سبحانه وتعالى وعبودية الإنسان له.

فإذا كان خلق الإنسان وتسخير الكون له، وإيجاد العقل والقلب والإرادة فيه، وإرسال الرسل وإنزال الكتب وخلق الجنة والنار، وقبل ذلك وبعده ما تقتضيه صفات الباري - جلّ وعلا - من كونه في ذاته وأفعاله سبحانه وتعالى حكيمًا عليمًا، خلق كل شيء فقدره تقديراً، ولم يخلق شيئاً عبثاً ولم يوجد شيئاً لغير حكمة وإذا كان القرآن المجيد، وما فيه من أخبار وأوامر ووعد ووعيد جاء لأجل هذه المهمة العظيمة، ألا وهي تعبيد الخلق كلهم لله سبحانه فكيف يصح حينئذ أن يتصور أن العبادة هي النية النقية وحسب، أو أنها الشعائر التعبدية فقط، أو أنها لبعض نشاطات الإنسان دون بعض، أو لبعض أفعاله وأحواله دون بعض.

بل إن دائرة العبادة التي خلق الله لها الإنسان، وجعلها غاية في الحياة، ومهمته في الأرض، دائرة رحبة واسعة؛ إنها تشمل شؤون الإنسان كلها، وتستوعب حياته جميعاً، وتستغرق كافة مناشطه وأعماله<sup>(١)</sup>.

وبهذا المعنى الشامل، فهم السلف الصالح عبادة الإنسان فرداً كان أو جماعة، وقد لخص هذا المعنى الشامل للعبادة وحدد ماهيتها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى حين قال: (العبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه: من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة، والصيام، والحج، وصدق

(١) انظر: العبادة في الإسلام (٥٣).

الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الأدميين والبهائم، والدعاء والذكر والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة، وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف لعذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة لله . . . . .<sup>(١)</sup>

وبهذا التعريف الجامع لا يمكن أن يخرج أي شيء من نشاطات الإنسان وأعماله، سواء كان ذلك في العبادات المحضة، أو في المعاملات المشروعة، أو في العادات التي طبع الإنسان على فعلها .

أما في العبادات والمعاملات المشروعة فإنها مما يحبه الله ويرضاه، وهذا أمره الشرعي الدائر بين الأحكام الخمسة التي اصطلح عليها الفقهاء وهي: (الواجب، والمحرم، والمستحب، والمكروه، والمباح) أما في العادات فالذي لم يوجد منها بأوامر الشرع، ولم يقيد بأحكامه على وجه الخصوص، فإنه لا يخرج عن كونه داخلاً تحت عمومات الشرع باعتبار عبودية الإنسان في كل أحواله لله سبحانه، وباعتبار أن: (العادات لها تأثير عظيم فيما يحبه الله، أو فيما يكرهه، فلهذا أيضاً جاءت الشريعة يلزوم عادات السابقين الأولين في أقوالهم وأعمالهم وكرهه الخروج عنها إلى غيرها من غير حاجة)<sup>(٢)</sup> .

وإن كان ينبغي لنا هنا الإشارة إلى أن الأصل في العبادات المحضة المنع حتى يرد ما يدل على مشروعيته، وأن أصل العادات العفو حتى يرد ما يدل على منعها، وذلك مبني على (أن تصرفات العباد من الأقوال والأفعال نوعان: عبادات يصلح بها دينه، وعبادات يحتاجون إليها في دنياهم . فباستقراء أصول الشريعة نعلم أن العبادات التي أوجبه الله، أو أحبها لا يثبت الأمر بها إلا بالشرع .

(١) مجموع الفتاوى (١٠ / ١٥٠) .

(٢) انقضاء الصراط المستقيم (١ / ٣٩٩) .

وأما العادات فهي ما اعتاده الناس في دنياهم مما يحتاجون إليه، والأصل فيه عدم الحظر، فلا يحظر منه إلا ما حظه الله سبحانه وتعالى، وذلك لأن الأمر والنهي هما شرع الله، والعبادة لا بد أن يكون مأموراً بها، فما لم يثبت أنه مأمور به، كيف يحكم عليه بأنه عبادة؟

وما لم يثبت من العبادات أنه منهي عنه، كيف يحكم عليه أنه محظور؟ والعبادات الأصل فيها العفو، فلا يحظر منها إلا ما حرم<sup>(١)</sup>.

وهذا التقسيم في الحظر والإباحة لا يخرج شيئاً من أفعال الإنسان العادية من دائرة العبادة لله، ولكن ذلك يختلف من درجته ما بين عبادة محضة وعبادة مشوبة بالعبادة، وعبادة تتحول بالنية والقصد إلى عبادة، لأن المباحات يؤجر عليها بالنية والقصد الحسن إذا صارت وسائل للمقاصد الواجبة، أو المندوبة أو تكميلاً لشيء منهما<sup>(٢)</sup>.

وقال النووي في شرحه لحديث: «وفي بضع أحدكم صدقة»<sup>(٣)</sup>: (وفي هذا دليل على أن المباحات تصير طاعات بالنية الصادقة)<sup>(٤)</sup>.

ومن ذلك يتضح: (أن الدين كله داخل في العبادة، والدين منهج الله جاء ليسع الحياة كلها، وينظم جميع أمورها من أدب الأكل والشرب وقضاء الحاجة، إلى بناء الدولة، وسياسة المال، وشتون المعاملات والعقوبات، وأصول العلاقات الدولية في السلم والحرب).

إن الشعائر التعبدية من صلاة، وصوم، وزكاة لها أهميتها ومكانتها؛ ولكنها ليست العبادة كلها؛ بل هي جزء من العبادة التي يريدنا الله تعالى.

إن مقتضى العبادة المطالب بها الإنسان، أن يجعل المسلم أقواله وأفعاله وتصرفاته

(١) مجموع الفتاوى (١١٦/٢٩-١١٧).

(٢) انظر: حقيقة البدعة وأحكامها للغامدي (١٩/١).

(٣) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب إن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (٦٩٧/١).

(٤) شرح النووي مع مسلم، كتاب الزكاة، باب كل نوع من المعروف صدقة (٩٢/٧).

وملوكه وعلاقاته مع الناس وفق المناهج والأوضاع التي جاءت بها الشريعة الإسلامية، يفعل ذلك طاعة لله واستسلاماً لأمره . . . (١).

والدليل على المفهوم الشامل للعبادة من الكتاب والسنة وفعل الصحابة رضوان الله عليهم: فأما من القرآن الكريم فقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: ٥٦) ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَأِلهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (البقرة: ٢١) ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢٢٢) لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ (الاسم: ١٦٢-١٦٣) ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ ﴾ (البينة: ٥) .

ومن السنة أحاديث كثيرة بعضها في عموم العادات بدون تخصيص، وبعضها الآخر في أفراد السلوك العادي، وفي هذا الأخير دليل وتبيين على المعنى العام المقصود إثباته هنا فمن ذلك:

قوله عليه السلام: «إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقه، وهو يحتسبها كانت له صدقة» (٢).

وقوله عليه السلام: «كل ما صنعت إلى أهلك فهو صدقة عليهم» (٣). وقوله عليه السلام: «دينار أنفقت في سبيل الله، ودينار أنفقت في رقية، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقت على أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقت على أهلك» (٤).

وقال عليه السلام: «كل سلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل على دابته فيحمل عليها، أو ترفع له متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة تخطوها إلى الصلاة صدقة، وذلك الطريق صدقة، وتعطى الأذى عن الطريق صدقة» (٥).

(١) مقاصد المكنتين للدكتور عمر الأضمر (٤٦-٤٧) .

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب ما جاء أن الأعمال بالنية (٢٤/١) رقم (٥٥) .

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ الألباني رحمه الله (٢٢/٢) .

(٤) رواه مسلم، كتاب الزكاة، باب النفقة على العيال والملوك (١٩٦/١) .

(٥) أخرجه البخاري، كتاب الصلح، باب فضل الإصلاح بين الناس (٢٢٧/٢) رقم (٢٧٠٧) .



وقول الرسول ﷺ : «دخلت امرأة النار في هرة، ربطتها فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت»<sup>(١)</sup>.

وأما الاستدلال على عموم العبادة وشمولها لحياة الإنسان بفعل السلف وفهمهم ففيما رواه البخاري في صحيحه عن أبي بردة<sup>(٢)</sup> في قصة بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن، وفي آخره قال أبو موسى لمعاذ: فكيف تقرأ أنت يا معاذ؟ قال: أنام أول الليل فأقوم وقد قضيت جزئي من النوم، فأقرأ ما كتب الله لي، فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي<sup>(٣)</sup>.

وفي كلام معاذ رضي عنه، دليل أن المباحات يؤجر عليها بالقصد والنية.



(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب خمس من الدواب فواسق، الحديث رقم (٣٣١٨).

(٢) هو التابعي الشافعي أبو بردة حارث، وقيل: عامر بن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري، ثقة، كثير الحديث، تولى قضاء الكوفة فتحجاج، ثم عزله فأخيه أبي بكر، ثم طلبه يزيد بن المهلب على بعض أمور الولاية، فامتنع وأصر حتى أخفاه عنها، اختلف في وفاته، فقيل سنة (٦٠٣هـ، وقيل: ٦٠٧هـ).  
انظر: سير أعلام النبلاء (١/٣٤٣).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن (٦٥٦/٥ رقم ٤٣٤٢).

## المبحث السادس

### شروط قبول العبادة في القرآن الكريم

ومن وسطية القرآن الكريم بيانه لشروط قبول الأعمال وجاءت الآيات والاحاديث النبوية التي رسمت هذه الشروط وأصلتها، وجعلتها في شطين اثنين هما: أولاً: الإخلاص، وثانياً: المتابعة . وبينت الآيات والاحاديث ضرورة توفر الشطين في قبول أي عمل:

#### الشرط الأول: الإخلاص:

وهذا الشرط متعلق بالإرادة، والقصد، والنية والمقصود به: (إفراد الحق سبحانه وتعالى بالقصد والطاعة) (١).

والنية تقع في كلام العلماء بمعنىين كما قرر ذلك ابن رجب فقال: (أحدها: تميز العبادات بعضها عن بعض، كتمييز صلاة الظهر عن صلاة العصر مثلاً... إلى أن قال: والمعنى الثاني: بمعنى تمييز المقصود بالعمل وهل هو لله وحده لا شريك له، أم لله وغيره، وهذه هي النية التي يتكلم فيها العارفون في كتبهم في كلامهم على الإخلاص ونوابه وهي التي توجد كثيراً في كلام السلف المتقدمين... (٢).

والأدلة على هذا الأصل في القرآن والسنة وكلام السلف ومن سار على نهجهم كثيرة . فمن القرآن قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ﴾ (٣) أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴿ (النور: ٢-٣).

قال ابن كثير: (أي لا يقبل الله من العمل، إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له) (٤).

وقوله عز وجل: ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ﴾ (٥) وَأُمِرْتُ لِأَنْ

(١) مدارح السالكين (٢/ ٩٦).

(٢) جامع العلوم والحكم (٨).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٧٨).

أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٦) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٧) قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿ (الزمر: ١٦-١٧) وقول تعالى: ﴿قُلْ أَمْرٌ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (الأنعام: ٢٩) .

قال ابن كثير: (أي أمركم بالاستقامة في عبادته في محلها، وهي متابعة المرسلين المؤيدين بالمعجزات فيما أخبروا به عن الله، وجاءوا به من الشرائع وبالإخلاص له في عبادته، فإنه تعالى لا يتقبل العمل حتى يجمع هذين الركنين أن يكون صواباً موافقاً للشريعة، وأن يكون خالصاً من الشرك) (١).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ (النساء: ١٢٥) قال ابن القيم: (فإسلام الوجه: إخلاص المقصد، والعمل لله . . .) (٢).

### ومن الأحاديث النبوية:

١- قوله ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه) (٣).

قال ابن رجب رحمه الله في شرحه لهذا الحديث: (. . .) فهذا يأتي على كل أمر من الأمور . . . وهو أن حظ العامل من عمله نيته . . . وأنه لا يحصل له من عمله إلا ما نواه به، فإن نوى خيراً حصل له خير، وإن نوى شراً حصل له شر . . . وهاتان كلمتان جامعتان وقاعدتان كليتان لا يخرج عنهما شيء . . .) (٤).

وقال الشوكاني (٥) رحمه الله في مقدمة أدب الطالب عند ذكره لهذا الحديث:

(١) تفسير ابن كثير (١/٣٠٨) .

(٢) مدارج السالكين (٢/٩٠) .

(٣) رواه البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي (٢/١) .

(٤) جامع العلوم والحكم (٧/١١٠) .

(٥) هو العلامة المجهد محمد بن عني بن محمد بن عبد الله الشوكاني البغدادي، فقيه مفسر، ترك المذهب الرافضي، ونصر السنة وهي فضاء صنعا، ودرس بها معها وأنشأ له مؤلفات كثيرة تدل على سعة علمه وجودة فهمه بلغت ١٦٤ مؤلفاً، وكان يرى حرمة التقليد . توفي (١٢٥٠هـ) . انظر: الأعلام للزركلي (٦/٢٩٨) .

( . . . ) حصول الأعمال وثوبتها لا يكون إلا بنية، فلا حصول أو لا ثبوت لما ليس كذلك، فكل ضاعة من الطاعات، وعبادة من العبادات إذا لم تصدر عن إخلاص نية وحسن طوية، لا اعتداد بها ولا النفقات إليها؛ بل هي إن لم تكن معصية فأقل الأحوال أن تكون من أعمال العبث واللعب ( . . . ) (١).

٢ - وفي الحديث الصحيح من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: ثلاث لا يغفل عنهم قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة أئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم ( . . . ) (٢).

قال ابن القيم: (أي لا يبقى فيه غل، ولا يحمل الغل مع هذه الثلاثة، بل تنفي عنه غله وتنقيه منه، وتخرجه عنه، فإن القلب يغفل على الشرك أعظم غل، وكذلك يغفل على الغش، وعلى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلالة، فهذه الثلاثة تملؤه غلاً ودغلاً، ودواء هذا الغل واستخراج أخلاطه بتجريد الإخلاص والنصح ومتابعة السنة) (٣).

وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى: «أنا أغني الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه غيري، فهو لنذي أشرك فيه وأنا منه بري» (٤).

وعن أبي أمامة (٥) قال: (جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «أرأيت رجلاً غزوا يلتمس الأجر والذكر ما له؟ قال صلى الله عليه وسلم: لا شيء»، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله لا يقبل إلا ما كان خالصاً وابتغي به وجهه» (٦).

وعن معاذ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الغزو غزوان، فأما من غزا ابتغاء

(١) أدب الطالب المسلمي طلب العلم وطبقات المعلمين (٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب من بلغ عنده (٨٤/١).

(٣) مدارج السالكين (٢/٩٠).

(٤) زوايه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عهده صبر الله (٦/٢٢٨٩).

(٥) هو صدي بن عجلان بن رهب، أبو أمامة الباهلي، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم مختلف في سنة وفاته، قيل:

(٨٨٦هـ)، وقيل: (٨٨١هـ)، تهذيب التهذيب (٤/٤٢).

(٦) أخرجه النسائي، كتاب الجهاد، باب من غزا يلتمس الأجر والذكر (٦/٢٥).

وجه الله تعالى وأطاع الإمام، وأنفق الكريمة ويامر الشريك، واجتنب الفساد في الأرض، فإن نومه وتبته أجر كله، وأما من غزا فخراً ورياء وسمعة، وعصى الإمام، وأفسد في الأرض، فإنه لن يرجع بالكفاف»<sup>(١)</sup>.

وعنه عليه السلام أنه قال: «من طلب العلم ليماري به السفهاء أو يجاري به العلماء أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله في النار»<sup>(٢)</sup>.

وفي حديث أبي هريرة قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه، رجل استشهد فأتي به فعرفه نعمته فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت؛ قال كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء، فقد قبل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به، فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال كذبت، ولكنك تعلمت ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: قارئ، فقد قبل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال كذبت ولكنك فعلت ليقال: جواد، وقد قبل، ثم أمر به فسحب على وجهه، حتى ألقي في النار»<sup>(٣)</sup>.

وأما ما ورد عن السلف في الإخلاص: فهو كثير ووفير، إليك قليل من أقوالهم:

١- عن علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما قالوا: (لا ينفع قول إلا بعمل، ولا عمل إلا بقول، ولا قول وعمل إلا بنية، ولا نية إلا بموافقة السنة)<sup>(٤)</sup>.

(١) أخرجه النسائي، كتاب الجهاد، باب فضل النفقة في سبيل الله (٤٨/٦).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل لفرية. والسمعة (١٥١٣/٢).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب من قاتل لفرية. والسمعة (١٥١٣/٢).

(٤) الشريعة للأجري (١٣٦).

٢- وعن أبي العالية <sup>(١)</sup> قال: (كنا نحدث منذ خمسين سنة، أن الأعمال تعرض على الله تعالى ما كان له منها قال: هذا لي وأنا أجزي به وما كان لغيره قال: اطلبوا ثواب هذا من عملتم له) <sup>(٢)</sup>.

٣- وعن مطرف بن عبد الله <sup>(٣)</sup> أنه قال: (صلاح القلب، بصلاح العمل، وصلاح العمل، بصحة النية) <sup>(٤)</sup>.

٤- وعن يحيى بن أبي كثير <sup>(٥)</sup> أنه قال: (تعلموا النية فإنها أبلغ من العمل) <sup>(٦)</sup>.

٥- وما روي عن الفضيل بن عياض <sup>(٧)</sup> أنه تلا قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكُمْ أَوْلِيَاءُ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (تبارك: ٢) فقال: (أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إذا كان العمل خالصاً ولم يكن صواباً، لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً، لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص إذا كان لله عز وجل، والصواب إذا كان على السنة) <sup>(٨)</sup>.

### الشرط الثاني في قبول العبادة:

الموافقة للشرع: وهذا الشرط تعلق بالعمل سواء كان عمل القلب، وهو ما يسمى بالاعتقاد، أو عمل الجوارح. وهذان هما مدار العبادة، ومحل الإيمان الذي هو اعتقاد بالجنان، ونطق بالنسان وعمل الأركان، فلا بد من متابعة الشرع والانقياد

(١) هو رفيع بن مهران الإمام القرن الحافظ للجود أبو العباس الراسبي، أدرك زمن النبي ﷺ وهو شاب وأسلم في خلافة أبي بكر، ودخل عليه توفي عام (٩٠هـ) تهذيب التهذيب: (٤/ ٢٨٤ - ٢٨٦).

(٢) كتاب الزهد لهناد بن السري (٢/ ٤٣٦).

(٣) هو مطرف بن عبد الله بن الشيخير الحمرشي العاصري، أبو عبد الله واحد من كبار الثمامين توفي (٨٨٧هـ) انظر: الأعلام (٧/ ٢٥٠).

(٤) حلية الأولياء (٢/ ١٩٩).

(٥) هو يحيى بن صالح الطائي بالولاء البستاني، أبو نصر ابن أبي كثير، عالم أهل الإمامة في عصره، توفي (١٢٩هـ). انظر: تهذيب التهذيب (١١/ ٢٢٦٨).

(٦) حلية الأولياء (٣/ ٧).

(٧) هو أبو عني الغضير بن عياض بن مسعود الطنقاني الأصل، الزاهد العابد الشفة، كان أول أمره يقطع الطريق، ثم تاب وسمع الحديث، وانتقل إلى مكة. ومات بها سنة (١٨٧هـ) حلية الأولياء (٨/ ٨٤).

(٨) مدارج السالكين (٣/ ٨٩).

له في أعمال القلوب كالحب والبغض، وفي أعمال الجوارح، التي يتعبد بها الإنسان، وسوف أذكر بعض الأدلة على هذا الأصل من الكتاب والسنة، وكلام السلف .

أما الأدلة من القرآن فكثيرة منها:

- ١- قوله تعالى: ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٣) .
- ٢- وقوله سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (الآل عمران: ٣) .
- ٣- وقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ (البقرة: ١٢٥) .

ومن السنة:

- ١- قوله ﷺ: «تركتم فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة رسوله» (١) .
- ٢- قوله ﷺ: «أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة» (٢) .
- ٣- قوله ﷺ: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه، فهو رد» (٣) .
- ٤- وعن العرياض بن سارية (٤) قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ بعدي عنها إلا هالك» (٥) .

(١) رواه مالك في الموطأ بلاغاً، في كتاب القدر، باب انتهى عن قول القدر (٢/٨٩٨) .

(٢) رواه البيهقي، كتاب الاعتصام بالسنة، باب الإنشاء بسنة رسول الله ﷺ (٨/١٣٩) .

(٣) رواه مسلم، كتاب الأفضى، باب تقض الأحكام الباطلة (٢/١٣٤٤-١٣٤٤) .

(٤) هو العرياض بن سارية السلمي، كان من أهل نضفة، نزل حمص ومات ومن فحة ابن الزبير، قيل توفي (٧٥هـ) بالشام، انظر: الإسماعيلية (٢٦٦/٢٦) .

(٥) أخرجه ابن عساق في المقدمة، باب ابتاع سنة الخلفاء الراشدين (١/١٤) .

من كلام السلف عليهم رضوان الله:

١- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (إنا نفتدي ولا نبتدي، ونشع ولا نبتدع، ولن نضل ما تمسكنا بالامر) <sup>(١)</sup>.

٢- وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (إن ناسًا يجادلونكم يشبه القرآن، فخذوهم بالسنة، فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله عز وجل) <sup>(٢)</sup>.

٣- وعن مطرف بن عبد الله يقول: سمعت مالك بن أنس إذا ذكر عنده الزائغين في الدين يقول: قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: (سن رسول الله ﷺ وولاية الأمر بعده سنًا، لاخذ بها اتباع لكتاب الله عز وجل، واستكمال لطاعة الله عز وجل، وقوة على دين الله تبارك وتعالى، ليس لأحد من الخلق تغييرها، ولا تبديلها، ولا النظر في شيء خالفها، من اهتدى بها فهو مهتد، ومن امتنع بها فهو منصور، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين، ولاه الله تعالى ما تولى، وأصله جهنم وساءت مصيرًا) <sup>(٣)</sup>.

وقد ورد عن السلف من هذا القليل كثير، وفي هذا القليل الذي ذكرناه ما يسد حاجة الاستدلال هنا.

وبعد ذكر شرطي العبادة المقبولة عند الله سبحانه وتعالى - يتبين أن (دين الإسلام مبني على أصلين: أن نعبد الله وحده لا شريك له، وأن نعبده بما شرعه من الدين، وهو ما أمرت به الرسل) <sup>(٤)</sup>.

وهذان الأصلان هما من حقيقة كلمة التوحيد، والركن الأول من هذا الدين، كما قرر ذلك شيخ الإسلام حين قال: (ودين الإسلام مبني على أصلين وهما تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وأول ذلك أن لا تجعل مع الله إلهًا آخر . . .).

(١) شرح أصول الاعتقاد، أهل السنة والجماعة، للالكتائي (١/٨٦).

(٢) اشريعة للأجري (٤٨).

(٣) أفرجع السابق (٦٥)، وأورد الالكتائي بسنده (١/٩٤).

(٤) مجموع الفتاوى (١/١٨٩).



الأصل الثاني: (أن نعبد بما شرع على السن رسله ٠٠٠) (١).

(وبالجملة، فمعناه إعلان عظيمات، أحدهما: ألا نعبد إلا الله، والثاني: أن لا نعبد إلا بما شرع، ولا نعبد بعبادة مبتدعة) (٢).

إن الغاية من خلق الإنسان وكتابة الموت والحياة عليه واضح في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيُبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (تبارك: ٢) والأحسن عملاً يتضمن أمرين، كما فر ذلك الفضيل بن عياض - يرحمه الله - عندما قال (أحسنه أي أخلصه وأصوبه) (٣). فأخلصه هو (لا إله إلا الله). وأصوبه هو (محمد رسول) وهو الذي أشارت إليه سورة الفاتحة، أم القرآن الكريم ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) (الفاتحة: ٦-٧).

والذين أنعم الله عليهم هم الرسول ﷺ، وصحابته - رضوان الله تعالى عليهم - والذين ساروا على هذا ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، أي الصواب الموصل للغاية وهذا الطريق وسط بين طريقتين (٤).

وبهذا يتضح فساد طريق العباد الروحانيين من نصرانية محرفة أو شعوذة، أو صوفية باطلة، أساسها الجهل فزاغت عن الطريق وتجنبت الإصابة المنشودة، وإن صلحت نياتهم ومقاصدهم، وخلوصهم من كل شائبة شرك لأحد آخر، إلا إنهم ابتعدوا عن المنهج الرباني المرسوم في قبول العبادة.

وكذلك ينضح فساد طريق علماء السوء، الذين أخطوا الغاية من العلم، فما صلحت غايتهم، وإن كانوا على بينة من السطريق، لكن أعينهم تنظر إلى غاية أخرى يتلمسوها على جنبات الطريق، ففقدوا التمييز والإخلاص المقصود والمنشود، فسقطوا دون الغاية الكبرى، المتعبدين بالسير نحوها ويذكر عادة كمثال لهؤلاء السالكين اليهود، الذين غضب الله عليهم، لتكبيهم الصراط المستقيم عن علم (٥).

أما الوسط فهو الصراط المستقيم الذي هو عين الوسطية، وبذلك يتضح أن شرطي قبول العبادة دليل على وسطية القرآن في باب العبادة.

(١) مجموع الفتاوى (١ / ٣١١).  
 (٢) البغوي - معالم التنزيل، تفسير البغوي (٤ / ٢٦٩).  
 (٣) انظر: ابن القيم، إغاثة اللهفان (١ / ٢٤).  
 (٤) مجموع الفتاوى (١ / ٢٣٣).  
 (٥) انظر: الوسطية في الإسلام (٢٩).

## المبحث السابع

## أقسام العبودية في القرآن الكريم

تنقسم العبودية في القرآن الكريم إلى أقسام: -

أولاً: عامة، وهي عبودية الربوبية، وهي لكل الخلق قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ (مرم: ٩٣) ويدخل في ذلك الكفار .

ثانياً: عبودية خاصة، وهي عبودية الطاعة العامة قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ (نفران: ٦٣) .

وهذه تعم كل من تعبد لله بشرعه .

ثالثاً: خاصة الخاصة، وهي عبودية الرسل عليهم الصلاة والسلام قال تعالى عن نوح: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ (الاسراء: ٣) وقال عن النبي ﷺ: ﴿وَإِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ (البقرة: ٢٣) .

وقال في آخرين من الرسل: ﴿وَأَذْكُرُ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ (مر: ٤٥) . فهذه العبودية المضافة إلى الرسل خاصة، لأنه لا يبازي أحد هؤلاء الرسل في العبودية (١) .

ومن أجل تركيز معنى العبودية كان خطاب الله تعالى للخلق، ووصفه لهم، ودعائه إياهم بهذا العنوان المتكرر: (عبادي)، أو ما مثله من الالفاظ وقد وصف الله به الكفار ﴿أَأَنْتُمْ أَضَلُّتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ (نفران: ١٧) .

ووصف به المؤمنين: ﴿يَا عِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ (المنكوت: ٥٦) .

والمذنبين منهم: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٥٣) . وهو وصف الله تعالى للملائكة: ﴿يَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ (الانبياء: ٢٦) .

(١) انظر: القول المفيد على كتاب التوحيد لابن خنيس (٢٩) .

والرسل: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (المائدات: ١٧١).

والمسيح ابن مريم منهم خاصة؛ لأنه اتخذها من دون الله عز وجل، قال تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (الزمر: ٥٩) ﴿لَنْ يَسْتَكْفِرَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (البقرة: ١٧٢).

ومن وسطية القرآن وحكمته بيانه أن العبودية والعبادة لغير الله هي أعتى إباطيل الجاهليات، وهي ذل ومهانة للإنسان، لأنها خضوع لغير من يستحق ذلك، وانقياد للمشارك في الوصف: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَلُكُمْ فَأَدْعُواهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الاعراف: ١٩٤) ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (الحمل: ٢٠) والدعاء في الآيتين بمعنى العبادة.

لذلك كانت العبودية لله تعالى وحده حقًا بموجب الخلق، والرزق، وشمول قدرته وسائر ما تفرده به من صفات الكمال والجلال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (التورى: ١٦).

فعبادة الله تعالى بهذا الوجه هي الكرامة، والعزة؛ لأنها خضوع في موضعه للمتفرد باستحقاقه، رب الكون ومليكه، وصاحب العظمة والكبرياء، والمتفضل بالمعطاء والنعماء.

ولذلك كان هذا الوصف أجل أوصاف التشريف، وقد اختاره الله تعالى لأكرم رسله، في أعظم مواقف تكريمهم، فيقول الله تعالى عن خاتم رسله في مشهد الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ (الإسراء: ١). وفي مشهد العروج حيث بلغ التكريم أقصاه: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ (النجم: ٨-١٠).

ومن أجل تحقيق العبودية لله وحده ندد الوحي الإلهي أشد تنديد بعبادة غير الله تعالى، وقرع العابدين والمعبودين - إن رضوا بذلك - ونوعدهم جميعاً بخزي الدنيا والآخرة، ومن ذلك:

(١) تنديده بعبادة أكرم خلقه من الملائكة، والرسول، وسؤالهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِبْرَاهِيمَ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤١) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَرَبُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤٢) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُرْقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ﴾ (س: ٤٠-٤٢).

والآية تنديد أيضاً بعبادة الجن، وتبئرنه للملائكة من وصمة الرضا بما زعمه الزاعمون من مشركي الجاهليات:

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ الْهَيْمِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ...﴾ (المائدة: ١١٦-١١٨).

(ب) ومن أبلغ ألوان التنديد القرآني وأشدّها زجراً واستكباراً، ما جاء في شأن الطواغيت الأحياء من سادات الأمم، ورؤسائها وكبرائها، الذين عبّدوا من دون الله، سواء عبادة تاليفية، أو عبادة طاعة واتباع في الحلال والحرام، على خلاف أوامر الله تعالى مع اعتقاد ذلك .

فمن الأول ما جاء في شأن فرعون، وتقديس قومه له، واعتقادهم فيه ما ادعاه من الألوهية: ﴿مَا عَلَّمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ (النمر: ٣٨) والربوبية: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ (الزمر: ٢٤) من أجل ذلك استحققوا التنديد، والعذاب: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انتقمنا منهم فَأغرقناهم أجمعين (٥٥) فجعَلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين﴾ (الزمر: ٥٤-٥٦).

ومن الثاني قوله تعالى: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرَبَّهُانِهِمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَيْلًا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: ٣١) والقرآن الكريم بعد ذلك غاص بتبكيك الذين عبّدوا الأحجار، والشمس، والقمر، والمعجول وغيرها من خلق الله عز وجل، وهو يحدد في غاية الوضوح أن كل عبادة لا يعتد بها إلا إذا كانت خالصة لله عز وجل وحده، لا يخالطها دنس الشرك أو الرياء ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف: ١١١).

## المبحث الثامن

### أهمية الجانب العبادي في حياة الإنسان

إن مهمة الجانب العبادي للإنسان تعتبر ركناً أصيلاً في المنهاج الإلهي، الذي شرعه الله تعالى على غاية العلم والحكمة، وجعله بناءً محكمًا يشد بعضه بعضاً، ويؤدي كل جانب فيه عمله الخاص أو العام على غاية التفرد، والتفوق والامتياز، ويظن بعض الناس أن العبادات في المنهاج الإلهي هي ضروب من الطقوس، أو المراسيم الشكلية، فرضت على العباد فرضاً لغاية دينية محضة، هي إظهار الذل والخضوع لله تعالى فقط، وليس لها وظائف عظمى تابعة.

والحق أن العبادات التي سنّها الله لنا ذات تأثير شمولي مشرق، ولها أخطر المهمات في تمكين الحقائق العليا للرسالات الإلهية، وتحقيق الفطرة الإنسانية على وجهها الصحيح المستقيم، طالما تمثلت فيها عناصر الحب والذل، والرجاء والخوف، ونحوها. ومعلوم لدى العلماء أن للعبادة مقصدًا أصلياً، وهو التوجه إلى الواحد الصمد، وإفراده بالعبادة في كل حال، طلباً لرضى الله، والفوز بالدرجات العلى، وهناك مقاصد تابعة للعبادة مثل صلاح النفس واكتساب الفضيلة<sup>(١)</sup>.

فالصلاة مثلاً أصل مشروعيتهما الخضوع لله تعالى، وإخلاص التوجه إليه، والانتصاب على قدم الذلة والصغار بين يديه، وتذكير النفس بذكره، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (طه: ١٤) وقال: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (البكروت: ٤٥) يعني أن اشتغال الصلاة على التذكير بالله هو المقصود الأصلي، ثم إن لها مقاصد تابعة كالاستراحة إليها من أنكاد الدنيا وإنجاح الحاجات كصلاة الاستخارة وصلاة الحاجة، وكذلك سائر العبادات لها فوائد أخرى وهي العامة، وفوائد دينية وهي كلها تابعة للفائدة الأصلية وهي الانتقياد والخضوع لله<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر: المنهاج القرآني في التشريع (٤٥٥).

(٢) انظر: العبادة في الإسلام للشيخ القرظاوي حفظه الله (٤٨-٤٩).

وإذا تأملنا في مهمة العبادة يمكننا أن نستخلص الآتي:

### أولاً: تثبيت الاعتقاد:

إن روح العبادة هو إشراق القلب حب الله تعالى، وهيبته، وخشيته، والشعور الغامر بأنه رب الكون ومليكه، والتوجه دائماً بما شرع من شعائر ونسك، باعتبارها مظهراً عملياً دائماً لصدق الإنسان في دعوى الإيمان، وتذكيراً مستمراً بسلطان الإله الأعلى، وإلهاباً متجدداً لجذوة اليقين في الله، ورجاء فضله وثوابه .

ولناخذ مثالا عبادياً لتثبيت معنى التوحيد، وإجلال الله تعالى، وهو (الأذان) وقد شرع بدخول أوقات الصلاة المفروضة، فهو يتكرر في اليوم واللييلة خمس مرات، وينادي به منادي المسلمين صوتاً في كل مكان يوجد به تجمع إسلامي، ولو كان أدنى التجمع من المسلمين، بل شرع مع ذلك للمسافر، والمنفرد، ولو كان في بادية لما يمثله من معانٍ عظيمة ليس مجرد الإعلام بدخول الوقت .

إن المؤذن حين ينادي بصوته الأعلى: (الله أكبر الله أكبر) ثم يكررها، يطلب شرعاً أن يردده معه كل مسلم ومسلمة حين يسمعون هذا القول الأجل، لينسكب في مشاعر الجميع وفي أوقات متكررة متقاربة معنى الكبرياء المطلق لله رب العالمين، وأنه تعالى فوق كل شيء وأكبر من كل شيء فينبغي أن يعتر به وحده، ويلوذ بحمائه وكنفه، ويستعلي فوق أعتاق الطواغيت والجبارين بهذا النداء الجهير، الذي أراد الله عز وجل أن يتواطأ عليه المجتمع كله، وأن يظل حتى المنفرد على صلة دائمة به .

فإذا تقرر هذا المعنى عاد النداء الأجل ليملا الأفاق: (أشهد أن لا إله إلا الله) وهو تذكير يومي بالعهد والميثاق الذي أعطاه العبد لربه بأن لا يعبد ولا يطيع إلا ربه الأكبر، المنفرد بالكبرياء في السموات والأرض .

ثم يأتي الشق الثاني من الشهادة: (أشهد أن محمداً رسول الله) وهو كما علمت إقرار متكرر أيضاً بالطريق الذي تؤخذ عنه العبادة المشروعة، والتي لا نصح إلا بالتلقي عن الوحي الإلهي الذي جاء به المعصوم عليه السلام .

ثم يأتي رابعاً: الدعوة إلى الصلاة نفسها في جملة من فقط: (حي على الصلاة، حي على الصلاة) لأن الأذان كما قلنا أبعاد مدى، وأشمل آثاراً، ثم يأتي (خامساً) الدعوة العامة إلى الفلاح المطلق . . المتمثل في الاستجابة لهذا الدين الإلهي الأغر، ومثله وتعاليمه، وفي مقدمتها الصلاة بداهة . ولذلك يعود الشارع بالمؤذن إلى نقطة البدء ليكبر في الختام للتأكيد على تفرد نعالى بالكبرياء، وإعلان التوحيد بصيغة الإقرار والإثبات بعد صيغة الشهادة السابقة: (الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله) معنى هذا أن الأذان وحده يجري على السنة المؤمنين، ويكسب في ضمائرهم، ويغرس في حياتهم ووجدانهم أفراد الله تعالى بالكبرياء (ثلاثين) مرة يومياً، وإفراده تعالى بصفة الألوهية الذي تفرد بالعبادة والطاعة (خمس عشرة) مرة، وهو نداء لا يتقيد بحدود معبد، أو مسجد، وإنما يتطلق ليدخل كل بيت، ويصافح كل سمع، ويطلق كل قلب يريد الهدى .

وإذا كان هذا هدف الوسيلة في تقرير الأصول العليا فإن القصد الذي تؤدي إليه (وهي الصلاة) أعظم شأنًا، وأتم مظهرًا . فقد فرضها الله على كل بالغ من الذكور والإناث خمس مرات في اليوم واللييلة، وهي تبدأ بالتكبير ويطلب المصلي بتكرار هذه الجملة (الله أكبر) في صلوات الفرض فقط (أربعاً وتسعين مرة)، عدا ما يقرع سمعه بعدها من صلوات إمامه إذا صلى جماعة، فضلاً عن السنن الراتبة والنوافل المطلقة وهي أضعاف ذلك .

ثم إن العبد يتلو كتاب ربه في صلاته، ويحني له ظهره راعياً، ويخر بجبهته ساجداً، ويناجي مولاه معظماً، ومسبحاً، وحامداً، داعياً، وليس هناك في الوجود أسمى وأجل من هذه الشعيرة في ربط العبد بهذا السلطان الإلهي، وإلهاب نفسه بمعاني عظمته وسموه<sup>(١)</sup> .

إن الصلاة عندما تؤخذ على وجهها الصحيح - واحة وراحة يسكن إلى ظلها

(١) انظر: الشهاج القرآني في التشريع (١٥٨) .

المؤمن كلما مسه تعب الحياة ولغوبها ، وهذا مصداق قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خَلِقٌ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ (التفاح: ١٩-٢٣) .

### ثانياً: تأسيس وتثبيت القيم الأخلاقية:

فقد جاء المنهاج الرباني في العبادة ليثمم مكارم الأخلاق، ويدعو الناس إلى مثل العلباء، والفضائل الكريمة كالصبر، والمثابرة، والسماحة، والسخاء، والصدق، والترحم، والمواساة، والأمانة . وغيرها من القيم التي تقوم عليها قيمة الفرد والمجتمع، والتي تحقق للإنسان سعادته في الدنيا فضلاً عن الآخرة، وللعبادات بأنواعها مهمة عظيمة في تثبيت هذه الأخلاق، وتدعيمها، وغرسها في نفس المؤمن ووجدانه، (فالصلاة) مثلاً تعود المؤمن الصبر، والدأب، والإخلاص والنظام، حتى تصبح جميعاً خلقاً راسخاً في النفس، فالمسلم النائم حين يقوم من لذة الذكرى على نداء المؤذن: (الصلاة خير من النوم)، وكذلك حين يتسحب من ضجيج الأسواق والبيع والشراء مُليئاً لنداء (حي على الصلاة)، ثم لا يزال دأبه هكذا عبر الساعات، والأيام، والأعوام، فهذا وأمثاله لا بد أن تترى فيهم هذه المعاني الخلقية العالية .

(الزكاة) التي أخذت من معنى الزيادة، والنماء، والتطهير، لها - هي الأخرى - أكبر الأثر في تنقية الخلق من زخم الشح واليخل والإمساك، وفي طبعه بطابع البذل، والعطاء، والسخاء، كذلك تستل سخيمة صدور المحتاجين، وتبدل به شيئاً من خلق الحب، والمودة، أو على الأقل سلامة الصدر، فتشيع في المجتمع تبعاً لذلك كل علائق السداني والتقارب، وتتداخل صلوات الناس بمشاعر الألفة، وإلى مثل هذا يشير قوله تعالى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها وصل عليهم إنّ صلواتك سكن لهم ﴾ (توبة: ١٠٣) .

(الصوم) له عمله الأساسي في تربية الإرادة الإنسانية، والضمير الحي اليقظ الذي يتعامل على أساس من رقابة الله تعالى له، وإطلاعه عليه، فضلاً عن غرس



خليقة الصبر، وال ضبط النفسي بالإمساك الطويل عن شهوتي البطن والفرج، وبالكف عن اللغو، والصخب، والقدرة على تغيير عاداته حتى لا يعود الجمود، أو تستعبده عاداته وتقاليده (١).

### ثالثاً: إصلاح الجانب الاجتماعي:

ويظهر ذلك في الصلاة ودورها في إيجاد العلاقات الاجتماعية .

وذلك واضح في الحكمة من صلاة الجماعة، لأن اجتماع المسلمين راغبين في الله، راغبين، راغبين، مسلمين وجوههم إليه خاصة عجيبة في نزول البركات، وتدلني الرحمة فيحدث التعاون، والتعارف، والوحدة والاجتماع على فعل الخير .

ثم تأتي صلاة الجمعة: فتجتمع أهل الحي على هيئة جامعة أكثر من ذلك في كل يوم جمعة، حيث شرع الله لنا خطبتها تذكيراً وتعليماً للمسلمين بما يصلح دينهم وديارهم، كحد أدنى للثقیف العام في أمور الدين، ثم تأتي صلاة العيد . فتجتمع أهل المدينة كلهم مرتين في السنة في عيد الفطر والأضحى، يخرجون الأبقار والعواقق (٢)، بل والحیض يشهدن الخير ودعوة المسلمين، ويعتزلن المصلی كما جاء في الحديث الصحيح الذي ترويه أم عطية (٣) *عنه* قالت: (أمرنا أن نخرج العواقق وذوات الخدور (٤) (٥) .

هذا عمداً ما شرعه تعالى لنا من صلوات جامعة في مناسبات شتى، كالاستسقاء، والحسوف، والكسوف، والأجائز، والتراويح في رمضان، إن الصلاة - نور وعي المسلمون حقيقتها - لهي توجيه وتنظيم اجتماعي كامل، يشمل فيه المجتمع الكبير، بقدر ما يحسن المسلمون هذه الصلاة، وما تعنيه من معانٍ وتوجيهات، بقدر

(١) انظر: المهاج القرآني في التشريع (٤٦٠) .

(٢) العواقق: جمع عواقق وهي التي عشت من الخدمة أو من قهر أبويها .

(٣) هي نسيبة بنت الحارث، وقيل: نسيبة بنت كعب، من فقهاء الصحابة، توفيت (٧٠هـ) . انظر: سير أعلام النبلاء (٣١٨/٢) .

(٤) ذوات الخدور: السور .

(٥) رواه البخاري، كتاب العيدين، باب خروج النساء والحیض إلى المصلی (٩/٢) .

ما يرجى لهم إحسان الحياة في اجتماعاتهم، ولا فرق في هذا المنهاج بين المسجد والمجتمع، فكلاهما تجمع يجب أن يخضع لدين الله وتعاليمه<sup>(١)</sup>.

أما الزكاة: هي في حقيقتها واجب مالي يؤخذ من الأغنياء ليرد على الفقراء وذوي الحاجة من الغارمين، والأرقاء وغيرهم، وهي بذلك تمثل الحد الأدنى المفروض فرضاً للتعاون الاجتماعي، والتكافل الاقتصادي بين أبناء الأمة الواحدة، لذلك جعل الله تعالى معظم مصارفها اجتماعية بحتة، بأوسع المدلولات الاجتماعية في القديم أو الحديث على السواء، وكما جاءت صلاة العيد لتوسع دائرة الاجتماع في الصلاة، تأتي هنا أيضاً (زكاة الفطر) لتوسع قاعدة التكافل، والتعاون إلى أقصى حد.

أما الأثر الاجتماعي لفريضة (الحج) فواسع شامل، ولا زالت آثاره تظهر كل يوم بجديد من حكمة الله تعالى في تشريعه، وقد أشار القرآن الكريم إلى كثير من ذلك، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَقاتِ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْفَرِ الْعَرَامِ﴾ (البقرة: ١٩٨).

روى البخاري بسنده عن ابن عباس قال: (كانت عكاظ، ومجنة، وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية، فتأثموا أن يتاجروا في موسم الحج، فسألوا رسول الله فترلت الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ (البقرة: ١٩٨)<sup>(٢)</sup>.

وقال تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ (الحج: ٢٧-٢٨).

والمنافع المشهودة كلمة جامعة، تشمل المنافع الروحية، والمادية والاجتماعية، والسياسية، والثقافية، والاقتصادية وسائر ما يطلق عليه اسم (المنفعة)، وقد جعلت غاية من غايات الحج وتقديمها على ذكر الله تعالى إيدان يبلغ أهميتها في مراتب المنافع والحكم الشرعية، وإن من أعظم هذه الفوائد جمع أطراف الأمة المسلمة كل

(١) انظر: المنهاج القرآني في التشريع (٤٦٢).

(٢) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب ليس عليكم جناح (١٨٦/٥) رقم (٤٥١٩).

عام، وما يحققه من استنفار جزء من كل إقليم سنوياً ليركبوا الاخطار والامطار، ويقطعوا السهول والمقار، أو يمتطوا الاجواء والبحار، وينركوا الاولاد والاهل والديار فيجتمع المسلمون من اطراف الارض، ويلتقى الشرقي بالمغربي، والمصري بالهندي، في مؤتمر جامع، ورحلة مباركة، وليحققوا عملياً دعوة القرآن بالسير في الارض، والسياحة في الآفاق، ومطالعة المشاهد المقدسة، ومنازل الوحي، وآثار النبوة منذ ابي الانبياء ابراهيم إلى خاتمهم محمد صلى الله عليهم جميعاً وسلم، ثم مدارج الصحابة رضوان الله عليهم، التي تهب على المسلمين منها روح الإخلاص، والبذل، والعطاء، والانقياد المطلق لأمر الله عز وجل (١).

ومن ناحية أخرى فالخروج نظام: بوجب على الجميع زياً واحداً، وحركة واحدة، وكلمة واحدة، وطاعة واحدة وبشبيبت الاعتقاد، والأخلاق، واصلاح الاجتماع تأخذ العبادات الإسلامية دورها العظيم في بناء الحياة الإنسانية على أرفع القواعد، وأبيل الغايات، وأكرمها وأطهرها، وتأخذ بالإنسان إلى أفق أرفع من التراب والطين، ومتاع الحياة الفانية، حيث تربطه بالحلي الباقي، وبالنعيم الخالد، فهي غسيل مستمر لأدران المادة، وتهذيب لطغياتها .. وعبادات الإسلام تقوم في أساسها على مراعاة الرفابة الإلهية، وابتغاء الآخرة، دون واسطة بين العبد ورببه في العبادات كلها، وحرر الإنسان من عبودية الكهانة، وظفوسها ورسومها<sup>(٢)</sup> ومنهج القرآن في العبادة مبني على الحكمة والاعتدال والاستقامة التي هي من أبرز ملامح الوسطية .



(١) انظر: المنهاج القرآني في التشريع (٤٦٥) .

(٢) انظر: المنهاج القرآني في التشريع (٤٦٨) .

## البحث التاسع

### التوجيهات القرآنية في مجال العبادة

تمهيد: إن الجاهلية أفدت العقائد والأفكار، وأفدت العبادات والشعائر، وأفدت الأخلاق والآداب، وأفدت النظم والنثاليذ، وأفدت الحياة كلها، وأصاب الأديان كلها فأنحرفت عن الصراط المستقيم .

وعندما أراد الله أن يبعث سيد المرسلين بالهدى ودين الحق ليعظه على الدين كله، كانت الدنيا مليئة بالعبادات والشعائر بعضها بقايا أديان سماوية، وبعضها إضافات بشرية، وابتداعات شيطانية، فقد معنى التبعذ وروحه ومعنى الإخلاص لرب العالمين . وأصبحت البشرية ضائعة بين أديان تشتت وتعتت وتزمتت، وأخرى ترخصت وغلت في الترخيص، وأصبح الديانة كأنها لهو ولعب، وأصبح بعض البشر لا دين لهم وجاء الإسلام، فلم يحاب الغالين، ولم يوافق المنحرفين، بل شرعه الله ﴿دينًا قيمًا﴾ لا عوج فيه، ولا غلو ولا تقصير؛ بل كان كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِثْلَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ \* قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ \* قُلْ أَغْبِرَ اللَّهُ أَيْمِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ١٦١-١٦٤) .

أن في القرآن الكريم عدة توجيهات ومبادئ إصلاحية كانت ولا تزال هي حجارة الأساس، التي يقوم عليها صرح العبادة الشعائرية في الإسلام (١) .

وهذه الإصلاحات، والتوجيهات، والمبادئ العظيمة تدل بكل وضوح على وسطية القرآن في مجال العبادة . ومن هذه التوجيهات في مجال العبادة:

أولاً: لا يعبد إلا الله:

في الفترات التي طال فيها الأمد على دعوة الرسل فتسيبت أو حرفت، ضل

(١) انظر: العبادة في الإسلام ( ١٣ ) .

الناس وعبدوا أنواعاً من الألهة لا يكاد العقل يصدقها . فهناك قوم عبدوا الشمس، كما حكى القرآن عن ملكة سبأ وقومها على لسان مدهد سليمان: ﴿وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنُ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَانُهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ (النمل: ٢٤) وهناك طائفة عبدت الجن كما قال تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ (سبأ: ٤١) .

وهناك من عبد الأصنام والأوثان واشتهر بذلك مشركو العرب، ولما فتح رسول الله ﷺ مكة وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنماً، فجعل يطمئن بسيفه في وجوهها وغيونها ويقول: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (الإسراء: ٨١) وهي تتساقط على رموسها، ثم أمر بها فأخرجت من المسجد وحرقت .

وضل اليهود والنصارى عن طريق التوحيد، وزحفت عليهم الوثنيات فأفسدت عليهم دينهم، ونسب اليهود إلى الله ما لا يجوز أن ينسب من صفات النقص والندم والتعب، ومر بنا ذلك بالتفصيل وأصبحت النصرانية مزيجاً من الخرافات اليونانية والوثنية الرومية والأفلاطونية المصرية، والمهم أن القوم عبدوا المسيح الذي كان من أشد الناس عبادة الله، واعترافاً بعبوديته لربه: واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، ذلك هو الشرك الذي انتشر في الآفاق قبل نزول القرآن، وتلك هي الوثنية الجاهلية التي سيطرت على عقول الناس وأفكارهم وتصوراتهم وعقائدهم .

وجاء الإسلام يدعو إلى عبادة الله وحده، ونبذ عبادة كل ما سواه ومن سواه من الألهة المزعومين، والأرباب المزيفين، سواء كانوا من البشر أم من الجن أم أي عالم من عوالم المخلوقات العلوية والسفلية، إن القرآن الكريم بين التوحيد بأنواعه، توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، الذي هو إفراد الله بالعبادة . إن سر الإسلام - على سعة تعاليمه - يتجلى في دستوره الخالد: القرآن الكريم، وسر هذا الدستور يتركز في الفاتحة: أم القرآن والسبع المثاني، وسر هذه الفاتحة يتلخص في هذه الآية الكريمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥) .

إن أول وصية في القرآن، وأول مبدأ يبايع عليه الرسول كل من اعتنق دينه هو:

﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ (الب: ١٦).

وأول ما دعا إليه رسول الإسلام ملوك الأرض وأمراءها هو هذه القضية الكبرى: أن يعبد الله وحده لا شريك له وأن تطرح الآلهة والأرباب التي اتخذها الناس من دون الله، فأذلوها أنفسهم لمن لا يستحق ذلك والخضوع، ومن هنا كان الرسول ﷺ يختم رسائله إلى قيصر والنجاشي، وغيرهما من أصحاب الملك والإمارة بهذه الآية الكريمة من سورة آل عمران: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤).

بل عد القرآن أن هذه الدعوة هي دعوة الرسل جميعاً، فكلهم دعا قومه إلى عبادة الله وحده، واجتناب عبادة الطاغوت، وكل ما عبد من دون الله فهو طاغوت، فهما معبودان لا ثالث لهما: إما الله وإما الطاغوت، ومن استكبر عن عبادة الله سقط - حتماً - في عبادة الطاغوت.

قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل: ٣٦).

وقال سبحانه مخاطباً خاتم رسله محمداً ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٢٥).

شدد الإسلام حملته على الشرك، وقعد له كل مرصد، وحاربه بكل سلاح، وقرر أنه الإثم العظيم، والضلال البعيد، والجرم الأكبر، والذنب الذي لا يغفر قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (الب: ٤٨) وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (الب: ١٦٦).

وبين القرآن الكريم أنه ليس في العالم المخلوق شيء يستحق أن يسجد له

الإنسان أو يتضرع إليه أو يرجوه أو يخشاه، فاللائكة عباد لله خاشعون خاضعون ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ (٤٩) ﴿يَسْبَحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٠-٢١) ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحریم: ٦) ﴿لَا يَسْفُوتُهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (٣٧) يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفقون إلا لمن ارتضى وهم من خشية مشفقون ﴿(الأنبياء: ٢٧-٢٨) .

والبشر وإن علا سلطانهم، أو عظم قدرهم، أنبياء كانوا أو سلاطين، هم أيضاً عباد لله، لا يملكون لأنفسهم، فضلاً عن غيرهم، ضرراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، والعبودية هي الوصف اللازم لهم جميعاً ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ (٩٢) لقد أحصاهم وعددهم عدداً (٩١) وكلهم آتية يوم القيامة فرداً ﴿(مریم: ٩٣-٩٤) .

والشمس والقمر والنجوم إن هي إلا كواكب مسخرات بأمره تعالى، لا يجوز أن يحني صلب من أجلها راعياً، أو يخسر وجه من أجلها ساجداً: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (ص: ٣٧) .

وكل ما يدعى من دون الله في الأرض أو السماء هو مخلوق عاجز لا قدرة له، محتاج لا قيام له بذاته، ضعيف لا يقوى على حياة نفسه قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ قَامْتُمْ لَهُ إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْأَلُهمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُونَ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمُطْلُوبِ﴾ (نح: ٧٣) وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفِ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ (٥٦) أولئك الذين يدعون يتبعون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً ﴿(الاسراء: ٥٦-٥٧) وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهم فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (الاسراء: ١٩٤) .

ثانياً: تحرير العبادة من رق الكهنوت .

إن رجال الدين جعلوا من أنفسهم في الديانات النصرانية واليهودية وسطاء بين الناس وبين الله .

ومن ثم قيدوا العبادات بمكان معين - يدخل في سلطنتهم لا تجوز إلا فيه وقيدوها بوسيط معين، يقوم بعملية السرقة من أموال الناس باسم الدين، وجعلوا لذلك مراسيم وطقوس كهنوتية خاصة لا تقبل بدونها .

وقد بالغ رجال الدين المسيحي في العصور الوسطى في فرض هذه المظاهر الكهنوتية فعلقوا في معابدهم رسوماً وتماثيل للعدراء والمسيح، وعدتها الكنيسة شعائر تعبدية واجبة التقديس .

وكان من أعجب ما صنعوه أنهم اتخذوا من الجنة مصدراً للثروة يبيعون منها قرايط وأسهماً لمن يدفع الثمن المعلوم، وعلى قدر المدفوع يكون عدد الأسهم .

ومن الطرائف اللاذعة ما حكوا أن أحد الأثرياء اليهود أراد أن يقابل هذه السخریات العجيبة بسخرية أمرّ وأعجب، فقد ذهب إلى أحد البائبات ولم يشتر منه الجنة، كما كان يفعل المسيحيون، ولكنه اشترى منه صفقة أخرى هي: جهنم! فباعها له بثمن بخس؛ لأنها سلعة لا يرغب فيها أحد؛ ولكن اليهودي الماكر أعلن للمسيحيين جميعاً: ألا يبألوا بشراء الجنة بعد اليوم، لأنه هو قد اشترى من البايا جهنم، ولن يدخل أحد فيها قالوا: فعاد البايا واشتراها بأضعاف ما باعها به!!<sup>(١)</sup>

والرؤساء الروحانيون في المسيحية يزعمون أن لهم سلطة المنح والمنع والغفران والحرمات، والإدخال في رحمة الله، والطرده منها، لأن المسيح قال لبعض تلاميذه على حد زعمهم: سأعطيك مفاتيح ملكوت السموات، فكل ما ربطته على الأرض يكون مربوطاً في السموات، وكل ما حللته على الأرض يكون محلولاً في السموات<sup>(٢)</sup> .

(١) انظر: العبادة في الإسلام (١٤٩) .

(٢) انظر: إنجيل متى (١٦ ، ١٩) .



ححر القرآن الكريم العبادة من القيود المكانية المترتبة، ولم يشترط المكان الخاص في عباداته إلا في الحج، لما فيه من فوائد تفوق فائدة التحرر من المكان، من التجمع العالمي للمسلمين حول أول بيت وضع للناس<sup>(١)</sup>.

ومع اشتراط المكان لعبادة الحج، فليس فيه أي شائبة لتأثير الكهنوت وليس فيه أي نفرة لتدخل الوسطاء والكهان بين المسلم وبين الله، وشأنه في ذلك شأنه في سائر عبادات الإسلام.

إن العبادات في القرآن الكريم لا تتوقف على توسط هيكل أو تقريب كهانة، إن المسلم يصلي حيث أدركه موعد الصلاة، وأينما تكونوا فثم وجه الله، ويصوم ويفطر في داره أو في موطن عمله.

ويحج ليذهب إلى بيت لا سلطان فيه لأصحاب سداة، ولا حق عنده لأحد في قربانه، غير حق المساكين والمعوزين ويذهب إلى صلاة الجماعة، فلا تنقيد صلاته الجامعة بمراسم كهانة أو إتاوة حراب، ويؤم في هذه الصلاة الجامعة من هو أهل للإمامة بين الحاضرين باختيارهم لساعتهم إن لم يكن معروفاً عنده قبل ذلك<sup>(٢)</sup>.

إن عقيدة المسلم في الله لا تتيح مكاناً لأولئك الوسطاء الذين ينحكمسون في ضمائر عباد الله، فاعتقاد المسلم في الله يقوم على حقيقتين:

أولاهما: أنه تعالى فوق عباده، علو قهر، ومكانة، وذات سلطان وتصرفه لا يشبهه شيء، ولا يحكم عليه شيء، ولا يقع في ملكه إلا ما يريد ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام: ١٥) . ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١٧) . ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (سورة الإخلاص) .

أما المسلم فقد عرف من كتاب الله العزيز أن الأرض كلها محراب كبير، فحيثما

(١) انظر: العبادة في الإسلام (١٥٦) .

(٢) انظر: حقائق الإسلام، للمقداد (١١٢) .

توجه يستطيع أن يتجه بعبادته لله . وفي هذا يقول تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَاقْبَلُوهُ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ (البقرة: ١١٥) .

ويقول الرسول الكريم ﷺ : «وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فإيما رجع من أمي أدركته الصلاة فليصل» (١) .

وقد كانت هذه التخصيص للعبادة الإسلامية موضع الإعجاب العظيم والتأثير البالغ من كثيرين من غير المسلمين - حتى من رجال الأديان أنفسهم حتى إن الأسقف (ثوفروا) قال : لا يستطيع أحد يكون خائض المسنمين لأول مرة، إلا يدهش بمظهر عقيدتهم، فإنك حيثما كنت سواء أوجدت في شارع مطروق أم في محطة سكة حديدية أم في حقل - كان أكثر ما تألف عينك مشاهدته أن ترى رجلاً ليس عليه أدنى مسحة للرياء، ولا أقل شائبة من حب الظهور، يذر عمله الذي يشغله كائنًا ما كان، وينطلق في سكون وتواضع لأداء صلاته في وقتها المعين (٢) .

ولقد كان هذا المشهد العجيب في الأديان أحد العوامل التي أثرت في وجدان المحامي الكبير الأستاذ زكي عريبي عميد الطائفة اليهودية في مصر والذي اهتدى إلى الإسلام في عام ١٩٦٠، ومما جاء في محاضراته (لماذا أسلمت؟) قوله: (وما سمعت المؤذن يؤذن في الفجر أو في الظهر أو في أي وقت آخر إلا شعرت بأن صوت الله، الذي يفصل بين الحق والباطل والحلال والحرام ويهدي الإنسان إلى الطريق المستقيم، وأركب السيارة في السفر وعلى الطريق بين الحقول وبين الفضاء تقع عيني على رجل متواضع يقف بين يدي الله في ثياب رثة مهلهلة، يقف على مصلى صغير، مفروش بالرقيق من الحصر على شاطئ ترعة متواضعة أيضاً: يقف الرجل يصلي لله في خشوع وابتهاج، فكانت نفسي تهفو إلى أن أصلي مثل صلاته، كنت أعتقد أن هذه نفحات الله في الأرض يلقيها في نفوس عباده الصالحين) (٣) .

(١) رواه البخاري ، كتاب الصلاة ، باب جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً (١/١٢٩ رقم ٤٣٨) .

(٢) انظر: العادة في الإسلام (١٥٠) .

(٣) انظر: العبادة في الإسلام (١٥١) .

## والحقيقة الثانية:

أنه تعالى مع عظمته وعلو شأنه .. قريب من خلقه، بل هو معهم أينما كانوا، في جلوتهم وفي خلوتهم، يسمع ويرى، ويرعى ويهدي، ويعطي من سأل، ويجيب من دعاه، فهو تعالى قريب في علوه، علي في دنوه، وقد جمع تعالى بين العظمة والعلو، وبين القرب والذنو، في آية واحدة، فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الحديد: ٤).

وقد عبر القرآن على لسان إبراهيم - أبي الأنبياء - عن العلاقة بين الإنسان والله فقال: ﴿الَّذِي خَلَقْتَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ (٧٨) ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ (٧٩) ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فهُوَ يَشْفِينِ﴾ (٨٠) ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ (٨١) ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ (نشرأه: ٧٨-٨٢) وقال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلِمُ مَا تُوسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق: ١٦) وقال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ (الزمر: ٨٥) وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقر: ١٨٦).

ومن اللطائف في هذه الآية: أن سؤال الرسول ﷺ عن بعض الأمور قد وقع في القرآن بضع عشرة مرة، وكان كل جواب عن تلك الأسئلة مقترناً بكلمة (قل) مثل - ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِفُ﴾ (البقر: ١٨٨).

﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُقْفُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ (البقر: ٢١٩). وكان مقتضى تلك الآيات أن يقال في هذه: وإذا سألك عبادي عني فقل: إني قريب، ولكن أسلوب الآية خالف المعتاد ولم يأمر الله رسوله أن يقول للناس ذلك، وقال سبحانه مباشرة (فإني قريب) ولهذا الأسلوب البياني دلالة وإحاطة في الأنفس والعقول، إذ لم يجعل الله واسطة بينه وبين عبادته، وهذا من وسطية القرآن الكريم في جانب العبادة حيث حرر العبادة من رق الكهنوت، إن القرآن الكريم رد على من زعم أن له منزلة خاصة من الله:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (التوبة: ١٨) .

وحكى عن المسيح أنه يقوم لربه يوم القيامة في شأن من ادعوا الانتساب إلى دينه: ﴿إِن تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ وَإِن تُغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (التوبة: ١١٨) وبين القرآن الكريم أن النبي ﷺ لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله، قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الاعراف: ١٨٨) .

هذه وسطية القرآن في العبادة حرصت على تحرير الإنسان من رق الكهنوت، ومن الوسطاء بين العبد وخالقه .

فالمسلم نعلم من القرآن الكريم أن بكلم ربه بلا ترجمان، وأن يناجيه بما شاء حيث شاء، ومتى شاء، وأن يقف بين يديه بلا حجاب ولا واسطة إلا العمل الصالح .

قال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (٢٤٤) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أُنثِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَّمُونَ فِيهَا﴾ (سجدة: ١٧٣، ١٧٤) .

أو الدعاء بالأسماء الحسنى:

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الاعراف: ١٨٠) .

أو الدعاء في ظهر الغيب من أهل الصلاح لإخوانهم:

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا...﴾ (غافر: ١٠) .

### ثالثًا: التوازن بين الروحية والمادية .

التوازن والاعتدال بين الروحية والمادية، أو بين الدين والدنيا، هو توجيه قرآني، دعى إليه المولى عز وجل في كتابه العزيز ليصلح ما أفسده محرفو الأديان في مجال العبادة .

#### غلو اليهودية في أمر الدنيا:

لا تكاد نجد في أسفار التوراة الخمسة الحالية للروحانية أثرًا، ولا للأخرة مكانًا، حتى الوعد والوعيد في هذه الأسفار للمطيعين والعصاة، إنما يتعلقان بأمور دنيوية، وسيطرت عليها التزعة المادية الخالصة، فاخصب والصحة والثراء وطول العمر، والنصر على الأعداء ونحوها من المكاسب الدنيوية الزائلة، هي المثوبات التي تبشر بها التوراة، وأضداد هذه الأمور من الجذب والمرض والموت والوباء والفقر والهزيمة ونحوها للذين يعرضون عن الشريعة، فليس للأجزية الروحية ولا الأخرية مكان في التوراة<sup>(١)</sup>.

#### - إهمال المسيحية لأمر الدنيا:

أما في الإنجيل فالدعوة فيه قوية إلى إلغاء قيمة هذه الدنيا، واعتبار هذه الأرض بمثابة منفى للإنسان، وطلب النجاة والسعادة هناك، في العالم الآخر، حيث تقوم ملكة السماء، فمن أراد ملكوت السماء فليعرض عن هذه الأرض، ومن أراد العالم الآخر، فليعرض هذا العالم أو هذه الدنيا، وهكذا لا تحس في الإنجيل أن لك في الدنيا نصيب، وأن لك في طيبات الحياة حظًا، ولا تشعر أن لبدنك عليك حقًا، وإن لك في عمارة الأرض دورًا، ولم تطف الدعوة إلى التقشف والتزهد وإهمال الحياة الأرضية، عند الحد الذي جاء به الإنجيل؛ بل ابتدع النصارى نظام الرهبانية، بما فيه من قسوة على النفس، وتحريم للزواج، وكبت للغرائز، ومصادرة للتزويج إلى الزينة والطيبات من الرزق، وانتشر هذا النظام العاتي، وكثر أتباعه، وأصبح ما يتعبدون به

(١) انظر: العبادة في الإسلام (١٧٥) .

الله ويتقربون به إليه: البعد عن النظافة والتجمل، واعتبار العناية بالجسم ونظافته ونوازه رجساً من عمل الشيطان (١).

وقد ذكر أبو الحسن الندوي (٢) في كتابه صوراً للجموع الرهبانية وغلوها، ما تقشعر منها الجلود، وتفرع القلوب، وتدهش العقول، وهذه الصور - كما يقول الأستاذ الندوي - قليل من كثير جداً: (وكان بعض الرهبان لا يكتسون دائماً؛ وإنما يتسرون بشعرهم الطويل ويمشون على أيديهم وأرجلهم كالأنعام؛ وكان أكثرهم يسكنون في مغارات السباع والآبار التنازحة والمقابر، ويأكل كثير منهم الكلاب والحشيش، وكانوا يعدون طهارة الجسم منافية لتقاء الروح ويتأثمون من غسل الاعضاء، وأزهد الناس عندهم وأتقاهم أبعدهم عن الطهارة وأوغلهم في التجاسات والندس، وكانوا يفرون من ظل النساء ويتأثمون من قربهن والاجتماع بهن، وكانوا يعتقدون أن مصادفتهم في الطريق والتحدث إليهن - ولو كن أمهات أو أزواجاً أو شقيقات - تحبط أعمالهم وجهودهم الروحية). وذكر من هذه المضحكات المبكيات شيئاً كثيراً (٣).

### ثالثاً: التوازن سمة القرآن والسنة النبوية:

وهكذا كانت اليهودية في إغفالها للأخرة وللروح، وهكذا كانت المسيحية في تحقيرها للدنيا والجسد.

فلما جاء الإسلام كانت سمة التوازن والاعتدال في كل الآفاق والتواحي، الاعتدال الذي يليق برسالة عامة خالدة، جاءت لتسع أقطار الأرض، وأطوار الزمان، وتشرع لنسب الأجناس والطبقات والأفراد في مختلف شئون الحياة، الاعتدال بين أشواق الروح وحقوق الجسد، بين بواعث الدين، ومطالب الدنيا، الاعتدال بين العمل لهذه الحياة والعمل لما بعد الحياة.

(١) انظر: العبادة في الإسلام (١٧٦).

(٢) هو العلامة الأستاذ الأدب أبو حسن الندوي الحسي من علماء الهند ورئيس رابطة علماءها وأديانها له جهود مشكورة في مجال الدعوة والتأليف وخصوصاً في الهند وهو من المعاصرين.

(٣) ماذا خسر العالم بتعطُّط المسلمين؟ (١٥٨-١٦٠).

وبين القرآن الكريم أن على المسلم ألا يشغله حق الجسد عن حق الروح وألا تشغله رغائب الدنيا العاجلة عن حقائق الآخرة الباقية، عليه ألا ينسى الله فينسى حقيقة نفسه، وماهية وجوده، وفي هذا يقول القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ (نحر: ١٨-١٩) .

إن مهمة العبادة في الإسلام الأخذ بيد الإنسان حتى لا تغرقه أعمال الدنيا في جة النسيان، حيث ينسى الله، فيُنسِيه الله نفسه، ومهمة العبادة أن تقوم بالتنبيه والتذكير لمن نسي مولاه، أو غفل عن أخراه، ثم تدع الإنسان يعود بعد أدائها إلى دنياه يلقاها ساعياً حثيث الخطى، وثيق العرا .

إن القرآن الكريم وضع المسلم في وضعه الرشيد بين الدين والدنيا .

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ (الجمعة: ٩-١٠) .

وهذا هو شأن المسلم: عمل وبيع قبل الصلاة: ثم صلاة وسعى إلى ذكر الله، ثم - بعد انقضاء الصلاة - انتشار في الأرض وابتغاء من فضل الله، وفضل الله هنا هو الرزق والكسب .

ورواد المساجد في الإسلام ليسوا شيئاً متعطلاً، ولا رهباناً متطلبين، وإنما هم - كما وصفهم القرآن: ﴿رَجَالٌ لَا تُلْهِهُمُ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ (البقر: ٢٧) .

فهم أناس لهم دنياهم وأعمالهم من تجارة وبيع، وما أشد ما تشغل التجارة والبيع، ولكن ذلك لم يلههم عن حق الله .

وفي سياق الحج يرسم القرآن الكريم لنا صورة واضحة لصنفين من الناس الذين

يدعون الله ويسألونه في تلك المنازل . قال تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتْ مِنْكُمْ أُمُورُهُمْ فَأُذِكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (البقرة: ٢٠٠-٢٠١) .

هكذا قسم القرآن الناس في الموقف الذي تسمو فيه الأرواح وتدنون القلوب من ربها، وتهب عليهم نسحات الذكريات المحمدية من قريب، والذكريات الإبراهيمية من بعيد .

فسمان فقط ذكرهما القرآن: طلاب دنيا وما لهم في الآخرة من خلاق، وهم ذلك الصنف الذي توعدده الله في آية أخرى: ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴾ (الاسراء: ١٨) وطلاب دنيا وآخرة يطلبون الحسنة في الحياتين، والسعادة في الدارين، دعاؤهم: ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ . واحسنة في الدنيا ذهب العلماء إلى أقوال متعددة فيها: العافية، والمرأة الصالحة، الأولاد الأبرار، أو العلم النافع، أو الرزق الواسع، أو المحبة بين الناس، أو نحو ذلك، فكل هذا مما يحقق حسنة الدنيا (١) .

ولم يذكر القرآن الكريم القسم الثالث من التام - بحسب التقسيم العقلي - وهو من لا يطلب إلا حسنة الآخرة، وماله في الدنيا من أرب، وكأنه يعلمنا أن هذا الصنف لا يكاد يوجد في الناس، فالحياة بتابعها الجمة وحقوقها المتنوعة، تفرض على طالب الآخرة أن يدعوه ربه ليسر له سبيل دنياه ويعينه على أداء حقوقها، ويخفف عنه متاعها ثم هو يشعرنا أن إهمال الدنيا، وإهدار شأنها في حساب طالب الآخرة إنما هو أمر مذموم خارج عن سنة الفطرة، وصراط الدين معاً .

ولهذا لم يقبل رسول الله فكرة الانقطاع عن الدنيا من أجل الرغبة في الآخرة، والاعتزال المطلق لعبادة الله، وكلمة رمت في بعض أصحابه نزعاً إلى هذا اللون من

(١) انظر: العبادة في الإسلام (٨٢) .



السلوك الذي عرف في بعض الأديان الأخرى، قوم عوج أفكارهم، وهداهم لنبي هي أقوم<sup>(١)</sup>.

إن وسطية القرآن الكريم في العبادة، جعلت العبادة لا تنعزل عن الدنيا، والدنيا لا تحيف على العبادة؛ بل جمعت بين الأمور بدون إفراط أو تفريط أو غلو أو حفاء.

رابعاً: الرخص والتخفيفات في العبادة دليل على وسطية القرآن:

قد علمنا أن من ملامح الوسطية رفع الحرج في الشريعة، واليسر في الأحكام، وعدم التكليف بما لا يطاق ويظهر رفع الحرج في باب العبادة واضحاً في الرخص والتخفيفات التي تدل على اليسر ورفع الحرج في عباداته وتكاليفه في عامة الأحوال، فإن القرآن الكريم، والسنة النبوية شرعت ألواناً من الاستثناءات والإعفاءات والتسهيلات في أحوال خاصة، وهي تلك التي توجد للإنسان نوعاً من المشقة يؤده ويثقل ظهره، ويقعد به عن مواصلة السير. فالسفر مثلاً تقتضيه مطالب الحياة التي جاء الدين بإقرارها؛ بل يتمجدها والدعوة إليها.

كالسفر في طلب الرزق ﴿فَامشُوا فِي مَنَاجِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ (تلك: ١٥)

والسفر للحج إلى بيت الله ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (حج: ٢٧)

والسفر لطلب العلم، وغير ذلك من الأغراض الدينية والدينية والمرضى مثلاً من ضرورات الحياة وبلاتها الذي لا يكاد يسلم منه إنسان بمقتضى النشأة الإنسانية، والتركيب البشري ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ (البلد: ٤).

والجهاد من مطالب الحياة وضرورتها معاً، إذ الإسلام لم يشرعه إلا دفاعاً عن النفس، وتأميناً للدعوة، ودرءاً للفتنة، وانقاداً للمستضعفين وتأديباً للناكثين.

وفي هذه الأمور الثلاثة - السفر والمرضى والجهاد - قرر الإسلام تسيرات شتى:

(١) انظر: العبادة في الإسلام (٨٢).

## من رخص الصلاة:

فجعل للمسافر في الصلاة القصر: يصلي الرباعية - كالظهر والعصر والعشاء - ركعتين فقط، وقال الرسول ﷺ في ذلك: «صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته»<sup>(١)</sup>.

ورخص له في الجمع بين الصلاتين .. الظهر مع العصر، والمغرب مع العشاء - فأجاز جمعهما في وقت إحداهما تقديمًا أو تأخيرًا كما رخص للمريض أن يصلي قاعدًا أو مضطجعًا على جنبه، أو مستلقيًا على ظهره، حسب استطاعته، وليس على المريض حرج، وفي (الطهارة) التي هي شرط لصحة الصلاة - رخص لمن يتعذر عليه استعمال الماء من مريض أو مسافر أو نحوهما أن يترك الوضوء إلى التيمم بالصعيد الطيب من رمل أو تراب أو حجر أو نحوه، نيسيرًا من الله ورحمة بعباده:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيَسْمَعَ عَلَيْكُمْ لَكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة: ٦).

وقد ذكر القرآن هذا الحكم أيضًا:

في سورة النساء قائلًا:

﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ (النساء: ٤٣).

وفي هذه الآيات يتبين للمسلم أن هذه الرخص في العبادات مظهر يتجلى الله فيه بأسمائه: ( العفو الغفور، الكريم الرحيم، الذي يريد أن يظهر عباده ويتم عليهم النعمة )<sup>(٢)</sup>.

وهذا دليل على وسطية القرآن في العبادات .

(١) رواه مسلم مع شرح النووي ، كتاب الصلاة ، (١٩٦/٥).

(٢) نظرا: العبادة في الإسلام (١٩٧) .

## من رخص الجهاد:

وفي الجهاد شرع الله صلاة الحرب أو الخوف، وجعلها في الرباعية (ركعة واحدة) تيسيراً، وإعانة لهم على عدوهم وعند التحام الصفوف قبل الله منهم الصلاة كيف استطاعوا ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ (البقرة: ٢٣٩).

فلا يشترط فيها ركوع ولا سجود ولا استقبال قبلة.

ولم يكن النبي ﷺ وأصحابه يفرقون بين الصلاة والجهاد، فتلك عمود الإسلام، وهذا ذروة سنامه، وقد فرض الله على المجاهدين أن يحملوا أسلحتهم ويأخذوا حذرهم وهم بين يديه خاشعون، ولربهم مبتهلون متاجرون: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِنَتِكُمْ قِيَمِلُونَ عَلَيْكُمْ مِيلَةً وَاحِدَةً﴾ (النساء: ٢٠).

## رخص الصيام:

وفي صيام رمضان رخص المولى عز وجل للمسافر في الإفطار، بل أوجبه عليه إذا كان في صومه مشقة ظاهرة عليه، ففي الصحيح عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ في سفر فرأى رجلاً ورعاً قد ظل عليه، فقال: ما هذا؟ فقاتلوا: صائم، فقال: ليس من البر الصوم في السفر» (١).

وبذلك أثبت النبي ﷺ بكل صراحة: أن الصيام إذا أتعب صاحبه وأجهده لا يجوز له الصيام.

وكذلك رخص للمريض بالفطر في رمضان، ويقضي هو والمسافر عدة من أيام آخر، قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْقُرْآنَ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥).

(١) رواه البخاري، كتاب الصوم، باب ليس من البر الصوم في سفر (٢/٢٩٢ رقم ١٩٤٦).

ورخص رسول الله ﷺ للمجاهدين بالفطر في الصيام عن ابن عباس رضي الله عنهما :  
 « أن رسول الله ﷺ خرج إلى مكة في رمضان فصام؛ حتى بلغ الكديد <sup>(١)</sup> أفطر؛  
 فأفطر الناس <sup>(٢)</sup> .

ومبدأ التخفيف والتيسير في العبادة من أجل المرض والسفر واجتهاد مبدأ نزل به  
 القرآن منذ مطلع فجر الإسلام في مكة ففي سورة المزمل يقول تعالى : ﴿ عَلِمَ أَنْ لَنْ  
 تُحِصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَأَخْرُونَ  
 يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَخْرُونَ يِقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاَقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ  
 وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ  
 عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (المزمل: ٢٠) .

وبهذا يتضح للقارئ الكريم عظمة المنهج الرباني ووسطيته في كافة المجالات  
 التشريعية من عقائد، وأخلاق، وعبادة، وحرصه على رفع الحرج وتيسير الأمور  
 وتسهيلها على الناس والله هو الهادي إلى سواء السبيل .



(١) الكديد : منقطة ما بين عسفان وقديد في طريق مكة .

(٢) رواه البخاري ، كتاب الصوم ، باب إذا صام أياماً من رمضان ثم سافر (٢/ ٢٩٢ رقم ١٩٤٤) .

## الفصل الثاني

### وسطية القرآن في الأخلاق

تمهيد:

معنى الأخلاق: يعنى بالأخلاق: القوى والسجايا النفسية الراسخة، التي تصدر عنها أنماط السلوك الإنساني الخارجي، من خلال إرادة حرة، وهي تمثل الصورة الباطنية للإنسان، كما أن الخلق يمثل الصورة الظاهرة، وكلاهما يكون حسناً أو قبيحاً، والاصل في الخلق أن يكون اختياريًا يكسب بالتخليق والجهد والمثابرة على التزام جانب التسامي، ولذلك يمدح به الإنسان أو يذم، ويثاب عليه أو يعاقب، بخلاف الخلق فهو فطرة مقسومة محدودة لا تدخل لأحد فيها ولا اختيار، ولا يتعلق بها لذاتها مدح أو ذم، ولا يترتب عليها ثواب أو عقاب<sup>(١)</sup>.

ومعلوم لدى أصحاب الفطر السليمة أن الله تعالى فطر الإنسان على الخير، وركز في فطرته أصول الأخلاق والفضائل السامية، وركب فيه حب موافقتها، وبغض إليه مخالفتها إلا من انتكست فطرته تحت وطأة البيئة، وضلال التربية، وإغواء النفس والشيطان والاختيار (الخُلقي) حينئذ يكون في اتجاه الإنسان مع أصول فطرته، ومقاومة عوامل التدني والتضليل المذكورة، وإلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَتَقْسِرُوا مَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ٧-١٠).

والإلهام: إلقاء الشيء في النفس، والمعنى: أفهم النفس الأمرين، أو عرفها حالهما، وما يؤدي إليه كل منهما، ومكنتها من اختيار أيهما شاء، فيفوز من تطهر من الدنيا، ويخيب من طمس فطرته، ومعنى دساها: أخفاها بالفجور والمعاصي . . والآيات الكريمة تجمع بين الإلهام الإلهي للإنسان بمقتضى فطرته، والجهد الاختياري له في التزكية، أو التدسية .

(١) انظر: منهاج القرآني في التشريع (٨ - ٤)

وواضح أن الله تعالى يدعو إلى طريق الخير بما وصفه بالثقوى، وفلاح صاحبه، ويكره الطريق الآخر بما وصفه بالفجور، وخيبة صاحبه، ولو شاء منعه قهراً، ولكن حكمته اقتضت الاختيار والأخلاق لذلك تمثل جانباً خطيراً في الحياة الإنسانية؛ بل هي إحدى الميزات العظيمة التي تميز الإنسان<sup>(١)</sup>.

إن الأخلاق كان لها في المنهج الرباني أهمية كبرى، فصاغها على وفق اتجاهه في الاعتقاد، وبنائها على أساس الحقيقة الكبرى للكون والحياة، وغاية الجنس البشري ومآله، ومهمة وجوده من حيث هو خليفة في الأرض، بقيم فيها شريعة الله ومنهاجه.

ويبين القرآن الكريم مهمة الأخلاق الخطيرة مع الإنسان منذ النشأة الأولى، حين ذكر نوبة أبينا آدم، وأنه تاب إلى خلق رضى من أخلاق الإيمان وهو الاعتذار عن الخطأ، والاعتراف به، والافتقار إلى مولاه فقال هو وزوجه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف: ٢٣).

ويقارن القرآن الكريم هذا الخلق بخلق مضاد له وهو الاستكبار والإياء عن أمر الله عز وجل، الذي أهلك إبليس، وطرده من رحمة الله عن سعتها<sup>(٢)</sup>.

### تحديد الأخلاق:

من فضل الله علينا أنه تعبدنا بخلق محدد على السنة الرسل، ولم يتركنا لأحاسيس الغفيرة وحدها التي قد تخطئ أو تفضل أو تضلل، ولا لنظرات العقول، واجتهاد الأفكار البعيدة عن المنهج الرباني ولذلك تتضارب وتتباعد ويحدث الغلو والجفاء، ويندر في هذا الباب المنهج الوسط، ولذلك فقد عني القرآن به عناية خاصة، وجاءت الآيات تُسرى توضح هذا المنهج وتدعو إليه، وتربي الأمة عليه، وتحذر مما يضاده غلو أو جفاء، إفراطاً أو تفريطاً.

(١) انظر: المرجع السابق (٤٠٩).

(٢) انظر: المرجع السابق (٤١٠).

إننا نحن المسلمون لدينا مرجع تفصيلي واف بصحيح الأخلاق وفاسدها، وما يحمد منها وما يذم، وقد اتفقت على ذلك كلمة الرسل جميعاً، لأن الأخلاق أحد الأصول المشتركة التي لا تتغير في دين الله عز وجل<sup>(١)</sup>.

ولقد جاءت الأخلاق في هذا المنهاج على أسنى درجات السمو والارتقاء، لأن الله سبحانه وتعالى جعل نفسه (المثل الأعلى) لأخلاق المؤمنين، وطلب منهم أن يتخلفوا على نمط ما أعلمهم عن نفسه جل شأنه من رحمة، وود، وحلم، وعفو، وسخاء، وإتقان، وإحسان، وشكر، وصبر، ومغفرة، وصدق، وعدل، ووفاء بالعهود، بل وبطش بأعداء الحق بعد المطاولة والإعذار، مع ملاحظة الفارق التام بين صفات الخالق والمخلوق في كل شيء . قال تعالى : ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السُّوءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (النمل: ٦٠) .

ولقد نصب لهم من أنفسهم رسله الأكرميين فعصمهم، وظهرهم، وكملهم، وجعلهم (المثل البشري الأعلى) في التخلق بما أمر ورسم جل شأنه، وجعلهم خير قدوة، وأحسن أسوة لقومهم، وللبشر أجمعين .

ومن الواضح أنه لا سبيل إلى مغارة الخلق بالخالق، ففي جانبه تعالى الكمال مطلق، وهو وصف ثابت له، وفي جانبهم الكمال نسبي إضافي، ثم هو لهم غاية تطلب ويسعى إليها، فالرسل يتابعون الترقى نحوها، وعمامة البشر يقاومون التذلي، ثم يبذلون الجهد ليلغوا أقصى طاقاتهم من الكمال الممكن لهم . وبذلك أتبع للأخلاق أعلى قدر من السمو والثبات، وإن حسن الخلق بالنسبة للمسلم هدف سامي يحرص عليه قربة لله تعالى لأن هدفه من ذلك رضا الله وطلب ثوابه، والخوف من سخطه وعقابه وبذلك اكتسب هذا المطلب قدسية دينية جعلت مزاولته من أعلى درجات الإيمان قال ﷺ : «إن من أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وخياركم خياركم لنسائهم»<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر: المرجع السابق (٤١٠) .

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في استكمال الإيمان (٥/١١ رقم ٢٦١٢) .

وصار الحرص على حسن الخلق عبادة يستحق بها صاحبها ثواب العابدين لما وراءها من دافع تعبدي يتطلب مرضاة الله، ويجنب سخطه، وبذلك أصبحت الأخلاق الإسلامية نمطاً فريداً لا يقاربه ولا يدانيه شيء من حكم الحكماء، أو نظر الفلاسفة، أو شرائع المشرعين، أو عادات الأمم وآدابها، إلا أن تكون بقية من الوحي الرباني بقيت بين الناس، أو أثراً من سلامة الفطرة التي فطر الله عليها الناس<sup>(١)</sup>.



(١) انظر: المهاج القرآني في التشريع (٤١١).



## المبحث الأول

### أثر العقيدة الفاسدة في انحراف الأخلاق

اختلفت الجاهليات طرائق قديماً في حياتهم العملية، كما اختلفت في عقائدها، فجاءت قيمها وأخلاقها العملية، وشرائعها وعاداتها، صوراً منكراً ناكبة عن الحق، تسحق الإنسان وتشقيه، ونحتاج إلى كتب لو أردنا إعطاء صورة وافية عنها في هذا الباب، ولكننا نختصر الحديث في النواحي الآتية:

#### (١) الشهوانية المادية:

هذا أول الأشكال التي تغطي بها الجاهلية الحياة العملية نتيجة لتسولي الإنسان وضع القوانين والأحكام، وصياغة القيم والأخلاق لنفسه بعيداً عن الضوابط الإلهية الهادية، إن الدسبور الرباني قد راعى بحكمة عالية قوى الإنسان الروحية والمادية، فأحل له الطيبات، وحرم عليه الخبائث، ومنحه أو منعه على علم شامل بفضرة الإنسان وخصائصه .

والإنسان حين استخلفه الله في الأرض ركب فيه غرائز وقوى لا تصلح حياته إلا بها، ووازنها في نفس الوقت بتعاليمه الهادية حتى لا تخرج بالإنسان عن المعرى السليم فتدمره، وبذلك يتعادى (الشرع) مع (الطبع) ليحققاً للإنسان أطيب حياة على الأرض، وليقوده إلى سعادة الآخرة .

ولكن الإنسان لما أعرض عن أمر ربه أبغى الطبع، وأضاع الشرع واستبدل به شرائع وضعية قاصرة وناقصة، فانهارت الموازنة الفذة، لعجز هذه الشرائع عن معادلة الطبع الإنساني، أو التعامل معه على أسس سليمة، وهذا ما حدث هنا:

فحين وجد الإنسان نفسه تتأجج برغبات هائلة من حب التملك، والسيطرة، والاستعلاء، والاستمتاع بضروب اللذائذ من طعام وشراب، ورياضة، ونساء، إلخ مضى بكل فوته ليحقق رغباته، وقام حينئذ المنهاج الإلهي بأصوله وفروعه ليكون دليلاً الهادي، وميزانه القيم فاعتدل الميزان .

ثم حين أعظته مناهج الجاهلية بدائلها المظلمة تلاشت روابط الطبع، وسلامة الفطرة فلم يعد يؤمن في ظلام الجاهلية بالخالق الأعلى، ولا الجزاء الأخروي، ولا مسئولية التكليفية السامية . . . إلى آخره .

بذلك ضعفت ونقصت بواعث الخير والنضائل في نفس الإنسان، وانطلقت كل قوى الشر لا تلوي على شيء، تثير الغرائز، وتغجر الشهوات الجامحة، وتكسح كل عائق في طريقها، وتجعله خادماً لها، ليحقق للشهوات أقصى غايتها بأقل قدر من التصادم بين الرغبات المتلاطمة، التي لا تمل في طلب المزيد والتجديد، حتى تصبح أخياة الإنسانية صورة مشينة موغلة في بهيمة شهوانية، تتخرط بالإنسان في سلك القردة واخنازير؛ بل من المؤكد من الحيوانات من يتسرف بفضوته عن مسالك كثير من المجتمعات في ظل الجاهليات التكدام، التي تطيحها بخصائصها .

وقد أجاد الأستاذ أبو الأعلى المودودي<sup>(١)</sup> رحمه الله في وصفها فقال: (إن المجتمع الذي يتكون من هؤلاء يكون من خصائصه اللازمة:

١- أن ينهض ببيان السياسة على قواعد (الحاكمية البشرية) سواء كانت حاكمية فرد أو أسرة أو طبقة، أو حاكمية الجمهور . . . والقوانين كلها توضع وتغير حسب الرغبات والمصالح، وكذلك اخطط السياسية، فلا يعلو شأن في المملكة إلا لكل من بلغ الغاية في الدهاء والمكر واختلاق الأكاذيب . . . إلى آخره .

٢- أن يقوم نظام العمران والحياة الاجتماعية بجمته على أساس حب الذات، وتعبد الشهوات، ونظام المقاييس الخلقية من جديد بحيث لا تحول دون التمتع بالذات .

٣- كذلك تنأثر الآداب والفنون بهذه العقلية، وتصطبغ بصفتها وتزداد فيها عناصر الفحشاء والخلاعة كل يوم)<sup>(٢)</sup> .

(١) هو العلامة أبو الأعلى المودودي سيد أحمد حسن مودودي مؤسس الجماعة الإسلامية في باكستان أصوله عربية، يرجع نسبه إلى أتباعون لبلاد الهند، ولد سنة ١٩٠٣هـ، وتوفي سنة ١٩٧٩م بعد حياة حافلة بالعلم والدعوة والتأليف . انظر: كتاب أبو الأعلى المودودي فكره ودعوته (٨-٩) .

(٢) الإسلام والجاهلية (٢٠) وما بعدها باختصار .

وعلى هذه النظرة ؛ وهذه القواعد قامت مجتمعات الجاهلية في كل مكان، كالليونان والرومان، وقديماً، كاخضارة الأوربية المعاصرة التي تمثلها أصدق تمثيل، وتزيد عليها بما اخترعته من أساليب في تأصيل مناهجها الضالة .

ونكتفى بضرب مثال واحد وهو نتيجة حتمية لكل الجاهليات في التاريخ<sup>(١)</sup>، وخلاصته أن برلمان ألمانيا الغربية بتاريخ (٩/٦/١٩٧٣ م) وافق بأغلبية ٢٥٤ صوتاً ضد ٢٠٣ على مشروع قانون الحكومة بإجراء تعديلات خطيرة في القوانين المتعلقة بالجنس وفي مقدمتها .

١- رفع الحظر عن تبادل الزوجات .

٢- إياحة ممارسة الشذوذ الجنسي بين الرجال بموافقة الطرفين من سن ٢١ سنة .

٣- السماح ببيع مطبوعات الجنس الفاضحة لأي مواطن جاوز ١٨ سنة<sup>(٢)</sup> .

وهذه مرحلة لن تقف عندها الحيوانية المادية؛ بل لا بد أن تطلب مزيداً من الانحلال، ثم تلمس له - بحجة الأمر الواقع - حماية التشريعات والحكومات ؛ وقد حدث هذا بالفعل في كثير من المجتمعات الغربية حتى أصبح إلثاً وعرفاً يستغني بشيوعه عن تشريعه، بل أصبح مذهباً في الحياة، ومنهجاً للتقييم تصنف على أساسه المجتمعات ويوصم بالجمود والرجعية من لم يعتقه فكراً وعملاً؛ بل أدهى من ذلك أن أساقفة الكنيسة الإنجليزية كانوا على رأس مؤيدي القوانين التي تبيح الشذوذ الجنسي بين الرجال (الغواط) ؛ مخالفين بذلك دينهم بل كل خلق إنساني شريف<sup>(٣)</sup> .

### (ب) الرهبانية السلبية:

وهي الوجه الآخر المضاد للنخط السابق، قادت الجاهليات فيه أفواجاً من البشر إلى العدم والسلبية، وصادمت الفطرة السليمة التي وقعت دائماً بين امتداد فاحش مدمر، أو تقلص متلف مهلك .

(١) انظر: ماذا عسر العاصم بانحطاط المسلمين ؟ للدوني، (٤٨) . في جاهلية الهند .

(٢) انظر: انهياج القرآني في التشريع (١٦٤) .

(٣) انظر: الرجوع السابق (١٦٥) .

## (والرهبانية):

كسابقتها جاءت نتيجة فهم قاصر للكيان الإنساني، ولطريقة التعامل معه، ومن أسباب نشأتها أن فريقاً من البشر نظروا إلى الحياة فوجدوها مليئة بالآلام والمتاعب، فأرجعوا ذلك إلى كثرة الانهماك في الملذات والشهوات، ورأوا أن خير وسيلة تستطيع الروح أن تنجو بها هي التخلص من مطالب الجسد المادية، وتخفيف ذلك، والتخلص من الرغبات والمنع بالمجاهدات العنيفة، والفرار من الحياة إلى الكهوف، والمغارات والمفاوز، واعتزال الناس قدر المستطاع، وإتباع الجسد، وإحكام الطوق حول النفس حتى لا تنال شهوة أو متعة تظيل شفاءها في هذه الأرض، وبذلك نشأت هذه الرهبانية المذلة المهلكة كرد فعل للشهوانية المتهالكة والرهبانية غير الزهادة، والنعنف المعتدل، والمجاهدة التي تقوم على بناء محكم لتصمد في وجه المغريات، وهي تشق طريقها في الحياة، كما هو الحال في المهاج الإلهي الحكيم في كل عصر، وإنما هي فلسفة حياة تقوم على الهرب من الحياة، وإطراح تكاليفها، وما كان له أفدح الآثار على أسم وأجيال ولا يزال، وأكد الرهبانيات جميعاً ما اتخذ سعة العقائد والأديان، وانعكست بذلك سلوك وأخلاق ما أنزل الله بها من سلطان وإذا أردت الاستزادة، فانظر إلى عقيدة الهندوس التي انبثقت منها الرهبانية الهندية التي دستورها مبني على عقائد شركية وعبادة منحرفة، وأخلاق بعيدة عن الصراط المستقيم وتركيتهم لأنفسهم بنيت على الزهادة المفرطة بالصوم، وأرق الليل، وتعذيب النفس، حتى يصير أسير الحرمان، ويحمل نفسه ألواناً من البلاء، ويبدو دائماً كثير الأحزان والهموم، والخوف والشاؤم<sup>(١)</sup>.

وعندهم في (شرائع منو) القرن الثالث قبل الميلاد: (إن طالب العلم يتجنب الحلوى، واللحوم والروائح الطيبة، والنساء، ولا يكتحل، ولا يلبس حذاء ولا يتظلل بالشمسية، وعلى ألا يهتم برزقه بل يحصله بالنسول).

(١) انظر: المرجع السابق (١٦٨).

ومن تعاليمهم أيضاً: (عندما ندخل في الشيخوخة عليك بالتخلي عن الحياة الأهلية، وبالإقامة في الغاية، وإذا أقمت فيها فليس لك أن تقص شعرك ولحيتك، وشواربك ولا أن تقلم أظفرك).

(عود نفسك على تقلبات الموسم فاجلس تحت الشمس المحرقة وعش أيام المنظر تحت السماء، وارزد الرداء المبلل في الشتاء).

(لا تفكر في الراحة البدنية، اجتنب سائر اللذات، ولا تقرب من زوجتك، نم على الأرض، ولا تأنس بالمكان الذي أنت فيه) (١).

وبذلك ظهرت الذلة والمسكنة، والمهانة، والتشاؤم وكثير من الأخلاقيات التي تليق بالإنسان بسبب هذا المعتقد الخبيث المنحرف عن هدى الفقه القويم. إن الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة: ١٤٣) ويقول أيضاً: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا ﴿ (النساء: ٢٧-٢٨).

والآيتان الكريمتان تقرير من رب العالمين بأن دينه العظيم هو المتجني من مذاهب الانهماك المادي، أو الانهماك البدني، وأنه الطريقة الوحيدة لإنقاذ البشرية من طواغيت المادية الشهوانية التي مالوا بالفطرة ميلاً جانحاً حتى طمسوها ومن طواغيت الرهبانية الذين أثقلوها بالأغلال والآصار وحجروا عليها واسعاً من فضل الله العظيم حتى فصموها (٢).

إن القرآن الكريم وسط في باب الأخلاق بين غلاة المثاليين الذين تخيلوا الإنسان ملائكاً أو شبه ملائك، فوضعوا له من القيم والأدب ما لا يمكن له، وبين غلاة الواقعيين، الذين حسبوه حيواناً أو كالحيوان، فأرادوا له من السلوك ما لا يليق فاعتبروها خيراً محضاً، وهؤلاء أساءوا بها انظن، فعدوها شراً خالصاً، وكانت نظرة القرآن وسطاً بين أولئك وهؤلاء.

(١) انظر: مقارنة الأديان (أديان الهند الكبرى)، لأحمد شلبي يتصرف (٦٠-٧٠).

(٢) انظر: الشهاج القرآني في التشريع (١٦٩).

فالإنسان كما صورته القرآن مخلوق مركب فيه العقل، وفيه الشهوة، فيه غريزة الحيوان، وروحانية الملائك، قد هدي للتجدين، وتهياً بفطرته لسلك السيلين، وإما شاكراً وإما كفوراً، فيه استعداد للفجور استعداداً للتقوى، ومهمته جهاد نفسه ورياضتها حتى تتركي: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ (نفس: ٧-١٠)

والقرآن وسط في نظره إلى حقيقة الإنسان بين النحل والمذاهب التي تقوم على اعتباره روحاً علوياً سجن في جسد أرضي، ولا يصفو هذا الروح ولا يسمو إلا بتعذيب الإنسان جسداً محضاً، وكياناً مادياً صرفاً لا يسكنه روح علوي، ولا يختص بأي نعمة سماوية .

أما الإنسان في القرآن فهو روح ومادة، لأن الله خلق الإنسان من تراب أو طين أو صلصال وكلها تشير إلى الأصل المادي لبدن الإنسان، ثم أودع الله في هذه الآية شيئاً آخر، هو سر تميز الإنسان، ومنيع كرامته .

قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ (الحجر: ٢٩) .

والقرآن وسط في النظرة إلى الحياة بين الذين أنكروا الآخرة واعتبروا هذه الحياة الدنيا هي كل شيء، هي البداية والنهاية، ﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ (الأنعام: ٢٩) .

وبهذا غرقوا في الشهوات وعبدوا أنفسهم للمعاديات، ولم يعرفوا غرضاً يسمون له غير المنافع الفردية الدنيوية الفانية، وهذا شأن الماديين في كل مكان وزمان، وبين الذين رفضوا هذه الحياة، وألغوا اعتبارها من وجودهم واعتبروها شراً يجب محاربتها والمتخلص منه، فحرموا على أنفسهم طبيعتها، وزيتها، وفرضوا عليها الابتعاد عن أهلها، والانقطاع عن عمارتها والإنتاج لها .

فالقرآن اعتبر الحياتين، وجمع بين الحسنيين، وجعل الدنيا مزرعة للآخرة، والعمل في عمارتها عبادة لله، وأداء لرسالة الإنسان، وينكر على غلاة

المتدينين تحريم الزينة والطيبات، كما ينكر على الآخرين انهماكهم في الترف والشهوات (١).

يقول الله في كتابه: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَمْتَحُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ (سجد: ١٧) ويقول تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَشَرِبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (٢١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴿ (الاعراف: ٣١-٣٢) .

ويذكر القرآن أن السعادة والحياة الطيبة في الدنيا من مشيئة الله لعباده المؤمنين فيقول:

﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ لَئِن لَّمْ تَؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ لَأُرْسِلَنَّ فِيكُمْ سَفِينًا مِّنَ النَّارِ يُسَافِرُ فِيهَا النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ أَمْشًا وَأَنتُمْ فِيهَا كَالْعِجَافِ ذُرِّيَّةً مَّقْتُلِينَ ﴾ (سجدة: ١٧) ويعلم المؤمنون هذا الدعاء الجامع لحسني الدارين: ﴿ وَنَا آتَيْنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (البقرة: ٢٠١) .



(١) انظر: الخصائص العامة في الإسلام (١٣٩) .

## المبحث الثاني

### القرآن الكريم والسنة النبوية مصدر الأخلاق الإسلامية

والأخلاق الإسلامية آداب ربانية: بمعنى أن الوحي الإلهي هو الذي وضع أصولها، وحدد أساسياتها، التي لا بد منها لبيان سمات الشخصية الإسلامية، حتى تظهر متكاملة متماسكة متميزة في مسخيرها ومظهرها، عالمة بوجهتها وطريقها، وإذا التبت على غيرها المسالك واختلطت الدروب.

ولا غرو أن وجدنا القرآن الكريم ذاته يعنى ويهتم بتوضيح السمات الأساسية لخلق المسلم، من الإحسان بالوالدين، وخاصة إذا بلغا الكبر أو أحدهما، والإحسان بذوي القربى، ورعاية اليتيم، وإكرام الجار ذي القربى، والجار الجنب، والصاحب بالجنب، وابن السبيل، والخدم، والعناية بالفقراء والمساكين، وتحريم الرقاب، والصدق في القول، والإخلاص في العمل، وغض الأبصار، وحفظ الفروج، والتواصي باحق، والتواصي بالصبر، والتواصي بالرحمة، والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأداء الأمانات إلى أهلها، واجتناب الموبقات من الشرك، والسحر، والقتل، والزنى، والسكر، والربا، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات المؤمنات، والتولي يوم الزحف، وغيرها من كبائر الإثم وفواحشه إلى غير ذلك من الأخلاق الإيجابية والسلبية الفردية والاجتماعية<sup>(١)</sup>.

حتى إننا نجد القرآن يعلم المسلمين أدب المشي إذا مشوا: ﴿وَأَقْبِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ (نفس: ١٩)، ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هُونَ﴾ (الفرقان: ٦٣)، ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (الاسراء: ٣٧) وأدب التراور إذا تزاوروا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٧) فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم﴾ (النور: ٢٧-٢٨).

(١) انظر: الخصائص العامة في الإسلام (٤٣)



وأدب الجلوس إذا تجالسوا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (المائدة: ٥١) .

فضلاً عما زخرت به السنة من آداب تتعلق بالاكل والشرب، واللباس والتجمل، والنوم واليقظة، والدخول والخروج، والسفر والعودة والتحية والاستئذان، حتى العطاس والتثاؤب وقضاء الحاجة أو قضاء الشهوة .

ثم إن المصدر الأساسي للإلزام الخلقي في الإسلام، ليس هو اللذة والمنفعة، ولا العقل ولا الضمير، ولا العرف ولا المجتمع ولا التصور ولا غير ذلك مما ذهبت إليه مدارس الفلسفة الخلقية، مثالية وواقعية، وإنما مصدر الإلزام، ومقياس الحكم الخلقي - في الأساس - هو الوحي الإلهي .

فالخير ما أمر الله به، والشر ما نهى الله عنه، وبعبارة أخرى: الحسن ما حثه الشرع، والفصح ما قبحه الشرع، وليس معنى هذا أن الشرع يأتي بتحصين ما قبحه العقل، أو تنسيح ما يحسنه، فلم يعرف ذلك في الاخلاق الإسلامية، ولا في الشريعة الإسلامية كلها فهي شريعة ملائمة للقطرة السليمة، وموافقة للعقل الرشيد .

ولا غرو أن أطلق القرآن على أصحاب الاخلاق الفاضلة وصف «أولي الألباب» كما عقب على بعض أوامره ونواهيه بمثل قوله: ﴿ذَلِكَ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُعْقِلُون﴾ (الأنعام: ١٥١) .

ولذلك تجدد أن الاخلاق في الإسلام، لا تعتمد على مجرد الأمر الصارم، والتكليف التعبدي، بل تعتمد على مخاطبة العقول، واستناره الضمائر، في أخلاق مفهومة معللة بالحكم، والمصالح المترتبة عليها في الدنيا والآخرة .

من مثل قوله تعالى في وصية لقمان لابنه:

﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ

عَزَمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿النمل: ١٧-١٩﴾ .

ومثل ذلك في الإسراء: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّكَ لَنْ تُخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (الإسراء: ٣٧) .



## المبحث الثالث

## من وسطية القرآن في الأخلاق الشمولية

إن الأخلاق في القرآن الكريم لم تدع جانباً من جوانب الحياة الإنسانية: روحية، أو جسمية، دينية، أو دنيوية، عقلية أو عاطفية، فردية أو اجتماعية، إلا رسمت له المنهج الأمثل، للسلوك الرفيع، يختلف عما رسمه الناس في مجال الأخلاق باسم الدين وباسم الفلسفة، وباسم العرف أو المجتمع، حيث إن القرآن الكريم والسنة النبوية رسمت منهجاً متكاملأً شاملاً واقعياً في مجال الأخلاق منسجماً، متناسقاً مع طبيعة الإنسان واليك التفصيل كما جاء في الكتاب المين .

## ١- الأخلاق التي تتعلق بالفرد في كافة نواحيه:

(أ) جسماً له ضروراته وحاجاته .

قال تعالى: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (الاعراف: ٣١) .

(ب) عقلاً له مواهبه وآفاته:

قال تعالى: ﴿ قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (يونس: ١٠١) .

(ج) ونفساً لها مشاعرها ودوافعها وأشواقها: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۙ ﴾ (٩) وَقَدْ خَابَ

مَنْ دَسَّاهَا ۙ ﴾ (التيسر: ٩-١٠) .

## ٢- ومن أخلاق القرآن ما يتعلق بالأسرة:

(أ) كالعلاقة بين الزوجين: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسْنُ أَنْ

تَكْرَهُوهَا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ۙ ﴾ (النساء: ١٩) .

(ب) وكالعلاقة بين الأبوين والأولاد:

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ﴾ (الاحقاف: ١٥) . ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً

إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ۙ ﴾ (الاسراء: ٣١) .

(ج) كالعلاقة بين الأقارب والأرحام: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ (نمل: ٩) ﴿وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ (الاسراء: ٢٦).

٣ - ومن أخلاق القرآن ما يتعلق بالمجتمع:

(أ) في آدابه ومعاملاته، مثل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النور: ٢٧).

(ب) وفي اقتصاده ومعاملاته: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَانُوا لَهُمْ أَوْ وَزَنُوا لَهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ (الطنين: ١-٢) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ (بقرة: ٢٨٢).

(ج) وفي سياسته وحكمه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (نساء: ٥٨).

٤ - ومن أخلاق القرآن ما يتعلق بالكون الكبير:

من حيث إنه مجال التأمل والاعتبار والنظر والتفكير والاستدلال بما فيه من إبداع وإتقان، على وجود مبدعه وقدرته، وعلى علمه وحكمته كما قال تعالى: ﴿إِنَّا فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٥) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾ (آل عمران: ١٩٥-١٩٦).

٥ - وقيل ذلك كله وفوق ذلك كله ما يتعلق بحق الخالق العظيم سبحانه وتعالى: الذي منه كل النعم وله كل الحمد:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَا لِكَ يَوْمَ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة: ٢-٦).

فهو وحده الحقيق بأن يحمد الحمد كله ، وأن ترجى رحمته الواسعة ، وأن يخشى عقابه العادل يوم الجزاء ، وهو وحده الذي يستحق أن يعبد ، ويستعان ، وأن تطلب منه الهداية إلى الصراط المستقيم<sup>(١)</sup> .

إن القرآن الكريم تنزيل من حكيم حميد عليم لذلك نظرته شاملة جامعة محيطه مستوعبة في كافة الأمور الأخلاقية وغيرها لأنه وحى من أحاط بكل شيء علماً ، واحصى كل شيء عدداً .



(١) انظر: الخصائص العامة للإسلام (١٢٠) .

## المبحث الرابع

### ومن وسطية القرآن في الأخلاق الواقعية

إن منهج القرآن في الأخلاق واقعي، يراعي الطاقة المتوسطة المقدورة جماهير الناس فاعترف بالضعف البشري، وبالذواغ البشرية، وبالاحتياجات الإنسانية؛ فنفية أو مادية لم يوجب القرآن الكريم ولا السنة النبوية على من يريد الدخول في الإسلام أن يتخلى عن ثروته وأمور معيشته، كما يحكي الإنجيل عن المسيح أنه قال لمن أراد اتباعه: **بع مالك واتبعني**، ولا قال القرآن ما قال الإنجيل: **(إن الغني لا يدخل ملكوت السموات حتى يدخل الجمل في سم الخياط)**.

١- بل داعى الإسلام حاجة الفرد والمجتمع إلى المال، فاعتبره قواماً للحياة، وأمر بتنميته والمحافظة عليه، وأمن القرآن بنعمة الغنى والمال في غير موضوع، وقال الله لرسوله: **﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾** (النمل: ٨).

٢- ولم يجز في القرآن ولا في السنة ما جاء في الإنجيل في قول المسيح: **(أحبوا أعداءكم من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر... ومن سرق قميصك فأعطه إزارك)**. فقد يجوز هذا في مرحلة محدودة، ولعلاج ظرف خاص، ولكنه لا يصلح توجيهاً عاماً خالداً، لكل الناس في كل عصر، وفي كل بيئة، وفي كل حال، فإن مطالبة الإنسان العادي بحجة عدوه، قد يكون شيئاً فوق ما يحتمله، ولهذا اكتفى الإسلام بمطالبته بالعدل مع عدوه: **﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾** (البقرة: ١٧٨).

كما إن إدارة الخد الأيسر لمن ضرب الخد الأيمن، أمر يشق على النفوس، بل يتعذر على الناس أن يفعلوه، وربما جرت الفجرة الأشرار على الصالحين الأخيار، وقد يتعين في بعض الأحوال ومع بعض الناس، أن يعاقبوا بمثل ما اعتدوا، ولا يعفى عنهم فيتبجحوا ويزدادوا بغياً وطغياناً.

ولهذا تحنت واقعية الإسلام حين شرع مقابلة السيئة بمثلها بلا حيف ولا عدوان،

فأقر بذلك مرتبة العدل، ودرء العدوان ولكنه حث على العفو والصبر والمغفرة للنسيء، على أن يكون مكرمة يرغب فيها، لا فريضة يلزم بها. <sup>(١)</sup>

هذا واضح في مثل قوله تعالى: ﴿ وَجَزَاءُ سِنَّةٍ مِّثْلَها مِثْلُها فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (النور: ٢٤).

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ (النحل: ١٢٦).

ومن وسطية القرآن في الأخلاق: أنها أقرت النفاوت الفطري والعسلي بين الناس، فليس كل الناس في درجة واحدة من حيث قوة الإيمان، والالتزام بما أمر الله به من أوامر، والانتهاز عما نهى عنه من نواهٍ والتقييد بالمثل العليا.

فهناك مرتبة الإسلام، ومرتبة الإيمان، ومرتبة الإحسان وهي أعلاهن، كما أشار إلى ذلك حديث جبريل المشهور، ولكل مرتبة أهلها. وهناك الظالم لنفسه، والمقتصد، والسابق بالخيرات، كما أرشد إلى ذلك القرآن الكريم.

فالظالم لنفسه هو: المقتصر، التارك لبعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات.

والمقتصد هو: المقتصر على فعل الواجبات، وإن ترك المندوبات وعلى ترك المحرمات، وإن فعل المكروهات.

والسابق هو: الذي يزيد على فعل الواجبات، أداء السنن والمستحبات، وعلى ترك المحرمات وترك الشبهات، والمكروهات؛ بل ربما ترك بعض الحلال خشية الوقوع فيما يحرم أو يكره، وإلى هؤلاء يشير قوله تعالى في سورة فاطر: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ (طه: ٣٢) فالآية الكريمة تجعل هؤلاء الاصناف الثلاثة - على تفاوت مراتبهم - من الأمة التي اصطفاها الله من عباده، وأورثها الكتاب.

ومن وسطية الاخلاق في القرآن لم تصور في أهل التقوى أن يكونوا سالمين من

(١) المرجع السابق (١٦٦).

كل عيب، بعيدين عن كل ذنب، كأنهم هم ملائكة أطهار؛ بل قدرت حقيقة الإنسان وطبيعته البشرية، المركبة من الروح والطين، فإذا كانت الروح تعلقو به مرة، فإن الطين يهبط به تارة، وفضل المتقين على غيرهم إنما في التوبة والرجوع إلى الله عند ارتكاب الذنوب .

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَتَمَّ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة عمران: ١٢٥).

ومن واقعية الأخلاق القرآنية التي تدل على وسطيته: أنها راعت الظروف الاستثنائية كالحرب، فأباحت من أجلها ما لا يباح في ظروف السلم كهدم المباني، وتحريق الأشجار ونحوها (١).

ومن وسطية القرآن في الجانب الأخلاقي جعل المولى عز وجل أمهات الأخلاق والفضائل واضحة في أذهان المسلمين، فأمهات الفضائل التي أمر الشارع بها، وحث عليها معروفة غير منكرة، وأمهات الرذائل التي حذر الشرع منها، ونهى عنها، معلومة غير مجهولة .

فلا يجهل مسلم أن الله يأمر بالعدل والإحسان بالوالدين، وبذي القربى واليتامى، والمساكين، وأجار ذي القربى، وأجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل . ولا يجهل مسلم أن الإسلام يبارك فضائل الصدق والأمانة، والوفاء، والصبر، والعفاف، والحياء، والسخاء، والشجاعة، والحلم، والإيثار، والتعاون على البر والتقوى .

ولا يجهل مسلم أن الله ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، ولا يحب الفساد، ولا يحب الخائنين، وأن آية المنافق إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان، وأن من الكبائر الموبقات: أكل الربوا، وأكل مال اليتيم .

ولا يجهل مسلم شناعة الجرائم التي فرض الله الحدود عقوبة عليها، مثل قتل

(١) المرجع السابق (١٦٨) .



النفس عمداً، والسعي في الأرض فساداً بقطع الطريق وترويع الأمنين، والسرقة والزنى، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، وشرب الخمر .

وقبل ذلك كله لا يجهل مسلم قيمة العنصر الأخلاقي في الحياة، ومنزلته في الإسلام، حتى إن العبادات الإسلامية تهدف إلى ثمرات أخلاقية، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والزكاة التي تؤخذ من الأغنياء تطهرهم وتزكيهم، والصوم تربية للإرادة، وتعليم للصبر، والحج تدريب على التحمل واليذل<sup>(١)</sup> .



(١) المرجع السابق (١٩٣) .

## المبحث الخامس

### علاقة الأخلاق بالعقيدة والعبادة

إن المنهج الرباني الحكيم، يعرض الأخلاق ممزوجة بالعقائد والعبادات والأعمال الطيبة جميعها في سلك واحد ينتظم منه عقد جميل، يوضح لنا صفات المؤمن النقي البار الطيب، ونجد ما ذكرته في آيات سور شتى، ومن الأمثلة في القرآن الكريم على ما قلت قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ وَعَهْدُهُمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٧).

وجمعت الآيات أمور العقيدة متمثلة في الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين، وأمور في العبادة متمثلة في إيتاء المال على حبه وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وبين الأخلاق التي تتجلى في الوفاء والصبر.

المثال الثاني: قوله تعالى: ﴿وَعِبَادَ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا \* وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا \* وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا \* إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا \* وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا \* وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا \* بُضَاعًا لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهَا مُهَانًا \* إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِ اللَّهُ سُبُحَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا \* وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا \* وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا \* وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا \* وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتًا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا \* أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ (الفرقان: ٦٣-٧٥).

وقد جمعت الآيات السابقة الأخلاق والعبادة والاعتقاد .

إن علاقة الأخلاق بالعقيدة واضحة في كتاب الله، وقد بين سبحانه وتعالى الأخلاقيات الإيمانية التي ينبغي أن يكون عليها المؤمنون بلا إله إلا الله والأخلاقيات الجاهلية التي ينبغي أن يبذرها المؤمنون . والحقيقة أن التنديد (بأخلاقيات) الجاهلية قد بدأ منذ اللحظة الأولى، مع التنديد بفساد تصوراتهم الاعتقادية، واستمر معه حتى النهاية .

إن الأخلاق ليست شيئاً ثانوياً في هذا الدين، وليست محصورة في نطاق معين من نطاقات السلوك البشري، إنما هي ركيزة من ركائزه، كما أنه شاملة للسلوك البشري كله كما أن المظاهر السلوكية كلها، ذات الصبغة الخلقية الواضحة، هي الترجمة العملية للاعتقاد والإيمان الصحيح، لأن الإيمان ليس مشاعر مكنونة في داخل النفس فحسب . . . .

إنما هو عمل سلوكي ظاهر كذلك، بحيث يحق لنا حين لا نرى ذلك السلوك العملي أو حين نرى عكسه، أن نتساءل أين الإيمان إذن ؟ وما قيمته إذا لم يتحول إلى سلوك ؟ (١)

فمن وسطية القرآن في باب الأخلاق ربط الأخلاق بالعقيدة قال تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِقُرُوبِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنْ ابْتغىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿ (البقرة: ١-١٠) .

فالسورة تبدأ بتقرير الفلاح للمؤمنين بهذا التوكيد : ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ثم تصف هؤلاء المؤمنين ذلك الوصف الطول المفصل الذي يعني بإبراز الجانب الخلقى

(١) نظراً : دراسات قرآنية ، محمد قطب ( ١٣ ) .

لأولئك المؤمنين، موحياً إحياء واضحاً أن هذه الأخلاقيات من جهة هي ثمرة الإيمان، وأن الإيمان - من جهة أخرى - هو سلوك ملموس يترجم عن العقيدة المكتونة .

إنهم يأتون في صلواتهم، فذلك أو مظهر للمؤمن الصادق: أن تكون صلواته - وهي اللحظة التي يقف فيها متعبداً لربه، ذاكرًا له في قلبه، متصلاً به بروحه - تكون صلواته هذه خاشعة بما ينبئ عن صدق الصلة بالله، التي يرتفع نبضها وحرارتها في أثناء الصلاة ثم تنفي الصورة بصفة سلوكية أخرى ذات دلالة، هي أنهم عن اللغو معرضون . فاللغو لا ينبئ عن نفس جادة . والإيمان الصحيح يورث النفس الجدد، بما يشعرها من ثقل التكليف وجدبته والجد ليس تقطياً دائماً ولا عبوساً، ولكن اللغو من جانب آخر لا يستقيم مع جدية الشعور بعظم الأمانة التي يحملها الإنسان أمام خالقه ثم إن هؤلاء المؤمنين لا بد أن تكون في قلوبهم الحساسية لحق الله في أموالهم، وهو الزكاة .

ولا بد أن يكونوا ملتزمين بأوامر الله في علاقات الجنس فلا يتعدون حدود الله وملتزمين بأوامره في علاقاتهم (الاجتماعية) فيحفظون الأمانة ويرعون العهد . وبهذا يتضح أن الأخلاق ثمرة طبيعية للعقيدة الصحيحة، وكذلك العبادة الحية الخاشعة لله من ثمار العقيدة الصحيحة .

واتضح لنا أيضاً: أن القرآن يرسم لنا صورة تفصيلية للشخصية المؤمنة، فنجد العبادة أول معلم واضح فيها؛ فانظر كيف جعل الله في أوصاف المؤمنين، وأول وصف لهم الخشوع في الصلاة وآخر أوصافهم المحافظة عليها، ووصفهم بفعل الزكاة وهي عبادة، مع الفضائل الخلقية الأخرى .

ومن وسطية القرآن الكريم إبراز جانب العبادة أحياناً، وجانب الأخلاق أحياناً أخرى لتناسبات واعتبارات توجب هذا الإبراز ففي سورة الذاريات نجد العناية بالعبادة في وصف المتقين: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿ وبالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ﴿ وفي أموالهم حقُّ للسائل والمحروم ﴾ (الذاريات: ١٦-١٩) .

وفي سورة الرعد نجد العناية بالجانب الأخلاقي في وصف أصحاب العقول: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩) الَّذِينَ يُوَفُونَ بَعْدَ اللَّهِ وَلَا يَتَّقُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَقَبَى الدَّارِ﴾ (الرعد: ١٩-٢٢).

ومع أن معظم الأوصاف هنا أخلاقية - لمناسبة أولي الألباب - مثل الوفاء والصلة والنصير والإنفاق . . . لكن الملحوظ فيها أنها ليست مجرد أخلاق (مدنية) وإنما هي أخلاق ربانية أخلاق فيها معنى العبادة والتقوى، فهم إنما يوفون (بعهد الله) وإنما يصلون ما أمر الله به أن يوصل، وهم إنما يفعلون ويتركون لأنهم ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ وهم إنما بصيرون ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ فهم في كل أخلاقهم وسلوكهم يرجون الله، ويرجون اليوم الآخر<sup>(١)</sup>.

وخلاصة ما نقوله هنا:

أن العبادة عند المؤمن نوع من الأخلاق ؛ لأنها من باب الوفاء لله، والشكر للنعمة، والاعتراف بالجميل، والتوقير لمن هو أهل التوقير والتعظيم، وكلها من مكارم الأخلاق عند الفضلاء من الناس .

من أجل ذلك نجد القرآن يعقب على أوصاف المؤمنين القانتين المطيعين لله بمثل هذه الآيات: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (بقرة: ١٧٧) ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (غبر: ١٥) .

والصدق فضيلة خلقية خالصة، وإنما استحقها - بل جعلت مقصورة عليهم - لأن أعلى مراتب الصدق، وأثبتها وأبقاها هو الصدق مع الله رب العالمين . وإذا كانت العبادة عند المؤمن لونها من الأخلاق المحمودة، فالأخلاق عنده لونها من العبادة المفروضة .

(١) انظر: عبادة في الإسلام - للشيخ القرطبي حفظه الله من (١٢٣).

فهي - كما ذكرنا - أخلاق ربانية، باعشها الإيمان بالله، وحادبها الرجاء في الآخرة وحرصها رضوان الله ومثوبته، فهو يصدق الحديث، ويؤدي الأمانة، وفي بالعهد، ويصبر في البأساء والضراء وحين البأس، ويغيب الملهف، ويعين الضعيف، ويرحم الصغير، ويوقر الكبير، ويرعى الفضيلة في سلوكه - كل ذلك ابتغاء وجه ربه، وطلباً لما عنده تعالى . وقد ذكرنا في ذلك آيات من القرآن، وإليك ما وصف الله به الأبرار من عباده من البذل والرحمة والإيثار، إذ قال: ﴿وَيُطْعَمُونَ عَلَىٰ حَبِّ مَسْكِينٍ وَيَتِيمًا وَأَسْبْرًا﴾ (الإنسان: ٨-١٠) ثم يكشف القرآن عن حقيقة بواعثهم، وطوايا نفوسهم، فيقول معبراً عن نياتهم: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا غَمًّوًا فَمَطْرِبِرًا﴾ (الإنسان: ١٦-١٧) .

ثم إن أخلاق المؤمن عبادة من ناحية أخرى، لأن مقاييسه في الفضيلة والرذيلة، ومرجعه فيما يأخذ وما يدع هو أمر الله ونهيه فالضمير وحده ليس بمعصوم، وكم من أفراد وجماعات رضيت ضمائرهم بقبائح الأعمال<sup>(١)</sup>

والعقل وحده ليس بمأمون، لأنه محدود بالبيئة والظروف، ومتأثر بالاهواء والنزاعات، وفي الاختلاف الشاسع للفلاسفة الأخلاقيين في مقياس الحكم الخلقى دليل واضح على ذلك . والعرف لا ثبات له ولا عموم، لأنه يتغير من جبل إلى جبل، وفي الجبل الواحد من بلد إلى بلد، وفي البلد الواحد من إقليم إلى إقليم؛ ولذلك التجأ المؤمن إلى المصدر المعصوم المأمون الذي لا يضل ولا ينسى، ولا يتأثر ولا يجور، وذلك هو حكم الله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (التوبة: ٥) .

إن الأخلاق في المفهوم القرآني شيء شامل يعم كل تصرفات الإنسان وكل أحاسيسه ومشاعره وتفكيره . . . حتى الهاجس الذي يهجم داخل الضمير فهي ليست محدودة بمساحة معينة ولا بعمل معين . . . ولا يوجد في الإسلام عمل واحد يمكن أن يخرج عن دائرة الأخلاق، فالصلاة - كما رأينا - لها أخلاق هي الخشوع، والكلام له أخلاق هي الإعراض عن اللغو، والجنس له أخلاق هي الالتزام

(١) بشر: الإيمان والحياة، نغرضادي، (٢٥٦) .

بحدود الله وحرماته، والتعامل مع الآخرين له أخلاق هي الوفاء بالامانة ورعاية العهد، والإنفاق له أخلاق هي التوسط بين التقتير والإسراف، والحياة الجماعية لها أخلاق هي أن يكون الأمر شورى بين الناس، والغضب له أخلاق هي العفو والصفح، ووقوع العدوان من الأعداء يستتبعه أخلاق هي الانتصار أي رد العدوان . . . وهكذا لا يوجد شيء واحد في حياة المسلم ليست له أخلاق تكيفه ولا شيء واحد ليست له دلالة أخلاقية مصاحبة .

هذا أمر . . . والأمر الآخر - وهو الأهم - أن الاخلاق في المفهوم القرآني هي لله وليست للبشر، ولا لأحد غير الله : فالصدق لله، والوفاء بالعهد لله، واتقاء المحرمات في علاقات الجنس لله، والعفو والصفح لله، والانتصار من الظلم لله، وإتقان العمل لله كلها عبادة لله، تقدم لله وحده خشية وتقوى، وتطوعاً إلى رضاه . إنها ليست صفة بشرية للكسب والخسارة، إنما هي صفة تعقد مع الله <sup>(١)</sup> .

قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلَا مَنِ بَطْنٍ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمْ وصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَمْ وصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَمْ وصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (الأنعام: ١٥١-١٥٢) .

ذلك هو المبدأ الأخلاقي الشامل الذي يلتزم به المؤمن اتباعاً لصراط الله المستقيم، فهو إذن جزء من العقيدة، مرتبط بها ارتباطاً أساسياً لا يتفصل عنها بحال .

إن الصراط المستقيم هو عين الوسطية إن الأعمال الخلقية تدخل في جميع

(١) نظراً لدراسات قرآنية . شحند نطب (١٣٩) .

الجوانب، ويرتقي بها الوحي الإلهي إلى ذروة متفردة حين يجعلها دينًا، وعبادة، ومحلاً لثواب الله تعالى؛ أو عقابه الأليم عند المخالفة .

وتأمل معي الآيات القادِمات حتى تكون الصورة واضحة في الأذهان قال تعالى :  
 ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ  
 يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩١﴾ وَأَوْقُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا  
 وَقَدْ جَمَعْتُمُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْوَنَ مِنْ  
 بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ  
 بِهِ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ (سج: ٩٠-٩٢) .

فهذه أربعة من أصول الخير يأمر الله تعالى عباده أن يتخلقوا بها، ويقرنها بأربع من (خلائق السوء) التي تدمر الأفراد والمجتمعات فينهي أشد النهي عنها، حتى قال ابن مسعود رضي عنه عن أول آية (هي أجمع آية في القرآن للخير والشر) .

إن الله عز وجل أورد هذه الألفاظ الجامعة على علم وحكمة، فيأمر بالعدل وهو ضد الجور، أو بمعنى الاعتدال والتوسط الجامع لمحاسن الصفات المتعارضة، أما الإحسان فهو مرتبة فوق العدل، إذ يراد به الفضل كأن يعرف عن حقه، أو يأخذ دون أجره، أو يؤثر على نفسه، أو يراد به الإتقان في سلوك الخير، واختيار الأحسن في الأخلاق، وكذلك (إيتاء ذي القربى) كلمة على غاية من الإيجاز والإعجاز فتشمل كل إيتاء كالبذل المالي، والتعهد بالسؤال، والمودة، واللقاء بالبشاشة، وغير ذلك من ضروب العطاء المادي، والمعنوي (والوفاء بالعهد)، خلق أساسي من أخلاق الفرد والجماعة لا تستقيم الحياة إلا به، وهو يدل على الإيمان، كما يدل نقضه على النفاق والفسوق. <sup>(١)</sup>

وأما الكلمات الموبقات هي: الفحشاء، والمنكر، والبغي، والنقض فلم تترك من أمر القبائح شيئاً بضرورها الفردية والاجتماعية، وما يتعلق بالنفس أو بالغير، ويتصل

(١) انظر: المنهج القرآني في التشریح (٤١٩) .



بالاعراض وما دونها، مما يحرص عليه الإنسان، ويتميز به عن سائر الحيوان بعدد من الأمور:

منها إسناد الأمر والنهي إلى ذاته العليا ترغيباً وترهيباً، ومنها التصريح بلفظ الأمر والنهي: (يا أمر، وينهى) أو بصيغتهما: ﴿وَأَوْفُوا﴾ و﴿وَلَا تَقْضُوا﴾ مع ما أردفه من ذكر الوعظ - وهو النصيحة - ليشرك النفوس إلى الاستجابة، تليقاً منه في الاستدعاء، ومنها تذكيرهم بعلمه المحيط: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ .

ومنها إبراز النكت بالعهد على أشع صورة، إذ يضرب له مثلاً محسوساً يتقرر به في النفوس على هيئة النفرة، المشبهة بامرأة خرقاء تكد في الغزل كدّاً حتى تبرمه وتحكمه، ثم تعود فتفضه نقضاً وتجعله ﴿أُنْكَائًا﴾ أي طاقات متفرقة، ومنها ختم الآيات بذكر القيامة وهو استخدام للعقيدة في موطنه، ليصل بالتأثير إلى أغوار النفس الإنسانية فتتهز للنصح الإلهي من أعماقها، وتكون في أرجى أحوالها امتثالاً واستجابة .

وهكذا ترتفع الأخلاق إلى أعلى المراتب في استمدادها - أمراً ونهيًا - من الله العلي الكبير، فتصبح على مستوى العبادة العليا، وتحشد لها في الآيات كل وسائل التأكيد والتأثير حتى ضرب الأمثال رحمة منه تعالى لعباده، وحرصاً على هدايته، واستنقاذهم من سوء الأخلاق، وسوء الأحوال وضماناً لاستقرارهم على وجه طيب في الحياة . . . . . ولذلك ختمت الآيات بهذه المعاني البيّنة من قوله تعالى:

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النحل: ٩١).

والمعنى:

لا تتخذوا أيمانكم وسيلة للغدر والفساد فتزلزل قواعد القيم في المجتمع، وتنزلق أقدامكم إلى الشك والخيرة في علاقاتكم تبعاً لذلك، بعد أن كانت ثابتة

بشوات القيم الأخلاقية، ويصيبكم سوء الدنيا والآخرة لأنكم عرضتم عن تعاليم ربكم. (١)

وعلى العكس من ذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٩٧) وهو بيان لسنة الله تعالى الماضية في ضمان سعادة الدنيا لمن آمن وعمل صالحًا وتخلق بأخلاق هذا المنهاج الإلهي العظيم، حيث تقوم اخيابة الطيبة على الثقة، والطمأنينة، وعدم النكر والغدر، ولاجر الآخرة أزكى وأطيب على أن هذه الأصول المجتمعة الجامعة جاءت بالتفصيل في القرآن الكريم مع التحديد فمثلاً:

#### (أ) أمر الله تعالى بالعدل في الأقوال:

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ (الأنعام: ١٥٢) . والعدل في الحقوق والاموال وكتابة الدين: ﴿وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبًا بِالْعَدْلِ﴾ . وإملاء: ﴿فَلْيَمْلِكْ وَلِيَّهُ بِالْعَدْلِ﴾ (البقرة: ٢٨٢) وشهادة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ (نساء: ١٢٥) وهذا عدل مع النفس والأولياء مهما تكن النتائج، وهو بذاته العدل الذي أمرنا به مع الخصوم والأعداء، وجعل من صميم الدين والعبادة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ (النساء: ٨) وغير ذلك .

#### (ب) والفحشاء:

جاء تفصيلها في أمور مثل، الزنى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ (الاسراء: ٣٢) والنكاح الباطل: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ (نساء: ٢٢) . والعري في الطواف: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ (الاعراف: ٢٨) .

(١) المرجع السابق: (٤٢٠)

## (ج) والوفاء بالعهود:

جاء تفصيله في عقد الإيمان والتوحيد: ﴿الَّذِينَ يوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ (الرعد: ٢٠) وفي عقد البيعة العامة أو الخاصة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ بَدَّ اللَّهُ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِثْقَاتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (التتبع: ١٠) والمراد ببيعة الإيمان، أو ببيعة الجهاد والحرب.

وفي معاهدات الهدنة، أو المصالحة، أو المودعة ونحوها قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوا شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِنِّي مُدَّتِّيهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (توبة: ٤) وختام الآية مؤذن بأن الوفاء بالعهد ولو مع المشركين هو من التقوى المستوجبة خب الله تعالى. فهذه كلها أعمال خلقية تدخل في جميع جوانب الحياة ويرتقي بها الوحي الإلهي إلى ذروة مستمرة حين يجعلها ديناً، وعبادة، ومحلاً لثواب الله تعالى، أو عقابه الاليم عند المخالفة.

وتأمل معي أخي الحبيب الآيات القادمة التي هي من أجمع الآيات لتوعمي الخلق المحمود والمذموم.

قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِنَّمَا يَتَّبِعُ عَبْدُكَ الْكِبْرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَلْفٌ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (٢٤) وأخفص لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً (٢٥) ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً (٢٥) وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً (٢٦) إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً (٢٧) وأما تعرض عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً (٢٨) ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً (٢٩) إن ربك يسطر الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيراً (٣٠) ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئنا كبيراً (٣١) ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشاً وساء سبيلاً (٣٢) ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً

فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مُتَّصِرًا (٣٣) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿ (الإسراء: ٢٣-٣٨) .

إن الله سبحانه وتعالى، قد جعل التوحيد، أي: إفراد الله بالعبادة على رأس هذا المنهج الخلقى الذي رسمته الآيات مدحاً وذنماً، لأن التوحيد له في الحقيقة جانب أخلاقي أصيل، إذ الاستجابة إلى ذلك ترجع إلى خلق العدل والإنصاف، والصدق مع النفس، كما أن الإعراض عن ذلك يرجع في الحقيقة إلى بؤرة سوء الأخلاق في المقام الأول، مثل الكبر عن قبول الحق، والاستكبار عن اتباع الرسل غروراً وأنفة، أو الولوع بالمراء واجادل بالباطل مغالبة وتطلعاً للظهور، أو تقليداً وجموداً على الإلف والعرف مع ضلاله وبهتانه، وكلها - وأمثالها - أخلاق سوء تهلك أصحابها، وتصدهم عن الحق بعد ما تبين، وعن سعادة الدارين مع استيقان أنفسهم بأن طريق الرسل هو السبيل إليها .

والآيات بعد ذلك تذكر أنماطاً خلقية متعددة الجوانب في شئون الأسرة مثل بر الوالدين، وما جاء فيه من وصايا غاية في السمو والإحسان والوفاء بالجميل، ومثل الأقارب والضعفاء، وفي شئون المال والإنفاق بالتهي عن التبذير، والأمر بالاعتدال بين الشح المطبق والبسط المستغرق، وقد نذر الله عن التبذير بإضافته إلى شر الخلق: ﴿ إِنَّ الْمُبْتَدِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾ (الإسراء: ٢٧) ونذر من الحرص والإمساك عن الإنفاق بتصويره على أبشع مثال: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ (الإسراء: ٢٩) .

وتأمر الآيات الكريمة بخلق جميل غاية في السمو وهو الحرص على الكلمة الطيبة، والعدة الجميلة إذا لم يجد الإنسان من المال ما يسع به الناس: ﴿ وَأَمَّا تَعْرِضُ عَنْهُمْ إِبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَّهُمْ قَوْلًا مَّسْئُورًا ﴾ (الإسراء: ٢٨) وهي وصية ذات

أثر بالغ في إحسان العلائق بين الناس، بل ربما فضلوها على العطاء المادي خاصة إذا اقترن بالمن والأذى ثم تتحدث الآيات عن سوء خلق البغي والاستطالة، وقساوة القلب، وجفاف الرحمة، وجمود العاطفة الكريمة، ويتمثل ذلك في مظهره الجنائي وهو القتل، وخاصة قتل الابنة الصغيرة .

نعم القتل جريمة جنائية تسلك في قانون العقوبات القصاصية، ولكنها هنا تعالج من زاويتها الأخلاقية التي تستهدف الوقاية، وتعمل على تغيير الإرادة، وتوجيهها وجهة صالحة بتحريم الفعل، وتجريمه، وإصلاح عقيدة صاحبة ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ وبهدم القيم الاجتماعية الجائزة التي صنعت هذا المنكر، وسوغته بلا تكبير وتنهى الآيات عن الزنى وهو بنفس المقياس جريمة خلقية أساسها البغي والاستطالة على الأعراض والحرمات، وإهدار العفاف والشرف، والاستهتار بكل كريم من القيم الإنسانية العليا، وقامر الآيات وتنهى عن أمور مردها إلى خلق الأمانة أو الخيانة، واجد أو العبث، والتواضع العزيز أو الكبر المغرور:

فمن الأمانة حفظ مال الشيم حتى يبلغ أشده، والوفاء بالعهد وتوفيه الكبل والميزان والحيانة أصددها .

ومن الجد اشتغال الإنسان بما يعنيه، وعدم تتبعه ما ليس له به شأن ولا علم: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (الإسراء: ٣٦) والعبث كل العبث اشتغال الإنسان بما نهى عنه .

ومن التواضع العزيز شعور الإنسان بحدوده، ومعرفة قدر نفسه فيضعها في مواضعها الصحيحة .

ومن الكبر والمغرور ذلك التناول المبني على الجهل والطيش والحماسة: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (الإسراء: ٣٧) .

ولأن هذه وصايا جسامعة لكل ما يصلح شأن الإنسان ختمها الله تعالى بقوله الحكيم: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ (الإسراء: ٣٩) فسامها حكمة، والحكمة كما علمنا من أبرز ملامح الوسطية، وختمها بالدعوة إلى

التوحيد والنهي عن الشرك كما بدأها لأن الإيمان بالله تعالى مفتاح كل خير وحافظه وحارسه، والكثير به مفتاح كل شر وباعثه ومحركه .<sup>(١)</sup>

ومن وسطية القرآن الكريم وحكمته: أنه يصدر هذه الآيات الأخلاقية بتقرير: (التوحيد والعبودية) لله تعالى، وهذا بدوره تأكيد أساسي على حقائق وأصول هذا المنهاج القرآني، التي تتبع جميعها هذا المدخل التأسيسي وبذلك ينقرر .

(١) أن الله تعالى هو وحده مصدر الشرائع جميعها، وهو شارع القيم والمعايير الأخلاقية، والتي تتسجم مع الفطرة، وتوافق العقل الراجح .

(ب) أن الأخلاق دين ملتزم به؛ بل هي أصل من أصول المنهاج الإلهي، وليست مجرد فضائل فردية، أو آداب اجتماعية، أو أذواق حضارية . . . إلخ .

(ج) أن الأخلاق قيم أساسية في حياة البشر ينبغي أن تحظى بالثبات والاستقرار، وبالتالي يمنع الطواغيت من التلاعب بها، أو تشكيلها حسب المصالح والاهواء والنظريات . . . إلخ .

٤- وقد احتوى القرآن الكريم على العديد من الآداب الفذة التي تعطي أسمى التوجيهات في باب الفضائل، والآداب الفردية والاجتماعية والتي لم تبلغ سطح ذراها أرقى المجتمعات في أمم الحضارة قديمها وحديثها، وحقاً إنها كما وصفها ربنا: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ (النور: ٤١٣٨) .

فهذا جزء من الأخلاق القرآنية أردت به التمثيل وليس الاستقصاء، وفي سنة رسول الله ﷺ وهدية مزيد من التفصيل والبيان، وإن هذا الخلق الإسلامي نمط فريد وعجيب، ليس له مفارب ولا نظير، لأنه من رب العالمين، وقد تفرّد بأمور وخصائص زاد من قونها واكتمانها وجودها مجتمعة على هذا الوجه المحكم ومنها:

(١) وجود المرجع الوافي للأخلاق في المنهاج الرباني متمثلاً في الكتاب والسنة، وقد حددا ما بحمد أو بدم .

(١) انظر: المنهاج القرآني في التشريع (٤٢٥) .

(ب) وجود ما يضبط السلوك ويبعث على العمل، وهو رجاء الله والدار الآخرة.  
 (ج) وجود القدوة العملية وهي من أسس التربية الخلقية، وقد تمثل ذلك بأدنى معانيه في رسول الله ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (الغالب: ٤) ولذلك جعله قدوة للمؤمنين وأسوتهم: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١) وجعل أصحابه أنفسهم قدوة للعالمين: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١١).

أساليب التأثير والاستجابة والالتزام التي تحول الخلق من دائرة النظريات إلى صميم الواقع التنفيذي، والعمل التطبيقي سواء كانت اعتقادية كمراقبة الله تعالى ورجاء الآخرة، أو عبادية كالتشعائر التي نعمل على تربية الضمائر، وصقل الإرادات، وتزكية النفس. ومن هذه الحوافز الإلزامية ما يأتي من خارج النفس متمثلاً في:

(١) التشريع: الذي وضع لحماية القيم الخفية كشرائع الحدود والقصاص التي تحمي الفرد والمجتمع من رذائل البغي على الغير: (بالقتل أو بالسرقه) وانتهاك الاعراض: (بالزنى، والقذف) أو البغي على النفس وإهدار العقل: (بالخمر، والمسكرات المختلفة).

(ب) سلطة المجتمع التي تقوم على أساس ما أوجبه الله تعالى من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتناصح بين المؤمنين، ومسئولية بعضهم عن بعض، وقد جعل الله تعالى هذه المسئولية قريبة الزكاة، والصلاة، وطاعة الله ورسوله:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٧١).

بل جعلها المقوم الأصلي للخيرية هذه الأمة: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

(ج) سلطة الدولة التي يوجب قيامها، ويقسمها على أسس أخلاقية وطيدة، ويلزمها أن تقوم على رعاية هذه الاخلاق وتبشها في سائر أفرادها ومؤسساتها، وتجعلها من مهام وجودها ومبرراته .

وبذلك يجتمع للخلق الإسلامي أطراف الكمال كلها، ويصبح - حين يفيق المسلمون - نظاماً واقعياً مثاليًا في توازن عجيب تلمس منه أثر الالتزام بالمتهج الرباني<sup>(١)</sup> .



(١) انظر: المتهج القرآني في التشريع (٤٣٣) .



## المبحث السادس

## علاقة الأخلاق بالقصص القرآني

إن القصص القرآني غني بالمواعظ والحكم والأصول العقيدية، والتوجيهات الأخلاقية، والأساليب التربوية، والاعتبار بالأمم والشعوب، والقصص القرآني ليس أمورا تاريخية لا تنفيذ إلا المؤرخين، وإنما هي أعلى، وأشرف وأفضل من ذلك فالقصص القرآني مليء بالتوحيد، والعلم ومكارم الاخلاق، والحجج العقلية، والتبصرة والتذكرة، والمحاورات العجيبة .

وأضرب لك مثلاً من قصة يوسف عليه السلام متأملاً في جانب الأخلاق التي عرضت في مشاهدتها الرائعة قال علماء الاخلاق والحكماء: (لا ينتظم أمر الامة إلا بمصلحين، ورجال أعمال قائمين، وفضلاء مرشدين هادين، لهم شروط معلومة، وأخلاق معهودة ؛ فإن كان القائم بالأعمال نبياً فله أربعون خصلة ذكروها، كلها آداب وفضائل بها يسوم أمته، وإن كان رئيساً فاضلاً، اكتفوا من الشروط الأربعين ببعضها، وسيدنا يوسف عليه السلام حاز من كمال المرسلين وجمال النبيين، ولقد جاء في سيرته هذه ما يتخذة عقلاء الأمم هدى لاختيار الكفاء في مهام الاعمال إذ قد حاز الملك والنبوة! ونحن لا قبل لنا بالنبوة لانقطاعها، وإنما نذكر ما يليق بمقام رئاسة المدينة الفاضلة، ولنذكر منها ثلاث عشرة خصلة هي أهم خصال رئيس المدينة الفاضلة لتكون ذكرى لمن يتفكر في القرآن، وتنبهاً للمتعلمين الساعين للفضائل) (١).

أهم ما شرطه الحكماء في رئيس المدينة الفاضلة:

- ١- العفة عن الشهوات، ليضبط نفسه وتتوافر قوته النفسية: ﴿كَذَلِكَ يَنْصَرِفُ عَنْهُ السُّوءُ وَالْفَحْشَاءُ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (يوسف: ٢٤).
- ٢- الحلم عند الغضب، ليضبط نفسه: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ (يوسف: ٢٧).

(١) تفسير التاسمي: (٩ / ٢١٠).

٣- وضع اللين في موضعه، والشدة في موضعها: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُرْفِي الكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ (يوسف: ٥٩-٦٠) والصدر للين والعجز للشدة .

٤- ثقته بنفسه بالاعتماد على ربه:

﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْم﴾ (يوسف: ٥٥) .

٥- قوة الذاكرة ليتمكنه تذكر ما غاب ومضى له سنون، ليضبط السياسات ويعرف للناس أعمالهم:

﴿وَجَاءَ إِخْوَةَ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ (يوسف: ٥٨) .

٦- جودة الصورة والقوة المخيلة حتى تأتي بالاشياء تامة الموضوع:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَأَبْتَهُمْ لِي

سَاجِدِينَ﴾ (يوسف: ٤) .

٧- استعداده للعلم، وحبه له، وتمكنه منه: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (يوسف: ٣٨)

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ (يوسف: ١٠١) .

٨- شفقته على الضعفاء ونواضعه مع جلال قدره وعلو منصبه، فخاطب الفتيين المسجونين بالنواضع فقال: ﴿يَا صَاحِبِي الْمَسْجُونِ﴾ (يوسف: ٣٩) وحادثهما في أمور دينهما وديناهما بقوله: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ (يوسف: ٣٧) والثاني بقوله: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (يوسف: ٣٧) وشهدا له بقولهما: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف: ٣٦) .

٩- العفو مع القدرة: ﴿قَالَ لَا تَحْزَبْ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (يوسف: ٩٢) .

١٠- إكرام العشيرة: ﴿وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (يوسف: ٩٢) .

١١- قوة البيان والفصاحة بتعبير رؤيا الملك، واقتداره على الأخذ بأفئدة الراعي والرعية والسوقة، ما كان هذا إلا بالفصاحة المبنية على الحكمة والعلم: ﴿قَلَمًا كَلِمَةً قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ (يوسف: ٥٤) .

١٢- حسن التدبير: ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سَبِيلِهِ﴾ (يوسف: ٤٧) تالله، ما أجمل القرآن، وما أبهج العلم .

إن هذا التأمل المطلوب يدلنا على مدى العلاقة بين الأخلاق والقصص القرآني، وتوضح للقارئ أن من أهداف القصص القرآني التذكير بالأخلاق الرفيعة التي تفيد الفرد، والأسرة، والجماعة، والدولة، والأمة .

كما أن من أهداف القصص القرآني التنفير من الأخلاق الذميمة التي تكون سبباً في هلاك الأمم والشعوب .

فهذه بعض الأخلاق الفاضلة التي استنبطت من سورة يوسف عليه السلام، جاءت لتربي الأمة، وتدلها على الاستقامة، وتضعها على الصراط المستقيم بحكمة واعتدال، وأرجو من الله تعالى أن أكون قد وفقت في بيان المنهج القرآني في باب الأخلاق الذي هو المنهج السوي لما يجب أن تكون عليه أخلاق المسلم ومعاملاته، بعيداً عن الغلو والجفاء مصيباً للمنهج الوسط في هذا الموضوع المهم .



## المبحث السابع

### خلق النبي ﷺ القدوة المثلى

إن الله سبحانه وتعالى أكرم نبينا محمداً ﷺ بأخلاق رفيعة، قال تعالى: ﴿وَأَنْتَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (الغفر: ٤) قال ابن عباس ومجاهد: (لعلى دين عظيم، لا دين أحب إلي ولا أَرْضَىٰ عندي منه، وهو دين الإسلام). (١)

وقال الحسن بن يوسف: (هو آداب القرآن). (٢)

ومعنى الآية واضح أي: ما كان يأمر به من أمر الله، وينهى عنه من نهي الله، والمعنى إنك لعلى الخلق الذي أترك الله به في القرآن. (٣)

وعن عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن» (٤).

وقد جمع الله تعالى لنبينا ﷺ مكارم الأخلاق في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩).

ولا ريب أن للمطاع من الناس ثلاثة أحوال:

أحدهما: أمرهم ونهيهم بما فيه مصلحتهم .

الثاني: أخذه منهم ما يبذلونه مما عليهم من الطاعة .

الثالث: أن الناس معه قسمان: موافق له موالٍ، ومعاد له معارضٍ، وعليه في

كل واحد من هذا واجب .

فواجبه في أمرهم ونهيهم: أن يأمر بالمعروف، وهو المعروف الذي به صلاحهم

وصلاح شأنهم، وينهاهم عن ضده .

(١) تهذيب مدارج السالكين: (٢ / ٦٥٣)، لمبد القمم صانع المعزي .

(٢) المرجع السابق (٢ / ٦٥٣) .

(٣) المرجع السابق (٢ / ٦٥٣) .

(٤) نظر: تفسير الطبري (١٤ / ١٨) .

وواجبه فيما يذنبونه له من الطاعة: أن يأخذ منهم ما سهل عليهم، وطوعت له به أنفسهم سماحة واختياراً ولا يحملهم على العنت والمشقة فيفسدهم .

وواجبه عند جهل الجاهلين عليه الإعراض عنهم، وعدم مقابلتهم بالمثل والانتقام منهم لنفسه، فقد قال الله تعالى لنبية ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩) .

قال مجاهد في معنى الآية: يعني خذ العفو من أخلاق الناس وأعمالهم من غير تخسيس، مثل قبول الأعذار، والعفو والمساهلة، وترك الاستقصاء في البحث، والتفتيش عن حقائق بواطنهم .<sup>(١)</sup>

قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ (الأعراف: ١٩٩) وهو كل معروف وأعرفه التوحيد، ثم حقوق العبودية وحقوق العبيد<sup>(٢)</sup>. ثم قال تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩) يعني إذا سفه عليك الجاهل فلا تقابله بالسفه، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (الفرقان: ٦٣) .

وهكذا كان خلقه ﷺ: قال أنس بن مالك: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً»<sup>(٣)</sup> .

وقال: «ما مسستُ ديباجاً ولا حريراً ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممتُ رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله ﷺ، ولقد خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين، فما قال لي قط: أف، ولا قال لشيء فعلته، ثم فعلته؟ ولا لشيء لم أفعله: إلا فعلت كذا»<sup>(٤)</sup> .

وأخبر رسول الله ﷺ: «أن البر هو حسن الخلق» عن النواس بن سمعان بن مالك قال: «سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم؟ فقال: البر حسن الخلق والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت إن يطلع عليه الناس»<sup>(٥)</sup> .

(١) تهذيب مدارج السالكين: (٢ / ٦٥٥) .

(٢) المرجع السابق: (٢ / ٦٥٥) .

(٣) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الكنية لنفسه، (٧ / ١٥٤) رقم (٦٦٠٣) .

(٤) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، (٤ / ٢٠١) رقم (٢٣٥٦١)، ومسلم رقم (٢٣٣٠) .

(٥) رواه الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في البر والإثم، (٤ / ٥١٥) رقم (٢٣٣٨٩) .

فقابل البر بالإثم، وأخبر أن البر حسن الخلق، والإثم حواز الصدور، وهذا يدل على أن حسن الخلق أئدين كله، وهو حقائق الإيمان، وشرائع الإسلام، ولهذا قابله بالإثم<sup>(١)</sup>.

وكان النبي ﷺ يربي أصحابه على حسن الخلق ويحثهم عليه ولذلك نجد كثيراً من الأحاديث في فضل حسن الخلق:

فعن أبي الدرداء رضي عنه عن النبي ﷺ: «ما من شيء أنقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق وإن الله تعالى ليغضض الفاحش البذيء»<sup>(٢)</sup>.

وعن أبي هريرة رضي عنه: «أن رسول الله ﷺ سئل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال: تقوى الله، وحسن الخلق، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال: الغم والفرج»<sup>(٣)</sup>.

وعن عائشة رضي عنها، عن النبي ﷺ: «إن من أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم»<sup>(٤)</sup>.

وعن عائشة رضي عنها عن النبي ﷺ: «إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم»<sup>(٥)</sup>.

وعن ابن عمر رضي عنهما، عنه ﷺ أنه قال: «أنا رعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محققاً، وبيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وبيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه»<sup>(٦)</sup>.

فجعل البيت العلوي جزاءً لأعلى المسقامات الثلاثة وهي حسن الخلق، والوسط

(١) تهذيب مدارج السالكين: (٢ / ٦٥٥).

(٢) رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق (٤ / ٣١٩ رقم ٢٠٠٢).

(٣) رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق (٤ / ٣١٩ رقم ٢٠٠٤).

(٤) رواه الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في استكمال الإيمان، (٥ / ١٠ رقم ٢٦١٦).

(٥) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب ما في حسن الخلق (٤ / ٢٥٢ رقم ٤٧٩٨).

(٦) رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في المراء (٤ / ٣١٥ رقم ١٩٩٣).

لأوسطها وهو ترك الكذب، والادنى لأدناها وهو ترك المماراة وإن كان معه حق، ولا ريب أن حسن الخلق مشتمل على هذا كله<sup>(١)</sup>.

وعن جابر بن عبد الله، عنه عليه السلام : «إن من أحبكم إليّ، وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون»، قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون<sup>(٢)</sup>.

الثرثار: هو كثير الكلام بغير فائدة دينية.

والمتشدد: المتكلم بملء فيه بغاصحاً وتعاضماً وتطاولاً، وإظهاراً لفضله على غيره، وأصله: من الفهق، وهو الامتلاء<sup>(٣)</sup>.



(١) تهذيب مدارج السالكين: (٢ / ٦٥٧).

(٢) رواه الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معاني الأخلاق (٤ / ٣٠٥ رقم ٢٠١٨).

(٣) تهذيب مدارج السالكين: (٢ / ٦٥٧).

## المبحث الثامن

### نظرة العلامة ابن القيم إلى حسن الخلق

إن ابن القيم رحمه الله تميز في كتابته عن غيره في باب الأخلاق والتركيب واشتهر بقوة حجته ودليله في عرضه للمسائل وله كلام نفيس جميل في حسن الخلق، فتكلم عن الأخلاق الأساسية التي استنبطها من القرآن الكريم والسنة النبوية، وجعلها أركاناً لازمة لحسن الخلق، وبين أن منشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأركان . فقال رحمه الله : «وحسن الخلق يقوم على أربعة أركان، لا ينصور قيام سافه إلا عليها: الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل .

فالصبر يحمله على الاحتمال وكظم الغيظ، وكف الأذى، والحلم والأناة والرفق، وعدم الطيش والعجلة .

والعفة تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من الفول والفعال، وتحمله على اخياء، وهو رأس كل خير، وتمنعه من الفحشاء، والبخل، والكذب، والغيبة، والنميمة .

والشجاعة تحمله على عزة النفس ، وإيثار معالي الأخلاق والشيم، وعلى البذل والندى، الذي هو شجاعة النفس وقوتها على إخراج المحبوب ومفارقته، وتحمله على كظم الغيظ والحلم، فإنه بقوة نفسه وشجاعته يمسك عنانها، ويكبحها بلجامها عن التزع والبطش، كما قال النبي ﷺ : «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»<sup>(١)</sup> .

وهو حقيقة الشجاعة وهي ملكة يقندر بها العبد على قهر خصمه .

والعدل يحمله على اعتدال أخلاقه، وتوسطه فيها طرفي الإفراط والتفريط، فيحمله على خلق الجود والسخاء الذي هو توسط بين الذل والقسحة، وعلى خلق

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب (٧ / ١٢٩ رقم ٦٦١٤) .



الشجاعة، الذي هو توسط بين الجبن والتهور ، وعلى خلق الحلم، الذي هو توسط بين الغضب والمهانة وسقوط النفس . ومنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة<sup>(١)</sup> .

ومن كلام ابن القيم يتضح لنا أن التوسط أحد أركان أربعه يقوم عليه حسن الخلق، وهي الصبر ، والعفة، والشجاعة، والتوسط، والتوسط عير عنه ابن القيم بلفظ العدل الذي يحمل الإنسان على اعتدال أخلافه، وتوسطه فيها بين طرفي الإفراط والتفريط ، وإنما كان للتوسط هذه المكافحة الجليلة، لأن كل خلق محمود مكتشف بخلقين ذميين، وهو وسط بينهما، وطرفاه خلقان ذميان، كاجود: الذي يكتفه خلقا البخل والتبذير . والتواضع: الذي يكتفه خلقا الذل والمهانة، والكبر والعلو فإن النفس متى انحرفت عن التوسط انحرفت إلى أحد الخلقين الذميين ولا بد ، فإذا انحرفت عن خلق التواضع انحرفت إما إلى كبر وعلو، وإما إلى ذل ومهانة وحقارة . وإذا انحرفت عن خلق الحياء، انحرفت إما إلى قحة وجرأة ، وإما إلى عجز وخور ومهانة ، بحيث يطمع في نفسه عدوه، ويفوته كثير من مصالحه، ويزعم أن العامل له على ذلك الحياء، وإنما هو المهانة والعجز وموت النفس .

وكذلك إذا انحرفت عن خلق الصبر المحمود، انحرفت إما إلى جزع وهلع وجشع وتسخط، وإما إلى غلظة كبد، وقسوة قلب، وتحجر طبع . وإذا انحرفت عن خلق الحلم انحرفت إما إلى الطيش والتصرف والحدة والخفة، وإما إلى الذل والمهانة والحقارة ففرق بين من حلمه حلم ذل ومهانة وحقارة وعجز، وبين من حلمه حلم اقتدار وعزة وشرف، كما قيل:

كل حلم أتى بغير اقتدار حجة لاجئ إليها اللئام

وإذا انحرفت عن خلق الأناة والرفق انحرفت إما إلى عجلة وطيش وعنف، وإما إلى تفريط وإضاعة، والرفق والأناة بينهما . وإذا انحرفت عن خلق الشجاعة

(١) تهذيب مدارج السالكين: (٢ / ٦٥٨) .

انحرفت إما إلى تهور وإقدام غير محمود، وإما إلى جبن وتأخر مذموم ، وإذا انحرفت عن خلق المنافسة في المراتب العالية والغبطة، انحرفت إما إلى حسد، وإما إلى مهانة، وعجز وذل ورضا بالدون .

وإذا انحرفت عن القناعة انحرفت إما إلى حرص وکلب وإما إلى خسة ومهانة وإضاعة، وإذا انحرفت عن خلق الرحمة انحرفت إما إلى فسوة، وإما إلى ضعف قلب وجبن نفس، كسمن لا يقدم على ذبح شاة، ولا إقامة حد، وتأديب ولد، ويزعم أن الرحمة تحمله على ذلك، وقد ذبح أرحم الخلق عليه السلام بيده في موضع واحد ثلاثاً وستين بدنة، وقطع الأيدي من الرجال والنساء، وضرب الأعناق، وأقام الحدود ورجم بالحجارة حتى مات المرجوم، وكان أرحم خلق الله على الإطلاق وأرأفهم .

وكذلك طلاقة الوجه والبشر المحمود، فإنه وسط بين التعيس والتقطيب وتصعير الحد، وطبي البشر عن البشر، وبين الاسترسال بذلك مع كل أحد، بحيث يذهب الهيبة، ويزيل الوقار، ويطمع في الجانب، كما أن الانحراف الأول يوقع الوحشة واليغضة، والنفرة في قلوب الخلق .

وصاحب الخلق الوسط : مهيب محبوب، عزيز جانيه ، حبيب لقاؤه<sup>(١)</sup> وفي صفة نبينا عليه السلام : «من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه عشرة أحبه»<sup>(٢)</sup> .



(١) المرجع السابق (٢ / ٢٦٦) .

(٢) رواه الترمذي، كتاب المناقب، باب في صفة النبي عليه السلام (٥ / ٥٥٩) رقم (٣٦٣٨) .

## المبحث التاسع

### أخلاق جميلة

#### ١- الصبر:

إن القرآن الكريم دفعنا وحثنا على الالتزام بمكارم الأخلاق، والحرص على التخلق بالخلق الحسن ومن أهم هذه الأخلاق الصبر .

إن الصبر خلق محمود، وهو فضيلة بين رذيلتين، فإذا انحرف الإنسان عن الصبر إما أن يقع في جزع وهلع وجشع وتسخط ، وإما أن يقع في غلظة كبد، وقسوة قلب، وتحجر طبع ، والصبر من أبرز الأخلاق القرآنية التي عني بها الكتاب العزيز في سورة المكية والمدنية .

يقول الغزالي<sup>(١)</sup> في كتاب الصبر والشكر من (ربيع المنجيات) من كتاباه (إحياء علوم الدين) (ذكر الله تعالى الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعاً)<sup>(٢)</sup> .

وينقل العلامة ابن القيم في (مدارج السالكين عن الإمام أحمد قوله: (الصبر في القرآن في نحو تسعين موضعاً)<sup>(٣)</sup> .

وترجع عناية القرآن البالغة بالصبر، إلى ماله من قيمة كبيرة دينية وخلقية، فليس هو من الفضائل الثانوية أو المكملة، بل هو ضرورة لازمة للإنسان ليرقى مادياً ومعنوياً ويسعد فردياً واجتماعياً، فلا يتنصر دين، ولا تنهض دنيا إلا بالصبر. فالصبر ضرورة دنيوية كما هو ضرورة دينية. فلا نجاح في الدنيا ولا فلاح في الآخرة إلا بالصبر في الدنيا، لا تتحقق الآمال، ولا تنجح المقاصد، ولا يؤتي عمل أكله إلا بالصبر، فمن صبر ظفر، ومن عدم الصبر فلم يظفر بشيء. لولا صبر الزارع على بذره ما حصده، ولولا صبر الغارس على غرسه ما جنى، ولولا صبر الطالب على درسه ما تخرج، ولولا صبر المقاتل في ساحة الوغى ما انتصر، وهكذا كل الناجحين

(١) هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الفوسلي أبو حامد المشهور بعجة الإسلام، له مائتي مصنف، ولد سنة ٤٥٠هـ، توفي ٥٠٥هـ، شذرات الذهب (٣ / ١٠)، وسير أعلام النبلاء (١٩ / ٣٢٢) .

(٢)، (٣) تهذيب مدارج السالكين: (٢ / ٥٥٧) .

في الدنيا حققوا آمالهم بالصبر، استمروا المر، واستعدّوا العذاب، واستهانوا بالصعاب، ومشوا على الشوك، وحفروا الصخور بالأظفار، وثم يبأوا بالأحجار تقف في طريقهم، والطعنات تغرس في ظهورهم، وبالشراك تنصب للإيقاع بهم، وبالكلاب تنبح من حولهم، بل مضوا في طريقهم غير واثين ولا متوقعين مفضي الأعين على القذى، ساحيين الذبول على الأذى، متذرعين بالعزيمة، مسلحين بالصبر، وما أصدق قول الشاعر:

وقل من جد في أمر يحاوله واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر<sup>(١)</sup>

والصبر واجب بإجماع الأمة، وهو نصف الإيمان، فإن الإيمان نصفان:

نصف صبر، ونصف شكر، وقد ذكر في القرآن الكريم على ستة عشر نوعاً:

الأول: الأمر به، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَجِبُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ (البقرة: ٤٥).

الثاني: النهي عن ضده، كقوله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا

تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ (الاحقاف: ٣٥).

الثالث: الثناء على أهله، كقوله تعالى: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ﴾ (آل عمران: ١٧).

وقوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ

الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة: ١٧٧).

الرابع: إيجابه سبحانه محبته لهم، كقوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (الاحزاب: ٤١).

الخامس: إيجاب معيته لهم، وهي معية خاصة، تتضمن حفظهم ونصرهم

وتأييدهم ليست معية عامة، وهي معية العلم، والإحاطة كقوله:

﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ

وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال: ٦٦). وقوله: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٤٩).

السادس: إخباره بأن الصبر خير لأصحابه، كقوله تعالى: ﴿وَلْتَنصِرْكُمْ لَهُوَ خَيْرٌ

لِلصَّابِرِينَ﴾ (النحل: ١٢٦).

(١) نظراً: الصبر في القرآن، للشيخ المرادي، حفظه الله، (١٥).

السابع: إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم، كقوله تعالى: ﴿وَتَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٩٦).

الثامن: إيجابه سبحانه الجزاء لهم بغير حساب، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْتِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (التبر: ١٠).

التاسع: إطلاق البشرى لأهل الصبر، كقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (التبر: ١٥٥).

العاشر: ضمان النصر والمدد لهم، كقوله تعالى: ﴿يَلْتَمِئْ لِي أَن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُعَدِّدْكُمْ رُكُومًا بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ (ال عمران: ١٢٥).

الحادي عشر: الإخبار منه تعالى بأن أهل الصبر هم أهل العزائم، كقوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِن عَظْمِ الْأُمُورِ﴾ (الشورى: ٤٣).

الثاني عشر: الإخبار أنه ما يلقى الأعمال الصالحة وجزاءها والحظوظ العظيمة إلا أهل الصبر، كقوله تعالى: ﴿وَيَلْكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ (التقصي: ٨٠). وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (نعلت: ٢٥).

الثالث عشر: الإخبار أنه إنما يتسقى بالآيات والعبير أهل الصبر، كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مَضْرُوقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ حَسِيرٍ شَكُورٍ﴾ (سبا: ١٩).

الرابع عشر: الإخبار بأن الفوز بالمحسوب، والنجاة من المكروه المرهوب، ودخول الجنة، إنما نالوه بالصبر، كقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٤﴾ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (ترعد: ٢٣-٢٤).

الخامس عشر: أنه يورث صاحبه درجة الإمامة. قال ابن القيم رحمه الله: سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يقول: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يُهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (الحجدة: ٢٤).

السادس عشر: اقتترانه بمقامات الإسلام، والإيمان، كما قرنه الله سبحانه باليقين والإيمان، وبالتقوى، والتوكل، وبالشكر، والعمل الصالح والرحمة .

ولهذا كان الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ولا إيمان لمن لا صبر له، كما أنه لا جسد لمن لا رأس له، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «خير عيش أدركناه بالصبر» ، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأنه: «من يتصبر بصبره الله»<sup>(١)</sup> .

وفي الحديث الصحيح: «عجبا لامر المؤمن: إن أمره كله له خيرا، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرا له»<sup>(٢)</sup> . وأمر عند ملاقاته العدو بالصبر، وأمر بالصبر عند المصيبة، وأخبر: «أنه يكون عند الصدمة الأولى»<sup>(٣)</sup> .

أرفع الصبر ما كان اختيارا «والصبر» في اللغة: الحبس والكف، ومنه قتل فلان صبرا: إذا أمسك وحبس، ومنه قوله تعالى: «وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ» (التكوير: ٢٨) أي احبس نفسك معهم<sup>(٤)</sup> .

فالصبر حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان، عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش، وهو ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، صبر عن معصية الله، وصبر على امتحان الله، فالأولان: صبر على ما يتعلق بالكسب، والثالث: صبر على ما لا كسب للعبد فيه<sup>(٥)</sup> .

وكان صبر يوسف عن مطاوعة امرأة العزيز على شأنها أكمل من صبره على إلقاء إخوته له في الجب، وبيعه وتفريقهم بينه وبين أبيه، فإن هذه أمور جرت عليه بغير اختيار لا كسب له فيها، ليس للعبد فيها غير الصبر، وأما صبره عن المعصية فصبر اختيار ورضا، ومحاربة للنفس<sup>(٦)</sup> .

(١) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، (٧ / ٢٣٤ رقم ٦٤٧) .

(٢) رواه مسلم (٢٩٩٩) .

(٣) صحيح البخاري، كتاب الجنازة، باب الصبر عند الصدمة الأولى (٢ / ١٠٥ رقم ١٤٠٢) .

(٤) تهذيب مدارج السالكين: (٢ / ٥٦١) .

(٥) تهذيب مدارج السالكين: (٢ / ٥٦١) .

(٦) تهذيب مدارج السالكين: (٢ / ٥٦٢) .

والصبر على أداء الطاعات أكمل من الصبر على اجتناب المحرمات، فإن معصية فعل الطاعة أحب إلى الشارع من مصلحة ترك المعصية، ومفسدة عدم الطاعة أبغض إليه وأكبر من مفسدة وجود المعصية. وأنصبر على طاعته سبحانه وتعالى، والصبر عن معصيته: أكمل من الصبر على أقداره .

لأن صبر الطاعة والابتعاد عن المعصية، صبر اختيار وإيثار ومحبة، وصبر نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، على ما نالهم في الله باختيارهم وفعلهم، ومقاومتهم قومهم: أكمل من صبر أيوب على ما ناله في الله من ابتلائه وامتحانه بما ليس سبباً عن فعله .

وكذلك صبر إسماعيل الذبيح، وصبر آية إبراهيم عليهما السلام على تنفيذ أمر الله أكمل من صبر يعقوب على فقد يوسف، وبهذا يتضح أن هذا الصبر أكمل من الصبر على ابتلائه، والصبر على طاعته وأنصبر عن معصيته أكمل من الصبر على قضاائه وقدره<sup>(١)</sup> .

## ٢- الحياء:

إن خلق الحياء فضيلة بين رذيلتين، فمن انحرف عن الحياء إما أن يقع في الجراءة والوقاحة، وإما أن يقع في العجز والخور والمهانة . وحقيقة الحياء، خلق يبعث على ترك القبائح، ويمنع من التفريط في حق صاحب الحق<sup>(٢)</sup> .

ويحدث الحياء للعبد من ربه، إذا أيقن بأن الله عالم به، رقيب عليه، لا تخفى عليه خائنة الأعين وما تخفي الصدور . وقد جاءت الأحاديث في فضل الحياء وحث المسلمين عليه قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ (البقر: ١٤)

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (البقر: ١٤)

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (غافر: ١٩) .

(١) تهذيب مدارج السالكين: (٢ / ٥٧٤) .

(٢) تهذيب مدارج السالكين: (٢ / ٦٢٦) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ : مر برجل وهو يعظ أخاه في الحياء، فقال: «دعه، فإن الحياء من الإيمان»<sup>(١)</sup>.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «الإيمان بضغ وسبعون شعبة - أو بضغ وستون شعبة - فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمساطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»<sup>(٢)</sup>.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: «كان رسول الله ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه»<sup>(٣)</sup>.

وفي الصحيح عنه ﷺ : «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت»<sup>(٤)</sup>.

وفي الترمذي مرفوعاً: «استحبوا من الله حق الحياء، قالوا: إنا نستحي يا رسول الله، قال: ليس ذلكم، ولكن من استحيى من الله حق الحياء، فليحفظ الرأس وما وعى، وليحفظ البطن وما حوى، وليذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك رينة الدنيا فممن فعل ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء»<sup>(٥)</sup>.

وقد بين ابن القيم رحمه الله: (أن قوة خلق الحياء وقلة الحياء على حسب حياة القلب من قوة وحياة أو موت وضعف، وكلما كان القلب أحي كان الحياء أتم)<sup>(٦)</sup>.

ومن علامات الشقوة: قلة الحياء، وجمود العين، وقسوة القلب، والرغبة في الدنيا، وطول الأمل.

### أنواع الحياء:

وقد قسم الحياء على عشرة أوجه: حياء جنائية، وحياء تقصير، وحياء إجلال،

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الحياء، (٧ / ١٣٠، رقم ٦٦١٨).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، (١ / ١٠، رقم ٩).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الحياء، (٧ / ١٣٠، رقم ٦٦١٩).

(٤) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب إذا لم تستح فاصنع ما شئت (٧ / ١٣١، رقم ٦٦٢٠).

(٥) رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة، باب (٢٤ : ٤ / ٥٥٠، رقم ٢٤٥٨).

(٦) تهذيب مدارج السالكين: (٢ / ٦٢٠).



وحياة كرم، وحياة حشمة، وحياة استصغار للنفس واحتقار لها، وحياة محبة، وحياة عبودية، وحياة شرف وعزة، وحياة المستحي من نفسه .

فأما حياة الجنابة فمعه حياة آدم عليه السلام لما فر هارباً في الجنة، قال الله تعالى: أفراراً مني يا آدم؟ قال: لا يا رب بل حياة منك .

وحياة التقصير: كحياة الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، فإذا كان يوم القيامة قالوا: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك .

وحياة الإجلال: هو حياة المعرفة، على حسب معرفة العبد بربه يكون حياؤه منه .

وحياة الكرم: كحياة النبي ﷺ من القوم الذين دعاهم إلى وليمة زينب بنته، وأطالوا الجلوس عنده، فقام واستحي أن يقول لهم: انصرفوا .

وحياة الخشمة: كحياة علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يسأل رسول الله ﷺ عن المذي لمكان ابنته منه .

وحياة الاستحقار، واستصغار النفس: كحياة العبد من ربه عز وجل حين يسأله حوائجه، واحتقاراً لشأن نفسه، واستصغاراً لها .

وقد يكون لهذا النوع سببان:

أحدهما: استحقار السائل نفسه، واستعظام ذنوبه وخطاياها .

الثاني: استعظام مسئوله .

وأما حياة المحبة: فهو حياة المحب من محبوبه، حتى إنه إذا خطر على قلبه في غيبته حاج الحياء من قلبه، وأحسَّ به في وجهه، ولا يدري ما سببه، وكذلك يعرض للمحبة عند ملاقاته محبوبه، ومفاجأته له روعة شديدة .

وأما حياة العبودية: فهو حياة ممتزج من محبة وخوف، ومشاهدة عدم صلاح عبوديته لمعبوده، وأن قدره أعلى وأجل منها، فعبوديته له توجب استحياؤه منه لا محالة .

وأما حياء الشرف والعزة: فحياء النفس العظيمة الكبيرة إذا صدر منها ما هو دون قدرها من بذل أو عطاء وإحسان، فإنه يستحي مع بذله .

حياء شرف نفس وعزة، وهذا له بيان:

أحدهما: هذا، والثاني: استحياؤه من الآخذ، حتى كأنه هو الآخذ السائل، حتى إن بعض أهل الكرم لا تطاوعه نفسه بمواجهته لمن يعطيه حياء منه، وهذا يدخل في حياء اللوم، لأنه يستحي من خجلة الآخذ .

وأما حياء المرء من نفسه: فهو حياء النفوس الشريفة العزيزة الرفيعة من رضاها لنفسها بالنقص، وقناعتها بالدون، فيجد نفسه مستحيًا من نفسه، حتى كأن له نفسين، يستحي بإحدهما من الأخرى، وهذا هو أكمل ما يكون من الحياء، فإن العبد إذا استحي من نفسه، فهو بأن يستحي من غيره أجدر<sup>(١)</sup> .

إن الصبر والحياء من ثمرات الإيمان الصحيح وتحقق التوحيد لله رب العالمين .

### ٣- التواضع:

إن التواضع فضيلة بين رذيلتين، فإذا انحرف العبد عن التواضع إما أن يقع في الكبر والعلو، وإما أن يقع في ذل ومهانة وحقارة، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ (الفرقان: ٦٣) أي سكونة ووقارًا متواضعين، غير أشرين، ولا مرحين ولا متكبرين، قال الحسن: علماء حلماء<sup>(٢)</sup> .

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ١٩٤) لما كان الذل منهم ذل رحمة وعطف وشفقة وإخبات عداه بأداة (على) تضمينًا لمعاني هذه الأفعال، فإنه لم يرد به ذل الهوان الذي صاحبه ذليل، وإنما هو ذل اللين والانقياد الذي صاحبه ذلول .

وقوله تعالى: ﴿أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ هو من عزة القوة والمنعة والغلبة، قال عطاء

(١) تهذيب مدارج السالكين: (٢ / ٦٢٣) .

(٢) الترمذ السائلين: (٢ / ٦٧٧) .

ﷺ : للمؤمنين كالوالد لولده، وعلى الكافرين كالتبعية على فريسته، كما قال في الآية الأخرى : ﴿أَسْبَدَاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (الفتح: ٢٩) .

وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا، حَتَّى لَا يَفْخِرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»<sup>(١)</sup> .

وفي البخاري عن النبي ﷺ : «أَنَّ النَّارَ قَالَتْ: مَا لِي لَا يَدْخُلْنِي إِلَّا الْجَبَّارُونَ، وَالْمُتَكَبِّرُونَ؟ وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: مَا لِي لَا يَدْخُلْنِي إِلَّا الضَّعَفَاءُ النَّاسُ وَسَقَطَهُمْ»<sup>(٢)</sup> .

من نواضع النبي ﷺ :

كان النبي ﷺ يمر على الصبيان فيسلم عليهم، وكانت الأمة تأخذ بيده ﷺ، فتنتلق به حيث شاءت، وكان النبي ﷺ إذا أكل لعق أصابعه الثلاث، وكان يكون في بيته في خدمة أهله، ولم يكن ينتقم لنفسه قط، وكان ﷺ يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويحلب الشاة لأهله ويعلف البعير، ويأكل مع الخادم، ويجالس المساكين، ويمشي مع الأرملة واليتيم في حاجتهما، ويبدأ من لقيه بالسلام، ويحجب دعوة من دعاه، ولو إلى أيسر شيء .

وكان ﷺ هين المؤمنة، لين الخلق، كريم الطبع، جميل المعاشرة، طلق الوجه، سائماً، متواضعاً من غير ذلّة، جواداً من غير سرف، رقيق القلب، رحيماً بكل مسلم، خافض الجناح للمؤمنين، لين الجانب لهم<sup>(٣)</sup> .

وقال ﷺ : «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرَمُ عَلَى النَّارِ؟ أَوْ نَحْرَمُ عَلَيْهِ النَّارَ، نَحْرَمُ عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَيْنَ لَيْنٍ سَهْلٍ»<sup>(٤)</sup> .

(١) أخرجه ابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب البراءة من التكبر ( ٤ / ١٣٩٩ رقم ٤١٧٩ ) .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، باب : وتقول هل من مزيد ( ٦ / ٥٦ رقم ٤٨٥٠ ) .

(٣) تهذيب مدارج السالكين : ( ٢ / ٦٨٠ ) .

(٤) رواه الترمذي ، كتاب صفة القيامة والرقائق ، باب ٤٥ - ٤٠ / ٥٦٤ رقم ٢٤٨٨ .

وقال عليه السلام : «لو دعيت إلى ذراع - أو كراع - لأجبت، ولو أهدني إلى ذراعاً - أو كراعاً - لقبلت»<sup>(١)</sup> .

وكان عليه السلام يعود المريض، ويشهد الجنائز، ويركب الحمار، ويحبيب دعوة العبد، وكان يوم قريظة على حمار مخطوم بحبل ليف<sup>(٢)</sup> .

### من مواقف السلف في التواضع:

قال عروة بن الزبير<sup>(٣)</sup> رضي عنه : رأيت عمر بن الخطاب رضي عنه على عاتقه قربة ماء فقلت: يا أمير المؤمنين؛ لا ينبغي لك هذا، فقال: لما أتاني الوفود سامعين مطيعين، دخلت نفسي نخوة، فأردت أن أكسرهما<sup>(٤)</sup> .

وولي أبو هريرة رضي عنه إمارة مرة، فكان يحمل حزمة الخطب على ظهره، ويقول: (طرقوا للامير)<sup>(٥)</sup> أي: وسعوا له .

ومر الحسن البصري على صبيان معهم كسر خبز، فاستضافوه، فنزل فأكل معهم، ثم حملهم إلى منزله، فأطعمهم وكساهم، وقال: اليد لهم لأنهم لا يجدون شيئاً غير ما أطعموني، ونحن نجد أكثر منه<sup>(٦)</sup> .

ويذكر أن أبا ذر<sup>(٧)</sup> رضي عنه عير بلالاً<sup>(٨)</sup> رضي عنه بسواده، ثم ندم، فألقى بنفسه، فحلف لا رفعت رأسي حتى يطأ بلال خدي<sup>(٩)</sup> .

(١) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب من أجاب إلى كراع (٦ / ١٧٥ رقم ٥١٧٧) .

(٢) تهذيب مدارج السالكين: (٢ / ٦٨٠) .

(٣) هو أبو عبد الله عروة بن الزبير بن العوام بن عويلة لأسدي القوسي، وهو أحد الفقهاء السبعة في المدينة، ولد سنة ٢٢هـ، وتوفي عام ٩٣هـ .

(٤) تهذيب مدارج السالكين: (٢ / ٦٨١) .

(٥) تهذيب مدارج السالكين: (٢ / ٦٨١) .

(٦) تهذيب مدارج السالكين: (٢ / ٦٨١) .

(٧) هو جندب بن جنادة الغضائري أحد السابقين الأولين، من نجباء أصحاب محمد صلى الله عليه وآله، كان خامس خمسة في الإسلام، كان رأساً في الزهد، والصدق، والعلم، والعمل، قوالاً للحل، توفي ٣٢هـ، سير أعلام النبلاء (٢ / ٤٦) .

(٨) هو موسى أبي بكر الصديق، وهو مؤذن رسول الله صلى الله عليه وآله، من السابقين الأولين الذين عبدوا لله، شهد بدرًا، وشهد له النبي صلى الله عليه وآله على التعيين بالجنة، وحدثه في الكتب، توفي سنة ٢١هـ . انظر: سير أعلام النبلاء: (١ / ٣٤٧) .

(٩) تهذيب مدارج السالكين: (٢ / ٦٨١) .

وقال رجاء بن حيوة<sup>(١)</sup>: (قومت ثياب عمر بن العزيز رضي الله عنه وهو يخطب بأثني عشر درهماً، وكانت قباء وعمامة وقميصاً وسراويل ورداء وخفين وقلنسوة)<sup>(٢)</sup>.

روح التواضع الانقياد للمحق: إن روح التواضع هي أن يتقاد العبد لصولة الحق، ويخضع له، ولا ينعمالي عليه، وفسر النبي صلى الله عليه وسلم الكبر بضده فقال: «الكبر بظر الحق وغمط الناس»<sup>(٣)</sup>.

فبظر الحق: رده وجحده . وغمط الناس: احتقارهم وازدراؤهم ، ومضى احتقرهم، وازدراؤهم: دفع حقوقهم، وجحدها واستهان بها .

وركن التواضع الأهم: التواضع للدين، وهو أن لا يعارض بمعقول منقولاً، ولا يتهم للدين دليلاً، ولا يرى إلى الخلاف سبيلاً<sup>(٤)</sup>.

ولا يصح للعبد خلق التواضع حتى يقبل الحق من يحب ومن يبغض، فيقبله من عدوه كما يقبله من وليه، وكذلك قبول العذر من آساء، فإن خلق التواضع يجعل العبد يقبل المَعذرة، حقاً كانت أو باطلاً، ويكل سريرته إلى الله، كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنافقين الذين تخلفوا عنه في الغزوة، فلما قدم جاءوا يعتذرون إليه، فقبل أَعذارهم، ووكل سرائرهم إلى الله تعالى<sup>(٥)</sup>.

وتمام التواضع: أن لا يرى العابد لنفسه حقاً على الله لأجل عمله، فإنه في عبودية وفقر محض، وذل وانكسار، فمضى رأى لنفسه على الله حقاً: فسدت عبوديته، وصارت معلولة وخيف منها المقت، فالرب سبحانه لا لأحد عليه حق، ولا يضيع لديه سعي، كما قال الشاعر:

ما للعباد عليه حق واجب      كلا، ولا سعي لديه ضائع

(١) هو أبو المقدم الكندي، الشامي، الشيعي الفقيه الوزير العادل كان شريفاً نبيلاً ألقبه أهل الشام في حصره ، من حسنة اختيار عمر بن العزيز للولاية بعد سليمان وإفناع سليمان بذلك، توفي ١١٢ هـ . انظر: سير أعلام النبلاء، (٥٥٧٤)

(٢) تهذيب مدارج السالكين: (٢ / ٦٨١) .

(٣) رواه الترمذي، كتاب البر والصلوة، باب ما جاء في الكبر (٤ / ٢١٨ رقم ١٦٩٩) .

(٤) تهذيب مدارج السالكين: (٢ / ٦٨٣) . (٥) انظر: المرجع السابق (٢ / ٦٨٧) .

إن عذبوا فعدله، أو نعموا فبفضله، وهو الكريم الواسع<sup>(١)</sup>

إن التأمل في القرآن الكريم يجد ما من خلق حسن في ميزان الفضائل النفسية، أو الآداب الاجتماعية، أو السلوك الفردي إلا وقد حض عليه، وحشد له كل قوى النفس والعقيدة، وعبأ حوله كل طاقات العبادة والأسوة، وبعث له كل حوافز التنفيذ، وحاطه بالبيان والتفصيل والتشريع، وجعله مسئولية عامة للفرد والأمة والدولة والحكومة<sup>(٢)</sup>.

وفي هذا البحث ضربت ثلاثة أمثلة للأخلاق التي حث القرآن عليها من باب الاختصار، وإلا فإن الأخلاق التي حث عليها القرآن لا يكفيها مجلد ضخم في شرحها وتفصيلها.



(١) انظر: المرجع السابق (٢ / ٦٨٧).

(٢) انظر: المنهج القرآني في التشريع (٤١٦).

## المبحث العاشر

### من الأخلاق الذميمة

يرى بعض العلماء أن الأخلاق الذميمة، بناؤها على أربعة أركان: الجهل، والظلم، والشهوة، والغضب، ومن هذه الأخلاق نشأ جميع الأخلاق السيئة، ويوضح ابن القيم رحمه الله ذلك فيقول:

(ومنشأ جميع الأخلاق الساقطة، وبنائها على أربعة أركان: الجهل، والظلم، والشهوة، والغضب).

فالجهل يريه الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن، والكمال نقصاً، والنقص كمالاً.

والظلم يحمله على وضع الشيء في غير موضعه، فيغضب في موضع الرضا، ويرضى في موضع الغضب، ويجعل في موضع الأناة، ويخجل في موضع البذل، ويبذل في موضع البخل، ويحجم في موضع الإقدام، ويقدم في موضع الإحجام، ويلين في موضع الشدة، ويشدد في موضع اللين، ويتواضع في موضع العزة، ويتكبر في موضع التواضع.

والشهوة تحمله على الحرص والشح والبخل، وعدم العفة والنهمة والجشع، والبخل والدناءات كلها.

والغضب يحمله على الكبر والحقد، والحسد، والعدوان، والسفه.

ويتركب من بين كل خلقين من هذه الأخلاق:

أخلاق مذمومة، وملاك هذه الأربعة أصولان: إفراط النفس في الضعف، وإفراطها في القوة، فينولد من إفراطها في الضعف: المهانة والبخل، والخسة واللؤم، وكذلك والحرص، والشح وسفاسف الأمور، والأخلاق، وينولد من إفراطها في القوة: الظلم والغضب والجدة والفحش، والطيش.

فالأخلاق الذميمة: يولد بعضها بعضاً، كما أن الأخلاق الحميدة يولد بعضها بعضاً<sup>(١)</sup>. وهذا كلام نقيس، وفهم بليغ، يدل على فهم صاحبه لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

من الأخلاق السيئة التي نهى القرآن عنها:

### ١- الظلم:

إن المسلم الذي رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً ورسولاً لا يرضى لنفسه أن يكون ظالماً، ولا يقبل الظلم من أحد.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿١٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْتَدَتْهُمْ أَسْوَابُهُمْ يَوْمَئِذٍ وَأَنذَرَتْهُمْ وَأُنذِرُ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوْ لَمْ نَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِن قَبْلِ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿١٤﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿١٥﴾﴾ (إبراهيم: ١٢-١٥).

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ (الشورى: ٤٢).

وقال تعالى: ﴿وَسِعَلِمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (الشورى: ٢٢٧).

وجاءت الأحاديث النبوية في الترهيب من الظلم بأنواعه الثلاثة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة الوالد، ودعوة المظلوم، ودعوة المسافر<sup>(٢)</sup>.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من كانت عنده مظلومة لأخيه في مال أو عرض فليأتها فليتحللها منها، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم من قبل أن يؤخذ من حسناته فإن لم تكن له حسنات أخذت من سيئات صاحبه فطرحت عليه»<sup>(٣)</sup>.

(١) تهذيب مدارج السالكين: (٢ / ٦٥٩).

(٢) رواه الترمذي كتاب البر والصلوة، باب دعوة الوالد، (٤ / ٢٧٧ رقم ٦٩٠٥).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، كتاب الفصاح يوم القيامة، (٧ / ٢٥١ رقم ٦٥٢٤).



وعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله ليملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته، ثم تلا: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ (مريم: ١٠٢)» (١).

وذكر العلماء أن أنواع الظلم ثلاثة هي:

١- ظلم العبد لربه، وذلك يكون بالكفر به تعالى، قال سبحانه: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (البقرة: ٢٥٤).

ويكون بالشرك في عبادته تعالى بأن يصرف بعض عباداته إلى غيره، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (البقرة: ١٧٣).

٢- ظلم العبد لغيره من عباد الله ومخلوقاته، وذلك بأذيتهم في أعراضهم أو أبدانهم أو أموالهم بغير حق.

قال ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام، دمه وماله وعرضه».

٣- ظلم العبد نفسه، وذلك بتدسينها وتلوينها بآثار أنواع الذنوب والجرائم والسيئات من معاصي الله ورسوله، قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (البقرة: ٥٧).

فمرتكب الكبيرة من الإثم والفواحش هو ظالم لنفسه إذ عرضها لما يؤثر فيها من الخبث والظلمة فتصبح به أهلاً لعنة الله، والبعد منه.

ومن وسطية القرآن ترهيب الناس من ارتكاب الظلم بأنواعه، وبيان عاقبة الظلمة ومصيرهم الحتمي في الدنيا والآخرة، بضرب أمثلة للشعوب، والأمم والأفراد الذين اتغمسوا في مستنقع الظلم الآسن، وكيف كان مآلهم ومرجعهم، وحث القرآن الكريم عباده المؤمنين على ترك الظلم بأنواعه، والابتعاد عنه والرجوع والتوبة والإنابة إلى الله تعالى، بل حذر القرآن الكريم عباده المتقين من الدخول على الظلمة ومخالطتهم والركون إليهم.

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: وكذلك أخذ ربك (٥ / ٢٥٥).

قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا تَمْسُكُمُ النَّارُ﴾ (مرد: ١١٣) فيصيكم  
 لفحها: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ (مرد: ١١٣) أي ما لكم من مانع يمنعكم من  
 عذاب الله: ﴿ثُمَّ لَا تَنْصَرُونَ﴾ (مرد: ١١٣) لا تمنعون من عذابه .

## ٢- ذم خلق الكبرياء:

ومن وسطية القرآن ذم الاخلاق السيئة، وحث الناس على تركها وتخوينهم من  
 فعلها ، ومن أمثلة الاخلاق التي حذر القرآن من فعلها الكبرياء وجعلها رذيلة من  
 الرذائل الاجتماعية لكونها تخرس الفسقة والعداوة بين الأفراد فتقضي على التعاون  
 والمنحة بينهم .

والكبرياء لا تصرفنا عن محبة بعضنا البعض فقط، بل وتجعل إصلاح بعضنا  
 لبعض أمراً عسيراً، وذلك بتعامي التكبر عن نفاثته وعيوبه، وتقدير نفسه فوق  
 قدرها، وضم أذنيه عن سماع كل حديث فيه نقداً بناء لشخصه، ويترجح لكل حديث  
 فيه مدح وتعلق من مادحيه، لأن من أعجبه نفسه أبي أن يسمع النصيحة من غيره  
 فيكون ذلك حائلاً بينه وبين الاستفادة من علم العلماء واقتباس الفضيلة من الفضلاء  
 فينزئ إلى هوة من الجهل والضلال .

لهذا كان من سنة الله أن صرف قلوب المتكبرين عن سماع ما أنزله على رسله  
 من البينات والهدى؛ لأن هؤلاء المتكبرين كتب الله عليهم الضلالة التي تؤدي بهم  
 إلى غضبه وذلك من جراء كبرياتهم ، قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ  
 يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا  
 يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ (الاعراف: ١٤٦) .

والقرآن يخبرنا أن المستكبرين كانوا أعصى الناس على الاستجابة لدعوة الرسل .  
 لهذا حكى الله عن قوم نبيه صالح عليه السلام ، قال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ  
 اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا  
 بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ \* قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ (الاعراف: ٧٥-٧٦) .

وهؤلاء قوم عاد استكبروا عن سماع هداية الله فكان جزاؤهم العذاب الأليم في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٦﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِيَقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ (نمت: ١٥-١٦).

لهذا نوه الله المتكبرين بالعذاب الأليم في الآخرة، فقال سبحانه: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ (الزمر: ٦٠) أي ليست النار كافية لهم سجنًا وموتلاً بسبب تكبرهم!! .

ولتساءل بماذا يفخر المتكبر؟ هل بملاحته وقوته؟ إن الجمال يزول، وأقل مرضه يضعفه، وكل يوم يفعل الزمان فعله بجسده إلى أن يصبح بعد سن الشباب موضع الضعف والهرم، وإن تباهى بماله وغناه فليعلم أن الموت لا يفرق بين الغني والفقير، وإن الإنسان سبى كل ما يملك إلى غيره، لهذا جاءت وصايا القرآن تنهى عن الاختيال .

قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّكَ لِن تَخْرُقَ الْأَرْضَ وَلِن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (الزمر: ٣٧) أي لا تمشي مستخترًا كمشي الجبارين فإنك لن تخرق الأرض بمشيك وشدة وطئك، ومهما شمخت بأنفك فلن تبلغ الجبال ارتفاعًا .

ويقول تعالى في النهي عن التكبر: ﴿وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ (النمل: ١٨) .

أي لا تعرض عنهم بوجهك إذا كلمتهم أو كلموك احتقارًا لهم واستكبارًا والأحاديث في ذم خلق الكبر كثيرة، فعن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بأهل الجنة كل ضعيف متضاعف، لو أقسم على الله لأبره ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر»<sup>(١)</sup> .

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب تكبر، (٧ / ١١٨ رقم ٦٠٧١) .

وأشد الكبر الذي فيه من يتكبر على العباد بعلمه ، ويتعاضم في نفسه بفضيلته ، فإن هذا لم ينفعه علمه ، ومن طلب العلم للفتخر والرياسة وبطر المسلمين فهذا من أكبر الكبر ، ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر<sup>(١)</sup> .

٣- ذم خلق العجب والغرور :

ومن وسطية القرآن في باب الاخلاق ذم خلق العجب والغرور والنهي عنهما ، ولذلك تُجد المسلم الصادق المخلص يحذر على نفسه وإخوانه من العجب والغرور ، ويجتهد أن لا يكونا وصفًا له في حالة من الحالات إذ هما من أكبر العوائق عن الكمال ، ومن أعظم المهالك ، في الخيال والمآل ، فكم من نعمة انقلبت بهما نقمة ، وكم من عز صبراه ذلًا ، وكم من قوة أحالها ضعفًا ، فكفى بهما داءً عضالًا ، وكفى بهما على صاحبهما وبالًا ، فلذا حذرهما المسلم وخافهما ، ولهذا جاء القرآن الكريم بتحريمهما ، بالتحذير والتنفير منهما . قال الله تعالى : ﴿وَعَرَّكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَرَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ (الحديد: ١٤) .

وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (الانفطار: ٦) .

وقال تعالى : ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَثَرَتُمْ قَلْمَ تَغْنُ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ (البقرة: ٢٥) .

والأمثلة في ذلك كثيرة منها :

١- أعجب إبليس لعنه الله بحاله ، واغتر بنفسه وأصله فقال خلقتني من نار وخلقته من طين؟ فطرده الله من رحمته ، ومن أنس حضرة قدسه .

٢- أعجبت عاد بقوتها واغترت بسلطانها وقالوا من أشد منا قوة فأذاقهم الله عذاب الخزي في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

٣- أعجب أصحاب رسول الله ﷺ في حنين بكثرتهم وقالوا: لن تغلب اليوم من قلة: فأصيبوا بهزيمة مريرة حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ثم ولوا مدبرين<sup>(٢)</sup> .

(٢) منهاج المسلم لأبي بكر الجزائري (٦٤٤) .

(١) انظر: كتاب الكبار (٨٧) .

## ومظاهر الغرور والعجب كثيرة ومتنوعة منها:

- ١- العلم: قد يعجب المرء بعلمه، ويغتر بكثرة معارفه فيحمله ذلك على عدم الاستزادة، وعلى ترك الاستفادة، أو يحمله على احتقار غيره من أهل العلم، واستصغار سواه وكفى بها هلاكاً له .
  - ٢- في المال: قد يعجب المرء بوفرة ماله، ويغتر بكثرة عرضه فيبذر ويسرف، ويتعالي على الخلق، ويغبط أحق فيهلك .
  - ٣- في القوة: قد يعجب المرء بقوته ويغتر بعزة سلطانه فيعتدي ويظلم، ويقامر ويخاطر، فيكون في ذلك هلاكه ووباله .
  - ٤- في الشرف: قد يعجب المرء بشرفه ويغتر بنسبه وأصله فيبعد عن اكتساب المعالي، ويضعف عن طلب الكمالات فيطغى به عمله، ولم يسرع به نسبه، فيحقر، ويصغر، ويذل، ويهون .
  - ٥- في العبادة: قد يعجب المرء بعمله، ويغتر بكثرة طاعته، فيحمله ذلك على الإدلال على ربه، والامتنان على منعمه، فيحبط عمله، ويهلك بعجبه، ويشقى باغتراره، وعلاج هذا الداء في ذكر الله تعالى وعلم العبد بأن ما أعطاه الله اليوم من علم، أو مال، أو قوة أو عزة، أو شرف قد يسلبه غداً لو شاء ذلك، وأن طاعة العبد للرب مهما كثرت لا تساوي بعض ما أنعم الله على عبده، وأن الله تعالى لا يدل عليه شيء، إذ هو مصدر كل فضل، وواهب كل خير<sup>(١)</sup> .
- قال تعالى: ﴿وَأَسْبَغْ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (النحل: ٢٠) .
- وبهذا نكتفي بضرب الأمثلة في الأخلاق السيئة، وبيان أن الله نهي عنها في كتابه وأمر الناس بالابتعاد عنها، وما بينته باختصار موجز على سبيل المثال لا على سبيل الحصر .

(١) منهاج المسلم (٢٤٥) .

إن وسطية القرآن في باب الأخلاق تتضح في ذمه وتحقيره وتنفيره من الأخلاق السيئة وسلط على هذه الأخلاق السيئة قوى النفس والاعتقاد وأطلق عليها أيضاً قوى الأمة والسلطة لمطاردة الأخلاق السيئة ومنعها بالحكمة والموعظة الحسنة وبقوة السلطان الذي خوله الله صلاحيات في ذلك للقضاء على كل خلق ذميم، من خيانة، وغدر، واستبداد، وظلم وكذب، وشهادة زور، وإسراف، وفحش، وكبر وغرور، وفخر، ورياء، وبطر، وهمز ولمز وبخل... إلخ<sup>(١)</sup>.

إن المرء ليعجب من وسطية القرآن في باب الأخلاق كيف ضم القرآن كل هذه الأخلاق من حسنها وقبحها، وكيف رغب في حسنها ورهب في قبحها على وجه من التفصيل وكأن غرضه الوحيد هو هذا الباب من كثرة ما أبرزها، وصرف فيها القول، وضرب فيها الأمثال.



(١) نظراً: الشهب القرآني في التشريع (١١٧).

## الفصل الثالث

### وسطية القرآن في التشريع

#### المبحث الأول

#### معنى الشرع في اللغة والاصطلاح

##### أ- في اللغة:

الشرع مصدر شرع بالتخفيف، والتشريع مصدر شرع بالتشديد، والشرعية في أصل الاستعمال اللغوي: مورد الماء الذي يقصد للشرب<sup>(١)</sup> ثم استعملها العرب في الطريقة المستقيمة، وذلك باعتبار أن مورد الماء سبيل الحياة والسلامة للأبدان، وكذلك الشأن من الطريقة المستقيمة، التي تهدي الناس إلى الخير، فبها حياة نفوسهم، وزي عقولهم، قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعهَا﴾ (حاج: ١٨) ويقال: (شرعت الإبل) إذا وردت شريعة الماء (وشرع له الأمر) بمعنى سنه وبين طريقته، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا﴾ (نور: ١٣) وقال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ﴾ (نور: ٢١).

قال صاحب القاموس: الشريعة ما شرعه الله لعباده<sup>(٢)</sup>.

وقال بعضهم: سميت الشريعة شريعة: تشبيهاً بشريعة الماء من حيث إن من شرع فيها عنى الحقيقة المصدوقة روي وتظهر.

##### ب- في الاصطلاح:

ما شرعه الله لعباده من العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات ونظم الحياة في شعبها المختلفة، لتحقيق سعادتهم في الدنيا والآخرة<sup>(٣)</sup>.

(١) نظراً: القاموس المحيط، باب العين، فصل العين (٩١٦).

(٢) المرجع السابق (٩٢٦).

(٣) التشريع والتفقه الإسلامي، منع القطان، (٦٥).

فشريعة الله هي المنهج الحق المستقيم ، الذي يصون الإنسانية من الزيغ والانحراف، ويجنبها مزالق الشر، ونوازع الهوى، وهي المورد العذب الذي يشفي غلتها، ويحيي نفوسها، وترتوي به عقولها، ولهذا كانت الغاية من تشريع الله استقامة الإنسان على الجادة لينال عز الدنيا وسعادة الآخرة .

والشريعة بهذا المعنى خاصة بما ورد عن الله تعالى ، وبلغه رسله لعباده، والله هو الشارع الأول، وأحكامه هي التي نسمى شرعاً، فلا يجوز إطلاق هذا على القوانين الوضعية، لأنها من صنع البشر، وقد جرى عرف كثير من الكتاب على تسمية القوانين الوضعية بالتشريع الوضعي، وتسمية الوحي الإلهي بالتشريع السماوي، والحق أن الشرع أو الشريعة لا يجوز إطلاقها إلا على الطريقة الإلهية دون سواها من طرائق الناس وأنظمتهم<sup>(١)</sup> .



(١) المرجع السابق (١٦) .



## المبحث الثاني

## وسطية القرآن في التشريع والتكليف

سبق أن ذكرت أن من ملامح الوسطية اليسر ورفع الحرج، هذا أمر قرره القرآن في أكثر من موضع، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: ٧٨) قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥) وقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ تَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦).

وسأجعل الحديث عن تقرير القرآن لمنهج الوسطية في التشريع والتكليف في فقرات متتالية ليسهل فهم القضية واستيعابها.

١- امتن الله على هذه الأمة في الكتاب العزيز بأن وضع عنها الإصر والأغلال التي كانت على من قبلها، ولم يحملها ما حمل من قبلها، فكان ذلك مظهرًا من مظاهر وسطية هذا الدين<sup>(١)</sup>. يقول تعالى في وصف نبيه محمد ﷺ في كلامه عز وجل مع قوم موسى عليه السلام: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (الأعراف: ١٥٧) كما أن من جملة دعاء رسول الله ﷺ والمؤمنين: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ (البقرة: ٢٨٦) وقد جاء في الحديث: «قال الله قد فعلت»، وفي رواية: «قال: نعم»<sup>(٢)</sup>.

والإصر: هو العهد الثقيل الذي في تحمله أشد المشقة، والأغلال: هي الشدائد التي كانت في عبادتهم. روى الطبري عن الربيع في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ (البقرة: ٢٨٦) يقول: التشديد الذي شدته على من قبلنا من أهل الكتاب.

وقال مالك: الإصر: الأمر الغليظ<sup>(٣)</sup>.

وقال سعيد: الإصر: شدة العمل<sup>(٤)</sup>.

(١) الوسطية في ضوء القرآن (١٥٥).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب إن الله لا يكلف إلا ما يطاق (١ / ١١٦ رقم ١١٦).

(٣) (٤) انظر: تفسير الطبري (٥ / ٨٥).

وقال مجاهد: من اتبع محمداً ودينه من أهل الكتاب، وضع عنهم ما كان عليهم من التشديد في دينهم<sup>(١)</sup>.

وفي آيتي البقرة والأعراف إشارة إلى أنه عليه السلام، قد جاء بالتيسير والسماحة والوسطية، ودلت آية الأعراف على أن شريعتنا أسهل الشرائع، وأنه وضع عن أمنا كل إصر وثقل كان في الأمم الماضية<sup>(٢)</sup>.

وليان وسطية القرآن في التكليف في ضوء ما شرعه الله في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ، أذكر نماذج من الأحكام التي جاءت في التوراة التي بين أيديهم، يتبين منها الأغلال والأصار التي كانت عليهم.

جاء في سفر الخروج: (من شتم أباه وأمه يقتل قتلاً، إذا نطح ثور رجلاً أو امرأة وكان الثور نطاحاً من قبل، وقد أشهد على صاحبه ولم يضبطة فقتل رجلاً أو امرأة فالثور يرحم وصاحبه يقتل)<sup>(٣)</sup>.

(ولا تأخذوا فدية عن نفس المقاتل المذنب للموت بل إنه يقتل)<sup>(٤)</sup>.

وفي سفر اللاويين: (كل من مس حائضاً يكون نجساً إلى المساء، وكل ما تضطجع عليه في طمثها يكون نجساً، وكل ما تجلس عليه يكون نجساً، وكل من مس فراشها يغسل ثيابه، ويستحم بماء ويكون نجساً إلى المساء)<sup>(٥)</sup>.

وفي سفر التثنية: (لا تحرث على ثور وحمار معاً، ولا تلبس ثوباً مختلطاً صوفاً وكتاناً معاً)<sup>(٦)</sup>.

وأصدق من ذلك وأبين وأدق قول الحسب - تبارك وتعالى - في الكتاب العزيز: ﴿فِيظَلَمَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدْقِهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

(١٣) انظر: المرجع السابق (٩ / ٨٥).

(٢) انظر: تفسير انقاسمي (٧ / ٢٨٥٢).

(٣) دفع الخرج في الشريعة (١٥٨ - ١٥٩).

(٤) دفع الخرج في الشريعة (١٥٨ - ١٥٩).

(٥) دفع الخرج في الشريعة (١٥٨ - ١٥٩).

(٦) دفع الخرج في الشريعة (١٥٨ - ١٥٩).

كثيراً (النساء: ١٦٠) . وقوله سبحانه في بيان أنواع من المحرمات عليهم بسبب بغيتهم: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شَحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ (الأنعام: ١٤٦) .

وكل ذلك ساقه الله في كتابه لبيان ما امتن به على هذه الأمة من التخفيف، والتيسير والتسهيل، ونعت نبيه ﷺ بأنه: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ (الأعراف: ١٥٧) .

وقد ذكر علماؤنا رحمهم الله شيئاً من الآثار والأغلال التي كانت على من قبلنا، منها: قطع موضع النجاسة من الثوب أو منة ومن البدن، وإحراق الغنائم، ونحر السبب، وقطع الأعضاء الخاطئة، وتعين القصاص في العمد واخطأ من غير شرع الدية، وأمروا بقتل أنفسهم علامة على التوبة، وطلب منهم أداء ربيع المال في الزكاة، وعدم جواز الصلاة إلا في البيعة، وحرمة الجماع في أيام الصوم بعد العتمة والنوم، وحرمة الطعام بعد النوم، وعدم التطهير بالتيمم، وكتابة ذنب الليل بالصبح على الباب<sup>(١)</sup> .

ومما سبق يتضح دلالة آيتي البقرة والأعراف على تفسير منهج الوسطية في التشريع والتكليف .

٢- وردت آيات كثيرة تبين أن الله لا يكلف نفساً فوق طاقتها، ولا يكلف نفساً إلا وسعها وقدرتها، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦) وقال تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (النور: ٦٢) .

وعنى الرغم من قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦) ظاهر الدلالة على عدم التكليف إلا في حدود القدرة والميسرة، إلا أن الله سبحانه وتعالى

(١) انظر: المرجع السابق، ص (١٦٠) .

قد أعقب هذه الجملة بدعاء على لسان عباده المؤمنين، يبين فيه ما امتن به عليهم من عدم المؤاخذه بالخطأ والسيان، وحط الأصار والأغلال، وعدم التكليف بما لا يطاق، وقد انتظم ذلك في ثلاثة أمور .

الأول: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَأْخِذْنَا بِإِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ (البقرة: ٢٨٦) .

الثاني: قوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ (البقرة: ٢٨٦)

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ (البقرة: ٢٨٦) .

قال البقاعي<sup>(١)</sup> تعليقا على هذه الآية: (وقد عرف الله عباده المؤمنين مواقع نعمه من دعاء ربه على الأخف على سبيل التعلي، إعلاما بأنه لم يؤاخذهم بما اجترحوه نسيانا، ولا بما قارفوه خطأ، ولا حمل عليهم ثقلا؛ بل جعل شريعتهم خفيفة سمحة، ولا حملهم فوق طاقتهم، مع أنه له جميع ذلك، وأنه عفا عنهم في سترهم فلم يخجلهم بذكر سيئاتهم)<sup>(٢)</sup> .

قال الدكتور صالح بن حميد معلقا على آيات عدم التكليف بما لا يطاق: ولا شك أن الأحكام الشرعية إذا كانت مطلوبة في حدود الوسع والاستطاعة دون بلوغ غاية الطاقة، ففي ذلك الدلالة الظاهرة على أن الخرج مرفوع، وأن الشريعة مبنية على التيسير، وعدم التعسير، فهي حنفية سهلة سمحة (وسطية)، (فلله الحمد والمنة)<sup>(٣)</sup> .

وقال الإمام الطبري: يعني بذلك جل ثناؤه: ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾

فيتعبدها إلا بما يسعها، فلا يضيق عليها، ولا يجهدها<sup>(٤)</sup> .

ففي كلام الطبري رحمه الله الدلالة على أن هناك تكليفا وأمرآ بالتعبد، ولكنه في حدود الوسع والطاقة، لا تضيق فيه ولا إجهاد، وهذه حقيقة الوسطية .

(١) هو برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي صاحب تفسير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، توفي ٨٨٥ هـ .

(٢) تفسير البقاعي (١ / ٥٥٧) .

(٣) رفع الخرج في الشريعة (٧٣) .

(٤) انظر: تفسير الطبري (٣ / ٦٥٤) .

وقال رشيد رضا في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ولا يحاسبها إلا على ما كلفها والتكليف هو الإلزام بما فيه كلفة، والوسع ما تسعه قدرة الإنسان من غير حرج ولا عسر، وقال بعضهم: هو ما يسهل عليه من الأمور المقدور عليها، وهو ما دون مدى طاقته . والمعنى: أن شأنه تعالى وسنته في شرع الدين ألا يكلف عباده ما لا يطيقون<sup>(١)</sup> .

وخلاصة القول: أن هذه الآيات تقرر منهج الوسطية في التكليف، فهناك أوامر ونواهي، ولكنها في حدود الوسع، وعدم المشقة، وليس فيها تضيق وعسر وإحراج .

٣- ومما يؤكد ويقرر منهج الوسطية في التشريع والتكليف الآيات التي وردت برفع الحرج كقوله تعالى: ﴿مَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرْجٍ﴾ (البقرة: ١٧) .

وقوله تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرْجٍ﴾ (الحج: ٧٨) .

وقوله: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرْجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ (الأحزاب: ٣٨) .

ومثل ذلك الآيات التي جاءت تنفي الحرج عن فئة معينة، كقوله في سورة الفتح: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمْرِيضِ حَرْجٌ﴾ (الفتح: ١٧) .

وبعد أن بين سبحانه جواز الزواج من زوجة الابن المتبنى حيث زواج رسول الله ﷺ من زينب<sup>(٢)</sup> بعد طلاق زيد<sup>(٣)</sup> لها، قال سبحانه: ﴿لَكِنِّي لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرْجٌ فِي أَزْوَاجٍ أُدْعِيَانَهُمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطْرًا﴾ (الأحزاب: ٣٧) .

قال الدكتور صالح بن حميد: (إن رفع الحرج، والسماحة والسهولة راجع إلى الوسط والاعتدال ، فلا إفراط ولا تفريط، فالتسنع والتشديد حرج في جانب عسر

(١) انظر: تفسير المار (٣ / ١٤٥) .

(٢) هي زينب بنت جحش ابنة عمه رسول الله ﷺ زوجها الله لنيبه من غير ولي ولا شاهد، وكانت تسرع لهيات المؤمنين خوفًا بالنبي ﷺ بعد وفاته . وكانت من سادات النساء دينًا وورعًا وحبودًا ومعرفة . انظر: سير أعلام النبلاء (٢ / ٢١١) .

(٣) هو زيد بن حارثة بن شراحيل بن عامر بن النعمان الأمير الشهيد اتسمى في سورة الأحزاب أبو اسامة الكلبي، سيد الطوالي ، توفي في غزوة موتة عام (٨هـ) . انظر: سير أعلام النبلاء (١ / ٢٢٠) .

التكاليف والإفراط والتفريط حرج فيما يؤدي إليه من تعطل المصالح وعدم تحقيق مقاصد الشرع . قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ (البقرة: ١٤٣) فالوسط هو منبع الكمالات والتخفيف والسماحة ورفع الحرج على الحقيقة هو في سلوك طريق الوسط والعدل<sup>(١)</sup> .

فإنه سبحانه وتعالى لم يكلف عباده ما لا يطيقون ، وما ألزمهم بشيء يشق عليهم إلا جعل الله لهم فرجاً ومخرجاً . ولقد كانت الشدائد والعزائم في الأمم ، فأعطى الله هذه الأمة من السماحة واللين ما لم يعط أحداً قبلها ، رحمة من الله وفضلاً .

يقول ابن العربي<sup>(٢)</sup> : (ولو ذهبت إلى تعديد نعم الله في رفع الحرج لظلال المرام)<sup>(٣)</sup> .

وقال رشيد رضا في تفسير آية المائدة : ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (المائدة: ٦) . أي : ما يريد الله ليجعل عليكم فيما شرعه لكم في هذه الآية ولا في غيرها أيضاً حرجاً ما . أي أدنى ضيق وأقل مشقة ، لأنه تعالى - غني عنكم ، معروف رحيم بكم ، فهو لا يشرع إلا ما فيه الخير والنفع لكم<sup>(٤)</sup> .

قال ابن كثير في قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (المع: ٧٨) . أي : ما كلفكم ما لا تطيقون ، وما ألزمكم بشيء يشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجاً ومخرجاً ، ولهذا قال عليه السلام : «بعثت بالحنفية السمحة» وقال لمعاذ وأبي موسى<sup>(٥)</sup> **بشراً ولا تنفراً ويسراً ولا تعسراً**<sup>(٦)</sup> .

(١) انظر : رفع الحرج في الشريعة (١٢) .  
(٢) هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد المغازي الإسباني المالكي ، صاحب المصنفات ، كاحكام القرآن ، توفي بالقرب من قانس ، ودفن بها عام (٥٤٣هـ) . انظر : الأعلام : (٦ / ٢٢٠) .  
(٣) احكام القرآن (٣ / ١٢٩٣) .  
(٤) انظر : تفسير المنار (٦ / ٢٥٨) .  
(٥) هو عبد الله بن قيس بن سليم الأشعري اليمني ، خرج من اليمن فاصداً النبي ﷺ فالتفتهم الربيع بأرض الحبشة ، فوافقوا جعفر بن أبي طالب والصحابه معادوا معاً إلى المدينة ، استعمله النبي ﷺ على زيد وعدنان ، وعمر عنى الكوفة ، مات سنة (٤٢هـ) . انظر : تهذيب التهذيب (٥ / ٣٦٢) .  
(٦) أخرجه البخاري ، كتاب المغازي ، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن (٥ / ١٢٦) .

والأحاديث في هذا كثيرة، ولهذا قال ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: ٧٨) - يعني من ضيق<sup>(١)</sup>.

وقد اتضح لنا مما سبق أن آيات رفع الحرج دليل واضح وبرهان فاطع على وسطية هذا الدين في تشريعه وتكاليفه.

٤- نواصل ذكر الأدلة من القرآن الكريم في باب التشريع والتكليف التي تقرر منهج الوسطية، وأنه سمة هذا الدين، وسر من أسرار عظمته، وهذه الآيات هي آيات التخفيف والتيسير قال سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥) وقال جل في علاه: ﴿وَيُسِّرْكَ لِلْيُسْرَى﴾ (الاعن: ٨) وقال: ﴿إِنَّا مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّا مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الاشراخ: ٥-٦) وقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (البقرة: ٢٨).

فهذه الآيات تبين أن الله أراد بهذه الأمة اليسر والتخفيف، ونفي إرادة العسر والمشقة، وهذه الآيات وإن كان بعضها ورد في سياق قضية خاصة، كآية الأولى وردت في شأن الرخصة في الصيام إلا أن المراد منها العموم، كما صرح بذلك غير واحد من المفسرين، وقد صرح كثير من المفسرين في الآيات السابقة أن المراد عموم التخفيف في الشريعة، وإرادة التيسير ورفع المشقة<sup>(٢)</sup>.

قال ابن كثير رحمه الله في قوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (البقرة: ٢٨) أي: في شرائعه، وأوامره، ونواهيها، وما يقدره لكم<sup>(٣)</sup>.

قال مجاهد رحمه الله: (أي في نكاح الأمة وفي كل شيء فيه يسر)<sup>(٤)</sup>.

ومن هنا نخلص إلى أن آيات التيسير والتخفيف جاءت لإرساء قواعد هذا الدين وعالميته، وإليك بعض الأدلة التي تؤكد وسطية هذا الدين في باب التشريع والتكليف.

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣ / ٢٣٦).

(٢) انظر: الوسطية في ضوء القرآن (١٦٢).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (١ / ٤٧٩)، وانقاسمي (٥ / ١٢٠٦).

(٤) انظر: تفسير الطبري (٥ / ٣٠).

### المبحث الثالث

#### وسطية القرآن في تعدد الزوجات

من غاذج الوسطية في باب التشريع تعدد الزوجات حيث وسط بين إفراط وتفريط، وكان المجوس وعبيدة البئر والمشركون من العرب قبل الإسلام، يتزوجون كل منهم بمئات النساء، وأما أهل الكتاب فكانوا لا يسمحون للرجل بأكثر من زوجة، فجاء الإسلام وقيد الزواج بأربع نسوة واشترط في ذلك العدل<sup>(١)</sup> والمقصود العدل المستطاع.

#### التعدد في الصين:

كان الصينيون في أقدم عصورهم يسرون على نظام تعدد الزوجات، وكان لهم نظام خاص في ذلك، يباح للزوج أن يشتري فتيات يستمتع بهن، ويكن زوجات، إلا أنهن يخضعن للزوجة الأصلية، فيكون ذلك أشبه بالرياسة، وتكون منزلتهن أقل من الزوجة الأولى. وكانت الزوجات يخضعن للرجال، ويشعرن بالسعادة في ظل البيت الذي يضمهن، وكن مخلصات لأزواجهن، ولذلك كان الزوج يطلب من زوجاته ألا يتزوجهن بعده، وكثيراً ما كن يحرقن أنفسهن تكريمًا له<sup>(٢)</sup>.

#### التعدد في الهند:

كان العدد مباحًا في الهند القديمة، وكانت المرأة في منزلة أقل من منزلة الرجل، فكانت مطيعة، مخلصه له، وكان للرجل أن يتزوج من زوجات كثيرات، ويختار الزوج واحدة من زوجاته لتشرف على البقيات، وتضع كل واحدة في مكانها.

وكان الزوج كثيراً ما يعاهد زوجاته على أن يحرقن أنفسهن<sup>(٣)</sup> بعد مماته، ويذكر صاحب قصة الحضارة أن أحد ملوك الهند اختار ثلاثة آلاف من زوجاته البالغ

(١) انظر: الوسطية في الإسلام، للدكتور محمد عبد اللطيف، (١٠٨).

(٢) تعدد الزوجات، لإبراهيم الجمل، (١٥).

(٣) الرجوع السنق (٢٩).



عدد من اثني عشر ألفاً، ليكن مقربات له على شرط أن يحرقن أنفسهن مختارات عند موته، وإن ذلك ليعد شرفاً عظيماً لهن<sup>(١)</sup>.

وعادة حرق الزوجة أو الزوجات كانت قديمة، والهند من أوائل البلاد التي قدست هذه العادة.

#### التعدد في فارس القديمة:

كان التعدد مباحاً، فللرجل أن يتزوج بمن شاء منهن، وقد أقرت ذلك تعاليم زردشت<sup>(٢)</sup>، ولقد أباح قدماء الفرس أن يجمع الرجل بين الاختين؛ بل ويتزوج الأب ابنته، والابن أمه، والأخ أخته، فالديانة عندهم تبيح ذلك<sup>(٣)</sup>.

#### التعدد في الجاهلية عند العرب:

مارس العرب في الجاهلية تعدد الزوجات، وكان يجوز للرجل أن يتخذ من الزوجات من شاء تبعاً لقدرته وقوته ومكانته في قومه، فكلما كان غنياً كان في حاجة إلى الكثرة من النساء، يضمن بخدمته، وخدمة الواردين عليه للفرى والضيافة، تلك العادة التي كانت متأصلة في النفوس<sup>(٤)</sup>.

وكان العدد غير مقيد، فربما كان في عصمة الرجل عشر نساء أو مائة أو يزيد، فعبد المطلب جد النبي ﷺ كان عنده ست زوجات، وله منهن عشرة رجال، وست نساء<sup>(٥)</sup>. وغيره كثير.

#### التعدد عند اليهود:

سارت الأسر العبرية على نظام تعدد الزوجات، فقد كان الرجل يتزوج بأكثر من واحدة، وكان عام بين البطارقة وملوك إسرائيل، وقد أقرت الشريعة الموسوية هذه

(١) تعدد الزوجات، لإبراهيم الجمل، (١٥)

(٢) من الديانات الفارسية الإباحية القديمة الضاربة في التاريخ.

(٣) المرجع السابق، (١٧).

(٤) المرجع السابق (٢٩).

(٥) انظر: سيرة ابن هشام (١ / ١٩١).

العادة، وأباحتها دون تحديد في العدد، ولكن هذه الشريعة حُرِّفت فما ندرى الحقيقة في ذلك، كما أن التلمود قيد هذا العدد ونص كتاب (بياموث) على أن للرجل أن يتزوج من النساء بقدر ما يستطيع أن يعولهن، وفي مكان آخر قصر العدد على أربع<sup>(١)</sup>.

إلا أن علماء وأحبار بني إسرائيل حرّموا التعدد وذكروا أسباباً لذلك منها:

١- ضيق المعيشة التي أصبح فيها أمر القيام بلوازم المرأة الواحدة لا يخلو من صعوبة.

٢- تعادل نسبة المواليد من الذكور والإناث تقريباً.

٣- عادة المهر للزوجة، فالرجل اليهودي لا يستطيع أن يدفع أكثر من مهر زوجة واحدة.

٤- أخذ اليهود ينظرون إلى التعدد نظرة استهجان<sup>(٢)</sup> وبذلك حدد اليهود الزواج بواحدة، والافراد بالخدان والعشيقات والعاهرات.

#### التعدد عند النصارى:

ليس في الإنجيل قول صريح بتحريم تعدد الزوجات، ووجوب الاقتصار على زوجة واحدة، وأخذ نظام الزوجة الواحدة من الدول الأوروبية الوثنية، التي انتشرت فيها المسيحية، والتي تباع مصاحبة الخليلات، عن شعوب اليونان والرومان، لقد كان تقاليد تلك الدول تحرم تعدد الزوجات، وقد سار أهلها بعد اعتناقهم المسيحية على ما وجدوا عليه العمل في وثيقتهم الأولى<sup>(٣)</sup>.

#### أ- من هدي القرآن للتي هي أقوم تعدد الزوجات:

قضية تعدد الزوجات دلالة واضحة على وسطية القرآن وهدايته للتي هي أقوم، ومعلم من معالم الشريعة الغراء في رفع الحرج عن الأمة، وعلامة على اليسر

(١) انظر: تعدد الزوجات (٢٤).

(٢) انظر: تعدد الزوجات (٢٤).

(٣) انظر: المرجع السابق (٢٥).

والسماحة في هذا الدين، لقد أتى القرآن الكريم في هذه المسألة بالكمال، وفي كل المسائل ليبرهن بالأدلة المحسوسة على وسطية القرآن في التشريع، وعلى إعجازه في إصدار الأحكام والتكاليف، وحتى لا يشك عاقل في كون القرآن الكريم تنزيل من حميد حكيم.

وبإليك ما قاله العلامة محمد الأمين الشنقيطي في هذه المسألة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هِيَ أَقْوَمٌ﴾ (الإسراء: ٩) حيث قال: (ومن هدي القرآن للتي هي أقوم - إباحة تعدد الزوجات إلى أربع، وأن الرجل إذا خاف عدم العدل بينهما لزمه الاكتفاء بواحدة، أو ما ملكت يمينه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ (النساء: ٣) ولا شك أن الطريق التي هي أقوم الطرق وأعدلها، هي إباحة تعدد الزوجات لأمر محسوسة يعرفها كل العقلاء.

منها: أن المرأة الواحدة تحبض وتمرض، وتنفس، إلى غير ذلك من العوائق المانعة من قيامها بأخص لوازم الزوجية، والرجل مستعد للتسبب في زيادة الأمة، فلو حبس عليها في أحوال أعذارها لعطلت منافعه باطلاً في غير ذنب.

ومنها: أن الله أجرى العادة بأن الرجال أقل عدداً من النساء في أقطار الدنيا، وأكثر تعرضاً لأسباب الموت منهن في جميع ميادين الحياة، فلو قصر الرجل على واحدة لسبقي عدد ضخيم من النساء محروماً من الزواج، فيضطرون إلى ركوب الفاحشة، فالعدل عن هدي القرآن في هذه المسألة من أعظم أسباب ضياع الأخلاق، والانحطاط إلى درجة البهائم في عدم النصيانة والمحافظة على الشرف والمروءة والأخلاق، فسبحان الحكيم الخبير، كتاب أحكمت آياته، ثم فصلت من لذن حكيم خبير.

ومنها: أن الإناث كلهن مستعدات للزواج، وكثير من الرجال لا قدرة لهم على القيام بلوازم الزواج لفقرهم، فالمستعدون للزواج من الرجال أقل من المستعدات له

من النساء، لأن المرأة لا عائق لها، والرجل يعوقه الفقر وعدم القدرة على لوازم النكاح؛ فلو قصر الواحد على الواحدة، نُضاع كثير من المستعدات للزواج أيضاً بعدم وجود أزواج؛ فيكون ذلك سبباً لنضياح الفضيلة وتفشي الرذيلة، والانحطاط الخلقي، ونضياح القيم الإنسانية، كما هو واضح، فبان خاف الرجل ألا يعدل بينهن، وجب عليه الاقتصار على واحدة، أو ما ملكت يمينه؛ لأن الله يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ (النحل: ٩٠). والميل بالفضل في الحقوق الشرعية بينهن لا يجوز، لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُواهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ (النساء: ١٢٩).

أما الميل الطبيعي بحبة بعضهن أكثر من بعض، فهو غير مستطاع دفعه للبشر، لأنه انفعال وتأثر نفسي لا فعل، وهو المراد بقوله: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ﴾ (النساء: ١٢٩). وأما ما يزعمه بعض الملاحدة من أعداء دين الإسلام، من أن تعدد الزوجات يلزمه الخصام والشغب الدائم المفضي إلى نكد الحياة؛ لأنه كلما أرضى إحدى الضرتين سخطت الأخرى؛ فهو بين سخطين دائماً، وأن هذا ليس من الحكمة، فهو كلام ساقط، يظهر سقوطه لكل عاقل؛ لأن الخصام والمشغبة بين أفراد أهل البيت لا انفكاك عنه البتة، فبقع بين الرجل وأمه، وبينه وبين أبيه، وبين أولاده، وبين زوجته الواحدة؛ فهو أمر عادي ليس له كبير شأن وهو في جنب المصالح العظيمة التي ذكرنا في تعدد الزوجات من صيانة النساء وتيسير التزويج لجميعهن، وكثرة عدد الأمة لتقوم بعددها الكثير في وجه أعداء الإسلام؛ لأن المصلحة العظمى يقدم عليها على دفع المفسدة الصغرى.

قلو فرضنا أن المشغبة المزعومة في تعدد الزوجات مفسدة، أو أن إيلا قلب الزوجة الأولى بالفضرة مفسدة، لقدمت عليها تلك المصالح الراجعة.

فالقرآن أباح تعدد الزوجات لمصلحة المرأة في عدم حرمانها من الزواج، ولمصلحة الرجل بعدم تعطل منافعه في حال قيام العذر بالمرأة الواحدة، ولمصلحة الأمة ليكثر عددها فيمكنها مقاومة عدوها لتكون كلمة الله هي العليا، فهو تشريع حكيم خبير لا يظمن فيه إلا من أعمى الله به رته بظلمات الكفر، وتحديد الزوجات بأربع تحديد من

حكيم خبير، وهو أمر وسط بين القلة المفضية إلى تعطل بعض منافع الرجل، وبين الكثرة التي هي مظنة عدم القدرة على القيام بلوازم الزوجية للجميع<sup>(١)</sup>.

هذا دفاع عظيم في قضية تعدد الزوجات وتعمدت الإطالة في هذا المبحث لما ظهرت من آراء وأفكار مستوردة من الغرب للهجوم على الشريعة الغراء، وقد أعجبني كلام نقيس للأديب المفكر سيد قطب رحمه الله في ظلال القرآن عندما قال: (إن الإسلام نظام للإنسان، نظام واقعي إيجابي يتوافق مع فطرة الإنسان وتكوينه، ويتوافق مع واقعه وضروراته، ويتوافق مع ملابسات حياته المتغيرة في شتى البقاع وشمى الأزمان وشمى الأحوال).

إنه نظام واقعي إيجابي، يلتقط الإنسان من واقعه الذي هو فيه، ومن موقعه الذي هو عليه، ليرتفع به في المرتقى الصاعد، إلى القمة السامقة في غير إنكار لفطرته أو تنكر، وفي غير إغفال لواقعه أو إهمال، وفي غير عنف في دفعه أو اغتساف.

إنه نظام لا يقوم على الخذلفة الجوفاء؛ ولا على التطرف المانع، ولا على المثالية الفارغة؛ ولا على الأمنيات الحاملة، التي تصطدم بفطرة الإنسان وواقعه وملابسات حياته، ثم تسبحر في الهواء، وهو نظام يرعى خلق الإنسان، ونظافة المجتمع، فلا يسمح بإنشاء واقع مادي من شأنه انحلال الخلق، وتلويث المجتمع، تحت مظارق الضرورة التي تصدم بذلك الواقع، بل يتوخى دائماً أن ينشئ واقعاً يساعد على صيانة الخلق، ونظافة المجتمع، مع أيسر جهد يبذله الفرد ويبدله المجتمع، فإذا استصحبتنا معنا هذه الخصائص الأساسية في النظام الإسلامي، ونحن ننظر إلى مسألة تعدد الزوجات، فماذا ترى؟.

نرى: أولاً: أن هناك حالات واقعية في مجتمعات كثيرة - تاريخية وحاضرة تبدو فيها زيادة النساء الصالحات للزواج، على عدد الرجال الصالحين للزواج... والحد الأعلى لهذا الاختلال الذي يعترى بعض المجتمعات لم يعرف تاريخياً أنه

(١) أنصاه البيان (٦ / ٤١٥) إلى (٤١٧).

تجاوز نسبة أربع إلى واحد، وهو يدور دائماً في حدودها، فكيف يعالج هذا الواقع، الذي يقع ويتكرر وقوعه، بنسب مختلفة، هذا الواقع الذي لا يجدي فيه الإنكار؟ نعالجه بهز الكتفين، أو نتركه يعالج نفسه بنفسه حسب الظروف والمصادفات؟ إن هز الكتفين لا يحل مشكلة، كما أن ترك المجتمع يعالج هذا الواقع حسبما اتفق لا يقول به إنسان جاد، يحترم نفسه، ويحترم الجنس البشري .

لا بد إذن من نظام ولا بد إذن من إجراء وعندئذ نجد أنفسنا أمام احتمال من ثلاثة احتمالات:

١- أن يتزوج كل رجل صالح للزواج امرأة من الصالحات للزواج . . . ثم تبقى واحدة أو أكثر - حسب درجة الاختلال الواقعة - بدون زواج، تقضي حياتها - أو حياتهن - لا تعرف الرجال .

٢- أن يتزوج كل رجل صالح للزواج واحدة فقط زوجاً شرعياً نظيفاً، ثم يخادن أو يسافح واحدة أو أكثر، من هؤلاء اللواتي ليس لهن مقابل في المجتمع من الرجال فيعرفن الرجل خديناً أو خليلاً في الحرام والظلام .

٣- أن يتزوج الرجال الصالحون - كلهم أو بعضهم - أكثر من واحدة . . . وأن تعرف المرأة الأخرى الرجل، زوجة شريفة، في وضح النور لا خدينة ولا خليفة في الحرام والظلام .

الاحتمال الأول ضد الفطرة، وضد الطائفة، بانقياس إلى المرأة التي لا تعرف في حياتها الرجال، ولا يدفع هذه الحقيقة ما يتشدد به المتشددون من استغناء المرأة عن الرجل بالعمل والكسب، فالمسألة أعمق بكثير مما يظنه هؤلاء السطحيون السخيلون، المتطرفون الجهال عن فطرة الإنسان، واللف عمل، واللف كسب لا تغني المرأة عن حاجتها الفطرية إلى الحياة الطبيعية . سواء في ذلك مطالب الجسد والغريزة، ومطالب الروح والعقل، من السكن والإنس بالعشير، والرجل يجد العمل ويجد الكسب، ولكن هذا لا يكفي؛ فيروح يسعى للحصول على العشيرة، والمرأة كالرجل - في هذا - فهما من نفس واحدة .

والاحتمال الثاني ضد انجاء الإسلام النظيف، وضد قاعدة المجتمع الإسلامي العفيف؛ وضد كرامة المرأة الإنسانية، والذين لا يحفلون أن تشيع الفاحشة في المجتمع، هم أنفسهم يتعالون على الله، ويتناولون على شريعته، لأنهم لا يجدون من يردعهم عن هذا التناول، بل يجدون من الكائدين لهذا الدين كل تشجيع وتقدير .

والاحتمال الثالث: هو الذي يختاره الإسلام رخصة مقيدة - لمواجهة الواقع الذي لا ينفع فيه هز الكتفين، ولا تنفع فيه الخذلق والادعاء - يختاره متمشياً مع واقعته الإيجابية، في مواجهة الإنسان كما هو بفطرته وظروفه وحياته - ومع رعايته للخلق النظيف والمجتمع المتطهر، ومع منهجه في التفاضل بين الإنسان من السفح، والرفي به في الدرج الصاعد إلى القمة السامقة، ولكن في بسر ولين وواقعية<sup>(١)</sup> .

وعدد رحمه الله أسباب التعدد بأسلوبه المتميز وأدبه الرفيع وحججه الدامغة وأقام الحجة على المغرضين المتلوثين بالأمراض الفكرية الغربية .

#### دراسة مهمة عن التعدد في إفريقيا:

في هذا العصر صدرت دراسات واسعة جداً بأقلام كثير من الباحثين الأوربيين رجالاً ونساءً عن ظاهرة التعدد وخاصة لدى الشعوب الإفريقية، تستبين منها ضرورة هذا المبدأ للاجتماع الإنساني في كثير من الشعوب، وتتجلى بها حكمة الله في تشريعه الحكيم، ويندحر فيها دين الكنيسة الذي يبرأ منه الوحي الإلهي الكريم ونفتيس هنا قليلاً - من كثير - من هذه الدراسات التي أوردتها كتاب (تعدد الزوجات لدى الشعوب الإفريقية) يقول مؤلفه:

(تعدد الزوجات يعد في الواقع أحد الملامح البارزة لنظام الزواج والأسرة لدى الشعوب الإفريقية، فعلى اختلاف هذه الشعوب من حيث الجنس، والمرحلة الحضارية، فإنها تتفق في إياحة تعدد الزوجات، وقد وصف بعض الملاحظين

(١) في خلال القرآن (٥٨٠-٥٨١) .

الأوربيين تعدد الزوجات لدى الشعوب التي كانت محل دراستهم وصفاً يبدو منه تعدد الزوجات وكأنه النظام العادي للزواج، ويعد المؤلف أسباباً ثمانية لتعدد منها:

أولاً: الرغبة في الحصول على الذرية .

ثانياً: الرغبة في تكثير الذرية كضرورة للحياة، ولتأمين حياة الرجل وشيخوخته، وللحصول على القوة والثروة، وللمحافظة على تمييز ثروته .

ثالثاً: توطيد علاقته بأكبر عدد من العائلات التي يباهرها، ليحصل أيضاً على الاستقرار والأمن .

رابعاً: أهميته الكبيرة للمرأة داخل البيت وخارجه .

ويختتمها بقوله: (ولعل القارئ قد أدهشه أننا لم نذكر من بينها سبباً لعله أول ما يتبادر إلى الذهن . . . ألا وهو رغبة الرجل في التنقل والتغيير، وكان هذا السبب يظن قديماً أنه السبب الرئيسي لتعدد الزوجات، فقديمًا كان الأوربيون ولا يزال بعضهم يعتقدون أن تعدد الزوجات لدى الإفرقيين يرجع إلى ما يتميز به الرجل الإفريقي من شهوة عارمة إلا أن هذه الفكرة في الواقع لا تستند إلى أساس سليم، فقد اتضح من الدراسات المختلفة أن الرجال يقبلون على تعدد الزوجات في معظم الحالات لأسباب لا صلة لها بقوة الشهوة) .

ثم يورد أسباباً دقيقة لوجود الزيادة الدائمة في عدد النساء على عدد الرجال، ثم يقول: (وكانت بعض الشعوب تتخلص من النساء بوأدهن وقد عرف ذلك في الرومان، واليونان، وعرب الجاهلية، ولكن التعدد الذي لجأت إليه الشعوب الإفريقية أدى إلى امتصاص أي عدد زائد من النساء)<sup>(١)</sup> .

إلى هنا يتضح أن تعدد الزوجات ضرورة حياة لهذه الشعوب، فماذا كانت نتيجة حكم الله عز وجل الذي يقوم على العلم والحكمة؟ وماذا كانت نتائج شريعة الكنيسة المبتدعة؟ وقوانين الغرب المحرمة للتعدد؟ .

(١) تنظر: تعدد الزوجات لدى الشعوب الإفريقية، د. محمد سلام زياتي (٧-٢٤) .



ويقول صاحب كتاب تعدد الزوجات لدى الشعوب الإفريقية عن التعدد إنه:

(نظام تذهب جذوره بعيداً في أعماق الحياة الإفريقية، وليس من السهل على الإفريقيين التخلي عنه طالما بقيت الأسباب والظروف التي دعوتهم وتدعوهم إلى ممارسته، ومن هنا كان نرحيبهم بالإسلام وانتشاره بينهم انتشاراً سريعاً، على الرغم من عدم وجود حركة تبشيرية منظمة وراهة<sup>(١)</sup>).

وهذا الكلام لا يستقيم في أسباب انتشار الإسلام وحده؛ لأن من أسباب انتشار الإسلام لكونه دين الفطرة وعقيدته سهلة وأحكامه تتسجم مع أحوال البشر، كما كانت حركة الفتح الإسلامي منظمة ومرتبطة ثم يتحدث المؤلف عن أمر بالغ الخطورة ينبغي أن يعيه كل مسلم، ليعلم عن تجربة عظيمة هذه الشريعة التي شرفنا الله بها، مهما بدا لصغار النفوس والعقول من رأي في بعض مبادئها فقد تناول الاحتلال وجيوشه، المجهزة بإجراءات مادية كثيرة لجذب الشعوب الإفريقية إلى كنائسها، ولكنها نصطدم اصطداماً مروعاً بضرورة الحياة في المجتمع الإفريقي، حين تطلب من أهله أن يتخلوا عن التعدد بحكم الدين<sup>(٢)</sup>.

(لذلك فإن موقف الإفريقي الذي يرغب في اعتناق المسيحية ليس سهلاً، فالديانة الجديدة تلزمه بالتخلي عن كل زوجاته إلا واحدة، وتحرمه من ثانية في المستقبل إذا لم يكن له سوى واحدة، بينما ظروف حياته تدعوه إلى عدم التخلي عن هذه الرخصة، وكثيراً ما ضحى الإفريقيون بالديانة الجديدة، في سبيل الاحتفاظ بحقوقهم في ممارسة تعدد الزوجات).

يقول A. Shton عن الياستوتو:

(لقد هاجمت الكنائس بأجمعها تعدد الزوجات، واعتبرته خارجاً على القانون، لكن من الملاحظ أن كثيراً من الرؤساء وغيرهم مستعدون أن يطردها في سبيله من

(١) المرجع السابق (٦٩).

(٢) انظر: المنهاج القرآني في التشريع، عبد الستار فتح الله (٥٨٤).

الكنيسة<sup>(١)</sup> وتعارض النساء أيضاً بشدة دعوة الكنيسة لمنع التعدد كما جاء في أقوال المبشرين أنفسهم، وقد يشير هذا دهشتنا ولكن: (إذا تعمقنا في المسألة قليلاً وجدنا أن موقف النساء ينطوي على إدراك سليم لحقيقة الأمر بالنسبة لهن، فذكواهن العملي وخبرتهن اليومية جعلتهن يدركن أن النتيجة الطبيعية للأخذ بنظام الزوجة الواحدة، هي أن يبقى عدد من النساء لا يجدن طريقه إلى الزواج، وتكوين أسرة، والزواج والأسرة هما هدف الإفريقية وغاية حياتها فوحدة الزوجة معناها حرمان عدد غير قليل من النساء من مزايا الأمومة والحياة العائلية، ولا أشق على نفس المرأة من أن يحكم عليها بهذا المصير، فالمرأة الإفريقية تدرك إدراكاً فطرياً أنها ستكون الضحية الأولى بهذه الدعوة الجديدة)<sup>(٢)</sup>.

#### شر البدائل عن التعدد:

ولذلك يكاد يجمع الباحثون على أن النتيجة التي نرتبت على حمل الإفريقيين على التخلي عن تعدد الزوجات هي اتجاه متزايداً نحو الانحلال وفساد الأخلاق، فيحدثنا إسكابيرا Schapeva عن أثر محاربة البعثات التبشيرية المسيحية لتعدد الزوجات لدى (الكجاتالا) (أحد قبائل جنوب إفريقية): (إن عدداً من الأعضاء في الكنيسة يتخذون عشيقات في الخفاء على غير علم من المبشرين... لاستخدامهن في زيادة أفراد القبيلة...)<sup>(٣)</sup>.

ويقول Wetsermann: (إن معارضة الكنائس الأوربية لتعدد الزوجات كانت من بين الأسباب التي دفعت الإفريقيين من جهات منفردة من القارة إلى الانفصال عن الكنائس الأوربية، وتكوين كنائس مستقلة تسمح تعاليمها بممارسة تعدد الزوجات)<sup>(٤)</sup>.

ونخلص من هذا الاقتباس بأن هذه الدراسات الحديثة تثبت لنا وسطية القرآن في

(١) تعدد الزوجات لدى الشعوب الإفريقية (٧٠).

(٢) المرجع السابق (٧٤-٧٦).

(٣) المرجع السابق (٧٧).

(٤) المرجع السابق (٨٢).

باب التشريع في مسألة تعدد الزوجات وبيان ضرورته لمجتمعات بأسرها رجالاً ونساءً لم تعرف أسرارها إلا في هذا القرن إن الله العليم الخبير شرع لعباده ديناً قيماً بلائم الفطرة، وينظم الحاجات، والمصالح تنظيماً كريماً شريفاً .

ب- التعدد وشروطه في القرآن:

إن إباحة القرآن للتعدد لم تكن ضرورة مفيدة بالعدل المستحيل كما قيل، وإنما هو إباحة عامة تعرض لها الأحكام الشرعية الأخرى، تبعاً لظروف صاحبها، وقد شفعه الشارع - مثل كل الأحكام - بوصاياه الخلقية، وضمائنه القانونية، التي تجعل منه عند التطبيق مصلحة اجتماعية، ورحمة للناس، وتخفف إلى أقصى الحدود من أضراره الجانبية .

وقد قيده الله تعالى بضوابط وحدود منها:

١- جعل حده الأقصى أربع نسوة كما قال تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنٍ وَثُلَاثَ وَرُبَاعًا﴾ (النساء: ٣) وكان في الجاهليات بلا حدود .

٢- أوجب العدل والمساواة بين الزوجات، في جميع الحقوق التي في إمكان الزوج كالميت، والاجتماع، والتفقه، والمسكن، وغير ذلك، ولم يستثن من ذلك إلا (الميل القلبي) الذي لا يملكه أحد، بشرط ألا يكون له تأثير في المعاملة الظاهرة، ولذلك حث الله تعالى من يخشى التقصير على اجتناب التعدد، فقال تعالى في ختام الآية السابقة: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾ (نساء: ٣) فجعل الله تعالى العدل أمراً لازماً يتحرى بقدر الوسع والطاقه كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُواهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ (النساء: ١٢٩) .

ذلك لأن العدل الكامل المطلق غير مستطاع، خاصة ميل القلب، فأمر الله تعالى بالعدل الممكن، الذي لا يترخص فيه صاحبه، ولا ينتطع<sup>(١)</sup> .

(١) انظر: الشهاج القرآني في التشريع (٤٨٨) .

وبهذا يستبين خطأ الذين قالوا: إن العدل شرط لصحة التعدد، وقد نفى الله القدرة عليه، وبالتالي فهو نفي لإباحة التعدد، وهذا خطأ في التأويل، واعتساف في التفسير، وفي ظني أن القائلين بهذا أرادوا الدفاع عن الإسلام في وجه مهاجميه خاصة في أواخر القرن الماضي وما تلاه، حين اشتدت موجة الهجوم والتشكيك على الإسلام.

واليوم يعود المنكرون الطاعنون إلى التسليم بصحة هذا المبدأ، وينادي كثير منهم بإباحته في مجتمعاتهم، وقد ساق الشيخ محمد رشيد مجموعة من مقالات عديدة من الصحف الأوربية دعا فيها كاتبوها إلى إباحة التعدد، ويقارنون بينه وبين مفاسد المجتمع الأوربي نجد ذلك في تفسير المنار<sup>(١)</sup> ووجدت في تفسير الشيخ محمد رشيد رأي الشيخ محمد عبده<sup>(٢)</sup> رحمه الله: (في تعدد الزوجات حيث اشتد على مبدأ تعدد الزوجات وكذلك مدرسته من بعده، ويتلخص رأي محمد عبده في: (أنه ضرورة بغیضة اشترط الله لها ما يصعب تحقيقه وأنها أجزبت لضرورات تاريخية لم يعد لها مبرر أو وجود الآن)<sup>(٣)</sup> ولم يحالفه الصواب وإنما نأثر بالهجمة الغربية الشرسة على أحكام الإسلام.

ويبقى أن نشير إلى أن كل المجتمعات التي تحرم التعدد، وتنعى على إباحته بحجة أنه امتهان لكرامة المرأة، وإيذاء لمشاعرها، ومجلبة لمفاسد اجتماعية من ناحية اختلاف الأسرة، ونحو ذلك؛ هذه المجتمعات تبيع للمرأة أحط أنواع العلاقات مفاوحاً، وعهراً، وخدائاً، وتعترف بأبناؤه الحرام تيسيراً لهذه العلاقات، والواضح أن أول ضحبة لهذه الأوضاع هي المرأة، التي جعلت فريسة سهلة لعلاقات آثمة مع رجال لا

(١) انظر: تفسير المنار (٤ / ٣٤٨).

(٢) هو محمد عبده بن حسن خير الله من آل الشركماني، ولد في مصر سنة ١٢٦٦هـ، وتعلم في طنطا ثم الأزهر، ومصنف وفيلسوف وكتب في الصحف وتعلم اللغة الفرنسية بعد الأربعين، وشارك في محاربة الاستعمار الإنجليزي، وتولى القضاء، ثم أصبح مفتي الديار المصرية، واستمر على ذلك إلى أن توفي سنة ١٣٢٣هـ.  
انظر: الأعلام (٦ / ٢٥٢).

(٣) انظر: المنهاج القرآني في التشريع (٥٨٨).

يتحملون مسئولية الأسرة، ورعاية الأبناء الذين يخرجون من هذه العلاقات، ليكونوا بلاء على المجتمع كله<sup>(١)</sup>.

إن إباحة تعدد الزوجات بالشروط والحدود المذكورة يدل على وسطية القرآن في باب التشريع، وقد اختلف الفقهاء في حكم التعدد، فذهب الجمهور إلى أن الأمر في قوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا﴾ للإباحة مثل الأمر في قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ وفي قوله: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [نور: ٥١] وقال أهل الظاهر: النكاح واجب ومسكوا بظاهر هذه الآية: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ﴾<sup>(٢)</sup>.

ولست في صف المدافعين عن الإسلام، فأحكام القرآن واضحة بيته تنفع العقل، وتؤثر في القلب، وتطهر النفس وترشد إلى الطريق المستقيم، بل إنني في صف المهاجمين على النظم الجاهلية، التي ترى الحسن قبيحاً، والقبيح حسناً، والحلال حراماً، والحرام حلالاً، فتقبل أن يكون للرجل عشيقات وخدينات، ويعاشرهن بطريق الفاحشة والرذيلة، وتستكر عليه أن يعدد الزوجات، فيكون له اثنتان أو ثلاث، بطريق العفة والطهر، بل رأينا ما هو أقبح من هذا عند الغربيين، المعارضين على شريعة الإسلام، وتلامذتهم الفسوتون بمبادئ الغرب، من بعض أبناء المسلمين، حيث جعلوا للمرأة الحرية أن تعاشر من تشاء، دون مؤاخذه أو معارضة، ونتج عن ذلك تعدد الأزواج، فالمرأة عندهم لا تقتصر على زوجها؛ بل تمارس حقها في الاتصال بمن تشاء كما يصنع الرجل مع الصديقات والعشيقات.

فليُنظر العاقل إلى أية درجة من الانتكاس وصلت هذه الحضارة الغربية العفنة، ثم هم بعد ذلك يعترضون على نظام الإسلام، ويعتبرون ما هم عليه من القذارة حضارة؟ ﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨]<sup>(٣)</sup>.

فإن مسألة تعدد الزوجات وتقييده بشروط وحدود تدل على وسطية القرآن الكريم في باب التشريع.

(١) المرجع السابق (٥٨٩).

(٢) روائع البيان في تفسير آيات الأحكام، للصابوني (١ / ٣٩٧).

(٣) نظر: المرجع السابق (١ / ٤٠٢).

## المبحث الرابع

### الطلاق

ومن أمثلة الوسطية في التشريع في القرآن الكريم، قضية الطلاق حيث وقع الناس فيها بين الإفراط والتفريط فكان أهل الجاهلية من العرب يطلقون كيف شاءوا بدون حدود أو ضوابط أو معالجة لما يترتب عليه الطلاق من أمور متعددة، وأما أهل الكتاب فكانوا لا يسمحون للرجل أن يطلق أبداً .

أما الإسلام فوضّح لاتباعه أن الطلاق مسموح به للضرورة وجعله أبغض الحلال إلى الله، وجعله آخر الدواء وليس تشهياً، وهذا عين التوسط وحكمته البالغة (١) .

ومنهج الوسطية في التشريع معاملة واضحة في موضوع الطلاق وأحكامه فلم يحرم الطلاق، ولم يجعله متاحاً دون قيد أو شرط أو وصف .

بل إنه فرق بين الحالات التي تبين فيها المرأة من طليقة واحدة أو ثلاث طليقات، وهكذا إن وسطية القرآن في التشريع في موضوع الطلاق راعت أحوال وأوضاع المرأة والرجل والأسرة والمجتمع .

#### آيات الطلاق في القرآن:

قال تعالى: ﴿ وَالْمُطَلَّقاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِعَوْلَتِهِنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٢٨) الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمَّ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٢٣) فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَكَحَّ زَوْجًا غَيْرَةً فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ

(١) الوسطية في الإسلام (١٠٨) .

عليهما أن يترأصا إن ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون (٢٣٧)  
 وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن  
 ضرارا لعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزوا وأذكروا نعمت  
 الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة بعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل  
 شيء عليم ﴿ (البقرة: ٢٢٨ إلى ٢٣١) .

### أولاً: المعنى الاجمالي لآيات الطلاق:

يقول الله تعالى ما معناه: الأزواج المطلقات اللواتي طلقهن أزواجهن لسبب من  
 الأسباب على هؤلاء انتظار مدة من الزمن هي مدة (ثلاثة أظهار) أو (ثلاث حيض)  
 لمعرفة براءة الرحم حتى لا تختلط الأنساب .

وأزواجهن أحق بهن في الرجعة من الأجانب إذا لم تنقض عدتهن، وكان  
 الغرض من هذه الرجعة (الإصلاح) لا (الإضرار) ولهن من حسن الصحبة والعشرة  
 بالمعروف على أزواجهن، مثل الذي عليهن من الطاعة فيما أمر الله عز وجل،  
 وللرجال عليهن درجة القوامة، والإنفاق والإمرة والطاعة .

ثم بين تعالى أن الطلاق الذي تجوز به الرجعة مرتان، فإن طلقها الثالثة فلا تحل  
 له حتى تتزوج بعده بزواج آخر، أما إذا لم يكن الطلاق ثلاثاً فله أن يراجعها إلى  
 عصمة نكاحه، فإما أن يمسكها بالمعروف فيحسن معاشرتها وصحبها، وإما أن يطلق  
 سراحتها لتتزوج بمن تشاء لعلها تسعد بالزواج الثاني ﴿وإن يفرقا يُغن الله كلا من  
 سعته﴾ (النساء: ١٣٠) .

ولا يحل الله لكم أبها الرجال أن تأخذوا مما دفعتم إليهن من المهور شيئاً ؛  
 لأنكم قد استمتعتم بهن إلا إذا خفتم سوء العشرة بين الزوجين، وأرادت الزوجة أن  
 تختلع بالنزول عن مهرها أو بدفع شيء من المال لزوجها حتى يطلقها فليس هناك  
 جناح من أخذ الفداء . ثم بين تعالى أنه إذا طلقها الثالثة بعد أن راجعها مرتين، فلا  
 تحل له إلا بالزواج بزواج آخر، بعد أن يذوق عسيتها وتذوق عسيلته، فإن طلقها

الزوج الثاني فلا بأس أن تعود إلى زوجها الأول إن كان نعمة دلائل على الوفاق والتلاق . ثم أمر الأولياء بالألا يمنعوا المرأة من العودة إلى زوجها إذا رغبت في العودة، لا سيما إذا صلحت الأحوال وظهرت آمارات الندم على الزوجين في استئناف الحياة الفاضلة والعيشة الكريمة (١) .

وإذا نظرت في سبب نزول هذه الآيات وجدت أن الهدف الأساسي هو رفع الظلم وإزالة الخرج وتيسير الأمور والهداية إلى الصراط المستقيم، فقد ذكر في سبب نزول هذه الآيات أن أهل الجاهلية لم يكن عندهم للطلاق عدد، وكان يطلق الرجل امرأته ما شاء من الطلاق، فإذا كادت تحل راجعها، فعمد رجل لامرأته على عهد النبي ﷺ فقال لها: لا أويك ولا أدعك فحلين، قالت كيف؟ قال: أطلقك فإذا دنا مضي عدتكم راجعتكم، فشكت ذلك للنبي ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ﴾ (٢) .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: كان الرجل يطلق امرأته ثم يراجعها قبل انقضاء عدتها ثم يطلقها، يفعل بها ذلك يضارها ويعضلها فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ..﴾ (٣) .

وأخرج البخاري عن معقل بن يسار رضي الله عنه (٤) أنه زوج أخته رجلاً من المسلمين على عهد النبي ﷺ فكانت عنده ما كانت ثم طلقها تطليقه لم يراجعها حتى انتقضت العدة، فهويها وهويته ثم خطبها مع الخطاب فقال له:

يا لكع (٥) أكرمتك بها وزوجتك فطلقتها: والله لا ترجع إليك أبداً قال: فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى يعلها فأنزل الله: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيَقْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا

(١) انظر: روائع البيان تفسير آيات الأحكام (١ / ٣٠٠) .

(٢) رواه الترمذي ، كتاب الطلاق ، باب (١٦ : ٢ / ٢٩٧ رقم ١١٩٢) .

(٣) جامع البيان للطبري (٢ / ٤٨٠) .

(٤) هو معقل بن يسار المزني البصري رضي الله عنه من أهل بيعة الرضوان، مات ببصرة في آخر خلافة معاوية .

انظر: سير أعلام النبلاء (٢ / ٥٧٦) .

(٥) لكع: أي تميم .



تَعْضَلُونَهُمْ ﴿ البقرة: ٢٣٢ ﴾ فلما سمعها معقل: قال: سمعاً لربي وطاعة ثم دعاه فقال:  
أزوجك وأكرمك» (١).

### ثانياً: الحكمة من الطلاق:

فإذا تأمل العاقل حكمة الله في الطلاق وجد عدة حكم منها: عدم تعطيل النسل  
المُرغوب فيه، فقد تكون المرأة عقيمة لا تلد، والرجل فقيراً لا قدرة له على الجمع  
بين زوجتين وهو في الوقت نفسه يرغب في الولد ليعينه في شيخوخته، ويحفظ له  
اسمه بعد موته، ومن الحكم أيضاً: رفع الخرج عن الزوجين، لأن أحدهما قد  
يتصف بسوء خلقه أو فساد في تربته أو ضعف في دينه، أو يكون بينهما تخالف في  
الطباع ونضاد في المقاصد فتتأخر القلوب، أو يتعدم الائتلاف، والأسرة إذا لم تقم على  
المحبة أو تدعم بالموافقة، تداعت أركانها وانهار بناؤها (٢).

ولهذا نرى كثيراً من الدول الأوروبية والأمريكية اضطرت أخيراً إلى تبني ما كانت  
تنكره سابقاً على الإسلام، فقد أقرت الزواج المدني الذي يحتوي على الطلاق،  
وجعلته شرعة ثابتة في قانونها الشخصي وأصلاً من أصول مدنيها الحديثة، وإن  
خالف ذلك أصول دينها.

ثم إن الطلاق ليس بدعاً في الشرائع بل هو عريق في الأمم القديمة، وقد كان  
الرجل يستعمله بمطلق حريته، وليس للمرأة أن تطلبه بحال من الأحوال وظل الأمر  
كذلك إلى عهد الدولة الرومانية حيث أصبحت الروابط جد واهية والطلاق فاشياً،  
وعلى ذلك جرت القوانين العبرية القديمة والآثينية وكان الأمر فيه إفراط وتفریط.

ثم لما جاءت الديانة الموسوية حسنت من أحوال الزوجة ولكنها أباحت الطلاق  
لسبب من ثلاثة: الزنى والعقم، وعيب الخلق أو الخلق.

أما المسيحية فالرأي الغالب بين رجال الكنيسة هو: أن الطلاق - حتى في حالة

(١) رواه البخاري، كتاب النضر، باب «وإذا طلقتم النساء» (٥ / ١٨٩ رقم ٤٥٢٩).

(٢) روح الدين الإسلامي، لعفيف طبازة، (٣٧٦).

الزنى - محرم، فيجب على الزوج إعادة زوجته الحاطئة متى ندمت وتابت عن ذنبها، ولكن للزوج الحق؛ بل واجب عليه أن يتعد عن التي تصر على خطئها، كما أنه ليس له الحق في التزوج، فزنى الزوجة يؤدي إلى الانفصال الجسماني إذا دعاه الزوج وليس الأمر كذلك بالنسبة لزنى الزوج . فالانفصال الجسماني لا يفصم عرى الزوجية وإنما يؤدي فقط إلى إعفاء الزوجين من واجبات الزوجية، ومع ذلك ففرومة الزوج على زوجته تبقى ولا تزول .

فالتفريق الجسدي الذي وضع اسمه رجال الكنيسة لا يختلف عن الطلاق إلا بمسألة عدم تلاشي الزواج اسماً، لكن الزواج في الحقيقة قد تلاشى فعلاً .

فالزوجان يعيشان متباعدين ولم يبق بين الزوجين من أحكام الزواج إلا أمران: وجوب النفقة عند الحاجة، ووجوب المحافظة على عفتها، زد على ذلك: أن قيام الزواج اسماً يمنعها من الزواج ثانياً، ويكونان كما قال المسيو بلانبول<sup>(١)</sup>: «قد ضحيا ببقائهما دون ما أمل، ويجدان أنفسهما قد حكم عليهما بالعزوبة الإيجابية» وقال أيضاً: «إن في أغلب الأوقات يكون الباعث على استحالة بقاء الحياة هو زنى أحد الزوجين أو زنا الاثني معاً، فهل يظن إذا فرق بينهما أن يتخلبا عن علاقتهما غير المشروعة؟ ثم ما هو المركز الاجتماعي للمرأة المهجورة؟ وما هو مركز الزوج إذا كانت المرأة نعتت بشرفه حاملة مجررة اسمه واسم أولاده في كل مكان، ومعجزة إياه بطلب الدرهم، أو مهددة إياه بغضائح جديدة؟» . ثم قال: «إن التفريق الجسدي لا يزيل ذاء إلا ويستبدل بداء آخر، فإنه لا يوجد البتة صيغة حياة زوجية بين زوجين مكرهين على أن يعيشا معاً، ولكن توجد فضائح علنية تحمل الزوج الآخر على اليأس، حتى إن الزوجين بعد التفريق الجسدي يمكنهما أن يقترفا المساوى أكثر من ذي قبل»<sup>(٢)</sup> .

وهذه أحكام تصطدم مع الفطرة السليمة، والعقول الحكيمة، وتبتعد عن معاني

(١) بلانبول: القانون المدني الفرنسي (١ / ٣٦٧)، نقلاً عن روح الإسلام (٣٧٨) .

(٢) القانون المدني الفرنسي (١ / ٣٦٨)، نقلاً عن روح الإسلام (٣٧٨) .

الإنسانية التي جاءت الشرائع السماوية لتحث الناس عليها . ولذلك لا نستغرب إلحاح الجماهير وضغطها على الحكومة الإيطالية في إيطاليا حتى تصدر الدولة قانوناً يبيح الطلاق أمام القضاة، وكان لهذا القانون دوي هائل في إيطاليا كسلفها، وعلى الفور اتبرت (الكنيسة الكاثوليكية) لمقاومته، وجمعت ألوف الأصوات حتى ترغم الحكومة على إجراء استفتاء شعبي عليه، ورغم جهود الفاتيكان ونفوذ الكنيسة، ودعاؤها الدينية، إلا أن نداء القطرة كان أقوى وأندى وانتصرت القطرة وصدر قانون إباحة الطلاق وابتهج الشعب الإيطالي بذلك <sup>(١)</sup> .

ونقل هنا بعض ما نشرته الصحف على سبيل المثال:

(روما - وكالات الأنباء: احتفل مئات الألوف من الإيطاليين مساء أمس الأول بنتيجة الاستفتاء الذي أسفر عن الإبقاء على إباحة الطلاق، فساروا في مواكب نظمت في المدن الكبرى، وهم يحملون المشاعل والأعلام . . .

وتعزير هذه النتيجة هزيمة قاسية للحزب المسيحي، والكنيسة، وما يذكر أن النتيجة كانت ٥٩٪ <sup>(٢)</sup> مؤيدين لإباحة الطلاق، بينما عارضت الطلاق ٤٠٪، وهذا كله من أجل حقيقة واحدة قررها القرآن العظيم، وأغنى البشر فيها بشريعته عن متاعب وتجارب القرون، ولم تلحق به أوروبا فيها إلا بعد أن ذاقت الويلات الهائلة نفسياً واجتماعياً <sup>(٣)</sup> .

ثالثاً: مسلك القرآن والسنة في علاج الخلاف العائلي بين الزوجين:

سلك الإسلام في معالجة الخلاف العائلي بين الزوجين الطرق التالية:

١- دعاء الزوجين إلى أن يشعر كل واحد منهما بمسئوليته نحو الآخر ونحو أولادهما أما الله سبحانه وتعالى، فهو المنطوع على أعمالهم سواء كانت خيراً أو شراً

(١) نظراً: المشاهج القرآني في التشريع (٥٧٨) .

(٢) نظراً: جريدة الجمهورية، القاهرة، تاريخ الأربعاء، ٢٥ مايو ١٩٧٤م.

(٣) نظراً: المشاهج القرآني في التشريع (٥٧٨) .

وهو الرقيب الحفيظ العليم العزيز الحكيم قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (التحریم: ٦) .

وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته إلى أن يقول: والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيته»<sup>(١)</sup> .

٢- فإذا بدأ الخلاف بينهما أوصاهما بأن يتحمل كلا أخلاق الآخر ويصبر على ما يكرهه منه، فالخياة لم تسو بين الناس في عقولهم وأخلاقهم وطباعهم، ولا بد من إغضاء الإنسان عما لا يرضيه، وكثيراً ما يكون الخير فيما يكرهه الإنسان ويتأذى به . وفي قول الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُمْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُمْ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (نساء: ١٩) .

وقد حكى لي أحد الآباء رحمه الله تعالى أنه تزوج امرأة حدثت بينهما مشاكل وكاد أن يطلق زوجته إلا أنه أثناء تلاوته لكتاب الله مر على الآية المذكورة فعزم على الإعراض عن فكرة الطلاق وصلاح حالهما وبارك الله له في ذريته وأنجب منها ذكوراً وإناثاً وأصبحوا رجالاً ونساء على خير وصلاح منهم ثلاثة من حفظة كتاب الله .

٣- فإذا لم يعد أحدهما يحتمل الآخر، ويصبر على الخلاف معه، واشتد الخلاف بينهما بحيث يخشى من الشقاق والافتراق، أوجب الإسلام أن يحكم أهلها في هذا الخلاف، فيختار الزوج واحداً يمثله، وتختار الزوجة واحداً يمثلهما ويجمعان كمحكمة عائلية ينظران في أسباب الخلاف وعوامله، ويحاولان إصلاح الأمور بينهما بما يستطعان، ولا ريب في أن كلا من الزوج والزوجة إذا كان راغباً في إنهاء الخلاف وعودة الوئام بينهما إلى سابق عهده فإن الحكيمين سينجحان في مهمتهما، وهذا ما تحدث عنه القرآن الكريم بقوله: ﴿وَأِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ (نساء: ٣٥) .

(١) رواه البخاري ، كتاب النكاح ، باب المرأة راغية في بيت زوجها ( ٦ / ١٨٥ رقم ٥٢٠٠ ) .

فإذا لم ينفذ التحكيم وأصر كل من الطرفين على موقفه، أجاز الإسلام أن يقع الطلاق بين الزوجين لمرة واحدة تعدد فيها الزوجة في بيت الزوجية مدة تقارب ثلاثة أشهر ويسمى ذلك في محله في كتب الفقه، وفي خلال العدة تعيش الزوجة في بيت الزوجية، إلا أن زوجها لا يعاشرها معاشره الأزواج، والحكمة من جعل العدة بهذا الشكل هو ترك الفرصة الكافية لإعادة الصفاء وزوال أثر الخلاف السيئ على حياتهما وحياة أولادهما، فلهلما يعودان عن الخصام والنزاع، ويعود الهدوء والحب إلى جو الأسرة .

هذا مع أن الإسلام أجاز إيقاع الطلاق في هذه الحالة كأمر لا مفر منه فإنه يراه مكروهًا، ويغفر منه أشد التوفير ويجعله أبيض الحلال إلى الله (١) .

ثم إن هذه الطلقة التي أوقعها الزوج تعتبر طلقة رجعية ما دامت المرأة في العدة، بمعنى أن الزوج يستطيع أن يرجع إليها من غير مهر ولا عقد ولا شهود بل يكفي أن يتعاشرا معاشره الأزواج ليشهي أثر هذه الطلقة، وتعود الحياة الزوجية إلى سابق عهدها وفي مذهب الشافعي لا بد من المراجعة بالقول كأن يقول لها (راجعتك) فتحل له رأساً (٢) .

٥- إذا انتهت العدة ولم يراجع الزوج زوجته أصبحت المطلقة بانه بمعنى أن الزوج لا يستطيع أن يعود إليها إلا بمهر وعقد جديدين، وإن المرأة لو رفضت العودة إليه وفضلت أن تفتن بزواج آخر، لا يملك الزوج الأول إجبارها على العودة، ولا منعها من الزواج بالثاني .

٦- إذا عاد إلى الحياة الزوجية - سواء خلال العدة أو بعدها - ثم تكرر الخلاف نعيد ذات الخطوات السابقة، من إصاهاهما بحسن معاملة أحدهما للآخر، وتحمل أحدهما ما يكرهه من الثاني، فإذا اشتد الخلاف ثانية لجأنا إلى التحكيم العائلي، فإذا لم ينجح في الإصلاح بينهما كان للزوج أن يطلقها طلقة ثانية، ولها ذات الأحكام التي تأخذها الطلقة الأولى (٣) .

(١)، (٢)، (٣) المرأة بين الفقه والتفتون، للدكتور مصطفى شباهي (١٩٥) .

٧- فإذا عاد الزوج إلى زوجته بعد الطلقة الثانية وعاد الخلاف بينهما، عدنا إلى اتخاذ الخطوات السابقة قبل إيقاع الطلاق، فإذا لم ينفذ كل ذلك في الإصلاح بينهما جاز للزوج أن يطلق زوجته الثالثة والأخيرة، وتصبح بائنة منه بينونة كبرى، بمعنى أنه لا يستطيع أن يرجعها إليه بعد هذه الطلقة إلا بعد إجراء شديد التوقع على نفس الزوج والزوجة معاً وهو أن تكون الزوجة تزوجت بآخر بعد انقضاء عدتها من الأول، ثم وقع الخلاف بينها وبين الثاني فطلقها، عندئذ يجوز للزوج الأول أن يعود إليها بعد عدتها من طلاق الزوج الثاني، ويجب أن يكون ذلك كله طبيعياً من غير احتيال ولا تواطؤ .

والحكمة من هذا الإجراء أن الزوج لا يقدم على إيقاع الطلقة الثالثة بعد كل ما سبق من محاولات التحكيم، وبعد طلقتين سابقتين اعتدت المرأة بعدهما، إلا بعد استفحال الخصومة بينه وبين زوجته، بحيث أصبح يعتقد أن استمرار حياتهما الزوجية على هذا الشكل، طلاق وافتراق ثم عودة والتقاء مرتين متتاليتين، أصبح جحيماً لا يطاق، وأنه قرر التخلص نهائياً من هذه الرابطة الزوجية، فأفهمه الشارع أنه حين يوقع الطلقة الثالثة قد بانت عليه بينونة كبرى لا سبيل إلى رجوعها إليه إلا بعد أن تجري الحياة الزوجية مع زوج آخر، ولو أبحنا له أن يعود إلى الزواج منها بعد طلاقها للمرة الثالثة، ثم يعود فيطلقها حين يختلقان، ثم يعود فيرجعها حين يتفقدان، لكان ذلك عبثاً في الحياة الزوجية واستمراراً لتعاسة الأسرة وشقاقها إلى ما لا نهاية، إذن فلا بد من حد يقف عنده الطلاق، وقد قدره الشارع بثلاث تخفيفاً لعذاب الزوج والزوجة والأولاد على السواء، وهذه هي أهم مبادئ الطلاق وخطواته، وهي كما ترى حريصة كل الحرص على أن لا تنقطع الحياة الزوجية لأول خلاف يقع بينهما؛ بل جعلت لهم فرصة يستطيعان فيها إصلاح ما في نفسيهما إن أرادا الإصلاح والعيش معاً في حياة هانئة مستقرة<sup>(١)</sup> . وهذا يدل على وسطية القرآن في تشريع أحكام الطلاق قد وضحته السنة وتابعه الصحابة واقتفى أثرهم التابعون بإحسان .

(١) المرجع السابق (١٢٥) إلى (١٢٧) .

رابعاً: من وسطية القرآن في الطلاق جعله في يد الرجل:

إن الله سبحانه وتعالى بيّن في آيات الطلاق أن الطلاق في يد الزوج ولم يجعله في يد المرأة ولم يجعله في يد القاضي إلا إذا كان يطلب المرأة، قد يقول القائل: (إن الطريقة المثلى إذا كان الزوجان غير منفقين في الطلاق أن يكون بيد القاضي ليس لأحدهما أن يفرد به؛ لأن القاضي ناظر غير منحيز، ولأن العقد الذي ينشئ حقوقاً لازمة لا تبطله الإرادة المنفردة، ولأنه جعل بيد أحدهما لأنفسهما العقد بنوبة غضب عارضة فإذا جاء الندم كان في غير وقته .

وإن لذلك مكاناً من الفكر، قد أخذت به شرائع ولكنه لا يستقيم إلا إذا كانت أمور النفوس وخفايا القلوب يمكن أن تثبت بالدليل الظاهري، لأن القاضي لا يقضي إلا بما تثبته الأمارات والبيّنات، ثم إن القضاء إنما ينظر فيما هو أحق أو ظلم لغير الحق ويمنع الظلم، والسأنة في الحياة الزوجية ليست مسألة ظالم ومظلوم، وإنما هي صلاحيتها للبقاء بإمكان استمرار المودة، أو عدم صلاحيتها، فمثلاً إذا تقدم الزوج طالباً الطلاق لأنه أصبح يغيض زوجته، وأن حبس المودة قد تقطع بينهما، وأنه حاول إصلاح الأمر - فلم يفلح - أفيطلق القاضي أم لا يطلق؟

لا شك أن الطلاق في هذه الحال أمر لا بد منه، ولكن ما الفرق بين إيقاع القاضي الطلاق وإيقاعه هو؟ وإذا كان سبب الطلاق أمراً غير الحب والبغض فهل من المصلحة الاجتماعية أن تنشر دخائل الأسر في دور القضاء، ونسجل في سجلاته، ومنها ما لا يسوغ إعلانها... (١)

وبذلك تكون الأضرار عظيمة من فضح الأسرار الزوجية أمام المحكمة والمحامين عن الطرفين، وقد تكون هذه الأسرار مخزية من الخير لأصحابها سترها لتتصور أن رجلاً اشتبه في سلوك زوجته، وتقدم إلى المحكمة طالباً طلاقها لهذا السبب، كم تكون الفضائح في هذا الموضوع، وكم يكون مدى انتشارها بين الأقرباء والأصدقاء والجيران وبعض الصحف التي تتخذ من مثل هذه القضايا مادة للرواج؟

(١) الأحوال الشخصية قسم الزواج، للعلامة أبو زهرة (٢٧٨).

إن المحاكم في بعض البلاد الغربية لا تحكم بالطلاق إلا إذا ثبت زنى الزوج أو الزوجة، وكثيراً ما يتواطئان فيما بينهما على الرمي بهذه التهمة ليفترقا، وقد يلفقان شهادات ورقائع مفتعلة لإثبات الزنى حتى تحكم المحكمة بالطلاق .

فأي الخائنين أكرم وأحسن والين بالكرامة، أن يتم الطلاق بدون فضائح، أم أن لا يتم إلا بعد الفضائح ؟ (١) .

وأما إعطاء المرأة وحدها حق الطلاق، فيه خسارة مالية للرجل وزعزعة لكيان الأسرة، والمرأة لا تخسر مادياً بالطلاق؛ بل تبيع مهراً جديداً، وبيتاً جديداً، وعريساً جديداً، وإنما يخسر الرجل الذي دفع المهر للمرأة ويقوم بتفقة البيت والأولاد، وقد دفع نفقات العرس، وثمن أثاث البيت، فإذا أعطيت المرأة حق الطلاق بمجرد إرادتها سهل عليها أن توقعه متى اختصمت مع الزوج نكابة به ورغبة في نعيمه، سيما وهي سريعة التأثر، شديدة الغضب، لا تبالي كثيراً بالنتائج وهي في ثورتها وغضبها، ولتتصور رجلاً مختلف مع زوجته فإذا هي تطلقه وتطرده من البيت وهو صاحبها ومنفق عليه (٢) .

ويعجبني في هذا المقام ما قاله العلامة محمد الأمين الشنقيطي في تفسيره حيث قال: (ومن هدي القرآن لثني هي أقوم) جعله الطلاق بيد الرجل، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ...﴾ (طلاق: ١) ونحوها من الآيات؛ لأن النساء مزارع وحقول، تبذر فيها النطف كما يبذر الحب في الأرض، كما قال تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾ (القرة: ٢٢٣) .

ولا شك أن الطريق التي هي أقوم الطرق: أن الزارع لا يرغم على الازدراع في حقل لا يرغب المزارعة فيه؛ لأنه يراه غير صالح له، والدليل الحسي القاطع ما جاء به القرآن من أن الرجل زارع، والمرأة مزرعة وأن آلة الازدراع مع الرجل؛ فلو أرادت المرأة أن تجامع الرجل وهو كاره لها، لا رغبة له فيها لم ينتشر، ولم يقم ذكره إليها فلا

(١) انظر: المرأة بين الفقه والقانون (١٢٨-١٢٩) .

(٢) انظر المرجع السابق (١٢٧-١٢٨) .



تقدر منه على شيء، بخلاف الرجل فإنه قد يرغمها وهي كارهة فتحمل وتلد؛ فدلّت الطبيعة والحلقة على أنه فاعل وأنها مفعول به ولذا أجمع العقلاء على نسبة الولد له لا لها. ونسوية المرأة بالرجل في ذلك مكابرة في المحسوس كما لا يخفى<sup>(١)</sup>.

وأما الدكتور مصطفى السباعي<sup>(٢)</sup> رحمه الله فيقول: (وجعل الطلاق بيد الرجل وحده، وهو الطبيعي المنسجم مع واجباته المالية نحو الزوجة والبيت، فما دام هو الذي يدفع المهر ونفقات العرس والزوجية، كان من حقه أن ينهي الحياة الزوجية إذا رضي وتحمل الخسارة المالية والمعنوية الناشئين في رغبته في الطلاق والرجل في الأعم الغالب أضيظ أعصاباً، وأكثر تقديراً للنتائج في ساعات الغضب والثورة، وهو لا يقدم على الطلاق إلا عن يأس من إمكان سعادته الزوجية مع زوجته ومع علم ما يجره الطلاق من خسارة، وما يفتضيه الزواج الجديد من نفقات، فقل أن يقدم عليه إلا وهو على علم تام بالمسئولية؛ وعلى يأس تام من استطاعته العيش مع زوجته؛ لذلك نجد أن إعطاء الرجل وحده حق الطلاق طبيعي ومنطقي ومنسجم)<sup>(٣)</sup>.

وهذا يدل على حكمة العلي الحكيم في تشريعاته الرشيدة، كما يدل على وسطية القرآن وحكمته ووضعه للناس على الصراط المستقيم، ومع هذا فقد راعى الشارع الحكيم أموراً وظروفاً قد تمر بالمرأة لا تستطيع أن تستمر في الحياة الزوجية فجعل من حقها أن تطلب الطلاق أو فسخ النكاح ويسمى هذا في أبواب الفقه: الخلع<sup>(٤)</sup>.

ويكون ذلك عن طريق القاضي، وحكمة ذلك: أن المرأة تحكمها العاطفة، والعاطفة إذا سيطرت على الأمور الخطيرة قد تضر ولا تنفع، والطلاق من أخطر الأمور، وقد لوحظ أن النساء اللواتي يملكن حق الطلاق لأنفسهن يسنن استخدام هذا الحق، ويطلقن أنفسهن لأتفه الأمور، ولو أننا جعلنا الطلاق بيد المرأة لكان ذلك ظلم

(١) أضواء البيان (٣ / ٤١٤-٤١٥).

(٢) هو مصطفى حسني السباعي من حمص ببلاد الشام، ولد عام ١٩١٧م. وتوفي عام ١٩٦٤م من كبار الإخوان المسلمين بسوريا ترك مؤلفات في الجنب الشرعي، ومن أهمها السنة ومكانتها في التشريع.

(٣) المرأة بين الفقه والقانون (١٢٩-١٣٠).

(٤) الخلع: هو افتداء المرأة من زوجها الكارهة له بمال تدفعه إليه ليخلى عنها.

للرجل بضباع ما أنفق في سبيل هذا الزواج من نفقات مالية وإنها لكثيرة فلم يكن للمرأة حق طلب الطلاق إلا من طريق القاضي على شرط أن يقبل الزوج، وتعوضه الزوجة بعض خسارته أو كلها تلك الخسارة التي تلحق من جراء الطلاق<sup>(١)</sup>.

وقد روى البخاري رحمه الله عن ابن عباس، أن امرأة ثابت بن قيس<sup>(٢)</sup> أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، ثابت بن قيس ما أعتب علي في خلق ولا دين، ولكني أكره الكفر في الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: أتريدن عليه حديقته؟ قالت: نعم، قال رسول الله ﷺ: اقبل الحديقة وطلقها تطليقة<sup>(٣)</sup>.

وقد استنبط الفقهاء من الحديث السابق ومن قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ (نساء: ٢٤٩) أحكاماً تدل على عدل الإسلام وحرصه على رفع الظلم الواقع بالمرأة، ولذلك جعلوا للخلع شروطاً منها:

- ١- أن يكون البغض من الزوجة، فإن كان الزوج هو الكاره لها فليس له أن يأخذ منها فدية، وإنما عليه أن يبصر عليها، أو يطلقها إن خاف ضرراً.
- ٢- أن لا تطالب الزوجة بالخلع حتى تبلغ درجة من الضرر، تخاف معها أن لا يقيما حدود الله في نفسها أو في حقوق زوجها.
- ٣- أن لا يعتمد الزوج أذية الزوجة حتى نخالع منه، فإن فعل فلا يحل له أن يأخذ منها شيئاً أبداً، وهو عاص واخلع ينفذ طلاقاً بائناً، فلو أراد مراجعتها لا يحل له إلا بعد عقد جديد<sup>(٤)</sup>.

ومن أراد الاستزادة فعليه بمراجعة كتب الفقه، وقد جعلت الشريعة للمرأة الحق في طلب الطلاق إذا امتنع الزوج من خلع زوجته بشرط أن يكون لها سبب شرعي

(١) انظر: روح الإسلام (٣٨٠).

(٢) قيل: هي جميلة بنت أبي بن عبد الله بن سلول، وقيل: هي حبيبة بنت سهل.  
انظر: سير أعلام النبلاء (١ / ٣١٢).

(٣) رواه البخاري، كتاب الطلاق، باب الخلع، (٦ / ٢٠٨-٢٠٩ رقم ٥٢٧٣).

(٤) منهاج المسلم لابي بكر الجزائري (٥٧٥).

مثل: أن يكون الزوج عيب مستحکم لا يمكن البرء منه، أو يمكن، ولكن بعد زمن طويل، ولا تقبل المقام معه، كالجذام والبرص، أو غاب عنها زوجها سنة فأكثر، أو ليست له المقدرة على إمتاع زوجته جنسياً وغير ذلك من الأسباب التي دونت عند الفقهاء<sup>(١)</sup>.

#### خامساً: حماية الشريعة للزوجة في باب الطلاق:

وإذا كانت الشريعة قد أعطت الرجل الطلاق مطلقاً من كل قيد فإنها قد فرضت عليه في مقابل ذلك واجبات قصد منها حماية الزوجة وحفظ مصلحتها. والطلاق إما أن يكون قبل الدخول، وقبل فرض مهر للزوجة، وإما أن يكون قبل الدخول وبعد فرض مهر للزوجة، وإما أن يكون بعد الدخول، وفي كل حالة من هذه الحالات ألزمت الشريعة الرجل بالتزامات لا مفر منها عليه أن يؤديها للمرأة، وهذه الالتزامات تعتبر من ناحية تعويضاً للمرأة كما أنها من ناحية أخرى تحمل الرجل على أن يفكر كثيراً قبل استعمال حق الطلاق.

#### أ- الطلاق قبل الدخول وفرض المهر:

إذا طلق الرجل المرأة قبل أن يدخل بها أو يفرض لها مهراً فعليه أن يمتعها أي يعوضها عن الطلاق بما يقتضيه العرف، أي بما تعارف أمثال الزوج ومن هم في طبقتهم على أدائه للمرأة في مثل هذه الحالة، والمقصود بالأمثال أن يكونوا مثله من الناحية المالية وذلك قوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: ٢٣٦).

#### ب- الطلاق قبل الدخول وبعد فرض المهر:

وإذا طلق الرجل زوجته قبل الدخول وبعد فرض المهر فهو ملزم بأن يدفع لها نصف المهر تعويضاً على الطلاق طبقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ

(١) انظر: روح الدين الإسلامي (٣٨٥).

تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ﴿٢٣٧﴾ .

### ج- الطلاق بعد الدخول:

أما إذا طلق الرجل المرأة بعد الدخول فهو منزّم لها بكل المهر ولو كان أكثره غير حال، وعليه أن يسلمها كل ما قدمه لها بمناسبة الزواج أو ما ملكها إياه في حال الزوجية سواء كان ملزماً به أم متفضلاً به عليها وذلك طبقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَأَنْتُمْ إِحْسَانٌ فَنِكَاحٌ فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَنْتُمْ أَخَذْتُمْ مِنْهَا وَإِنَّمَا بُنِيَ﴾ (النساء: ٢٠) .

وعلى الزوج بعد ذلك أن ينفق على الزوجة حتى تستوفي عدتها وتصبح بذلك أهلاً للزواج من غيره؛ وقبل أن تدخل في وسطية القرآن الكريم في فرض العدة على المرأة المطلقة وأحكامها وحكمتها تتكلم في وسطية القرآن في المتعة وعن مرونة أحكام الله في الطلاق، قال تعالى في شأن المطلقات: ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرَهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرَهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: ٢٣٦) .

وقال تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقاتِ مَتَاعَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٢٤١) .

والفضية تدور على عدة محاور ، فإما ألا يكون هناك أي تمتيع للمطلقة، وهذا له آثاره السلبية وبخاصة على المطلقة التي تستقبل حياة جديدة، تحتاج إلى تخفيف وقع الطلاق وأثره حسياً ومعنوياً ، وإما أن يكون هناك تمتيع مغلظ، وهذا فيه إيقال على الزوج المطلق، وإما أن تكون هناك متعة يراعى فيها ظروف الزوج وإمكاناته مع عدم إهمال حق المطلقة في المتعة . وهذا هو الأمر الوسط الذي أقره القرآن، وأصبح شرعاً من لدن حكيم عليم<sup>(١)</sup> .

ومن وسطية القرآن في أحكام الطلاق أنها جاءت مرنة وعامة إلى آخر حدود

(١) انظر: الوسطية في ضوء القرآن (١٦٥) .

العموم والمرونة، ومن ثم كانت صالحة لكل عصر، ولكل مصر، ولم تكن في حاجة إلى التعديل أو التبديل، ولقد أثبت ذلك الزمن نفسه حيث مر على هذه النصوص أكثر من ثلاثة عشر قرناً وهي لا تزال على ما كانت عليه يوم نزولها من الجدة والصلاحية والسمو .

وإذا كانت الشريعة الإسلامية قد قررت حق الطلاق للزوجين من ثلاثة عشر قرناً وأحاطته بهذه الضمانات القوية العادلة، فإن العالم المتحضر لم يعرف هذا الحق، ولم يعترف به إلا في القرن العشرين، بل كان البعض يأخذون على الشريعة أنها جاءت مفررة لحق الطلاق، ثم دار الزمان دورته وجاء عصر العلوم والرقى، وتقدمت الأمم وتفتحت العقول فرأى المفكرون أن تقرير حق الطلاق نعمة على المتزوجين، وأنه الطريق الوحيد للخلاص من الزواج الفاشل، ومن سوء العشرة والآلام النفسية، وأن الطلاق هو الذي يحقق سعادة الزوجين إذا فشل الزواج في تحقيقها، وأنه يحفظ الرجل والمرأة من التعرض للأخطاء ووساوس الشيطان<sup>(١)</sup> .



(١) انظر: التشريع الجنائي الإسلامي، للدكتور عبد بنادر هودة (١ / ٤٤٨) .

## المبحث الخامس

### وسطية القرآن في العدة

يعترض سبيل قطع العلاقات الزوجية عقبات يقصد منها الإبقاء على رابطة الزوجية حتى بعد وقوع الخلاف بين الزوجين الذي يؤدي إلى الطلاق .

فكل طلاق تتبعه فترة تراث تسمى العدة، جاء في القرآن : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ﴾ (الطلاق: ١) .

وفترة التراث تتفاوت في طولها وقصرها تبعاً لحالة الزوجة فمن وسطية القرآن جاءت أحكام العدة مفصلة منها:

أولاً: عدة الحامل:

وهي وضع الولد: ﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ (الطلاق: ٤)

ثانياً: عدة المتوفى عنها زوجها (غير الحامل): أربعة أشهر وعشرة أيام جاء في القرآن : ﴿ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ (البقرة: ٢٣٤) .

ثالثاً: عدة المطلقة (غير الحامل) تنقسم إلى قسمين:

أ- ذوات الحيض: وعدتهن ثلاثة قروء<sup>(١)</sup>، أي ثلاث دورات كاملة من الحيض والطمهر، جاء في القرآن: ﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ (البقرة: ٢٣٨) .

ب- عدة اليائسات: وهن اللواتي تجاوزن سن الحيض، وعدتهن ثلاثة أشهر، جاء في القرآن: ﴿ وَاللَّائِي يَيْسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحْضُنَّ ﴾ (الطلاق: ٤) .

يلحق باليائسات اللاتي تجاوزن سن البلوغ دون أن يحضن مثلاً، ويجدر بالملاحظة أن المطلقة قبل الدخول، لا عدة عليها مطلقاً لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

(١) ثلاثة قروء تقريباً بثلاثة أشهر في أغلب النساء .

آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَخُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ (الأعراب: ٤٩) .

فإذا وقع الطلاق وأصبحت الزوجة في العدة يستمر الزوجان يقطنان في مسكن واحد، ويستمر الزوج في الإنفاق، ولا يجوز للزوج أن يخرج الزوجة من بيت الزوجية إلا في حالة سوء السيرة، جاء في القرآن: **هِيَ أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ ﴿١﴾** (الطلاق: ١) . فهذه الآية لها غاية واضحة هي فسح المجال للزوجين لإعادة العلاقات بينهما، وتخفيف حدة الخلاف، فإذا كان هنالك بقية من أمل أو محبة فإن هذه تظهر آثارها أثناء العدة فتكون وسيلة لعودة اللفة والوفاق .

وللعدة أحكام أهمها: أنه يحرم أن تختلب فيها، ومنها أنه يجب أن نظل في بيتها لا نخرج منه إلا لضرورة ملحة، هذا إذا كانت معتدة من طلاق لوجود من يتفق عليها، ولا تحرم عليها الزينة وما يتبعها لأن هذه تشجع على عودة الحياة الزوجية، أما إذا كانت معتدة لوفاة فإنها لا تخرج من المنزل إلا للضرورة الشديدة، ويحرم عليها الزينة وتوايعها .

والحكمة من العدة متعددة منها: أن الإسلام يحرص على بقاء الزوجية المؤبدة، فإذا حصل الطلاق فإن العدة تبقى من الصلات بين الزوجين ما يستطيع الزوج به مراجعة زوجته، فهي فترة لإمعان الفكر قبل حل الحياة الزوجية .

ومن حكم العدة: أنه يتبين فيها للمرأة الحمل وعدمه، وفي ذلك من النفع ما فيه كي لا تختلط الأنساب، ومنها: الحداد على المتوفي فإن وفاة الزوج خسارة فادحة للزوجة إذ خسرت رب أسرتها ومعينها، فمن الوفاء أن تمتنع عن الزواج فترة من الزمن<sup>(١)</sup> . وبهذا يتضح لنا وسطية القرآن وحكمته واستقامته على الصراط المستقيم في أحكامه التي تصلح كل مكان وزمان، كما أنها صالحة لكل زمان ومكان .

(١) روح التفسير الإسلامي (٣٨٥ - ٣٨٦) .

## المبحث السادس

### وسطية القرآن في الموارث

كان الميراث في الجاهلية فوضى يورث من شاء ما شاء إلا النساء ، فكان أهل الجاهلية لا يورثونهن، بل ربما ورثوهن تركة كما يورث المتاع، وذلك كالتخالة زوجة الأب، كان يرث شخصها أكبر الأولاد بعد وفاة أبيهم، وجاء الإسلام فشرع نظاماً متكاملًا للإرث فريداً لم يسبق ولن يلحق، ومن الملاحظ أن التشريع الإسلامي في أغلبه جاء في القرآن مجملًا وفصلته السنة المطهرة إلا نظام الإرث، فقد جاء مفصلاً في سورتي النساء والمائدة، وبعض البقرة، فلم يترك الأمر سهلاً كما كان، بحيث تجتمع رموس الأموال بيد انقله من الناس، ولم يجعل التركة ملكاً للدولة كما في بعض الأنظمة في العصر الحديث، فتعتمد المسؤولية الفردية والكيان الشخصي للإنسان، بل كان بين هذا وذاك بحيث فتت الثروة نقتينًا، وأعطى هذه الثروة للأجيال القادمة بالوضع المعتدل المتزن إلى من ينبغي أن يحملوا الأمانة من بعد<sup>(١)</sup> .

#### ميراث المرأة قبل الإسلام:

لقد كانت المرأة قبل أن تبرغ شمس الإسلام لا تعطى شيئاً من الإرث، بحجة أنها لا تقاتل ولا تدافع عن حمى العشيرة، وكان العربي يقول: (كيف نعطي المال من لا يركب فرساً، ولا يحمل سيفاً، ولا يقاتل عدواً)<sup>(٢)</sup> !!

فكانوا يمنعونها من الإرث كما يمنعون الوليد الصغير .

ومن هنا يعلم الباحث المتصف، أن الشريعة الإسلامية ، جاءت والعرب تظلم النساء، ولا تعطينهن من ميراث أزواجهن أو آبائهن شيئاً، فقررت الشريعة السمحة بهذه الآيات الكريمة لهن حقاً في الميراث ، يأخذنه بعزة وكرامة، لا مئة لأحد عليهن، وليس إحساناً أو تحنناً، بل هو فريضة الله لهن .

(١) الوسطية في الإسلام (١٠٨ - ١٠٩) .

(٢) نظراً: الموارث في الشريعة نصابوتي (١٩) .



ولما نزلت آيات الموارث ، كبر ذلك على العرب ، فكانوا يودون أن ينسخ ذلك الحكم ؛ لأنه كان يخالف ما اعتادوه والفوه (١) .

روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : ( لما نزلت الفرائض التي فرض الله فيها ما فرض ، للولد الذكر ، والأنثى ، والأبوين ، كرهها بعض الناس ، وقالوا : تعطى المرأة الربع ، والثلث ، وتعطى الابنة النصف ، ويعطى الغلام الصغير ، وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم ، ولا يحوز الغنيمة !! اسكتوا عن هذا الحديث ، لعل رسول الله ينسأه ، أو نقول له فيغيره . . فقال بعضهم يا رسول الله أنعطي الصبي الميراث ، وليس يغني شيئاً ، أنعطي الجارية نصف ما ترك أبوها وليست تركب الفرس ، ولا تقا تل القوم ) (٢) .

هذا شأن الإسلام مع المرأة ، رفع عن كاهلها المظلم ، ودفع عنها العدوان وورثها بعد أن لم تكن ترث ، وجعل لها نصيباً مفروضاً على كره من الرجال . . ولكن نبت في هذا الزمان نابتة خطيرة ، وظهرت فكرة ضالة خبيثة يقولون : إن الإسلام يخس المرأة حقها في الميراث ، وجعلها على النصف من حظ الرجل !! يريدون - على حد زعمهم - دفع الظلم عنها بتسويتها بالرجل في الميراث ، وهؤلاء إنما هم (ثعالب البشر) يمكرون بالمرأة ويغررون بها من أجل أن تتعرد على تعاليم الإسلام ، وتتطلب بالمساواة مع الرجل ، ومن العجيب أن هؤلاء الذين يكون أو يتساكون على المرأة ، هم أنفسهم الذين ضنوا عليها بلقمة العيش ، ويخلوا عليها بالنفقة ، وأجبروها على النزول إلى العمل ، وإلى الحانوت ، وإلى المكتب ، لتكتسب وتتفق على نفسها من مالها الذي جمعته إنهم تلامذة الغربيين ، المخدعون بمدنيتهم الكاذبة ، الذين لا يقيمون للمرأة وزناً ، ولا ينظرون إليها إلا بمنظار الشهوة والمتعة ، يخلون عليها بالنفقة ويحرمونها من حرية التصرف ، حتى في أموالها الخاصة ، إلا يؤذن الرجل ، ويكتفونها بأن تعمل لتكسب ، وتتفق على نفسها ، ويعرضونها للخطر في نفسها وعرضها ثم يدعون أن الدين قد ظلمها وأن الشريعة قد بخستها حقها!! (٣) .

(١) المرجع السابق (١٩) .

(٢) تفسير الطبري .

(٣) النظر : الموارث في الشريعة الإسلامية (٢٠) .

وقد أعجبني ما قاله الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله في الرد على من زعم أن الإسلام لم يساو بين المرأة والرجل في الميراث، وهذا يعتبر ظلماً حيث قال: (إن الإسلام أثبت تقديره للمرأة، ورعايته لحقوقها، بإعطائها حق الميراث، خلافاً لما كان عليه عرب الجاهلية وكثير من الشعوب القديمة وبعض الشعوب في العصر الحاضر)<sup>(١)</sup>.

كما أنه راعي العدالة في توزيع الأعباء والواجبات، ففي نظام الإسلام يلزم الرجل بأعباء وواجبات مالية لا تلزم بمثلها المرأة، فهو الذي يدفع المهر، وينفق على أئام بيت الزوجية، وعلى الزوجة والأولاد.

أما المرأة فهي تأخذ المهر ولا تسهم بشيء من نفقات البيت على نفسها وعلى أولادها ولو كانت غنية، ومن هنا كان من العدالة أن يكون نصيبها في الميراث أقل من نصيب الرجل، وقد كان الإسلام معها كريماً متسامحاً حين طرح عنها كل تلك الأعباء، وألقاها على عنب الرجل ثم أعطاها نصف ما يأخذ<sup>(٢)</sup>.

إن الشرائع التي تعطي المرأة في الميراث مثل نصيب الرجل، ألزمتها بأعباء مثل أعبائه، وواجبات مالية مثل واجباته، لا جرم أن كان إعطاؤها مثل نصيبه في الميراث في هذه الحالة أمراً منطقياً ومعقولاً، أما أن نعفي المرأة من كل عبء مالي، ومن كل سعي للإتفاق على نفسها وعلى أولادها، ونلزم الرجل وحده بذلك، ثم نعطيها مثل نصيبه في الميراث، فهذا أمر ليس منطقياً مقبولاً في شريعة العدالة<sup>(٣)</sup>.

يقول الدكتور: (جوستفان لوبون) الفرنسي في كتابه: [حضارة العرب]: (ومبادئ الموارث التي نص عليها القرآن على جانب عظيم من العدل والإنصاف... والشريعة الإسلامية منحت الزوجات - اللواتي يزعم أن المسلمين لا يعاشرونهن بالمعروف - حقوقاً في الموارث لا نجد مثلها في قوانيننا)<sup>(٤)</sup>.

(١) المرأة بين الفقه والتقاليد، (٣٤).

(٢) المرأة بين الفقه والتقاليد، (٣٤).

(٣) المرجع السابق (٣٥-٣٦).

(٤) حضارة العرب ترجمة عادل وعيتر (٤١٦).

وقال الشيخ محمد الأمين في أضواء البيان: (ومن هدي القرآن للتي هي أقوم - تفضيله الذكر على الأنثى في الميراث - كما قال تعالى: ﴿وَأِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضَلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النساء: ١٧٦) . وقد صرح تعالى في هذه الآية الكريمة: أنه يبين خلقه هذا البيان الذي من جماته تفضيل الذكر على الأنثى في الميراث لثلا يضلوا فمن سوى بينهما فيه فهو ضال قطعاً، ثم بين أنه أعلم بأحكام والمصالح وبكل شيء من خلقه بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النساء: ١٧٦) .

وقال: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ (النساء: ٦) ، ولا شك أن الطرق للتي هي أقوم الطرق وأعدلها: تفضيل الذكر على الأنثى في الميراث الذي ذكره الله تعالى، كما أشار إلى ذلك بقوله: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ (النساء: ٣٤) أي وهو النساء، وقوله: ﴿وَالرِّجَالُ عَلَيْهِنَ دَرَجَةٌ﴾ (البقرة: ٢٢٨) وذلك لأن المذكورة كمال خلقي، وقوة طبيعية، وشرف وجمال، والانوثة نقص خلقي، وضعف طبيعي، كما هو محسوس مشاهد لجميع العقلاء، لا يكاد ينكره إلا مكابر في المحسوس .

وقد أشار جل وعلا إلى ذلك بقوله: ﴿أَوْ مَنْ يُنشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ (الزحرف: ١٨) لأن الله أنكر عليهم في هذه الآية الكريمة أنهم نسبوا له ما لا يليق به من الولد، ومع ذلك نسبوا له أحسن الولدين، وأنقصهما وأضعفهما. ولذلك ينشأ في الحلبة أي الزينة من أنواع الحلبي والحلل ليجبر نقصه الخلقي الطبيعي بالتجميل بالحلي والحلل، وهو الأنثى بخلاف الرجل، فإن كما ذكورته وقوته وجماله يكفيه عن الحلبي! كما قال الشاعر:

وما الحلبي إلا زينة من نقيصة      يتم من حسن إذا الحسن قصرا

وأما إذا كان الجمال موفرا      كحسنتك لم يحتج إلى أن يزورا

وقال تعالى: ﴿الذَّكَرُ وَالْأُنثَىٰ﴾ (٣٦) تلك إذا قسمة ضيزى ﴿ (النجم: ٢٢) أي

غير عادلة؟ - لأن الأنثى أنقص من الذكر خلقة وطبيعة، فجعلوا هذا النصيب الناقص لله عز وجل وعلا سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً - وجعلوا الكامل لأنفسهم كما قال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لَلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ (النحل: ٦٢) أي وهو البنات، وقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (النحل: ٥٨) وكل هذه الآيات القرآنية تدل على أن الأنثى ناقصة بمقتضى الخلقة والطبيعة، وأن الذكر أفضل وأكمل منها؛ ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ (١٥٦) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿ (المائدات: ١٥٣-١٥٤) .

ومن الأدلة على أفضلية الذكر على الأنثى: أن المرأة الأولى خلقت من ضلع الرجل الأول: فأصلها جزء منه ، فإذا عرفت من هذه الأدلة، أن الأنوثة نقص خلقي، وضعف طبيعي فاعلم أن العقل الصحيح الذي يدرك الحكم والأسرار، يقضي بأن الناقص الضعيف بخلقته وطبيعته، يلزم أن يكون تحت نظر الكامل في خلقته، القوي بطبيعته، ليجلب له ما لا يقدر على جلبه من النفع ، ويدفع عنه ما لا يقدر على دفعه من الضر؛ كما قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ (الباء: ٣٤) .

وإذا علمت ذلك، فاعلم أنه لما كانت الحكمة البالغة ، تقتضي أن يكون الضعيف الناقص مقوماً عليه من قبل القوي الكامل، اقتضى ذلك أن يكون الرجل ملزماً بالإنفاق على نسائه، والقيام بجميع لوازمهن في الحياة، كما قال تعالى: ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ ومال الميراث ما مسح في تحصيله عرقاً، ولا تسيباً فيه البتة، وإنما هو تمليك من الله ملكهما إياه تملياً جبرياً، فاقتضت حكمة الحكيم الخبير أن يؤثر الرجل على المرأة في الميراث وإن أدليا بسبب واحد، لأن الرجل مترقب للنقص دائماً بالإنفاق على نسائه، وبذل المهور لهن، وبذل في نواجب الدهر، والمرأة مترقة للزيادة بدفع الرجل لها المهر، وإنفاقه عليها وقيامه بشؤونها ، وإثارة مترقب للنقص دائماً على مترقب الزيادة دائماً لجر بعض نقصه المترقب حكمة ظاهرة واضحة، لا يتكرها إلا من أعمى الله بصيرته بالكفر والمعاصي<sup>(١)</sup> .

(١) أضواء البيان (٣ / ٤٦٨) .

## آيات الموارث:

١- قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبُوَاهُ فَلِلْأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلْأُمِّهِ السُّدُسُ مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينِ آيَاتِكُمْ وَأَيَاتِكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١١).

٢- وقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجِكُمْ إِنْ لَّمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلِكُمُ الرِّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينٍ وَلَهُنَّ الرِّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَّمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دِينٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ كِلَاةً أَوْ امْرَأَةٌ وَهِيَ آخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ (النساء: ١٢).

٣- وقال جل ثناؤه: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكِلَالَةِ إِنْ أَمْرٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَّمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَصِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النساء: ١٧٦).

## توضيح وبيان:

هذه آيات كريمة، من كتاب الله عز وجل، وضح الباري تبارك وتعالى فيها نصيب كل وارث، ممن يستحق الإرث، وأرشد إلى مقدار إرثه وشروطه، كما بين جلت حكمته الحالات التي يرث فيها الإنسان، والحالات التي لا يرث فيها، ومن يرث بالفرض، أو بالتعصيب، أو بهما معاً، ومتى يحجب من الإرث كلياً أو جزئياً.

إنها آيات ثلاث ولكنها جمعت - على وجازتها - أصول علم الفرائض،

وأركان أحكام الميراث، فمن أحاط بهما فهماً وحفظاً، وإدراكاً، فقد سهل عليه معرفة نصيب كل وارث، وادرك حكمة الله الجليلة في قسمة الميراث على هذا الوجه الدقيق العادل، الذي لم يسر فيه حق أحد، ولم يغفل من حسابه شأن الصغير والكبير، والرجل والمرأة، بل أعطى كل ذي حق حقه، على أكمل وجوه التشريع، وأروع صور المساواة، وأدق أصول العدل، ووزع التركة بين المستحقين توزيعاً عادلاً حكيمًا، بشكل لم يدع فيه مقالة لمظلوم، أو شكوى لضعيف أو رأياً لتشريع من التشريعات الأرضية، يهدف إلى تحقيق العدالة أو رفع الظلم عن بني الإنسان<sup>(١)</sup>.

وكل ما كتبه العلماء في القديم والحديث، وكل ما ألفوه في علم الموارث فإنما هو بيان وتوضيح لهذه الآيات الكريمة، التي جمعت فأرعت، وقسمت فعدلت، وأحكمت التشريع، وفصلت التوزيع، وأبانت لكل ذي حق حقه، دون محاباة، أو مداراة، فسبحان من شرع الأحكام في كتابه المعجز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، وجلت حكمة الله وتشريعه الكامل الخالد أن يدانيه بشر<sup>(٢)</sup> وصدق الله: ﴿أَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ (النساء: ١١).

آيات مجملة تشير إلى حقوق الورثة بدون تفصيل:

وردت آيات كريمة، في شأن الموارث غير هذه الآيات الثلاث، ولكنها مجملة تشير إلى حقوق الورثة بدون تفصيل، وتوضح أن للأقرباء حقاً في الإرث، دون تحديد أو بيان لمقدار كل وارث، والآيات التي أشارت إلى الإرث هي:

أولاً: قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال: ٧٥).

ثانياً: وقوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (الأحزاب: ٦).

(١) الموارث في الشريعة (١٤).  
 (٢) المرجع السابق (١٥).

ثالثًا: وقوله تعالى: ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ (نساء: ٦) .

ففي الآية الأولى والثانية، إشارة إلى أن أهل القرابة، أحق بميراث قريبتهم المبت من غيرهم، ممن ليس له صلة قرابة بالمبت، فهم أحق بالإرث من المؤمنين والمهاجرين، وقد كان المسلمون في صدر الإسلام يرثون بسبب (الهجرة) (والمواخاة) التي آخى فيها رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، فكان المهاجري يرث أخاه الأنصاري، دون قريبه، والأنصاري يرث أخاه المهاجري دون قريبه، بسبب (المواخاة في الدين) واستمر الأمر على ذلك، إلى أن استمكن الدين ورسد قواعده بفتح مكة، فسخ الله تعالى الإرث بالهجرة والمواخاة وجعلها بالقرابة والنسب، وهذا من وسطية القرآن في باب الميراث .

والآية الثالثة: رفع بها الباري تبارك وتعالى الظلم عن الضعيفين (الطفل والمرأة) وعاملهما بالرحمة والعدل، ورد إليهما حقوقهما في الإرث، حيث أوجب توريث النساء والرجال، ولم يفرق بين صغير وكبير، ولا بين ذكر وأنثى؛ بل جعل لكل نصيباً في الميراث سواء قلَّ الإرث أم كثر، وسواء رضي المورث أم لم يرض، فرد إلى النساء والأطفال اعتبارهما، وقضى على الظلم والحيف بشأنهما، وهذا من وسطية القرآن في باب الميراث<sup>(١)</sup> .

إن المتأمل في أحكام الله تعالى في قضية الميراث يوفن إيماناً تاماً أن هذه الأحكام ربانية المصدر لما احتوت عليه من حكمة وعدل واعتدال واستقامة .

يقول سيد قطب - رحمه الله-: (إن هذا النظام في التوريث هو النظام العادل المتناسق مع الفطرة ابتداءً، ومع واقعيات الحياة العائلية والإنسانية في كل حال، يبدو هذا واضحاً حين نوازنه مع أي نظام آخر، عرفته البشرية في جاهليتها القديمة، أو جاهليتها الحديثة، في أية بقعة من بقاع الأرض .

(١) تلرجع السابق (١٦) .

إنه نظام براعي معنى التكافل العائلي، كاملاً، ويوزع الأنصبة على قدر واجب كل فرد في الأسرة في هذا التكافل، فعصبة الميت هم أولى من يرثه - بعد أصحاب الفروض كالوالد والوالدة - لأنهم هم كذلك أقرب من يتكفل به، ومن يؤدي عنه في الأديان والمغارم، فهو نظام متناسق، ومتكامل .

وهو نظام براعي أصل تكوين الأسرة البشيرية من نفس واحدة فلا يحرم امرأة ولا صغيراً لمجرد أنه امرأة أو صغير ، ولا يميز جنساً على جنس إلا بقدر أعبائه في التكافل العائلي الاجتماعي .

وهو نظام براعي طبيعة الفطرة الحية بصفة عامة، وفطرة الإنسان بصفة خاصة، فبقدم الذرية في الإرث على الأصول، وعلى بقية القرابة، لأن الجيل الناشئ هو أداة الامتداد وحفظ النوع، فهو أولى بالرعاية - من وجهة نظر الفطرة الحية - ومع هذا فلم يحرم الأصول وبقية القرابات؛ بل جعل لكل نصيبه مع مراعاة منطلق الفطرة الأصل .

وهو نظام يمشى مع طبيعة الفطرة كذلك في تلبية رغبة الكائن الحي - وبخاصة الإنسان - في أن لا تنقطع صلته بنسله، وأن يمتد في هذا النسل، ومن ثم هذا النظام الذي يليه هذه الرغبة، ويطمئن الإنسان الذي بذل جهده في ادخار شيء من ثمرة عمله، إلى أن نسله لن يحرم من ثمرة هذا العمل، وأن جهده سيرثه أهله من بعد . مما يدعو إلى مضاعفة الجهد، ومما يضمن للأمة النفع والفائدة - في مجموعها من هذا الجهد المضاعف مع عدم الإخلال بمبدأ التكافل الاجتماعي العام الصريح القوي في هذا النظام .

وأخيراً فهو نظام يضمن تفتيت الثروة المجتمعة، على رأس كل جيل، وإعادة توزيعها من جديد، فلا يدع مجالاً لتضخم الثروة وتكدسها في أيدي قليلة ثابتة - كما يقع في الأنظمة التي تجعل الميراث الأكبر ولد ذكر - أو تحصره في طبقات قليلة - وهو في هذه الناحية أداة متجددة الفاعلية في إعادة التنظيم الاقتصادي في الجماعة، ورده إلى الاعتدال، دون تدخل مباشر من السلطات هذا التدخل الذي لا تستريح



إليه النفس البشرية بطبيعة ما ركب فيها من الحرص والشح، فأما هذا التفتيت المستمر والتوزيع المتجدد، فيتم والنفس به راضية؛ لأنه يماشي فطرتها وحرصها وشحها! وهذا هو الفارق الاصيل بين تشريع الله لهذه النفس وتشريع الناس<sup>(١)</sup>.

وبهذا يتضح منهج القرآن في وسطية في أحكام الميراث .



(١) في ظلال القرآن (١ / ٥٩٦-٥٩٧) .

## المبحث السابع

### وسطية القرآن في اليمين وكفارته

قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ قُلُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٢٥) .

وفي قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ (البقرة: ٨٩) .

وموضوع الخنث في اليمين، إما أن يكون فيه كفارة بإطلاق، أو لا يكون فيه كفارة بإطلاق، أو التفصيل .

والأمر الأول: فيه من المشقة والعسر ما لا يخفى .

والأمر الثاني: يؤدي إلى الاستهانة باليمين، وهو قاذح من قواعد الإيمان .

أما التفصيل: وهو التفريق بين لغو اليمين الذي يصعب التحرز منها، فهذا معفو عنه، أما ما عداه ففيه الكفارة الشرعية صيانة لليمين والقسم، فهذا هو الأمر الوسط، فلا إفراط فيه ولا تفريط .

أما في بيان كفارة اليمين:

﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَوْ هَلِيكُمُ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ (البقرة: ٨٩) .

والوسطية في هذه الآية من ثلاثة وجوه:

١- أن إطعام المساكين يراعى فيه نوعية الطعام أو الكسوة الوسط في ذلك، وجعل المقياس الذي يرجع إليه في اختبار هذا الوسط إطعام الرجل لاهله أو كسوتهم، فينظر في ذلك ويخرج الوسط منه .

وفي هذا تتحقق الوسطية من وجهين أيضاً:

الأول: مراعاة الوسط في حق كل إنسان، فلم يؤخذ من أعلى ماله أو أدناه؛ بل الوسط منه، مراعاة للفقير أيضاً .

الثاني: مراعاة الفرق بين حال الغني والفقير والمتوسط، وهذا فيه معنى الوسطية ما فيه، فلم يأت الحكم بالتسوية بينهم .

٢- أنه جعل الكفارة تدور على ثلاثة أمور: إما الإطعام، أو الكسوة، أو الإعتاق، والخالف مخير بينها دون إلزام بواحد منها، وهذا فيه من التوسعة والتيسير ما لا يخفى .

٣- إذا لم يجد الخالف أو لم يستطع على أي نوع من هذه الثلاثة انتقل إلى الصيام، وهذه رحمة من الله وتوسعة على عباده وبهذا اجتمعت أطراف الوسطية في هذه القضية، وهي قضية جزئية يسيرة<sup>(١)</sup> .



(١) انظر: الوسطية في ضوء القرآن (١٦٦) .

## المبحث الثامن

### وسطية القرآن في حل طعام أهل الكتاب ونسائهم

وكذلك نلاحظ الوسطية في التشريع في حل طعام أهل الكتاب وجواز نكاح نسائهم والوسطية تبرز في موضوع الطعام وموضوع النكاح من أهل الكتاب مما لا يحتاج إلى شرح، وسوف أبين الحكمة من هذا التشريع .

قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلَّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلَّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ﴿٥٠﴾ (النساء: ٥٠) .

إن أهل الكتاب أقرب إلى المسلمين من الكافرين الملحدين؛ ولذلك شرع الإسلام معاشرتهم حتى يعرفوا حقيقة الإسلام وبالتخلق والعمل يظهر لهم أن ديننا هو عين دينهم مع مزيد بيان وإصلاح يفتضيه ترقى البشر وإزالة بدع وأوهام دخلت عليهم من باب الدين وما هي من الدين في شيء، وأما المشركون فلا صلة بين ديننا ودينهم قط، ولذلك دخل أهل الكتاب في الإسلام مختارين بعد ما انتشر بينهم وعرفوا حقيقته ولو قبلت الجزية من مشركي العرب كما قبلت من أهل الكتاب لما دخلوا في الإسلام كافة ولما قامت لهذا الدين قائمة (١) .

ومن الحكم في إباحة الزواج بأهل الكتاب وجواز أكل طعامهم إزالة الجفوة التي تحجبهم عن محاسن الإسلام بإظهار محاسنه لهم بالمعاملة فينبغي لكل مسلم يريد الزواج منهم أن يكون مظهرًا لهذه الحكمة وسالكًا سبيلها، وذلك بأن يكون قدوة صالحة لامراته ولاهلها في الصلاح والتقوى ومكارم الاخلاق، فإن من لم ير نفسه أهلاً لذلك فلا يقدم عليه (٢) .

ويقول سيد قطب رحمه الله في ظلال القرآن: (وهنا نطلع على صفحة من

(١) تفسير المار (٦ / ١٩٢) .

(٢) انظر: المرجع السابق (٦ / ١٩٥-١٩٦) .

صفحات السماحة الإسلامية ؛ في التعامل مع غير المسلمين، ممن يعيشون في المجتمع الإسلامي (في دار السلام) أو تربطهم به روابط الذمة والعهد، من أهل الكتاب .

إن الإسلام لا يكتفي بأن يترك لهم حريتهم الدينية ثم يعزلهم فيصبحوا في المجتمع الإسلامي مجفوقين معزولين - أو منبوذين إنما يشملهم بشيء من المشاركة الاجتماعية، والمجاملة والمخلطة فيجعل طعامهم حلالاً للمسلمين وطعام المسلمين حلالاً لهم كذلك ليتم التزاور والتضايق والمواكدة والمشاركة .

وكذلك يجعل العفيفات من نسائهم - وهن المحصنات - بمعنى العفيفات الخرائر طيبات للمسلمين، ويقرن ذكرهن بذكر الخرائر العفيفات من المسلمات، وهي سماحة لم يشعر بها إلا أتباع الإسلام من بين سائر أتباع الديانات والنحل، فإن الكاثوليكي المسيحي ليتحرج من نكاح الأرثوذكسية، أو البروتستانتية، أو المارونية المسيحية، ولا يقدم على ذلك إلا المحللون عندهم من العقيدة! وشرط حل المحصنات هو شرط المحصنات المؤمنات ﴿ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ﴾ .

ذلك أن تؤدي المهور، بقصد النكاح الشرعي، الذي يحصن به الرجل امرأته ويصونها، لا أن يكون هذا المال طريقاً إلى السفاح أو المخادنة . . .

والسفاح هو أن تكون المرأة لأي رجل ؛ والمخادنة أن تكون المرأة لخصدين خاص بغير زواج . . . وهذا وذلك كانا معروفين في الجاهلية العربية، ومعترفاً بهما في المجتمع الجاهلي قبل ظهور الإسلام .

وهكذا يتضح لنا وسطية القرآن في التشريع في كلياته وجزئياته ولا يخلو أي تشريع في القرآن الكريم من ملامح الوسطية من حكمة أو استفادة أو اعتدال أو عدل أو هداية إلى الصراط المستقيم .

## المبحث التاسع

### من وسطية القرآن في التشريع مراعاة سنة التدرج

ومن تيسيل الإسلام وتيسيره على الناس: أنه راعى معهم سنة التدرج فيما يشرعه لهم، من واجب أو محرم . فتجد حين فرض الفرائض كالصلاة والصيام والزكاة، فرضها على مراحل ودرجات حتى انتهت إلى الصورة الأخيرة، فالصلاة فرضت أول ما فرضت ركعتين ركعتين، ثم أقرت في السفر على هذا العدد، وزيدت في الحضر إلى أربع أعني الظهر والعصر والعشاء .

والصيام فرض أولاً على التخبير، من شاء صام ومن شاء أفطر وفدى، أي: أطعم مسكيناً عن كل يوم يفطره كما روى ذلك البخاري عن سلمة بن الأكوع<sup>(١)</sup> تفسيراً لقوله تعالى: ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (بقرة: ١٨٤) ثم أصبح الصيام فرضاً لازماً لكل صحيح مقيم لا عذر له، ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ (بقرة: ١٨٥) .

والزكاة فرضت أولاً بمكة مطلقة غير محددة ولا مقيدة بنصاب ، ومقادير وحول، بل تركت لضمائر المؤمنين، وحاجات الجماعة والأفراد، حتى فرضت الزكاة ذات النصب والمقادير في المدينة . والمحرمات كذلك، لم يأت تحريمها دفعة واحدة، فقد علم الله سبحانه مدى سلطانها على الأنفس، وتغلغلها في الحياة سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات .

فليس من الحكمة منع الناس عنها بأمر مباشر يصدر لهم، إنما الحكمة بإعدادهم ذهنياً وعقلياً ونفسياً لتقبلها، وأخذهم بسنة التدرج في تحريمها حتى إذا جاء الأمر النهائي عن الفعل كانوا مسرعين في تنفيذه قائلين سمعنا وأطعنا .

(١) هو أبو مسلم سلمة بن الأكوع . وقيل: سلمة بن عمرو بن الأكوع . واسم الأكوع سنان بن عبد الله الأسلمي . كان من بايع تحت الشجرة، وكان شجاعاً ربيعاً معشاً فاضلاً، غزاه مع رسول الله ﷺ سبع غزوات ، توفي بالمدينة سنة ٧٤ هـ . وقيل: ٦٤ هـ . انظر: أسد الغاية (٢ / ٢٧٦) ، تهذيب التهذيب (١ / ٦٥٠) .

## أولاً: الخمر:

ولعل أوضح مثال معروف في ذلك هو تحريم الخمر على مراحل معروفة في تاريخ التشريع الإسلامي حتى إذا نزلت الآيات الحاسمة في النهي عنها من سورة المائدة، وفي ختامها: ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ (المائدة: ٩١) قال المؤمنون في قوة وتصميم: قد انتهينا يا رب (١).

وفي قوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ (البقرة: ٢١٩).

يقول سيد قطب رحمه الله: وهذا النص الذي بين أيدينا كان أول خطوة من خطوات التحريم، فالأشياء والأعمال قد لا تكون شرًا خالصًا فالخير يلتبس بالشر، والشر يلتبس بالخير في هذه الأرض ولكن مدار الحل والحرمة هو غلبة الخير أو غلبة الشر، فإذا كان الإثم في الخمر والميسر أكبر من النفع، فتلذت علة تحريم ومنع وإن لم يصرح هنا بالتحريم والمنع.

هنا يبدو لنا طرف من منهج التربية الإسلامي القرآني الرباني الحكيم.

وهو المنهج الذي يمكن استقراؤه في الكثير من شرائعه وفرائضه وتوجيهاته، ونحن نشير إلى قاعدة من قواعد هذا المنهج بمناسبة الحديث عن الخمر والميسر عندما يتعلق الأمر أو النهي بقاعدة من قواعد التصور الإيماني أي بمسألة اعتقادية، فإن الإسلام يفضي فيها قضاء حاسمًا منذ اللحظة الأولى.

ولكن عندما يتعلق الأمر أو النهي بعبادة وتقليد، أو بوضع اجتماعي معقد، فإن الإسلام يتريث به ويأخذ المسألة بالميسر والتدرج، ويهيئ الظروف الواقعة التي تيسر التنفيذ والطاعة، فعندما كانت المسألة مسألة التوحيد أو الشرك: أمضى أمره منذ اللحظة الأولى، في ضربة حازمة جازمة لا تردد فيها ولا تفلت، ولا مجاملة فيها ولا مساومة، ولا لقاء في منتصف الطريق؛ لأن المسألة هنا مسألة قاعدة أساسية للتصور، لا يصلح بدونها إيمان ولا يقام إسلام.

(١) انظر: اخصاصر العامة للإسلام (١٨١).

فأما الخمر والميسر فقد كان الأمر أمر عادة وإلزام، والمعادة تحتاج إلى علاج، فبدأ بتحريك الوجدان الديني المنطقي التشريعي في نفوس المسلمين، بأن الإثم في الخمر والميسر أكبر من النفع، وفي هذا إيحاء بأن تركهما هو الأولى ثم جاءت الخطوة الثانية بآية سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ (النساء: ٤٣).

والصلاة في خمسة أوقات، معظمها متقارب، ولا يكفي ما بينهما للمسكر والإفاقة! وفي هذا تضيق لقرص المزاولة العملية لعادة الشرب، وكسر لعادة الإدمان التي تتعلق بمواعيد التعاطي، إذ المعروف أن المدمن يشعر بالحاجة إلى ما أدمن عليه من مسكر أو مخدر في الموعد الذي اعتاد تناوله، فإذا تجاوز هذا الوقت وتكرر هذا التجاوز فترة حد العادة وأمكن التغلب عليها . . . حتى إذا تمت هاتان الخطوتان جاء النهي الجازم بالأخير بتحريم الخمر والميسر<sup>(١)</sup>: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النساء: ٩٠).

ونعل رعاية الإسلام للتدرج، هي التي جعلته يفضى على نظام الرق الذي كان نظاماً سائداً في العالم كله عند ظهور الإسلام وكان إلغائه يؤدي إلى هزة عنيفة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية فكانت الحكمة في تضيق رواقه؛ بل ردمها كلها ما وجد إلى ذلك سبيل، وتوسيع مصارفه إلى أقصى حد، فيكون ذلك بمثابة إلغاء الرق بطريق التدرج وهذه السنة الربانية في رعاية التدرج واضحة في كتاب الله دالة على وسطية القرآن ومعلم من معالم الحكمة والاعتدال، في تشريعات العليم الحكيم .

ولذلك يجب على الدعاة أن يراعوا سنة التدرج في سياسة الناس فعندما يراد تطبيق نظام الإسلام في الحياة، وإعادة حياة في ظل شرع الله متكاملة من جميع النواحي، فلا تسوهم أن ذلك يتحقق بجرة قلم، أو بقرار من رئيس الدولة، أو مجلس قيادة، أو برلمان .

إنما يتحقق ذلك بطريق التدرج، المبني على تصور صحيح واعتقاد سليم، تراعي

(١) في حلال القرآن (١ / ٢٢٩) .



الإعداد والتهيئة الفكرية والنفسية والأخلاقية والاجتماعية، وهو نفس النهج الذي سلكه النبي ﷺ لتغيير الحياة الجاهلية إلى حياة إسلامية، فقد ظل ثلاثة عشر عاماً في مكة، كانت مهمته فيها تنحصر في تربية الجيل المؤمن الذي يستطيع فيما بعد أن يحمل عبء الدعوة، وتكاليف الجهاد لحمايتها ونشرها في الآفاق<sup>(١)</sup>.

### ثانياً: التدرج في تحريم الربا:

لقد كان من حكمة الله في تحريم الربا - كما هو الشأن في تشريعاته: (التدرج في التحريم والانتقال من التعمير والتلويح إلى النص الصريح، ومن النهي الجزئي إلى النهي الكلي الحاسم)<sup>(٢)</sup>.

واليك البيان: لقد تناول القرآن الحديث عن الربا في أربعة مواضع، وكان أول موضع منها حياً مكيّاً والثلاثة الباقية حياً مدنيّاً.

الموضع الأول: يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْحِكُونَ﴾ (زوم: ٣٩).

الآية كما ترى موعظة سلبية فقد قالت: إن الربا لا ثواب له عند الله؛ ولكن لم تقل إن الله ادخر لآكله والمتعامل به عقاباً بخلاف الزكاة، فلها ثوابها المضاعف عند الله، وفي هذا إيحاء إلى أن الربا غير مقبول عند الله<sup>(٣)</sup>.

الموضع الثاني: كان درساً وعبرة قصهما علينا القرآن من سيرة اليهود الذين حرم الله عليهم الربا فأكلوه، فعاقبهم الله بمعصيتهم، ومن الواضح أن هذه العبرة لا تقع موقعها إلا إذا كان من ورائها ضرب من تحريم الربا على المسلمين، ولكن إلى الآن تحريم بالتعمير، لا بالنص الصريح قال عز شأنه: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدْقِهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً﴾ (٦٦) وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً ﴿ (النساء: ١٦٠-١٦١) وفي

(١) انظر: أخصاصات العامة للإسلام (١٨٢).

(٢) انظر: المرجع السابق (٢٨).

(٣) حلول لمشكلة الربا، د. محمد محمد أبو شهبة (٢٨).

هذا الموضوع نص القرآن على أن الربا كان محرماً في الديانة الموسوية التي هي أوسع الشرائع السابقة وأكثرها عناية بالتشريعات وهذا النص من شأنه أن يدع المسلمين في موقف ترقب وانتظار لنهي يوجه إليهم قصداً في هذا الشأن (١).

الموضع الثالث: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٣٠)﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (١٣١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿ (آل عمران: ١٣٠-١٣١) وفي هذا الموضوع جاء النهي الصريح عن الربا بعد التمهيد السابقين في الموضوعين؛ ولكنه لم يكن إلا نهياً جزئياً عن الربا الفاحش الذي يتزايد حتى يصير أضعافاً مضاعفة، وبهذا النهي عن الربا الفاحش تهيأت النفوس وأصبحت مستعدة لتقبل النهي العام الشامل لكل أنواع الربا قلَّ أم كثر، وهذا هو ما ورد في الآيات التي ختم بها التشريع في الربا .

الموضع الرابع: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨)﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴿ (البقرة: ٢٧٨-٢٧٩) .

خاطب الله المؤمنين بأشرف صفاتهم وهو الإيمان ليحملهم ذلك على تقوى الله ونترك ما بقي لهم من الربا قبل التحريم وفي هذا الأمر تحريماً مؤيداً مؤكداً، وإنذاراً قطع كل الاعذار .

وبهذا تتضح وسطية القرآن في التشريع في باب التدرج عند التحريم لشيء اعتاد الأفراد عليه أو ألفوه في المجتمع فالتدرج في التحريم وسط بين التحريم الفوري الذي لا ينسجم مع نفوس الناس وفطرتهم وما اعتادوه وبين الإفراط وهو ترك الناس على ما اعتادوه من فساد وحرام لا يليق مع البشر السوي .



(١) انظر: المرجع السابق، ص (٢٩) .

### خلاصة الجزء الثالث

- ١- إن معنى العبادة في اللغة الطاعة ومعنى التعبد في اللغة التنسك والتذلل .
- ٢- إن معنى العبادة في الشرع: خضوع وحب، والعبادة المأمور بها العبد تتضمن معنى الذل والخضوع لله، ومعنى الحب فهي تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له .
- ٣- إن دعائم العبادة التي تنظم أعمال الإنسان القلبية، والعملية الفردية والجماعية: المحبة والخوف والرجاء .
- ٤- إن منهج التفريط في العبادة مثله اليهود حتى أصبحت القيم المادية محور الحياة، وأصبح الإنسان في نظر اليهود آلة تحرك، ومعدة تهضم، وكائن يلهو، وتعلقوا بالدنيا غاية التعلق وحرصوا عليها حتى ولو كانت حياة البهائم ونحوها .
- ٥- إن منهج الإفراط والغلو في العبادة ابتدعته النصارى فحرموا الزواج، وكتبوا الغرائز، ومنعوا الزينة والطيبات من الرزق .
- ٦- وقعت في عصر النبي ﷺ بعض الاجتهادات الخاطئة التي تشير إلى سبيل الغلو، والتشدد في الدين عن حرص صادق للازدياد من الخير، فردهم النبي الكريم إلى الصراط المستقيم وقوم هذا العوج وأرشدهم إلى سبيل الاعتدال والخير القويم .
- ٧- إن القرآن الكريم يقرر منهج الوسطية في العبادة بأساليب متعددة ومتنوعة فأحياناً يبين الانحراف الواقع في حقيقة العبادة وأحياناً يبين كيفية عبادته وحده سبحانه وتعالى .
- ٨- إن أحاديث كثيرة وتوجيهات نبوية كريمة رسمت منهج الوسطية للمسلمين في العبادة، وأحث على الاقتصاد والاعتدال فيها والنهي عن التعمق والتشدد، والاقتصاد على ما يطاق من العبادة، والابتعاد عن تكلف ما لا يطاق .
- ٩- إن دائرة العبادة التي خلق الله لها الإنسان، وجعلها غاية في الحياة، ومهمته في

الأرض، دائرة رحبة واسعة، تشمل شئون الإنسان كلها، وتستوعب حياته جميعاً، وتستغرق كافة مناشطه وأعماله .

- ١٠- إن من قواعد الدين العظيمة: أنه لا عبادة إلا بدليل من الكتاب أو السنة .
- ١١- إن المباحات تتحول إلى طاعات بآثنية الصادقة ويؤجر عليها العبد بالثواب من الله تعالى .
- ١٢- إن شرطَي قبول العبادة هما: الإخلاص لله تعالى، واتباع سنة النبي ﷺ .  
وهذان الشرطان دليل على وسطية القرآن في باب العبادة .
- ١٣- تنقسم العبودية في القرآن الكريم إلى عسامة، وهي عبودية الربوبية، وهي لكل الخلق، وعبودية خاصة، وهي عبودية الطاعة العامة، وإلى خاصة الخاصة، وهي عبودية الرسل عليهم الصلاة والسلام .
- ١٤- إن مهمة الجانب العبادي للإنسان تعبر ركنًا أصيلاً في المنهاج الإلهي الذي شرعه الله تعالى على غاية العلم والحكمة وجعله بناءً محكمًا يشد بعضه بعضاً .
- ١٥- نستطيع أن نستخلص مهمة العبادة في أمور منها: تثبيت الاعتقاد، ونأسيس وتثبيت القيم الأخلاقية وإصلاح الجانب الاجتماعي وغير ذلك من الأمور .
- ١٦- إن في القرآن الكريم عدة توجهات ومبادئ إصلاحية كانت ولا تزال هي حجر الأساس، انني يقوم عليها صرح العبادة الشعائرية في الإسلام .
- ١٧- إن الأخلاق القرآنية غمط فريد لا يفاربه ولا يدانيه شيء من حكم الحكماء، أو نظر الفلاسفة، أو شرائع المشرعين أو عادات الأمم وأدابها، إلا أن تكون بقية من الوحي الرباني بقيت بين الناس، أو أثرًا من سلامة الفطرة التي فطر الله عليها الناس .
- ١٨- إن القرآن الكريم وسط في باب الأخلاق بين غلاة المثاليين الذين تخيلوا الإنسان ملائكًا أو شبه ملاك، فوضعوا له من القيم والآداب ما لا يمكن له، وبين غلاة الواقعيين، الذين حسبوه حيوانًا أو كاخيوان .

- ١٩- إن الأخلاق في القرآن الكريم لم تدع جانباً من جوانب الحياة الإنسانية: روحية، أو جسمية، أو دينية، أو دنيوية، أو عقلية، أو عاطفية، أو فردية، أو اجتماعية، إلا رسمت له المنهج الأمثل، للسلوك الرفيع .
- ٢٠- إن من وسطية القرآن في الأخلاق إقرار التفاوت الفطري والعلمي بين الناس، فليس كل الناس في درجة واحدة من حيث قوة الإيمان، والالتزام بما أمر الله به من أوامره، والانتهاز عما نهى عنه من نواهٍ والتقيد بالمثل العليا .
- ٢١- إن الأخلاق ليست شيئاً ثانوياً في هذا الدين، وليست محصورة في نطاق معين من نطاق السلوك البشري، إنما هي ركيزة من ركائزه، كما أنها شاملة للسلوك البشري كله .
- ٢٢- إن الأخلاق الرفيعة ثمرة طبيعية للعقيدة الصحيحة، وكذلك العبادة الخيرة الخاشعة لله من ثمار العقيدة الصحيحة .
- ٢٣- تتضح وسطية القرآن في مجال التشريع في إباحة تعدد الزوجات بالشروط والحدود التي ذكرها المولى عز وجل، وكذلك في إباحة الطلاق وأحكام الموارث والأخذ بسنة التدرج في التشريع .



## فهرس المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم:

ثانياً: المصادر والمراجع العامة:

- ١- ابن قيم الجوزية حياته وآثاره، بكر بن عبد الله أبو زيد، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥ .
- ٢- أبو الأعلى المودودي فكره ودعوته، د. سمير عبد الحميد إبراهيم، دار الانتصار.
- ٣- إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي، دار المعرفة، بيروت .
- ٤- إرواء الغليل، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ .
- ٥- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، عالم الكتب، بيروت، سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .
- ٦- أعلام الموقعين عن رب العالمين لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ابن القيم، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، طبعة ١٤٠٧هـ .
- ٧- إغائة اللهفان، ابن القيم، دار المعرفة، بيروت .
- ٨- اقتضاء الصراط المستقيم للشيخ أحمد بن عبد السلام بن تيمية، تحقيق د. ناصر عبد الكريم العقل، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ ، مطابع العبيكان .
- ٩- الاخلاق الإسلامية وأسسها، عبد الرحمن بن حسن بن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ .
- ١٠- الأدب المفرد للإمام البخاري، تحقيق قصي محب الدين الخطيب، الطبعة الثانية ١٣٧٩هـ .

- ١١- الأركان الأربعة، أبو الحسن الندوي، دار الكتب العربية، بشاور، باكستان .
- ١٢- الاستيعاب في معرفة الأصحاب لأبي عمر يوسف بن عبد البر، تحقيق علي محمد البجاوي، مطبعة نهضة مصر، القاهرة .
- ١٣- الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام، د . علي عبد الواحد واخي، دار النهضة، مصر، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م .
- ١٤- الأسماء والصفات لأبي بكر بن عبد الخي السبيهي، تعليق محمد زاهد الكوثري، مطبعة دار السعادة، مصر .
- ١٥- الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي، د . عبد العظيم المطعني، دار الوفاء، المنصورة، مصر، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م .
- ١٦- الإصاية في تمييز الصحابة، للحافظ أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر .
- ١٧- الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية، لعمر بن علي البزار، تحقيق زهير الشاويش، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ .
- ١٨- الأعلام لخير الدين الزركلي، دار العلم، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٨٩هـ .
- ١٩- الإيمان والحياة، يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة العاشرة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م .
- ٢٠- الإيمان بالقضاء والقدر، محمد إبراهيم أحمد، دار ابن خزيمة، الرياض بالسعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ .
- ٢١- الإيمان، أركانه، حقيقته، نواقضه، د . محمد نعيم ياسين، الطبعة الرابعة .
- ٢٢- البداية والنهاية، ابن كثير، مطبعة دار الفكر العربي .
- ٢٣- التحرير والتنوير، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، دار الكتب الشرقية، تونس .

- ٢٤- التخويف من النار والتعريف بدار أهل البوار، للحافظ أبي الفرج بن الجوزي، المكتبة العلمية، بيروت .
- ٢٥- التدمرية في تحقيق الإثبات لأسماء الله وصفاته لابن تيمية، المطبعة السلفية، مصر، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ .
- ٢٦- التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي، طبعة المكتبة السلفية، المدينة المنورة .
- ٢٧- التشريع الجنائي الإسلامي مقارنًا بالقانون الوضعي، عبد القادر عودة، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة عشرة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م .
- ٢٨- التشريع والفقه الإسلامي، مناع الفطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثامنة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م .
- ٢٩- التعريفات، الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت .
- ٣٠- التفسير القيم، ابن القيم، تحقيق حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ .
- ٣١- التفسير الكبير الرازي، فخري الدين أبو عبد الله محمد بن عمر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية .
- ٣٢- التلمود تاريخه وتعاليمه، ظفر الإسلام خان، نشر دار النقا، الطبعة الثانية، ١٩٧٢م .
- ٣٣- التوراة السامرية، طبع دار الأنصار، القاهرة .
- ٣٤- التوراة، دراسة وتحليل، د . محمد شلبي شتروي، مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ .
- ٣٥- التوضيح والبيان لشجرة الإيمان، عبد الرحمن السعدي، مطبعة المشهد الحسيني، القاهرة .



- ٣٦- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٨٧م،  
الطبعة الثالثة .
- ٣٧- المرح والتعديل، لابن حاتم الرازي، الطبعة العثمانية بحيدر آباد، ١٣٧٥هـ .
- ٣٨- اجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر  
ابن قسيم الجوزية، تحقيق يوسف علي بدوي، مكتبة التراث، المدينة المنورة،  
الطبعة الاولى، ١٤٠٨هـ .
- ٣٩- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحلیم بن  
نیمية، توزيع الرئاسة العامة لإدارة البحوث والإفتاء والدعوة والإرشاد،  
الرياض، السعودية .
- ٤٠- الحكمة في الدعوة إلى الله، سعيد بن وهف القحطاني، مؤسسة الجريسي،  
الرياض، السعودية، الطبعة الاولى، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .
- ٤١- الخصائص العامة للإسلام، يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت،  
الطبعة الثالثة، ١٤١٥هـ/١٩٨٥م .
- ٤٢- الدرر السنية في الأجوبة النجدية، جمع الشيخ عبد الرحمن قاسم، الطبعة  
الخامسة، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م .
- ٤٣- الدرر المنشور في التفسير بالمأثور، لأبي عبد الرحمن جلال الدين السيوطي، دار  
الفكر، بيروت، الطبعة الاولى، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .
- ٤٤- الدعوة إلى الإسلام، سير تومانس، ترجمة حسن إبراهيم وزملائه، نشر مكتبة  
النهضة، الطبعة الثانية، ١٩٥٧م .
- ٤٥- الديباج المذهب، لابن فرحون، أبو إسحاق إبراهيم بن علي، دار الكتب  
العلمية، بيروت .
- ٤٦- الزهد، لنهاد بن السري، تحقيق عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريواتي، دار  
الخلفاء للكتاب الإسلامي، الطبعة الاولى، ١٤٠٦هـ .

- ٤٧- السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .
- ٤٨- السنة، ابن أبي عاصم، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ .
- ٤٩- الشريعة، للأجري، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ .
- ٥٠- الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية، مرعي بن يوسف، دار الفرقان، دار الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ/١٩٨١م .
- ٥١- الصبر في القرآن الكريم، يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م .
- ٥٢- الطبقات الكبرى لابن سعد، دار صياد، بيروت .
- ٥٣- الضوء اللامع، للسخاوي فتمس الدين محمد بن عبد الرحمن، دار مكتبة الحياة، بيروت .
- ٥٤- العبر في خبر من غير، لأبي عبد الله الذهبي، تحقيق أبي هاجر محمد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ .
- ٥٥- العبادة في الإسلام، يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية عشرة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .
- ٥٦- العقيدة في الله، د . عمر الأشقر، مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الخامسة، ١٩٧٤م .
- ٥٧- العلم والبحث العلمي، دراسة في مناهج العلوم، لحسين عبد الحميد رشوان، المكتب الجامعي، الإسكندرية .
- ٥٨- الغلو في الدين في حياة المسلمين المعاصرة، د . عبد الرحمن بن معلو اللويحي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .

- ٥٩- الفرق بين الفرق، البغدادي، دار المعرفة، بيروت .
- ٦٠- الفصل في الملل والأهواء، لأبي محمد علي بن أحمد، ابن حزم الظاهري، تحقيق د . محمد إبراهيم، د . عبد الرحمن عميرة، دار الخليل، بيروت .
- ٦١- القضاء والقدر، د . عمر الأشرف، مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤١٠ م .
- ٦٢- القاموس المحيط، لمجد الدين الفيروز أبادي، مؤسسة الرسالة .
- ٦٣- القواعد الحسان لتفسير القرآن، عبد الرحمن السعدي، دار ابن الجوزي، الدمام، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م .
- ٦٤- أقول المفيد على كتاب التوحيد للشيخ محمد بن صالح العثيمين، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ .
- ٦٥- القول المختصر المبين في مناهج المفسرين، أبو عبد الله محمد الحمود التجدي، مكتبة دار الإمام الذهبي، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ .
- ٦٦- الكامل في التاريخ، لابن الأثير أبي الحسن علي بن محمد بن محمد، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٣هـ .
- ٦٧- الكتاب المقدس، (العهد الجديد)، الأناجيل .
- ٦٨- الكتاب المقدس (العهد القديم) طبعة جمعية التوراة الأمريكية .
- ٦٩- الكواشف للزمخشري، أبو القاسم جاز الله محمود عمر الزمخشري الخوارزمي، مكتبة المعرف، الرياض .
- ٧٠- الكثر المرصود في قواعد التلمود، ترجمة د . يوسف نصر الله، قدم له مصطفى الزرقا، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م .
- ٧١- الكواشف الجليلة عن معاني الوسطية، لعبد العزيز السلطان، مكتبة الرياض الحديثة، الطبعة السادسة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، الرياض .

- ٧٢- المجروحون من المحدثين والضعفاء والمتروكين لابن حبان البستي، تحقيق محمود إبراهيم زايد، دار المعرفة، بيروت .
- ٧٣- المحجة في سير الدخنة، لابن رجب، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ٤-١٤هـ .
- ٧٤- المرأة بين الفقه والقانون، مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة السادسة، ٤/١٤٠هـ/١٩٨٤م .
- ٧٥- المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة، تحقيق ودراسة عبد الإله الأحمد، دار طيبة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/١٩٩١م .
- ٧٦- المسيحية، أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة السادسة، ١٩٧٨م .
- ٧٧- المستدرك، الحاكم أبو عبد الله النيسابوري، مكتب المطبوعات الإسلامية .
- ٧٨- المصطلحات الأربعة في القرآن، أبو الأعلى المودودي تعريب محمد كاظم، دار القلم الكويت، الطبعة السادسة، ١٣٩٧هـ .
- ٧٩- المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، المكتبة الإسلامية، إستانبول، تركيا، الطبعة الثالثة .
- ٨٠- الملل والنحل، الشهرستاني، محمد عبد الكريم، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل، مؤسسة الخليلي وشركاه، ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م .
- ٨١- المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصبهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، لبنان .
- ٨٢- المنهاج القرآني في التشريع، د . عبد الستار فتح الله سعد، مطابع دار الطباعة الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م .
- ٨٣- الموظأ للإمام مالك بن أنس، تصحيح وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي .

- ٨٤- الميزان في مقارنة الأدبان، حقائق ووثائق، تأليف محمد عزت الطهطاوي، دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م .
- ٨٥- النبأ العظيم، د . محمد بن عبد الله، دار القلم، الكويت، الطبعة الرابعة، ١٣٩٧هـ .
- ٨٦- النبوة والانباء في ضوء القرآن، الندوي، أبو الحسن علي الحسيني، دار القلم، دمشق، الطبعة السادسة، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م .
- ٨٧- التجود الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، يوسف بن تغري بردي، دار الكتب المصرية .
- ٨٨- النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات، تحقيق طاهر أحمد الزاوي وحمود محمد الطناجي، المكتبة العلمية، بيروت .
- ٨٩- الوسطية في ضوء القرآن، د . ناصر العمر، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م .
- ٩٠- الوسطية في الإسلام، محمد عبد اللطيف الفرفور، دار النفائس، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م .
- ٩١- الوصية الكبرى، ابن تيمية، أحمد عبد الخليم، تحقيق أبو عبد الله محمد بن حمد الحمود، مكتبة ابن الجوزي، الإحساء، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م .
- ٩٢- اليوم الآخر الجنة والنار، د . عمر الأشقر، مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م .
- ٩٣- بين المسيحية والإسلام، أبو عبيدة الخزرجي، تحقيق وتعليق د . محمد شامة، مطبعة المدني، القاهرة، نشر مكتبة وهبة .
- ٩٤- تاج العروس، محمد مرتضى الزبيدي، دار ليبيا، مطبعة دار سعاد، بيروت، ١٣٨١هـ/ ١٩٦٦م .

- ٩٥- تاريخ الأمم والملوك، الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت .
- ٩٦- تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي، بتصحيح السيد محمد سيد العرفي، دار الكتاب العربي، بيروت .
- ٩٧- تأويل مختلف الحديث، لأبي عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تصحيح محمد زهري التجاري، دار الجبل، بيروت ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م .
- ٩٨- تجريد أسماء الصحابة لأبي عبد الله الذهبي، تصحيح صالحة عبد الحكيم شرف الدين، بومباي، الهند، ١٣٨٩هـ .
- ٩٩- تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، عبد الرحمن عبد الرحيم المباركفوري، دار الاتحاد العربي، الطبعة الثانية ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م .
- ١٠٠- تعدد الزوجات لإبراهيم الجمل، دار الاعتصام توزيع دار النصر للطباعة الإسلامية .
- ١٠١- تعدد الزوجات لدى الشعوب الإفريقية، للدكتور سلام زياتي، دار المعارف، ١٩٦٣م، سلسلة اقرأ (٢٤٢) .
- ١٠٢- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق: عبد العزيز غنيم، وحمد أحمد عاشور، ومحمد إبراهيم البناء، مطبعة الشعب القاهرة .
- ١٠٣- تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، الطبعة الثانية، بيروت .
- ١٠٤- تفسير القاسمي، محمد جمال الدين القاسمي، راجعه محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م .
- ١٠٥- تفسير البغوي، المسمى معالم التنزيل، لأبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي، تحقيق خالد عبد الرحمن العلك، ومروان سوار، دار المعرفة، بيروت .

- ١٠٦- تقريب التهذيب، ابن حجر: أحمد بن علي العسقلاني، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، مكتبة محمد النمنكاني، المدينة المنورة .
- ١٠٧- تهذيب الاسماء واللغات، أبو زكريا محيي الدين شرف النووي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت .
- ١٠٨- تهذيب التهذيب، ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني دائرة المعارف النظامية بالهند، الطبعة الأولى ١٣٢٥هـ .
- ١٠٩- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق محمد زهري النجار، المؤسسة السعدي بالرياض، ١٩٧٧م .
- ١١٠- تهذيب تاريخ دمشق، عبد القادر بن بدران، دار المسيرة، بيروت .
- ١١١- تهذيب مدارج السالكين لابن القيم، هذبه عبد المنعم صالح العلي العزي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م .
- ١١٢- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق محمد زهري النجار، المؤسسة السعدي بالرياض ١٩٧٧م .
- ١٣٣- تيسير العزيز الحميد، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة السادسة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م .
- ١١٤- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ .
- ١١٥- جامع بيان العلم وفضله، لابي عمر يوسف بن عبد البر، دار الفكر، بيروت .
- ١١٦- جامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير، تحقيق عبد القادر الأرنؤوط، مكتبة الخلواني، الطبعة الأولى ١٣٧٢هـ/ ١٩٣٢م .
- ١١٧- جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي، تحقيق شعيب الأرنؤوط وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م .

- ١١٨- جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى، لأبي يحيى محمد بن عاصم الغرناطي، تحقيق د. صلاح جرار، دار البشير، ١٤١٠هـ .
- ١١٩- حضارة العرب، د. جوستاف لوبون، ترجمة الأستاذ محمد عادل زعيترو.
- ١٢٠- حفيظة البدعة وأحكامها، سعيد ناصر الغامدي، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .
- ١٢١- حلول لمشكلة الربا للشيخ محمد بن محمد أبو شهبه، مكتبة السنة، الدار السلفية لنشر العلم، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٤٠٩هـ .
- ١٢٢- الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني، دار الكتاب العربي، بيروت الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ .
- ١٢٣- خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، لسيد قطب، دار الشروق، الطبعة السابعة، سنة ١٤٠٢هـ .
- ١٢٤- خصائص الشريعة الإسلامية، عمر الأشقر، مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الأولى، ١٩٨٢م .
- ١٢٥- دراسات قرآنية، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .
- ١٢٦- دره تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، تحقيق د. محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .
- ١٢٧- دع القلق وابدأ الحياة، ديل كارينجي، تعريب عبد المنعم محمد الزيادي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٠م .
- ١٢٨- ديوان الإمام الشافعي، جمعه وعلق عليه: محمد عفيف الزغبى، دار المطبوعات الحديثة، الطبعة الخامسة .
- ١٢٩- ديوان الإمام علي، جمعه وطبعه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ١٣٠- ديوان ليبد بن ربيعة العامري، دار صادر، بيروت .



- ١٣١- رسائل العقيدة، للشيخ محمد بن صالح العثيمين، دار طيبة، الرياض،  
الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ .
- ١٣٢- رسائل وفتاوى في ذم ابن عربي الصوفي، جمع وتحقيق د . موسى بن  
سليمان الدويش، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ .
- ١٣٣- رفع الخرج في الشريعة الإسلامية، د . محمد صالح عبد الله بن حميد، دار  
الاستقامة، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ .
- ١٣٤- روائع البيان تفسير آيات الأحكام لمحمد علي الصابوني، دار القلم، الطبعة  
الأولى، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م .
- ١٣٥- روح الدين الإسلامي، عفيف عبد الفتاح طيارة، دار العلم للملايين،  
بيروت، الطبعة الثالثة والعشرون، ١٩٨٢م .
- ١٣٦- زاد الداعية إلى الله، محمد بن صالح العثيمين، مطابع المدينة، الرياض  
بالسعودية .
- ١٣٧- زاد المسير في علوم التفسير، للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن  
محمد الجوزي، المكتب الإسلامي .
- ١٣٨- زاد المعاد في هدي خير العباد، للإمام ابن القيم، تحقيق شعيب وعبد القادر  
الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ .
- ١٣٩- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، ناصر الدين  
الألباني، المكتب الإسلامي، الطبعة الخامسة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
- ١٤٠- سنن أبي داود سليمان بن الأشعث، تحقيق عزت عبيد الدعاس، حمص،  
الناشر محمد السيد .
- ١٤١- سنن الترمذي، لأبي عيسى الترمذي، تحقيق أحمد شاكرا، مطبعة مصطفى  
أخلي، القاهرة .
- ١٤٢- سنن الدارمي، دار الدعوة، تركيا. ١٤٠١هـ .

- ١٤٣- سير أعلام النبلاء، الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة الطبعة الثانية، ٢-١٤٠هـ/١٩٨٢م .
- ١٤٤- سيد قطب الشهيد الحلي، صلاح الخالدي، مكتبة الأقصى، عمان الطبعة الأولى، ١٩٨١م .
- ١٤٥- السيرة النبوية، ابن هشام أبو محمد عبد الملك بن هشام، تحقيق مصطفى السقا ورملة، الطبعة الثانية، ١٣٧٥هـ .
- ١٤٦- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي، تحقيق د . أحمد بن سعد حمدان الغامدي، دار طيبة، الرياض السعودية .
- ١٤٧- شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي، دار الأفاق الجديدة، بيروت .
- ١٤٨- شرح السنة لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .
- ١٤٩- شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار بن أحمد، تحقيق د . عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة، مطبعة الاستقلال الكبرى، الطبعة الأولى، ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م، القاهرة .
- ١٥٠- شرح العقيدة الطحاوية، لمحمد بن محمد بن أبي العز الحنفي، المكتب الإسلامي، بيروت الطبعة الرابعة، ١٣٩١هـ .
- ١٥١- شرح المعلقات السبع، للقاضي حسين بن أحمد بن الزوزني، تحقيق يوسف علي بدوي، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م .
- ١٥٢- شرح العقائد السبع الطوال، لأبي بكر محمد بن القاسم الأبياري، تحقيق: عبد السلام هارون، دار المعارف، الطبعة الثانية ١٩٦٩م، مصر .
- ١٥٣- شرح العقيدة النونية، لابن القيم، لمحمد خليل هراس، الفاروق الحديثة للطباعة .

- ١٥٤- شيخ الإسلام أحمد تقي الدين ابن تيمية جهاده، دعونه، وعقيدته، تأليف الشيخ أحمد القطان، ومحمد النزين مراجعة سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله، مكتبة الندى، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ .
- ١٥٥- صحيح البخاري، محمد إسماعيل البخاري، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ / ١٩٩١م .
- ١٥٦- صفة الصفوة لابن الجوزي، تحقيق محمود خوري، ومحمد رواسي قلعجي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ .
- ١٥٧- صحيح مسلم بشرح النووي، المطبعة المصرية، بالازهر، الطبعة الأولى، ١٣٤٧هـ / ١٩٢٩م .
- ١٥٨- طبقات الشافعية الكبرى للسبكي تاج الدين عبد الوهاب بن علي، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية .
- ١٥٩- طبقات المتسرين للحافظ شمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداودوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .
- ١٦٠- ظاهرة الغلو في الدين في العصر الحديث، لمحمد عبد الحكيم حسامد، دار المنار الحديثة، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ / ١٩٩١م .
- ١٦١- عبد الحميد بن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي، تأليف مازن صلاح مطبقاني، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م .
- ١٦٢- عشرون حديثاً من صحيح مسلم دراسة أسانيد وشرح متونها بقلم عبد المحسن العباد المدرس بجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ١٤٠٩هـ ، الطبعة الأولى .
- ١٦٣- علو الله على خلقه، تأليف د. موسى بن سليمان الدويش، مكتبة العلوم والحكم، بالمدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م .
- ١٦٤- النصيحة في صفات الرب جل وعلا وتتضمن عقيدة الإمام عبد الله يوسف الجويني للعلامة أحمد بن إبراهيم الواسطي الشافعي الصوفي، المعروف بابن شيخ الحراميين، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

- ١٦٥- عون العبود شرح سنن أبي داود لأبي محمد شمس الحق العظيم آبادي، دار الفكر، الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .
- ١٦٦- فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني ، تصحيح وتعقيب عبد العزيز بن باز، دار الفكر، ١٤١١هـ، ١٩٩٠م .
- ١٦٧- فتح القدير، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار الخیر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م .
- ١٦٨- فتوح البلدان للإمام أبي العباس أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، مؤسسة المعارف ، بيروت، طبعة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م .
- ١٦٩- قصة الاضطهاد انديني في المسيحية والإسلام، د. توفيق الطويل، طبعة دار الثقافة ، الإسكندرية، ١٣٦٦هـ ١٩٤٧م .
- ١٧٠- قواعد التحديث محمد جمال الدين الفاسمي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م .
- ١٧١- لسان العرب لابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، دار صادر، بيروت.
- ١٧٢- لسان الميزان، لابن حجر العسقلاني، مؤسسة الأعلمي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٠هـ .
- ١٧٣- لوامع الأنوار البهية، لسفاري، طبعة دولة قطر، الطبعة الأولى .
- ١٧٤- ماذا يحسر العالم بانحطاط المسلمين؟ لأبي الحسن علي بن الحسين الندوي، دار المعارف، الطبعة السابعة، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .
- ١٧٥- مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى التميمي، تحقيق د. محمد فؤاد سزكين، دار الفكر، الطبعة الثانية، ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م .
- ١٧٦- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، ١٩٦٧م، بيروت .
- ١٧٧- مجموع الرسائل الكبرى، لآحمد عبد الحلیم ابن تيمية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان .

- ١٧٨- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية جمع عبد الرحمن بن قاسم، الطبعة الأولى، السعودية .
- ١٧٩- مجلة البحوث الإسلامية الرثاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، السعودية، عدد ٣٤، عام ١٤١٣هـ .
- ١٨٠- مجلة المسلمون، عدد ١١ تاريخ ١٣ ربيع الأول ١٤٠٢هـ / ١٨ / ١ / ١٩٨٢م .
- ١٨١- محاضرات في النصرانية، أبو زهرة محمد، دار الفكر العربي، القاهرة، طبعة غفل .
- ١٨٢- مشكاة المصابيح، للنخيطب التبريزي، المكتب الإسلامي، دمشق الطبعة الأولى، ١٣٨١هـ، ١٩٦١م .
- ١٨٣- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن قيم الجوزية، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٣٩٢هـ .
- ١٨٤- معجم البلدان للشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة سنة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .
- ١٨٥- معجم الأدباء، لياقوت الحموي، إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .
- ١٨٦- معجم مقاييس اللغة لابن فارس أبي الحسين بن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية، إيران .
- ١٨٧- مفتاح دار السعادة، لابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت .
- ١٨٨- مقاصد المكلفين لعمر الأشقر، مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ .
- ١٨٩- منهاج السنة النبوية لابن تيمية، تحقيق د. محمد رشاد سالم، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ .
- ١٩٠- منهاج المسلم لابي بكر الجزائري، دار الشروق، جدة، الطبعة التاسعة ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .

- ١٩١- منهج البحث العلمي عند العرب، لجلال محمد عبد الحميد موسى، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى، ١٩٧٢م، بيروت .
- ١٩٢- منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، دار الشروق، الطبعة السابعة، ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م .
- ١٩٣- ميزان الاعتدال ، للإمام الذهبي، تحقيق علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت .
- ١٩٤- هداية الحيارى لابن القيم، محمد أبو بكر، الطبعة انطبوعة ضمن الجامع الفريد، بدون تاريخ، توزيع الرئاسة العامة لإدارات البحوث العامة والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض ، المملكة العربية السعودية .
- ١٩٥- هذه هي الصوفية، تأليف عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٨٤م .
- ١٩٦- وسطية الإسلام وأمنه في ضوء الفقه الحضاري، لعمر بهاء الدين الأميري، الدوحة، قطر، ١٩٠٦م .
- ١٩٧- وسطية أهل السنة بين الفرق، د. محمد باكريم محمد با عبيد الله، دار الراجية، الرياض ، السعودية، الطبعة الأولى ، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م .
- ١٩٨- وفيات الاعيان وأنباء الزمان لابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد، تحقيق، إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
- ١٩٩- يقظة أولي الاعتبار مما ورد في ذكر الجنة والنار، لصديق حسن خان.

## ●● الفهرس ●●

الصفحة

الموضوع

### الجزء الأول

#### ملايح الوسطية في القرآن الكريم

#### الباب الأول

##### تعريف الوسطية في اللغة والاصطلاح وأسماء

- \* الفصل الأول: الوسطية في اللغة والاصطلاح وأسسها ..... ١٣
- \* المبحث الأول: معنى الوسطية في اللغة ..... ١٣
- \* المبحث الثاني: في استعمال الشارع ..... ١٧
- \* المبحث الثالث: تحرير معنى الوسطية ..... ٣٣
- \* الفصل الثاني: أسس الوسطية ..... ٣٩
- \* المبحث الأول: الغلو والإفراط ..... ٤٢
- \* المبحث الثاني: التفريط والجفا ..... ٥٢
- \* المبحث الثالث: الصراط المستقيم ..... ٥٨
- \* المبحث الرابع: الصلة بين الوسطية والصراط المستقيم ..... ٦٣

#### الباب الثاني

##### ملايح الوسطية

- \* الفصل الأول: الخيرية ..... ٦٨
- \* المبحث الأول: أقوال المفسرين في آية الخيرية ..... ٦٨

- \* المبحث الثاني: أبرز أوجه خيرية هذه الأمة..... ٧١
- \* الفصل الثاني: العدل..... ٩١
- \* المبحث الأول: أقوال المفسرين في «أمة وسط»..... ٩١
- \* المبحث الثاني: وجوب العدل على هذه الأمة..... ٩٢
- \* المبحث الثالث: اعتراف أعداء هذه الأمة بعدالتها..... ١٠١
- \* المبحث الرابع: العدل عند أهل الكتاب..... ١٠٥
- \* الفصل الثالث: اليسر ورفع الحرج..... ١١٩
- \* المبحث الأول: تعريف اليسر والتوسع في اللغة والاصطلاح..... ١٢٠
- \* المبحث الثاني: رفع الحرج..... ١٢١
- \* المبحث الثالث: أدلة التبشير ورفع الحرج..... ١٢٣
- \* الفصل الرابع: الحكمة..... ١٣٥
- \* المبحث الأول: الحكمة في اللغة والاصطلاح..... ١٣٥
- \* المبحث الثاني: العلاقة بين التعريف اللغوي والشرعي..... ١٣٩
- \* المبحث الثالث: أنواع الحكمة..... ١٤٢
- \* المبحث الرابع: أركان الحكمة..... ١٤٥
- \* الفصل الخامس: الاستقامة..... ١٦٣
- \* المبحث الأول: أدلة القرآن..... ١٦٤
- \* المبحث الثاني: أدلة السنة..... ١٦٥
- \* المبحث الثالث: أقوال العلماء في الاستقامة..... ١٦٦
- \* الفصل السادس: البيئية..... ١٦٩
- \* المبحث الأول: أقوال العلماء في البيئية..... ١٧٠
- \* المبحث الثاني: دليل تطبيقي لملامح الوسطية..... ١٧٤



- \* خلاصة الجزء الأول ..... ١٧٧

## الجزء الثاني

### وسطية القرآن الكريم في العقائد

- \* الفصل الأول: القوان يقدم منهج الوسطية ..... ١٨٣
- \* المبحث الأول: التعريف بالقرآن ..... ١٨٤
- \* المبحث الثاني: وسطية القرآن في العقيدة ..... ١٩٠
- \* الفصل الثاني: وسطية القوان في باب توحيد الله وأسمائه ..... ٢٠٣
- \* المبحث الأول: موقف أمة اليهود ..... ٢٠٥
- \* المبحث الثاني: موقف النصارى ..... ٢١٠
- \* المبحث الثالث: موقف المسلمين ..... ٢١٦
- \* المبحث الرابع: مفهوم الإيمان كما جاء في القرآن ..... ٢١٩
- \* الفصل الثالث: الملائكة ..... ٢٥٣
- \* المبحث الأول: صفات الملائكة الخلقية ..... ٢٥٦
- \* المبحث الثاني: علاقتهم مع الله والإنسان والكون وعددهم ..... ٢٥٨
- \* الفصل الرابع: الكتب السماوية ..... ٢٦٥
- \* المبحث الأول: تحريف اليهود وتزويرهم ..... ٢٦٥
- \* المبحث الثاني: تحريف النصارى للإنجيل ..... ٢٧١
- \* المبحث الثالث: وسطية القرآن بين الكتب السماوية ..... ٢٧٥
- \* الفصل الخامس: وسطية القوان في أنبياء الله ورسله ..... ٢٧٧
- \* المبحث الأول: موقف اليهود من أنبياء الله ورسله ..... ٢٧٩
- \* المبحث الثاني: موقف النصارى ..... ٢٨٦

- \* المبحث الثالث: موقف المسلمين من أنبياء الله ورسوله. . . . . ٢٨٩
- \* الفصل السادس: وسطية القرآن في اليوم الآخر. . . . . ٢٩٥
- \* المبحث الأول: أنواع المكذبين بالبعث. . . . . ٢٩٥
- \* المبحث الثاني: نظرة في نصوص اليوم الآخر عند أهل الكتاب. . . . . ٢٩٨
- \* المبحث الثالث: أدلة البعث والنشور. . . . . ٣٠٠
- \* المبحث الرابع: طعام أهل النار وشرابهم ولباسهم. . . . . ٣١١
- \* المبحث الخامس: صور من عذاب أهل النار. . . . . ٣١٤
- \* المبحث السادس: صفة الجنة. . . . . ٣٢٢
- \* الفصل السابع: وسطية القرآن في القضاء والقدر. . . . . ٣٣٧
- \* المبحث الأول: تعريف القضاء والقدر، العلاقة بينهما. . . . . ٣٣٩
- \* المبحث الثاني: الإفراط والتفريط في باب القدر. . . . . ٣٤١
- \* المبحث الثالث: ظهور بدعتي نفي القدر والمقول بالجبر. . . . . ٣٤٦
- \* المبحث الرابع: مجمل اعتقاد أهل السنة والجماعة في باب القدر. . . . . ٣٤٩
- \* المبحث الخامس: الأدلة من الكتاب والسنة في باب القدر. . . . . ٣٥١
- \* المبحث السادس: مراتب القدر وأركانها. . . . . ٣٥٣
- \* المبحث السابع: وسطية أهل السنة في مسألة أفعال العباد. . . . . ٣٥٧
- \* المبحث الثامن: وسطية أهل السنة في معنى إرادة الله ومشيته. . . . . ٣٦٠
- \* المبحث التاسع: أقسام التقدير التي جاءت في القرآن الكريم  
والسنة. . . . . ٣٦٢
- \* المبحث العاشر: ثمرات الإيمان بالقدر. . . . . ٣٦٤
- \* خلاصة الجزء الثاني. . . . . ٣٧٢

## الجزء الثالث

## وسطية القرآن في العبادة والأخلاق والتشريع

- \* الفصل الأول: وسطية القرآن في العبادة ..... ٣٧٧
- \* المبحث الأول: معنى العبادة في اللغة والنشرع ..... ٣٧٩
- \* المبحث الثاني: التفريط والإفراط في العبادة ..... ٣٨١
- \* المبحث الثالث: الغلو في العصر النبوي ..... ٣٨٣
- \* المبحث الرابع: تقرير القرآن للوسطية في العبادة ..... ٣٨٩
- \* المبحث الخامس: حقيقة العبادة في القرآن والسنة ..... ٣٩٧
- \* المبحث السادس: شروط قبول العبادة في القرآن ..... ٤٠٢
- \* المبحث السابع: أقسام العبودية في القرآن ..... ٤١٠
- \* المبحث الثامن: أهمية الجانب العبادي في حياة الإنسان ..... ٤١٣
- \* المبحث التاسع: التوجيهات القرآنية في مجال العبادة ..... ٤٢٠
- \* الفصل الثاني: وسطية القرآن في الأخلاق ..... ٤٣٧
- \* المبحث الأول: أثر العقيدة الفاسدة في انحراف الأخلاق ..... ٤٤١
- \* المبحث الثاني: القرآن والسنة مصدر الأخلاق ..... ٤٤٨
- \* المبحث الثالث: من وسطية القرآن الأخلاق الشمولية ..... ٤٥١
- \* المبحث الرابع: من وسطية القرآن الأخلاق الواقعية ..... ٤٥٤
- \* المبحث الخامس: علاقة الأخلاق بالعقيدة والعبادة ..... ٤٥٨
- \* المبحث السادس: علاقة الأخلاق بالقصص القرآني ..... ٤٧٣
- \* المبحث السابع: خلق النبي ﷺ القدوة المثلى ..... ٤٧٦
- \* المبحث الثامن: نظرة العلامة ابن القيم إلى حسن الخلق ..... ٤٨٠
- \* المبحث التاسع: أخلاق جميلة ..... ٤٨٣

- \* المبحث العاشر: أخلاق ذميمة ..... ٤٩٥
- \* الفصل الثالث: وسطية القرآن في التشريع ..... ٥٠٣
- \* المبحث الأول: معنى الشرع في اللغة والاصطلاح ..... ٥٠٣
- \* المبحث الثاني: الأدلة في التشريع والتكليف ..... ٥٠٥
- \* المبحث الثالث: وسطية القرآن في تعدد الزوجات ..... ٥١٢
- \* المبحث الرابع: وسطية القرآن في الطلاق ..... ٥٢٦
- \* المبحث الخامس: وسطية القرآن في العدة ..... ٥٤٢
- \* المبحث السادس: وسطية القرآن في المواريث ..... ٥٤٤
- \* المبحث السابع: وسطية القرآن في اليمين وكفارته ..... ٥٥٤
- \* المبحث الثامن: وسطية القرآن في حل طعام أهل الكتاب ونسائهم ..... ٥٥٦
- \* المبحث التاسع: من وسطية القرآن مراعاة سنة التدرج ..... ٥٥٨
- \* الخلاصة ..... ٥٦٣
- \* فهرس المصادر والمراجع ..... ٥٦٦
- \* الفهرس ..... ٥٨٣

قامت بالجمع التصويري

والإخراج الفني لهذا الكتاب

**دار التابعين للنشر والتوزيع**

٢٥ من أحمد عصمت بعين شمس - برج التوحيد - الدور الأول

ت: ٤٩٣٨١٤٤ - فاكس: ٤٩٣٤٣٢٥